

رسالة دكتوراه

التَّهَجُّجُ الْأَسْمِيُّ

في شرح

الرسالة في اللغة الحسنية

تأليف

د. محمد الحوق المحمدي

طبعة حديثة منقحة وحديثة

مكتبة الأستاذ الدكتور

المعتمد

البراق للدراسات

الرياض

النهج الأسمر

في سر

أسرار الله الحكيم

جميع حقوق الطبع محفوظة

مكتبة الإمام الذهبي

الطبعة التاسعة

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م



مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

* الفرع الرئيسي : حولي - شارع المثنى - مجمع البدر

ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤

* فرع المصاحف : حولي - مجمع البدر ت ٢٢٦١٥٠٤٦

* فرع الفحجيل : البرج الأخضر - شارع الدبوس ت ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧

* فرع الجهراء : الناصر مول - ت ٩٥٥٥٨٦٠٨

* فرع الرياض : المملكة العربية السعودية - التراث الذهبي: ٥٥٧٧٦٥١٣٨ - ٠٠٩٦٦

ص.ب: ١٠٧٥ - الرمز البريدي ٣٢٠١١ الكويت

الساخن: ت: ٩٤٤٠٥٥٥٩ ٠٠٩٦٥

E-mail: z.zahby74@yahoo.com

imamzahby

رسالة وكتابه

التَّهْجُ الْأَسْمَى

فِي شَرْحِ

أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى

تَأَلَّفَ

بِمَحَرَّرِ الْحَمْدِ الْبُخَّارِيِّ

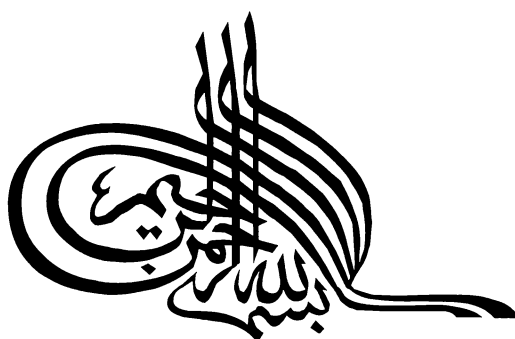
طَبْعَةُ حَبْرِيَّة مُنْقَحَةٍ وَمَزِيدَةٍ

مَكْتَبَةُ الْأَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ

الكويت

إِلْتِمَادُ الْإِسْلَامِيِّ

الرياض



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إِنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [٧٠] يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]

أما بعد؛ فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إن الله جل ذكره شرف أهل العلم الشرعي على غيرهم، فقال عز من قائل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]
وبين أنه يرفعهم درجات، فقال سبحانه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وأمر رسوله ﷺ بأن يسأله الزيادة في العلم؛ لأنه زيادة في درجاته، قال سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وأشد الناس خشية لله ﷻ هم العلماء، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولا ريب أن الله لا يعني في هذه الآية علماء الدنيا^(١)؛ كالحساب والهندسة

(١) وقد وصف الله أهل الكفر والشرك والضلال بالجهل وإن كانوا على علم دنيوي رفيع فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةً﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال في غير ما آية: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فوصف أكثر أهل الأرض بالجهل على ما كانوا عليه من عمارة =

والطب والصناعة والزراعة وغيرها، فإن أكثر هؤلاء لا يؤمن بالله فضلاً عن أن يخافه ويتقيه^(١).

وإنما المراد هم أهل العلم الشرعي، العلم الذي جاءت به الرسل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، العلم الذي حواه كتاب الله العزيز.

وأشرف العلوم الشرعية هو العلم بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى لتعلقها بأشرف معلوم وهو الله ﷻ.

والقرآن الكريم لا تكاد تخلو آية من آياته من صفة لله سبحانه أو اسم من أسمائه الحسنى.

قال شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رحمه الله تعالى: والقرآن فيه من ذكر أسماء الله وصفاته وأفعاله، أكثر مما فيه من ذكر الأكل والشرب والنكاح في الجنة، والآيات المتضمنة لذكر أسماء الله وصفاته، أعظم قدراً من آيات المعاد، فأعظم آية في القرآن آية الكرسي المتضمنة لذلك، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن النبي ﷺ أنه قال لأبي بن كعب: «أندري أي آية في كتاب الله أعظم؟»، قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فضرب بيده في صدره، وقال: «ليهنك العلم أبا المنذر»^(٢).

وأفضل سورة سورة أم القرآن، كما ثبت ذلك في حديث أبي سعيد بن المعلى في الصحيح، قال له النبي ﷺ: «إنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(٣).

= للدنيا ومهارة في الصناعة والزراعة... إلخ.

(١) وأما المسلم الذي يتعلم من العلوم الدنيوية علماً يقوي به من أمر أمته على أعدائها، أو هي في حاجة إليه لتقوية نفسها عسكرياً فهو مأجور لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وكذا من تعلم صنعة يأكل منها ويكف بها وجهه عن الناس.

(٢) رواه مسلم (٥٥٦/١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٧٤، ٤٦٤٧، ٥٠٠٦) وليس فيه قوله: «إنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن»، وإنما وقع هذا في رواية أخرى ولصحابي آخر هو أبي بن كعب أخرجه الترمذي (٣٠٣٦) من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله خرج على أبي.. وقال: حسن صحيح، وأحمد (٣٥٧/٢، ٤١٣)، (٥/١١٤)، والنسائي (١٣٩/٢)، وصححه ابن خزيمة (٥٠٠، ٥٠١)، والحاكم (٢/٢٥٧)، (٢٥٨) وقال: حديث صحيح، على شرط مسلم وإسناده صحيح، وأخرجه الدارمي (٤٤٦/٢) من الطريق السابق ولم يذكر أياً.

وفيهما من ذكر أسماء الله وصفاته أعظم مما فيها من ذكر المعاد. وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ من غير وجه أن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] تعدل ثلث القرآن^(١).

وثبت في الصحيح أنه بشر الذي كان يقرأها ويقول: إني لأحبها لأنها صفة الرحمن بأن الله يحبه^(٢)؛ فبين أن الله يحب من يحب ذكر صفاته ﷺ، وهذا باب واسع. اهـ^(٣).

والعلم بأسماء الله - جل ثناؤه - وصفاته ومعرفة معانيها يحدث خشية ورهبة في قلب العبد، فمن عرف أن الله بكل شيء عليم، وأنه لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد، ويؤمن بذلك، أشد خوفاً ممن لا يعلم ذلك، ومن يعلم أن الله لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير أتقى الله ممن لا يعلم، وهكذا في سائر الأسماء والصفات، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله في الآية: إنما يخاف الله فيتقي عقابه بطاعته العلماء بقدرته على ما يشاء من شيء وأنه يفعل ما يريد؛ لأن من علم ذلك وأيقن بعقابه على معصيته فخافه ورهبه خشية منه أن يعاقبه. اهـ كلامه^(٤).

١ - فالعلم بالله سبحانه إذا يدعو إلى محبته وخشيته ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه، وفي هذا فوز العبد وسعادته في الدارين..

ولا يمكن معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلى وفهم معانيها. ٢ - والعلم بالله تعالى هو أحد أركان الإيمان بل هو أصلها، وما بعدها تبع لها. وليس الإيمان مجرد قول القائل: (آمنت بالله) من غير علم بالله! بل إن حقيقة الإيمان أن يعرف الرب الذي يؤمن به، بل ويجب عليه أن يبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب علم العبد بربه تكون درجة إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه، والطريق الشرعي للعلم بالله وأسمائه وصفاته هو تدبر القرآن والسنة وفهم ما جاء فيهما.

٣ - ثم إن الله تعالى خلق الخلق ليعبدوه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٣)، ٦٦٤٣، (٧٣٧٤) عن أبي سعيد الخدري، ومسلم (٨١١) عن أبي الدرداء، وبرقم (٨١٢) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣) عن عائشة.

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» (٣١٠/٥ - ٣١٢).

(٤) «جامع البيان في تفسير القرآن» (٨٧/٢٢).

لِيعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]. ولا يمكن أن يعبدوه دون أن يعرفوه، فلا بد من معرفتهم له سبحانه ليُحقّقوا الغاية المطلوبة منهم والحكمة من خلقهم.

والاشتغال بمعرفة سبحانه اشتغال العبد بما خلق له، وتركه وتضييعه إهمالاً لما خلق له، وقبيحٌ بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم متوالٍ من كلّ وجه، أن يكون جاهلاً بربه معرضاً عن معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته.

٤ - والعالم بالله تعالى حقيقة يستدلُّ بما علِمَ من صفاته وأفعاله على ما يفعله وعلى ما يشرّعه من الأحكام؛ لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة؛ كذلك لا يشرّع ما يشرّعه من الأحكام إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله، فأخباره كلها حقٌّ وصدق، وأوامره ونواهيه عدلٌ وحكمة، وهذا العلم أعظم وأشهر من أن يُنبّه عليه لوضوحه.

وكيف يصحّ في الأذهان شيءٌ إذا احتاج النهار إلى دليل^(١)
وقال أبو القاسم التيمي الأصبهاني في بيان أهمية معرفة الأسماء الحسنى: قال بعض العلماء: أولُ فرض فرضه الله على خلقه معرفته، فإذا عرّفه الناس عبده، قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

فينبغي للمسلمين أن يعرفوا أسماء الله وتفسيرها، فيعظموا الله حقَّ عظمته.
قال: ولو أراد رجلٌ أن يتزوج إلى رجل، أو يُزوّجه أو يُعامله طلب أن يعرف اسمه وكنيته، واسم أبيه وجده، وسأل عن صغير أمره وكبيره، فالله الذي خلقنا ورزقنا ونحن نرجو رحمته ونخاف من سخطته أولى أن نعرف أسمائه، ونعرف تفسيرها. اهـ^(٢).

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (١/ ١٠) بتصرف.

(٢) «الحجة في المحجة» (ق ١١٣أ).

وأبو القاسم هو: الإمام العلامة الحافظ شيخ الإسلام إسماعيل بن محمد بن الفضل القرشي التيمي ثم الطلحي الأصبهاني الملقب بـ«قوام السنّة».

مولده سنة (٤٥٧هـ) سمع أبا عمرو عبد الوهاب بن أبي عبد الله بن منده وخلقاً، وحدث عنه: أبو سعد السمعاني وأبو طاهر السلفي وأبو القاسم بن عساكر وأبو موسى المدني وغيرهم.

قال السمعاني: أبو القاسم هو أستاذي في الحديث وعنه أخذت هذا القدر، وهو إمام في التفسير والحديث واللغة والأدب، عارفٌ بالمتون والأسانيد، كنت إذا سألته عن المشكلات أجاب في الحال. مات سنة (٥٣٥هـ).

من كتبه: «الترغيب والترهيب»، و«الحجة في المحجة» ويسمى بـ«السنّة»، و«دلائل النبوة»، =

فهذا كلّه كان دافعاً لي أن أكتب بحثاً ميسراً في الأسماء الحسنى يبحث في معانيها اللغوية وفي حق ربنا تبارك وتعالى، متحرّياً في ذلك المنهج الذي سار عليه أئمة أهل السنّة والجماعة، منهج الفرقة الناجية، متوخّياً البساطة في الطرح، وأن أشارك بجهدي المتواضع من سبقني في الكتابة في هذا الموضوع المهم.



= له في التفسير أربعة كتب، و«سير السلف» مجلد ضخّم، و«المغازي» مجلد وغيرها. انظر ترجمته: «الأنساب» (٣/٣٦٨، ٣٦٩)، «البداية والنهاية» (١٢/٢١٧)، «سير أعلام النبلاء» (٨٨ - ٨٠/٢٠).

المصنّفات في الأسماء الحسنى

- أفرد بعض الأئمة السابقين الأسماء الحسنى بمصنّفات خاصة، نذكر أشهرها:
- ١ - «تفسير أسماء الله الحسنى» لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، طبع بتحقيق أحمد الدقاق، دار المأمون للتراث.
 - ٢ - «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري^(١).
 - ٣ - «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، مطبوع بمصر.
 - ٤ - «الأمّد الأفضى» لأبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي^(٢).
 - ٥ - «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي صاحب التفسير^(٣).
 - ٦ - كتاب «الأسماء والصفات» لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي النيسابوري، مطبوع ببيروت.
 - ٧ - «شرح أسماء الله الحسنى» وهو الكتاب المسمى: «لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات» لفخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي، مطبوع بمصر.
 - ٨ - «التحبير في الأسماء الحسنى» لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي^(٤).
 - ٩ - «شرح أسماء الله الحسنى» للإمام المحقق شمس الدين محمد بن أبي بكر المشهور بابن قيم الجوزية^(٥).
 - ١٠ - «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري المعروف بالديرنى^(٦).

(١) مخطوط في (٧٧ ورقة)، (شسترتي - ٣٦١٣) وعندي صورة عنها.

(٢) مخطوط.

(٣) مخطوط يوجد منه الجزء الثاني والثالث، وعندي صورة عنها.

(٤) ذكره ابن كثير في تاريخه (١١٤/١٢).

(٥) ذكره ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» (٤٥٠/٢)، والداودي (٩٦/٢)، ولم يشر إلى وجوده مخطوطاً أحد ممن ترجم لابن القيم رحمته الله.

(٦) مخطوط ومؤلفه من المتصوفة.

١١ - «أعلام الحسنی بمعاني الأسماء الحسنی» لجلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن الكمال الحضيري السيوطي .
وله أيضاً «أقوال العلماء في الاسم الأعظم»، و«الدر المنظم في الاسم الأعظم»^(١).

منهج الكتاب:

وقد قسّمت الكتاب إلى قسمين:
القسم الأول: الأسماء الواردة في القرآن العظيم.
القسم الثاني: الأسماء الواردة في السنّة المطهرة الثابتة.
وقد سرت في القسم الأول على النحو التالي:

أولاً: ذكر المعنى اللغوي للاسم:
وذلك بالرجوع إلى معاجم اللغة العربية المعتمدة؛ ك«لسان العرب» لابن منظور، و«النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير، و«غريب الحديث» لأبي عبيد القاسم بن سلام، و«المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني.
بالإضافة إلى كتب شروح الأسماء الحسنی - وسيأتي ذكرها -، فإنها تصدر لبيان المعنى اللغوي أيضاً.

ثانياً: بيان ورود الاسم في القرآن الكريم:
وأذكر فيه عدد الآيات التي ورد فيها ذكر الاسم، واضعاً بعضها أمام القارئ كأمثلة، مع مراعاة تنويع الآيات لبيان اقتران الاسم بغيره من الأسماء الحسنی الأخرى، وتعدد سياق الآيات.

ثالثاً: بحث معنى الاسم في حق الله تعالى:
وذلك عن طريق:

أ - الاطلاع على تفسير الآيات التي ذُكرت الأسماء الحسنی فيها، في كتب التفاسير المختلفة، مثل:

- ١ - «جامع البيان في تفسير القرآن» لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري.
- ٢ - «الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي.
- ٣ - «تفسير القرآن العظيم» لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.

(١) مخطوطة كلها.

- ٤ - «فتح القدير» لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني.
- ٥ - «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي.
- ٦ - «أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن» لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي.
- ٧ - «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» لعبد الرحمن بن ناصر السعدي.
- ٨ - «التفسير الكبير» لفخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي.
- ٩ - «تفسير النسفي» لعبد الله بن أحمد بن محمود النسفي.
- ١٠ - «الكشاف» لمحمود بن عمر الزمخشري^(١).

ب - الرجوع إلى الكتب التي شرحت الأسماء الحسنى، مثل:

- ١ - «تفسير أسماء الله الحسنى» لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج.
- ٢ - «شأن الدعاء» لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي الحافظ.
- ٣ - «المنهاج في شعب الإيمان» لأبي عبد الله الحسين بن محمد الحلبي.
- ٤ - «شرح أسماء الله الحسنى» لفخر الدين محمد بن عمر الرازي.
- ٥ - «الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد» للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي.

(١) قال ابن خلدون: «ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير؛ يعني: معرفة اللغة والإعراب والبلاغة كتاب «الكشاف» للزمخشري من أهل خوارزم العراق إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة، حيث تعرض له في أي القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكانه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية، محسناً للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون غوائله فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان، ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين، وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريث من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشري وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها، ويبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما يشاء مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٧٦]. اهـ. من مقدمته (ص ٣٤٩).

لذلك لا يجوز لمن لم يدرس العقيدة السلفية الصحيحة أن يقرأ في هذا الكتاب وأمثاله، خشية أن يعتقد ما جاء فيه من الباطل الذي قد لا يتنبه له.

وكذا يجب الحذر من بعض التفاسير التي يقع فيها التأويل لبعض الأسماء والصفات، أو تذكر فيها أقاويل أهل التأويل دون ردها وبيان وجه الصواب؛ كتفسير القرطبي، والنسفي، والرازي، والشوكاني، والألوسي.

٦ - كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي أيضاً.

ج - الرجوع إلى كتب اللغة المذكورة آنفاً، لاحتوائها على شروح للأسماء الحسنى.

د - الاستعانة ببعض الكتب التي يقع فيها شروح لبعض الأسماء، مثل:

١ - «العقيدة الطحاوية» لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، وشرحها لابن أبي العز الحنفي.

٢ - «مدارج السالكين» لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.

٣ - «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.

٤ - «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب.

وأختار من ذلك كله من العبارات أسهلها وأقربها للفهم، وأتجنب التكرار قدر المستطاع.

رابعاً: بيان آثار الإيمان بالأسماء الحسنى:

وهو أصعب ما في هذا البحث؛ لأنه يتطلب تتبع الاسم في الآيات الكثيرة، والنظر فيها، والتدبر لمعانيها، والربط بين الخبر الذي يتحدث عنه الآية أو الموعظة والتذكير، وبين الاسم الذي ختمت به الآية أو ذكر في أثنائها، لمعرفة أثر الإيمان به.

واستعنت في ذلك بتفاسير الأئمة من السلف رحمهم الله تعالى وجزاهم عنا خير الجزاء، فهم أتقى وأنقى، وأعلم وأفهم، وأقدر على الاستنباط من الآيات ومعرفة أسرارها.

وأين علمنا من علمهم، وجهدنا من جهدهم، هذا مع كثرة ذنوبنا وتقواهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُؤْمِلْكُمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ولا أدعي الإحاطة في بحثي هذا، فإن هذا لا يمكن ادعاءه هنا. وذلك أن إحصاء الأسماء الحسنى، ومعرفة معانيها ودلالاتها، وآثار الإيمان بها شيء عظيم جداً، بل هو أصل للعلم بكل المعلومات.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلوم سواء - أي سوى الله سبحانه - إما أن يكون خلقاً له تعالى

أو أمراً، إما علمٌ بما كونه أو علمٌ بما شرّعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنی وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنی، وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فأمره كله مصلحة وحكمة ورحمة ولطف وإحسان، إذ مصدره أسمائه الحسنی، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلاً ولا سدى ولا عبثاً.

وكما أن كل موجود سواء فيبيجاده، فوجود من سواء تابع لوجوده، تبع المفعول المخلوق لخالقه، فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواء. فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسمائه كما ينبغي للمخلوق، أحصى جميع العلوم، إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها^(١).

خامساً وأخيراً: تخريج الأحاديث التي ترد في البحث:

فإن كانت في الصحيحين أو في أحدهما فإنني أكتفي بالعزو إليهما، وإن كانت في خارج الصحيحين خرّجتها قدر المستطاع مع الكلام عليها حسب القواعد الحديثية. وأسأل الله العليّ القدير أن أكون قد وفّقت للصواب في كتابة هذا الجزء من الكتاب.

اللهم اجعل ما نخطه بأيدينا حجة لنا لا علينا يوم نلقاتك.
اللهم رجّح به ميزاننا في يوم لا وزن فيه للدينار والدرهم، وإنما هي الحسنات والسيئات، إنك سميع قريب مجيب.
وصلّ اللهم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

وكتبه

محمد بن حمد الحمود

الكويت - في يوم الثلاثاء

السابع من شهر ربيع الأول سنة ست وأربع

مائة وألف من الهجرة النبوية المشرفة^(٢)

(١) انظر كتابه القيم: «بدائع الفوائد» (١/١٦٣).

(٢) وتمّ إعادة النظر فيه وتنقيحه والزيادة عليه في سنة (١٤١٢هـ) ثم في هذه السنة (١٤١٧هـ).

مذهب أهل السنّة والجماعة

في الأسماء الحسنی

مذهب أهل السنّة والجماعة في الأسماء الحسنی هو مذهبهم في الصفات عموماً، وذلك أن أسماء الله ﷻ دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنی.

والذي درج عليه سلف الأمة ومن تابعهم بإحسان واتفقوا عليه هو: الإقرار والتصديق لآيات الأسماء والصفات وأحاديثها، وإمرارها كما جاءت وإثباتها، دون تشبيه أو تعطيل أو تحريف أو تأويل.

وإليك بعض النقول عنهم التي تثبت ذلك:

١ - قال أحمد الدورقي: سمعت وكيعاً يقول: نسلم هذه الأحاديث كما جاءت ولا نقول: كيف كذا؟، ولا لم كذا؟؛ يعني: مثل حديث: «يحمل السموات على إصبع»، و«قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن»^(١).

٢ - عن يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول، وقد سئل عن صفات الله وما يؤمن به، فقال:

«لله تعالي أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه أمته، لا يسع أحداً من خلق الله قامت عليه الحجة ردها؛ لأن القرآن نزل بها وصح عن رسول الله ﷺ القول بها فيما روى عنه العدول.

فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر، أما قبل ثبوت الحجة عليه فمعدور بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالرؤية والفكر، ولا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها.

وتثبت هذه الصفات وينفي عنها التشبيه، كما نفى التشبيه عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. اهـ^(٢).

(١) إسناده صحيح. أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب «السنّة» (ص ٥٥): حدثني أحمد بن إبراهيم، وهو ابن كثير الدورقي، وهو ثقة حافظ عن وكيع به.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم «آداب الشافعي» عن يونس بن عبد الأعلى به وإسناده صحيح. كما في =

٣ - وقال في «الرسالة»: «ولا يبلغ الواصفون كنه عظمته الذي هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه»^(١).

٤ - وعن محمد بن إسماعيل الترمذي: «سمعت نعيم بن حماد يقول: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف به نفسه ولا رسوله تشبيهاً»^(٢). اهـ.

وقال الترمذي بعد روايته لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها يمينه فيرَبِّيها لأحدكم كما يربي أحدكم مُهرَه...» الحديث. وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث، وما يُشبه هذا من الروايات من الصفات، ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، قالوا: قد ثبتت الروايات^(٣) في هذا ويؤمن بها ولا يُتوهم ولا يقال: كيف؟.

هكذا روي عن مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك، أنهم قالوا في هذه الأحاديث: أمرؤها بلا «كيف»، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة^(٤).

وأما الجهمية فأنكرت هذه الروايات وقالوا: هذا تشبيه.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه اليد والسمع والبصر فتأولت الجهمية هذه الآيات وفسروها على غير ما فسر أهل العلم، وقالوا: إن الله لم يخلق آدم بيده، وقالوا: إنا معنى اليد القوة.

وقال إسحاق بن إبراهيم (هو ابن راهويه): إنما يكون التشبيه إذا قال: يدٌ كيدٍ أو مثلٌ يدٍ، أو سمعٌ كسمعٍ أو مثلٌ سمعٍ. فإذا قال: سمعٌ كسمعٍ أو مثلٌ سمعٍ فهذا تشبيه، وأما إذا قال كما قال الله: يدٌ وسمعٌ وبصرٌ ولا يقول: «كيف»، ولا يقول: مثلٌ سمعٍ ولا كسمعٍ، فهذا لا يكون تشبيهاً، وهو كما قال الله تبارك في كتابه:

= «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم (ص ٥٩)، وأورده الذهبي في «العلو للعلي الغفار» (ص ١٢١) الجملة الأولى منه فقط.

(١) «الرسالة» (ص ٦).

(٢) أخرجه الذهبي في «العلو للعلي الغفار» (ص ١٢٦)، وصححه ووافقه محقق الكتاب الشيخ محمد ناصر الدين الألباني «مختصر العلو» (ص ١٨٤).

(٣) تنبيه: وقع في الترمذي الطبعة المصورة عن طبعة المكتبة السلفية بالمدينة المنورة: «قد ثبتت الروايات في هذا...» والصحيح: «قد ثبتت الروايات»، وبين العبارتين فرق كبير كما هو ظاهر.

(٤) قولهم: (أمرؤها كما جاءت) ردٌ على المعطلة، وقوله: (بلا كيف) ردٌ على الممثلة.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. اهـ^(١).

وهذا ما ذهب إليه أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري الذي رجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة، وترك ما كان عليه من علم الكلام المبتدع المخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ^(٢).

قال رحمه الله في كتابه: «اختلاف المصلين ومقالات المسلمين» بعد أن ذكر فرق الخوارج والروافض والجهمية وغيرهم:

«ذكر مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث . . . جملة قولهم: الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسوله، بما جاء عن الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا يردّون من ذلك شيئاً.

وأن الله على عرشه كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وأن له يدين بلا «كيف»، كما قال: ﴿لَمَّا خَلَّطْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وأن أسماء الله لا يقال: إنها غير الله، كما قالت المعتزلة والخوارج. وأقرّوا أن الله علماً كما قال: ﴿أَنْزَلَهُ يَعْلَمُهُ﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ [فاطر: ١١].

وأثبتوا السمع والبصر، ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة . . .» إلى آخر كلامه في إثبات الصفات^(٣).

وهذه العقيدة هي التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، وهي التي تلقاها التابعون منهم، وتواصوا بها جيلاً بعد جيل، محذرين بعضهم البعض من مخالفتها والشطط عنها.

ودان بهذه العقيدة أئمة السلف الماضين من المحدثين والفقهاء والمفسرين واللغويين والمصنفين^(٤).

(١) الترمذي الزكاة (٦٥٩)، وحديث أبي هريرة مخرج في الصحيحين.

(٢) أقول: فيا ليت الذين يتسبون إليه اليوم يرجعون إلى الحق والصواب وترك التعصب لمذاهبهم الباطل كما تركه إمامهم ﷺ.

(٣) انظر: «مقالات الإسلاميين» من ص (٢٩٠).

(٤) قال الذهبي رحمه الله: «ولو ذكرنا قول كل من له كلام في إثبات الصفات من الأئمة لاتسع الخرق، وإذا كان المخالف لا يهتدي بمن ذكرنا أنه يقول: الإجماع على إثباتها من غير تأويلها، أو لا يصدق في نقله فلا هداه الله ولا خير والله فيمن رد على مثل الزهري ومكحول والأوزاعي والثوري والليث بن سعد ومالك وابن عيينة وابن المبارك ومحمد بن الحسن والشافعي والحميدي وأبي عبيد وأحمد بن حنبل وأبي عيسى الترمذي وابن سريج =

كيف لا، والله قد زكى اعتقاد نبيه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين بقوله
 جل ثناؤه: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
 فَسَبِّكُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صَبَغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ
 عَبِيدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ١٣٧، ١٣٨].

فمذهب أهل الحق - كما قلنا آنفاً - إثبات الأسماء الحسنی والواردة بالكتاب
 العزيز وبالسنة المطهرة والإيمان بها، وبما دلّت عليه من المعاني والإيمان بما
 تعلقت بها من الآثار.

فمثلاً نؤمن بأن الله سبحانه «رحيم» ومعناه: أنه ذو رحمة، ومن آثار هذا الاسم:
 أنه يرحم من يشاء.

مثال ثانٍ: نؤمن بأن الله «قدير»، ومعناه: أنه ذو قدرة، ومن آثار هذا الاسم: أنه
 على كل شيء قدير، وهكذا القول في جميع الأسماء.



= وابن جرير الطبري وابن خزيمة وزكريا الساجي وأبي الحسن الأشعري، أو يقول مثل قولهم
 من الإجماع - أي: ذكروا أن العلماء أجمعوا على هذه العقيدة - مثل الخطابي وأبي بكر
 الإسماعيلي وأبي القاسم الطبراني وأبي أحمد العسال... إلخ» من كتاب «صفات رب
 العالمين» للذهبي. انظر مقدمة: «العلو للعلي الغفار» (ص ٥٢).

مسألة الاسم عين المسمّى أو غيره

هذه المسألة من المسائل الحادثة التي لم يعرفها السلف الأوائل من الصحابة والتابعين، ولم ينقل عنهم أنهم خاضوا فيها، كما قال ابن جرير رحمه الله تعالى: ثم حدث في دهرنا هذا حماقات خاض فيها أهل الجهل والغباء ونوّكى الأمة والرعا يُتعب إحصاؤها ويُمَلّ تعدادها، فيها القول في اسم الشيء، أهو هو أم هو غيره؟.

وقال: وأما القول في الاسم أهو المسمّى أم غير المسمّى، فإنه من حماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيُتبع، ولا قول من إمام فيستمع، فالحوض فيه شين والصمت عنه زين. اهـ^(١).

ولكن لما كان الكلام في هذا الأمر مستمراً من أهل البدع والضلالات، اضطرب أهل السنة للرد على هؤلاء، وتفنيد أقوالهم الباطلة المخالفة لكتاب الله وسنة نبيه وبيان الحق في هذه المسألة.

وقبل أن ندخل في بيان هذه المسألة لنتعرف على المعنى اللغوي للفظ «اسم». قال الزّجاج^(٢): «معنى قولنا اسمٌ هو مشتق من السُّمُو وهو الرفعة، والأصل فيه: سِمُو مثل: قَنُو وأقناء». وقال الجوهري مثله.

قال ابن سيده^(٣): «والاسم اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض لتفصل به

(١) «صريح السنة» (ص ١٧، ١٨) و(ص ٢٦).

(٢) الزّجاج: هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق النحوي صاحب كتاب «معاني القرآن» كان من أهل الفضل والدين حسن الاعتقاد جميل المذهب وله مصنفات حسان في الأدب وكان يخرط الزجاج وإليه نسبته، لزم المبرد وتعلم منه النحو. توفي في جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة. انظر ترجمته: «تاريخ بغداد» (٨٩/٦)، «وفيات الأعيان» (٤٩/١)، و«معجم الأدباء» (١٣٠/١).

(٣) علي بن إسماعيل أبو الحسن المعروف بابن سيده، إمام في اللغة وآدابها، ولد بمرسية (شرق الأندلس) سنة (٣٩٨هـ) وانتقل إلى دانية فتوفي بها سنة (٤٥٨هـ)، كان ضريراً ونبغ في آداب اللغة ومفرداتها، فصنف «المخصص» سبعة عشر جزءاً وغيره. انظر: «وفيات الأعيان» (٣/٣٣٠)، «بغية الملتبس» (٤٠٥)، و«لسان الميزان» (٢٠٥/٤)، «الأعلام» (٢٦٣/٤).

بعضه من بعض؛ كقولك مبتدئاً: اسم هذا كذا، وإن شئت قلت: اسم هذا كذا». وقال أبو العباس^(١): «الاسم رسمٌ وسمٌ وسمَةٌ توضع على الشيء تعرف به»^(٢). قال الأزهري^(٣): «ومن قال: إن اسماً مأخوذ من وسمت فهو غلط؛ لأنه لو كان اسماً من سميته لكان تصغيره وسمياً مثل تصغير عدةٍ وصلةٍ وما أشبههما». قال ابن تيمية: «وهو مشتق من «السمو» وهو العلو كما قال النحاة البصريون، وقال النحاة الكوفيون: هو مشتق من «السمة»، وهي العلامة، وهذا صحيح في الاشتقاق الأوسط» وهو ما يتفق فيه حروف اللفظين دون ترتيبيها، فإنه في كليهما «السين والميم والواو» والمعنى صحيح، فإن السمة والسيما: العلامة، ومنه يقال: وسمته أسمه، كقوله: ﴿سَمَّيْتُ عَلَى الْخَطُورِ﴾ [القلم: ١٦]، ومنه التوسم كقوله: ﴿لَا يَنْتِ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

لكن اشتقاقه من «السمو» هو الاشتقاق الخاص الذي يتفق فيه اللفظان في الحروف وترتيبيها ومعناه أخص وأتم، فإنهم يقولون في تصريفه: سميت ولا يقولون: وسمت، وفي جمعه: أسماء لا أوسام، وفي تصغيره: سمي ولا وسيم. ويقال لصاحبه: سمي لا يقال: موسوم، وهذا المعنى أخص. فإن «العلو» مقارن «للظهور» كلما كان الشيء أعلى كان أظهر.

فالاسم يظهر به المسمى ويعلو، فيقال للمسمى: سَمَّه؛ أي: أظهره، وأعله؛ أي: أعل ذكره بالاسم الذي يذكر به، لكن تارة بما يحمده ويذكر تارة بما يذمه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]، وقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، وقال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [٧٨] سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ [الصافات: ٧٨، ٧٩].

(١) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر: أبو العباس الأزدي ثم الشمالي المعروف بالمبرد، شيخ أهل النحو وحافظ علم العربية، كان من أهل البصرة فسكن بغداد، قال الخطيب البغدادي: كان عالماً فاضلاً موثقاً به في الرواية، حسن المحاضرة، مليح الأخبار، كثير النوادر. توفي سنة خمس وثمانين ومائتين. «تاريخ بغداد» (٣/ ٣٨٠)، «وفيات الأعيان» (٤/ ٣١٣)، «لسان الميزان» (٥/ ٤٣٠)، «الأعلام» (٧/ ١٤٤).

(٢) «اللسان» (٣/ ٢١٠٩، ٢١١٠).

(٣) هو: أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري الهروي ولد بخراسان سنة (٢٨٢هـ) وتوفي بها سنة (٣٧٠هـ)، وكان فقيهاً شافعي المذهب غلبت عليه اللغة فاشتهر بها، وكان متفقاً على فضله وثقته ودرايته وورعه، له كتاب «تهذيب اللغة»، «ابن خلكان» (٤/ ٣٣٤)، «طبقات الشافعية» (٢/ ١٠٦)، «الأعلام» (٥/ ٣١١).

وقال في النوع المذموم: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣]، فكلاهما ظهر ذكره، لكن هذا إمام في الخير وهذا إمام في الشر.

وما ليس له اسم، فإنه لا يذكر ولا يظهر ولا يعلو ذكره، بل هو كالشيء الخفي الذي لا يعرف، ولهذا يقال: الاسم دليل على المسمّى، وعلم على المسمّى، ونحو ذلك.

ولهذا كان أهل الإسلام والسنة الذين يذكرون أسماء الله يعرفونه ويعبدونه ويحبونه ويذكرونه ويظهرون ذكره.

والملاحظة: الذين ينكرون أسماءه وتعرض قلوبهم عن معرفته وعبادته، ومحبتة وذكره، حتى ينسوا ذكره ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].
﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

والاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور في القلب، قد يراد به مجرد اللفظ، وقد يراد به مجرد المعنى فإنه من الكلام، والكلام اسم للفظ والمعنى، وقد يراد به أحدهما، ولهذا كان من ذكر الله بقلبه أو لسانه فقد ذكره، لكن ذكره بهما أتم.

والله تعالى قد أمر بتسبيح اسمه وأمر بالتسبيح باسمه كما أمر بدعائه بأسمائه الحسنى، فيدعى بأسمائه الحسنى، ويسبح اسمه، وتسبيح اسمه هو تسبيح له، إذ المقصود بالاسم المسمّى، كما أن دعاء الاسم هو دعاء المسمّى. قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]^(١).



بيان المسألة

قال شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فصل في الاسم والمسمى، هل هو هو أو غيره؟ أو لا يقال: هو هو، ولا يقال: هو غيره؟ أو هو له؟ أو يفصل في ذلك؟».

فإن الناس قد تنازعوا في ذلك، والنزاع اشتهر بعد الأئمة، بعد أحمد وغيره، والذي كان معروفاً عند «أئمة السنة» أحمد وغيره: الإنكار على الجهمية الذين يقولون: أسماء الله مخلوقة، ويقولون: الاسم غير المسمى، وأسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق.

وهؤلاء هم الذين ذمهم السلف وغلظوا فيهم القول؛ لأن أسماء الله من كلامه، وكلام الله غير مخلوق، بل هو المتكلم به، وهو المسمى لنفسه بما فيه من الأسماء. والجهمية يقولون: كلامه مخلوق، وأسماءه مخلوقة، وهو نفسه لم يتكلم بكلام يقوم بذاته ولا سمي نفسه باسم هو المتكلم به، بل قد يقولون: إنه تكلم به وسمى نفسه بهذه الأسماء، بمعنى أنه خلقها في غيره، لا بمعنى أنه نفسه تكلم بهذا الكلام القائم به، فالقول في أسمائه هو نوع من القول في كلامه^(١).

ويقول شارح «العقيدة الطحاوية»:

«طالما غلط كثير من الناس في ذلك وجهلوا الصواب فيه، فالاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى.

فإذا قلت: قال الله كذا، أو سمع الله لمن حمده ونحو ذلك، فهذا المراد به المسمى نفسه.

وإذا قلت: الله اسم عربي، والرحمن اسم عربي، والرحيم من أسماء الله تعالى ونحو ذلك، فالاسم هنا المراد لا المسمى، ولا يقال: غيره، لما في لفظ الغير من الإجمال.

فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق. وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له، حتى خلق لنفسه أسماء أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم، فهذا من

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/١٨٥، ١٨٦).

أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى». اه^(١).
وزيادة في الإيضاح نقول: إن الاسم يأتي في مواضع من الكلام ويراد به التسمية:

بَوَّبَ لذلك البخاري في كتاب «التوحيد»: باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها. وخرَّج بعده أحاديث منها: الذكر الذي يقال عند النوم: «باسمك ربي وضعت جنبي...»، وحديث أنس في التسمية عند الذبح، وحديث ابن عمر في النهي عن الحلف إلا بالله.

قال ابن بطال: «مقصود بهذه الترجمة تصحيح القول بأن الاسم هو المسمَّى فلذلك صحت الاستعاذة بالاسم كما صحت بالذات». اه^(٢).

وجاء في القرآن الكريم الأمر بتنزيه الاسم في قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٥٢]، وقوله: ﴿نَبِّذْ كُفْرًا سُبْحَانَ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فدلَّ هذا على أنه أمر بتسبيح الله تعالى، ودلَّ العقل على أن المسبَّح هو الله تعالى لا غيره؛ لأن تسبيح الاسم وذكره هو تسبيح المسمَّى وذكره.

فإن المسبَّح والذاكر إنما يسبح اسمه ويذكر اسمه، فيقول: (سبحان ربي الأعلى) فهو نطق بلفظ (ربي الأعلى)، والمراد هو المسمَّى بهذا اللفظ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمَّى.

ويأتي في موضع آخر ويراد به الاسم نفسه:
كحديث أنس أن النبي ﷺ اتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه «محمدٌ رسول الله»^(٣)، فالمراد هنا نقش الاسم والتسمية.

وقول النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»^(٤)،

(١) «العقيدة الطحاوية» (ص ١٣١). (٢) «الفتح» (١٣/٣٧٨، ٣٧٩).

(٣) رواه البخاري (٥٨٧٢).

(٤) رواه البخاري تعليقاً (٤٩٩/١٣) وفي «خلق أفعال العباد» (ص ٨٧) موصولاً، وأحمد (٢/ ٥٤٠)، وابن حبان (٢٣١٦) كلهم عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر والأوزاعي عن إسماعيل بن عبد الله بن المهاجر عن كريمة ابنة الحسحاس المزنية قالت: سمعت أبا هريرة يقول في بيت أم الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ... فذكره. وإسناده صحيح. ورواه أحمد (٥٤٠/٢) عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبيد الله عن أم الدرداء عن أبي هريرة به.

ورواه الحاكم (٤٩٦/١) عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبيد الله عن أم الدرداء عن أبي =

فمعلوم أن المراد تحركت شفتاه بذكر اسم الله وهو القول، ليس المراد أن الشفتين تتحرك بنفسه تعالى^(١).

وكذا حديث: «إن لله تسعة وتسعين اسماً» المراد به التسمية.

وأهل السنّة والجماعة الذين قالوا بأن الاسم هو المسمّى، لا ينازعون في أن الاسم غير المسمى، من جهة أن الأسماء أقوال وأنها ليست هي المسميات، فهذا لا ينازع فيه أحد من العقلاء.

لكنهم قالوا ذلك - أي أن الاسم هو المسمى - ردّاً على الجهمية والمعتزلة الذين قالوا: إن الاسم غير المسمّى، ويقصدون أن أسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق، وأن الله كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء، وهذا كله من الباطل المعلوم شرعاً وعقلاً.

وهناك قول آخر في هذه المسألة ينقل عن أهل السنّة، وهو: أن «الاسم للمسمّى»، ذكره ابن جرير حيث قال: «وحسب امرء من العلم به، والقول فيه، أن ينتهي إلى قول الله عز وجل ثناؤه الصادق، وهو قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. اهـ^(٢).

قال شيخ الإسلام: «وأما الذين يقولون: إن «الاسم للمسمّى» كما يقوله أكثر أهل السنّة، فهؤلاء وافقوا الكتاب والسنّة والمعقول، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]. اهـ^(٣).

شناعة قول الجهمية في هذه المسألة:

قال ابن أبي حاتم في كتاب «الرد على الجهمية»: ذكر نعيم بن حماد أن الجهمية

= الدرداء رحمه الله به وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قال ابن حجر: «ورجح الحفاظ طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر وربيعة بن يزيد، وحديث ربيعة عزاه للبيهقي في «الدلائل» - ويحتمل أن يكون عند إسماعيل عن كريمة - وعن أم الدرداء معاً».

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ١٩٨).

(٢) «صريح السنّة» (ص ٢٧).

(٣) «مقالات الإسلاميين» (ص ١٧٢). وانظر في هذه المسألة: «مجموعة الفتاوى» (٦/ ١٨٥ -

٢١٢)، «بدائع الفوائد» (١/ ١٦ - ٢٢)، «شرح أصول اعتقاد أهل السنّة» للالكائي (٢/ ٢٠٤ -

٢١٥)، «شرح الأسماء» للرازي (ص ١٨ - ٢٦)، «الفصل» لابن حزم (٥/ ٢٧ - ٣٦).

قالوا: إن أسماء الله مخلوقة لأن الاسم غير المسمّى، وادّعوا أن الله كان ولا وجود لهذه الأسماء ثم خلقها ثم تسمّى بها.

قال: قلنا لهم: إن الله قال: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقال: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَاعْبُدُوهُ﴾ [يونس: ٣] فأخبر أنه المعبود، ودل كلامه على اسمه بما دل به على نفسه، فمن زعم أن اسم الله مخلوق فقد زعم أن الله أمر نبيّه أن يسبح مخلوقاً.

ونقل عن إسحاق بن راهويه عن الجهمية أن جهماً قال: لو قلت: إن الله تسعة وتسعين اسماً لعبدت تسعة وتسعين إلهاً. قال: فقلنا لهم: إن الله أمر عباده أن يدعوه بأسمائه فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والأسماء جمع أقله ثلاثة، ولا فرق في الزيادة على الواحد بين الثلاثة وبين التسعة والتسعين^(١).

وقالت الجهمية لمن قال: إن الله لم يزل بأسمائه وصفاته: قلتم بقول النصارى حيث جعلوا معه غيره.

فأجابوا - أي أهل السنة -: بأننا نقول: إنه واحد بأسمائه وصفاته فلا نصف إلا واحداً بصفاته كما قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١]، وصفه بالوحدة مع أنه كان له لسان وعينان وأذنان وسمع وبصر، ولم يخرج بهذه الصفات عن كونه واحداً والله المثل الأعلى^(٢).

وقال الشافعي: «من حلف باسم من أسماء الله فَحَنَثَ فعليه الكفارة؛ لأن اسم الله غير مخلوق، ومن حلف بالكعبة أو بالصفاء والمروة فليس عليه الكفارة؛ لأنه مخلوق، وذاك غير مخلوق»^(٣).



(١) «الفتح» (٣٧٨/١٣).

(٢) «الفتح» (٣٨١/١٣) وعزاه الحافظ من قول الإمام أحمد في كتاب «السنة» لابنه عبد الله، ولم أجده فيه ولا في كتاب «الرد على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص ١٩٣) قال: حدثني الربيع بن سليمان المرادي قال: سمعت الشافعي يقول... فذكره.

وسنده صحيح، الربيع ثقة وكان من أصحاب الشافعي.

وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١١٣/٩)، والبيهقي مختصراً في «الأسماء» (ص ٢٢٥ - ٢٥٦) عن الربيع به.

ولله الأسماء الحسنی

وفيها مباحث:

أولاً: وصف الله أسماءه بالحسنی:

اعلم أن الله سبحانه وصف أسماءه بالحسنی في أربع آيات من القرآن العظيم

وهي:

١ - قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٢ - قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

٣ - قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

٤ - قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤].

ثانياً: قوله: «الحسنی»:

الحسنی تأنيث الأحسن، كالكبرى والصغرى تأنيث الأكبر والأصغر.

وفي وصف الأسماء بالحسنی وجوه:

- أ - أن أسماءه سبحانه دالة على صفات كمال عظيمة وبذلك كانت حسنی
 - ب - ما وعد عليها من الثواب بدخول الجنة لمن أحصاها.
 - ج - أن حسننها شرف العلم بها، فإن شرف العلم بشرف المعلوم، والبارئ أشرف المعلومات، فالعلم بأسمائه أشرف العلوم.
 - د - ومن تمام كونها حسنی أنه لا يدعى إلا بها^(١).
- أخبر تعالى أنهم يبتدئون دعاءهم بتعظيم الله وتنزيهه ويختتمونه بشكره والثناء عليه وحمده.

فجعل تنزيهه دعاءً وتحميده دعاءً.

فالأول دعاء السؤال والثاني دعاء الثناء، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنی

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/٨٠٣، ٨٠٤)، و«شرح الأسماء» للرازي (ص ٤٧)، و«تيسير الكريم الرحمن» لعبد الرحمن بن ناصر (٣/٥٩).

وصفاته العلى وكذلك، لا يُسأل إلا بها^(١).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
[الأعراف: ١٨٠]:

الإلحاد في اللغة: هو الزيف والميل والذهاب عن سنن الصواب، ومنه يسمّى الملحد ملحداً؛ لأنه مال عن طريق الحق، ومنه:

اللحد: وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ نَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧]؛ أي: لن تجد من تعدل إليه أو تهرب وتميل إليه.

والإلحاد في أسماء الله تعالى وتقدس أنواع:

النوع الأول: أن تسمّى الأصنام بها، فسمّوا الأحجار والأشجار والأوثان التي كانوا يعبدونها «آلهة» وسمّوا اللات من الإلهة والعزى من العزيز، ومناة من المنان. فهذا إلحاد لأنهم عدلوا ومالوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

النوع الثاني: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص؛ كقول اليهود - عليهم لعنة الله المتتابة -: إنه «فقير» وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق الخلق، وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأمثال ذلك من الإلحاد في أسمائه وصفاته.

قال ابن تيمية: «وقد نزه الله نفسه عما وصفوه به من الفقر والبخل والإعياء، فالإعياء من جنس العجز المنافي لكمال القدرة، والفقر من جنس الحاجة إلى الغير المنافي لكمال الغنى، والبخل من جنس منع الخير وكرهه العطاء المنافي لكمال الرحمة والإحسان، وكمال القدرة والرحمة». اهـ^(٢).

النوع الثالث: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها وأنها مجرد أعلام فقط، لا تتضمن صفات ولا معاني، وهو مذهب الجهمية وأتباعهم.

فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به. وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها فكلاهما ملحد

(١) انظر: «لسان العرب» (١٣٨٥/٢)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٨١٥/٢، ٨١٦)، و«تيسير الكريم الرحمن» (٥٩/٢)، و«بدائع الفوائد» (١٦٤/١، ٥/٣).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٨٧/٧).

في أسمائه^(١).

ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب.

وكل من جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك، فليستقل أو ليستكثر^(٢).

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله سبب ضلال الجهمية وأتباعهم فقال: «سبب هذا الضلال أن لفظ «التشبيه» و«التركيب» لفظ فيه إجمال، وهؤلاء أنفسهم - وجماهير العقلاء - يعلمون أنه ما من شيئين إلا وبينهما قدر مشترك، ونفي ذلك القدر المشترك، ليس هو نفي التمثيل والتشبيه الذي قام الدليل العقلي والسمعي على نفيه. وإنما التشبيه الذي قام الدليل على نفيه، ما يستلزم ثبوت شيء من خصائص المخلوقين لله تعالى، إذ هو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

ولهذا اتفق جميع طوائف المسلمين وغيرهم في الرد على هؤلاء الملاحدة، وبيان أنه ليس كل ما اتفق شيان في شيء من الأشياء يجب أن يكون أحدهما مثلاً للآخر. ولا يجوز أن ينفي عن الخالق سبحانه كل ما يكون فيه موافقة لغيره في معنى ما، فإنه يلزمه عدم بالكلية، كما فعله هؤلاء الملاحدة، بل يلزم نفي وجوده ونفي عدمه، وهو غاية التناقض والإلحاد والكفر والجهل» اهـ^(٣).

فالجهمية هم نفاة الأسماء والصفات ويقولون: إنما يسمى بها مجازاً، أو المقصود بها غيره، أو لا يعرف معناها.

وأصل تلبيسهم: هو أن إطلاق هذه الأسماء على الله فيه تشبيه له بخلقه ولذا فيجب نفي الأسماء عنه.

ونقل الشهرستاني عن الجهم بن صفوان قوله: «لا يجوز أن يوصف البارئ تعالى بصفة يوصف بها خلقه؛ لأن ذلك - بزعمه - يوجب تشبيهاً» اهـ^(٤).

(١) وقد حكى الله عن المشركين أنهم جحدوا اسمه «الرحمن» في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ [الفرقان: ٦٠] وبين أنهم يكفرون بهذا الاسم في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبَتُوا عَلَيْهِمُ الذَّلِيلُ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠] فما حال هؤلاء الذين جحدوا جميع صفاته وأسمائه، ونعوذ بالله من الخذلان.

(٢) انظر: «بدايع الفوائد» (١/١٦٩، ١٧٠). (٣) «درء تعارض العقل والنقل» (٥/٣٢٧).

(٤) «الملل والنحل» (١/٧٩).

النوع الرابع: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً.

فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة - الذين سبق ذكرهم -، فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد وتفرقت به طرقه.

فهؤلاء شبهوا الخالق بالمخلوق حتى كأنهم عبدوا صنماً، والجهمية نفوا صفات الخالق وعطلوها حتى كأنهم عبدوا عدماً.

* تنبيه: اعلم أن الجهمية والمعتزلة إلى يومنا هذا يسمون من أثبت شيئاً من الصفات مشبهاً كذباً منهم وافتراءً، حتى إن منهم من غلا ورمى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بذلك، قال ثمامة بن الأشرس من رؤساء الجهمية: ثلاثة من الأنبياء مشبهة، موسى حيث قال: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِئْتَنُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وعيسى حيث قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، ومحمد ﷺ حيث قال: «ينزل ربنا...».

وجلّ المعتزلة تدخل عامة الأئمة مثل: مالك وأصحابه، والثوري وأصحابه، والأوزاعي وأصحابه، والشافعي وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد وغيرهم في قسم المشبهة^(١).

فهم يزعمون أن من قال: إن الله فوق العرش فقد اعتقد أنه محدود ومحصور، والحدود لا تكون إلا للمخلوق فهذا القول تشبيه. وأن من قال: إن الله علماً وقدرة وكلاماً فقد جعل الله محلاً للأعراض، وهي لا تقوم إلا بالجواهر فهو مشبه.

ومن قال: إن الله سبحانه يداً ووجهاً وقدماً وعينين فقد شبه الله بخلقه... إلى آخر ما يرمون به الرسل وأتباع الرسل من الألقاب التي يفترونها. تماماً كما كانت قريش تسمي النبي ﷺ تارة مجنوناً، وتارة شاعراً، وتارة كاهناً، وتارة مفترياً.

النوع الخامس: تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له (أباً)، وتسمية الفلاسفة له (موجباً بذاته) أو (علة فاعلة بالطبع)، وقول الكرامية: إنه (جسم)، وقول بعضهم: إنه (جوهر)، ونحو ذلك^(٢).

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١١٠/٥).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١٦٩/١، ١٧٠)، و«لوامع الأنوار البهية» للسفاريني (١٢٨/١)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (١١٠/٢، ١١١).

برائةُ أهل السنة مِنَ الإلحادِ في أسمائه:

وبرأ الله أتباع رسوله ﷺ وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه، وتنزيههم خلياً من التعطيل^(١).

قال العلامة المحقق ابن القيم: «إن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء وهي أوصاف وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان وبالعكس، فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر إنك أنت المنتقم^(٢)، و: اللهم أعطني فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ولأنها لو لم تدل على معانٍ وأوصاف، لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها، ويوصف بها، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها وأثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن (القوي) من أسمائه، ومعناه: الموصوف بالقوة، وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠]، فالعزیز من له العزة، فلولاً ثبوت القوة والعزة له، لم يسم قوياً وعزیزاً. اهـ^(٣).

وقال في النونية:

أَسْمَاؤُهُ أَوْصَافٌ مَدْحٍ كُلُّهَا	مُشْتَقَّةٌ قَدْ حَمَلَتْ لِمَعَانٍ
إِيَّاكَ وَالْإِلْحَادَ فِيهَا إِنَّهُ	كُفْرٌ مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ كُفْرَانٍ
وَحَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ فِيهَا الْمِيلُ	بِالْإِشْرَاقِ وَالتَّعْطِيلِ وَالْكَفْرَانِ

تنبيهات وفوائد جلييلة:

التنبيه الأول: ما يوصف به الرب سبحانه أو يخبر به عنه أقسام:

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٧٠).

(٢) قد عرفت سابقاً أن المنتقم ليس من أسماء الله، إنما جاء في الكتاب مقيداً؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]. انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٩٦).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٢٨).

أ - ما يرجع إلى نفس الذات كقولك: ذات وموجود وشيء.
ب - ما يرجع إلى صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير،
وتُسمى: (صفات ذاتية).

ج - ما يرجع إلى أفعاله؛ كالخالق، والرازق، وتُسمى: (صفات فعلية).
د - ما يرجع إلى التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتاً؛ إذ لا كمال في العدم
المحض؛ كالقدوس، والسلام.

هـ - ما دلّ على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة؛ بل هو دالٌّ على
معانٍ نحو: المجيد، العظيم، الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من
صفات الكمال، ولفظه يدلّ على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، ومنه:
﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، لسعة العرش وعظمته، والعظيم من اتصف
بصفات كثيرة من صفات الكمال، وكذلك الصمد.

و - صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على
مفرديهما، نحو: الغني الحميد، العفو القدير، والحميد المجيد، ونحو ذلك، فإن
الغنى من صفات الكمال والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله
ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك نظائرهما^(١).

التنبيه الثاني: يجب أن يعلم أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما
يدخل في باب أسمائه وصفاته؛ كالشيء والموجود والقائم بنفسه والشارع، فإن هذا
يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنی وصفاته العلی.

قال ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل»: «ثم أنت تسميه قديماً وواجب
الوجود وذاتاً ونحو ذلك، مما لم يرد به الشرع، والشارع يفرّق بين ما يُدعى به من
الأسماء، فلا يُدعى إلا بالأسماء الحسنی، وبين ما يُخبر بمضمونه عنه من الأسماء
لإثبات معنى يستحقه نفاه عنه نافي لما يستحقه من الصفات؛ كما أنه من نازعك في
قدمه أو وجوب وجوده قلت مخبراً عنه بما يستحقه: إنه قديم وواجب الوجود»^(٢).

وقال في موضع آخر: «فالفرق بين مقام المخاطبة ومقام الإخبار، فرق ثابت في
الشرع والعقل، وبه يظهر الفرق بين ما يُدعى الله به من الأسماء الحسنی، وبين ما
يخبر به عنه ﷻ مما هو حق ثابت، لإثبات ما يستحقه سبحانه من صفات الكمال،

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (١/١٥٩ - ١٦١).

(٢) (٤/١٤٠)، ولفظة (قديم) لم ترد في دليل، فلاستعاضة عنها بما ورد وهو (الأول) أصح.

ونفي ما تنزه عنه ﷺ من العيوب والنقائص، فإنه الملك القدوس السلام، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، مع قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، ولا يقال في الدعاء: يا شيء^(١).

التنبيه الثالث: أن أسماء الله توقيفية:

وهذا هو مذهب الجمهور من أهل السنة والجماعة، أن أسماء الله توقيفية لا يجوز تسميته بما لم يرد به السمع.

وذلك أن أسماء الله تعالى وصفاته من الأمور الغيبية التي لا يمكن لنا أن نعرفها إلا عن طريق الرسل، الذين يُطلعهم الله على ما يشاء من الغيب ثم هم يبلغونه للناس، ولا يجوز القياس فيها أو الاجتهاد؛ لأن هذا الباب ليس من أبواب الاجتهاد.

فالمنهج الصحيح لمعرفة توحيد الله ﷻ وأسمائه وصفاته هو الاعتماد على (الوحي) الذي أوحاه الله ﷻ إلى الرسول ﷺ، وأمره باتباعه قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وقال: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]^(٢).

وأمرنا نحن باتباع رسوله ﷺ وما جاء به من الوحي الشريف:

قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِيَّايَ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وغيرها من الآيات الكثيرة.

ولو كان العقل قادراً على معرفة أسماء الله وصفاته، وما يجوز أن يوصف به مما

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٢٩٨/١).

(٢) في هذه الآية إخبار من الله تعالى لنبيه ﷺ أن بالسمع والوحي عرف الأنبياء الذين من قبله التوحيد وصفات ربهم لا بالعقل أو الفكر.

لا يجوز، لما احتاج الناس إلى الوحي، ولأصبح إرسال الرسل إلى الناس من العبث، تعالى الله وتقدس عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وتسمية الله سبحانه بما لم يرد به الدليل يدخل في الإلحاد في أسمائه الحسنی^(١)، وقد يقع صاحبه في التشبيه: لأن المشبهة وصفوا الله بما لم يأذن به.

قال أبو إسحاق الزجاج: «لا يجوز لأحد أن يدعو الله بما لم يصف به نفسه»^(٢).

قال أبو سليمان الخطابي: «ومن علم هذا الباب، أعني: الأسماء والصفات، ومما يدخل في أحكامه ويتعلق به من شرائط، أنه لا يتجاوز فيها التوقيف، ولا يستعمل فيها القياس، فيلحق بالشيء نظيره في ظاهر وضع اللغة ومتعارض الكلام.

ف«الجواد» لا يجوز أن يقاس عليه السخي، وإن كانا متقاربين في ظاهر الكلام، وذلك أن السخي لم يرد به التوقيف كما ورد بالجواد، و«القوي» لا يقاس عليه الجلد، وإن كانا يتقاربان في نعوت آدميين؛ لأن باب التجلد يدخله التكلف والاجتهاد، ولا يقاس على «القادر» المطيق ولا المستطيع، وفي أسمائه العليم ومن صفته العلم، فلا يجوز قياساً عليه أن يسمى عارفاً لما تقتضيه المعرفة من تقديم الأسباب التي بها يتوصل إلى علم الشيء، وكذلك لا يوصف بالعاقل.

وهذا الباب يجب أن يراعى ولا يُغفل، فإن عائدته عظيمة والجهل به ضار، وبالله التوفيق». اهـ.

وقال السفاريني في نظمه للعقيدة:

لكنَّها في الحقِّ تَوْقِيفِيَّةٌ لَنَا بِذَا أدْلَةٌ وَفِيَّةٌ

ثم شرح البيت فقال: «لكنها - أي الأسماء الحسنی - في القول الحق المعتمد عند أهل الحق توقيفية بنص الشرع وورود السمع بها، ومما يجب أن يعلم أن علماء السنّة اتفقوا على جواز إطلاق الأسماء الحسنی والصفات العلى على الباري جلّ وعلا إذا ورد الإذن من الشارع، وعلى امتناعه على ما ورد المنع عنه». اهـ^(٣).

وقال الفخر الرازي: «مذهب أصحابنا أنها توقيفية»^(٤)، واختاره الغزالي واحتج بأنه اتفق على أنه لا يجوز لنا أن نسمي الرسول باسم ما سماه الله به، ولا باسم ما

(١) انظر: الكلام على الإلحاد وأنواعه (ص ٣٦) وما بعدها.

(٢) «الفتح» (٢٢٣/١١).

(٣) «لوامع الأنوار البهية» (١٢٤/١).

(٤) «شرح أسماء الله» (ص ٣٦)، لكنه اختار أن الصفات غير توقيفية وهو مخالف للحق.

سمى هو نفسه به، فإذا لم يجز ذلك في حق الرسول، بل في حق أحد من آحاد الناس، فهو في حق الله تعالى أولى^(١).

وأما المعتزلة والكرامية فقالوا: «إن اللفظ إذا دلّ العقل على أن المعنى ثابت في حق الله سبحانه، جاز إطلاق ذلك اللفظ على الله تعالى سواء ورد التوقيف به أو لم يرد»^(٢).

التنبيه الرابع: لا يجوز أن يشتق له أسماء من الأفعال التي وردت في الكتاب والسنة مقيدة، كما غلط فيه بعض المتأخرين، فجعل المضل، الفاتن، الماكر، المستهزئ من أسمائه الحسنی، فإن هذه الأسماء لم يأت السمع بإثباتها، وإنما وردت كأفعال مخصوصة ومعينة، فلا يجوز اشتقاق أسماء منها على وجه الإطلاق^(٣).

التنبيه الخامس: يجوز أن يشتق من الأسماء الحسنی الفعل والمصدر، فيخبر عنه به فعلاً ومصدراً، نحو السميع البصير القدير، يطلق عليه منه، السمع والبصر والقدرة ويخبر عنه بالأفعال من ذلك، نحو: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ [المجادلة: ١]، ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]، ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعَ﴾ [الكهف: ٢٦]، هذا إن كان الفعل متعدياً.

فإن كان لازماً لم يخبر عنه به نحو «الحي»، بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال: حَيٌّ^(٤).

التنبيه السادس: قال ابن القيم: «إن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم، فالرب تبارك وتعالى فعّال عن كماله.

والمخلوق كماله عن فعّاله فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل. فالرب لم يزل كاملاً فحصلت أفعاله عن كماله؛ لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمّل الكمال اللائق به» اهـ^(٤).

التنبيه السابع: أن الاسم من أسمائه الحسنی له دلالات ثلاثة:

١ - دلالة مطابقة: إذا فسرنا الاسم بجميع مدلوله.

(١) «المقصد الأسنى» (ص ١٠٩).

(٢) «شرح أسماء الله» (ص ٣٦) وقال الرازي بعده: وهو قول القاضي أبي بكر الباقلاني.

(٣) انظر: «لوامع الأنوار» (١/ ١٢٥، ١٢٦)، و«بدائع الفوائد» (١/ ١٦٣)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤١٥).

(٤) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٢).

٢ - دلالة تضمّن: إذا فسرناه ببعض مدلوله.

٣ - دلالة التزام: إذا استدللنا به على غيره من الأسماء التي يتوقف عليها هذا الاسم.

ومثال ذلك (الرحمن) دلالة على الرحمة والذات دلالة مطابقة، وعلى أحدهما دلالة تضمّن؛ لأنها داخلة في الضمن، ودلالة على الأسماء التي لا توجد الرحمة إلا بشيئها؛ كالحياة والعلم والقدرة ونحوها دلالة التزام^(١).

التنبيه الثامن: أن أسماء الله ﷻ كلها من قبيل المحكم، وليست من المتشابه كما يقول بعض المفوضة المبتدعة؛ لأن معانيها معروفة في لغة العرب غير مجهولة، وإنما المجهول هو الكنه والكيفية فقط، كما مرّ عليك آنفاً في أقوال أئمة السلف.



(١) المصدر السابق. وانظر: «الأجوبة والأسئلة الأصولية على العقيدة الواسطية» (ص ٤٦) للشيخ عبد العزيز السلمان.

حديث: «لله تسعة وتسعون اسماً»

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحدة، لا يحفظها أحدٌ إلا دَخَلَ الجنة، وهو وترٌ يحبُّ الوتر». وفي رواية: «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١). وفيه مباحث:

أولاً: «لله تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحدة»^(٢):

هل المراد به حصر الأسماء الحسنی في هذا العدد أو أنها أكثر من ذلك، ولكن اختصت هذه بأن من أحصاها دخل الجنة؟.

فذهب جمهور العلماء إلى الثاني، ونقل النووي اتفاق العلماء عليه، وقال: ليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى، وليس معناه أنه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث: أن هذه الأسماء من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها، لا الإخبار بحصر الأسماء.

وقال أبو سليمان حمد الخطابي: «إنما هو بمنزلة قولك: إن لزيد ألف درهم أعدّها للصدقة، وكقولك: إن لعمرو مائة ثوبٍ من زاره خلعها عليه، وهذا لا يدل على أنه ليس عنده من الدراهم أكثر من ألف درهم، ولا من الثياب أكثر من مائة ثوب، وإنما دلالتة أن الذي أعده زيد من الدراهم للصدقة ألف درهم، وأن الذي أرصده عمرو من الثياب للخلع مائة ثوب».

والذي يدل على صحة هذا التأويل حديث عبد الله بن مسعود، وقد ذكره محمد بن إسحاق بن خزيمة في المأثور:

«أن النبي ﷺ كان يدعو: «اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمّتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حُكْمِكَ، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦، ٦٤١٠، ٧٣٩٢)، ومسلم (٥/٢٦٧٧، ٦).

(٢) فائدة: التكرار في قوله: «تسعة وتسعون مائة إلا واحدة» هو التأكيد؛ كقوله: «ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ» [البقرة: ١٩٦]. وقوله: «لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِيدٌ» [النحل: ٥١].

أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك... إلخ»^(١)، فهذا يدل على أن الله أسماء لم يُنزلها في كتابه، حجبها عن خلقه، ولم يظهرها لهم»^(٢) اهـ.

وقال شيخ الإسلام - كما في «مجموع الفتاوى» (٣٨١/٦) - بعد نقله كلام الخطابي: «وأيضاً فقلوه: «إن لله تسعة وتسعين» تقيده بهذا العدد، بمنزلة قوله تعالى: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]، فلما استقلوهم قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، فأن لا يعلم أسماء إلا هو أولى» اهـ.

وقال في «درء تعارض العقل والنقل» (٣/٣٣٢، ٣٣٣): والصواب الذي عليه الجمهور أن قول النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» معناه: أن من أحصى التسعة والتسعين من أسمائه دخل الجنة، ليس مراده أنه ليس له إلا تسعة وتسعون اسماً، ثم ذكر حديث عبد الله بن مسعود السابق.

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٣٩١/١)، وابن حبان (٢٣٧٢ - موارد)، والحاكم (٥٠٩/١)، والطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٢) كلهم عن فضيل بن مرزوق: ثنا أبو سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال عبد الله بن مسعود... فذكره. وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه من أبيه.

فتعقبه الذهبي بقوله: قلت: أبو سلمة لا يُدرى من هو ولا رواية له في الكتب الستة. قال الحافظ في «تعجيل المنفعة» (ص ٤٩٠، ٤٩١): أبو سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن روى عنه فضيل بن مرزوق. مجهول قاله الحسيني وقال مرة: لا يُدرى من هو، وهو كلام الذهبي في «الميزان»، وقد ذكره ابن حبان في «الثقات» وأخرج حديثه في صحيحه، وقرأت بخط الحافظ ابن عبد الهادي: يحتمل أن يكون خالد بن سلمة، قلت: وهو بعيد؛ لأن خالداً مخزومي وهذا جهني، وقد ذكره في «الفتح» (٢٢٠/١١) وسكت عليه.

ونقل العلامة الألباني عن الشيخ أحمد شاكر رحمه الله قوله في تعليقه على المسند (٢٦٧/٥): «وأقرب منه عندي أن يكون هو: موسى بن عبد الله أو ابن عبد الله الجهني ويكنى أبا سلمة فإنه من هذه الطبقة» اهـ. واختاره الألباني وجزم به بدليل إخراج ابن حبان والطبراني رواية من طريق موسى الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه. انظر: «الصحيحة» (١٩٩).

وأما سماع عبد الرحمن من أبيه فقد أثبتته كثير من العلماء كابن معين والبخاري، فقد روى في «التاريخ الصغير» ما يدل على سماعه وأبو حاتم وسفيان الثوري وشريك، وأثبت سماعه المزني في «التحفة» (٧٤/٧).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٢٤)، واختاره الحافظ في «الفتح» (٢٢٠/١١) ونقله عن القرطبي صاحب «المفهم»، ونقله ابن بطال عن القاضي أبي بكر الطيب، وكذا البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ١٧، ١٨).

وقال: وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يقول في سجوده: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(١).

فأخبر أنه ﷺ لا يحصي ثناءً عليه، ولو أحصى جميع أسمائه لأحصى صفاته كلها، فكان يحصي الثناء عليه؛ لأن صفاته إنما يعبر عنها بأسمائه. وخالف ابن حزم ههنا، فذهب إلى الحصر في العدد المذكور، وردَّ عليه الحافظ ابن حجر في «الفتح» فقال: وابن حزم ممن ذهب إلى الحصر في العدد المذكور، وهو لا يقول بالمفهوم أصلاً، ولكنه احتج بالتأكيد في قوله ﷺ: «مائة إلا واحداً» قال: لأنه لو جاز أن يكون له اسم زائد على العدد المذكور، لزم أن يكون له مائة، فيبطل قوله: «مائة إلا واحداً».

قال الحافظ: «وهذا الذي قاله ليس بحجة على ما تقدم؛ لأن الحصر المذكور عندهم باعتبار الوعد الحاصل لمن أحصاها، فمن ادعى أن الوعد وقع لمن أحصى زائداً على ذلك أخطأ، ولا يلزم من ذلك أن لا يكون هناك اسم زائد». اهـ^(٢).

وقد تكلم العلماء - ومنهم الرازي في «شرح الأسماء»^(٣) - عن سر هذا العدد المخصوص بكلام كثير، والذي نراه أن تفويض علمه الله أقرب إلى الصواب؛ لأن الله لم يطلعنا على حكمة ذلك، فهو كأعداد الضلوات، والله تعالى أعلم.

ثانياً: معنى قوله: «من أحصاها»، وهو يحتمل وجوهاً:

أ - أن يعدها حتى يستوفيها حفظاً ويدعو ربه بها، ويثني عليه بجميعها؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨].

واستدل له الخطابي بقوله ﷺ - كما في الرواية الأخرى -: «من حفظها دخل الجنة»^(٤). وقال النووي: «قال البخاري وغيره من المحققين: معناه حفظها، وهذا هو الأظهر لثبوته نصاً في الخبر».

وقال في «الأذكار»: «وهو قول الأكثرين»^(٥).

وقال ابن الجوزي: لَمَّا ثَبَتَ في بعض طرق الحديث: «من حفظها» بدل: «من أحصاها»، اخترنا أن المراد «العدّ»؛ أي: من عدّها ليستوفيها حفظاً.

(٢) «الفتح» (١١/٢٢١).

(٤) «شأن الدعاء» (ص ٢٦).

(١) رواه مسلم (٤٨٦) عن عائشة.

(٣) (ص ٧٣ - ٨٢).

(٥) «الأذكار» (ص ٩٤).

وردّ هذا القول الحافظ فقال: «وفيه نظر؛ لأنه لا يلزم من مجيئه بلفظ: «حفظها» تعيين السرد عن ظهر قلب؛ بل يحتمل الحفظ المعنوي.

وقال الأصيلي: ليس المراد بالإحصاء عدّها فقط؛ لأنه قد يعدها الفاجر، وإنما المراد العلم بها.

وكذا قال أبو نعيم الأصبهاني وابن عطية^(١).

ب - أن يكون المراد بالإحصاء «الإطاعة»؛ كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنَّ لَنَا تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠]؛ أي: لن تطيقوه، وكقول النبي ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا...»^(٢)؛ أي: لن تبلغوا كل الاستقامة.

فيكون المعنى: أن يطبق الأسماء الحسنی ويحسن المراعاة لها، وأن يعمل بمقتضاها، وأن يعتبرها فيلزم نفسه بواجبها.

فإذا قال: يا رحمن يا رحيم، تذكر صفة الرحمة، واعتقد أنها من صفات الله سبحانه، فيرجو رحمته ولا يئأس من مغفرته.

وإذا قال: «السميع البصير» علم أنه يراه ويسمعه وأنه لا تخفى عليه خافية، فيخافه في سره وعلنه ويراقبه في كافة أحواله.

(١) «الفتح» (٢٢٦/١١).

(٢) حديث صحيح لطرقه:

الأولى: أخرجه الإمام أحمد (٢٧٦/٥ - ٢٧٧، ٢٨٢)، وابن ماجه (٢٧٧)، والدارمي (١/١٦٨)، والحاكم (١/١٣٠)، والطبراني في «الصغير» (١١/١) كلهم من طريق سالم بن أبي الجعد عن ثوبان. قال: قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»، وفيه انقطاع فإن سالماً لم يسمع من ثوبان، قاله أحمد وغيره، لكنه قد توبع كما في الطريق الثانية والثالثة.

الثانية: وهي لأحمد أيضاً (٢٨٠/٥) من طريق حريز بن عثمان عن عبد الرحمن بن ميسرة عن ثوبان وهي بلفظ: «استقيموا تفلحوا..»، وابن ميسرة هو الحضرمي أبو سلمة الحمصي. قال الحافظ في «التقريب»: مقبول؛ أي: حيث يتابع.

الثالثة: لأحمد أيضاً (٢٨٢/٥)، والدارمي (١/١٦٨) من طريق الوليد بن مسلم: ثنا ابن ثوبان: حدثني حسان بن عطية أن أبا كيشة السلولي حدثه أنه سمع ثوبان يقول... فذكره.

وإسناده حسن رجاله ثقات، سوى ابن ثوبان وهو عبد الرحمن بن ثابت، صدوق يخطئ (وقد وقع عند الدارمي أبو ثوبان وهو خطأ).

الرابعة: لابن ماجه (٢٧٨) عن ليث عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو به، وفيه ليث وهو ابن أبي سليم ضعيف.

الخامسة: لابن ماجه أيضاً (٢٧٩) عن إسحاق بن أسيد عن أبي حفص الدمشقي عن أبي أمانة بلفظ: «استقيموا ونعماً أن استقمتم...» وفيه أبو حفص مجهول.

وإذا قال: «الرزاق» اعتقد أنه المتكفل برزقه يسوقه إليه في وقته، فيثيق بوعده ويعلم أنه لا رازق له سواه... إلخ^(١).

وقال أبو عمر الطلمنكي: «من تمام المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته التي يستحق بها الداعي والحافظ ما قال رسول الله ﷺ، المعرفة بالأسماء والصفات وما تتضمن من الفوائد وتدل عليه من الحقائق، ومن لم يعلم ذلك لم يكن عالماً لمعاني الأسماء، ولا مستفيداً بذكرها ما تدل عليه من المعاني» اهـ^(٢).

ج - أن يكون الإحصاء بمعنى العقل والمعرفة، فيكون معناه: أن من عرفها، وعقل معانيها، وآمن بها دخل الجنة، وهو مأخوذ من الحصاة، وهي العقل، والعرب تقول: فلان ذو حصاة؛ أي: ذو عقل، ومعرفة بالأموال^(٣).

قال القرطبي: «المرجو من كرم الله تعالى أن من حصل له إحصاء هذه الأسماء على إحدى هذه المراتب مع صحة النية أن يدخله الله الجنة.

وهذه المراتب الثلاثة للسابقين والصدّيقين وأصحاب اليمين» اهـ^(٤).

د - أن يكون معنى الحديث أن يقرأ القرآن حتى يختمه فيستوفي هذه الأسماء كلها في أضعاف التلاوة، فكأنه قال: من حفظ القرآن وقرأه فقد استحق دخول الجنة^(٥). قلت: لكن قد يفوته بعض الأسماء الواردة بالأحاديث النبوية الزائدة على القرآن.

ثالثاً: طعن أبو زيد البلخي^(٦) في صحة الخبر:

بأن دخول الجنة ثبت في القرآن مشروطاً ببذل النفس والمال، فكيف يحصل بمجرد حفظ ألفاظ تعدّ في أيسر مدة؟.

(١) انظر: «شأن الدعاء» (ص ٢٧، ٢٨)، «الفتح» (١١/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٢) «الفتح» (١١/ ٢٢٦) وأبو عمر، وقيل: أبو جعفر: هو أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري المقرئ وكان من المجوّدين في القراءة وله تصانيف في القراءة، روى الحديث وعمّر حتى جاوز التسعين، وروى عنه محمد بن عبد الله الخولاني. «معجم البلدان» (٤/ ٣٩)، و«الأعلام» (١/ ٢١٢).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٢٨، ٢٩)، «الفتح» (١١/ ٢٢٥).

(٤) «الفتح» (١١/ ٢٢٥).

(٥) «شأن الدعاء» (ص ٢٩). وانظر فيما سبق أيضاً: «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٢٢ - ٢٤)، والرازي في «شرح الأسماء» (ص ٨١، ٨٢).

(٦) أبو زيد البلخي: هو أحمد بن سهل صاحب التصانيف المشهورة. قال ابن النديم في «الفهرست» (ص ١٩٨): كان فاضلاً في علوم كثيرة، وكان يسلك طريق الفلاسفة، ويقال له: جاحظ زمانه وكان يرمى بالإلحاد، وقال الحافظ في «اللسان» (١/ ١٨٤): ويظهر في غضون كلامه ما يدل على انحلال من الأزدراء بأهل العلوم الشرعية وغير ذلك، مات سنة اثنتين وعشرين وثلاث مائة.

قال الحافظ :

«وتعقب بأن الشرط المذكور ليس مطّرداً ولا حصر فيه، بل قد تحصل الجنة بغير ذلك، كما ورد في كثير من الأعمال غير الجهاد: إن فاعله يدخل الجنة، وأما دعوى أن حفظها يحصل في أيسر مدة فإنما يرد على من حمل «الحفظ والإحصاء» على معنى أن يسردها عن ظهر قلب، فأما من أوله على بعض الوجوه المتقدمة فإنه يكون في غاية المشقة، ويمكن الجواب عن الأول بأن الفضل واسع». اهـ^(١).

وقد ذكر الرازي أن من أخذ هذا الحديث دون الزيادة التي فيها تفصيل الأسماء كان المراد بقوله: «من أحصاها»؛ أي: من طلبها في القرآن وفي جملة الأحاديث الصحيحة حتى يلتقط منها تلك الأسماء التسعة والتسعين. ومعلوم أن ذلك مما لا يمكن تحصيله إلا بعد تحصيل علم الأصول والفروع حتى يقدر على التقاط هذه الأسماء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومعلوم أن من حصل هذه العلوم، واجتهد حتى بلغ درجة يمكنه معها التقاط هذه الأسماء من الكتاب والسنة فقد بلغ الغاية القصوى في العبودية». اهـ^(٢) باختصار.

رابعاً: قوله: «وهو وتر يحب الوتر»:

الوتر: هو الفرد، ومعناه في صفة الله جلّ وعلا: الواحد الذي لا شريك له ولا نظير له، المتفرد عن خلقه البائن منهم بذاته وصفاته فهو سبحانه وتر. وجميع خلقه شفع خلقوا أزواجاً. قال سبحانه: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فالمراد أن الله يحب الوتر من كل شيء وإن تعدد ما فيه الوتر، ولذلك أمر بالوتر في كثير من الأعمال والطاعات؛ كما في الصلوات الخمس ووتر الليل وأعداد الطهارة وتكفين الميت، وفي كثير من المخلوقات كالسموات والأرض^(٣).

ضعف الطرق التي فيها سرد الأسماء:

وقد وقفت على ثلاثة طرق:

الأولى: ما أخرجه الترمذي (٣٥٧٤)، وابن حبان (٢٣٨٤)، والحاكم (١٦/١)، والبيهقي في «السنن» (٢٧/١٠)، وفي «الأسماء والصفات» (ص ١٥، ١٦)، وفي

(٢) «شرح الأسماء» للرازي (ص ٨٢).

(١) «الفتح» (٢٢٧/١١).

(٣) انظر: «الفتح» (٢٢٧/١١).

«لاعتقاد» (ص ٥٠)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٢/٥، ٣٣) كلهم من طريق الوليد بن مسلم أخبرنا شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة غير واحدة، من أحصاها دخل الجنة؛ هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس...».

قال الترمذي عقب الحديث: «هذا حديث غريب، حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ولا نعلم في كبير شيء من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث، وقد روى آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح». اهـ.

ولم ينفرد به صفوان بن صالح، كما قال الترمذي، فقد أخرجه البيهقي في «الأسماء» (ص ١٥) من طريق موسى بن أيوب النصيبی، وهو ثقة عن الوليد بن مسلم.

وهذه الطريق هي أحسن الطرق على ضعف فيها كما سيأتي بيانه.

الثانية: ما أخرجه ابن ماجه (٣٨٦١) من طريق عبد الملك بن محمد الصنعاني، ثنا زهير بن محمد التميمي، ثنا موسى بن عقبة، حدثني عبد الرحمن الأعرج، عن أبي هريرة، به، مع اختلاف في سرد الأسماء ونقص وتقديم وتأخير.

قال البوصيري في «الزوائد»: «لم يخرج أحد من الأئمة الستة عدد أسماء الله الحسنی من هذا الوجه ولا من غيره غير ابن ماجه والترمذي مع تقديم وتأخير، وطريق الترمذي أصح شيء في الباب».

قال: «وإسناد طريق ابن ماجه ضعيف لضعف عبد الملك بن محمد». اهـ.

قلت: عبد الملك بن محمد هو الحميري البرسمي، قال فيه الحافظ: «لين الحديث».

الثالثة: أخرجها الحاكم (١٧/١)، والبيهقي في الأسماء (ص ١٨، ١٩) وفي «الاعتقاد» (ص ٥١) من طريق خالد بن مخلد القطواني، ثنا عبد العزيز بن حصين بن الترجمان، ثنا أيوب السختياني وهشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، به.

قال الحاكم: «عبد العزيز بن الحصين بن الترجمان ثقة وإن لم يخرجاه».

فتعقبه الذهبي بقوله: «بل ضعفوه».

وقد ذكر من ضعفه في «الميزان» (٢/٦٢٧): قال البخاري: ليس بالقوي عندهم، وقال ابن معين: ضعيف، قال مسلم: ذاهب الحديث، وقال ابن عدي: الضعف على رواياته بين.

وقال البيهقي في «الأسماء» (ص ١٩): «ويحتمل أن يكون التفسير وقع من بعض الرواة، وكذلك في حديث الوليد بن مسلم، ولهذا الاحتمال ترك البخاري ومسلم إخراج حديث الوليد في الصحيح». اهـ.

ونقل الحافظ في «التلخيص» (٤/١٧٣) عن ابن العربي قوله: «لا نعلم هل تفسير هذه الأسامي في الحديث أو من قول الراوي».

وقال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمته الله كما في «مجموع الفتاوى» (٦/٣٧٩): «فالحديث الذي فيه ذكر ذلك - أي الأسماء الحسنی - هو حديث الترمذي، روى الأسماء الحسنی في جامعه من حديث الوليد بن مسلم، عن شعيب، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة. ورواها ابن ماجه في سننه^(١) من طريق مخلد بن زياد القطواني، عن هشام بن حسان بن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروایتين ليستا من كلام النبي ﷺ وإنما كل منهما من كلام بعض السلف، فالوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين كما جاء مفسراً في بعض طرق حديثه»، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٨/٩٦، ٩٧) و(٢٢/٤٨٢).

وقال ابن كثير في «التفسير» (٢/٢٦٩): «والذي عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك.

أي: أنهم جمعوها من القرآن، كما روي عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة^(٢) وأبو زيد اللغوي، والله أعلم». اهـ.

(١) تنبيه: قول ابن تيمية رحمته الله رواها ابن ماجه من طريق مخلد بن زياد عن هشام... إلخ، وهم إنما رواها من طريق زهير بن محمد، ثنا موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبي هريرة به، والطريق المذكورة للترمذي.

(٢) يشير إلى ما أخرجه أبو نعيم عن الطبراني عن أحمد بن عمر، والخلال عن ابن أبي عمرو، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: سألت أبا جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء الحسنی فقال: هي في القرآن. ذكره الحافظ في «الفتح» (١١/٢١٧).

وكذا رواية سفيان بن عيينة قال: وروينا في «فوائد تمام» من طريق أبي الطاهر بن السرح عن =

وقال الحافظ في «الفتح» (٢١٥/١١): «واختلف العلماء في سرد الأسماء هل هو مرفوع أو مدرج في الخبر عن بعض الرواة؟ فمشى كثير منهم على الأول، واستدلوا به على جواز تسمية الله تعالى بما لم يرد في القرآن بصيغة الاسم؛ لأن كثيراً من هذه الأسماء كذلك، وذهب آخرون إلى أن التعيين مدرج لخلو أكثر الروايات عنه ونقله عبد العزيز النخشي عن كثير من العلماء».

ثم نقل عن الحاكم قوله: إن العلة فيه مجرد تفرد الوليد بن مسلم وأنه أوثق ممن رواه بدون ذكر الأسماء.

وردّ عليه الحافظ بقوله: «وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط؛ بل الاختلاف فيه والاضطراب وتدليسه واحتمال الإدراج». اهـ.

وقد نقل الحافظ ما يدل على الإدراج، وهو ما أخرجه عثمان الدارمي في «النقض على المريسي»^(١) عن هشام بن عمار، عن الوليد، فقال: عن خليل بن دعلج، عن قتادة، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة... فذكره بدون التعيين، قال الوليد: وحدثنا سعيد بن عبد العزيز مثل ذلك، وقال: كلها في القرآن «هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم» وسرد الأسماء.

وأخرجه أبو الشيخ ابن حبان من رواية أبي عامر القرشي عن الوليد بن مسلم بسند آخر فقال: «حدثنا زهير بن محمد، عن موسى بن عقبة، عن الأعرج عن أبي هريرة، قال زهير: فبلغنا أن غير واحد من أهل العلم قال: إن أولها أن تفتتح بلا إله إلا الله... وسرد الأسماء». اهـ.

وهذه الرواية هي رواية ابن ماجه السابقة ولكن وقع فيها سرد الأسماء أولاً ثم بعد أن انتهى سردها، قال زهير: فبلغنا من غير واحد من أهل العلم، أن أولها يفتح بقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله له الأسماء الحسنی.

= حبان بن نافع عن سفيان بن عيينة الحديث؛ يعني حديث: «إن الله تسعة وتسعين اسماً»، قال: فوجدنا سفيان أن يخرجها لنا من القرآن فأبطأ، فأتينا أبا زيد فأخرجها لنا فعرضناها، على سفيان فنظر فيها أربع مرات وقال: نعم هي هذه، ثم ساق الحافظ ما ذكره جعفر وأبو زيد من الأسماء، وقال في نهايتها: وفيها اختلاف شديد وتكرار وعدة أسماء لم ترد بلفظ الاسم. اهـ.

(١) طبع بمصر باسم «الرد على المريسي» بتحقيق محمد حامد الفقي.

قال الحافظ: «والوليد بن مسلم أوثق من عبد الملك الصنعاني، ورواية الوليد تشعر بأن التعيين مدرج». اهـ.

قلت: بل عبد الملك لين الحديث، كما نقلنا آنفاً من قول الحافظ نفسه! وقال في «بلوغ المرام» (ص ٢٥٤): «والتحقيق أن سردها إدراج من بعض الرواة». اهـ.

وقال الصنعاني في «سبل السلام» (١٠٨/٤): «اتفق الحفاظ من أئمة الحديث أن سردها إدراج من بعض الرواة». اهـ^(١).

خلاصة القول: أن هذه الزيادة مدرجة في الحديث ولا يصح رفعها.



(١) قد خالف في ذلك بعض العلماء كالنووي رحمته الله فقد حسنه في كتابه «الأذكار» (ص ٨٥).

الاسم الأعظم للربّ تبارك وتعالى

وقد ورد فيه عدة أحاديث صحيحة، وهي:

١ - حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك أني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. فقال: «لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجاب».

وفي رواية فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سُئِلَ به أعطى»^(١).

٢ - حديث أنس رضي الله عنه قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السموات

(١) إسناده صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٩٣، ١٤٩٤)، والترمذي (٣٥٤٢) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩٤٠٩، ١٧٤٥٦)، وابن حبان (٢٣٨٣)، والحاكم (٥٠٤/١) من طريق مالك بن مغول عن عبد الله بن بريدة الأسلمي عن أبيه به. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

قلت: وهو على شرط مسلم فقط، والرواية الثانية للترمذي. وأخرجه أحمد (٣٣٨/٤)، وأبو داود (٩٨٥)، والنسائي (٥٢/٣) عن عبد الوارث بن سعيد، ثنا حسين المعلم، عن ابن بريدة، حدثني حنظلة بن علي أن محجن بن الأدرع حدثه أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فإذا رجل قد قضى صلاته وهو يتشهد فقال: اللهم إني أسألك يا الله بأنك الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أن تغفر لي ذنوبي إنك أنت الغفور الرحيم. فقال رسول الله ﷺ: «قد غفر له» ثلاثاً، وإسناده صحيح ولم يأت فيه ذكر أنه دعا بالاسم الأعظم.

وأخرجه الحاكم (٥٠٤/١) عن الحسن بن الصباح، ثنا الأسود بن عامر، أنبا شريك، عن أبي إسحاق، عن ابن بريدة، عن أبيه أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأنك أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال: «لقد سأل الله باسمه الأعظم والأكبر الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سُئِلَ به أعطى»، وقال: صحيح على شرط مسلم، وقد ساقه شاهداً للحديث الأول. قال الترمذي: «وروى شريك هذا الحديث عن أبي إسحاق عن ابن بريدة عن أبيه وإنما أخذه أبو إسحاق عن مالك بن مغول». اهـ. وقد رواه الطحاوي في «المشكل» (٦١/١) عن شريك بن عبد الله عن أبي إسحاق ومالك بن مغول عن ابن بريدة عن أبيه، وشريك بن عبد الله هو النخعي القاضي صدوق يخطئ كثيراً.

والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيوم. فقال النبي ﷺ: «دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئِلَ به أعطى»^(١).

٣ - حديث أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في سور من القرآن ثلاث: في البقرة، وآل عمران، وطه»^(٢).

(١) أخرجه أحمد (١٥٨/٣، ٢٤٥)، وأبو داود (١٤٩٥)، والنسائي (٥٢/٣)، وابن حبان (٢٣٨٢) «زوائد»، والحاكم (٥٠٣/١)، والطحاوي في «المشكّل» (٦٢/١) عن خلف بن خليفة عن حفص بن أخي أنس عن أنس بن مالك به، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، قلت: خلف بن خليفة صدوق اختلط في الآخر.

وأخرجه أحمد (١٢٠/٣)، وابن أبي شيبة (٩٤١٠، ١٧٤٥٧)، وابن ماجه (٣٨٥٨) عن وكيع، ثنا أبو خزيمة عن أنس بن سيرين عن أنس بن مالك به، وإسناد حسن. أبو خزيمة هو نصر بن مرداس وقيل: صالح بن مرداس. قال أبو حاتم: لا بأس به، وقال الحافظ: صدوق. فالحديث صحيح بهذين الطريقين.

وأخرجه أحمد (٢٦٥/٣) قال: ثنا إسحاق بن إبراهيم الرازي، ثنا سلمة بن الفضل، حدثني محمد بن إسحاق، عن عبد العزيز بن مسلم، عن عاصم، عن إبراهيم بن عبيد الله بن رفاعه، عن أنس قال: مر رسول الله ﷺ بأبي عياش زيد بن صامت الزرقى وهو يصلي... فذكره. وقد أخرجه الطحاوي في «المشكّل» (٦٢/١) دون ذكر عاصم في الإسناد، عبد العزيز بن مسلم قال الحافظ: مقبول؛ أي: حيث يتابع وإلا لين الحديث، ومحمد بن إسحاق صاحب المغازي مدلس وقد عنعن هنا، وسلمة بن الفضل صدوق كثير الخطأ. ورواه الحاكم (٥٠٤/١): ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا الربيع بن سليمان، ثنا عبد الله بن وهب، أخبرني عياض بن عبد الله الفهري، عن إبراهيم بن عبيد، عن أنس بن مالك به دون ذكر اسم الصحابي، وفيه عياض بن عبد الله قال ابن معين: ضعيف الحديث، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال الساجي: روى عنه ابن وهب أحاديث فيها نظر. وأخرجه الترمذي (٣٦١٢): ثنا محمد بن أبي ثلج، ثنا يونس بن محمد، أخبرنا سعيد بن زريق، عن عاصم الأحول وثابت عن أنس به، وفيه سعيد بن زريق وهو العباداني. قال البخاري: عنده عجائب وضعفه أبو داود والنسائي، وقال أبو حاتم: عنده عجائب من المناكير.

(٢) صحيح لطرقه: أخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦)، والطحاوي في «مشكّل الآثار» (٦٣/١)، والطبراني في الكبير (٧٧٥٨) عن عمرو بن أبي سلمة الدمشقي: سمعت عيسى بن موسى سمع غيلان بن أنس يحدث عن القاسم عن أبي أمامة به، وزاد الطحاوي: قال أبو حفص: فنظرت في هذه السور الثلاث فرأيت فيها شيئاً ليس في القرآن مثلها. آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي آل عمران: ﴿أَلَمْ يَلَمْ يَلَمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [١١١]. وأبو حفص هو عمرو بن أبي سلمة التنيسي، صدوق له أوهام، وغيلان بن أنس قال الحافظ: مقبول؛ أي: حيث يتابع وإلا فلين. تنبيه: وقع عند الطحاوي علاء بن أنس وهو تصحيف.

وزواه الطحاوي (٦٣/١)، والطبراني في «الكبير» (٧٩٢٥)، والحاكم (٥٠٥/١) من طريق =

ويلاحظ أن الاسم الذي تكرر في هذه الأحاديث هو (الله)، فقد ورد في الحديث الأول وورد في الحديث الثاني بصيغة «اللهم». وإنما كان الأصل فيه «يا الله» فلما حذفوا الياء من أول الحرف زادوا الميم في آخره ليرجع المعنى الذي في «يا الله»^(١). وكذلك ورد في الآية التي استخرجها القاسم^(٢) من سورة البقرة وسورة آل عمران. وأما قوله في طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، فالظاهر أنه أخطأ فيه كما قال الطحاوي رحمه الله: «وقد يحتمل أن يكون هو ما في «طه» سوى ذلك وهو قول الله تعالى فيها: ﴿وَأَن يَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» الآية [طه: ٧، ٨]. فيرجع ما في «طه» إلى مثل ما رجع إليه ما في سورة البقرة وما في سورة آل عمران أنه الله تعالى^(٣).

وأما حديث أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ﴾ وَ﴿إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾» [البقرة: ١٦٣]، وفاتحة آل عمران: ﴿أَلَمْ يَلَمْ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿﴾ [آل عمران: ١، ٢]، فهو حديث ضعيف^(٤).

= هشام بن عمار، ثنا الوليد بن مسلم، ثنا عبد الله بن العلاء أنه سمع القاسم أبا عبد الرحمن يحدث عن أبي أمامة... فذكره، وفي رواية الحاكم قال القاسم: فالتمستها أنه الحي القيوم. وإسناده حسن.

القاسم هو ابن عبد الرحمن الشامي صدوق يرسل كثيراً. وقال البخاري وغيره: سمع من أبي أمامة. انظر: «التهذيب» (٣٢٢/٨)، وهشام بن عمار صدوق، كبير فصار يتلقن لكن تابعه عمار بن نصر عند الحاكم (٥٠٦/١): أخبرنا أبو عبد الله الصفار، ثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، حدثني عمار بن نصر، ثنا الوليد بن مسلم يمثل الإسناد السابق وزاد: فالتمستها فوجدت في سورة البقرة آية الكرسي ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وفي سورة طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾. والصفار هو محمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني الصفار. قال الذهبي في «السير» (٤٣٧/١٥): الشيخ الإمام المحدث القدوة، وعمار بن نصر صدوق، فالإسناد حسن. تنبيه: وقع في رواية الطبراني عبد الله بن العلاء بن زيد، والصحيح بن زبر بالموحدة، وهو ثقة من رجال البخاري.

(١) انظر تفصيل القول فيها في: «التفسير القيم» (ص ٢٠٢).

(٢) ورد في «مشكل الآثار» أن الذي استخرجها من القرآن هو أبو حفص عمرو بن أبي سلمة الدمشقي.

(٣) «مشكل الآثار» (٦٣/١).

(٤) الحديث رواه الإمام أحمد (٤٦١/٥)، وأبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٢)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وابن أبي شيبه (٩٤١٢، ١٧٤٥٥)، والدارمي في «السنن» فضائل القرآن (٢/٢٠٥٠)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٦٤/١) كلهم من طريق عبيد الله بن أبي زياد القداح، =

وقد اختار القول بأن الاسم الأعظم لله تعالى هو (الله) الطحاوي كما سبق، وكذا ابن القيم فقد قال - بعد أن بين لوازم أسماء الله الحسنی -: فاسم (الله) دالٌّ على جميع الأسماء الحسنی والصفات العليا بالدلالات الثلاث، فإنه دالٌّ على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنی إلى هذا الاسم العظيم: كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقال: «الرحمن والرحيم والقدوس والسلام والعزیز والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: (الله) من أسماء (الرحمن) ولا من أسماء (العزیز) ونحو ذلك.

«فعلم أن اسمه (الله) مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنی دالٌّ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنی تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم (الله) واسم (الله) دالٌّ على كونه مألوهاً معبوداً، تأله الخلاق محبة وتعظيماً وخضوعاً وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمن لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سمیع ولا بصیر ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أفعاله.

وصفات الجلال والجمال أخص باسم (الله). وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشیئة وكمال القوة وتدبير أمر الخلیقة أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان والجود والبر، والحنان والمِنَّة، والرأفة واللفظ أخص باسم «الرحمن»، وكرر إيداناً بثبوت الوصف وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته^(١).

وقد ساق فخر الدين الرازي في كتابه «شرح أسماء الله الحسنی» حجج من قال: «إن الاسم الأعظم هو (الله) منها:

= ثنا شهر بن حوشب عن أسماء مرفوعاً، وهذا إسناد ضعيف، فعبيد الله بن أبي زياد ضعفه ابن معين وأبو داود والنسائي وأبو حاتم وقال: لا يحتج به إذا انفرد، وقال الحافظ في «التقريب»: ليس بالقوي، وكذا شهر بن حوشب فقد ضعفه شعبة وابن عون وموسى بن هارون والنسائي، وقال الحافظ في «التقريب»: صدوق كثير الإرسال والأوهام، فالحديث ضعيف بهذه الطريق، والله أعلم.

(١) «مدارج السالكين» (٣٢/١، ٣٣).

١ - إن هذا الاسم ما أطلق على غير الله تعالى، فإن العرب كانوا يسمون الأوثان آلهة إلا هذا الاسم فإنهم ما كانوا يطلقونه على غير الله ﷻ، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]؛ معناها: هل تعلم من اسمه الله سوى الله؟ ولما كان هذا الاسم في الاختصاص بالله تعالى على هذا الوجه، وجب أن يكون أشرف أسماء الله ﷻ.

٢ - إن هذا الاسم هو الأصل في أسماء الله ﷻ وسائر الأسماء مضافة إليه. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فأضاف سائر الأسماء إليه، ولا محالة أن الموصوف أشرف من الصفة، ولأنه يقال: الرحمن الرحيم الملك القدوس كلها من أسماء الله تعالى، ولا يقال: الله اسم الرحمن الرحيم فدل هذا على أن الاسم هو الأصل.

فإن قيل: لفظ (الله) قد جعل نعتاً في قوله تعالى في أول سورة إبراهيم: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١) اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلَمْ يَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٢) [إبراهيم: ١، ٢] قلنا: قرأ نافع وابن عامر بالرفع على الاستثناف وخبره فيما بعده، والباقون بالجر عطفاً على قوله: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، وقال أبو عمرو: والخفض على التقديم والتأخير تقديره: صراط الله العزيز الحميد.

٣ - قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] خص هذين الاسمين بالذكر، وذلك يدل على أنهما أشرف من غيرهما، ثم إن اسم (الله) أشرف من اسم (الرحمن).

وأما أولاً: فلأنه يقال: قدمه في الذكر^(١).

وأما ثانياً: فلأن اسم الرحمن يدل على كمال الرحمة ولا يدل على كمال القهر والغلبة والعظمة والقدس والعزة، وأما اسم الله فإنه يدل على كل ذلك، فثبت أن اسم (الله) تعالى أشرف.

٤ - هذا الاسم له خاصية غير حاصلة في سائر الأسماء، وهي أن سائر الأسماء والصفات إذا دخل عليه النداء أسقط عنه الألف واللام، ولهذا لا يجوز أن يقال: يا الرحمن يا الرحيم، بل يقال: يا رحمن يا رحيم، أما هذا الاسم فإنه يحتمل هذا

(١) وأيضاً كل الناس يقدمون هذا الاسم في الذكر على سائر الأسماء، وكذا في الخطب والمواظ.

المعنى فيصح أن يقال: يا الله. وذلك أن الألف واللام في هذا الاسم صار كالجزء الذاتي فلا جرم لا يسقطان حالة النداء وفيه إشارة لطيفة، وذلك لأن الألف واللام للتعريف فعدم سقوطهما عن هذا الاسم يدل على أن هذه المعرفة لا تزول أبداً ألبة. اهـ باختصار^(١).



(١) «شرح أسماء الله الحسنى» (٩١ - ٩٦).

مسألة

* هل اسم (الله) مُشْتَقٌّ أو هو اسمٌ جَامِدٌ؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين أصحابهما أنه: مشتق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «زعم السهيلي وشيخه أبو بكر ابن العربي أن اسم الله غير مشتق^(١)؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها واسمه تعالى قديم، والقديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق، ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى، وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألمّ بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دالٌّ على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسماء الحسنى؛ كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير، فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة والقديم لا مادة له، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسمه (الله) ثم الجواب عن الجميع.

إننا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله، وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلاً وفرعاً، ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة.

وقال: ولا محذور في اشتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى». اهـ^(٢).



(١) وذهب الزجاج أيضاً أنه غير مشتق. انظر: «تفسير الأسماء» (ص ٢٥).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/٢٢، ٢٣).

أصل كلمة (الله) في اللغة

قال ابن الأثير^(١): «هو مأخوذ من إله وتقديرها فعلائية، بالضم، تقول: إله بين الإلهية والألهانية، وأصله من أله يألؤه إذا تحير، يريد إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف همه إليها، أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد». اهـ^(٢).

قال أبو الهيثم: فالله أصله إله، قال الله ﷻ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال: ولا يكون إلهاً حتى يكون معبوداً، وحتى يكون لعباده خالقاً ورازقاً ومدبراً وعليه مقتدر، فمن لم يكن كذلك فليس بإله وإن عبد ظلماً بل هو مخلوق ومُتَعَبَّد. قال: وأصل إله ولاء: فقلبت الواو همزة، كما قالوا للوشاح: إشاح، وللوجاح: إجاح، ومعنى ولاءه أن الخلق يولّهون إليه في حوائجهم ويضرعون إليه فيما يصيبهم ويفزعون إليه في كل ما ينوبهم كما يولّه كل طفل إلى أمه. وقد سمّت العرب الشمس لما عبدوها: إلهة.

وقد ضعف الزجاج هذا القول (وهو أن أصل إله: ولاء)^(٣).

وقال ابن سيده: والإلهة والألوهة والألوهية العبادة، وقد قرئ: ﴿وَيَذَرَكْ وَءَالِهَتَكْ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وقرأ ابن عباس: «وَيَذَرَكْ وإلهتك» بكسر الهمزة؛ أي: وعبادتك، وهذه الأخيرة عند ثعلب كأنها هي المختارة. قال: لأن فرعون كان يُعبد ولا يُعبد فهو على هذا ذو إلهة لا ذو آلهة، والقراءة الأولى أكثر والقراء عليها. قال ابن بري^(٤): يقوي ما ذهب إليه ابن عباس في قراءته «وَيَذَرَكْ وإلهتك» قول

(١) هو: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير صاحب كتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر» وكتاب «جامع الأصول» وغيرها. ولد سنة (٥٤٤هـ) بجزيرة ابن عمر - بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام - وكان به نقرس فكان يُحمل في محفة، توفي سنة (٦٠٦هـ) بالموصل. «السير» للذهبي (٤٨٨/٢١)، «وفيات الأعيان» (١٤١/١٤)، «الأعلام» (٢٧٢/٥).

(٢) «النهاية» (٦٢/١). (٣) «تفسير الأسماء» (ص ٢٥).

(٤) هو: عبد الله بن بري بن عبد الجبار المقدسي الأصل المصري، أبو محمد من علماء العربية النابيين، ولد سنة (٤٩٩هـ) بمصر ونشأ بها وتوفي سنة (٥٨٢هـ)، وليّ رئاسة الديوان =

فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقوله: ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وكانت العرب في الجاهلية يدعون معبوداتهم من الأوثان والأصنام آلهة، وهي جمع إلهة. قال الله ﷻ: ﴿وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتُكَ﴾ وهي أصنام عبدها قوم فرعون معه، و(الله) أصله إلاه، على فعال بمعنى مفعول لأنه مألوه؛ أي: معبود؛ كقوله: إمام فعال بمعنى مفعول لأنه مؤتم به، فلما أدخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرتة في الكلام^(١).

وقال ابن القيم: القول الصحيح أن (الله) أصله الإله، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم.

* تنبيه:

لا يشرع ذكر الله باسم الجلالة (الله) مفرداً.

وذلك أن بعض الجاهلين من المسلمين يذكر الله باسم الجلالة مفرداً، فيجعلون لهم أوراداً يرددون فيها لفظ الجلالة (الله) مرات عديدة كألف أو ألفين أو أكثر، وأحياناً يجتمعون على ذلك في حلقات وهم جالسون، أو وهم واقفون يتمايلون ذات اليمين وذات الشمال، ويقفزون بين الحين والآخر، ويصاحب ذلك دقات الطبول وأصوات المزامير!! وتشتد الأصوات حتى لا تسمع إلا (هو هو هو) أو (أه أه أه) أو (جع جع جع)، ويزعمون بعد هذه البدعة النكراء والفعلة الشنعاء أنهم يذكرون الله!!!

ومن قال: إنه يشرع للمسلم أن يردد هذا الاسم مفرداً؟! أو غيره من الأسماء؟! إن الأذكار التي جاءت عن النبي ﷺ لم تكن على هذه الصورة أبداً، ولم يسن لهم ذلك في حديث قط، بل كل الأذكار الصحيحة الواردة عنه نجد فيها أن لفظ الجلالة لا يذكر مفرداً، من ذلك قوله ﷺ: «من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطَّتْ عنه خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر»^(٢).

وقوله: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(٣).

= المصري، له «الرد على ابن الخشاب» و«غلط الضعفاء من المحدثين» ط. الأعلام (٧٤/٤).
(١) انظر: «لسان العرب» (١/١١٤، ١١٥)، وكذا الأقوال السابقة.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.

وقوله: «أحب الكلام إلى الله أربع لا يضرك بأيهن بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»^(١).

وهكذا سائر الأذكار الواردة عنه ﷺ، ولم يأت في حديث قط أنه ردّد هذا الاسم (الله) مفرداً.

* أحب الأسماء إلى الله تعالى: عبد الله وعبد الرحمن، كما جاء في الحديث الصحيح، وكشف عن سر ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله في كلامه على «الأسماء والكنى» في كتابه الممتع «زاد المعاد»:

«ولما كان الاسم مقتضياً لمسمّاه، ومؤثراً فيه كان أحب الأسماء إلى الله ما اقتضى أحبّ الأوصاف إليه؛ كعبد الله وعبد الرحمن، وكان إضافة العبودية إلى اسم الله واسم الرحمن، أحبّ إليه من إضافتها إلى غيرهما، كالقاهر والقادر، فعبد الرحمن أحبّ إليه من عبد القادر، وعبد الله أحبّ إليه من عبد ربّه، وهذا لأنّ التعلق الذي بين العبد وبين الله إنما هو العبودية المحضة، والتعلق الذي بين الله وبين العبد بالرحمة المحضة، فبرحمته كان وجوده وكمال وجوده، والغاية التي أوجده لأجلها: أن يتألّه له وحده محبة وخوفاً، ورجاء وإجلالاً وتعظيماً، فيكون عبداً لله، وقد عبده لما في اسم الله من معنى الإلهية التي يستحيل أن تكون لغيره. ولما غلبت رحمته غضبه، وكانت الرحمة أحبّ إليه من الغضب، كان عبد الرحمن أحبّ إليه من عبد القاهر»^(٢).



الرَّحْمَنُ - الرَّحِيمُ جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٢ - ٣)

* المعنى اللغوي:

الرحمة: هي الرقة والتعطف، والاسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، و(رحمن) أشد مبالغة من (رحيم)؛ لأن بناء فعْلان أشد مبالغة من فعيل، ونظيرهما نديم وندمان.

وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا^(١).

واتفق أكثر العلماء على أن اسم (الرحمن) عربي لفظه.

وقال ابن الحصار بعد سرده للحديث القدسي: «أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي...»: فقد دل هذا الحديث الصحيح على الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق^(٢).

وقال ثعلب: إنه عبراني الأصل، وكان رخماناً بالخاء المعجمة^(٣).

(١) «جامع البيان» (٤٣/١).

(٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٥٤ب).

(٣) «النهاية» لابن الأثير (٢٠٧/٢)، و«لسان العرب» (١٦١١/٣).

فائدة: اختلف الأئمة في وقوع المُعَرَّب في القرآن - أي ما هو بغير لغة العرب - فلا أكثرون ومنهم الشافعي وابن جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر وابن فارس على عدم وقوعه فيه؛ لقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَتَعْجَبُ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقد شدد الشافعي النكير على القائل ذلك. انظر: «الرسالة» (ص ٤٠ - ٥٣).

وقال ابن جرير: ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن إنها بالفارسية والحبشية والنبطية أو نحو ذلك. إنما اتفق فيها توارد اللغات فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام بعد أن حكى القول بالوقوع عن الفقهاء والمنع عن أهل العربية: والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء لكنها وقعت للعرب فعربتها بألستها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربية فهو صادق ومن قال: أعجمية، فصادق، ومال إلى هذا القول =

أما إنكار كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)»، فقال سهيل: أما (الرحمن) فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ٦٠﴾ [الفرقان: ٦٠].

فالظاهر أنه إنكار جحود وعناد وتعنت، ومما يدل على أنهم كانوا يعرفون هذا الاسم قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وقد جاء في بعض أشعار الجاهلية، كقول سلامة بن جندب الطهوي:
عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم وما يشأ (الرحمن) يعقد ويطلق
وقد ردّ ابن جرير بشدة علي من قال: إن العرب كانت لا تعرف (الرحمن) فقال:
وقد زعم أهل الغباء أن العرب كانت لا تعرف (الرحمن). اهـ. وبين أن ذلك كان جحوداً^(٢).

* ورود الاسمين في القرآن الكريم:

ذكر (الرحمن) في القرآن سبعاً وخمسين مرة، منها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

وقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وأما اسمه (الرحيم) فقد ذكر مائة وأربع عشرة مرة، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَأْبُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهو كثير في الكتاب، انظر مثلاً [البقرة: ١٧٣،

١٨٢، ١٩٩].

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ لِمَنِ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢٩،

= الجواليقي وابن الجوزي وآخرون. انظر: «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي (١/ ١٧٨ - ١٨٠).

(١) رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، والتصريح بأن الكاتب هو علي رضي الله عنه جاء في رواية أخرى للبخاري أيضاً برقم (٢٦٩٨).

(٢) «جامع البيان» (١/ ٤٤).

وقوله سبحانه: ﴿فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].
وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [٩] ترددت مراراً في الشعراء.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

وقوله: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦].

* معنى الاسمين في حق الله تعالى:

الاسمان كما قلنا مشتقان من الرحمة و(الرحمن) أشد مبالغة من (الرحيم)، ولكن ما الفرق بينهما؟ هناك قولان في الفرق بين هذين الاسمين:

الأول: إن اسم (الرحمن): هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة. و(الرحيم): هو ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فذكر الاستواء باسمه (الرحمن) ليعم جميع خلقه برحمته.
وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. فخص المؤمنين باسمه (الرحيم)^(١).

ولكن يُشكل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].
القول الثاني: هو أن (الرحمن) دال على صفة ذاتية، و(الرحيم) دال على صفة فعلية.

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ: «إن (الرحمن) دال على الصفة القائمة به سبحانه، و(الرحيم) دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل.
فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته.
وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجئ قط «رحمن بهم» فعلم أن (رحمن) هو الموصوف بالرحمة و(رحيم) هو الراحم برحمته. وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم ينجل لك صورتها»^(٢). اهـ.

(١) انظر: «جامع البيان» (٤٣/١)، وقد ذكر أقوالاً أخرى، إن شئت فراجعها (ص ٤٤، ٤٥).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢٤/١).

و(الرحمن) من الأسماء التي منع الله من التسمية بها، كما قال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، فعادل به الاسم الذي لا يشركه فيه غيره وهو (الله).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو الأشهب، عن الحسن قال: (الرحمن) اسم لا يستطيع الناس أن يتحلوه تسمى به تبارك وتعالى^(١). ولذا فلا يجوز أن يصرف للخلق.

وأما (الرحيم) فإنه تعالى وصف به نبيه ﷺ حيث قال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فيقال: رجل رحيم. ولا يقال: رحمن.

قال ابن كثير: «والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله و(الرحمن) والخالق والرازق ونحو ذلك، فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من (الرحيم)؛ لأن التسمية أولاً تكون بأشرف الأسماء فلهذا ابتداء بالأخص فالأخص»^(٢). اهـ.

* آثار الإيمان بهذين الاسمين:

١ - إثبات صفة الرحمة لله رب العالمين:

من صفات الله الثابتة بالكتاب والسنة «الرحمة»، وهي صفة كمال لا ثقة بذاته كسائر صفاته العلى، لا يجوز لنا أن ننفيها أو نعطلها؛ لأن ذلك من الإلحاد في أسمائه.

وأما قول الزمخشري وأصحابه: أن الرحمة مجاز في حق الله تعالى وأنها عبارة عن إنعامه على عباده^(٣)، فهي نزعة اعتزالية قد حفظ الله تعالى منها سلف المسلمين وأئمة الدين، فإنهم أقروا ما ورد على ما ورد، وأثبتوا لله تعالى ما أثبت له نبيه ﷺ من غير تصرف بكناية أو مجاز، وقالوا: لسنا أغير على الله من رسوله^(٤).

وقد ردّ ابن القيم رحمه الله تعالى على القائلين بأن رحمة الله مجاز، رداً مفصلاً، وأتى بما لا مزيد عليه في كتابه «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة». ولعظيم فائدتها فإننا نسوقها إليك باختصار:

(١) وأورده ابن كثير في تفسيره (٢١/١) وإسناده حسن.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: «الكشاف» (٤٥/١).

(٤) انظر: «روح المعاني» (٦٠/١).

الرد الأول: إن الإلحاد إما أن يكون بإنكار لفظ الاسم، أو بإنكار معناه، فإن كان إنكار لفظه إلحاداً، فمن ادعى أن (الرحمن) مجاز لا حقيقة فإنه يجوز إطلاق القول بنفيها، فلا يستنكف أن يقول: ليس بالرحمن ولا الرحيم. كما يصح أن يقال للرجل الشجاع: ليس بأسد على الحقيقة. وإن قالوا: نتأدب في إطلاق هذا النفي فالأدب لا يمنع صحة الإطلاق وإن الإلحاد هو إنكار معاني أسمائه وحقائقها، فقد أنكرتم معانيها التي تدل عليها بإطلاقها، وما صرفتموها إليه من المجاز فنقيض معناها، أو لازم من لوازم معناها، وليس هو الحقيقة، ولهذا يصرح غلاتهم بإنكار معانيها بالكلية ويقولون: هي ألفاظ لا معاني لها.

الرد الثاني: إن هذا الحامل لكم على دعوى المجاز في اسم (الرحمن) هو بعينه موجود في اسم العليم والقدير والسميع والبصير وسائر الأسماء. فإن المعقول من العلم صفة عَرَضِيَّة تقوم بالقلب إما ضرورية وإما نظرية، والمعقول من الإرادة حركة النفس الناطقة لجلب ما ينفعها ودفع ما يضرها، أو ينفع غيرها أو يضره.

والمعقول من القدرة القوة القائمة بجسم تتأتى به الأفعال الاختيارية، فهل تجعلون إطلاق هذه الأسماء والصفات على الله حقيقة أم مجازاً؟.

فإن قلتم: حقيقة تناقضتم أقبح التناقض، إذ عمدتم إلى صفاته سبحانه فجعلتم بعضها حقيقة وبعضها مجازاً، مع وجود المحذور فيما جعلتموه حقيقة.

وإن قلتم: لا يستلزم ذلك محذوراً، فمن أين استلزم اسم (الرحمن) المحذور؟ وإن قلتم: الكل مجاز، لم تمكنوا بعد ذلك من إثبات حقيقة الله ألبتة، لا في أسمائه ولا في الإخبار عنه بأفعاله وصفاته، وهذا انسلاخ من العقل والإنسانية.

الرد الثالث: إن نفاة الصفات يلزمهم نفي الأسماء من جهة أخرى، فإن العليم والقدير والسميع والبصير، أسماء تتضمن ثبوت الصفات في اللغة فيمن وصف بها، فاستعمالها لغير من وصف بها، استعمال للاسم في غير ما وضع له، فكما انتفت عنه حقائقها فإنه تنتفي عنه أسماؤها، فإن الاسم المشتق تابع للمشتق منه في النفي والإثبات، فإذا انتفت حقيقة الرحمة والعلم والقدرة والسمع والبصر انتفت الأسماء المشتقة منها عقلاً ولغة، فيلزم من نفي الحقيقة أن تنفي الصفة والاسم جميعاً.

الرد الرابع: إنه كيف يكون أظهر الأسماء التي افتتح الله بها كتابه في أم القرآن وهي من أظهر شعار التوحيد، والكلمة الجارية على السنة أهل الإسلام وهي: بسم الله الرحمن الرحيم التي هي مفتاح الطهور والصلاة وجميع الأفعال، فكيف يكون مجازاً؟

الرد الخامس: قولهم: الرحمة رقة القلب، تريدون رحمة المخلوق أم رحمة الخالق؟ أم كل ما سمي رحمة شاهداً أو غائباً؟.

فإن قلتم بالأول صدقتم ولم ينفعكم ذلك شيئاً، وإن قلتم بالثاني والثالث كنتم قائلين غير الحق، فإن الرحمة صفة (الرحيم) وهي في كل موصوف بحسبه، فإن كان الموصوف حيواناً له قلب فرحمته من جنسه رقة قائمة بقلبه، وإن كان ملكاً فرحمته تناسب ذاته.

فإذا اتصف أرحم الراحمين بالرحمة حقيقة لم يلزم أن تكون رحمته من جنس رحمة المخلوق لمخلوق.

وهذا يطرد في سائر الصفات كالعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة إلزاماً ووجوباً، فكيف يكون رحمة أرحم الراحمين مجازاً دون السميع العليم؟.

الرد السادس: إنه من أعظم المحال أن تكون رحمة أرحم الراحمين التي وسعت كل شيء مجازاً، ورحمة العبد الضعيفة القاصرة المخلوقة المستعارة من ربه التي هي من آثار رحمته حقيقة. وهل في قلب الحقائق أكثر من هذا؟.

الرد السابع: ما رواه أهل السنن عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: «أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته»^(١).

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤٩٨/٢)، والحاكم (١٥٧/٤) عن يزيد بن هارون، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله ﷻ...» فذكره، وهذا إسناد حسن، محمد بن عمرو هو ابن وقاص الليثي صدوق له أوهام، وللحديث طرق أخرى، فقد أخرجه أبو داود (١٦٩٤)، والترمذي (١٩٧٢) عن سفيان بن عيينة عن الزهري عن أبي سلمة عن عبد الرحمن بن عوف به. وقال الترمذي: صحيح. والحديث منقطع فإن أبا سلمة لم يسمع من أبيه شيئاً.

وجاء من طريق أخرى موصولاً: فقد أخرج أحمد (١٩٤/١)، وأبو داود (١٦٩٥)، وابن حبان (٢٠٣٣)، والحاكم (١٥٧/٤) الحديث من طريق معمر عن الزهري، ثني أبو سلمة أن أبا الرّدّاد الليثي أخبره عن عبد الرحمن بن عوف به. وقد نقل الترمذي عن البخاري قوله أن هذا خطأ من معمر. ولكن معمر لم يتفرد فقد تابعه شعيب بن أبي حمزة، وهو من أثبت الناس في الزهري عند الإمام أحمد (١٩١/١)، والحاكم (١٥٨/٤)، ومتابعة أخرى عند الحاكم لسفيان بن عيينة (١٥٨/٤)، وثالثة عند الحاكم أيضاً لمحمد بن أبي عتيق (٤/١٥٨)، وأبو الرّدّاد، وقيل: رّدّاد الليثي، قال الحافظ: مقبول.

وللحديث طريق أخرى عند أحمد (١٩١/١) عن هشام الدستوائي عن يحيى بن أبي كثير عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ أن أباه حدّثه أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف... فذكره. وعبد الله بن قارظ لا يعرف. فالحديث بجمله هذه الطرق صحيح.

فهذا صريح في أن اسم الرحمة مشتق من اسمه (الرحمن) تعالى، فدل على أن رحمته لما كانت هي الأصل في المعنى كانت هي الأصل في اللفظ، ومثل هذا قول حسان رضي الله عنه في النبي ﷺ:

فَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِیُجْلَهُ فُذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ
فإذا كانت أسماء الخلق الممدوحة مشتقة من أسماء الله الحسنى، كانت أسماؤه يقيناً سابقة فيجب أن تكون حقيقة؛ لأنها لو كانت مجازاً، لكانت الحقيقة سابقة لها، فإن المجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، فيكون اللفظ قد سمي به المخلوق، ثم نقل إلى الخالق وهذا باطل قطعاً.

الرد الثامن: ما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَاباً فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»، وفي لفظ: «غلبت».

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فوصف نفسه سبحانه بالرحمة وتسمى بال(الرحمن) قبل أن يكون بنو آدم.

فادعاء المدعي أن وصفه بال(الرحمن) مجاز من أبطل الباطل.

الرد التاسع: إنه من المعلوم أن المعنى المستعار يكون في المستعار منه أكمل في المستعار له، وأن المعنى الذي دلّ عليه اللفظ بالحقيقة أكمل من المعنى الذي دلّ عليه بالمجاز، وإنما يستعار لتكميل المعنى المجازي تشبيهه بالحقيقي، كما يستعار الشمس والقمر والبحر للرجل الشجاع والجميل والجواد.

فإذا جعل (الرحمن) و(الرحيم) والودود وغيرهما من أسمائه سبحانه حقيقة في العبد، مجازاً في الرب، لزم أن تكون هذه الصفات في العبد أكمل منها في الرب تعالى.

الرد العاشر: إن الله ﷻ فرق بين رحمته ورضوانه وثوابه المنفصل، فقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].

فالرحمة والرضوان صفته، والجنة ثوابه، وهذا يبطل قول من جعل الرحمة والرضوان ثواباً منفصلاً مخلوقاً، وقول من قال: هي إرادته الإحسان، فإن إرادته الإحسان هي من لوازم الرحمة، فإنه يلزم من الرحمة أن يريد الإحسان إلى المرحوم فإذا انتفت حقيقة الرحمة انتفى لازمها وهو إرادة الإحسان^(١).

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (١١٢/٢ - ١٢٦)، وبقيت بعض الردود على القائلين بالمجاز نستوفيها في الفقرات التالية إن شاء الله تعالى.

٢ - ظهور آثار رحمة الله سبحانه على الخلق بجلاء:

قال ابن القيم رحمه الله: «إن ظهور هذه الصفة في الوجود كظهور أثر صفة الربوبية والملك والقدرة، فإن ما لله على خلقه من الإحسان والإنعام شاهد برحمة تامة وسعت كل شيء، كما أن الموجودات كلها شاهدة له بالربوبية التامة الكاملة.

وما في العالم من آثار التدبير والتصريف الإلهي شاهد بملكه سبحانه. فجعل صفة الرحمة واسم الرحمة مجازاً، كجعل صفة الملك والربوبية مجازاً، ولا فرق بينهما في شرع ولا عقل ولا لغة. وإذا أردت أن تعرف بطلان هذا القول، فانظر إلى ما في الوجود من آثار رحمته الخاصة والعامة.

فبرحمته أرسل إلينا رسوله ﷺ، وأنزل علينا كتابه وعلمنا من الجهالة، وهدانا من الضلالة، وبصّرنا من العمى، وأرشدنا من الغي.

وبرحمته عرفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرفنا به أنه ربنا ومولانا، وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم، وأرشدنا لمصالح ديننا ودنيانا.

وبرحمته أطلع الشمس والقمر وجعل الليل والنهار، وبسط الأرض وجعلها مهاداً وفراشاً وقراراً وكفاتاً للأحياء والأموات.

وبرحمته أنشأ السحاب وأمطر المطر وأطلع الفواكه والأقوات والمرعى.

ومن رحمته سخر لنا الخيل والإبل والأنعام وذللها منقاداً للركوب والحمل والأكل والدر.

وبرحمته وضع الرحمة بين عباده ليتراحموا بها وكذلك بين سائر أنواع الحيوان، فهذا التراحم الذي بينهم بعض آثار الرحمة التي هي صفته ونعمته، واشتق لنفسه منها اسم (الرحمن الرحيم)، وأوصل إلى خلقه معاني خطابه برحمته وبصرهم ومكّن لهم أسباب مصالحهم برحمته.

وأوسع المخلوقات عرشه وأوسع الصفات رحمته، فاستوى على عرشه الذي وسع المخلوقات بصفة رحمته التي وسعت كل شيء.

ولما استوى على عرشه بهذا الاسم الذي اشتقه من صفته وتسمى به دون خلقه، كتب مقتضاه على نفسه يوم استوائه على عرشه حين قضى الخلق كتاباً فهو عنده وضعه على عرشه (إن رحمته سبقت غضبه)، وكان هذا الكتاب العظيم الشأن؛ كالعهد منه سبحانه للخلقة كلها بالرحمة لهم والعفو عنهم والصفح عنهم والمغفرة

والتجاوز والستر والإمهال والحلم والأناة. فكان قيام العالم العلوي والسفلي بمضمون هذا الكتاب، الذي لولاه لكان للخلق شأن آخر.

وكان عن صفة الرحمة الجنة وسكانها وأعمالهم، فبرحمته خلقت، وبرحمته عمرت بأهلها، وبرحمته وصلوا إليها، وبرحمته طاب عيشهم فيها. وبرحمته احتجب عن خلقه بالنور، ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

ومن رحمته أنه يعيد من سخطه برضاه، ومن عقوبته بعفوه، ومن نفسه بنفسه. ومن رحمته أن خلق للذكر من الحيوان أنثى من جنسه وألقى بينهما المحبة والرحمة، ليقع بينهما التواصل الذي به دوام التناسل وانتفاع الزوجين، ويمتع كل واحد منهما بصاحبه.

ومن رحمته أحوج الخلق بعضهم إلى بعض لتتم مصالحهم، ولو أغنى بعضهم عن بعض لتعطلت مصالحهم، وانحل نظامهم، وكان من تمام رحمته بهم أن جعل فيهم الغني والفقير، والعزیز والذليل، والعاجز والقادر، والراعي والمرعي، ثم أفقر الجميع إليه، ثم عمّ الجميع برحمته.

ومن رحمته أنه خلق مائة رحمة، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض، فأنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة، نشرها بين الخليقة ليتراحموا بها، فيها تعطف الوالدة على ولدها، والطير والوحش والبهائم، وبهذه الرحمة قوام العالم ونظامه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن: ١ - ٤] كيف جعل الخلق والتعليم ناشئاً عن صفة الرحمة متعلقاً باسم (الرحمن)، وجعل معاني السورة مرتبطة بهذا الاسم وختمها بقوله: ﴿بَارَكَ أَنْتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمن: ٧٨]، فالاسم الذي تبارك هو الاسم الذي افتتح به السورة، إذ مجيء البركة كلها منه، وبه وضعت البركة في كل مبارك فكل ما ذكر عليه بورك فيه، وكل ما أخلي منه نزعته منه البركة^(١). اهـ.

٣ - سعة رحمة الله تعالى:

قال تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

(١) مختصر الصواعق (١٢١/٢ - ١٢٤).

يخبر تعالى شأنه عن رحمته التي وسعت وشملت كل شيء في العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المسلم والكافر، فما من أحدٍ إلا وهو يتقلب في رحمة الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار.

ولكن للمؤمنين الرحمة الخاصة بهم، والتي يسعدون بها في الدارين، ولذلك قال في تمام الآية السابقة: ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فالكافر لا رحمة له في الآخرة.

وفتح الله تعالى أبواب رحمته للتائبين فقال: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال ﷺ في ذلك: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»^(١).

وسمى الله تعالى وحيه إلى أنبيائه بالرحمة، كما في قوله تعالى مُخْبِرًا عَنْ نوح ﷺ: ﴿قَالَ يَقْوَرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَتَةِ مِنْ رَبِّي وَعَٰلَتْنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾ [هود: ٢٨]، يشير إلى ما خصه الله به من الوحي والعلم والحكمة.

وكذلك قال صالح ﷺ: ﴿وَعَٰلَتْنِي مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ [هود: ٦٣].

وقوله تعالى عن نبينا ﷺ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ويختار لوحيه رجالاً يختصهم بذلك، بعلمه وحكمته، كما قال سبحانه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٤].

٤ - رحمة الله تغلب غضبه:

وقد ثبت في ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه - وهو يكتب على نفسه وهو وضع عنده على العرش - إن رحمتي تغلب غضبي»، وفي رواية: «إن رحمتي سبقت غضبي»^(٢).

وهذا الحديث موافق لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقوله: «وهو يكتب على نفسه»؛ لأنه لا أمر له سبحانه ولا ناهي يوجب عليه ما يلزمه المطالبة به، ولكن الله ينجز عبادته ما وعدهم وهو لا يخلف الميعاد.

(١) رواه مسلم (٢٧٥٥/٤) عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة به.

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٤، ٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٣، ٧٥٥٤)، ومسلم (٢٧٥١).

٥ - لله جل ثناؤه مائة رحمة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة - وفي رواية: كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض - فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمةً وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة».

وفي رواية: «إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمةً واحدةً بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها - وفي رواية: حتى ترفع الدابة حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه - وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»^(١).

٦ - الله ﷻ أرحم بعباده من الأم بولدها :

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي - وفي رواية البخاري: تسعى - إذ وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟»، قلنا: لا والله! وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(٢).

(١) رواه البخاري (٩٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٢/١٨، ١٩)، (٢١/٢٧٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

فائدة: قال الرازي كتابه «الأسماء الحسنى» مستعرضاً بعض التساؤلات على صفة «الرحمة»: السؤال الثاني: ما معنى كونه رحيماً وكونه أرحم الراحمين؟ فإن الرحيم إذا رأى مبتلى أو معدوماً وهو يقدر على إزالة البلاء عنه فإنه لا بد وأن يزيله، والرب ﷻ قادر على إزالة كل محنة ودفع كل بلية، ثم نرى الدنيا طافحة بالشُرور والآفات والمحن والبليات، وهو تعالى قادر على إزالتها، ثم إنه لا يزيل شيئاً منها، بل نرى أنه خلق السباع والمؤذيات وسلط بعضها على بعض حتى إن بعضها يقتل بعضاً وبعضها يغتذي من بعض، فكيف تتحقق الرحمة مع أن الأمر كذلك؟.

فأجاب بعد أجوبة قول أهل السنة، منها: هو أن (الرحيم) هو الذي يفعل الرحمة ويوصل النعمة، وليس من شرط كونه رحيماً أن لا يفعل إلا الرحمة فهو تعالى رحيم، كريم، جواد، ودود، رؤوف في حق بعض عباده، وقهار جبار منتقم في حق آخرين. اهـ. انظر (ص ١٦١ - ١٦٣)، وينحوه قال ابن العربي «الأسنى»، ورقة (٢٦٠ب).

والمسألة لها تعلق بالقدر، فإن الله سبحانه لا يقدر الشر المحض؛ لأنه منزه عنه، كما قال ﷻ: «والخير كله بيدك والشر ليس إليك» رواه مسلم، فما كان شراً لبعض الناس قد يكون فيه خير لغيره، فوجود الشر في الأرض إنما هو الحكمة. راجع: «الطحاوية» (ص ٤١٢).

٧ - اتصاف الإنسان بالرحمة:

الرحمة من الأخلاق العظيمة التي حض الله سبحانه عباده على التخلق بها، فقد مدح بها أشرف رسله فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].
وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].
وقال سبحانه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومن أسمائه ﷺ: «نبي الرحمة»^(١).
ومدح النبي ﷺ أفضل أصحابه من بعده بهذه الصفة فقال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر...»^(٢).
وبيّن ﷺ أن الرحمة تنال عباده الرحماء فقال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»، وفي رواية: «لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَّا الرَّحْمَاءُ»^(٣).
وقال ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمَهُ اللَّهُ»^(٤).
وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أَتُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ؟ فقالوا: نعم، فقالوا: لكننا والله ما نُقَبِّلُ. فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ»، وفي رواية: «مَنْ قَلَبَكَ الرَّحْمَةُ»^(٥).

(١) رواه مسلم (٢٣٥٥).

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد (١٨٤/٣)، وابن ماجه (١٥٥) عن وكيع عن سفيان عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أنس. قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي أبو بكر، وأشدّها في دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمها بالحلّ والحرام معاذ بن جبل، وأقروها أبي، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»، وقد تابعه وهيب بن خالد وسفيان هو الثوري. أخرجه أحمد (٢٨١/٣)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (١٣٨).

وتابعهما عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي عند ابن ماجه (١٥٤)، والنسائي في فضائل الصحابة (١٨٢)، وابن حبان (٢٢١٨، ٢٢١٩) وزاد: «وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على رجل أصدق ذي لهجة من أبي ذر أشبه عيسى في ورعه، ألا وإن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»، وعبد الوهاب ثقة تغير قبل موته.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ٥٦٥٥، ٦٦٠٢، ٦٦٥٥، ٧٣٧٧، ٧٤٤٨)، ومسلم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد، وفيه بكاءه ﷺ على ابن بنته لما رفع إليه، وقول سعد بن عبادة: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله...».

(٤) أخرجه البخاري (٧٣٧٦)، ومسلم (٢٣١٩) عن جرير بن عبد الله واللفظ لمسلم.

(٥) أخرجه البخاري (٥٥٩٨)، ومسلم (٢٣١٧)، وقاله النبي ﷺ للأقرع بن حابس.

وهذه الأحاديث وغيرها فيها بيان فضل الرحمة والتخلّق بها، وأن الشقي هو الذي نزع من قلبه الرحمة؛ لأن ذلك معناه المنع من الدخول في رحمة الله.

٨ - طاعة الله ورسوله سبب للرحمة:

واعلم أنه كلما كان الإنسان أقرب إلى الله تعالى كانت رحمة الله أولى به؛ أي: كلما كان العبد طائعاً لله ولرسوله ﷺ عاملاً بما أمره به الله ورسوله ﷺ، منتهياً عما نهاه الله ورسوله عنه، كان استحقاقه للرحمة أعظم. قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال ﷻ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

٩ - تسمية الله ﷻ بعض النعم بالرحمة:

وقد سمى الله سبحانه بعض نعمه بالرحمة؛ كالمطر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]؛ أي: يرسل الرياح تبشر بقدوم الغيث.

وسمى رزقه بالرحمة في قوله: ﴿وَأِمَّا نُرْصِصَ عَنْهُمْ أُنْعَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨]؛ أي: إذا سألك أقاربك وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة فقل لهم قولاً ميسوراً؛ أي: عدهم باللين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله.

وسمى الله كتابه العزيز بالرحمة، في غير ما آية؛ كقوله تعالى: ﴿وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وسمى الله سبحانه الجنة بالرحمة، وهي أعظم رحمة خلقها الله لعباده الصالحين، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْغَضْتَ وُجُوهَهُمْ فَبِئْسَ رَحْمَةً أَلَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧]، وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١]، وغيرها من الآيات.

١٠ - العزم عند سؤال الله سبحانه الرحمة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم في المسألة، فإنه لا مُستكره له»، وفي رواية:

«وليعزم مسألته إنه يفعل ما يشاء لا مكره له»^(١).

أي: إذا دعوتم الله فاعزموا في الدعاء؛ أي: اجزموا ولا ترددوا، من عزمت على الشيء: إذا صممت على فعله، وقيل: عزم المسألة: الجزم بها من غير ضعف في الطلب.

وقوله: «لا مكره له»؛ لأن في الاستثناء والتعليق صورة المستغني عن الشيء، أو لأن التعليق يوهم إمكان إعطائه على غير المشيئة، وليس بعد المشيئة إلا الإكراه، والله لا مكره له^(٢).

اللهم رحمتك نرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.



(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٩، ٧٤٤٧).

(٢) انظر: «الفتح» (١١/١٤٠)، (١٣/٤٥١).

الملك - المالك - المليك

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٤ - ٥ - ٦)

* المعنى اللغوي:

المُلْك: معروف وهو يذَّكر ويؤنث كالسلطان، ومُلْك الله تعالى وملكوته: سلطانه وعظمته وعزته.

والمَلِك والمَلِك والمَلِك والمَلِك: ذو الملك.

قال ابن سيده: المَلِك والمُلْك والمَلِك: احتواء الشيء والقدرة على الاستبداد به. وتملَّكه: أي ملكه قهراً، وأملكه الشيء وملَّكه إياه تمليكاً جعله ملكاً له، وأملكوه: زوجوه، شبه الزوج بملك عليها في سياستها.

والملكوت مختص بملك الله تعالى، وهو مصدر مَلَك أدخلت فيه التاء نحو: جبروت ورهبوت ورحموت، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وملك العجین: شددت عجنه؛ أي: قوي عليه فأجاد عجنه^(١).

* وروده في القرآن العظيم:

ورد (الملك) في القرآن خمس مرات، منها قوله تعالى: ﴿فَنَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ [الحشر: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٢].

وورد (الملك) مرتين، في قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وأما (المليك) فلم يرد إلا مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْتَّقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

(١) «النهاية» (٤/٣٥٨)، «اللسان» (٦/٤٢٦٦)، «غريب الحديث» لأبي عبيد (٣/٣٢٩)، «المفردات» للراغب (ص ٤٧٢).

* المعنى في حق الله تعالى :

قال الزجاج: وقال أصحاب المعاني: (الملك)، النافذ الأمر في ملكه، إذ ليس كل مالك ينفذ أمره أو تصرفه فيما يملكه. ف(الملك) أعم من (المالك)، والله تعالى مالك المالكين كلهم، وإنما استفادوا التصرف في أملاكهم من جهته تعالى^(١). اهـ.

قال الخطابي: (الملك): هو التام الملك الجامع لأصناف المملوكات، فأما (المالك): فهو الخاص الملك^(٢).

وقال الليث: (المَلِكُ) هو الله تعالى وتقدس، مَلِكُ الملوك، له الملك، وهو مالك يوم الدين وهو ملك الخلق؛ أي: ربهم ومالكهم^(٣).

وقال ابن جرير: (الملك) الذي لا مَلِكَ فوقه ولا شيء إلا دونه^(٤).

قال ابن كثير: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ [الحشر: ٢٣]؛ أي: (المالك) لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا مُمانعة ولا مدافعة^(٥).

وما ذكروه من ثبوت الملكية المطلقة لله وحده لا شريك له، وأن له كمال التصرف والقدرة في ملكه ظاهر جداً في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٤٩]، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢]. فذكر ملكه العظيم الشاسع، ثم ذكر قدرته التامة في ملكه وأنه لا يعجزه شيء. وكقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ أي: لا يثقل عليه ولا يعجزه حفظ هذا الملك العظيم.

وقد قال الزجاج: إِنَّ أصل المَلِك في الكلام: الربط والشد، يقال: ملكت العجين أملكه مَلَكاً، إذا شددت عجنه، وإملاك المرأة من هذا إنما هو ربطها بالزواج^(٦). وهذا الربط والشد يرجع حاصله إلى القدرة التامة الكاملة.

أما الناس فقد تملك مع العجز عن التصرف، كأن يكون المالك صبيّاً أو مجنوناً، وليهما لا مَلِك له مع أن التصرف ثابت له.

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٤٠).

(١) «تفسير أسماء الله الحسنى» (ص ٣٠).

(٤) «جامع البيان» (٣٦/٢٨).

(٣) «اللسان» (٤٢٦٦/٦).

(٦) «أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص ٣٠).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٣٤٣/٤).

مسألة: أيهما أبلغ الملك أو المالك؟

قال الشوكاني: وقد اختلف العلماء أيهما أبلغ ملك أو مالك؟ فقليل: إن مَلِك أعم وأبلغ، إذ كل ملك مالك، وليس كل مالك ملك، ولأن أمر (الملك) نافذ على (المالك) في ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير (الملك). قاله أبو عبيد والمبرد ورجحه الزمخشري.

وقيل: مالك أبلغ لأنه يكون مالكا للناس وغيرهم، فلا (المالك) أبلغ في مدح الخالق من ملك، وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك؛ لأن (المالك) من المخلوقين قد يكون غير ملك، وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا. واختار هذا القاضي أبو بكر ابن العربي.

ثم قال الشوكاني: «والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر، فلا (المالك) يقدر على ما لا يقدر عليه (الملك) من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعق ونحوها، و(الملك) يقدر على ما لا يقدر عليه (المالك) من التصرفات العائدة إلى تدبير (الملك) وحياطته ورعاية مصالح الرعية، فلا (المالك) أقوى من (الملك) في بعض الأمور، و(الملك) أقوى من (المالك) في بعض الأمور، والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن (الملك) صفة لذاته و(المالك) صفة لفعله»^(١). اهـ.

* آثار الإيمان بهذه الأسماء:

١ - إن الملك الحقيقي لله وحده لا يشركه فيه أحد، وكل من مَلَك شيئا فإنما هو بتملك الله له، قال ﷺ: «لا مالك إلا الله»، وفي رواية: «لا ملك إلا الله»^(٢).

وقد يسمي بعض المخلوقين مَلِكا، إذا اتسع ملكه إلا أن الذي يستحق هذا الاسم هو الله جل وعز؛ لأنه مالك الملك، وليس ذلك لأحد غيره، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير^(٣). فالمخلوقات لا تملك شيئا، وقد أنكر تعالى على المشركين الذين عبدوا هذه المخلوقات التي هي مثلهم في الضعف والعبودية لله تعالى، وأنها لا تملك من السموات والأرض شيئا ولا مثقال ذرة، ولا تنفع أحدا ولا تضره.

(١) «فتح القدير» (١/٢٢).

(٢) الفقرة الأخيرة من حديث رواه مسلم (٢١٤٣) عن أبي هريرة.

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٤٠).

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ^(١)﴾ [فاطر: ١٣].

فالله تبارك وتعالى هو (المالك) لخزائن السموات والأرض، بيده الخير، يرزق من يشاء، وهو (المالك) للموت والحياة والنشور، والنفع والضرر، وإليه يرجع الأمر كله، فهو (المالك) لجميع الممالك، العلوية والسفلية وجميع من فيهما ممالك لله فقراء مدبرون.

وهو سبحانه كل يوم هو في شأن يتصرف في ملكوته كيف يشاء، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قال: «مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا وَيُفَرِّجَ كَرْبًا وَيَرْفَعَ قَوْمًا وَيَخْفِضَ آخَرِينَ»^(٢).

(١) «القطمير»: هو اللفافة التي تكون نواة التمرة؛ أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذه اللفافة.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم (٦٢٠/٨) موقوفاً على أبي الدرداء، وأخرجه موصولاً ابن ماجه (٢٠٢)، وابن حبان (١٧٦٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٠١) عن هشام بن عمار، ثنا الوزير بن صبيح، ثنا يونس بن حليس، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء، به. وقال البوصيري في «الزوائد» (ص ٢٨): هذا إسناد حسن لتقاصر الوزير عن درجة الحفاظ والإتقان، قال فيه أبو حاتم: صالح. وقال دحيم: ليس بشيء. وقال أبو نعيم: «كان يعد من الأبدال ربما أخطأ وذكره ابن حبان في الثقات». اهـ. وقد تابع هشام بن عمار صفوان بن صالح، وذلك في رواية البزار (٢٢٦٣)، وزاد هو وابن أبي عاصم: «ويجب داعياً».

ورواه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٢٧٣/٤) عن الوزير صبيح: سمعت يونس بن ميسرة يحدث عن أم الدرداء، عن النبي ﷺ، به. وهذا مرسل فإن أم الدرداء هي الصغرى، وأما الكبرى فلا رواية لها في الكتب الستة، والصغرى ثقة فقيهة من الثالثة، قاله الحافظ في «التقريب». وأخرجه من طريق أخرى ابن عساكر، عن يحيى بن إسماعيل، عن أبيه، عن أم الدرداء مرفوعاً، به.

قال الحافظ في «الفتح» (٦٢٣/٨): «وصله المصنف - أي البخاري - في «التاريخ»، وابن حبان في «الصحيح»، وابن ماجه، وابن أبي عاصم، والطبراني عن أبي الدرداء مرفوعاً، وأخرجه البيهقي في «الشعب» من طريق أم الدرداء عن أبي الدرداء موقوفاً، وللمرفوع شاهد آخر عن =

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله ﻻ يملككم». أنا الدهر، الأيام والليالي لي، أجددها وأبليها، وآتي بملوك بعد ملوك»^(١).

ولكن من الناس من يطغى ويظن أنه المالك الحقيقي وينسى أنه مستخلف فقط فيما آتاه الله من ملك ومال وجاه وعقار، فيتكبر ويتجبر ويظلم الناس بغير حق، كما حكى الله سبحانه عن فرعون عليه لعنة الله الذي نسى نفسه وضعفها وزعم لنفسه الملك؛ بل والألوهية، قال تعالى عنه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَفْعَلُونَ لِيَ مَلِكٌ مِّثْرِي وَكَذَٰلِكَ يُخَيِّرُ الْمُخَوَّبُونَ أَوَّلًا مِّنْ نَّحْنُ﴾ [الزخرف: ٥١].

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿١٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤].

ودعا قومه إلى هذه الضلالة الكبرى فاستجابوا له فعاقبهم الله جميعاً، قال تعالى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا^(٢) أَنْفَقْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ [الزخرف: ٥٤ - ٥٦]. وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦].

وإهلاك الله سبحانه لفرعون وقومه عبرة لكل ظالم متكبر من ملوك الأرض، تفرعن على الناس فيما آتاه الله من ملك، وظن أنه مخلد، ونسي أن ملكه زائل، وأن إقامته في ملكه مؤقتة، وأن الموت مدركه لا محالة، قال تعالى منبهاً عباده إلى ذلك: ﴿وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

= ابن عمر أخرجه البزار، وآخر عن عبد الله بن منيب أخرجه الحسن بن سفيان والبزار وابن جرير والطبراني. اهـ.

وحديث ابن عمر في البزار (٢٢٦٨)، وفيه محمد بن عبد الرحمن البيلماني ضعيف متهم. وحديث ابن منيب أخرجه ابن جرير (٧٩/٢٧)، وابن أبي عاصم (٣٠١) معلقاً. قال الهيثمي في «المجمع» (١١٧/٧): رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» والبزار، وفيه من لم أعرفهم.

قلت: فيه عمرو بن بكر، وهو السكسكي متروك، وهو لا يصلح شاهداً للحديث، وكذا الحديث الذي قبله. وانظر: «تغليق التعليق» (٣٣٢/٤).

(١) حديث حسن: أخرجه أحمد في مسنده (٤٩٦/٢): ثنا ابن نمير، ثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن ذكوان، عن أبي هريرة مرفوعاً، ورجاله رجال الشيخين سوى هشام بن سعد فمن رجال مسلم وحده فقد أخرج له في الشواهد قاله الحاكم، وفي حفظه شيء، قال الحافظ في «التقريب»: صدوق له أوهام ورمي بالتشيع. ومع قوله هذا فقد حكم لإسناده بالصححة في «الفتح» (٥٦٥/١٠)، والحديث حسن فقط وأصله في الصحيحين.

(٢) آسفونا؛ أي: أغضبونا.

٢ - وإذا كان الملك المطلق إنما هو الله وحده لا شريك له، فالطاعة المطلقة إنما هي له وحده لا شريك له؛ لأن من سواه من ملوك الأرض إنما هم عبيد له وتحت إمرته.

فلا بدّ من تقديم طاعة الملك الحق على طاعة من سواه، وتقديم حكمه على حكم غيره؛ لأن طاعته سبحانه أوجب من طاعة غيره؛ بل لا طاعة لأحد إلا في حدود طاعته، أما في معصيته فلا سمع ولا طاعة.

٣ - عدم جواز التسمية بملك الملوك:

وقد ورد في ذلك الحديث المتفق عليه حديث سفيان بن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أخنع اسم عند الله - وقال سفيان غير مرة: «أخنع الأسماء عند الله» - رجلٌ تسمّى بملك الأملاك»، وفي رواية: «أخنى الأسماء يوم القيامة...».

قال سفيان: يقول غيره - أي غير الزناد - تفسيره: شاهان شاه^(١).

ومعنى أخنع: أوضع اسم وأذله. قال أبو عبيد: الخانع: الذليل، وخنع الرجل: ذل. قال ابن بطال: وإذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمي به أشد ذلاً.

ومعنى أخنى: أي أفحش اسم من الخنا، وهو الفحش في القول.

وجاء في رواية مسلم: «أَغِيْظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبِثُهُ وَأَغِيْظُهُ عَلَيْهِ».

قال ابن حجر: واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمي بهذا الاسم لورود الوعيد الشديد، ويلتحق به ما في معناه مثل خالق الخلق، وأحكم الحاكمين، وسلطان السلاطين، وأمير الأمراء^(٢).

وأخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مَلِكُ الْأَمْلاَكِ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللَّهُ»^(٣).

(١) رواه البخاري (٦٢٠٥، ٦٢٠٦)، ومسلم (٢١/١٢٤٣).

(٢) «الفتح» (١٠/٥٩٠).

(٣) أخرجه أحمد (٤٩٢/٢) قال: ثنا محمد بن جعفر وروح، قالوا: ثنا عوف، عن خلاص، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ ﷻ عَلَى رَجُلٍ قَتَلَهُ نَبِيَّهُ وَقَالَ رُوحٌ: قَتَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ - وَاشْتَدَّ غَضَبُ...» فذكره، وهذا إسناد صحيح رجاله رجال الصحيحين، وخلاص: هو ابن عمرو الهجري. قال أحمد: ثقة ثقة. وقال أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل يقول: لم يسمع من أبي هريرة شيئاً. قال ابن حجر في مقدمة «الفتح» (ص ٤٠١): روايته عنه عند البخاري أخرج له حديثين قرنه فيهما معاً بمحمد بن سيرين، وليس له عنده غيرهما، فالحديث لا ينزل عن رتبة الحسن وله طريق أخرى ضعيفة عند الطبراني في «الكبير» (١٢١٣) من =

قال المناوي في شرحه: «أي من تسمى بذلك ودُعي به، وإن لم يعتقده فإنه لا ملك في الحقيقة إلا الله، وغيره وإن سمي ملكاً أو مالِكاً فإنما هو بطريق التجوز، وإنما اشتد غضبه عليه لمنازعة الله في ربوبيته وألوهيته، فهو حقيق بأن يمقته عليه فيهيئه غاية ألّهوان ويذله غاية الذل ويجعله تحت أقدام خلقه لجرأته، وعدم حياته في تشبهه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا له، فهو ملك الملوك وحده، حاكم الحكام وحده، فهو الذي يحكم عليهم كلهم لا غيره»^(١). اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

ولما كان المُلْكُ الحق لله وحده، ولا مَلِكٌ على الحقيقة سواه، كان أخنع اسم وأوضع عند الله، وأغضبه له اسم «شاهان شاه»؛ أي: ملك الملوك، وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير الله، فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل، والله لا يحب الباطل.

وقد ألحق بعض أهل العلم بهذا «قاضي القضاة»، وقال: ليس قاضي القضاة إلا من يقضي الحق وهو خير الفاصلين، الذي إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون^(٢).

٤ - الله سبحانه مالك يوم الدين وملكه:

فالمُلْكُ في ذلك اليوم العظيم لله وحده، لا ينازعه فيه أحد من ملوك الأرض وجبابرتها، قال تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]^(٣).
وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣].
وقال تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦].
وقال تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦].
وقال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وقد جاء ما يبين ذلك من السنة الشريفة:

فعن عبد الله بن مسعود قال: جاء خبرٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! أو يا أبا

= طريق أبي شيبه إبراهيم بن عثمان: ثنا إسماعيل بن أبان، ثنا أبو شيبه، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس، مرفوعاً، وليس فيه: لا ملك إلا الله. قال الهيثمي في «المجمع» (٥٠/٨): وفيه أبو شيبه إبراهيم بن عثمان وهو متروك.

(١) «فيض القدير» (٥١٤/١). (٢) «الزاد» (٣٤٠/٢، ٣٤١).

(٣) وتقرأ أيضاً: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهي قراءة نافع المدني وغيره.

القاسم! إن الله تعالى يمسك السموات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع ثم يهزُّهن فيقول: أنا الملك أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال الحبر، تصديقاً له، ثم قرأ: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يَقْبِضُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكِ الْأَرْضِ؟» ^(٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يَطْوِي اللَّهُ ﷻ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيَمْنَى ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟» ^(٣).

فهل يجيبه أحد من طغاة الأرض وفراعنتها، كلا؛ بل الجميع خاشعون صامتون ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

ومن الرحمة للخلق أن الله سبحانه هو الملك الوحيد يوم القيامة؛ لأنه الذي يحاسب بالعدل ولا يظلم ولا يجور ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال: ﴿وَنُضِعُّ الْمُوْزِنَ الْقِسْطَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قال الرازي: «الحكم الثاني من أحكام كونه ملكاً، أنه ملك لا يشبهه سائر الملوك؛ لأنهم إن تصدقوا بشيء انتقص ملكهم، وقلَّت خزائنها، أما الحق ﷻ فملكه لا ينتقص بالعطاء والإحسان؛ بل يزداد، بيانه أنه تعالى إذا أعطاك ولداً لم يتوجه حكمه إلا على ذلك الولد الواحد، أما لو أعطاك عشرة من الأولاد كان حكمه وتكليفه لازماً على الكل، فثبت أنه تعالى كلما كان أكثر عطاء كان أوسع ملكاً.

(١) أخرجه البخاري (٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٤٥١، ٧٥١٣)، ومسلم (٢٧٨٦/٢٠، ٢١، ٢٢) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١٢، ٦٥١٩)، ومسلم (٢٧٨٧).

(٣) رواه مسلم (٢٧٨٨)، وقد تفرد بذكر الشمال فيه عمر بن حمزة - أحد رواة الحديث وقد ضُفِع - وقد رواه عن ابن عمر أيضاً نافع وعبيد الله بن مقسم بدونها، ورواه أبو هريرة وغيره عن النبي ﷺ كذلك، وثبت عند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رفعه: «المقسطون يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين». انظر: «الفتح» (٣٩٦/١٣). وانظر: التحقيق على «إبطال التأويلات» (١٧٨/١، ١٧٩).

الحكم الثالث من أحكام كونه ملكاً كمال الرحمة، والدليل عليه آيات: **إحداها:** ما ذكر في هذه السورة من كونه رباً رحماناً رحيماً، وهو قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ (٢) مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ۝ (٣)﴾ [الفاتحة: ٣، ٤].

وثانيها: قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ (٢٢)﴾ [الحشر: ٢٢]، ثم قال بعده: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ثم ذكر بعده كونه قدوساً عن الظلم والجور، ثم ذكر بعده كونه سلاماً، وهو الذي سلم عباده من ظلمه وجوره، ثم ذكر بعده كونه مؤمناً، وهو الذي يؤمن عبده من جوره وظلمه، فثبت أن كون ملكاً لا يتم إلا مع كمال الرحمة.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، لما أثبت لنفسه الملك أردفه بأن وصف نفسه بكونه رحماناً؛ يعني: إن كان ثبوت الملك له في ذلك اليوم يدل على كمال القهر فكونه رحماناً يدل على زوال الخوف وحصول الرحمة.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ (١) مَلِكِ النَّاسِ ۝ (٢)﴾ [الناس: ١، ٢]. فذكر أولاً كونه رباً للناس، ثم أردفه بكونه ملكاً للناس.

وهذه الآيات دالة على أن الملك لا يحسن ولا يكمل إلا مع الإحسان والرحمة، فيا أيها الملوك اسمعوا هذه الآيات، وارحموا هؤلاء المساكين، ولا تطلبوا مرتبة زائدة في الملك على ملك الله تعالى^(١). اهـ.



(١) «التفسير الكبير» للرازي (١/٢٣٩).

الْقُدُّوسُ

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٧)

* المعنى اللغوي:

وله معنيان في اللغة:

الأول: أن (القدوس) فعول من القدس وهو الطهارة، والقدس بالتحريك: السطل بلغة أهل الحجاز؛ لأنه يُتقدس منه؛ أي: يتطهر منه، وجاء في التنزيل: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قال الزجاج: معنى نقديس لك؛ أي: نطهر أنفسنا لك. ولهذا قيل: بيت المقدس؛ أي: البيت المطهر أو المكان الذي يُتطهر به من الذنوب.

وقال الفراء: الأرض المقدسة الطاهرة، وهي دمشق وفلسطين وبعض الأردن، وروح القدس هو جبريل عليه السلام معناه: روح الطهارة؛ أي: خلق من الطهارة.

والمعنى الثاني: أن القدس: البركة، والأرض المقدسة؛ أي: المباركة، وهو قول قتادة وإليه ذهب ابن الأعرابي، ويقويه أن الله تعالى قد بين أن الأرض المقدسة مباركة، وذلك في قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، وقوله سبحانه: ﴿وَنَجِّنُهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، وهي الأرض المقدسة. و(القدوس) على وزن: «فُعُول» بالضم من أبنية المبالغة^(١).

* ورود الاسم في القرآن العظيم:

وقد ورد هذا الاسم في القرآن مرتين. مرة في سورة الحشر، وهو قوله سبحانه:

(١) «النهاية» لابن الأثير (٢٣/٥)، «اللسان» (٣٥٤٩/٥)، «أسماء الله الحسنى» (ص ٣٠)، «شأن الدعاء» (ص ٤٠)، وقد قرأ الجمهور (القدوس) بضم القاف، وقرأ أبو ذر وأبو السماك بفتحها. وقال ثعلب: كل اسم على فعول فهو مفتوح الأول، مثل: سفود وكلوب وسمور وتنور، إلا السبوح والقدوس فإن الضم فيهما الأكثر وقد يفتحان.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [٢٣]. ومرة في مطلع سورة الجمعة، وهو قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ١].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال قتادة: «القدوس؛ أي: المبارك»^(١).

وعن ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ سُبِّحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]: «ونحن نسبح بحمدك: ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ونصلّي لك، ونقدّس لك: ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك»^(٢). اهـ.

وقال البيهقي: «(القدوس) هو الطاهر من العيوب المنزه عن الأولاد والأنداد، وهذه صفة يستحقها بذاته»^(٣).

وقال الغزالي: «هو المنزه عن كل وصف يدركه حس، أو يتصوره خيال، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير»^(٤).

وقال ابن كثير في معنى (القدوس): «أي المنزه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال»^(٥).

وبنحوه قال الشوكاني^(٦).

وقال الآلوسي: «(القدوس) البليغ في النزاهة عما يوجب نقصاناً، أو الذي له الكمال في كل وصف اختص به، أو الذي لا يحد ولا يتصور»^(٧).

وقال ابن القيم في النونية:

هذا ومن أوصافه القدوس ذو الـ تنزيه بالتعظيم للرحمن^(٨)

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣٦/٢٨): حدثنا بشر، ثنا يزيد، ثنا سعيد، عن قتادة، به. بشر هو ابن معاذ العقدي صدوق، ويزيد هو ابن زريع ثقة ثبت، وسعد هو ابن أبي عروبة من أثبت الناس في قتادة، فالإسناد حسن.

(٢) «جامع البيان» (١/١٦٧).

(٣) «الاعتقاد» للبيهقي (ص ٥٤). وانظر كذلك: «النهاية» لابن الأثير (٤/٢٣)، و«شرح أسماء الله الحسنی» للرازي (ص ١٨٦).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٤/٣٦٣).

(٥) «المقصد الأسنى» (ص ٣٨).

(٦) «فتح القدير» (٥/٢٠٧).

(٧) «روح المعاني» (٢٨/٦٢).

(٨) «النونية» (٢/٢٣٣).

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - تقديس الله سبحانه وتنزيهه عن النقائص وأنه موصوف بكل كمال، وصفات الكمال هي ما وصف به نفسه سبحانه في كتابه أو ما وصفه به رسوله ﷺ.

وليس معنى التنزيه هو تعطيل صفات الله ونفي معاني أسمائه الحسنی؛ كما ظنه الجهمية والمعتزلة ومن شابههم من الفرق الضالة، وإنما هو تنزيهه عن مشابهة الخلق، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فتنزيه أهل السنة ليس فيه تعطيل، وإثباتهم ليس فيه تشبيه، والآية السابقة فيها تنزيه وإثبات، وكل تنزيه ونفي في الكتاب فإنما هو لثبوت كمال ضده، فمثلاً نفى الله عن نفسه الظلم بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وذلك لثبوت كمال العدل له سبحانه وهكذا، وأما النفي المحض فلا كمال فيه وهو مذموم.

وقال الحليمي: «(القدوس) ومعناه: الممدوح بالفضائل والمحاسن، والتقديس مضمن في صريح التسبيح، والتسبيح مضمن في صريح التقديس؛ لأن نفي المذام إثبات للمدائح، كقولنا: لا شريك له ولا شبيه له، إثبات أنه واحد أحد، وكقولنا: لا يعجزه شيء، إثبات أنه قادر قوي، وكقولنا: إنه لا يظلم أحداً، إثبات أنه عدل في حكمه.

وإثبات المدائح له نفي للمذام عنه كقولنا: إنه عالم، نفي للجهل عنه، وكقولنا: إنه قادر، نفي للعجز عنه، إلا أن قولنا: هو كذا، ظاهره التقديس، وقولنا: ليس بكذا، ظاهره التسبيح؛ لأن التسبيح موجود في ضمن التقديس، والتقديس موجود في ضمن التسبيح.

وقد جمع الله تبارك وتعالى بينهما في سورة «الإخلاص» فقال عز اسمه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) فَمَا يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٣)﴾ فهذا تسبيح، ثم قال: ﴿لَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٣)﴾ فهذا تسبيح، والأمران راجعان إلى إفراده وتوحيده ونفي الشريك والتشبيه عنه^(١).

٢ - وكما أنه مُنزه عن النقائص في صفاته وأسمائه الحسنی، فهو أيضاً منزّه عن النقص في أقواله وأفعاله.

فقوله: الصدق وخبره الحق، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:

(١) «المنهاج في شعب الإيمان» (١/١٩٧) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٣٨).

٨٧]، وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وفعله منزّه عن الخطأ والنسيان وغيرها من الآفات، قال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [١١٥]؛ أي: صدقاً فيما قال وأخبر ووعد، وعدلاً فيما حكم وشرع من أحكام. وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١١٥] فتعالى الله الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [١١٦] [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]؛ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يخلق شيئاً عبثاً أو سفهاً.

٣ - كان النبي ﷺ يكثر من ذكر هذا الاسم في ركوعه وسجوده؛ فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»^(١).

وكان يسبِّح الله به بعد فراغه من الوتر، كما جاء في حديث أبي بن كعب قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الوتر بـ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [١] و﴿قُلْ يَتَأَيَّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [٢] و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [٣] فإذا سلم قال: «سبحان الملك القدوس ثلاث مرات»^(٢).



(١) أخرجه مسلم (٤٨٧).

(٢) إسناده صحيح. أخرجه الإمام أحمد (١٢٣/٥)، وأبو داود (١٤٣٠)، والنسائي في (الوتر) (٢٤٤/٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩٧٦٢) عن طلحة الأيامي، عن زر، عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه عن أبي بن كعب، مرفوعاً، به.

وأخرجه أحمد (٤٠٦/٣، ٤٠٧)، والنسائي (٢٤٥/٣ - ٢٤٧)، (٢٤٩/٣ - ٢٥١) بطرق كثيرة عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي، عن أبيه، عن النبي ﷺ، به. وقيل: إن هذا مرسل لكن عبد الرحمن بن أبزي صحابي صغير ومراسيل الصحابة حجة، وقد حسن الحديث الحافظ في «التلخيص» (١٩/٢) فقصر.

السَّلام

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٨)

* المعنى اللغوي:

السلام والسلامة: البراءة، وتسلم منه: تبرأ.
قال ابن العربي: السلامة العافية، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ معناه: تسليماً وبراءة، والسلام في الأصل: السلامة، يقال: سلم يسلم سلاماً وسلامة.
ومنه قيل للجنة: دار السلام لأنها دار السلامة من الآفات، وقوله ﷻ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتَيْتَ أَهْلَكَ﴾ [طه: ٤٧]؛ معناه: أن من اتبع هدى الله سلم من عذابه وسخطه^(١).

وقال الرازي: «وأيضاً الصواب من القول سمي سلاماً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وذلك لسلامته من العيب والإثم»^(٢).
وإذا قال المسلم للمسلم: السلام عليكم، فكأنه يخبره بالسلامة من جانبه ويؤمّنه من شره وغائلته، وأنه سلم له لا حرب عليه.

* وروده في القرآن الكريم:

ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ...﴾ [الحشر: ٢٣].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن كثير: (السلام) أي: من جميع العيوب والنقائص لكمالته في ذاته وصفاته وأفعاله^(٣).

(١) انظر: «لسان العرب» (٢٠٧٨/٣)، «النهاية» لابن الأثير (٣٩٢/٢)، «تفسير أسماء الله» الحسنى للزجاج (ص ٣٠).

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (ص ١٨٧).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣٤٣/٤).

وقال الألوسي في تفسيره: «(السلام) ذو السلامة من كل نقص وآفة»^(١).
وقال البيهقي: «(السلام) هو الذي سلم من كل عيب وبرئ من كل آفة، وهذه صفة يستحقها بذاته.

وقيل: هو الذي سلم المؤمنون من عقوبته»^(٢).

وقال القرطبي: (السلام)؛ أي: ذو السلامة من النقائص، ونقل عن ابن العربي قوله: اتفق العلماء رحمة الله عليهم على أن معنى قولنا في الله: (السلام) النسبة، تقديره ذو السلامة، ثم اختلفوا في ترجمة النسبة على ثلاثة أقوال:

الأول: معناه الذي سلم من كل عيب وبرئ من كل نقص.

الثاني: معناه ذو السلام؛ أي: المسلم على عباده في الجنة، كما قال: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

الثالث: أن معناه الذي سلم الخلق من ظلمه.

قلت - أي القرطبي -: وهذا قول الخطابي وعليه والذي قبله يكون صفة فعل، وعلى أنه البريء من العيوب والنقائص يكون صفة ذات، وقيل: (السلام) معناه: المسلم لعباده^(٣).

وقال ابن القيم في «النونية»:

وهو (السَّلام) على الحقيقة سالمٌ من كل تمثيلٍ ومن نقصانٍ^(٤)

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - الله ﷻ هو (السلام)؛ أي: السالم من كل نقص وآفة وعيب، فمعناه قريب من القدوس.

وقيل: إن القدوس إشارة إلى برائته عن جميع العيوب في الماضي والحاضر، و(السلام): إشارة إلى أنه لا يطرأ عليه شيء من العيوب في الزمان المستقبل، فإن الذي يطرأ عليه شيء من العيوب تزول سلامته ولا يبقى سليماً^(٥).

٢ - الله سبحانه هو المسلم على عباده وأوليائه في الجنة، قال تعالى: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا يَأْذَنُ رَبَّهُمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

(١) «روح المعاني» (٦٣/٢٨).

(٢) «الاعتقاد» (ص ٥٥).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤٦/١٨). وانظر كذلك: «فتح القدير» (٢٠٧/٥). وانظر قول الخطابي في: «شأن الدعاء» (ص ٤١).

(٤) «النونية» (٢٣٣/٢).

(٥) انظر: «التفسير الكبير» للرازي (٢٩٣/٢٩).

وقال سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

فالله تعالى يحيي عباده في الجنة بالسلام عليهم، والجنة هي دار السلام من الموت والمرض وسائر الآفات. قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥].

٣ - والله تعالى هو المسلم على أنبيائه ورسله، لإيمانهم وإحسانهم وطاعتهم له وتحملهم في سبيله أعظم الشدائد، فيؤمنهم في الآخرة فلا يخافون ولا يفزعون. وقيل: سلم الله تعالى عليهم ليقبضي بذلك البشر فلا يذكرهم أحد بسوء^(١).

قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩].

قال: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩].

وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠].

وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِيْلَ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠].

وقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١].

وقال سبحانه: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩].

قال الخطابي: أخبرني أحمد بن إبراهيم بن مالك، حدثنا موسى بن إسحاق الأنصاري، عن صدقة بن الفضل قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: أوحش ما تكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيى فخصه بالسلام فقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥]، كأنه أشار إلى أن الله جل وعز سلم يحيى من شر هذه المواطن الثلاثة وأمنه من خوفها^(٢).

وكذا عباده المؤمنين فإن الملائكة تسلم عليهم عند قبض أرواحهم وتطمئنهم وتؤمنهم. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ نُوَفِّئُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]. فالملائكة تبشرهم بالفوز بالجنة والنجاة من عقاب الله والنار.

(١) ذكره الآلوسي (٩٩/٢٣) عن أبي حيان.

(٢) أخرجه الخطابي في «شأن الدعاء» (ص ٤٢) وسنده صحيح، وقد أخرج مثله ابن جرير في تفسيره (٤٥/١٦) عن أحمد بن منصور الفيروزي كذا، والظاهر أنه المروزي المعروف بزاج. قال: أخبرني صدقة بن الفضل قال: سمعت ابن عطية يقول... فذكره.

٤ - الأمر بإفشاء هذا الاسم وأنه سبب في دخول الجنة :

وقد ورد الأمر من النبي ﷺ بإفشاء السلام بين المسلمين، كما جاء في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(١).

قال النووي: «وفيه الحث العظيم على إفشاء السلام وبذله للمسلمين كلهم من عرفت ومن لم تعرف.

وقال: والسلام أول أسباب التآلف ومفتاح استجلاب المودة وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز لهم عن غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس، ولزوم التواضع، وإعظام حرمت المسلمين»^(٢). اهـ.

وإفشاء السلام من شعائر الإسلام العظيمة التي يتهاون فيها كثير من المسلمين، وهي من أوائل ما دعا إليه النبي ﷺ عندما وصل إلى المدينة، فعن عبد الله بن سلام قال: أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه واستشيت علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب. قال: وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: «أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»^(٣).

٥ - لا يقال: السلام على الله :

جاء ذلك في حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: كنا نصلي خلف النبي ﷺ فنقول: السلام على الله. فقال النبي ﷺ: «إن الله هو السلام ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٥٤).

(٢) «شرح مسلم» للنووي (٣٦/٢).

(٣) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٤٥١/٥)، والترمذي (٢٦٠٣) وصححه، وابن ماجه (١٣٣٤)، (٣٢٥١)، والدارمي (٣٤٠/١)، والحاكم (١٣/٣)، ومحمد بن نصر المروزي في «قيام الليل» (ص ٢١) - من المختصر - بطرق عن عوف بن أبي جميلة، عن زرارة بن أوفى، عن عبد الله بن سلام، مرفوعاً، به.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣١، ٨٣٥، ١٢٠٢، ٦٢٣٠، ٦٢٦٥، ٦٣٢٨، ٧٣٨١)، ومسلم في الصلاة (٥٦).

قال البيضاوي ما حاصله: أنه ﷺ أنكر التسليم على الله وبيّن أن ذلك عكس ما يجب أن يقال، فإن كل سلام ورحمة له ومنه وهو مالکها ومعطيها^(١).

وقال الخطابي: المراد أن الله هو ذو السلام، فلا تقولوا: السلام على الله، فإن السلام منه بدأ وإليه يعود^(٢).

ولذلك أمر النبي ﷺ المسلمين أن يقولوا: التحيات لله. قال ابن حجر: جمع تحية ومعناها السلام. وقيل: البقاء. وقيل: العظمة. وقيل: السلامة من الآفات والنقص. وقيل: الملّك.

وقال ابن قتيبة: لم يكن يُحيّا إلا الملك خاصة، وكان لكل ملك تحية تخصه فلهذا جمعت، فكان المعنى: التحيات التي كانوا يسلمون بها على الملوك كلها مستحقة لله.

وقال المحب الطبري: «يحتمل أن يكون لفظ التحية مشتركاً بين المعاني المقدم ذكرها، وكونها بمعنى السلام أنسب هنا»^(٣).

وجاء في حديث أنس قال: قال جبريل للنبي ﷺ: إن الله يقرئ خديجة السلام؛ يعني: فأخبرها. قالت: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته^(٤).

قال العلماء: في هذه القصة دليل على وفور فقهاها، لأنها لم تقل: «وعليه السلام»، كما وقع لبعض الصحابة، حيث كانوا يقولون في التشهد: «السلام على الله»، فنهاهم النبي ﷺ، فعرفت خديجة ﷺ لصحة فهمها أن الله لا يرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين؛ لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى.



(١) «الفتح» (٣١٢/٢).

(٢) «الفتح» (٣١٢/٢).

(٣) المصدر السابق. وانظر كذلك: «النهاية» لابن الأثير (١٨٣/١).

(٤) أخرجه النسائي في فضائل الصحابة (٢٥٤) عن أحمد بن فضالة: أنا عبد الرزاق، عن جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس، به: وإسناده حسن فإن جعفر بن سليمان صدوق. وقد تابع عبد الرزاق قتيبة بن سعيد وذلك عند الحاكم (١٨٦/٣)، والحديث سكت عليه الحافظ في الفتح (١٣٩/٧) وهو دليل على التصحيح منه أو التحسين كما نص في المقدمة. فائدة: يستفاد منه ردّ السلام على من أرسل السلام وعلى من بلغه.

المُؤْمِن

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩)

* المعنى اللغوي :

وله معنيان في اللغة .

الأول : التصديق .

قال الزجاج: أصل الإيمان التصديق والثقة . وقال الله عزَّ قائلًا: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]؛ أي: لفرط محبتك ليوسف لا تصدقنا^(١) .

والثاني : الأمان الذي هو ضد الإخافة . قال تعالى: ﴿وَأَمْنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] . والأمان والأمانة بمعنى، وقد أمنت فأنا آمن، وأمنت غيري من الأمن والأمان، والأمن ضدَّ الخوف، والأمانة ضدَّ الخيانة، والإيمان ضدَّ الكفر، والإيمان بمعنى: التصديق، ضده التكذيب، يقال: آمن به قوم وكذب به قوم، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]؛ أي: الآمن؛ يعني: مكة، ورجل أمانة: يأمن كل أحد، وقيل: يأمنه الناس ولا يخافون غائلته . ورجل أمانة: الذي يصدق ما يسمع ولا يكذب بشيء، وإذا كان يطمئن إلى كل واحد ويثق بكل أحد^(٢) .

* وروده في القرآن الكريم :

ورد في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿السَّكَنُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّجُنُ﴾ [الحشر: ٢٣] .

معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال الضحاك عن ابن عباس: (المؤمن)؛ أي: أَمِنَ خَلْقُهُ مِنْ أَنْ يَظْلَمَهُمْ . وقال قتادة: (المؤمن) آمن بقوله أنه حق^(٣) .

قال ابن جرير: «(المؤمن) الذي يُؤْمِنُ خلقه من ظلمه» . ونسبه إلى قتادة^(٤) .

وقال الشوكاني: «(المؤمن)؛ أي: الذي وهب لعباده الأمن من عذابه، وقيل:

(٢) «اللسان» (١/ ١٤٠، ١٤١) .

(٤) الطبري (٢٨/ ٣٦) .

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٣١) .

(٣) أخرجه ابن جرير عنه بإسناد حسن .

المصدق لرسله بإظهار المعجزات، وقيل: المصدق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، والمصدق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب، وقال مجاهد: (المؤمن) الذي وحد نفسه بقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(١).

وقال الألوسي: «(المؤمن) قيل: المصدق لنفسه ولرسله ﷺ فيما بلغوه عنه سبحانه إما بالقول أو بخلق المعجزة، أو واهب عباده الأمن من الفزع الأكبر أو مؤمنهم منه إما بخلق الطمأنينة في قلوبهم أو بإخبارهم أن لا خوف عليهم. وقيل: مؤمن الخلق من ظلمه. وقال ثعلب: المصدق للمؤمنين في أنهم آمنوا»^(٢).

وقال السعدي: «(المؤمن) الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان ويدل على صدقهم وصحة ما جاءوا به»^(٣).

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إن الله ﷻ هو المؤمن الموحد لنفسه، وقد أخبر عن وحدانية نفسه في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨].

فالله صدق نفسه بهذا، وتصديقه علمه بأنه صادق، وهذا التصديق إيمان.

وأخبر تعالى أنه سيري خلقه علامات وحدانيته ودلائل إلهيته وعظمته، قال تعالى: ﴿سَرُبُهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

٢ - إنه سبحانه صدق أنبياءه بإظهار الآيات الباهرة على أيديهم، التي تبين للناس أنهم صادقون في ادعائهم أنهم رسل الله، ولتحملهم على الدخول في دين الله، قال تعالى: ﴿جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [آل عمران: ٥٠].

٣ - إنه تعالى يصدق عباده ما وعدهم به من النصر في الدنيا، والتمكين في الأرض ومن الثواب في الآخرة، ويصدق الكفار ما أوعدهم من العقاب والخذلان

(١) فتح القدير (٢٠٧/٥). وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤٦/١٨)، و«المنهاج» للحليمي (٢٠٢/١).

(٢) «روح المعاني» (٦٣/٢٨). وانظر: «تفسير أسماء الله» للزجاج (ص ٣١)، و«النهاية» لابن الأثير (٦٩/١). وانظر: «الطحاوية» (ص ٩٤)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص ٥٥)، و«شرح الأسماء للرازي» (ص ١٨٩، ١٩٠).

(٣) «تيسير الكريم» (٣٠١/٥).

في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ومن نظر إلى سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين علم صدق وعد الله لعباده المخلصين.

وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وقال: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ وَأَوْثَقَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

٤ - إنه يأمن عذابه من لا يستحقه، ويهب الأمن لعباده المؤمنين يوم القيامة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].
وقال: ﴿لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّن فَرْجٍ يَّومِئذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].
٥ - وأما المؤمن فقد وجب عليه أن يأمن المؤمنون شره وغوائله. فقد قال ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»^(١)؛ أي: لا يكون الرجل مؤمناً كامل الإيمان حتى يأمن جاره بوائقه؛ أي: شروره وغوائله.

وقال أيضاً: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٢).

وعن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن! من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٩، ١٠، ٦٤٨٤)، ومسلم (٤٠، ٤٢) من حديث عبد الله بن عمرو وأبي موسى الأشعري، ومسلم (٤١) عن جابر بن عبد الله.

(٣) حديث صحيح: أخرجه الإمام أحمد (٢١/٦): ثنا علي بن إسحاق، ثنا عبد الله، أنا ليث، أخبرني أبو هاني الخولاني، عن عمرو بن مالك الجنبی، حدثني فضالة بن عبيد، به. وبقيّة الحديث: =

المُهَيِّمُونَ جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١٠)

* المعنى اللغوي:

قال بعضهم: معناه: الأمين، وهو من آمَنَ غيره من الخوف، وأصله أأمن فهو مؤأمن بهمزتين قُلبت الهمزة الثانية ياءً كراهة اجتماعهما فصار مؤيمن، ثم صُيرت الأولى هاءً، كما قالوا: هراق وأراق.

وقال بعضهم: مُهيمن معنى مؤيمن والهاء بدل من الهمزة، كما قالوا: هرت وأرقت، وكما قالوا: إياك وهياك، وقال الأزهري: وهذا على قياس العربية صحيح، مع ما جاء في التفسير أنه بمعنى الأمين، قيل: بمعنى مؤتمن^(١). وقيل: إن (المهيمن) الرقيب الحافظ.

وقيل: إنه الشاهد، تقول: فلانٌ مُهيمني على فلان، إذا كان شاهداً عليه^(٢).

* وروده في القرآن العظيم:

ورد الاسم مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنُ الْمُحْصِنُ﴾ [الحشر: ٢٣].

= «والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب». وهذا إسناد صحيح، أبو هاني: هو حميد بن هاني، والليث: هو ابن سعد وعبد الله الراوي عنه: هو ابن وهب، وقد تابعه عبد الوارث بن عبيد الله عند ابن حبان (٢٥ - زوائد). وأخرجه ابن ماجه (٣٩٣٤) عن عبد الله بن وهب عن أبي هاني عن عمرو بن مالك أن فضالة بن عبيد حدثه به، فحدث به ابن وهب عن ابن هاني مباشرة، وأخرجه أحمد (٢٢/٦): ثنا قتيبة بن سعيد، حدثني رشدين بن سعد، عن حميد أبي هاني، به. وفيه رشدين ضعيف. وأخرج الترمذي (٢٧٦٢)، والنسائي (١٠٤/٨) عن قتيبة: أخبرنا الليث، عن ابن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دماءهم وأموالهم». وإسناده حسن، للكلام في محمد بن عجلان.

(١) «اللسان» (٤٧٠٥/٦).

(٢) «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٣٢). وانظر: «أحكام القرآن» للقرطبي (٦/٢١٠).

وذكر الله معناه في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: «وقوله (المهيمن) اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: (المهيمن): الشهيد، قاله مجاهد وقتادة وغيرهم»^(١).

وقال أيضاً: وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب، يقال: إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل إلا أنهم اختلفت عباراتهم عنه^(٢).

وقال ابن كثير: «قال ابن عباس وغير واحد؛ أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى هو رقيب عليهم كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ [الرعد: ٣٣]»^(٣).

وقال الحليمي: «(المهيمن) ومعناه: لا ينقص للمطيعين يوم الحساب من طاعاتهم شيئاً فلا يثيبهم عليه؛ لأن الثواب لا يعجزه، ولا هو مُستكره عليه فيحتاج إلى كتمان بعض الأعمال أو جحدها، وليس ببخيل فيحمله استكثار الثواب إذا كثرت الأعمال على كتمان بعضها، ولا يلحقه نقص بما يثيب فيحبس بعضه؛ لأنه ليس منتفعاً بملكه حتى إذا نفع غيره به زال انتفاعه بنفسه.

وكما لا ينقص المطيع من حسناته شيئاً، لا يزيد العصاة على ما اجترحوه من السيئات شيئاً فيزيدهم عقاباً على ما استحقوه؛ لأن واحداً من الكذب والظلم غير جائز عليه، وقد سمى عقوبة أهل النار جزاء، فلما لم يقابل منها ذنباً لم يكن جزاء، ولم يكن وفاقاً، فدل ذلك على أنه لا يفعله»^(٤).

قال الرازي: في تفسيره وجوه:

الأول: (المهيمن) هو الشاهد، ومنه قوله: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

(١) وقد رواه عنهما بأسانيد صحيحة. انظر (٣٦/٢٨).

(٢) «جامع البيان» (١٧٢/٦).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣٤٣/٤)، وكذا قال الشوكاني في «فتح القدير» (٢٠٨/٥) ويمثله قال الآلوسي في تفسيره (٦٣/٢٨). وانظر: «الجالين» (ص ٤٦٥).

(٤) «المنهاج» (٢٠٢/١، ٢٠٣) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٣، ٦٤).

قال الشاعر:

إِنَّ الْكِتَابَ مُهِيمٌ لِنَبِينَا وَالْحَقَّ يَعْرِفُهُ أُولُو الْأَلْبَابِ
فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ مُهِيمٌ؛ أي: شاهد على خلقه بما يصدر منهم من قول أو فعل،
ولهذا قال: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، فيكون (المهيمن)
على هذا التقدير هو العالم بجميع المعلومات الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في
الأرض ولا في السماء.

الثاني: (المهيمن) هو المؤمن قلبت الهمزة هاء؛ لأن الهاء أخف من الهمزة.

الثالث: قال الخليل بن أحمد: (المهيمن) هو الرقيب الحافظ، ومنه قول العرب:
هيمن فلان على كذا: إذا كان محافظاً عليه.

الرابع: قال المبرد: (المهيمن) الحذب المشفق، تقول العرب للطائر إذا طار
حول وكره ورغرف عليه وبسط جناحه يذب عن فرخه: قد هيمن الطائر.
قال أمية بن أبي الصلت:

مَلِيكَ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهِيمٌ لِعَزَّتِهِ تَعْنُو الْوُجُوهَ وَتَسْجُدُ
الخامس: قال الحسن البصري: (المهيمن) المصدق، وهو في حق الله تعالى
يحتمل وجهين:

- أحدهما: أن يكون ذلك التصديق بالكلام، فيصدق أنبياءه بإخباره تعالى عن
كونهم صادقين.

- الثاني: أن يكون معنى تصديقه لهم هو أنه يظهر المعجزات على أيديهم.

السادس: قال الغزالي: «اسم لمن كان موصوفاً بمجموع صفات ثلاث، أحدها:
العلم بأحوال الشيء، والثاني: القدرة التامة على تحصيل مصالح ذلك الشيء،
والثالث: المواظبة على تحصيل تلك المصالح، فالجامع لهذه الصفات اسمه
(المهيمن) وأناى أن تجتمع على الكمال إلا لله تعالى»^(١).

وقال السَّعْدِيُّ: (المهيمن): الْمُطَّلَعُ عَلَى خَفَايَا الْأُمُورِ، وَخَبَايَا الصَّدُورِ، الَّذِي
أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا^(٢).

(١) «شرح الأسماء» (ص ١٩٢ - ١٩٤). وانظر قول الغزالي في: «المقصد الأسنى» (ص ٤١).
وقد نقله بمعناه.

(٢) «تيسير الكريم» (٣٠١/٥).

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إن الله سبحانه هو الشاهد على خلقه بما يصدر منهم من قول أو فعل، لا يغيب عنه من أفعالهم شيء، وله الكمال في هذا فلا يضل ولا ينسى ولا يغفل: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

٢ - جعل الله تعالى كلامه المنزل على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ مهيمناً على ما قبله من الكتب، فقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّكَ يَدِيهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال ابن الحصار: ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾؛ أي: عالٍ، وعلوه على سائر كتب الله، وإن كان الكل كلام الله تعالى بأمور: أحدها: بما زاد عليها من السور، فقد جاء في حديث الصحيح أن نبينا ﷺ خُصَّ بسورة الحمد وخواتيم سورة البقرة^(١).

والأمر الثاني: أن جعله الله قرآناً عربياً مبيناً، وكل نبي قد بين لقومه بلسانهم - كما أخبر الله تعالى - ولكن لسان العرب مزية في البيان. والثالث: أن جعل نظمه وأسلوبه معجزاً، وإن كان الإعجاز في سائر الكتب المنزلة من عند الله سبحانه، من حيث الإخبار عن المعانيات، والإعلام بالأحكام المحكمات، وسنن الله المشروعات، وغير ذلك، وليس فيها نظم وأسلوب خارج عن المعهود.

فكان أعلى منها بهذه المعاني، لهذا المعنى الإشارة بقوله الحق: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]^(٢).



(١) يشير إلى ما أخرجه البخاري في مواضع منها (١٥٦/٨، ١٥٧) من حديث أبي سعيد بن المعلى وفيه قوله ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.

أما خواتيم سورة البقرة، فليس حديثها في الصحيح، وإنما أخرجه الإمام أحمد (٣٨٣/٥) من حديث حذيفة وفيه: «... وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة، من كنز تحت العرش لم يعطها نبي قبلي» ورجاله ثقات رجال الشيخين. انظر التعليق على كتاب: «العرش» لابن أبي شيبة (٦٣).

(٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣١٥ب، ٣١٦أ).

العَزِيزُ

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١١)

* المعنى اللغوي:

العَزُّ في الأصل القوة والشدة والغلبة، والعَزُّ والعَزَّة: الرفعة والامتناع، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾؛ أي: وله العزة والغلبة. ورجلٌ عزيز: منيعٌ لا يُغلب ولا يُقهر. ويقال: عزّني فلانٌ على الأمر: إذا غلبني عليه؛ كقوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِالشِّكِّ﴾؛ أي: شددنا وقوفنا. وعزّ الشيء يعزّ فهو عزيز: قل حتى ما كاد يوجد؛ يعني: أصبح نادراً^(١).

* وروده في القرآن العظيم:

ذكر «(العزيز) في القرآن اثنتين وتسعين مرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٨] وقد تكررت مراراً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

وقوله سبحانه: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [ص: ٦٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال قتادة: (العزيز)؛ أي: في نعمته إذا انتقم^(٢).

(١) «اللسان» (٤/ ٢٩٢٥ - ٢٩٢٧)، و«النهاية» (٣/ ٢٢٨)، و«تفسير الأسماء» (ص ٣٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣٦/ ٢٨): ثنا ابن عبد الأعلى، ثنا ابن ثور، عن معمر، عنه. وهذا إسناد صحيح.

ابن عبد الأعلى: هو محمد بن عبد الله الأعلى الصنعاني: ثقة.

وقال ابن جرير: «(العزیز) الشديد في انتقامه ممن انتقم من أعدائه». وقال: «(العزیز) في انتقامه ممن أراد الانتقام منه لا يقدر أحد يدفعه عنه»^(١).

وقال ابن كثير: (العزیز)؛ أي: الذي قد عزَّ كل شيء فقهره وغلب الأشياء، فلا ينال جنبه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه^(٢).

وقال القرطبي: (العزیز)؛ معناه: المنيع الذي لا يُنال ولا يُغالب.

وقال ابن كيسان: معناه: الذي لا يعجزه شيء، دليله، ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعِجْزٍ مِّنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

وقال الكسائي: (العزیز): الغالب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّزْنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، وفي المثل: «من عزَّ بز»؛ أي: من غلب سلب.

وقيل: العزیز الذي لا مثل له بيانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]^(٣).

وقال البيهقي: «وهو من صفات الذات»^(٤).

وقال الحليمي: «(العزیز) ومعناه: الذي لا يُوصل إليه، ولا يمكن إدخال مكروه عليه، فإن (العزیز) في «لسان العرب» هو من: العزة والصلابة»^(٥).

وقال السعدي: «(العزیز) الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحدٌ من المخلوقات وقهر جميع الموجودات، دانت له الخليفة وخضعت لعظمته»^(٦).

وهو ما نظمه ابن القيم في «النونية» بقوله:

وهو العزيزُ فلن يُرام جنابه	أنتى يُرام جنابُ ذي السلطان؟!
وهو العزيزُ القاهرُ الغلابُ لم	يغلبه شيءٌ هذه صفتان
وهو العزيزُ بقوةٍ هي وُصفه	فالعز حينئذٍ ثلاث معانٍ
وهي التي كملت له سبحانه	من كل وجهٍ عادم النقصان ^(٧)

= ابن ثور: هو محمد بن ثور الصنعاني، ومعمّر: هو ابن راشد، وأخرجه بإسناد آخر: ثنا بشر، ثنا يزيد، ثنا سعيد عنه، وهذا إسناد حسن، وقد تقدم بيانه.

(١) «جامع البيان» (٩٠/٧)، (٣٦/٢٨). (٢) ابن كثير (٣٤٣/٤) و(٤٥٧/٣).

(٣) القرطبي (١٣١/٢)، و«شأن الدعاء» للخطابي (ص٤٧). وانظر: «فتح القدير» (٢٠٨/٥).

(٤) «الاعتقاد» (ص٥٥).

(٥) «المنهاج» (١٩٥/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٣٣).

(٦) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٠٠/٥، ٣٠١). (٧) «النونية» (٢١٨/٢).

وعلى هذا فيكون معنى الاسم على أربعة أوجه:

- أ - (العزیز): هو المنیع الذي لا يُرام جنابه.
- ب - (العزیز): هو القاهر الذي لا یغلب ولا یقهر.
- ج - (العزیز): هو القوي الشديد.
- د - (العزیز): بمعنى نفاسة القدر، وأنه سبحانه لا یعادلہ شیء، ولا مثلاً له ولا نظیر.

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - الإيمان بأن الله ﷻ من أسمائه العزیز الذي لا یغلب ولا یقهر، یعطي المسلم شجاعة وثقة كبيرة به؛ لأن معناه أن ربه لا یُمانع ولا یُرد أمره وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءوا. والناظر في قصص الرسل والأنبياء عليهم أفضل الصلوات والتسليم يرى ذلك واضحاً جلياً، فمثلاً في قصة موسى عليه الصلاة والسلام، حاول فرعون أن يمنع خروج هذا الصبي إلى الدنيا، بأن أمر بقتل جميع الذكور من بني إسرائيل؛ لأنه علم أنه سيخرج فيهم نبي ينتزع منه ملكه، ولكن يأبى الله العزیز إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، فولد موسى عليه الصلاة والسلام، وكان أن تربى موسى في قصر فرعون وفي بيته وتحت رعايته، ولما حاول أن يقتله أهلكه الله هو وقائده هامان وجنوده أجمعين.

وهكذا الأمر أيضاً بالنسبة ليوסף عليه الصلاة والسلام، فقد أراد إخوته قتله في أول الأمر، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إتمامه وإتمامه، من الإحياء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة «روبييل» فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب وهو أسفله^(١).

ولما حاول اليهود قتل عيسى ﷺ رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً. وهكذا الأمر بالنسبة لبنينا محمد ﷺ، فقد مكر به كفار قريش ليقتلوه أو يحبسوه أو يخرجوه من بلده، وحاولوا أن يصدوا الناس عن الإيمان به وبدعوته وحاربوه، وألبوا عليه القبائل وحرّضوا عليه اليهود والمنافقين في المدينة، ولكن ذلك كله لم يمنع الإسلام من الانتشار في أرض الجزيرة العربية، والسيطرة عليها، وظهور الغلبة والتمكين في الأرض للإسلام والمسلمين، والله الأمر من قبل ومن بعد.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٧٠).

٢ - إن العزيز في الدنيا والآخرة هو من أعزه الله . قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ الْخَيْرَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فمن طلب العز فليطلبه من رب العزة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠]؛ أي: من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعاً.

وبذلك تعلم ضلال من بحث عن العزة عند غير الله تعالى، وبغير طاعته والتزام نهج المؤمنين، فعادى رب العزة وشريعته، وحارب حربه المؤمنين، ووالى أعداء الله من المشركين واليهود والنصارى، وغيرهم، ظناً منه أن هذا هو سبيل العزة وطريقها، قال تعالى منكرأ عليهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عَنْ عِدَّتِهِمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٣٩].

ومع عظم الطاعة تزداد العزة، فأعز الناس هم الأنبياء، ثم الذين يلونهم من المؤمنين المتبعين لهم.

قال فخر الدين الرازي: «وعزة كل أحد بقدر علو رتبته في الدين، فإنه كلما كانت هذه الصفة فيه أكمل كان وجدان مثله أقل، وكان أشد عزة وأكمل رفعة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]»^(١).

٣ - كثيراً ما اقترن اسمه (العزيز) مع (الرحيم) كما في سورة الشعراء وغيرها، فالله عزيز في رحمته، رحيم في عزته وهذا هو الكمال، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل^(٢).

٤ - من أسباب العزة العفو والتواضع:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»^(٣).

(١) «شرح الأسماء» (ص ١٩٦).

(٢)

ابن كثير (٣/ ٤٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٩٨) وقال: حديث حسن صحيح. وجاء من حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَدَمِي إِلَّا فِي رَأْسِهِ حَكْمَةٌ بِيَدِ مَلِكٍ، فَإِذَا تَوَاضَعَ قَبِلَ لِلْمَلِكِ: أَرْفَعَ حَكْمَتَهُ، وَإِذَا تَكَبَّرَ قِيلَ لِلْمَلِكِ: دَعِ حَكْمَتَهُ». رواه الطبراني في «الكبير» برقم (١٢٩٣٩)، والبخاري بنحوه عن أبي هريرة ومدايره على علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف لسوء حفظه، وقد أورد له شيخنا محمد ناصر الدين الألباني شاهداً يرويه ابن عساكر في «مدح» =

فمن عفا عن شيء مع قدرته على الانتقام، عظم في القلوب في الدنيا، أو في الآخرة بأن يعظم ثوابه أو فيهما، ومن تواضع رجاء التقرب إلى الله دون غرض غيره، رفعه الله عند الناس وأجل مكانه.

٥ - سَمَّى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كِتَابَهُ (العزیز) فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِ كَرَّمَا جَاءَهُمْ وَإِنَّ لَكُنْزًا عَزِيزًا ۖ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

قال قتادة: «أعزه الله؛ لأنه كلامه، وحفظه من الباطل»^(١).

فكلامه تعالى عزيز محكم لا يتطرق إليه الباطل.

قال ابن جرير: «لا يستطيع ذو باطل بكيدة تغييره بكيدة وتبديل شيء من معانيه عما هو به وذلك هو الإتيان من بين يديه، ولا إلحاق ما ليس منه فيه، وذلك إتيانه من خلفه وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. يقول تعالى ذكره: هو تنزيل من عند ذي حكمة بتدبير عباده وصرفهم فيما فيه مصالحهم، حميد: يقول محمود على نعمه عليهم بأياديه عندهم»^(١).



= التواضع وحسنه. انظر: «الصحيحة» رقم (٥٣٨).

الحكمة: بالتحريك ما يجعل تحت حنك الدابة يمنعها المخالفة كاللجام والحنك متصل بالرأس.

(١) أخرجه ابن جرير (٧٩/٢٤) عنه بإسناد حسن.

الجَبَّارُ

جَلَّ جلاله وتقدَّست أَسْمَاؤه

(١٢)

* المعنى اللغوي:

جَبَرَ الرجلُ عَلَى الأمرِ يَجْبِرُهُ جَبْرًا وَجُبُورًا وأَجْبَرَهُ: أَكْرَهَهُ عَلَيْهِ. والجَبَرُ خلاف الكسر، جَبَرَ العَظْمَ يَجْبِرُهُ جَبْرًا، والجَبَرُ أَنْ تُغْنِيَ الرجلَ مِنَ الْفَقْرِ، أَوْ يَجْبِرَ عَظْمَهُ مِنَ الْكَسْرِ، وَتَجَبَّرَ النَّبْتُ وَالشَّجَرُ: اخْضَرَ وَأَوْرَقَ. و(الجَبَّارُ): الْعَظِيمُ الْقَوِيُّ الطَّوِيلُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢].

قال اللحياني: أَرَادَ الطَّوِيلَ وَالْقُوَّةَ وَالْعَظَمَ. قال الأزهرى: كَأَنَّهُ ذَهَبَ بِهِ إِلَى الْجَبَّارِ مِنَ النَّخِيلِ. وَهُوَ الطَّوِيلُ الَّذِي فَاتَ يَدَ الْمُتَنَاوِلِ، وَنَخْلَةٌ جَبَّارَةٌ؛ أَيٌ: عَظِيمَةٌ سَمِينَةٌ. وَتَجَبَّرَ الرَّجُلُ: إِذَا تَكَبَّرَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]؛ أَيٌ: مُتَكَبِّرًا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد هذا الاسم في القرآن مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال الطبري: (الجبار): يعني المصلح أمور خلقه، المصرفهم فيما فيه صلاحهم^(٢)، وقال قتادة: جبر خلقه على ما يشاء من أمره^(٣).

(١) انظر: «النهاية» لابن الأثير (١/ ٢٣٥)، و«لسان العرب» (١/ ٥٣٥)، و«تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٣٤)، و«شأن الدعاء» (ص ٤٨).
(٢) الطبري (٣٦/ ٢٨)، وابن كثير (٤/ ٣٤٣).
(٣) رواه ابن جرير عنه بإسناد صحيح.

وقال الخطابي: (الجبار) هو الذي جبر الخلق على ما أراد من أمره ونهيه؛ يقال: جبره السلطان وأجبره بالألف.

ويقال: هو الذي جبر مفاقر الخلق وكفاهم أسباب المعاش والرزق.
ويقال: بل (الجبار) العالي فوق خلقه من قولهم: تجبر النبات إذا علا واكتهل، ويقال للنخلة التي لا تنالها اليد طولاً: الجبارة^(١).
وقال الشوكاني: «(الجبار): جبوت الله عظمته، والعرب تسمي الملك: الجبار»^(٢).

وقال السعدي: «(الجبار) هو بمعنى: العلي الأعلى، وبمعنى: القهار، وبمعنى: الرؤوف الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لاذَّ به ولجأ إليه»^(٣).
قلت: وهو ما نظمه ابن القيم في «النونية»:

وكذلك (الجَبَّارُ) من أوصافه	والجَبَرُ في أوصافه قِسْمَانِ
جَبَرُ الضَّعِيفِ وكلُّ قلبٍ قد غَدَا	ذا كَسْرَةٍ فالجبر منه دَانِ
والثاني جَبَرُ الْقَهْرِ بالعزُّ الذي	لا ينبغي لِسِوَاهِ من إنسانِ
وله مسمًى ثالث وهو الْعُلُوُّ	فليس يَدْنُو منه من إنسانِ
من قولهم جَبَّارَةٌ لِلنَّخْلَةِ إلـ	عليا التي فَاتَتْ لكلِّ بنانِ ^(٤)
فيكون معنى (الجَبَّارِ) على وجوه:	

١ - (الجبار): هو العالي على خلقه، وفَعَالٌ من أبنية المبالغة.

٢ - (الجبار): هو المصلح للأمور من جبر الكسر: إذا أصلحه، وجبر الفقير: إذا

أغناه.

٣ - (الجبار): هو القاهر خلقه على ما أراد من أمر أو نهى^(٥). كما قال تعالى

لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]؛ أي: لست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى ولم تكلف بذلك.

وعلى المعنى الأول يكون من صفات الذات، وعلى المعنى الثاني والثالث يكون من صفات الفعل.

(١) «شأن الدعاء» (ص ٤٨)، وراجع: «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٣٤، ٣٥)، و«الاعتقاد»

للبهقي (ص ٥٥)، والقرطبي (٤٧/١٨)، و«روح المعاني» (٦٣/٢٨).

(٢) «فتح القدير» (٢٠٨/٥). (٣) «تيسير الكريم» (٣٠١/٥).

(٤) «النونية» (٢٣٢/٢).

(٥) انظر: «شرح الأسماء» للرازي (ص ١٩٧، ١٩٨)، و«لسان العرب» (٥٣٤/١).

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إن الله تعالى هو (الجبار) الذي له العُلُوُّ على خلقه، علو الذات، وعلو القُدْر والصفات، وعلو القهر والجبر^(١)، لا يدنو منه الخلق إلّا بأمره، ولا يشفعون أو يتكلمون إلّا من بعد إذنه، لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه.

٢ - جَبَر الله تعالى خَلْقَهُ على ما أراد أن يكونوا عليه من خَلْق، لا يمتنع عليه شيء منهم أبداً: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾ [يس: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقال: ﴿إِن رَّزَقَكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ [الاعراف: ٥٤].

وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَنَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿١٢﴾ [فصلت: ١١، ١٢].

أي: استجيباً لأمرى، وانفعلاً لفعلى، طائعتين أو مكرهتين.

٣ - والله سبحانه جبر خلقه أيضاً على ما شاء من أمر أو نهي، بمعنى أنه شرع لهم من الدين ما ارتضاه هو، كما قال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَتُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿١١٠﴾ [المائدة: ١١].

فشرع لهم من الشرائع ما شاء، وأمرهم باتباعها ونهاهم عن العدول عنها، فمن أطاع فله الجنة ومن عصى فله النار. ولم يجبر أحداً من خلقه على إيمان أو كفر، بل لهم المشيئة في ذلك، كما قال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، وهم مع ذلك لا يخرجون عن مشيئته^(٢).

(١) ويأتي الكلام على العلو بالتفصيل عند أسمائه تعالى: (العليّ - الأعلى - المتعال).

(٢) وأما الجبرية الضلال فإنهم نفوا أن يكون للعبد أي فعل أو اختيار، فقالوا: الإنسان كالميت الذي لا فعل له، أو كالشجر الذي تحركه الريح! والفاعل في الحقيقة هو الله!! وهو مع =

ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً، لو لم يجعل لهم اختياراً، كما قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣].

٤ - الجبروت لله وحده، وقد مدح الله بهذا الاسم نفسه، وأما في حق الخلق فهو مذموم فما الفرق؟.

الفرق أنه سبحانه قهر الجبابرة بجبروته وعلاهم بعظمته، لا يجري عليه حكم حاكم فيجب عليه انقياده، ولا يتوجه عليه أمر آمر فيلزمه امتثاله، أمر غير مأمور، قاهر غير مقهور ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وأما الخلق فهم موصوفون بصفات النقص، مقهورون مجبورون تؤذيهم البقة وتأكلهم الدودة، وتشوشهم الذبابة، أسير جوعه، وصريع شبعه، ومن تكون هذه صفته كيف يليق به التكبر والتجبر؟! (١).

وقد أنكرت الرسل على أقوامها صفة التجبر والتكبر في الأرض بغير الحق، كما قال تعالى عن هود عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ فَأَنْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٢﴾ [الشعراء: ١٣٠، ١٣١] إلى أن قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٣٥﴾ [الشعراء: ١٣٥]. ولكنهم عاندوا واتبعوا أمر جبابرتهم فهلكوا أجمعين.

قال تعالى: ﴿وَلَكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿٥٩﴾ [هود: ٥٩].

وقد كان التجبر سبباً للطبع على قلوبهم، فلم تعرف معروفاً ولم تنكر منكراً ﴿كَذَٰلِكَ يَطْعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وقد توعد الله سبحانه الجبابرة بالعذاب والنكال، توعدهم بجهنم وبئس المعاد، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ [إبراهيم: ١٥ - ١٧].

وقال عليه السلام: «يُخْرِجُ عَنْكَ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ

= ذلك ملوم ومحاسب على فعله!! هذا هو التوحيد عندهم!.

وسياقي مزيد من التفصيل في الكلام على خلق أفعال العباد. انظر: «آثار الإيمان» (بالخالف) رقم (٣).

(١) «شرح الأسماء» للرازي (ص ١٩٩).

ولسانٌ ينطق يقول: إني وُكِّلْتُ بثلاثة: بكلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وبكلِّ من دَعَا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين»^(١).

وقال ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أَوْثَرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ والمتجبرين...»^(٢).

٥ - الأرض كلها خبزة بيد الجبار ﷺ يوم القيامة:

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّوْهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ، كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خَبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ نَزْلاً لِأَهْلِ الْجَنَّةِ..»^(٣).

٦ - وكان النبي ﷺ يدعو بين السجدين فيقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي واجْبُرْنِي وارْقُعْنِي واهْدِنِي وعافني وارزقني»^(٤).

فكان يدعو بما دَلَّ عليه اسم (الجبار) جلّ وعلا.

قال ابن الأثير: واجبرني؛ أي: أغْنِنِي، مِنْ جَبَرَ اللَّهُ مَصِيبَتَهُ؛ أي: رَدَّ عَلَيْهِ مَا دَهَبَ مِنْهُ وَعَوَّضَهُ، وَأَصْلُهُ مِنْ جَبَرَ الْكَسْرَ^(٥).

وكان يعظم ربه أيضاً بهذا الاسم في الصلاة في الركوع والسجود كما جاء في حديث عوف بن مالك الأشجعي، أنه كان يقول في ركوعه: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»^(٦)، وفي سجوده مثل ذلك.

(١) رواه أحمد (٣٣٦/٢)، والترمذي (٢٦٩٨) كلاهما من طريق عبد العزيز بن مسلم، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، مرفوعاً، وإسناده صحيح، رجاله رجال الشيخين.

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

(٣) رواه البخاري (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٩٢)، ومعنى: «يَكْفُؤُهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ»؛ أي: يَمِيلُهَا مِنْ يَدٍ إِلَى يَدٍ حَتَّى تَجْتَمَعَ وَتَسْتَوِيَ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مَنْبَسُطَةٌ كَالرَّقَاقَةِ وَنَحْوِهَا، وَتَكُونُ كَالرَّغِيفِ الْعَظِيمِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ طَعَاماً نَزْلاً لِأَهْلِ الْجَنَّةِ.

(٤) رواه أبو داود (٨٥٠)، والترمذي (٢٨٣)، وابن ماجه (٨٩٨)، والحاكم (٢٧١/١) وصححه من طريق كامل أبي العلاء، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد، عن جببر، عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول بين السجدين: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي». الخ. ورجاله ثقات سوى كامل أبو العلاء: وهو ابن العلاء التميمي الكوفي صدوق يخطئ، كذا في «التقريب»، فالحديث إسناده حسن، والله أعلم.

(٥) «النهاية» (٢٣٦/١).

(٦) حديث حسن: أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (٢٢٣/٢) من طريق معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس، عن عاصم بن حميد، عن عوف بن مالك الأشجعي. معاوية بن صالح: هو ابن حُدير صدوق له أوهام، وعمرو بن قيس: هو ابن ثور ثقة، وعاصم: هو السَّكُونِيُّ مخضرم صدوق، فالحديث حسن بهذا الإسناد.

المُتَكَبِّرُ - الكَبِيرُ^(١)

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١٣ - ١٤)

* المعنى اللغوي:

يقال: كَبُرَ بالضم: يَكْبُرُ؛ أي: عَظُمَ فهو كبير.

قال ابن سيده: الكبير: نقيض الصغر، وكَبُرَ الأمر: جعله كبيراً، واستكبره: رآه كبيراً؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ [يوسف: ٣١]؛ أي: أعظمناه. والتكبير: التعظيم، والتكبر والاستكبار: التعظم، والكِبَرُ: الرفعة في الشرف، والكبرياء: الملك؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ أَلْكَبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨]، والكبرياء أيضاً: العظمة والتجبر.

والتاء التي في (المتكبر) ليست تاء التعاطي والتكلف، كما يقال: فلان يتعظم وليس بعظيم ويستخي وليس بسخي، وإنما هي تاء التفرد والتخصُّص.

قال الأزهري: التفعل قد يجيء بغير التكلف، ومنه قول العرب: فلان يتظلم؛ أي: يظلم، فلان يتظلم؛ أي: يشكو من الظلم - وهذه الكلمة من الأضداد - فثبت أن هذا البناء غير مقصور على التكلف^(٢).

وقال الرازي بعد أن ساق كلام الأزهري: وأنا أقول: يمكن أن يجاب بوجه آخر، وهو أن المتفعل هو الذي يحاول إظهار الشيء ويبالغ في ذلك الإظهار، ثم إن كان صادقاً فيه كان ذلك الإظهار منه صفة مدح، وإن كان كاذباً كان صفة ذم^(٣).

* ورود الاسمين في القرآن الكريم:

سَمَّى الله ﷻ نفسه بـ(المتكبر) في آية واحدة من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣].

(١) ولقرب معناهما فإننا نتكلم عنهما في فصل واحد.

(٢) «النهاية» (١٣٩/٤ - ١٤٠)، «لسان العرب» (٣٨٠٧/٥ - ٣٨١٠).

(٣) «شرح الأسماء» للرازي (ص ٢٠١).

وأما اسمه (الكبير) فقد ورد في ستة مواضع من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿عَلِيُّ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقد جاء مقترناً باسمه (العلي) و(المتعال).

* معنى الاسمين في حق الله تعالى:

قال قتادة: «(المتكبر)؛ أي: تكبر عن كل شر»^(١).

وقيل: (المتكبر): هو الذي تكبر عن ظلم عباده، وهو يرجع إلى الأول^(٢). وقال الخطابي: «هو المتعالي عن صفات الخلق، ويقال: هو الذي يتكبر على عتاة خلقه إذا نازعه العظمة»^(٣).

وقال القرطبي: «(المتكبر): الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله، وقيل: (المتكبر) عن كل سوء، المتعظم عما لا يليق به من صفات الحدث والذم. وأصل الكبر والكبرياء: الامتناع وقلة الانقياد. قال حميد بن ثور:

عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت بها كبرياء الصعب وهي ذلول»^(٤)

وقال عبد الله النسفي: «هو البليغ الكبرياء والعظمة»^(٥).

وأما ما قاله العلماء في معنى اسمه (الكبير)، فإنه مشابه لما ذكرنا من معنى (المتكبر).

قال ابن جرير: «(الكبير)؛ يعني: العظيم الذي كل شيء دونه ولا شيء أعظم منه»^(٦).

وقال الخطابي: «(الكبير): هو الموصوف بالجلال وكبر الشأن فصغر دون جلاله كل كبير، ويقال: هو الذي كبر عن شبه المخلوقين»^(٧).

وعلى هذا يكون معنى (المتكبر) و(الكبير):

١ - الذي تكبر وتعالى عن كل سوء وشر وظلم.

(١) رواه الطبري (٣٧/٢٨) عنه بإسناد صحيح.

(٢) انظر: الطبري (٣٧/٢٨)، وابن كثير (٣٤٣/٤).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٤٨)، و«الاعتقاد» (ص ٥٥).

(٤) القرطبي (٤٧/١٨)، و«فتح القدير» (٢٠٨/٥).

(٥) «تفسير النسفي» (٢٤٥/٤).

(٦) «جامع البيان» (٧٥/١٣، ١٣٧/١٧)، وانظر: ابن كثير (٥٠٣/٢، ٢٣٢/٣)، والشوكاني (٦٨/٣).

(٧) «شأن الدعاء» (ص ٦٦).

- ٢ - الذي تكبر وتعالى عن صفات الخلق فلا شيء مثله .
 ٣ - الذي كبر وعظم فكل شيء دون جلاله صغير وحقير .
 ٤ - الذي له الكبرياء في السموات والأرض ؛ أي : السلطان والعظمة .

* آثار الإيمان بهذين الاسمين :

١ - إن الله أكبر من كل شيء ، وأكبر من أن يُعرف كُنْه كبريائه وعظمته ، وأكبر من أن نحيط به علماً . قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠] . فالله جلّت عظمته أكبر من أن نعرف كيفية ذاته أو صفاته ولذلك نهينا عن التفكر في الله ؛ لأننا لن ندرك ذلك بعقولنا الصغيرة القاصرة المحدودة ، فقد قال ﷺ : « تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في الله ﷻ »^(١) .

وقد وقع الفلاسفة في ذلك وحاولوا أن يدركوا كيفية وماهية ربهم بعقولهم ، فتأهوا وضلّوا ضلالاً بعيداً ، ولم يجنوا سوى الحيرة والتخبّط والتناقض فيما سطره من الأقوال والمعتقدات .

فمن أراد معرفة ربه وصفاته فعليه بطريق الرسول ﷺ ؛ لأنه أعلم الخلق بالله وصفاته ، فعليه أنزل الكتاب العزيز الذي لا تكاد الآية منه تخلو من صفة لله سبحانه ، سواء كانت ذاتية أو فعلية أو اسم من أسمائه الحسنی ، وعليه أيضاً أنزلت السنّة الشارحة والمفصلة للكتاب ، فطريقه ﷺ هو الطريق الأسلم ومنهجه هو المنهج الأقوم ، فمن اتبعه كان من الناجين ، ولذلك بيّن في الحديث الصحيح : أن الفرقة الناجية هي ما كان عليه هو وأصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين - في المعتقد والعبادة والسلوك .

٢ - إن التكبر لا يليق إلاّ به ﷻ ، فصفة السيد التكبر والترفع ، وأما العبد فصفته التذلّل والخشوع والخضوع .

وقد توعدّ الله سبحانه المتكبرين بأشدّ العذاب يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ فَأَلَيَّمْ بُعْزُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأحاف : ٢٠] .

وقال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٠] .

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » ، واللالكائي في « السنّة » (٥٢٥/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٢٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦٦/٦ ، ٦٧) ، وقد حسّنه الألباني رحمه الله بمجموع طرقه . انظر : « السلسلة الصحيحة » (١٧٨٨) .

واستكبارهم هذا: هو رفضهم الانقياد لله ولأوامره ورفضهم عبادة ربهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، فرفضوا الإذعان لكلمة التوحيد، وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ عَلَيْنَا فَاَسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: ٣١]، يبين أنهم رفضوا الحق الذي جاءت به الرسل وردّوه ولم يقبلوه، وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، يبين أنهم احتقروا أتباع الرسل لكونهم من ضعفة الناس وفقرائهم، فلم يدخلوا في جماعتهم ولم يشاركوهم في الإيمان بما جاءت به الرسل^(١).

وكان الكبر سبباً للطبع على قلوبهم فلم تعد تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْعُمُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ﴾ [غافر: ٣٥].

فالحاصل أن الكبر كان سبباً في هلاك الأمم السابقة، بل كان السبب في هلاك إبليس عليه لعنة الله وطرده من رحمة الله، أنه أبى أن يسجد لآدم ﷺ واستكبر على أمر ربه سبحانه، قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

٣ - ولا يكاد يخلو طاغية في الأرض من هذا المرض العضال، الذي كثرت الآيات فيه والأحاديث المحذرة منه، والأمره بالتواضع.

ودواؤه أن يتذكر العبد دوماً أنه لا حول ولا قوة إلا بربه، وأن الله هو الكبير المتعال على الخلق أجمعين، القادر على الانتقام من الأقوياء للضعفاء والمساكين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ سُورَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَأَهْبِئُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤]؛ أي: والنساء اللاتي تتخوفون أن يعصين أزواجهن فذكروهن بالله، فإن هي رجعت وإلا هجرها، فإن أقبلت وإلا ضربها ضرباً غير مبرح، فإذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها مما أباحه الله فلا سبيل له عليها، قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤] تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن^(٢).

(١) وهذا كله بيّنه حديث النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونَعْلُهُ حسنة. قال: «إن الله جميل يحبُّ الجمال؛ الكبيرُ بَطَرُ الحقِّ وَغَمَطُ الناسِ». رواه مسلم (٩١) وغيره عن عبد الله بن مسعود. فوضح ﷺ الكبر بأنه بطر الحق؛ أي: دفعه وإنكاره تكبراً وترفعاً وتجبراً. وغمط الناس: أي احتقارهم وازدراؤهم.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/٤٩١، ٤٩٢).

فذكر الله الرجال بأنه هو العلي الكبير ليحذرهم من الظلم والتكبر والطغيان على المرأة الضعيفة.

٤ - والكبر يمنع أيضاً من طلب العلم والسؤال عنه؛ لأن المتكبر يترفع عن الجلوس بين يدي العالم للتعلم، ويرى أن في ذلك مهانة له ويؤثر البقاء على الجهل فيجمع بين الكبر والجهل، بل قد يجادل ويناقش ويخوض في المسائل بدون علم حتى لا يقال أنه لا يعلم فيصغر عند الناس، قال تعالى ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ۖ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٩٠﴾ [الحج: ٨، ٩].

أي: ومن الناس من يجادل في الله بغير علم صحيح، ولا نقل صريح، بل بمجرد الرأي والهوى، وإذا دُعي إلى الحق ثنى عطفه؛ أي: لوى رقبته مستكبراً عما يدعى إليه من الحق، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]، فأخبر تعالى أن له في الدنيا الخزي وهو الإهانة والذل؛ لأنه استكبر عن آيات الله فجوزي بنقيض قصده، وله في الآخرة عذاب النار المحرقة.

ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝٩١﴾ [غافر: ٥٦].

وقد ذم السلف الكبر في العلم، فمن أقوالهم: من أعجب برأيه ضلّ، ومن استغنى بعقله زلّ، ومن تكبر على الناس ذلّ، ومن خالط الأنذال حقر، ومن جالس العلماء وقر.

وقال إبراهيم بن الأشعث: سألت الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعته ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه. وقال سعيد بن جبیر: لا يزال الرجل عالماً ما تعلّم، فإذا ترك التعلّم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده، فهو أجهل ما يكون.

ونبي الله موسى عليه الصلاة والسلام لم تمنعه منزلة النبوة من أن يطلب العلم ممن هو دونه، فقال للخضر عليه الصلاة والسلام: ﴿هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

ولم يزل علماء السلف يستفيدون من طلبتهم ما ليس عندهم. قال الحميدي وهو تلميذ الشافعي: صحبت الشافعي من مكة إلى مصر، فكنت أستفيد منه المسائل وكان يستفيد مني الحديث.

وقال أحمد بن حنبل: قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث مني، فإذا صح
عندكم الحديث فقولوا لنا حتى آخذ به.
وما أحسن قول القائل:
ليس العمى طول السؤال وإنما تمام العمى طول السكوت على الجهل^(١)



(١) انظر فيما سبق: «جامع بيان العلم وفضله» (١/١٧١ - ١٧٥)، و«تذكرة السامع والمتكلم» (ص ٢٨، ٢٩).

الخالق - الخلاق

جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه

(١٥ - ١٦)

* المعنى اللغوي:

اعلم أن الخلق في كلام العرب على وجهين:
أحدهما: الإنشاء على مثال أبدعه لم يسبق إليه، أحدثه بعد إذ لم يكن.
والآخر: التقدير، وَخَلَقَ الْأَدِيمَ يَخْلُقُهُ خَلْقًا: قدره لما يريد قبل القطع وقاسه ليقطع منه مزادة أو قربة أو خفًّا.
فمن الأول: قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦]؛ أي: يخلقكم نطفًا ثم علقًا ثم مضغًا.
ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءً﴾ [العنكبوت: ١٧]؛ أي: تقدرونه وتهيئونه، وهو كذب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَوْخَلَقُ﴾ [ص: ٧].
وقال زهير يمدح رجلاً:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري
أي: أنت إذا قدرت أمرك قطعته وأمضيته، وغيرك يقدر ثم لا يشرع في الأمر^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد اسمه (الخالق) في أحد عشر موضعاً في القرآن، منها:
قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤].
وقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].
وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ٥٨ ﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ ٥٩ [الواقعة: ٥٨، ٥٩]، وغيرها من الآيات.

وجاء الاسم بصيغة المبالغة مرتين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦]، وقوله سبحانه: ﴿بَلْ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

(١) «النهاية» (٧٠/٢)، و«اللسان» (١٢٤٤/٢)، و«تفسير الأسماء» (ص ٣٥ - ٣٧).

* المعنى في حق الله تبارك وتعالى :

الخلق كما بيّننا يراد به الإيجاد والإبداع تارة، والتقدير تارة أخرى، فمن الآيات التي تدل على المعنى الأول قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَكَوْنَ﴾ (٧١) [يس: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩) [القمر: ٤٩]. ولو كان الخلق ها هنا عبارة عن التقدير لصار معنى الآية: إنا كل شيء قدرناه بقدر، فيكون تكريراً بلا فائدة.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ بَقَدَرٍ﴾ [الفرقان: ٢]، فلو كان الخلق عبارة عن التقدير لصار معنى الآية: وقدر كل شيء فقدره تقديرًا.

وكذا قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فلا يليق بلفظ الخلق هنا إلا الإيجاد، وقوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]، مثلها أيضاً في المعنى، بل قد جاءت بعض الآيات ذكر فيها الخلق مقروناً باليد، كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَإِيلَيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ [ص: ٧٥].

قال ابن جرير في تفسيرها :

«قال الله لإبليس إذ لم يسجد لآدم وخالف أمره: يا إبليس ما منعك أن تسجد، يقول: أي شيء منعك من السجود لما خلقت بيدي، يقول: لخلق يدي، يخبر تعالى ذكره بذلك أنه خلق آدم بيديه، كما حدثنا ابن المثنى قال: ثنا محمد بن جعفر، قال: ثنا شعبة، قال: أخبرني عبيد المكتب، قال: سمعت مجاهدًا يحدث عن ابن عمر قال: «خلق الله بيده: العرش وعدن والقلم وآدم، ثم قال لكل شيء: كُن فكان»^(١).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] بقول مجاهد وهو قوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. قال: «يصنعون ويصنع الله والله خير الصانعين، ثم قال: لأن العرب تسمي كل صانع خالقاً»^(٢).

(١) «جامع البيان» (١١٩/٢٣)، والأثر الذي ذكره إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين سوى عبيد المكتب، وهو ابن مهران فمن رجال مسلم، وتابع شعبة عبد الواحد بن زياد عند الدارمي «الرد على المريسي» (ص ٩٠)، وذكره الذهبي في «العلو» (ص ٦٦).

(٢) (٩/١٨).

وقال الخطابي: «(الخالق): هو المبدع للخلق والمخترع له على غير مثال سبق. قال سبحانه: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣].

فأما في نعوت الادميين فمعنى الخلق: التقدير؛ كقوله ﷻ: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩] ^(١).

وقال الزجاج: «فالخلق في اسم الله تعالى هو ابتداء تقدير النشء، فالله خالقها ومنشئها وهو متممها ومدبرها، فتبارك الله أحسن الخالقين» ^(٢).

وقال الحليمي: «قال الله ﷻ: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣].

ومعناه: الذي صنّف المبدعات، وجعل لكل صنف منها قدراً، فوجد فيها الصغير والكبير والطويل والقصير، والإنسان والبهيم والدابة والطائر، والحيوان والموت، ولا شك في أن الاعتراف بالإبداع يقتضي الاعتراف بالخلق، إذ كان الخلق هيئة الإبداع فلا يغني أحدهما عن الآخر.

وقال: (الخالق) ومعناه: الخالق خَلْقاً بعد خَلْقٍ ^(٣).



(١) «شأن الدعاء» (ص ٤٩).

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٣٦، ٣٧)، وانظر: «الاعتقاد» للبيهقي (ص ٥٦)، و«النهاية» لابن الأثير (٧٠/٢).

(٣) «المنهاج» (١/١٩٣)، وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداع والاختراع له، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٢٥، ٢٦).

الْبَارِئُ جَلَّ جلاله وتقدَّست أَسْمَاؤه

(١٧)

* المعنى اللغوي:

قال ابن الأعرابي: برئ إذا تَخَلَّصَ، وبرئ إذا تنزَّه وتباعد، وبرئ إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي: إغذار وإنذار. وأصبح بارئاً من مرضه وبرئاً، كقولك: صحيحاً وصحاحاً، وقد أبرأه الله من مرضه إبراءً.

وقال الأخفش: يقال: برئت العود وبروته إذا قطعت، وبريت القلم بغير همز: إذا قطعت وأصلحته.

والبرية: الخلق، وأصلها الهمز، وقد تركت العرب همزها. وقال الفراء: وإذا أخذت البرية من البري وهو التراب فأصلها غير الهمز^(١). وقد وردت في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم ثلاث مرات في القرآن، مرة في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ﴾ [الحشر: ٢٤].

ومرتين في قوله تعالى: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

* المعنى في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: «(البارئ): الذي برأ الخلق فأوجدهم بقدرته»^(٢).

(١) «النهاية» (١/١٢٢)، و«اللسان» (١/٢٣٩)، و«تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٣٧)، و«شرح الأسماء» للرازي (ص ٢٠٧)، و«شأن الدعاء» (ص ٥٠).

(٢) «تفسير ابن جرير» (٣٧/٢٨).

وقال الزَّجَّاجُ: «(البارئ): يقال: برأ الله الخلق فهو يبرؤهم برءاً: إذا فطرهم. والبرءُ: خلق على صفة، فكل مبروء مخلوق، وليس كل مخلوق مبروءاً، وذلك لأن البرء من تبرئة الشيء من الشيء من قولهم: برأتُ من المرض، وبرئتُ من الدين أبرأ منه، فبعض الخلق إذا فُصل من بعض سَمي فاعله بارئاً»^(١).
وقال الشوكاني: «(البارئ): الخالق، وقيل: إن (البارئ) هو: المبدع المحدث»^(٢).

وقال الخطابي: «(البارئ): الخالق». ثم قال: «إلا أنّ لهذه اللفظة من الاختصاص بالحيوان ما ليس لها بغيره من الخلق، وقلّما يستعمل في خلق السموات والأرض والجبال فيقال: برأ الله السماء كما يقال: برأ الله الإنسان وبرأ النَّسَم»^(٣).

وقال ابن كثير: «الخلق هو التقدير، والبرء هو الفري، وهو التنفيذ وإبراز ما قدّره وقرّره إلى الوجود، وليس كل من قدّر شيئاً ورّبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله ﷻ».

قال الشاعر يمدح آخر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري»^(٤)

وقال الحليمي رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا الاسم يحتمل معنيين:

أحدهما: الموجد لما كان في معلومه من أصناف الخلائق. وهذا هو الذي يشير إليه جلّ وعزّ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، ولا شك أن إثبات الإبداع والاعتراف به للباري جلّ وعزّ ليس يكون على أنه أبداع بغتة من غير علم سبق له بما هو مبدعه، لكن على أنه كان عالماً بما أبداع قبل أن يُبدع، فكما وجب له عند الإبداع اسم البديع، وجب له اسم (البارئ).

والآخر: أن المراد بالبارئ قالب الأعيان؛ أي: أنه أبداع الماء والتراب والنار والهواء لا من شيء، ثم خلق منها الأجسام المختلفة، كما قال جلّ وعزّ: ﴿وَجَعَلْنَا

(١) «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٢٧). (٢) «فتح القدير» (١/ ٨٦).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٥١)، و«النهاية» لابن الأثير (١/ ١١١).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٤٣) عند قوله تعالى: ﴿الْخَلْقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]. وقال الرازي: فإن فسرنا الخالق هاهنا بالمقدّر حسنً انتظام هذه الأسماء الثلاثة على هذا الترتيب. «الأسماء» (ص ٢٠٦).

مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴿[الأنبياء: ٣٠]، وقال: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤]، وقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي فَرْجٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

فيكون هذا من قولهم: برأ القوَّاسُ القوسَ، إذا صنعها من موادها التي كانت لها فجاءت منها لا كهيتها، والاعتراف لله ﷻ بالإبداع يقتضي الاعتراف له بالبرء، إذ كان المعترف يعلم به نفسه أنه منقول من حال إلى حال، إلى أن صار ممن يقدر على الاعتقاد والاعتراف^(١).

ويمكن أن نلخص القول في معنى (البارئ) على وجوه:

- ١ - أن (البارئ) هو الموجد والمبدع، من برأ الله الخلق: إذا خلقهم. وبهذا يكون الاسم مشابهاً ومرادفاً لـ(الخالق).
- ٢ - (البارئ) هو الذي فصل بعض الخلق عن بعض؛ أي: ميّز بعضه عن بعض، وأن أصله من البرء الذي هو القطع والفصل.
- ٣ - أن (البارئ) يدل على أنه تعالى خلق الإنسان من التراب، كما قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، وأن أصله من البري وهو التراب^(٢).
- ٤ - وهناك معنى رابع ذكره الزمخشري فقال: «(البارئ) هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُتُورٍ﴾ [الملك: ٣]^(٣)؛ أي: خلقهم خلقاً مستوياً ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا نقص ولا عيب ولا خلل، أبرياء من ذلك كله.



(١) «المنهاج» (١/١٩٢، ١٩٣)، وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداء والاختراع له، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٢٤).

(٢) انظر: «شرح الأسماء» للرازي (ص ٢٠٧، ٢٠٨).

(٣) «الكشاف» (١/٢٨)، و«روح المعاني» (٢٨/٦٤).

المُصَوِّر

جَلَّ جلاله وتقدَّست أَسْماءُه

(١٨)

* المعنى اللغوي:

الصَّوْر - بالتحريك -: الميل، ورجلٌ أَصَوْر؛ أي: مائل وصُرت إلى الشيء وأصرت - بالتحريك -: إذا أملتَه إليك؛ كقوله تعالى: ﴿فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ﴾؛ أي: أملهن وأجمعهن إليك، وتصوَّرت الشيء: توهمت صورته لي، والتصاویر: التماثيل، وصُورة الأمر كذا وكذا؛ أي: صفته، وضربه فتصوَّر؛ أي: سقط^(١).

* ورود الاسم بالكتاب العزيز:

ورد الاسم في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي الْخَلَقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] مرة واحدة في القرآن، وجاء بصيغة الفعل مرات؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦]، وقوله ﴿لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، وقوله سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣].

* المعنى في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: (المصور) خلقه كيف شاء وكيف يشاء.
وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ﴾ (٧) في أيِّ صُوَرَةٍ مَّا شَاءَ رَبُّكَ ﴿٨﴾ [الأنفطار: ٧، ٨]؛ أي: صرفك وأمالك إلى أيِّ صورة شاء، إما إلى صورة حسنة، وإما إلى صورة قبيحة، أو إلى صورة بعض قرباته^(٢).
وقال الزجاج: «(المصور) هو مُفَعَّلٌ من الصورة، وهو تعالى مصور كل صورة لا على مثالٍ احتذاه ولا رسم ارتسمه تعالى عن ذلك علواً كبيراً»^(٣).
وقال ابن كثير في معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِي الْخَلَقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]: «أي:

(١) «النهاية» (٥٨/٣)، و«اللسان» (٢٥٢٣/٤).

(٢) الطبري (٣٧/٢٨، ٥٥/٣٠).

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٣٧).

الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن، فيكون على الصفة التي يريد والصورة التي يختار؛ كقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الأنفطار: ٨]، ولهذا قال: (المصور)؛ أي: الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها^(١).

وقال الخطابي: «(المصور) هو الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة ليتعارفوا بها فقال: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

وقال: التَّصَوُّرُ: التخطيط والتشكيل، ثم قال: وخلق الله جلّ وتعالى الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلَقٍ: جعله علقَةً، ثم مضغةً، ثم جعلها صورةً، وهو التشكيل الذي به يكون ذا صورةٍ وهيئةٍ يعرف بها ويتميز بها عن غيره بسماتها، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]^(٢).

وبهذا يكون معنى (المصور):

١ - أن (المصور): هو الذي أmaal خلقه وعدلهم إلى الأشكال والهيئات التي توافق تقديره وعلمه ورحمته، والتي تتناسب مع مصالح الخلق ومنافعهم، وأن أصل (المصور) من الصَّوْر وهو الإمامة.

٢ - أن (المصور) هو الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة، وهيئات متباينة، من الطول والقصر، والحسن والقبح، والذكورة والأنوثة، كل واحد بصورته الخاصة.

* آثار الإيمان بهذه الأسماء: (الخالق - الخلاق - البارئ - المصور):

١ - أخبر تعالى عن نفسه أنه هو (الخالق) وحده وما سواه مخلوق، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ﴾ [الرعد: ١٦]. وقال سبحانه: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣].

فكل ما سوى الله مخلوق محدث، كائن بعد أن لم يكن، وكل المخلوقات سبقها العدم، كما قال ﷻ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. وهذا قول الرسل جميعاً وأتباعهم، وخالف في ذلك الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته وإن لم يكن معدوماً أصلاً، بل لم يزل ولا يزال، ولكن الكتاب يرد ذلك ويرفضه^(٣).

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٤٤).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٥١، ٥٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٢٠٨)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص ٥٦).

(٣) قال ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ١٦٧): وقد نقل غير واحد أن أول من قال بقدم العالم من الفلاسفة هو أرسطو.

٢ - أن الله سبحانه لم يزل خالقاً كيف شاء ومتى شاء ولا يزال؛ لقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقوله سبحانه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [١٥] فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ [البروج: ١٥، ١٦].

وليس بعد خلق الخلق استفاد اسم (الخالق)، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم (البارئ)، وذلك من كماله، ولا يجوز أن يكون فاقداً لهذا الكمال، أو معطلاً عنه في وقت من الأوقات، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٧] [النحل: ١٧] ^(١).

٣ - إن الله تعالى ذكره خالق كل شيء. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٢].

ومن جملة مخلوقاته العباد، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يدل هذا على أن العبد ليس بفاعل على الحقيقة ولا مريد ولا مختار، بل هو فاعل لفعله حقيقة، وأن إضافة الفعل إليه إضافة حق، وأنه يستوجب عليه المدح والذم والثواب والعقاب، ولكن لا يدل هذا أنه واقع بغير مشيئة الله وقدرته.

والدليل على أن أفعال العباد مخلوقة. قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٩٦] [الصفات: ٩٦] ^(٢)، فأفعالهم لله تعالى خلق ولهم كسب، ولا ينسب شيء من الخلق

(١) انظر: «الطحاوية» (ص ١٣٧)، وقد خالف في ذلك المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الكلائية والأشاعرة فإنهم قالوا: أنه تعالى صار قادراً على الفعل بعد أن لم يكن قادراً عليه، لكون الفعل صار ممكناً بعد أن كان ممتنعاً، وأنه انقلب من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي!!.

وقد ردّ عليهم أبو جعفر الطحاوي رحمه الله تعالى بقوله: «ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه، لم يزد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً، كذلك لا يزال عليها أبدياً». اهـ.

راجع: «الطحاوية» (ص ١٢٧)، وانظر: «شرح ابن أبي العز الحنفي» فقد أجاد وأفاد.

(٢) أورد ابن كثير عند تفسير هذه الآية حديثاً رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص ٢٥): قال: ثنا علي بن عبد الله، ثنا مروان بن معاوية، ثنا أبو مالك عن ربعي بن حراش عن حذيفة قال: قال النبي ﷺ: «إن الله يصنع كل صانع وصنعه»، ثم قال البخاري: «فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة». اهـ. والحديث إسناده صحيح، رجاله ثقات، وأبو مالك هو سعد بن طارق الأشجعي. وأخرجه الحاكم (٣١/١) بالطريق السابق، والبيهقي في «الأسماء» (ص ٤٩١).

لغير الله تعالى، فيكون شريكاً ونظيراً مساوياً له في نسبة الفعل إليه، وقد نهى الله سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقد وقع في ذلك القدريّة نفاة القدر، الذين جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى، ولهذا كانوا «ممجوس هذه الأمة»، بل أردأ من المجوس من حيث إن المجوس أثبتوا خالقين، خالقاً للخير وخالقاً للشر، وأما هؤلاء فقد أشركوا جميع العباد في الخلق فقالوا: هم يخلقون أفعالهم، وخالفوا بذلك الكتاب والسنة وأهل الحق^(١).

٤ - خلق الله عظيم محكم فلا يستطيع مخلوق أن يخلق مثله، فضلاً عن أن يخلق أفضل منه، قال ﷺ: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ؟ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [لقمان: ١١]. وفي الآية تحدّد لجميع الخلق من الجن والإنس وغيرهم.

وقد أثبت الله عجزهم عن خلق خلق ضعيف حقير كالذباب مثلاً، ولو اجتمعوا على ذلك وتعاونوا عليه، قال ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَعْمُوا لَهُ؟ إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]. عزير^(٢).

٥ - ولذلك حرّم الله على عباده أن يصوّروا الصور ذات الأرواح لما فيها من مضاهاة لخلق الله؛ أي: تشبيه ما يصنعونه ويصوّرونه من الصور بما يصنعه ويصوره الله، كما جاء في رواية مسلم: «الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ»^(٣).

وقد وردت أحاديث كثيرة في توعّد المصوّرين بأشدّ العذاب؛ كقوله ﷺ: «إِنْ أَشَدَّ النَّاسُ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَصُورُونَ»^(٤)، وقوله ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ هَذِهِ الصُّورَ يَعَذِّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»^(٥)، وهو أمر تعجيز ويستفاد منه صفة تعذيب المصوّر، وهو أن يكلف نفخ الروح في الصورة التي صورها، وهو لا يقدر على ذلك فيستمرّ تعذيبه. قاله الحافظ^(٦).

(١) انظر: «العقيدة الطحاوية» (ص ٤٩٣ - ٥٠٢)، و«الفتح» (١٣/ ٤٩١ - ٤٩٥).

(٢) «مسلم بشرح النووي» (٨٨/ ١٤).

وبذلك تعلم حرمة تصوير ذوات الأرواح بما يسمى بـ«الكاميرا»؛ لأن المضاهاة تكون فيها أشد من الرسم باليد، والتفريق بينهما لا يستند إلى دليل من شرع أو عقل.

(٣) رواه البخاري (٩٥٠)، ومسلم (٢٠١٩) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٤) رواه البخاري (٥٩٥١)، ومسلم (٢١٠٨) من حديث ابن عمر.

(٥) «الفتح» (٣٨٤/ ١٠).

وجاء في الحديث القدسي قوله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهب - أي قصد - يخلق خلقاً كخلقي، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة»^(١).

فتحدهم الخالق سبحانه بأن يخلقوا ذرة وهي النملة الصغيرة، ثم زاد في التحدي بأن طلب منهم أن يخلقوا حبة أو شعيرة، وهو من الجماد الذي لا حركة فيه نسبياً، إذا ما قيس بالنسبة للنمل الذي يتحرك.

وقال بعض المُلحِدة يوماً: أنا أخلق! فقيل له: فأرنا خلقك؟ فأخذ لحماً فشرَّحه، ثم جعل بينه رؤثاً ثم جعله في كُوْزٍ وختمه ودفعه إلى من حفظه عنده ثلاثة أيام، ثم جاء به إليه فكسر الخاتم وإذا الكوز ملآن دوداً، فقال: هذا خلقي!! فقال له بعض من حضر: فكم عدده؟ فلم يدر، فقال: كم منه ذكور وكم منه إناث، وهل تقوم برزقه؟ فلم يأت بشيء، فقال له: الخالق الذي أحصى كل ما خَلَقَ عدداً، وعرف الذكر من الأنثى، ورزق ما خلق، وعلم مُدَّةَ بقاءه وعلم نفاد عمره، قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُسَبِّحُكُمْ ثُمَّ يُخَيِّكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]، وقال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [السجدة: ٧]^(٢).

وقد قسَّم النووي رَحِمَهُ اللهُ المصورين إلى ثلاثة أقسام:

أ - من فعل الصورة لتعبد، وهو صانع الأصنام ونحوها، فهذا كافر وهو أشدهم عذاباً.

ب - من فعل الصورة وقصد مضاهاة خلق الله تعالى واعتقد ذلك، فهذا كافر له من أشد العذاب ما للكفار ويزيد عذابه بزيادة قبح كفره.

ج - من لم يقصد بالصورة العبادة ولا المضاهاة فهو فاسق صاحب ذنب كبير، ولا يكفر كسائر المعاصي. اهـ^(٣).

٦ - وجود هذا الخلق العظيم المحيط بنا من كل ناحية، دليل على قدرة الخالق وعلى عظيمته وكماله، فالإنسان يعجز في كثير من الأحيان عن معرفة جوانب كثيرة من الأرض التي يعيش عليها، مع أنها صغيرة جداً إذا ما قيسَت بالنسبة لبقية الكون الفسيح المليء بملايين النجوم المضيئة والشموس والأقمار والتي يعجز عن حصرها أو عدّها، وهذا كله في السماء الدنيا، التي فوقها ست سموات طباق، بعضها فوق

(١) رواه البخاري (٥٩٥٣، ٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة.

(٢) «الحجة في المحجة» ورقة (١٦ب).

(٣) «شرح مسلم» (٩١/١٤)، انظر: «الفتح» (٣٨٣/١٠، ٣٨٤).

بعض وفوقهن جميعاً الكرسي ومن عظمة خلق هذا الكرسي واتساعه أنه يستوعب السماوات السبع والأرض جميعاً. قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والعرش أعظم من ذلك والخالق سبحانه فوقه العرش، وهو جلّت عظمته أكبر من كل شيء وأعظم.

وبذلك تعلم أن خلق الإنسان ضعيف جداً، إذا ما قورن بالسّموات السبع والكرسي والعرش، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا﴾ [٢٨] وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ - ٢٩].

٧ - وأخيراً يجب أن نعلم أن الله ﷻ ما خلق هذا الخلق العظيم لهواً ولعباً، ولا خلقه عبثاً وإنما خلقه لغاية عظيمة. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١٥] فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٦﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]؛ أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا حكمة لنا فيكم، فتعالى الله؛ أي: تقدّس وتنزه عن ذلك، ثم ذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات^(١).

وقال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ [١١] لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ [٧] بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٦ - ١٨].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق - أي بالعدل - ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً»^(٢).

وأبان تعالى عن هذه الغاية العظيمة بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [٥١] مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].



(١) من «تفسير ابن كثير» (٢٥٩/٣) ملخصاً.

(٢) المصدر السابق (١٧٤/٣، ١٧٥).

الغافر - الغفور - الغفار

جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه

(١٩ - ٢٠ - ٢١)

* المعنى اللغوي:

أصل الغَفَر: التغطية والستر، غفر الله له ذنوبه؛ أي: سترها، وتقول العرب: اضْبُغْ ثوبك بالسَّوَادِ فهو أَغْفَرُ لوسخه؛ أي: أَحْمَلُ له وأعطى له، وكذا غَفَرَ الشَّيْبُ بالخضاب وأَغْفَرَه؛ أي: ستره، والمغفرة: التغطية والمِغْفَر: هو حلق يتقنع به المتسلح يقيه ويستره^(١).

* ورود الأسماء في القرآن الكريم:

سمى الله نفسه بـ(الغفور) في إحدى وتسعين آية، وأما اسمه (الغفار) فقد جاء في خمس آيات، فعلم أن ورود (الغفور) في القرآن أكثر بكثير من (الغفار)، و(الغفار) أبلغ من (الغفور) وكلاهما من أبنية المبالغة.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

وقال سبحانه: ﴿بَنِيَّ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

وقال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ [البروج: ١٤].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

[فاطر: ٤١]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

وأما (الغفار) ففي قوله تعالى: ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥].

وقوله ﷻ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [ص: ٦٦].

وقول سبحانه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

(١) «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٣٧)، و«النهاية» (٣/ ٣٧٣)، و«اللسان» (٤/ ٣٢٧٣)، و«غريب الحديث» لأبي عبيد (٣/ ٣٤٨).

وأما (الغافر) فقد ورد مرة واحدة في القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

* معنى الأسماء في حق الله تعالى:

قال الزجاج: «ومعنى العَفْرُ في حَقِّ الله سبحانه هو الذي يَسْتُرُ ذنوب عباده ويغطيهم بستره»^(١).

وقال الخطابي: «ف(الغفار) الستار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته، ومعنى الستر في هذا: أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره في عيونهم»^(٢).

وقال أبو عبيد: «والمغفرة من الذنوب إنما هو إلباس الله الناس الغفران وتغمدهم به»^(٣).

وقال الحليمي: «(الغافر): وهو الذي يستر على المذنب، ولا يؤاخذه فيشهره ويفضحه.

(الغافر): وهو المبالغ في الستر، فلا يشهر المذنب لا في الدنيا ولا في الآخرة. (الغفور): وهو الذي يكثر منه الستر على المذنبين من عباده، ويزيد عفوه على مؤاخذته»^(٤).

وقال ابن العربي في (الأمد): المسألة الثالثة في ترتيب هذه الأسماء الثلاثة، وفي ذلك ثلاثة أقوال:

أحدها: أن غافراً فاعل من غَفَرَ، وإن قولنا: (غفور) للمبالغة إذا تكرر، وإن (العَفَّار) أشد مبالغة منه.

الثاني: أن قوله (غافر) بستره في الدنيا، وإن (غفوراً) بستره في الآخرة، وإن (غفاراً) بستره عن أعين الخلائق، وعن أعين المذنبين، ليكون لكل لفظ فائدة يختص بها. قال: والقول الأول هو أصح، وما بعده تحكم لا يشهد له لغة ولا حقيقة^(٥).

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٣٨).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٥٢)، وانظر: «النهاية» (٣/ ٣٧٣)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٢٧، ١٥/ ١٧٤)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص ٥٦).

(٣) «غريب الحديث» (٣/ ٣٤٨).

(٤) «المنهاج» (١/ ١٠٢) وذكرها ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٥٥، ٥٦).

(٥) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٨٦، ٢٨٦ب).

وقال السعدي: «(العفو - الغفور - الغفار): الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالغفران والصفح عن عباده مؤصوفاً، كل أحد مضطراً إلى عفوهِ ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وَعَدَ بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٨٢﴾ [طه: ٨٢]»^(١).

وقال ابن القيم في «النونية»:
وهو (الْغُفُورُ) فلو أَتَى بِقُرَابِهَا من غير شِرْكٍ بل من الْعِصْيَانِ
لَأَتَاهُ بِالْغُفْرَانِ مِلءَ قُرَابِهَا سبحانه هو وَاسِعُ الْغُفْرَانِ^(٢)

* آثار الإيمان بهذه الأسماء:

١ - وصف الله سبحانه نفسه بأنه غفار وغفور للذنوب والخطايا والسيئات لصغيرها وكبيرها، وحتى الشرك إذا تاب منه الإنسان واستغفر ربه، قَبِلَ اللهُ توبته وغفر له ذنبه، قال تعالى: ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٣﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿١١٠﴾ [النساء: ١١٠].

فمهما عظمت ذنوب هذا الإنسان فإن مغفرة الله ورحمته أعظم من ذنوبه التي ارتكبها، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ [النجم: ٣٢].

وقد تكفل الله سبحانه بالمغفرة لمن تاب وآمن، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٨٢﴾ [طه: ٨٢].

بل من فضله وجوده وكرمه أن تعهد بأن يبدل سيئات المذنبين إلى حسنات، قال تعالى عن التائبين: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

٢ - ولكن لا يجوز للمسلم أن يُسرف في الخطايا والمعاصي والفواحش بحجة أن الله غفور رحيم، فالمغفرة إنما تكون للتائبين الأوابين، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١١١﴾ [النمل: ١١].

فاشترط تبدل الحال من عمل المعاصي والسيئات إلى عمل الصالحات والحسنات، لكي تتحقق المغفرة والرحمة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] يبين أن المقيم على الشرك حتى الوفاة لا غفران لذنوبه؛ لأنه

(٢) «النونية» (٢/٢٣١).

(١) «تيسير الكريم» (٥/٣٠٠).

لم يبدل حسناً بعد سوء، وكذا قوله تعالى عن المنافقين: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]؛ لأنهم لم يخلصوا دينهم لله ولم يصلحوا من أحوالهم، وأما إذا حصل ذلك فإن المغفرة تحصل لهم مع المؤمنين قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

فلا بد من الأخذ بالأسباب المؤدية إلى المغفرة، وأما إن مات وهو مقيم على الكبائر من غير أن يتوب، فإن مذهب أهل السنة والجماعة أنه ليس له عهد عند الله بالمغفرة والرحمة، بل إن شاء غفر له وعفا عنه بفضل له كما قال ﷺ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وإن شاء عذبه في النار بعدله، ثم يخرج منه برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يدخله الجنة وذلك للموحدين خاصة.

٣ - اتصاف الله سبحانه بأنه (غفار) للذنوب والسيئات، فضل من الله ورحمة عظيمة للعباد؛ لأنه غني عن العالمين، لا ينتفع بالمغفرة لهم؛ لأنه سبحانه لا يضره كفرهم أصلاً، ولا يغفر لهم خوفاً منهم أيضاً؛ لأنه قوي عزيز، قد قهر كل شيء وغلبه ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وقد نبه الله عباده إلى هذا الأمر في القرآن الكريم عدة مرات، باقتران اسمه (الغفور) مع (العزيز) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقوله: ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ﴾ [الزمر: ٥] فمع عزته وقهره، إلا أنه غفور رحيم.

الفرق بين العفو والغفران:

قال بعض العلماء: إن الغفران سترٌ لا يقع معه عقاب. والعفو إنما يكون بعد وجود عذاب وعتاب^(١).



(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٨٦ب) وفيه نظر! وسيأتي الكلام عليه في (العفو).

القَاهِر - الْقَهَّار

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٢٢ - ٢٣)

* المعنى اللغوي:

القَهْر: الغلبة والأخذ من فوق، وقهره يَقْهَرُهُ قَهْرًا: غلبه، وتقول: أخذتهم قهراً؛ أي: من غير رضاهم، وأقْهَرَ الرجل: صار أصحابه مقهورين^(١).
وقال الزجاج: القهر في وضع العربية: الرياضة والتذليل، يقال: قَهَر فلان الناقة: إذا راضها وذلها^(٢).

* وروده في القرآن العظيم:

(القهار) فعَّال، مبالغة من (القاهر) فيقتضي تكثير القهر، وقد ورد الاسم (القاهر) في الكتاب العزيز مرتين في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

و(القهار) ورد ست مرات، منها قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

* معنى الاسمين في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: «(القاهر): المذل المستعبد خلقه العالي عليهم، وإنما قال: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾؛ لأنه وصف نفسه تعالى بقهره إياهم، ومن صفة كل قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه، فمعنى الكلام إذاً: والله الغالب عباده المذل لهم، العالي عليهم بتذليله لهم وخلقهم إياهم، فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه»^(٣).
وقال ابن كثير: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾؛ أي: هو الذي خضعت له الرقاب،

(١) «النهاية» (٤/١٢٩)، و«لسان العرب» (٥/٣٧٦٤).

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٣٨).

(٣) «جامع البيان» (٧/١٠٣، ١٣٨، ١٣٩، ١٢/١٣٠).

وذلت له الجبابة، وعنت له الوجوه وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه»^(١).

وقال الخطابي: «(القهار): هو الذي قهر الجبابة من عتاة خلقه بالعقوبة وقهر الخلق كُلَّهُم بالموت»^(٢).

وقال الزجاج: «والله تعالى قهر المعاندين بما أقام من الآيات والدلالات على وحدانيته، وقهر جبابة خلقه بعز سلطانه وقهر الخلق كُلَّهُم بالموت»^(٣).

وقال الحليمي: «(القاهر) ومعناه: إنه يدبر خلقه بما يريد، فيقع في ذلك ما يشق ويثقل ويغم ويحزن، ويتكوّن منه سلب الحياة أو نقص الجوارح، فلا يستطيع أحد ردّ تدبيره، والخروج من تقديره.

وقال في (القهار): أَنْ يَقْهَرُ وَلَا يُقْهَرُ بحال»^(٤).

وقال ابن القيم في «النونية»:

وكذلك الْقَهَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ فالخَلْقُ مَقْهُورُونَ بِالسُّلْطَانِ
لو لم يكن حَيًّا عَزِيزاً قَادِراً ما كان مِنْ قَهْرٍ وَلَا سُلْطَانٍ^(٥)

* آثار الإيمان بهذين الاسمين:

١ - إن القهار على الحقيقة هو الله وحده سبحانه، هو قهر وغلب عباده أجمعين، حتى إن أعتى الخلق يتضاءل ويتلاشى أمام قهر الله وجبروته، فها هو الموت الذي كتبه الله على عباده لا يستطيع الخلق رده أو دفعه عن أنفسهم، ولو أوتوا من القوة والجبروت ما أوتوا، وقد ذكر الله الموت قريباً من وصفه نفسه بـ(القاهر) ليدكرهم بشيء قد قهرهم به أجمعين، وذلك في قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ۖ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢].

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/١٢٦، ٢/١٣٨، ٤٧٩، ٤/٧٤).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٥٣)، وانظر: «فتح القدير» (٣/٧٤)، «روح المعاني» (١٢/٢٤٤).

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٣٨).

(٤) «المنهاج» (١/٢٠٢) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦١).

(٥) «النونية» (٢/٢٣٢)، وانظر: «تيسير الكريم» (٥/٢، ٣).

ومما قهرهم به أيضاً: الأمراض والمصائب والنكبات التي لا يملكون ردّها عن أنفسهم .

وما أحسن قول من قال: القهار الذي طاحت عند صولته صولة المخلوقين، وبادت عند سطوته قوى الخلائق أجمعين، قال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فأين الجبابة والأكاسرة! عند ظهور هذا الخطاب، وأين الأنبياء والمرسلون، والملائكة المقربون في هذا العتاب، وأين أهل الضلال والإلحاد، والتوحيد والإرشاد، وأين آدم وذريته، وأين إبليس وشيعته، وكأنهم بادوا وانقضوا زهقت النفوس، وتبددت الأرواح وتلفت الأجسام والأشباح، وتفرقت الأوصال، وبقي الموجود الذي لم يزل ولا يزال^(١).

٢ - وأما صفة القهر في الخلق، فغالباً ما تكون مذمومة لقيامها على الظلم والطغيان، والتسلط على الضعفاء والفقراء؛ كما قال فرعون لعنه الله: ﴿سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَسَتَجِيءُ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ فَهَرُوتُ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وقال تعالى: ﴿أَمَّا أَلَيْتِمَ فَلَا تَقْهَرُ﴾ [الضحى: ٩]؛ أي: لا تسلّط عليه بالظلم وادفع إليه حقه، وخص اليتيم؛ لأنه لا ناصر له غير الله تعالى، فغلّظ في أمره بتغليظ العقوبة على ظالمه، وقوله: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرُ﴾ [الضحى: ١٠]؛ أي: لا تزجره ولا تغلّظ له القول.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، قال القرطبي: وهذه هي النعمة العظمى، وهي ما منّ الله عليه من الرسالة والنبوة والخلة والمحبة والعلم والحكمة، فأوجب عليه أن يُظهِر ذلك ويُشيعه ويحدّث به، ويُعلّم الجاهل غير مُمتنّ عليه ولا مُتطاوّل ولا قاهر له.

وكذلك قال معاوية بن الحكم السلمي: «فبأبي هو وأمي، ما رأيت مُعلّماً قبله ولا بعده أحسنَ تعليماً منه، فوالله ما كَهَرَنِي ولا ضَرَبَنِي ولا شَتَمَنِي» الحديث خرّجه مسلم^(٢).

وقرئ «فلا تكهر» بالكاف، وهي قراءة عبد الله بن مسعود، قال الكسائي: كَهَرَهُ وَفَهَرَهُ بمعنى^(٣).

٣ - قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٦١]، يستفاد منه صفة العلوّ لله

(١) انظر: «شرح الأسماء» للرازي (ص ٢٢٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٥٣٧).

(٣) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٠٤).

سبحانه على عباده، سواء علو «المكانة والرتبة» أو علو «المكان والجهة»، وقد تضافرت أدلة الكتاب والسنة عليه - أي الثاني - كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿ءَأَمِنُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]^(١).
 ٤ - أنه سبحانه هو الذي قهر الخلق جميعاً على ما أراد^(٢).

٥ - أن الله هو (القهار) المستحق للعبادة والألوهية وما سواه من الآلهة فإنما هي مخلوقات عاجزة مقهورة، لا تملك أن ترد الضر عن نفسها فكيف تقهر غيرها، وبهذا جادل نبي الله يوسف ﷺ صاحبيه في السجن فقال: ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ أَزْيَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، فبين لهم أن آلهتهم متعددة متفرقة، والعابد لها متحير أيها يرضي، وأنها مسخرة ومقهورة لله وفي قبضته، وليس لها من الألوهية إلا الاسم الذي أُعطي لها زوراً وبهتاناً دون حجة ولا برهان: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمِيَتْهُمَا آنتَرُ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠].



(١) وسيأتي الكلام على «العلو» عند الكلام عن أسمائه (العلي - الأعلى - المتعال) في الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.
 (٢) وهو من معاني «الجبار»، وقد تقدم الكلام عليه.

الْوَهَّابُ

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٢٤)

* المعنى اللغوي:

قال ابن سيده: وهب لك الشيء يهبه وهباً ووهباً بالتحريك، ووهبت له هبة وموهبة ووهباً إذا أعطيته. ورجلٌ واهبٌ ووهَّابٌ ووهوبٌ ووهَّابةٌ؛ أي: كثير الهبة لأمواله. والهبة: العطية الخالية عن الأعواض والأغراض. والوهَّاب مبالغة على وزن فَعَّال^(١).

* وروده في الكتاب العزيز:

ورد الاسم ثلاث مرات في القرآن الكريم، مرة في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [٨].
ومرتين في سورة ص في قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [٩].
وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغَى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [٣٥].

* معنى الاسم في حق الله سبحانه:

قال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾: يعني: إنك أنت المعطي عبادك التوفيق والسداد للثبات على دينك وتصديق كتابك ورسلك.
وقال: (الوهَّاب) لمن يشاء من خلقه، ما يشاء من ملك وسلطان ونبوة.
وقال: إنك وهَّاب ما تشاء لمن تشاء، بيدك خزائن كل شيء تفتح من ذلك ما أردت لمن أردت^(٢).

وقال الخطابي: «(الوهَّاب): هو الذي يجود بالعطاء عن ظهر يدٍ من غير استثابة»^(٣)؛ أي: من غير طلب للثواب من أحد.

(١) «النهاية» (٣٢١/٥)، «اللسان» (٤٩٢٩/٦)، «تفسير الأسماء» (ص ٣٨).

(٢) الطبري (١٢٥/٣، ٨٢/٢٣، ١٠٣).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٥٣)، «الاعتقاد» (ص ٥٧)، وانظر: «المقصد الأسنى» (ص ٤٨).

وقال الحليمي: «(الوهاب): وهو المتفضل بالعطايا المنعم بها لا عن استحقاق عليه»^(١).

وقال النسفي: «(الوهاب): الكثير المواهب المصيب بها مواقعها الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته»^(٢).

وقال ابن القيم في «النونية»:

وكذلك (الوهاب) من أسمائه فانظر مَوَاهِبَهُ مَدَى الْأَزْمَانِ

أهلُ السَّمَوَاتِ العُلَى والأَرْضِ عَنْ تِلْكَ المَوَاهِبِ لَيْسَ يَنْفَكَّانِ^(٣)

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إن (الوهاب) هو الله وحده، بيده خزائن كل شيء، الذي له مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومن فيهن، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء». ثم قال: «فجعل الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد له، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾؛ أي: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: على ما يشاء من تفاوت الناس في ذلك»^(٤).

فالله سبحانه يهب ما يشاء لمن يشاء؛ لأنه مالك الملك، وأما العباد فإنهم ملكٌ لله سبحانه، والعبد لا يملك أن يهب شيئاً على الحقيقة، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥].

٢ - الفرق بين هبة الخالق والمخلوق:

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكُلُّ من وهب شيئاً من عرض الدنيا لصاحبه فهو واهب، ولا

(١) «المنهاج» (٢٠٦/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٧٦).

(٢) «تفسير النسفي» (٣٥/٤)، الآلوسي (١٦٨/٢٣).

(٣) «النونية» (٢٣٤/٢). (٤) «تفسير ابن كثير» (١٢١/٤).

يستحق أن يسمى وهّاباً إلا من تصرف مواهبه في أنواع العطايا فكثرت نوافله ودامت، والمخلوقون إنما يملكون أن يهبوا مالاً أو نوالاً في حالٍ دون حال، ولا يملكون أن يهبوا شفاءً لسقيم، ولا ولداً لعقيم، ولا هدى لضال، ولا عافيةً لذي بلاء، والله (الوهاب) سبحانه يملك جميع ذلك، وسع الخلق جوده، فدامت مواهبه واتصلت منه وعوائده^(١). وأكثر الخلق إنما يهبون من أجل عوض ينالونه، كأن يهب لأجل أن يمدح بين الناس، أو يهب من أجل الثواب في الآخرة^(٢).

٣ - النبوة والكتاب هبة من الله يختص بها من يشاء من عباده، وقد أنكر أقوام الرسل هذا الأمر، فحكى الله عن قوم صالح عليه الصلاة والسلام أنهم قالوا: ﴿الَّذِي عَلَيْهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ [القمر: ٢٥].

وقال سبحانه عن كفار قريش: ﴿أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيِّنَاتٍ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [٨] أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ [٩] ﴿[ص: ٨، ٩]. يقول ابن جرير رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: أم عند هؤلاء المشركين المنكرين وحي الله إلى محمد خزائن رحمة ربك؛ يعني: مفاتيح رحمة ربك يا محمد، العزيز في سلطانه، الوهاب لمن يشاء من خلقه ما يشاء من ملك وسلطان ونبوة، فيمنعوك يا محمد ما من الله به عليك من الكرامة، وفضلك به من الرسالة»^(٣).

وقال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال عن موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

٤ - الملك والسلطان هبة من الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [٥٣] أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا [٥٤] [النساء: ٥٣، ٥٤]، وهذا استفهام إنكار؛ أي: ليس لهم نصيب من الملك، بل الله وحده هو المالك للملك الذي يهب ما يشاء لمن يشاء.

(١) «شأن الدعاء» (ص ٥٣).

(٢) انظر: «شرح الأسماء» للرازي (ص ٢٢٤، ٢٢٥)، و«المقصد الأسنى» (ص ٤٩).

(٣) «جامع البيان» (٨٢/٢٣).

وقد دعا سليمان عليه الصلاة والسلام ربه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، دعاه أن يهبه ملكاً لا يكون لأحد من بعده فاستجاب الوهاب سبحانه له: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ [ص: ٣٧] وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ [ص: ٣٨] هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [ص: ٣٩].

سخر الله له الريح التي تجري بأمره حيث أراد؛ أي: تحمله حيث شاء، والشياطين التي تعمل له ما يشاء من تماثيل ومحاريب وقصور وقدرور وجفان، ويغوصون في البحار يستخرجون له اللآلئ. فيا له من ملك عظيم يعجز أعظم البشر مالا وسلطاناً أن يهب شيئاً منه، ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ هذه هبة الله لمن يريد من خلقه^(١).

٥ - الذرية هبة من الله أيضاً، قال جلّ ذكره: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَنَهَبَ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ [ص: ٤٩] أَوْ يَزُوجُهُمْ ذَكَرًا وَإِنثًا وَجَعَلَ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُمْ عَلِيمٌ قَدِيرٌ [ص: ٥٠] [الشورى: ٤٩، ٥٠]، وقد مرّ قريباً كلام ابن كثير عليها.

وقد وهب الله سبحانه بعض الأنبياء الذرية بعد كبر السن ووهن العظم. قال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ﴾ [ص: ٣٩]. [إبراهيم: ٣٩].

وكذا زكريا عليه السلام وهبه الله الولد بعدما طعن في السن وشاخ، وكانت امرأته عاقراً أيضاً كما بين الله ذلك في مطلع سورة مريم، لكن ذلك لم يمنع زكريا عليه الصلاة والسلام من الطمع في هبة الله الوهاب، فدعا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، فاستجاب الله دعاءه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُمْ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ أي: شفى امرأته من العقم، فحملت يبيحى عليه الصلاة والسلام، فسبحان الكريم الوهاب.

(١) فائدة: إن قال قائل: ما وجه رغبة سليمان إلى ربه في الملك وهو نبي من الأنبياء، وإنما يرغب في الملك أهل الدنيا المؤثرون لها على الآخرة؟ أم ما وجه مسألته إياه إذ سأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وما كان يضره أن يكون كل من بعده يؤتى مثل الذي أوتي من ذلك أكان به بخل؟ أم حسد للناس؟

قيل: أما رغبته إلى ربه فيما يرغب إليه من الملك فلم تكن إن شاء الله به رغبة في الدنيا، ولكن إرادة منه أن يعلم منزلته من الله في إجابته فيما رغب إليه، وقبوله توبته وإجابته دعوته، وإما مسألته ربه ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]؛ أي: وهب لي ملكاً تخصني به لا تعطيه أحداً غيري، تشريفاً منك لي وتكرمة لتبين منزلتي منك به من منازل من سواي. اهـ من «جامع البيان» (١٠٦/٢٣) باختصار وتصرف.

الرَّزَاقُ - الرَّازِقُ

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٢٥ - ٢٦)

* المعنى اللغوي:

الرزق: ما ينتفع به، يقال: رزق الخلق رزقاً ورزقاً، فالرزق بفتح الراء هو المصدر الحقيقي، والرزق بكسر الراء الاسم، ويجوز أن يوضع موضع المصدر، والجمع أرزاق، والرَّزَاق من أبنية المبالغة^(١).

* ورود الاسمين في القرآن الكريم:

ورد الاسم مفرداً مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. وقد قرأ ابن محيصن وغيره (الرازق)^(٢).

وورد بصيغة الجمع خمس مرات، منها قوله تعالى: ﴿وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

* معنى الاسمين في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: «هو (الرَّزَّاقُ) خلقه المتكفل بأقواتهم»^(٣).

قال الخطابي: «هو المتكفل بالرزق والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها وسع الخلق كلهم رزقهُ ورحمته، فلم يختص بذلك مؤمناً دون كافر، ولا ولياً دون عدو، يسوقه إلى الضعيف الذي لا حيلَ له، ولا مُتَكَسِّب فيه، كما يسوقه إلى الجلد القوي ذي المِرَّة السَّوي، قال سبحانه: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦٦]^(٤).

(١) «النهاية» (٢/٢١٩)، «اللسان» (٣/١٦٣٦)، «الأسنى» ورقة (٣٢٥ب).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/٥٦)، «روح المعاني» (٢٧/٢٤).

(٣) «جامع البيان» (٨/٢٧).

(٤) «شأن الدعاء» (ص٥٤)، «الاعتقاد» (ص٥٧).

ونقله الأصهباني ورقة (١٨ب) إلى قوله: ولا ولياً دون عدو، وزاد: ويرزق من عبده ومن عبد غيره ومن أطاعه ومن عصاه، والأغلب من المخلوق أنه يرزق فإذا غضب منع.

وقال الحلبي في معنى: «(الرزاق)»: المُفِيضُ على عباده ما لم يجعل لأبدانهم قواماً إلا به، والمنعم عليهم بإيصال حاجتهم من ذلك إليهم، لثلا تتنصص عليهم لذة الحياة بتأخره عنهم ولا يفقدوها أصلاً لفقدهم إياه.

وقال في معنى (الرَّزَاق): «وهو (الرزاق) رزقاً بعد رزق، والمكثر الموسع له»^(١). قال ابن الأثير: (الرَّزَاق): «وهو الذي خلق الأرزاق وأعطى الخلائق أرزاقها وأوصلها إليهم»^(٢).

وقال السَّعدي: «(الرَّزَاق) لجميع عباده فما من دابةٍ في الأرض إلا على الله رزقها، وورقه لعباده نوعان:

- ١ - رزقٌ عام شمل البر والفاجر، والأولين والآخرين وهو رزق الأبدان.
 - ٢ - ورزق خاص وهو [رزق] القلوب، وتغذيتها بالعلم والإيمان.
- والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين على مراتبهم منه بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته»^(٣). وقوله قريبٌ مما ساقه ابن القيم في «النونية»:

وَالرَّزْقُ مِنْ أَعْمَالِهِ نَوْعَانِ	وَكَذَلِكَ الرَّزَّاقُ مِنْ أَسْمَائِهِ
نَوْعَانِ أَيْضاً ذَانِ مَعْرُوفَانِ	رَزْقٌ عَلَى يَدِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ
رَزْقُ الْمُعْتَدِّ لِهَذِهِ الْأَبْدَانِ	رِزْقُ الْقُلُوبِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالْ
رَزَّاقِهِ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَانِ	هَذَا هُوَ الرَزْقُ الْحَلَالُ وَرَبُّنَا
تِلْكَ الْمَجَارِي سَوْقُهُ بَوْرَانِ	وَالثَّانِي سَوْقُ الْقُوَّةِ لِلْأَعْضَاءِ فِي
وَن مِنْ الْحَرَامِ كِلَاهِمَا رِزْقَانِ	هَذَا يَكُونُ مِنَ الْحَلَالِ كَمَا يَكُ
رَ وَلَيْسَ بِالْإِطْلَاقِ دُونَ بَيَانِ ^(٤)	وَاللَّهُ رَازِقُهُ بِهَذَا الْاِعْتِبَا

(١) «المنهاج» (٢٠٣/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٦).

(٢) «النهاية» (٢١٩/٢)، وانظر: «المقصد الأسنى» (ص ٥٠).

(٣) «تيسير الكريم» (٣٠٢/٥).

(٤) «النونية» (٢٣٤/٢)، وقال الشارح لها أحمد بن إبراهيم بن عيسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذكر الناظم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه الآيات أن الرزق نوعان:

رزق القلوب: العلم والإيمان، على يد عبده ورسوله محمد ﷺ.

والنوع الثاني: الرزق المعد للأبدان، والله تعالى هو رازقه، لكنه يساق إلى الأعضاء، ويكون من الحلال والحرام، والله رازقه بهذا الاعتبار، وهذه المسألة قد اختلف فيها، فقيل: إن الحرام رزق، وكلٌ يستوفي رزقه حلالاً كان أو حراماً لحصول التغذية بهما جميعاً، غير أن =

* آثار الإيمان بهذين الاسمين :

١ - إن المتفرد بالرزق هو الله وحده لا شريك له، قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤].

ينبّه الله عباده إلى الاستدلال على توحيده وإفراده بالعبادة، أنه سبحانه هو المستقل بالخلق والرزق لا يشاركه أحد في ذلك، وإذا كان كذلك، فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد، ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: كيف تصرفون بعد هذا البيان عن عبادة الله وحده.

وقد أنكر الله على المشركين عبادتهم للأوثان والأصنام، مع أنها لا تملك لهم رزقاً، ولا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً، قال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

فأخبر تعالى أنها لا تملك لهم رزقاً ولا تستطيع ذلك، ثم قال سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]؛ أي: لا تجعلوا له الأنداد والأشباه والأمثال، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبُكُمْ وَآتَىٰ مَا تَتْلُونَ﴾ [النحل: ٧٤]؛ أي: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو المتفرد

= العبد يستحق الدم والعقاب على أكل الحرام، خلافاً للمعتزلة، فإنهم قالوا: الحرام ليس برزق، فسرّوه تارة بمملوك يأكله المالك، وتارة بما لا يمنع عن الانتفاع به، وذلك لا يكون إلا حلالاً، فيلزمهم على التفسير الأول أن ما يأكله الدواب ليس برزق، مع ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فيكون مصادماً للقرآن! لأنه يقتضي أن تكون كل دابة مرزوقة، ولا ينفعهم زعمهم أن تسمية ما يأكله الدواب رزقاً مبني على تشبيهه بما هو مملوك الإنسان فيأكله، فيكون لفظ الرزق مجازاً عما تأكله الدواب، فلا يلزم أن تكون كل دابة مرزوقة حقيقة، لأننا نقول: هذا التأويل مخالف لظاهر القرآن، وهو خلاف المتعارف في اللغة فلا يصح ارتكابه من غير ضرورة.

ثم إن تفسيرهم الرزق بذلك ليس بمطرد ولا منعكس، لدخول ملك الله تعالى، وخروج رزق الدواب والعبيد والإماء يلزمهم أيضاً على الوجهين أن من أكل الحرام طول عمره لم يرزقه الله تعالى أصلاً، وهو خلاف الإجماع الحاصل من الأمة قبل ظهور المعتزلة، أن لا رازق إلا الله، وإن استحق العبد اللوم والدم على أكل الحرام، والإضافة إلى الله تعالى «معتبرة في مفهوم الرزق، وكلُّ أحدٍ مستوفٍ رزق نفسه، حلالاً كان أو حراماً ولا يتصور أن يأكل الإنسان غير رزقه، أو يأكل غيره رزقه، لأن ما قدر الله تعالى غذاءً لشخص يجب أن يأكله، ويمتنع أن يأكله غيره، والله أعلم.

وتكلم بنحو هذا القرطبي في «الأسنى» ورقة (٣٢٦).

بالخلق والرزق وأنتم بجهلكم تشركون به^(١).

وكذا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثَّ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]؛ أي: لا يقدر شركاؤكم على شيء من ذلك أبداً، بل لو أمسك الله سبحانه الرزق عن الناس، فلا يملك أحد أن يفتحهم عليهم من دون الله، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، وقوله جلّ وعلا: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ﴾ [الملك: ٢١]؛ أي: أمّن هذا الذي يطعمكم ويسقيكم ويأتي بأقواتكم إن أمسك ربكم رزقه الذي يرزقكم عنكم^(١).

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا انصرف من الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(٢).

٢ - إن الله ﷻ متكفل برزق من في السموات والأرض، قال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وقال: ﴿وَكَايْنٍ مِنَ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّهَا﴾ [العنكبوت: ٦٠]. قال ابن كثير: «أي: لا تطيق جمعه ولا تحصيله، ولا تدخر شيئاً لغد، ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾؛ أي: يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض والطير في الهواء، والحيتان في الماء»^(٣).

٣ - قال القرطبي: والفرق بين القوت والرزق، أن القوت ما به قوام البنية مما يؤكل ويقع به الاغتذاء.

والرزق كل ما يدخل تحت مُلك العبد: مما يؤكل ومما لا يؤكل، وهو مراتب أعلاها ما يغذي.

وقد حصر رسول الله ﷺ وجوه الانتفاع في الرزق في قوله: «يقول ابن آدم: مالي مالي!! وهل لك من مالٍ إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذهابٌ وتاركه للناس»^(٤).

(١) «جامع البيان» (٦/٢٩).

(٢) رواه البخاري (٦٦١٥)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤٢٠/٣).

(٤) رواه مسلم (٢٩٥٨، ٢٩٥٩) ولفظه هنا في الموضع الأول دون قوله: «وما سوى ذلك..»، فهو في الموضع الثاني مع اختلاف في أوله.

وفي معنى اللباس يدخل المركوب وغير ذلك مما ينتفع به الإنسان، والقوت رزق مخصوص، وهو المضمون من الرزق الذي لا يقطعه عجز، ولا يجلبه كيس، وهو الذي أراد تعالى بقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فلا ينقطع هذا الرزق إلا بانقطاع الحياة^(١).

٤ - وكل ذلك بلا ثقل ولا كلفة ولا مشقة، قال الطحاوي رحمه الله: «رازق بلا مؤنة». اهـ^(٢). بل لو سألوهم جميعاً فأعطاهم لم ينقص ذلك من ملكه شيئاً، كما جاء في قوله تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»^(٣).

٥ - إن الله سبحانه لم يختص برزقه من آمن في الحياة الدنيا، وإنما كان الرزق في الدنيا للجميع، للمؤمنين والكافرين، وهذا من عظيم لطفه سبحانه، كما قال: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]. وعن أبي موسى الأشعري قال: قال النبي ﷺ: «ما أحدٌ أصبر على أذى سمعه من الله، يدعون له الولد، ثم يعافيهم ويرزقهم»^(٤).

ومعناه: أن الله سبحانه واسع الحلم حتى مع الكافر الذي ينسب له الولد، فهو يعافيه ويرزقه.

٦ - إن الله سبحانه متحكم في أرزاق عباده فيجعل من يشاء غنياً كثير الرزق، ويقتّر على آخرين، وله في ذلك حكم بالغة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ [الإسراء: ٣٠].

قال ابن كثير: «أي: خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر»^(٥)، فمن العباد من لا يصلح حاله إلا بالغنى فإن إصابه الفقر فسد حاله، ومنهم العكس ﷺ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً [الإسراء: ٣٠]، وقال ابن كثير في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]: ولو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً، ثم قال

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٢٦ب، ٣٢٧أ). (٢) «العقيدة الطحاوية» (ص ١٢٥).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى.

(٤) رواه البخاري (٦٠٩٩، ٧٣٧٨)، ومسلم (٢٨٠٤).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٣٨/٣).

تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُزِيلُ بَقْدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]، وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

٧ - كثرة الرزق في الدنيا لا تدل على محبة الله تعالى، ولكن الكفار لجهلهم ظنوا ذلك، قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَصْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ (٣٧)﴾ [سبا: ٣٥ - ٣٧].

فظن الكفار والمترفون أن كثرة الأموال والأولاد دليل على محبة الله لهم واعتناؤه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة، وقد ردّ الله هذا بقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ﴾؛ أي: ليست كثرة الأموال والأولاد، هي التي تقرب من الله أو تبعد ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾؛ أي: إنما يقرب من الله الإيمان به، وعمل البر والصالحات. وهذا كقوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»، وفي رواية: «ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١).

وبين تعالى أنهم يرضون بالحياة الدنيا وأرزاقها ويطمئنون إليها ويفرحون بها؛ لأنهم لا يرجون بعثاً ولا حساباً، غافلين عن الآخرة وأهوالها، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ لَنَا مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾ [يونس: ٧، ٨]، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ (٦٦)﴾ [الرعد: ٢٦].

ولم يعلموا أن الدنيا عند الله لا تزن شيئاً، كما جاء في حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(٢).

(١) الروايتان لمسلم (٣٣/٢٥٦٤)، ٣٤ عن أبي هريرة.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٢٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤٦/٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٥٣/٣) من حديث عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم عن سهل مرفوعاً، وعبد الحميد ضعفه غير واحد ولكن للحديث طرق، منها:

ولذلك فإن الله يعطيها لمن يحب ولمن لا يحب، فليس كثرة الرزق دليلاً على الكرامة ولا قلته دليلاً على الإهانة: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

وقوله سبحانه في آخر آية الرعد السابقة: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، دليل على قصر عمر الدنيا وقلة خطرها بالنسبة للآخرة، كما قال ﷺ: «وَمَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أَصْبُعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمِ يَرْجِعُ»^(١).

٨ - إن تقوى الله وطاعته سبب عظيم للرزق والبركة فيه، قال سبحانه عن أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِحْسَانَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ رِزْقِهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ قَوْفِهِمْ وَفِيهِمْ ذُرِّيَّتُكُمْ وَأَنْتُمْ كَارِهِونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿﴾ [الطلاق: ٢، ٣]؛ أي: من جهة لا تخطر بباله، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَفْتَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ (١٦) [الجن: ١٦].

وتأذن بالزيادة لمن شكر: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

٩ - والعكس صحيح أيضاً، فإن المعصية تنقص الرزق والبركة؛ لأن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، قال سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) [الروم: ٤١].

قيل: الفساد في البر القحط وقلة النبات وذهاب البركة، والفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم. وقيل: هو كساد الأسعار وقلة المعاش.

١٠ - أعظم رزق يرزق الله به عباده هو «الجنة» التي أعدها الله لعباده الصالحين وخلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكل رزق يعد الله به عباده الصالحين في القرآن فغالباً ما يراد به الجنة، كقوله

= ١ - ما أخرجه الخطيب في «التاريخ» (٩٢/٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم (١٤٣٩) من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً به.

٢ - ما أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» رقم (١٤٤٠) من حديث محمد بن عمار عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة مرفوعاً، وصالح صدوق اختلط، فالحديث صحيح لطرقه. وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٨٦، ٩٤٣).

(١) رواه مسلم (٢٨٥٨) عن المستورد بن شداد.

تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ: ٤]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

فهو أحسن الرزق وأكمله وأفضله وأكرمه، لا ينقطع ولا يزول: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤].

اللهم ارزقنا جنتك ورضوانك وأنت خير الرازقين.



الْفَتْاحُ

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٢٧)

* المعنى اللغوي:

الفتح نقيض الإغلاق، والفتح: النصر، والاستفتاح: طلب النصر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩].

وقال الأزهري: الفتح: أن تحكم بين قوم يختصمون إليك، كما قال سبحانه مخبراً عن شعيب: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ أي: اقض بيننا.

والفتاحة والفتاحة: أن تحكم بين خصمين، قال الأسعر الجعفي: ألا من مُبْلَغُ عَمْرَأَ رَسُولاً فَإِنِّي عَنْ فَتَاحَتِكُمْ غَنِيٌّ والفتاح من أبنية المبالغة^(١).

* وروده في القرآن العظيم:

ورد الاسم مفرداً مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتْاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٦].

وورد بصيغة الجمع مرة واحدة أيضاً في قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «افتح بيننا وبين قومنا بالحق، اقض بيننا وبين قَوْمِنَا بِالْحَقِّ»^(٢). وقال ابن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسير الآية السابقة: «أحكم بيننا وبينهم بحكمك الحق الذي لا جور فيه ولا حيف ولا ظلم، ولكنه عدلٌ وحق، وأنت خير الفاتحين؛ يعني: خير الحاكمين»^(٢).

(١) «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٣٩)، «النهاية» (٣/ ٤٠٦، ٤٠٧)، «لسان العرب» (٥/ ٣٣٣٧)، والأسعر الجعفي: شاعر جاهلي.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٣/ ٩) وإسناده صحيح.

وقال في موضع آخر: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾، القاضي العليم بالقضاء بين خلقه؛ لأنه لا تخفى عنه خافية ولا يحتاج إلى شهود تُعرفه المحق من المبطّل^(١).

وقال الزجاج: «والله تعالى ذكره فتح بين الحق والباطل فأوضح الحق وبَيَّنّه وأدحض الباطل وأبطله، فهو (الفتّاح)»^(٢).

وقال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: «(الفتّاح): هو الحاكم بين عباده. وقال: وقد يكون معنى (الفتّاح) أيضاً الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده، ويفتح المُنغلق عليهم من أمورهم وأسبابهم ويفتح قلوبهم، وعيون بصائرهم، ليصروا الحق، ويكون الفتّاح أيضاً بمعنى الناصر، كقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]»^(٣).

وبنحوه قال السعدي^(٤).

وهو ما نظمه ابن القيم في «النونية»:

وكذلك الفتّاح من أسمائه	والفتّاح في أوصافه أُمُرَانِ
فتح بحُكم وهو شَرَعُ إِلَهِنَا	والفتّاح بالأقْدَارِ فتح ثَانِ
والرّبُّ فتّاحٌ بدينِ كليهما	عَدْلًا وإِحْسَانًا من الرحمن ^(٥)

وعلى هذا يكون معنى الاسم:

١ - (الفتّاح): الحاكم الذي يقضي بين عباده بالحق والعدل، بأحكامه الشرعية والقدرية.

٢ - أنه يفتح لهم أبواب الرحمة والرزق وما انغلق عليهم من الأمور.

٣ - أنه بمعنى الناصر لعباده المؤمنين، وللمظلوم على الظالم، وهذا يعود إلى الأول.

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - الله سبحانه هو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة بالقسط والعدل، يفتح بينهم في الدنيا بالحق بما أُرْسِلَ من الرسل، وأنزل من الكتب.

(١) المصدر السابق (٦٥/٢٢). وانظر: ابن كثير (٢/٢٣٢، ٣/٥٣٨)، القرطبي (١٤/٣٠٠)، الألوسي (٥/٩).

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٣٩).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٥٦). وانظر: «الاعتقاد» (ص ٥٧)، «النهاية» (٣/٤٠٦، ٤٠٧)، و«المنهاج» للحليمي (١/٢٠٢) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٢).

(٥) «النونية» (٢/٢٣٤).

(٤) «تيسير الكريم» (٥/٣٠٢).

يقول القرطبي رَحِمَهُ اللهُ فِي هَذَا الْاسْمِ: «وَيَتَضَمَّنُ مِنَ الصِّفَاتِ كُلِّ مَا لَا يَتِمُّ الْحُكْمُ إِلَّا بِهِ، فَيَدُلُّ صَرِيحاً عَلَى إِقَامَةِ الْخَلْقِ وَحِفْظِهِمْ فِي الْجُمْلَةِ، لِثَلَا يَسْتَأْصِلُ الْمُقْتَدِرُونَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي الْحَالِ».

ويدل على الجزاء العدل على أعمال الجوارح والقلوب في المآل، ويتضمن ذلك أحكاماً وأحوالاً لا تنضبط بالحد، ولا تحصى بالعد.

وهذا الاسم يختص بالفصل والقضاء بين العباد بالقسط والعدل، وقد حكم الله بين عباده في الدنيا بما أنزل من كتابه، وبَيَّنَّ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ، وَكُلُّ حَاكِمٍ إِمَّا أَنْ يَحْكُمَ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ بغيره، فَإِنْ حَكَمَ بِحُكْمِ اللَّهِ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَالْحَاكِمُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَإِنْ حَكَمَ بِغَيْرِ حُكْمِ اللَّهِ فَلَيْسَ بِحَاكِمٍ إِنَّمَا هُوَ ظَالِمٌ، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] ^(١).

٢ - ذكرنا أن الله سبحانه يحكم بين عباده في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويفتح بينهم بالحق والعدل، وقد توجهت الرسل إلى الله الفتح سبحانه أن يفتح بينهم وبين أقوامهم المعاندين فيما حصل بينهم من الخصومة والجدال.

قال نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ﴿٧٧﴾ فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨].

وقال شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقال: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿١٥﴾ [إبراهيم: ١٥] ^(٢).

وقد استجاب الله سبحانه لرسله ولدعائهم ففتح بينهم وبين أقوامهم بالحق، فنجى الرسل وأتباعهم وأهلك المعاندين المعرضين عن الإيمان بآيات الله، وهذا من الحكم بينهم في الحياة الدنيا.

٣ - وكذا يوم القيامة، فإن الله سبحانه هو الفتح الذي يحكم بين عباده فيما كانوا يختلفون فيه في الدنيا.

قال سبحانه: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٦٦﴾ [سبا: ٢٦]، ففي ذلك اليوم يقضي الله سبحانه ويفصل بين العباد، فيتبين الضال من

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٠٦، ٣٠٦ب).

(٢) يُلاحظ أن طلب الرسل الفتح من الله كان بعد ظهور العناد من أقوامهم، وإعراضهم عن الحجج القاهرة، وتهديدهم الرسل بالرجم بالحجارة والقتل.

المهتدي، وهو سبحانه لا يحتاج إلى شهود ليفتح بين خلقه؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، وما كان غائباً عما حدث في الدنيا ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (٧) [الأعراف: ٧]، وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرُضُ عَنْ رَيْكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] (١).

وقد سمي الله يوم القيامة بيوم «الفتح» في قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُبْطَرُونَ﴾ (٢٩) [السجدة: ٢٩].

٤ - إن الله سبحانه متفرد بعلم مفاتيح الغيب التي ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقد عددها في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤) [لقمان: ٣٤].

قال القرطبي: «مفاتيح جمع مفتاح، هذه اللغة الفصيحة، ويقال: مفتاح، ويجمع: مفاتيح، المفتاح عبارة عن كل ما يحلُّ غلقاً، محسوساً كان كالقفل على البيت، أو معقولاً كالنظر، ثم قال: وهو في الآية استعارة على التوصل إلى الغيوب كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان.

ولذلك قال بعضهم: هو مأخوذ من قول الناس: افتح عليّ كذا؛ أي: أعطني أو علّمني ما أتوصل إليه به، فالله تعالى عنده علم الغيب ويده الطرق الموصلة إليه لا يملكها إلا هو، فمن شاء اطلاعه عليها أطلعه، ومن شاء حجبها عنها حجبها، ولا يكون ذلك من إفاضته إلا على رسله بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مَنْ يَرْسُلُهُ مِنْ شِئْءٍ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقوله: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢١) إِلَّا مَنْ أَرَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ [الجن: ٢٦، ٢٧] (٢).

وقال في «الأسنى»: «والفتح في اللغة حلّ ما استغلق من المحسوسات والمعقولات، والله سبحانه هو (الفتاح) لذلك، فيفتح ما تغلق على العباد من أسبابهم؛ فيغني فقيراً، ويفرّج عن مكروب، ويسهل مطلباً وكل ذلك يسمى فتحاً؛

(١) وفي اقتران اسمه تعالى (الفتاح) بـ(العليم) إعلام بأنه سبحانه يفتح بين الخلائق عن علم كامل.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١/٧، ٢).

لأن الفقير المتعلّق عليه باب رزقه فيُفتح بالغنى، وكذلك المتحاكمان إلى الحاكم، يتعلّق عليهما وجه الحكم فيفتحهما الحاكم عليهما، ولذلك سُمي الحاكم فَتَاحاً؛ لأنه يحل ما استغلق من الخصوم، تقول: افتح بيننا؛ أي: احكم، ومنه قول شعيب: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ أي: احكم، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾؛ أي: الحاكمين^(١).

٥ - إن الفتح والنصر من الله سبحانه فهو يفتح على من يشاء ويخذل من يشاء، وقد نسب الله الفتوح لنفسه، لينبّه عباده على طلب النصر والفتح منه لا من غيره، وأن يعملوا بطاعته وينالوا مرضاته، ليفتح عليهم وينصرهم على أعدائهم. قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وهو خطاب لرسوله الأمين ﷺ. وقال جلّ ثناؤه: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ [المائدة: ٥٢]، وقال: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣]^(٢).

٦ - إن الله بيده مفاتيح خزائن السموات والأرض. قال سبحانه: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢]، فما يفتحها من الخير للناس لا يملك أحد أن يغلقه عنهم، وما يغلقه فلا يملك أحد أن يفتحها عليهم، كما قال جلّ وعلا: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

فلو فتح الله المطر على الناس فمن ذا الذي يحبسهم عنهم، حتى لو أدى المطر إلى إغراقهم وإهلاكهم مثلما حدث لقوم نوح عليه الصلاة والسلام، فقد وصلت المياه إلى رؤوس الجبال، فما استطاعوا أن يردوها عن أنفسهم، ولو حبس عن عباده القطر والنبات سنين طويلة لما استطاعوا أيضاً أن يفتحوا ما أغلقه الله سبحانه: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

٧ - وقد يفتح الله سبحانه أنواع النعم والخيرات على الناس استدراجاً لهم، إذا تركوا ما أمروا به، ووقعوا فيما نهوا عنه، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]^(٣).

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٠٥).

(٢) وانظر ما قبل هذه الآية من بيان أسباب النصر والفتح القريب، وهو قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ...﴾ [الصف: ١١].

(٣) وقد مر سابقاً بأن كثرة الرزق وانفتاحه لا تدل على محبة الله وعنايته.

٨ - ومما يفتحه الله على من يشاء من عباده الحكمة والعلم والفقہ في الدين، ويكون ذلك بحسب التقوى والإخلاص والصدق، ولذا تجد أن فهم السلف أعمق وعلمهم أوسع ممن جاء بعدهم، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٓ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

قال القرطبي: وهذا الفتْح والشرح ليس له حدٌّ، وقد أخذ كل مؤمن منه بحظ، ففاز الأنبياء بالقسم الأعلى، ثم من بعدهم الأولياء، ثم العلماء، ثم عوام المؤمنين، ولم يخيب الله منه سوى الكافرين.

وكان النبي ﷺ يقول: لأصحابه: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَاعِدْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ»^(١).



(١) إسناده حسن: أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٠)، وابن ماجه (٧٧٣)، وابن السني (٨٥)، والحاكم (٢٠٧/١) عن أبي بكر الحنفي: حدثنا الضحاك بن عثمان، حدثني سعيد المقبري، عن أبي هريرة، مرفوعاً، به.

قال الحاكم: على شرطهما وأقره الذهبي.

قلت: هو على شرط مسلم فقط، فإن الضحاك بن عثمان صدوق من رجال مسلم. له شاهد من حديث أبي حميد وأبي أسيد:

أخرجه أحمد (٤٩٨/٣، ٤٢٥/٥)، والنسائي في سنته (٥٣/٢) عن أبي عامر: حدثنا سليمان بن بلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد قال: سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ». وإسناده صحيح.

الْعَلِيمُ - الْعَالِمُ - الْعَلَامُ

جَلَّ جلاله وتقدَّست أَسْمَاؤه

(٢٨ - ٢٩ - ٣٠)

* المعنى اللغوي:

العلم: نقيض الجهل، عَلِمَ علماً وَعَلِمَ هو نفسه، ورجل عالم وعليمٌ من قوم علماء، وَعَلَامٌ وَعَلَامَةٌ: إذا بالغت في وصفه بالعلم؛ أي: عالمٌ جداً. وَعَلِمْتُ الشيء: عرفتُه وخبرته، وَعَلِمَ بالشيء: شَعَرَ به. والعليم على وزن فعيل من أبنية المبالغة^(١).

* ورود الأسماء في القرآن الكريم:

ورد اسمه (العليم) في مائة وسبعة وخمسين موضعاً من الكتاب، منها:

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿وَأَنْتَ اللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عِلْمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨].

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء: ٤].

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلِمًا﴾ [النساء: ٧٠]، وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

أما (العالم) فقد ورد هذا الاسم في القرآن ثلاث عشرة مرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَرْدُدُونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤].

وقوله: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

وقوله: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [التغابن: ١٨].

(١) «النهاية» (٣/ ٢٩٢)، «اللسان» (٤/ ٣٠٨٢).

أما (العلام) فقد ورد هذا الاسم في أربعة مواضع، وهي:
 قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].
 وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].
 وقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [سبا: ٤٨].

* المعنى في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: «إنك أنت يا ربنا العليم من غير تعليم بجميع ما قد كان وما هو كائن، و(العالم) للغيوب دون جميع خلقك.
 وقال: إن الله ذو علم بكل ما أخفته صدور خلقه من إيمان وكفر، وحق وباطل، وخير وشر، وما تستجته مما لم تُجته بعد»^(١).

وقال الخطابي: «هو (العالم) بالسرائر والخفيات التي لا يُدرکہا علم الخلق؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]»^(٢).

قال ابن منظور رحمه الله: «فهو الله العالم بما كان وما يكون قبل كونه، وبما يكون ولمّا يكن بعد قبل أن يكون، لم يزل عالماً ولا يزال عالماً بما كان وما يكون ولا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، أحاط علمه بجميع الأشياء باطنها وظاهرها، دقيقتها وجليلها، على أتمّ الإمكان»^(٣).

وقال السعدي: وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والأسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء»^(٤).

وهو ما نظمه ابن القيم رحمه الله في «النونية»:

وهو العليمُ أحاطَ علماً بالذي في الكونِ من سرٍّ ومن إعلانِ

(١) «الطبري» (١/١٧٥، ١١/١٢٧).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٥٧)، وأخرج ابن جرير (١٣/١٩) عن سعيد بن جبیر: كنا عند ابن عباس فحدث حديثاً فتعجب رجل فقال: الحمد لله فوق كل ذي علم عليم. فقال ابن عباس: بشما قلت الله العليم وهو فوق كل عالم. وإسناده صحيح.

(٣) «اللسان» (٤/٣٠٨٢، ٣٠٨٣). وانظر: «النهاية» (٣/٢٩٢).

(٤) «تيسير الكريم» (٥/٢٩٩).

وبكل شيء علمه سبحانه فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غداً وما قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو كان كي ف يكون ذاك الأمر ذا إمكان^(١)

* آثار الإيمان بهذه الأسماء «العليم - العالم - العلام»:

١ - إثبات العلم التام الكامل الشامل لله وحده، ولا يشابهه أحد من مخلوقاته في كمال علمه.

وقد أثبت الله ﷻ لنفسه العلم الكامل الشامل في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، وقوله: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

ففي هذه الآيات إثبات علمه بكل شيء من الأشياء، دقيقتها وجليلها، صغيرها وكبيرها، كما قال سبحانه: ﴿وَعِنْدُ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]. وقد أنكر بعض الفلاسفة ومن تابعهم كابن سينا علمه تعالى بالجزئيات، فقالوا: إنه يعلم الأشياء على وجه كلي لا جزئي، وقد ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية عليهم في كتابه «درء تعارض العقل والنقل» بقوله: «وهذا مما يبين لك أن من قال من المتفلسفة: إنه سبحانه يعلم الأشياء على وجه كلي لا جزئي، فحقيقة قوله أنه لم يعلم شيئاً من الموجودات، فإنه ليس في الموجودات إلا ما هو معيّن جزئي، والكليات إنما تكون في العلم، لا سيما وهم يقولون: إنما علم الأشياء؛ لأنه مبدؤها وسببها، والعلم بالسبب يوجب العلم بالمسبب، ومن المعلوم أنه مبدع للأمور المعيّنة المشخصة الجزئية، كالأفلاك المعيّنة والعقول المعينة، وأول الصادرات عنه - على أصلهم - العقل الأول، وهو معين، فهل يكون من التناقض وفساد العقل في الإلهيات أعظم من هذا؟»^(٢).

ويبين العلامة المحقق ابن القيم أن «الحمد لله» تتضمن الرد على منكري علمه تعالى بالجزئيات، قال: «وذلك من وجوه:

(١) «النونية» (٢/ ٢١٥).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٥/ ١١٣). وانظر (١٠/ ١٥١).

أحدها: كمال حمده، وكيف يستحق الحمد من لا يعلم شيئاً من العالم وأحواله وتفاصيله، ولا عدد الأفلاك، ولا عدد النجوم، ولا من يطيعه ممن يعصيه، ولا من يدعوه ممن لا يدعوه؟.

الثاني: أن هذا مستحيل أن يكون إلهاً، وأن يكون رباً فلا بد للإله المعبود، والرب المدبر من أن يعلم عابده ويعلم حاله.

الثالث: من إثبات رحمته، فإنه يستحيل أن يرحم من لا يعلم.

الرابع: إثبات ملكه، فإن ملكاً لا يعرف أحداً من رعيته ألبتة، ولا شيئاً من أحوال مملكته ألبتة، ليس بملك بوجه من الوجوه.

الخامس: كونه مستعاناً.

السادس: كونه مسؤولاً أن يهدي سائله ويحييه.

السابع: كونه هادياً.

الثامن: كونه منعماً.

التاسع: كونه غضباناً على من خالفه.

العاشر: كونه مجازياً، يُدين الناس بأعمالهم يوم الدين.

فنفي علمه بالجزئيات مبطل لذلك كله^(١).

وكيف لا يحيط تعالى علماً بكل شيء وهو قد خلق كل شيء: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فقبح الله من رمى ربه بالجهل وعدم العلم وهو يأنف أن يوصف بشيء من ذلك.

٢ - إن الله سبحانه لكمال علمه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون؛ أي: أنه سبحانه يعلم الأمور الماضية التي وقعت، والأمر المستقبلية التي لم تقع بعد، ويعلم الأمور التي لن تقع لو فرض أنها تقع كيف تقع، وهذا من كمال علمه بالغيب وعواقب الأمور، وهو معتقد أهل السنة والجماعة، والأدلة على ذلك كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقوله تعالى لإبليس عليه لعنة الله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، وهو خبر عن المستقبل.

(١) «مدارج السالكين» (٦٧/١).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ وَ مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأْ وَ مَا يَسَّرَ مِنْهُ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ٢٠]؛ أي: علم الله أنكم لن تستطيعوا القيام بما أمركم به من قيام الليل؛ لأنه سيكون منكم مرضى، وآخرون يجاهدون في سبيل الله، وآخرون مسافرون في الأرض يبتغون فضل الله في المكاسب، فقوموا من الليل بما ييسر.

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ يَغْلِبُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلُ أَن نَّبْرِأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]؛ أي: ما تقع من مصيبة في الأرض من قحط أو طوفان أو صاعقة وغير ذلك، ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أي: من الأمراض والمصائب والبلاء، إلا كان ذلك مكتوباً في اللوح المحفوظ من قبل أن نخلق الخليفة، ونبرأ النسمة، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قال: وكان عرشه على الماء»^(١).

٣ - وقد خالف في ذلك القدرية - قبهم الله - فقالوا: إن الله لا يعلم الأمر قبل وقوعه وإنما يعلمه بعد وقوعه، وقد حدث القول بهذا في أواخر عصر الصحابة، فقد جاء عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكمل الكلام إليّ فقلت: أبا عبد الرحمن! إنه قد ظهر قبلنا ناسٌ يقرأون القرآن ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برء مني، والذي

(١) رواه الإمام مسلم (٢٦٥٣).

يحلف به عبد الله بن عمر! لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر... (١).

ومعنى قول القدرية: أن الأمر أنف؛ أي: مستأنف لم يسبق به قدر، ولا علم من الله تعالى، وإنما يعلمه بعد وقوعه؛ أي: أن الله أمر العباد ونهاهم وهو لا يعلم مَنْ يطيعه ممن يعصيه، ولا مَنْ يدخل الجنة ممن يدخل النار حتى فعلوا ذلك، فعلمه بعدما فعلوه (٢).

٤ - إن الخلق لا يحيطون علماً بالخالق؛ أي: لا يعلمون شيئاً من ذاته وصفاته إلا ما أطلعهم الله سبحانه عليه، عن طريق رسله وكتبه المنزلة. قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] (٣).

٥ - وعلى وجه أعم، أنهم لا يعلمون شيئاً من المعلومات، إلا بتعليم الله لهم، فكل علم شرعي وقدري فمرجه إلى الله العليم الحكيم، كما قالت الملائكة: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وقال ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وقال مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال عن يوسف ﷺ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال عن داود ﷺ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وعن الخضر ﷺ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تبين أن أصل ومنشأ كل علم إنما هو من الله جل ثناؤه، سواء كانت شرعياً أو دنيوياً.

٦ - قلة ما بأيدينا من العلم بالنسبة لعلم الله تعالى:

(١) رواه مسلم (٨)، ومعنى يتقفرون العلم: يطلبونه ويتبعونه. وقيل: معناه: يجمعونه.

(٢) راجع إن شئت كتاب: «الإيمان» لشيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ (ص ٣٦٤ - ٣٦٩).

(٣) وعلى هذا، فلا يجوز لنا أن نثبت لله سبحانه اسماً أو صفة لم ترد في كلام الله تعالى أو كلام رسوله ﷺ؛ لأنهما طريقا العلم بأسماء الله وصفاته.

ومع كثرة المعلومات التي تعلمها بنو آدم وتشعبها، إلا أنها قليلة جداً بالنسبة لعلم الله تعالى الواسع، قال سبحانه: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥].

وفي قصة الخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام: «فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوق على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر...»^(١).

٧ - الفرق بين علم الخالق وعلم المخلوق:

علم الله جل ثناؤه لا يعتريه نقص أبداً، من نسيان أو جهل، أو علم ببعض أمور الخلق وجهل بغيرها.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

وهو سبحانه لا يشغله علم عن علم، كما لا يشغله سمع عن سمع، وأنى للمخلوق مثل هذه الصفات، فهم يولدون جهلة لا يعلمون شيئاً، ثم يتعلمون شيئاً فشيئاً، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

فعلمهم قد سبقه الجهل، والله سبحانه كان وما زال عليمًا لم يسبق علمه جهل، ولا نقول: إنه قد كان لا يعلم حتى خلق علماً فعلم، كما تقوله المبتدعة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

واقراً معي ما يقوله الخطابي رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ عن علم الخلق، يقول: «والآدميون - وإن كانوا يوصفون بالعلم - فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالماً بالفقه غير عالم بالنحو، وعالماً بهما غير عالم بالحساب والطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله سبحانه علم حقيقة وكمال، ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَإِخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]»^(٢).

(١) رواه البخاري (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠) من حديث أبي بن كعب.

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٥٧).

٨ - اختص الله نفسه سبحانه بعلوم الغيب، قال سبحانه: ﴿وَعِنْدُهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وذكر منها خمسة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

قال الألوسي رحمه الله: «وما في الإخبار يحمل على بيان البعض المهم لا على دعوى الحصر، إذ لا شبهة في أن ما عدا الخمس من الغيبيات لا يعلمه إلا الله تعالى»^(١).

فعلم الغيب لا شك أنه أعظم وأوسع من أن يحصر في هذه الخمس فقط. ومن زعم أن أحداً يعلم الغيب غير الله سبحانه، فقد كفر بالآيات السابقة. عن عائشة رضي الله عنها قالت: ومن زعم أنه - تعني النبي ﷺ - يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٦٥]^(٢).



(١) «روح المعاني» (١٧١/٧).

(٢) الجزء الأخير من حديث رواه مسلم (١٧٧).

السميع

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٣١)

* المعنى اللغوي:

السَّمْع للإنسان وغيره: حِسُّ الأُذُن، أو ما وَقَرَّ في الأُذُن من شيءٍ تسمعه، ورجل سميع؛ أي: سامع، ورجل سَمَاع: إذا كان كثير الاستماع لما يقال وينطق؛ كقوله تعالى: ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١].
والسميع على وزن فعيل من أبنية المبالغة.
قال الزجاج: «ويجيء في كلامهم: سمع بمعنى أجاب»^(١).

* ورود الاسم بالكتاب العزيز:

ورد الاسم في الكتاب العزيز خمساً وأربعين مرة، منها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا نَبَلِّغْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].
وقوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٧٦] [المائدة: ٧٦].
وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].
وقوله: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبا: ٥٠].
وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوَرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير رحمته الله: «وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، يقول جل ثناؤه واصفاً نفسه بما هو به، وهو يعني نفسه: السميع لما تنطق به خلقه من قول»^(٢).

قال ابن كثير رحمته الله: «السميع لأقوال عباده»^(٣)

(١) «النهاية» (٢/٤٠١)، «اللسان» (٣/٢٠٩٦)، «تفسير الأسماء» (ص ٤٢).

(٢) «جامع البيان» (٩/٢٥). (٣) ابن كثير (٢/٨٢).

وقال الخطابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «(السميع) بمعنى السامع، إلا أنه أبلغ في الصفة، وبناءؤه فعيل: بناء المبالغة، كقولهم: عليم من عالم، وقدير من قادر. وهو الذي يسمع السر والنجوى، سواء عنده الجهر والخفوت، والنطق والسكوت. وقد يكون السماع بمعنى: القبول والإجابة، كقول النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع»^(١)؛ أي: من دعاء لا يستجاب، ومن هذا قول المصلي: «سمع الله لمن حمده»^(٢).

(١) طرف من حديث صحيح رواه أنس وعبد الله بن عمرو وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أما حديث أنس فله طريقان: الأول: رواه الإمام أحمد (٣/١٩٢، ٢٥٥) عن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن أنس أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من قول لا يُسمع وعمل لا يُرفع وقلب لا يخشع وعلم لا ينفع» ورجال إسناده أحمد ثقات رجال الشيخين في كلا الموضعين سوى حماد بن سلمة فمن رجال مسلم وحده، ورواه أيضاً من طريقه أبو خيثمة في «العلم» برقم (١٦٥) بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله وقال: صحيح على شرط مسلم.

والثاني: أخرجه أحمد (٣/٣٨٣)، والنسائي (٨/٢٦٣) من طريق خلف بن خليفة: ثنا حفص بن عمر عن أنس بمثله، وزاد: «اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء الأربع» وإسناده حسن، خلف بن خليفة صدوق اختلط في الآخر وحفص بن عمر هو ابن أخي أنس صدوق. وأما حديث عبد الله بن عمرو فله طريقان أيضاً:

الأول: أخرجه الترمذي (٣٥٤٩) من طريق أبي بكر بن عياش عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحارث عن زهير بن الأقرم به وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. قلت: زهير بن الأقرم قال الحافظ: مقبول؛ أي: حيث يتابع وإلا فلين الحديث.

الثاني: أخرجه الحاكم (١/٥٣٤) عن الثوري عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذيل عنه. وأما حديث أبي هريرة فله طريقان:

الأول: أخرجه أبو داود (١٥٤٨)، والنسائي (٨/٢٦٣، ٢٨٤)، وابن ماجه (٣٨٣٧)، والحاكم (١/٥٣٤) كلهم من طريق الليث بن سعد عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أخيه عباد بن أبي سعيد أنه سمع أبا هريرة يقول: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أعوذ بك من أربع: من علم لا ينفع...» فذكره.

وقال الذهبي: صحيح. قلت: فيه عباد بن أبي سعيد. قال الحافظ: مقبول؛ أي: حيث يتابع وإلا فلين.

والثاني: أخرجه النسائي (٨/٢٨٤)، وابن ماجه برقم (٢٥٠) من طريق أبي خالد الأحمر عن ابن عجلان، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، مرفوعاً. وقال النسائي عقبه: سعيد لم يسمعه من أبي هريرة بل سمعه من أخيه عن أبي هريرة. وأصل الحديث عند مسلم (٢٧٢٢) عن زيد بن أرقم مطولاً وبديل قوله: «ومن دعاء لا يُسمع»: «ومن دعوة لا يُستجاب لها».

(٢) رواه البخاري في مواضع كثيرة، منها: (٦٩٠، ٧٢٢، ٧٣٢)، ومسلم في مواضع، منها: (٤٠١، ٤٠٤، ٤٠٩).

معناه: قبل الله حمد من حمده^(١).

قال ابن القيم: «فعل السمع يراد به أربعة معانٍ:

أحدها: سمع إدراك ومتعلقه الأصوات. الثاني: سمع فهم وعقل ومتعلقه

المعاني. الثالث: سمع إجابة وإعطاء ما سئل. الرابع: سمع قبول وانقياد.

فمن الأول: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١].

ومن الثاني: قوله: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمِعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، ليس

المراد سمع مجرد الكلام بل سمع الفهم والعقل، ومنه ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن الثالث: «سمع الله لمن حمده»، وفي الدعاء المأثور: «اللهم اسمع»؛ أي:

أجب واعط ما سألتك.

ومن الرابع: قوله تعالى: ﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]؛ أي: قابلون له

ومنقادون غير منكرين، ومنه على أصح القولين ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]؛

أي: قابلون ومنقادون^(٢).

فمن معاني (السميع) المستجيب لعباده إذا توجهوا إليه بالدعاء وتضرعوا.

وقال في «النونية»:

وهو السَّمِيعُ يَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلَانٍ

ولِكُلِّ صَوْتٍ مِنْهُ سَمْعٌ حَاضِرٌ فَالسِّرُّ وَالْإِعْلَانُ مُسْتَوِيَانِ

وَالسَّمْعُ مِنْهُ وَاسِعٌ الْأَصْوَاتِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ بَعِيدُهَا وَالدَّانِي^(٣)

* آثار الإيمان باسمه (السميع):

١ - إثبات صفة السمع له ﷺ كما وصف الله ﷻ نفسه.

قال الأزهري رحمه الله: «والعجب من قوم فسّروا (السميع) بمعنى المُسْمِعِ فراراً من

وصف الله بأن له سمعاً، وقد ذكر الله الفعل في غير موضع من كتابه، فهو سميع ذو

سمع، بلا تكييف ولا تشبيه بالسَّمْع من خلقه، ولا بصره كبصر خلقه، ونحن

نُصِف الله بما وصف به نفسه بلا تحديد ولا تكييف^(٤).

وقد بَوَّب البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد: باب ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

(١) «شأن الدعاء» (ص ٥٩)، وانظر: «المنهاج» للحليمي (١/١٩٩)، و«تيسير الكريم» (٥/٢٩٩).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/٧٥، ٧٦). (٣) «النونية» (٢/٢١٥).

(٤) «اللسان» (٣/٢٠٩٦).

قال ابن بطال: «غرض البخاري في هذا الباب الرد على من قال: إن معنى ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾: عليم، قال: ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلم أن السماء خضراء ولا يراها، والأصم الذي يعلم أن في الناس أصواتاً ولا يسمعها. ولا شك أن من سمع وأبصر أدخل في صفة الكمال ممن انفرد بأحدهما دون الآخر، فصح أن كونه سميعاً بصيراً يفيد قدراً زائداً على كونه عليمًا، وكونه سميعاً بصيراً يتضمن أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر، كما تضمن كونه عليمًا أنه يعلم بعلم، ولا فرق بين إثبات كونه سميعاً بصيراً وبين كونه ذا سمع وبصر. قال: وهذا قول أهل السنة قاطبة». اهـ^(١).

٢ - إن سمع الله تبارك وتعالى ليس كسمع أحد من خلقه، فإن الخلق وإن وُصفوا بالسمع والبصر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ تُطْفَئَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، لكن هيهات أن يكون سمعهم وبصرهم كسمع وبصر خالقهم جل شأنه، قد نفى الرب سبحانه المشابهة عن نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ لأن سمع الله وبصره مستغرق لجميع المسموعات والمرئيات لا يعزب عن سمعه مسموع وإن دق وخفي سراً كان أو جهراً.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﻓَإِذَا جَاءَ فَسَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ [المجادلة: ١].

وفي رواية: «تبارك الذي وسع سمعه كل شيء»^(٢).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فكنا إذا علونا كبرنا، فقال: «اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، تدعون سميعاً بصيراً قريباً...»^(٣).

(١) «فتح الباري» (١٣/٣٧٢، ٣٧٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/٤٦)، والبخاري تعليقاً (١٣/٣٧٢)، والنسائي (٦/١٦٨)، وابن ماجه برقم (١٨٨، ٢٠٦٣)، وابن جرير (٥/٢٨)، والآجري في «الشریعة» (ص ٢٩١)، والحاكم (٢/٤٨١) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وهو كما قالا، والرواية الثانية رواية ابن ماجه والحاكم والآجري.

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٨٦).

قال ابن بطال: «في هذا الحديث نفي الآفة المانعة من السمع، والآفة المانعة من النظر، وإثبات كونه سميعاً بصيراً قريباً، يستلزم أن لا تصح أضداد هذه الصفات عليه»^(١).

وفي بيان الفرق بين سمع الخالق والمخلوق، يقول أبو القاسم الأصبهاني: «خلق الإنسان صغيراً لا يسمع، فإن سمع لا يعقل ما يسمع، فإذا عَقَلَ مَيَّزَ بين المسموعات فأجاب عن الألفاظ بما يستحق، ومَيَّزَ الكلام المستحسن من المستقبح، ثم كان لسمعه مَدَى إذا جاوزه لم يسمع، ثم إن كلمه جماعة في وقت واحد عَجَزَ عن استماع كلامهم، وعن إدراك جوابهم.

والله ﷻ السميع لدعاء الخلق وألفاظهم عند تفرقهم واجتماعهم مع اختلاف ألسنتهم ولُغَاتِهِمْ، يعلم ما في قلب القائل قبل أن يقول، ويعجزُ القائل عن التعبير عن مراده فيعلم الله فيعطيه الذي في قلبه، والمخلوق يزول عنه السمع بالموت، والله تعالى لم يزل ولا يزال، يُفْنِي الخلق ويرثهم فإذا لم يبق أحدٌ قال: ﴿لَمِنَ الْمَلَائِكَةِ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] فلا يكون من يرد! فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]»^(٢).

واشتراك المخلوق مع الخالق سبحانه في هذا الاسم لا يعني المشابهة، فإن صفات المخلوق تناسب ضعفه وعجزه وخلقته، وصفات الخالق تليق بكماله وجلاله ﷻ.

٣ - وقد أنكر الله تبارك وتعالى على المشركين الذين ظنوا أن الله لا يسمع السر والنجوى.

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي - أو ثقفيان وقرشي - كثيرة شحم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]^(٣).

وكذا قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى﴾ [الزخرف: ٨٠].

(١) «الفتح» (٣٧٥/١٣).

(٢) «الحجة في المحجة» ورقة (١٤، ١٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨١٧، ٧٥٢١)، ومسلم (٢٧٧٥).

٤ - ورد الاسم مقروناً بغيره من الأسماء؛ كقوله تعالى: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ و﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾، وهي تدل على الإحاطة بالمخلوقات كلها، وأن الله محيط بها، لا يفوته شيء منها ولا يخفى عليه، بل الجميع تحت سمعه وبصره وعلمه. وفي ذلك تنبيه للعقل وتذكير، كي يراقب نفسه وما يصدر عنها من أقوال وأفعال؛ لأن خالقه وربه لا يخفى عليه شيء منها، وأنه سبحانه محصياها عليه ثم يجازي بها في الآخرة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ومتى آمن الناس بذلك وتذكروه، فإن أحوالهم تتغير من القبيح إلى الحسن ومن الشر إلى الخير.

وإذا نسوا ذلك وتناسوه وغفلوا عنه ففي ذلك ما يكفي لفساد الدنيا وخرابها، والناظر في أحوال الناس يرى ذلك واضحاً جلياً.

٥ - الله هو (السميع) الذي يسمع المناجاة ويجب الدعاء عند الاضطراب ويكشف السوء، ويقبل الطاعة.

وقد دعا الأنبياء والصالحون ربهم سبحانه بهذا الاسم ليقبل منهم طاعتهم أو ليستجيب لدعائهم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].
فإبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام قالوا: ﴿رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] وهما يرفعان قواعد البيت الحرام.

وامرأة عمران عندما نذرت ما في بطنها خالصاً لله، لعبادته ولخدمة بيت المقدس قالت: ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]، ثم أخبر تعالى أنه قبل منها ذلك: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧].
ودعا زكريا ربه أن يرزقه ذرية صالحة ثم قال: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، فاستجاب الله دعاءه.

ودعا يوسف عليه الصلاة والسلام ربه أن يصرف عنه كيد النسوة ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

وأمر بالالتجاء إليه عند حصول وساوس شياطين الإنس والجن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

قال ابن كثير: «سميع لجهل الجاهل عليك، والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه»^(١).

(١) ابن كثير (٢/٢٧٨).

البصير جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه

(٣٢)

* المعنى اللغوي:

البصر في الخلق: حاسة الرؤية، أو حسّ العين، والجمع أبصار، ورجل بصير: مُبْصِر، خلاف الضير وهو فعيل بمعنى مُفْعِل، أو هو فعيل بمعنى فاعل، وهو أبنية المبالغة، ورجل بصير بالعلم: عالم به، والبصيرة: العلم والفطنة^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد هذا الاسم في القرآن اثنتين وأربعين مرة، منها قوله ﷻ: ﴿وَأَلْقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥، ٢٠].

وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وقوله سبحانه: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: «يعني جلّ ثناؤه بقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦]، والله ذو إِبْصَار بما يعملون، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، بل هو بجميعها محيط، ولها حافظ ذاكراً، حتى يذيقهم بها العقاب جزاءها. وأصل بصير: مبصر، من قول القائل: أبصرت فأنا مبصر، ولكن صرف إلى فعيل، كما صرف مسمع إلى سميع، وعذاب مؤلم إلى أليم، ومبدع السموات إلى بديع وما أشبه ذلك»^(٢).

وقال الخطابي: «(البصير) هو المبصر، ويقال: (البصير): العالم بخفيات الأمور»^(٣).

وقال ابن كثير: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥، ٢٠]؛ أي: هو عليم بمن

(٢) «جامع البيان» (١/٣٤١).

(١) «اللسان» (١/٢٩٠).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٦٠، ٦١) باختصار.

يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وما ذلك إلا لحكمته ورحمته»^(١).

وقال الألوسي: «وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعَبَادِ»: أي: خبير بهم وبأحوالهم وأفعالهم»^(٢).

وقال السعدي: «(البصير) الذي يُبصر كلَّ شيء وإن رُقَّ وصغر، فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق السموات السبع.

وأيضاً سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة»^(٣).

وقال ابن القيم في «النونية»:

وهو البصيرُ يَرَى دبيبَ النَّملةِ الـ
وَيَرَى مجاريَ القوتِ في أعضائها
وَيَرَى خياناتِ العيونِ بلحظها
وعلى هذا يكون (البصير) معنيان:

الأول: أن له بصر يَرى به ﷻ.

الثاني: أنه ذو البصيرة بالأشياء الخبير بها.

* آثار الإيمان بهذا الاسم (البصير):

١ - إثبات صفة البصر له جلّ شأنه؛ لأنه وصف نفسه بذلك وهو أعلم

بنفسه.

وصفة البصر من صفات الكمال كصفة السمع، فالمتصف بهما أكمل ممن لا يتصف بذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

﴿٢٤﴾ [هود: ٢٤].

وقد أنكر إبراهيم ﷺ على أبيه عندما عبَدَ ما لا يُبصر ولا يسمع: ﴿لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا

يَسْمَعُ وَلَا يُبْصَرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٥٤، ٤/٨١).

(٢) «روح المعاني» (٣/١٠١).

(٣) «تيسير الكريم» (٥/٢٩٩).

(٤) «النونية» (٢/٢١٥).

وقال تعالى مُوبِخاً الكفار ومُسْفِهاً عقولهم لعبادتهم الأصنام التي هي من الحجارة الجامدة التي لا تتحرك ولا تملك سمعاً ولا بصرًا: ﴿أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥].
أي: أنتم أكمل من هذه الأصنام؛ لأنكم تسمعون وتبصرون فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها!

قال الأصبهاني: «وأما (البصير) فهذا الاسم يقع مشتركاً، فيقال: فلانٌ بصير، والله المثل الأعلى، والرجل قد يكون صغيراً لا يُبصر ولا يميز بالبصر بين الأشياء المتشاكلة، فإذا عَقَلَ أبصر فمَيَّز بين الرديء والجيد، وبين الحسن والقبيح، يعطيه الله هذا مدّة ثم يسلبه ذلك، فمنهم من يسلبه وهو حي ومنهم من يسلبه بالموت.
والله بصير لم يزل ولا يزول، والخلق إذا نظر إلى ما بين يديه عَمِيَ عما خلفه وعما بَعَدَ منه، والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة في خَفَيَّاتِ مُظْلَمِ الْأَرْضِ، وكل ما ذَكَرَ مخلوقاً به وصفه بالتكّرة، فإذا وَصَفَ به رَبّه وصفه بالمعرفة»^(١).

٢ - إن الله تبارك وتعالى بصير بأحوال عباده خبير بها بصير بمن يستحق الهداية منهم ممن لا يستحقها، بصير بمن يصلح حاله بالغنّى والمال، وبمن يفسد حاله بذلك: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]، وهو بصير بالعباد شهيد عليهم، الصالح منهم والطالح، المؤمن والكافر، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦] بصير خبير بأعمالهم وذنوبهم، ﴿وَكُنِيَ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧] وسيجزئهم عليها أتم الجزاء.

٣ - ومن علم أن ربه مطلع عليه استحق أن يراه على معصية أو فيما لا يحب.
ومن علم أنه يراه أحسن عمله وعبادته وأخلص فيها لربه وخشع، فقد جاء في حديث جبريل عليه السلام عندما سأل النبي ﷺ عن الإحسان، فقال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

قال النووي رحمه الله: «هذا من جوامع الكلم التي أوتيتها ﷺ؛ لأننا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة، وهو يعاين ربه ﷻ لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع

(١) «الحجة في المحجة» ورقة (١٥).

(٢) رواه مسلم (٨) وهو جزء من حديث عمر بن الخطاب الطويل.

والخشوع وحسن السمات، واجتماعه بظاهره وباطنه وعلى الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوها إلا أتى به.

فقال ﷺ: «اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان»، فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله ﷻ عليه فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغي أن يعمل بمقتضاه، فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة، ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمامه الخشوع والخضوع وغير ذلك»^(١). اهـ.



(١) «شرح مسلم» (١/١٥٧، ١٥٨).

الحَكَم - الحاكم - الحكيم

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٣٣، ٣٤، ٣٥)

* المعنى اللغوي:

(الحَكَم) و(الحكيم) بمعنى: (الحاكم)، وهو القاضي، فهو فعيل بمعنى: فاعل، أو هو الذي يُحكم الأشياء ويتقنها فهو فعيل بمعنى: مفعّل.

وقيل: الحكم: ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يُحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم، و(الحكيم) يجوز أن يكون بمعنى: (الحاكم) مثل قدير بمعنى: قادر.

قال الزجاج: «و(الحَكَم) و(الحاكم) بمعنى واحد، وأصل: (ح ك م) في الكم: المنع، وسُمي الحاكم حاكماً؛ لأنه يمنع الخصمين من التظالم، وحَكَمَة الدابة سُميت حَكَمَة؛ لأنها تمنعها من الجِماح». اهـ.

و(الحُكْم): العلم والفقه والقضاء بالعدل، و(الحكيم): العالم وصاحب الحكمة^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد اسمه (الحكم) في آية واحدة هو قوله تعالى: ﴿أَفَيْرَ اللَّهُ أَتَبَغَى حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وورد (الحاكم) بصيغة الجمع في خمس آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي أَنْبَى مِنْ أَهْلِ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

وأما الاسم (الحكيم) فقد ورد أربعاً وتسعين مرة، منها:

(١) «النهاية» (١/٤١٨ - ٤٢٠)، «اللسان» (٢/٩٥١ - ٩٥٤)، «تفسير الأسماء» (ص ٤٣)، «شأن الدعاء» (ص ٦١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨، ٢٤٠].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَنِيفُ﴾ [الأنعام: ١٨، ٧٣].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠].

وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ [الشورى: ٥١].

وقوله: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَفَرًا يَعْزُبِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾

[النساء: ١٣٠].

* المعنى في حق الله تبارك وتعالى:

قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَنصِرَ اللَّهُ أَتْبَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤]: «قل فليس لي أن أتعدى حكمه وأتجاوزه؛ لأنه لا حكم أعدل منه ولا قائل أصدق منه»^(١).

قال القرطبي: «والمعنى: أفغير الله أطلب لكم حاكماً»^(٢).

وقال الخطابي: «(الحكم الحاكم) ومنه المثل: «في بيته يُؤتى الحكم» وحقيقته هو الذي سلّم له الحكم وردّ إليه فيه الأمر؛ كقوله تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] وقوله: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦]»^(٣).

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]؛ أي: أما هو أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحداً»^(٤).

وقال الحلبي: «معنى (الحكم): وهو الذي إليه الحكم، وأصل الحكم منع الفساد، وشرائع الله تعالى كلها استصلاح العباد»^(٥).

* أيهما أبلغ الحكم أو الحاكم:

قيل: إن (الحكم) أبلغ من (الحاكم)؛ إذ لا يستحق التسمية بحكم إلا من يحكم بالحق؛ لأنها صفة تعظيم في مدح، والحاكم جارية على الفعل، فقد يسمّى بها من يحكم بغير الحق. اهـ^(٦).

(١) «جامع البيان» (٧/٨).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/٧٠).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٦١).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٤/٥٢٧).

(٥) «المنهاج» (٢٠٧) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، وتبعه البيهقي في «الأسماء» (ص ٨٠).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/٧٠).

قال الراغب الأصفهاني رحمته الله: «ويقال: حاكم وحُكَّام لمن يحكم بين الناس، قال الله تعالى: ﴿وَتَذُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، والحكم المتخصص بذلك فهو أبلغ، قال الله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَى حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال رحمته الله: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥]. اهـ^(١).

وقد ورد في الحديث الصحيح ما يفيد كراهة التكني بالحكم^(٢).
وأما عن معنى (الحكيم):

فقد قال الزجاج: «الحكيم من الرجال يجوز أن يكون فعيلًا في معنى فاعل، ويجوز أن يكون في معنى مُفْعِل، والله حاكم وحكيم.

والأشبه أن تحمِل كل واحد منهما على معنى غير معنى الآخر، ليكون أكثر فائدة، فحكيم بمعنى مُحَكِّمٌ والله تعالى مُحَكِّمٌ للأشياء، متقن لها، كما قال تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَقِّنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. اهـ^(٣).

وقال ابن جرير: «(الحكيم) الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل».

وقال في موضع: «حكيم فيما قضى بين عباده من قضاياها»^(٤).

قال ابن كثير: «الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها بحكمته وعدله»^(٥).

وقال الحليمي: «(الحكيم) ومعناه: الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب، وإنما ينبغي أن يوصف بذلك؛ لأن أفعاله سديدة، وصنعه متقن، ولا يظهر الفعل المتقن السديد إلا من حكيم، كما لا يظهر الفعل على وجه الاختيار إلا من حي عالم قدير»^(٦).

وقد أطال ابن القيم رحمته الله الكلام على اسمه (الحكيم) في «النونية» فقد قال:

وهو الحَكِيمُ وذاك من أوصافه نوعانِ أيضاً ما هما عدمانِ
حكم وأحكام فكل منهما نوعانِ أيضاً ثابتا البرهانِ

(١) «المفردات في غريب القرآن» (ص ١٢٧). (٢) تجده في آثار الإيمان بهذا الاسم.

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٥٢). وانظر: «شأن الدعاء» (ص ٧٣).

(٤) «جامع البيان» (١/ ٤٣٦، ٢/ ٣٦٣).

(٥) «تفسير القرآن» (١/ ١٨٤، ٣١٥، ٤٥٩). وانظر: «روح المعاني» (٧/ ١١٧)، و«الاعتقاد» (ص ٦٠).

(٦) «المنهاج» (١/ ١٩١) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات الابتداء والاختراع له، وتبعه البيهقي في «الأسماء» (ص ٢٢).

والحكم شرعي وكوني ولا بل ذاك يوجد دون هذا مفرداً لَنْ يخلو المربوب من أحادهما لكنما الشرعي محبوب له هو أمره الديني جاءت رسله لكنما الكوني فهو قضاؤه هو كله حق وعدل ذو رضى فلذلك نَرْضَى بالقضاء ونَسْخُطُ الـ فالله يرضى بالقضاء ويسخط الـ فقضاؤه صفة به قامت وما الـ والكون محبوب ومبغوض له هذا البيان يزيل لبساً طالما ويحل ما قد عَقِدُوا بأصولهم من وَاَفَقَ الكوني وافق سخطه فلذلك لا يعدوه ذم أو فوا وموافق الديني لا يعدوه أجر

يتلازمان وما هما سيان والعكس أيضاً ثم يجتمعان أو منهما بل ليس ينتفیان أبداً ولن يخلو من الأكوان بقيامه في سائر الأزمان في خلقه بالعدل والإحسان والشأن في المقضي كل الشأن مقضي حين يكون بالعِضيان مقضي ما الأمران متحدان مقضي إلا صَنَعَةَ الإنسان وكلاهما بمشيئة الرحمن هَلَكْتُ عليه الناسُ كلَّ زمان وبُحُوْثِهِمْ فافهمه فهم بيان أفلم يوافق طاعة الديان؟! ت الحمد مع أجر ومع رضوان بل له عند الصواب اثنان^(١)

* آثار الإيمان بهذه الأسماء:

١ - أن الحكم لله وحده لا شريك له في حكمه، كما لا شريك له في عبادته، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وقال: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

(١) «النونية» (٢/٢١٨، ٢١٩). وانظر: «تيسير الكريم» (٥/٢٩٩، ٣٠٢، ٣٠٣). وحاصل ما ذكره ابن القيم في هذه الأبيات: أن الحكيم من أوصافه، وأن حكمته نوعان: حكم، وأحكام، ثم بين أن الحكم نوعان: شرعي وكوني (قدري) وأنهما لا يتلازمان، بل قد يوجد هذا دون هذا، وقد يجتمعان وإن الله سبحانه يحب الشرعي منهما الذي هو ما أمر به الرسل وأتباع الرسل وأمر بالرضى عنه وعدم الاعتراض والمنازعة: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١٥) [النساء: ٦٥]، أما ما حكم به قدرأ وشاء أن يكون، فلا يلزم من مشيئته أن يكون محبوباً لديه، كمشيئته وجود إبليس وجنوده وكفر الكافر وفسق الفاسق وهو لا يحب ذلك كله: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، ولم يأمر تعالى أن نحب كل ما خلقه وشاءه. هذا هو مذهب السلف ومن خالفهم فيه فقد ضل وأضل.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧، يوسف: ٤٠، ٦٧].
 وقال جلّ شأنه: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].
 وقال: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].
 وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

وقال ابن الحصار: وقد تضمّن هذا الاسم - يعني (الحكم) - جميع الصفات العلّٰى والأسماء الحسنٰى؛ إذ لا يكون حكماً إلا سميعاً بصيراً عالماً خبيراً إلى غير ذلك، فهو سبحانه الحكم بين العباد في الدنيا والآخرة في الظاهر والباطن، وفيما شرع من شرعه، وحكم من حكمه وقضاياه على خلقه قولاً وفعلاً، وليس ذلك لغير الله تعالى، ولذلك قال وقوله الحق: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

وقال: ﴿الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمْتُ عَيْنُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١]. فلم يزل حكيماً قبل أن يحكم، ولا ينبغي ذلك لغيره^(١).
 قال الشنقيطي رحمه الله تعالى:

«وبذلك تعلم أن الحلال هو ما أحلّه الله، والحرام هو ما حرّمه الله، والدين هو ما شرّعه الله، فكل تشريع من غيره باطل، والعمل به بدل تشريع الله عند من يعتقد أنه مثله أو خير منه، كفر بواح لا نزاع فيه». اهـ^(٢).

ثم بيّن ﷻ أن الله سبحانه بصفاته العظيمة يستحق أن يكون له الحكم، فهل يوجد في البشر من له مثل صفات خالقه ليشارك ربه في الحكم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!

فتعال معي أخي القارئ لنطلع على ما سطره في هذه المسألة في كتابه القيم «أضواء البيان» قال ﷻ:

مسألة

اعلم أن الله جلّ وعلا بيّن في آيات كثيرة، صفات من يستحق أن يكون الحكم له، فعلى كل عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة، التي سنوضحها الآن إن شاء الله، ويقابلها مع صفات البشر المشرعين للقوانين الوضعية، فينظر هل تنطبق عليهم صفات من له التشريع.

(٢) «أضواء البيان» (١٦٢/٧).

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (١٣٨٩).

سبحان الله وتعالى عن ذلك، فَإِنْ كَانَتْ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ وَلَنْ تَكُونَ، لِيَتَّبِعَ تَشْرِيعَهُمْ. وَإِنْ ظَهَرَ يَقِينًا أَنَّهُمْ أَحَقُّرٌ وَأَخْسَرُ وَأَذَلُّ وَأَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَلْيَقِفْ بِهِمْ عِنْدَ حَدِّهِمْ، وَلَا يَجَاوِزْهُ بِهِمْ إِلَى مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ.

سبحانه وتعالى أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ فِي عِبَادَتِهِ، أَوْ حُكْمُهُ أَوْ مُلْكُهُ.

فَمِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي أَوْضَحَ بِهَا تَعَالَى صِفَاتٍ مِنْ لَهُ الْحُكْمُ وَالتَّشْرِيعُ قَوْلُهُ هُنَا: ﴿وَمَا اخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، ثُمَّ قَالَ مُبَيِّنًا صِفَاتٍ مِنْ لَهُ الْحُكْمُ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١٦) فَاطَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٧﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ [الشورى: ١٠ - ١٢].

فَهَلْ فِي الْكُفْرَةِ الْفَجْرَةِ الْمَشْرِعِينَ لِلنَّظْمِ الشَّيْطَانِيَّةِ، مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَوْصَفَ بِأَنَّهُ الرَّبُّ الَّذِي تَفُوضُ إِلَيْهِ الْأُمُورَ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ فَاطَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ أَيْ: خَالِقُهُمَا وَمَخْتَرَعُهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لِلْبَشَرِ أَزْوَاجًا، وَخَلَقَ لَهُمْ أَزْوَاجَ الْأَنْعَامِ الثَّمَانِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نَبَيَّةً أَزْوَاجَ مِنَ الضَّكَّانِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، وَأَنَّهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وَأَنَّهُ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]؛ أَيْ: يَضِيقُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فَعَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنْ تَتَفَهَمُوا صِفَاتٍ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَشْرَعَ وَيَحْلُلَ وَيَحْرُمَ، وَلَا تَقْبَلُوا تَشْرِيعًا مِنْ كَافِرٍ خَسِيسٍ حَقِيرٍ جَاهِلٍ.

وَنُظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فَقَوْلُهُ فِيهَا: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ كَقَوْلِهِ فِي هَذِهِ: ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

فَهَلْ فِي الْكُفْرَةِ الْفَجْرَةِ الْمَشْرِعِينَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَوْصَفَ بِأَنْ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ وَأَنْ يَبَالِغَ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ لِإِحَاطَةِ سَمْعِهِ بِكُلِّ الْمَسْمُوعَاتِ وَبَصَرِهِ بِكُلِّ الْمَبْصُرَاتِ؟ وَأَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ دُونَهُ مِنْ وَلِيٍّ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا؟

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨) [الفصل: ٨٨].

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأنه الإله الواحد؟ وأن كل شيء هالك إلا وجهه؟ وأن الخلائق يرجعون إليه؟ تبارك ربنا وتعاظم وتقدس أن يوصف أحسن خلقه بصفاته^(١).

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين النظم الشيطانية، من يستحق أن يوصف في أعظم كتاب سماوي، بأنه العلي الكبير؟

سبحانك ربنا وتعاليت عن كل ما لا يليق بكمالك وجلالك.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٧٨) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلًا تَسْمَعُونَ ﴿٧٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلًا تُصْرُخُونَ ﴿٨٠﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ [الفصل: ٧٠ - ٧٣].

فهل في مشرعي القوانين الوضعية، من يستحق أن يوصف بأن له الحمد في الأولى والآخرة، وأنه هو الذي يصرف الليل والنهار مبيناً بذلك كمال قدرته، وعظمه إنعامه على خلقه.

سبحان خالق السموات والأرض، جلّ وعلا أن يكون له شريك في حكمه أو عبادته، أو ملكه.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

فهل في أولئك من يستحق أن يوصف بأنه هو الإله المعبود وحده، وأن عبادته وحده هي الدين القيم^(٢). اه باختصار.

٢ - الله سبحانه يحكم ما يريد، وما يشاء هو وحده لا شريك له.

قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْذَبَرُ ءَامِنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَتُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

(١) المقصود بأحسن خلقه هم الكفرة الفجرة المشرعون للقوانين الوضعية، لا الإنسان عموماً.

(٢) راجع: «أضواء البيان» (١٦٢/٧ - ١٧٣).

فالله سبحانه يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل ما أراد تحليله، وتحريم ما أراد تحريمه، وإيجاب ما شاء إيجابه عليهم، وغير ذلك من أحكامه وقضاياه، وله الحكمة البالغة في ذلك كله.

وليس لأحد أن يراجع الله في حكمه، كما يراجع الناس بعضهم البعض في أحكامهم، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، فحكمه في الخلق نافذ، ليس لأحد أن يردّه أو يبطله.

٣ - كلام الله حكيم ومحكم، وكيف لا يكون بهذه الصفة وهو كلام أحكم الحاكمين ورب العالمين.

وقد وصف الله القرآن العظيم - وهو كلامه المنزل على محمد ﷺ - بأنه حكيم ومحكم في ثمان آيات، منها قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقوله: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الْحَكِيمَ﴾ [لقمان: ١، ٢].

وقوله: ﴿يَسَّ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢].

وقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ...﴾ الآية [محمد: ٢٠].

وحكمة الله تقتضي ذلك، تقتضي أن يكون القرآن حكيماً ومحكماً؛ لأنه الكتاب الذي ليس بعده كتاب، ولأنه الكتاب الذي أنزله الله ليكون تشريعاً عاماً لكل مجتمع بشري ولكل فرد من أفرادها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فالقرآن حكيم في أسلوبه الرائع الجذاب، وحكيم في هدايته ورحمته، وحكيم في إيضاحه وبيانه، وحكيم في تشريعاته وحكيم في كل أحكامه، وحكيم في أمره ونهيه، وحكيم في ترغيبه وترهيبه، وحكيم في وعده ووعيده، وحكيم في أقاصيصه وأخباره، وحكيم في أقسامه وأمثاله، وحكيم في كل ما اشتمل عليه، بل هو فوق ذلك وأعظم من ذلك.

والقرآن أيضاً محكم فلا حشو فيه، ولا نقص ولا عيب كما يكون في كلام البشر، الله أكبر ما أعظم هذا القرآن، لقد بلغ الغاية في البهاء والجمال والكمال^(١).

٤ - والإيمان بما سبق يقتضي تحكيم كتاب الله جلّ شأنه بيننا؛ لأنه لا يوجد كتاب مثل القرآن حكيماً في كل شيء.

(١) باختصار من كتاب «الهدى والبيان في أسماء القرآن» للشيخ صالح بن إبراهيم البليهي (ص ٢١٢).

لأن ما شرعه الله سبحانه لعباده من الأحكام والمعاملات والقصاص والحدود وتقسيم الموارث وما يتعلق بالأحوال الشخصية في القرآن الكريم هي في منتهى الحكمة؛ لأنها تشريع الحكيم العليم سبحانه، الذي لا يدخل حكمه خلل ولا زلل، ولأنها قضاء من لا يخفى عليه مواضع المصلحة في البدء والعاقبة.

وقد نبه الله سبحانه عباده لهذا بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [المتحنة: ١٠]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

ولذا فإنك تجد آيات الأحكام كثيراً ما تشتمل خواتيمها على اسمه (الحكيم)، ومن الأمثلة على ذلك:

قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كُرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَّ نَ﴾ إلى قوله: ﴿وَرِ يَضَّةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [النساء: ١١].

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [النساء: ٢٤].

وقوله في القتل الخطأ: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [النساء: ٩٢].

وقوله: ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلاً مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾ [النساء: ١٣٠].

وقوله: ﴿قَدْ فَضَّ اللَّهُ لَكُمْ نُحْلَةً أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحریم: ٢]، وغيرها من الآيات.

٥ - وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يحكم بين الناس بما أنزل إليه من الأحكام الربانية، وأن يترك ما سواها من الآراء والأهواء، قال تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

ولم يكن هذا الأمر لمحمد ﷺ خاصة، وإنما هو ما أمرت به جميع الرسل من قبله، يبين هذا قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

والمؤمنون يرضون بحكم الله، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

أما من لم يرض بذلك وترك تشريع الحكيم العليم، وأخذ بآرائه وما يمليه عليه عقله من أفكار، أو اتبع أهواءه وما تشتهيه نفسه، فقد وقع في هاوية الكفر أو الظلم أو الفسق التي حكم الله بها عليه.

قال سبحانه: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

٦ - الله سبحانه يؤتي حكمته من يشاء:

كما قال عن نفسه جلّ ثناؤه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقد تنوعت عبارات المفسرين في تأويل قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ فمنهم من قال: هي الإصابة في القول والفعل. وقيل: هي الفقه في القرآن والفهم فيه. وقال بعضهم: هي الفهم والعقل في الدين والاتباع له. وقال آخرون: هي النبوة. وقيل: هي الخشية لله.

قال ابن جرير جامعاً بين الأقوال السابقة: «وقد بينّا فيما مضى معنى الحكمة وأنها مأخوذة من الحكم وفصل القضاء، وأنها الإصابة بما دلّ على صحته، فأعني عن تكريره في هذا الموضع.

فإذا كان ذلك كذلك معناه، كان جميع الأقوال التي قالها القائلون الذين ذكرنا قولهم في ذلك، داخلاً فيما قلنا من ذلك؛ لأن الإصابة في الأمور، إنما تكون عن فهم بها وعلم ومعرفة، وإذا كان ذلك كذلك، كان المصيب عن فهم منه بمواضع الصواب في أموره، فهو^(١) خاشياً لله فقيهاً عالمياً، وكانت النبوة من أقسامه؛ لأن الأنبياء مُسَدِّدُونَ مُفْهِمُونَ ومُوفِقُونَ لإصابة الصواب في الأمور، والنبوة بعض معاني الحكمة.

فتأويل الكلام: يؤتي الله إصابة الصواب في القول والفعل من يشاء، ومن يؤته الله ذلك فقد آتاه خيراً كثيراً^(٢).

(١) في الأصل: «فهما»، وما أثبتناه يقتضيه السياق.

(٢) «جامع البيان» (٣/٦٠، ٦١). وانظر: «تفسير ابن كثير» (١/٣٢٢).

٧ - وقد جاء في الحديث ما يدل على أنه من أوتي الحكمة ينبغي أن يغبط لعظم هذه النعمة عليه، وهو قوله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»^(١).

وقد ذكر الله في كتابه بعض الذين آتاهم الحكمة وأكثرهم من الأنبياء. فامتن على محمد ﷺ بذلك في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وعلى آل إبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

وعلى عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].
وعلى داود عليه السلام: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وعلى لقمان العبد الصالح: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]. والله سبحانه أعلم حيث يجعل حكمته.

٨ - خلق الله سبحانه محكم لا خلل فيه ولا قصور، قال تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الْذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

أي: خلقهن طبقة بعد طبقة مستويات ليس فيها اختلاف ولا تنافر، ولا نقص ولا عيب، ولهذا قال تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾؛ أي: انظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً وشقوقاً، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [٤]؛ أي: مهما كررت البصر مرتين أو أكثر لرجع إليك البصر خاسئاً عن أن يرى عيباً أو خللاً، وهو حسير؛ أي: كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار ولا يرى نقصاً^(٢).

قال الخطابي: «ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها؛ إذ ليس كلُّ الخليقة موصوفاً بوثاقة البنية، وشدة الأسر؛ كالبقعة، والنملة، وما أشبههما من ضعاف الخلق، إلا أن التدبير فيهما، والدلالة

(١) رواه البخاري (١٤٠٩، ٧١٤١، ٧٣١٦)، ومسلم (٨١٦) عن عبد الله بن مسعود.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٩٦/٤).

بهما على كون الصانع وإثباته، ليس بدون الدلالة عليه بخلق السموات والأرض والجبال وسائر معازم الخليقة، وكذلك هذا في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، لم تقع الإشارة به إلى الحُسْنِ الرائق في المنظر، فإن هذا المعنى معدوم في القرد والخنزير والدب، وأشكالها من الحيوان، وإنما ينصرف المعنى فيه إلى حسن التدبير في إنشاء كل شيء من خلقه على ما أحبَّ أن يُنشئه عليه وإبرازه على الهيئة التي أراد أن يهيئه عليها، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. اهـ^(١).

٩ - إن الله سبحانه خلق الخلق لحكمة عظيمة، وغاية جليلة، وهي عبادته تبارك وتعالى، حيث قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]. ولم يخلقهم عبثاً وباطلاً كما يظن الكفار والملاحدة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧) [ص: ٢٧]. وقال سبحانه: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣]. وقال عزَّ من قائل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وجعل يوم القيامة موعداً لهم، ويرجعون إليه ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

١٠ - كراهة التكني بأبي الحكم:

فعن هانئ بن يزيد أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «إن الله هو الحكم، وإليه الحكم، فلم تكني أبا الحكم؟»، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين. فقال رسول الله ﷺ: «ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟»، قال: لي شريح ومسلم وعبد الله. قال: «فمن أكبرهم؟»، قلت: شريح، قال: «فأنت أبو شريح»^(٢).

(١) «شأن الدعاء» (ص ٧٣، ٧٤).

(٢) إسناد صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٥٥)، والبيهقي عنه (١٤٥/١٠)، والنسائي (٢٢٦/٨) عن يزيد بن المقدم بن شريح عن أبيه عن جده شريح عن أبيه هانئ به. وهذا إسناد حسن، يزيد بن المقدم صدوق، وبقيّة رجاله رجال مسلم.

وقد أخرج الحاكم (٢٧٩/٤) الحديث مختصراً - دون ذكره سبب التسمية، وقول النبي ﷺ:

«إن الله هو الحكم» - عن قيس بن الربيع عن المقدم بن شريح عن أبيه عن جده به. =

فتغيير النبي ﷺ لكنية الصحابة دليل على كراهته التكني بهذا الاسم أو التسمي به .
قال ابن الأثير: «وإنما كره له ذلك لئلا يشارك الله تعالى في صفته»^(١).



= قال الحاكم: تفرد به قيس بن الربيع وليس من شرط الكتاب.
قلت: قيس بن الربيع صدوق تغير لما كبر أدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به.
ملاحظة: وقع في إسناد النسائي حذف المقدم بن شريح، وقد عزاه الحافظ المزي في
التحفة للنسائي دون حذف، فالظاهر أنه خطأ مطبعي.
(١) «النهاية» (١/٤١٩).

اللطيف

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٣٦)

* المعنى اللغوي:

يقال: لَطَفَ به وله، بالفتح، يَلْطِفُ لُطْفًا، إذا رفق به، واللُّطْفُ واللَّطْفُ: البرُّ والتَّكْرِمَةُ والتَّحْفِي، والظَّفَهْ وَالظَّفَةُ: أتحفُّهُ، والظَّفَهْ بكذا؛ أي: برَّه به، وهو لطيفٌ بالأمْرِ؛ أي: رقيق، وأمَ لطيفةٌ بولدها تلطِّفُ إلفًا. فأما لُطْفٌ - بالضم -، يَلْطُفُ فمعناه: صَغُرَ ودقَّ، واللطيف من الكلام: ما غَمَضَ معناه: وخفي. واللطيف اسم الفاعل من لطف^(١).

* وروده في القرآن:

ورد هذا الاسم سبع مرات في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]^(٢). وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وقوله: ﴿يَبْنِيْ إِيَّاهَا إِنَّ تَكُ مِنْقَالِ حَبَةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]. وقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال قتادة: «قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ لطف بيوسف وصنع له حتى أخرجه

(١) «النهاية» (٤/٢٥١)، «اللسان» (٥/٤٠٣٦). وانظر: «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٤٤) و«المفردات» (ص ٤٥٠).

(٢) استدلت المعتزلة ومن تابعها بهذه الآية على نفي رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، وهو استدلالٌ باطل! فإن الآية نفت الإدراك وهو غير الرؤية التي أثبتها الله في قوله: ﴿وَرُؤُوهُ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ [٢٣] إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ [٢٣] [القيامة: ٢٢، ٢٣]، فهم ينظرون إلى ربهم ولكن لا تحيط أبصارهم به من عظمتهم، وبصره يحيط بهم. انظر رد ابن جرير عليهم في: تفسيره (٧/١٩٩ - ٢٠٣)، وابن كثير (٢/١٦٢).

من السجن وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان، وتحريشه على إخوته»^(١).

قال ابن جرير: «وهو اللطيف بعباده، الخبير بهم وبأعمالهم»^(٢).

قال الخطابي: «(اللطيف) هو البرُّ بعباده، الذي يُلطفُ لهم من حيث لا يعلمون، ويُسبِّبُ لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون؛ كقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

وحكى أبو عمر^(٣) عن أبي العباس عن ابن الأعرابي^(٤) قال:

(اللطيف): الذي يوصلُ إليك أَرْبَكَ في رفقٍ، ومن هذا قولهم: لطفَ الله لك؛ أي: أوصل إليك ما تحب في رفق.

ويقال: هو الذي لطفَ عن أن يدرك بالكيفية. وقد يكون اللطف بمعنى: الرقة والغموض.

يكون بمعنى: الصغر في نُعوتِ الأجسام، وذلك مما لا يليقُ بصفاتِ الباري سبحانه»^(٥).

قال الشوكاني رحمه الله في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾: لا تخفى عليه خافية، بل يصل علمه إلى كل خفي»^(٦).

قال ابن القيم رحمه الله في «النونية»:

وهو اللطيف بعبده ولعبده	واللطف في أوصافه نوعان
إدراك أسرار الأمور بخبرة	واللطف عند مواقع الإحسان
فيريك عزته ويُبدي لطفه	والعبد في الغفلات عن ذا الشأن

وقال عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله: «(اللطيف): الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده

(١) أخرجه ابن جرير (٤٧/١٣) عنه بسند حسن.

(٢) «جامع البيان» (٥/٢٩).

(٣) هو المعروف بغلام ثعلب، واسمه محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم الزاهد المطرز اللغوي

(٢٦١ - ٣٤٥هـ) من أكابر أهل اللغة، وأحفظهم لها. انظر: «نزهة الألباء» (ص ٢٠٦).

(٤) ابن الأعرابي: هو محمد بن زياد (١٥٠ - ٢٣١هـ) رواية ناسب علامة باللغة، لم ير أحدًا في

علم الشعر أغزر منه. «تاريخ بغداد» (٥/٢٨٢)، «الأعلام» (٦/١٣١).

(٥) «شأن الدعاء» (ص ٦٢). وانظر: «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٤٤).

(٦) «فتح القدير» (٤/٢٣٩)، و«روح المعاني» (٢١/٨٩).

المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى: الخبير، وبمعنى: الرؤوف^(١).

* وعلى هذا يكون معنى (اللطيف):

١ - إنه الذي لا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت؛ أي: هو لطيف العلم.

٢ - هو البر بعباده، الذي يلطف ويرفق بهم من حيث لا يعلمون، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

٣ - هو الذي لطف عن أن يدرك بالكية، وعلى الأول والثالث يكون من أسماء الذات، وعلى الثاني يكون من أسماء الأفعال.

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إن الله ﷻ لا يفوته من العلم شيء وإن دق وصغر، أو خفي وكان في مكان سحيق، قال سبحانه: ﴿وَعِنْدُهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وجاء في قوله تعالى عن لقمان: ﴿يَبْنِيْ إِيَّاهَا إِنَّ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]^(٢).
فالله لا يخفى عليه شيء، ولا الخردلة وهي الحبة الصغيرة التي لا وزن لها، فإنها ولو كانت في صخرة في باطن الأرض، أو في السموات فإن الله يستخرجها ويأت بها؛ لأنه اللطيف الخبير.

٢ - وإذا علم العبد أن ربه متصف بدقة العلم، وإحاطته بكل صغيرة وكبيرة، حاسب نفسه على أقواله وأفعاله، وحركاته وسكناته، فإنه في كل وقت وحين، بين يدي اللطيف الخبير: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].
والله سبحانه يجازي الناس على أفعالهم يوم الدين، إن خيراً فخير، وإن شراً

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٠١/٥).

(٢) قوله: ﴿إِيَّاهَا إِنَّ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ إشارة إلى الصغر، وقوله: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ إشارة إلى الحجاب، وقوله: ﴿أَوْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ إشارة إلى البعد فإنها أبعد الأبعاد، ﴿أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى الظلمات فإن جوف الأرض أظلم الأماكن. انظر: «تفسير الرازي» (١٤٨/٢٥).

فشر، لا يفوته من أعمالهم شيء، فلا المحسن يضيع من إحسانه مثقال ذرة، ولا المسيء يضيع من سيئاته مثقال ذرة.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧) ﴿الأنبياء: ٤٧﴾. وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿الزلزلة: ٧، ٨﴾.

ثم هو بعد ذلك يزيد أجور الصالحين من فضله وكرمه ما يشاء، ويعفو ويتجاوز عن ذنوب من يشاء من عبادته بلطفه وعفوه، ويعذب بالذنوب من يشاء من عبادته بعدله، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً.

٤ - الله لطيف بعباده؛ أي: كثير اللطف بهم بالغ الرأفة لهم. قال الحليمي^(١) في معنى (اللطيف): «وهو الذي يريد بعباده الخير واليسر، ويقبض لهم أسباب الصلاح والبر»^(٢).

ومن لطفه بعباده أنه يسوق إليهم أرزاقهم، وما يحتاجونه في معاشهم. قال القرطبي في تفسير الآية السابقة: ﴿يَبْنِيْ اِنَّهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ...﴾ [لقمان: ١٦]: «وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى، وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه؛ لأن الخردلة يقال: إن الحس لا يدرك لها ثقلًا، إذ لا ترجح ميزانًا.

أي: لو كان للإنسان رزق مثقال حبة خردل في هذه المواضع، جاء الله بها حتى يسوقها إلى من هي رزقه؛ أي: لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض، وعن اتباع سبل من أناب إلى» اهـ^(٣).

قال الغزالي: «إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، وما دق منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في العلم تم معنى اللطف، ولا يتصور كحال ذلك في العلم والفعل إلا لله تعالى.

(١) هو: الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني، أبو عبد الله فقيه شافعي قاض، كان رئيس أهل الحديث في ما وراء النهر، مولده بجرجان (٣٣٨هـ) ووفاته ببخارى (٤٠٣هـ)، له «المنهاج» في «شعب الإيمان» طبع في دار الفكر، لبنان. انظر: «الأعلام» (٢٣٥/٢).

(٢) «المنهاج في شعب الإيمان» (٢٠٢/١). (٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٦٦/١٤).

فأما إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك، بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي، من غير فرق، وأما رفقه في الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضاً تحت الحصر؛ إذ لا يعرف اللطف في الفعل، إلا من عرف تفاصيل أفعاله وعرف دقائق الرفق فيها، وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة بمعنى اسم (اللطيف)، وشرح ذلك يستدعي طويلاً ثم لا يتصور أن يفي بعُشر عُشره، مجلدات كبيرة، وإنما يمكن التنبيه على بعض جُمَلِه.

فمن لطفه: خلقه الجنين في بطن الأم في ظلمات ثلاث، وحفظه فيها وتغذيته بواسطة السرة، إلى أن ينفصل، فيستقل بالتناول بالفم، ثم إلهامه إياه عند الانفصال التمام الثدي وامتصاصه ولو في ظلام الليل، من غير تعليم ومشاهدة، بل فلق البيضة عن الفرخ وقد ألهمه التقاط الحب في الحال.

ثم تأخير خلق السن عن أول الخلقة، إلى وقت الحاجة لاستغناء الإغذاء باللبن عن السن، ثم إنباته بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن الطعام، ثم تقسيم الأسنان إلى عريضة للطحن، وإلى أنياب للكسر، وإلى ثنانيا حادة الأطراف للقطع، ثم استعمال اللسان الذي الغرض الأظهر منه النطق في رد الطعام إلى المطحن كالمجرفة.

ولو ذكر لطفه في تيسير لقمة يتناولها العبد من غير كلفة يتجشمها وقد تعاون على إصلاحها خلق لا يحصى عددهم، من مصلح الأرض وزارعها وساقيةا وحاصدها ومنقيها وطاحنها وعاجنها وخابزها، إلى غير ذلك، لكان لا يستوفي شرحه^(١).



(١) «المقصد الأسنى» (ص ٦٢، ٦٣).

الخبير

جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه

(٣٧)

* المعنى اللغوي:

الخَبْرُ والخُبْرُ والخِبرَةُ والخُبْرَةُ والمَخْبَرَةُ كُلُّهُ: العلم بالشيء، يقال: من أين خَبَرْتَ هذا الأمر؟ أي: من أين علمت؟ وقولهم: لأخْبِرَنَّ خُبْرَكَ؛ أي: لأعلمن علمك، والخبر واحد الأخبار.

والخابِرُ: المختبرُ المُجَرَّبُ، ورجل خابر وخبير: عالم بالخبر. وخَبَرْتُ الأمرَ أَخْبَرُهُ: إذا عَرَفْتُهُ على حقيقته.

والمُخْبِرُ خلاف المنظر.

والخبير: العالم بالشيء.

وقال الكسائي: «الخبير الذي يخبر الشيء بعلمه»^(١).

وأنكر أبو علي الفارسي^(٢) على أبي إسحاق الزجاج قوله: إن (الخبير) من قولهم: خَبَرْتُ الأرضَ: إذا شققتها، وفلانٌ خبيرٌ بالشيء إذا كان عالماً به، وكأنه هو الذي بحث عن ذلك الشيء حتى شقَّ عنه الأرض.

وقال: وهو عندنا من الخَبَرِ الذي يُسمع؛ لأن معنى الخبير: العالم. وقال: فالعلم أبداً مع الخَبَرِ فما حاجةٌ أبي إسحاق إلى أن يأخذه من الخَبَرِ والشَّقِّ؟!^(٣).

(١) «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص ١٢٧)، «الصحاح» للجوهري (٢/ ٦٤١)، «النهاية» (٢/ ٦)، «اللسان» (٢/ ١٠٩٠).

(٢) هو: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد الفارسي النحوي، ولد في «فسا» - من أعمال فارس - سنة (٢٨٨هـ)، ودخل بغداد سنة (٣٠٧هـ) وتجوّل في كثير من البلدان، وقدم حلب سنة (٣٤١هـ) فأقام مدة عند سيف الدولة، وعاد إلى فارس فصحب ابن بويه وتقدم عنده فعمله النحو وصنف له كتاب «الإيضاح» في قواعد العربية، قال الذهبي: وكان متهماً بالاعتزال، لكنه صادق في نفسه. «الميزان» (١/ ٤٨٠، ٤٨١)، «نزهة الألباء» (ص ٢٣٢)، «الأعلام» (١٧٩/ ٢)، (١٨٠).

(٣) انظر: «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٤٥).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد اسم (الخبير) في القرآن خمساً وأربعين مرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقوله: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١].

وقوله: ﴿قَالَتْ مَنْ أَبْأَكَ هَذَا قَالَ نَبَاتَى الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحریم: ٣].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير في قوله: ﴿نَبَاتَى الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾: «العليم بسرائر عبادہ وضمائر قلوبهم، الخبير بأموهم الذي لا يخفى عنه شيء»^(١).

وقال: «خبير بكل ما يعلمونه ويكسبونه من حسن وسيء، حافظ ذلك عليهم ليجازيهم على كل ذلك»^(٢).

قال الخطابي: «هو العالم بكنه الشيء، الْمُطَّلَعُ عَلَى حَقِيقَتِهِ؛ كقوله تعالى: ﴿فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

يقال: فلان بهذا الأمر خبير، وله به خبر، وهو أخبر به من فلان؛ أي: أعلم.

إلا أنَّ الْخَبَرَ في صفة المخلوقين إنما يستعمل في نوع العلم الذي يدخله الاختبار، ويُتَوَصَّلُ إليه بالامتحان، والاجتهاد، دون النوع المعلوم ببداية العقول.

وعلم الله سبحانه، سواءً فيما غمض من الأشياء وفيما لطف، وفيما تجلَّى به منه وظهر، وإنما تختلف مدارك علوم الآدميين الذين يتوصلون إليها بمقدّمات من حسّ، وبمعاناة من نظر وفكر، ولذلك قيل لهم: ليس الخبر كالمعاينة، وتعالى الله عن هذه الصفات علواً كبيراً»^(٣).

قال الغزالي: «(الخبير): هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجري في الملك والملوك شيء ولا يتحرك ذرة ولا يسكن، ولا يضرب نفس ولا يطمئن، إلا ويكون عنده خبره».

وهو بمعنى العليم، لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبراً، وسمي

(١) «جامع البيان» (١٠٣/٢٨). وانظر أيضاً (٣٢٠/٢).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٦٣).

(٣) المصدر السابق (١٥٨/٧).

صاحبها خبيراً» اه^(١).

وقال السعدي: ﴿الْعَلِيمُ الْخَيْرُ﴾ وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، والماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء» اه^(٢).

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إن الله هو الخبير، العالم ببواطن الأمور وخفياتها، عالم بما كان وما يكون، لا يفوته من العلم شيء وإن كان صغيراً دقيقاً، وهذا الله وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه.

٢ - والله أخبر بنفسه؛ إذ لا أحد أعلم بالله من الله، قال سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ فَسْئَلُ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]؛ أي: أسأل عنه خبيراً - و«الباء» هنا مكان «عن» - ^(٣)، وهو الله عز وجل ^(٤).

وقيل: هو محمد ﷺ ^(٥).

فيكون المعنى: فاسأل عنه خبيراً؛ أي: عالماً به؛ أي: بصفاته وأسمائه. وقيل: هو جبريل عليه السلام ^(٦).

٣ - إن الله خبير عليم بأعمال عباده وأقوالهم، وما يجول في صدورهم من خير أو شر.

قال سبحانه: ﴿وَكُنِّي بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ولذلك أمرنا ﷺ أن نتقيه ونعمل بما يحب، وأن نبتعد عن كل ما يسخطه ويغضبه.

قال تعالى محرضاً على التقوى والإحسان: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

(١) «المقصد الأسنى» (ص ٦٣). (٢) «تيسير الكريم» (٥/ ٢٩٩).

(٣) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص ٥٦٨)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٦٣)، والشوكاني (٤/ ٨٤)، وهو كقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١].

(٤) انظر: «تفسير البغوي» (٥/ ١٠٦)، والشوكاني (٤/ ٨٤).

(٥) قاله ابن كثير (٣/ ٣٢٣).

(٦) ذكره البغوي (٥/ ١٠٦)، ونقله الآلوسي (١٩/ ٣٩) عن ابن عباس.

وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وحض على طاعته وطاعة رسوله ﷺ فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣].

وأمر بالإيمان به وبرسوله وبكتابه فقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، تحذير من معصيته، وهي عدم إقامة الشهادة بالحق، وعبر عنه بقوله: ﴿وَإِنْ تَلَوْا﴾ أو كتمان الشهادة مع الحاجة إليها، وعبر عنه بقوله: ﴿أَوْ تَعْرِضُوا﴾، ثم جاء التحذير وهو قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ أي: فإن الله خبير بما تعملون، من عدم إقامتكم الشهادة وتحريفكم لها، وإعراضكم عنها بكتمانها، ويحفظ ذلك منكم عليكم حتى يجازيكم به يوم الجزاء، فاتقوا ربكم في ذلك.

٤ - إن الله سبحانه خبير، قد أحاط بكل شيء خبراً، يخبر بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه، يعلم ما كان وما يكون وما سيكون.

فقد أخبر عن خلقه للسموات والأرض في ستة أيام، واستوائه على عرشه فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

وأخبر عن نفسه سبحانه أنه يعلم مفاتيح الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا هو، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]. وهذه الخمسة كلها غيبية مستقبلية.

وأخبر عما سيقع في يوم القيامة من الأهوال الكونية، من انشقاق السماء وانفطارها، وارتجاف الأرض وزلزالها، ونسف الجبال وسيرها، وتسجير البحار وانفجارها، وغير ذلك من الأهوال المنتظرة التي لم تقع.

وأخبر عن حال أهل الإيمان وما هم فيه من الاطمئنان والأمان من تلك الأهوال، ثم عن دخولهم الجنان بسلام.

وأخبر عن حال أهل الكفران، وما هم فيه عند قيامهم من تخبط الشيطان، لاتخاذهم إياه ولياً - في الدنيا - من دون الرحمن، واتباعهم لخطواته وتركهم لكلام الكريم المتأن.

والله خبير بالطائفتين في ذلك اليوم المشهود، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۚ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العدايات: ٩ - ١١].
ولا يخبر بهذه الأمور كلها إلا الله وحده العليم الخبير، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]؛ أي: لا ينبيئك أحد مثلي؛ لأنني عالم بالأشياء^(١).



(١) «تفسير البغوي» (٣٠٠/٥)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٥٥١/٣).

الحليم

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٣٨)

* المعنى اللغوي:

الحِلْمُ بالكسر: الأناة والعقل، وجمعه: أخلامٌ وحُلُومٌ، وأحلامُ القوم: حُلماؤُهُم، ورجل حليمٌ من قوم أحلام وحُلماء.
وَحَلِمَ يَحِلِمُ حِلْمًا: صار حَلِيمًا، وَحَلِمَ عَنْهُ وَتَحَلَّمَ سَوَاءً، تَحَلَّمَ: تَكَلَّفَ الحِلْمَ. والحِلْمُ: نقيض السَّفَهِ.
أَمَّا الحِلْمُ والحَلْمُ: فهو الرؤيا، والجمع: أخلامٌ، يقال: حَلِمَ يَحِلِمُ: إذا رأى في المنام^(١).

وقال الرغب: الحِلْمُ ضَبْطُ النفس والطبع عن هيجان الغضب، وجمعه: أحلامٌ.
قال تعالى: ﴿أَمْ نَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ﴾ [الطور: ٣٢]؛ قيل: معناه: عَقُولُهُمْ، وليس الحِلْمُ في الحقيقة هو العقل، لكن فسروه بذلك لِكَوْنِهِ من مُسَبِّبَاتِ العقل^(٢).
والحليم اسم الفاعل من حَلِمَ^(٣).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم في القرآن إحدى عشرة مرة، منها:
قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].
وقوله: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١].

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

(١) «الصحاح» (١٩٠٣/٥)، «اللسان» (٩٧٩/٢، ٩٨٠).

(٢) «المفردات» (ص ١٢٩).

(٣) «اشتقاق أسماء الله» (ص ٩٦).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير: «(حليم)؛ يعني: أنه ذو أناة، لا يعجل على عباده بعقوبتهم على ذنوبهم»^(١).

وقال في موضع: «حليماً عَمَّنْ أشرك وكفر به من خلقه، في تركه تعجيل عذابه له»^(٢).

قال الخطابي: «هو ذو الصَّفَحِ والأناة، الذي لا يَسْتَفْزُهُ غضبٌ، ولا يَسْتَخِفُّهُ جهلٌ جاهلٍ، ولا عصيانٌ عاصٍ.

ولا يستحقُّ الصَّفَاحُ مع العجزِ اسم الحِلْمِ، إنّما الحليم هو الصَّفُوحُ مع القدرة والمتأنّي الذي لا يَعَجَلُ بالعقوبة.

وقد أنعم بعض الشعراء بيان هذا المعنى في قوله:

لا يدركُ المجدَ أقوامٌ وإنْ كَرُمُوا حتى يَذِلُّوا وإنْ عَزُّوا لأقوام
ويُشْتَمُوا فترى الألوانَ مُسْفَرَةً لا صَفَحَ ذُلٌّ ولكن صَفَحَ أَحْلام^(٣)

قال ابن الحصار^(٤): فإن قيل: فكيف يتضمّن الحلم الإناة، وقد قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك لخصلتين يُحبُّهما الله: الحِلْمُ والأناة»^(٥) فعَدَّهما؟ فاعلم أنّ الأناة، قد تكون مع عدم الحلم، ولا يصحّ الحلم أبداً إلا مع الأناة، والأناة ترك العجلة، فقد تكون لعارضٍ يعرض، ولا يكون الحِلْمُ أبداً إلا مُشْتَمِلاً على الأناة، فتأمل!.

وكذلك لا يكون الحليم إلا حكيماً، واضعاً للأمور مواضعها، عالماً قادراً، إن لم يكن قادراً كان حلمه متلبساً بالعجز والوهن والضعف، وإن لم يكن عالماً [كان] تركه الانتقام للجهل، وإن لم يكن حكيماً ربّما كان حلمه من السّفه وتتبع أمثال هذا...^(٦).

(٢) «جامع البيان» (٩٥/٢٢).

(١) «جامع البيان» (٣٢٧/٢).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٦٣، ٦٤)، وانظر: «النهاية» (٤٣٣/١٠، ٤٣٤).

(٤) هو: عليّ بن محمد الخزرجي أبو الحسن، الحصار، فقيه إشبيلي الأصل، منشأه بفاس، سمع بها وبمصر وغيرهما وجاور بمكة وتوفي بالمدينة سنة (٦١١هـ)، له كتب في أصول الفقه، وكتاب «الناسخ والمنسوخ» سمعه منه الحافظ المنذري، و«البيان في تنقيح البرهان» و«عقيدة» في أصول الدين وشرحها في أربعة مجلدات وغيرها. «التكملة لوفيات النقلة» (٢/٣٠٩)، «الأعلام» (٣٣٠/٤، ٣٣١).

(٥) رواه مسلم (١٨/١).

(٦) «الكتاب الأسنى» للقرطبي ورقة (٢٦٤ب).

وقال الأصهباني: «(حليمٌ) عَمَّنْ عصاه؛ لأنه لو أرادَ أخذه في وقته أَخَذَهُ فهو يحلم عنه ويؤخره إلى أجله.

وهذا الاسم - وإن كان مشتركاً يوصف به المخلوق - فحلم المخلوقين حِلْمٌ لم يكن في الصَّغر ثم كان في الكبير.

وقد يتغير بالمرض والغضب والأسباب الحادثة، ويفنى حلمه بفناؤه، وحلم الله ﷻ لم يزل ولا يزول.

والمخلوق يحلُم عن شيءٍ ولا يحلُم عن غيره، ويحلم عمن لا يقدر عليه، والله تعالى حليمٌ مع القدرة»^(١).

قال ابن كثير: «(حليمٌ غفور): أن يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخّر ويُنظر ويُؤجل ولا يعجل، ويستر آخرين ويغفر»^(٢).

قال ابن القيم في نونيته:

وهو الحليم فلا يُعاجل عبده بعقوبةٍ ليتوبَ من عصيانٍ^(٣)

وقال السعدي: «(الحليم): الذي يَدُرُّ على خلقه النعم الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيائهم ويستعتبهم كي يتوبوا، ويُمهلهم كي يُنيبوا»^(٤).

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إثبات صفة (الحلم) لله ﷻ، وهو الصفح عن العصاة من العباد، وتأجيل عقوبتهم رجاء توبتهم عن معاصيهم.

٢ - وحلم الله سبحانه عن عباده، وتركه المعاجلة لهم بالعقوبة، من صفات كماله ﷻ. فحلمه ليس لعجزه عنهم، وإنما هو صفح وعفو عنهم، أو إمهال لهم مع القدرة، فإنَّ الله لا يعجزه شيء.

قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

(١) «الحجة في المحجة» (ق ٢١أ).

(٢) «التفسير» (٣/ ٥٦١)، وانظر (٣١٨/١)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص ٥٨).

(٣) «النونية» بشرح أحمد بن إبراهيم بن عيسى (٢/ ٢٢٧).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٣٠٤).

وحلمه أيضاً ليس عن عدم علمه بما يعمل عباده من أعمال، بل هو العليم الحليم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١].

وحلمه عن خلقه ليس لحاجته إليهم؛ إذ هو سبحانه يحلم عنهم ويصفح ويغفر مع استغناؤه عنهم، قال سبحانه: ﴿اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

٣ - جَلَمُ الله عظيم، يتجلى في صبره سبحانه على خلقه، والصبر داخل تحت الحلم؛ إذ كل حليم صابر، وقد جاء في السنة وصف الله ﷻ بالصبر، كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ليس أحدٌ - أو ليس شيءٌ - أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولداً وإنه ليعافيهم ويرزقهم»^(١).

قال الحليمي في معنى (الحليم): «الذي لا يحبس أنعامه وأفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكن يرزق العاصي كم يرزق المطيع، ويبقيه وهو منهمك في معاصيه، كما يُبقي البرّ التقي، وقد يقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره، فضلاً عن أن يدعوه، كما يقيهما الناسك الذي يسأله وربّما شغلته العبادة عن المسألة»^(٢).

وقد أخبر تعالى عن تأخيره لعقاب من أذنب من عباده في الدنيا، وأنه لو كان يؤاخذهم بذنوبهم أولاً بأول، لما بقي على ظهر الأرض أحد.

قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

وقال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ [الكهف: ٥٨].

قال ابن جري: «ولو يؤاخذ الله عصاة بني آدم بمعاصيهم ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾؛ يعني: الأرض من دابة تدب عليها، ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يقول: ولكن بحلمه يؤخر هؤلاء الظلمة، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ﴿إِلَّا أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول: إلى وقتهم الذي وقّت لهم، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ يقول: فإذا جاء الوقت الذي وقّت لهلاكهم لا يستأخرون عن الهلاك ساعة فيمهلون ولا يستقدمون قبله حتى يستوفوا آجالهم»^(٣).

فتأخير العذاب عنهم إنّما هو رحمة بهم.

(١) رواه البخاري (٦٠٩٩/١٠، ٧٣٧٨/١٣).

(٢) «المنهاج في شعبة الإيمان» (٢٠٠/١، ٢٠١). وانظر: «الأسماء» للبيهقي (ص ٧٢، ٧٣).

(٣) «جامع البيان» (٨٥/١٤).

ولكنَّ النَّاسَ يَغْتَرُونَ بِالْإِمْهَالِ، فلا تستشعر قلوبهم رحمة الله وحكمته، حتَّى يأخذهم سبحانه بعدله وقوته، عندما يأتي أجْلهم الذي ضرب لهم. ومن العجب! أن يريد الله للنَّاس الرحمة والإمهال، ويرفض الجَهْلَ منهم والأجلاف تلك الرحمة وذلك الإمهال، حين يسألون الله أن يعجِّلَ لهم العذب والنقمة! قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَعِجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١].

وقال: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَلِيلَ يَوْمٍ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]. وقال عن كفَّار مَكَّة: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَانْمِطْ عَلَيْنَا حِكَاةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وأمثال ذلك ممَّا وقع من المسرفين السُّفهاء. تنبيه: تأخير العذاب عن الكفَّار إنّما هو في الدنيا فقط، وأمَّا في الآخرة فلا يخفَّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون. فقال الأقلّيشي^(١): «أما تأخير العقوبة في الدنيا عن الكفرة والفجرة من أهل العصيان، فشاهد بالعيان؛ لأننا نراهم يكفرون ويَعْصُونَ، وهم مَعَاْفُونَ في نعم الله يتقلبون.

وأما رفع العقوبة في الأخرى، فلا يكون مرفوعاً إلا عن بعض من استوجبها من عُصاة الموحدين.

وأما الكفار فلا مَدْخَلَ لهم في هذا القسم، ولا لهم في الآخرة حظٌّ من هذا الاسم، وهذا معروفٌ بقواطع الآثار، ومُجمَعٌ عليه عند أولي الاستبصار». اهـ^(٢).

٤ - يجوز إطلاق صفة الجلم على الخلق، فقد وصف الله ﷻ أنبياءه بذلك، قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]. وقال حكاية عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، وقال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِقُلْمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]؛ يعني: بذلك إسحاق عليه السلام.

(١) هو: أحمد بن قاسم بن عيسى اللخمي الأقلّيشي الأندلسي، أبو العباس، عالم بالقراءات، ولد سنة (٣٦٣هـ)، سكن قرطبة، ورحل إلى الشرق، واستقرّ وتوفي بطليطة، له كتاب في «معاني القراءات» لعله المسمى «تفسير العلوم والمعاني المستودعة في السبع المثاني» مخطوط في الأزهرية، وهو تفسير للفتاحة توفي سنة (٤١٠هـ)، نسبته إلى أقلّيش بالأندلس. «الأعلام» (١/١٩٧).

(٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٦٥ب).

والحلم من الخصال العظيمة التي يريد الله من عباده أن يتخلقوا بها، وهي خصلة يحبها الله ورسوله، كما مرَّ آنفاً في حديث أشج عبد القيس.

قال القرطبي رحمته الله: «فمن الواجب على من عَرَفَ أن ربه حلیم على من عصاه، أن يحلم هو على من خالف أمره، فذاك به أولى حتى يكون حلیماً، فينال من هذا الوصف بمقدار ما يكسر سورة غضبه ويرفع الانتقام عن من أساء إليه، بل يتعود الصفح حتى يعود الحلم له سجيّة.

وكما تحب أن يحلم عنك مالكك، فاحلم أنت عمن تملك؛ لأنك متعبّد بالحلم مثابّ عليه، قال الله تعالى: ﴿وَجَزَاوُا سَنِيَّةً سَنِيَّةً مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]»^(١).



(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٦٥ب، ١٢٦٦)

العظيم

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٣٩)

* المعنى اللغوي:

الْعَظَمُ: خلاف الصغر، عَظَمَ يَعْظُمُ عِظْماً وَعِظَامَةً كَبَرًا، وهو عَظِيمٌ وَعُظَامٌ. وَعَظَّمَ الأمر: كَبَّرَهُ، وأَعْظَمَهُ، واستَعْظَمَهُ: رآه عَظِيماً، فهو مُعْظَمٌ. والتَّعْظِيمُ: التبجيل، والعظمة: الكبرياء. والتَّعْظُمُ في النفس: هو الْكِبَرُ والزَّهْوُ والنَّخْوَةُ، والعَظَمَةُ والعَظَمُوت: الْكِبَرُ^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد هذا الاسم تسع مرات، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦].

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جري: «اختلفوا في معنى قوله: ﴿الْعَظِيمِ﴾: فقال بعضهم: معنى ﴿الْعَظِيمِ﴾ في هذا الموضع: المعظم، صرف المفعول إلى فاعل، كما يقال: العتيق بمعنى: المعتق.

فقوله: ﴿الْعَظِيمِ﴾ معناه: الذي يُعْظَمُه خلقه ويهابونه ويتقونه.

وقال آخرون: بل تأويل قوله: ﴿الْعَظِيمِ﴾: هو أن له عظمة هي له صفة، وقالوا: لا نصف عظمته بكيفية، ولكننا نضيف ذلك إليه من جهة الإثبات، وتنفي عنه أن يكون ذلك على معنى مشابهة العظيم المعروف من العباد؛ لأن ذلك تشبيه له بخلقه وليس كذلك.

(١) «الصالح» (١٩٨٧/٥)، «اللسان» (٤/٣٠٠٤، ٣٠٠٥).

وأنكر هؤلاء ما قاله أهل المقالة التي قدمنا ذكرها .

وقالوا: لو كان معنى ذلك أنه مُعَظَّم، لوجب أن يكون قد كان غير عظيم قبل أن يخلق الخلق، وأن يبطل ذلك عند فناء الخلق؛ لأنه لا معظم له في هذه الأحوال .

وقال آخرون: بل قوله: إنه (العظيم) وصف منه نفسه بالعظم .

وقالوا: كل ما دونه من خلقه فبمعنى: الصغر، لصغرهم عن عظمتهم. اهـ^(١) .

وقال الزجاجي: «(العظيم): ذو العظمة والجلال في ملكه وسلطانه ﷻ، كذلك تعرفه العرب في خطبها ومحاوراتها، يقول قائلهم: من عظيم بني فلان اليوم؟ أي: من له العظمة والرئاسة منهم؟ فيقال له: فلانٌ عظيمهم، ويقولون: هؤلاء عظماء القوم؛ أي: رؤساءهم، وذوو الجلالة والرئاسة منهم .

وقالوا في قوله ﷻ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]: تأويله: هلاً أنزل هذا القرآن على رجل من رجلين عظيمين من القريتين؟ أي: كان سبيله أن ينزل على عظيم رئيس، ولم يريدوا به عظم الخلقة. اهـ^(٢) .

وقال الأصبهاني: «العظمة صفة من صفات الله، لا يقوم لها خلق، والله تعالى خَلَقَ بين الخلق عظمة يُعَظَّمُ بها بعضهم بعضاً، فمن الناس من يُعَظَّمُ لمال، ومنهم من يُعَظَّمُ لفضل، ومنهم مَنْ يُعَظَّمُ لعلم، ومنهم من يُعَظَّمُ لسلطان، ومنهم من يُعَظَّمُ لجاه .

وكل واحد من الخلق إنما يُعَظَّمُ بمعنى دون معنى، والله ﷻ يُعَظَّمُ في الأحوال كلها .

فينبغي لمن عَرَفَ حقَّ عظمة الله، أن لا يتكلم بكلمة يكرهاها الله، ولا يرتكب معصية لا يرضاها الله؛ إذ هو القائم على كل نفس بما كسبت»^(٣) .

وقال ابن الأثير: «هو الذي جاوز قدره ﷻ حدود العقول، حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته»^(٤) .

(١) «جامع البيان» (٩/٣) باختصار وتصرف يسير .

(٢) «اشتقاق أسماء الله» (ص ١١١، ١١٢)، واختاره الزجاج في «تفسير أسماء الله» (ص ٤٦)، والخطابي في «شأن الدعاء» (ص ٦٤، ٦٥)، والقرطبي في تفسيره (٢٧٩/٣). وانظر: آثار الإيمان بهذا الاسم رقم (١) .

(٣) «الحجة في المحجة» (ق/١٥، ب، ١٦) .

(٤) «النهاية» (٣/٢٥٩، ٢٦٠) باختصار؛ وانظر: «المقصد الأسنى» (ص ٦٤) .

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إن الله سبحانه، هو العظيم المطلق، فهو عظيمٌ في ذاته، عظيم في أسمائه كلها، عظيم في صفاته كلها، فهو عظيم في سمعه وبصره، عظيم في قدرته وقوته، عظيم في علمه... فلا يجوز قصر عظمتة في شيء دون شيء؛ لأن ذلك تحكُّم لم يأذن به الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته مقررًا ذلك:

وهو العظيم بكلِّ معنى يُوجبُ التَّعْظِيمَ لا يُحصِيهِ من إنسان^(١)
فمن عظمتة في علمه وقدرته أنه لا يشق عليه أن يحفظ السموات السبع والأرضين السبع، ومن فيهما كما قال: ﴿وَلَا يَوَدُّ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٢ - الفرق بين عظمة الخالق والمخلوق:

أن المخلوق قد يكون عظيمًا في حال دون حال، وفي زمان دون زمان، فقد يكون عظيمًا في شبابه، ولا يكون كذلك عند شبیهه، وقد يكون ملكًا أو غنيًا معظماً في قومه، فيذهب ملكه وغناه أو يفارق قومه وتذهب عظمتة معها، لكن الله سبحانه هو العظيم أبداً.

قال الحليمي في العظيم: «ومعناه: الذي لا يمكن الامتناع عليه بالإطلاق؛ لأن عظيم القوم إنما يكون مالك أمورهم، الذي لا يقدر على مقاومته ومخالفة أموره، إلا أنه وإن كان كذلك، فقد يلحقه العجز بآفات تدخل عليه فيما بيده فتوهنه وتضعفه، حتى يُستطاع مقاومته، بل قهره وإبطاله، والله جلُّ ثناءه قادر لا يعجزه شيء، ولا يمكن أن يُعصى كرهاً، أو يُخالف أمره قهراً. فهو العظيم إذاً حقاً وصدقاً، وكان الاسم لمن دونه مجازاً». اهـ^(٢).

٣ - على المسلم أن يعظم الله حق تعظيمه، ويقدره حق قدره، وإن كان هذا لا يُستقصى، إلا أن على المسلم أن يبذل قصارى ما يملك لكي يصل إليه.

وتعظيم الله ﷻ أولاً، إنما هو بوصفه بما يليق به من الأوصاف والنعوت التي وصف بها نفسه، والإيمان بها وإثباتها له، دون تشبيهها بخلقه، ولا تعطيلها عمّا تضمنته من معاني عظيمة.

فمن شبه ومثّل، أو عطل وأوّل، فما عظم الله حق تعظيمه.

(١) «النونية» بشرح أحمد بن إبراهيم بن عيسى (٢/٢١٤).

(٢) «المنهاج» (١/١٩٥).

ومن تعظيمه جلّ وعلا، الإكثار من ذكره في كل وقت وحين، والبدء باسمه في جميع الأمور، وحمده والثناء عليه بما هو أهل له وتهليله وتكبيره.

ومن تعظيم الله سبحانه، أن يطاع رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطِيعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، فمن أطاع الرسول فقد أطاع المرسل: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ومن عصاه فقد عصى الله.

ومن تعظيم الله سبحانه أن يعظم رسوله ويوقّر، قال تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] (١).

وأن لا يقدم على كلامه كلام أحد مهما كانت مكانته، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْقُوا اللَّهَ﴾ [الحجرات: ١].

ومن تعظيم الله سبحانه أن يصدّق كتابه؛ لأنه كلامه، وأن يحكم في الأرض؛ لأنه شرعه الذي ارتضاه للناس أجمعين. فمن لم يفعل فما عظم الله حق تعظيمه، بل التحق بأشباهه من اليهود الذين اتخذوا كتاب الله وراءهم ظهيراً واتبعوا شياطين الإنس والجن.

ومن تعظيم الله سبحانه، أن تعظم شعائر دينه كالصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة وغيرها.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (٣٢) [الحج: ٣٢].

ومن تعظيم الله سبحانه أن تجتنب نواهيه ومحارمه التي حرمها في كتابه، أو حرمها رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]، ومن أعظم ما حرمه الله الشرك بأنواعه. ومقابل هذا أن يعمل المسلم بأوامره التي أمر بها، والتي من أعظمها توحيده وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له.

٤ - ليس أضل من ذلك الإنسان الذي أبى أن يعبد الله وحده، وأصرّ على أن يشرك به ما لا يملك له رزقاً، ولا يملك له نفعاً ولا ضرراً، من أوثان وأحجار وأشجار، أو قبور وأضرحة، قد صار أصحابها عظاماً نخرة، فكيف تقضي لهم حاجة؟ أو تشفي لهم مريضاً؟ أو تردّ لهم غائباً؟ لكنه العمى والضلال البعيد، وهم في الآخرة في العذاب الشديد: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ (٣٦) ﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلُّوهُ﴾ (٣٧) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا

(١) معنى «تعزّروه»: أي: تعظموه. انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/١٨٥)، ومما يدخل في ذلك، تعظيم علماء المسلمين، أهل السنّة والاتباع، وتوقيرهم وحبهم والدفاع عنهم، وذكر مآثرهم الحسنة، وعلمهم وجهادهم، وعلى رأسهم أصحاب نبينا ﷺ.

سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٢٢﴾ إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٢٣﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٣]، فلما لم يعظمه حق التعظيم، عُدَّ العذاب العظيم.

وهذا في المشركين الذين أقروا بخالقهم وخالق السموات والأرض، وأنه مُنزِّل المطر ومُحيي الأرض بعد موتها، فما بالك بأولئك الشيوعيين الأنجاس، الذين أبت نفوسهم العفنة أن تقرَّ بخالقها ورازقها ومدبِّر أمرها، والذين يُسمون أنفسهم بـ«اليساريين»، وما أصدق هذه التسمية عليهم، فهم أهل اليسار حقاً في الآخرة: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحَبُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤].

٥ - أمر النبي ﷺ أن يُسبح بهذا الاسم في الركوع فقال: «.. ألا وإني نُهِيتُ أن أقرأ القرآن راکعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الربَّ ﷻ، وأما السجود فاجتهدوا في الدُّعاء، فَقَمِّنْ أن يستجاب لكم»^(١).



(١) رواه مسلم (٤٧٩/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الشُّكُور - الشَّاكِر

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٤٠ - ٤١)

* المعنى اللغوي:

الشُّكْرُ: عرفان الإحسان ونشره، وهو الشُّكُورُ أيضاً. . وقيل: الشكر: الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، يقال: شكرته وشكرت له وباللام أفصح^(١). ورجلٌ شكورٌ: كثير الشكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وهو من أبنية المبالغة، يقال: شكر له يشكرُ شُكْرًا وشُكُورًا وشُكرانًا. والشكران: خلاف الكفران.

وأشكر الضرع واشتكر: امتلأ لبناً، والشَّكْرَة: الممتلئة الضرع من النوق. والشَّكِيرُ: ما ينبت في أصل الشجرة من الورق وليس بالكبار. والشكور من الدواب: ما يكفيه العلف القليل، وقيل: الذي يسمن على قلة العلف، كأنه يشكر وإن كان ذلك الإحسان قليلاً، وشكره: ظهور نمائه، وظهور العلف فيه^(٢). كما في حديث مسلم: «حتى إن الدواب لتشكر من لحومهم». وقال الزَّجَّاج: «(الشكور): هو فعول من الشَّكر، وأصل الشكر في الكلام: الظهور، وفيه يقال: شكر النبت، وشكر الضرع: إذا امتلأ: وامتلاؤه: ظهوره، ويقال: دابة شكورٌ، وهو السريع السَّمن، فسرعة سَمْنه ظهور أثر صاحبه عليه»^(٣). اهـ.

فيكون أصل الشكر في اللغة: هو الزيادة والظهور.

* الفرق بين الشكر والحمد:

الشكر مثل الحمد إلا أن الحمد أعمُّ منه، فإنك تحمد الإنسان على صفاته الجميلة وعلى معروفة، ولا تشكره إلا على معروفة دون صفاته.

(١) واختاره الزجاجي في «الاشتقاق» (ص ٨٧).

(٢) «الصحاح» (٧٠٢/٢)، «النهاية» (٤٩٣/٢)، «اللسان» (٢٣٠٥/٤).

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٤٧).

قال ثعلب: الشكر لا يكون إلا عن يدٍ، والحمد يكون عن يدٍ، وعن غير يدٍ، فهذا الفرق بينهما^(١).

وقال القرطبي: «وتكلم الناس في الحمد والشكر هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟ فذهب الطبري والمبرد إلى أنهما بمعنى واحد سواء، وهذا غير مرضي، والصحيح: أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان، وهذا قول علماء اللغة، الزجاج والقتبي وغيرهما»^(٢). اهـ.

وقال ابن القيم: «والفرق بينهما: أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، والحمد أعم من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب. ومعنى هذا: أن الشكر يكون بالقلب خضوعاً واستكانة، وباللسان ثناءً واعتزافاً، وبالجوارح طاعة وانقياداً، ومتعلقه: النعم دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها كما هو محمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم.

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس، فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد يقع بالقلب واللسان»^(٣). اهـ.

* ورود الاسمين في القرآن الكريم:

ورد (الشكور) في القرآن أربع مرات، وهي:

قوله تعالى: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

[فاطر: ٣٠].

وقوله: ﴿إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣].

وقوله: ﴿إِنْ تُقِرُّوْا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾

[التغابن: ١٧].

(١) «اللسان» (٢٣٠٥/٤).

(٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٤١)، والقتبي: هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة. وانظر كلامه في الفرق بين الحمد والشكر في كتابه: «أدب الكاتب» (ص ٣٧) طبعة ليدن.

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٢٤٦).

وأما (الشاكِر) فقد ورد مرتين:

في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].
وقوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾

[النساء: ١٤٧].

* معنى الاسمين في حق الله تعالى:

قال قتادة: ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠]، إنه غفور لذنوبهم شكور لحسناتهم^(١).

وقال: إن الله غفور للذنوب، شكور للحسنات يضاعفها^(٢).

قال الخطابي: «(الشكور): هو الذي يشكر اليسير من الطاعة فيُثَبِّبُ عليه الكثير من الثواب، ويعطي الجزيل من النعمة، فيرضى باليسير من الشكر؛ كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

ومعنى الشكر المضاف إليه: الرضى بيسير الطاعة من العبد والقبول له، وإعظام الثواب عليه، والله أعلم. وقد يحتمل أن يكون معنى الثناء على الله ﷻ بالشكور ترغيب الخلق في الطاعة، قَلَّتْ أو كَثُرَتْ، لثلا يستقلُّوا القليل من العمل فلا يتركوا اليسير من جملة إذا أعوزهم الكثير منه»^(٣). اهـ.

قال الزجاجي: «فإن قال قائل: فإذا كان الشكر منه ﷻ إنما هو مجازاة العاملين ومقابلة الأفعال بالثواب والجزاء، فقولوا: إنه يشكر أيضاً أفعال الكفار؛ لأنه يجازيهم عليها.

قيل له: ذلك غير جائز؛ لأننا قد قلنا: إن الشكر في اللغة إنما هو: مقابلة المنعم على فعله بالثناء والاعتراف بفعله، ولمَّا كان المسمي من العباد لا يقال له: منعم، ولم يستحق بذلك شكراً، بل استحقَّ الذم والسبَّ، لم يجز أن يكون الكفار محسنين في أفعالهم فيستحقَّ الجزاء عليها والمقابلة بالجميل، بل كانوا مسيئين، والمسمي مستحق للعقوبة والسبَّ، فلم يجز أن يُسمى الفعل المقابل لفعالهم شكراً»^(٤). اهـ.

وقال البيهقي: «هو الذي يشكر اليسير من الطاعة، ويعطي عليه الكثير من المثوبة.

(١) أخرجه ابن جرير (٨٧/٢٢، ٩٢) بإسناد حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٨/٢٥) بالإسناد السابق.

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٦٥، ٦٦). (٤) «اشتقاق الأسماء» (ص ٨٧).

وشكره: قد يكون بمعنى ثنائه على عبده، فيرجع معناه إلى صفة الكلام، التي هي صفة قائمة بذاته»^(١). اهـ.

فألرب ﷻ إذا أثنى على عبده فقد شكره.

وفي «المقصد»: «الرب تعالى إذا أثنى على أعمال عباده فقد أثنى على فعل نفسه؛ لأن أعمالهم من خلقه، فإن كان الذي أعطي فائزاً (شكور)، فالذي أعطى، وأثنى على المعطي فهو أحق بأن يكون شكوراً.

فثناء الله تعالى على عباده؛ كقوله: ﴿وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وكقوله: ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠، ٤٤] وما يجري مجراه، وكل ذلك عطية منه»^(٢). اهـ. وقال ابن القيم في «النونية»:

وهو الشكور فلن يُضَيِّعَ سعيهم لكن يضاعفه بلا حساب
ما للعباد عليه حق واجب هو أوجب الأجر العظيم الشأن
كلا ولا عمل لديه ضائع إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعده أو نعموا فبفضله والحمد للمنان^(٣)

قال السعدي: «(الشاكر، الشكور): الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل، ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة تقرب الله منه أكثر»^(٤).

* آثار الإيمان بهذين الاسمين:

١ - إن الله سبحانه هو (الشكور) و(الشاكر) على الإطلاق، الذي يقبل القليل من العمل ويعطي الكثير من الثواب مقابل هذا العمل القليل.

ولذلك نهينا أن نستصغر شيئاً من أعمال البر، ولو كان شيئاً يسيراً، فقد قال ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً، وَلَوْ أَنَّ تَلَقَّى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ»^(٥).

وحث على عمل الصالحات، صغيرها وكبيرها، فإن الله لا يضيع شيئاً، فقال ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمر، فإن لم يجد فبكلمة طيبة»^(٦).

(١) «الاعتقاد» (ص ٥٩).

(٢) «المقصد الأسنى» (ص ٦٥). وانظر: «شرح الأسماء» للرازي (ص ٢٥٥).

(٣) «النونية» بشرح أحمد بن إبراهيم (٢/ ٢٣٠).

(٤) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠٤). (٥) رواه مسلم (٤/ ٢٦٢٦).

(٦) رواه البخاري (٣/ ٢٨١، ٢٨٣، ٦/ ٦١١) وغيرها، ومسلم (٢/ ٧٠٣) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

وحث الناس على الصدقة - عند قدوم قوم من مضر أصابتهم الفاقة والفقر - فقال: «تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دَرَاهِمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ»، حتى قال: «ولو بشق تمره»^(١).

وبين تعالى أنه يضاعف الأعمال الصالحة أضعافاً كثيرة بقدر ما يشاء، وذلك فضله يؤتيه من يشاء. قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَمْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

وقال: ﴿وَمَنْ يَفْرَفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣].

وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١١]، وغيرها من الآيات الكثيرة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدَّق بعِذْل تمرٍ من كسبٍ طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يُرَبِّيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلأواه، حتى تكون مثل الجبل»^(٢)، أي: يربيها له كما يربي أحدكم مهره.

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجلٌ بناقٍ مخطومةٍ فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ»^(٣).

ومن عظيم شكره سبحانه لعباده وفضله وكرمه عليهم، أنه يضاعف لهم الحسنات فقط، أما السيئات فإنها تكتب كما هي ولا تتضاعف، قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالْسَيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠١].

وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٤٠].

٢ - ومما يجب معرفته أن ما يُقدمه المسلم في تقربه إلى الله سبحانه، من صلاة وصيام وحج وصدقة وجهاد، وغيرها من أعمال البر المحدودة بالأعمار القصيرة، والتي يتخللها التقصير والسهو والنسيان، لا يمكن بحال أن تكون ثمنًا للجنة

(١) رواه مسلم (١٠١٧/٢) عن جرير بن عبد الله البجلي.

(٢) رواه البخاري (٢٧٨/٣)، ومسلم (٤١٥/١٣)، ومسلم (٧٠٢/٢) واللفظ للبخاري.

(٣) رواه مسلم (١٥٠٥/٣)، و«الخطام»: هو الجبل الذي تقاد به الناقة.

السرمدية، بما فيها من مباهج وزخارف ولذات، أو أن تنقذه من جحيم النار ولهيبها. فعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «سَدُّوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدْخِلَ الجنةَ أحداً عَمَلُهُ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة...»^(١).

وفي رواية: «لا يُدْخِلُ أحداً منكم عملُهُ الجنةَ، ولا يُجِيرُهُ من النار، ولا أنا إلا برحمةٍ من الله»^(٢).

فدخول العبد الجنة وفوزه بها، ونجاته من النار إنما هو بفضل الله ورحمته.

٣ - إن الله سبحانه شكره واجب على كل مكلف، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال: ﴿فَكُلُوا مِنَّمَا رَزَقْنَاكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

وقال: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمَّا﴾ [سبا: ١٥].

قال القرطبي: «إن للشكر ثلاثة أركان:

١ - الإقرار بالنعمة للمنع.

٢ - والاستعانة بها على طاعته.

٣ - وشكر من أجرى النعمة على يده تسخييراً منه إليه.

وهذا الركن الثالث، لم أره لأحد ممن تكلم على الشكر - فيما أعلم والله أعلم - فله الحمد على ما ألهم وفهم وعلم^(٣). اهـ.

وزاد عليها المحقق ابن القيم فقال: «والشكر مبني على خمس قواعد:

خضوع الشاكر للمشكور، وحب له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس هي أساس الشكر، وبناءؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة.

وكل من تكلم في الشكر وحده، فكلامه إليها يرجع، وعليها يدور^(٤).

(١) رواه البخاري (٢٩٤/١١)، ومسلم (٢١٧١/٤) عن عائشة.

(٢) رواه مسلم (٢١٧١/٤) عن جابر رضي الله عنه. (٣) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٤٣).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/٢٤٤).

قلت: أما الإقرار بها ومعرفتها وذكرها على الدوام والتحدث بها، فقد أمر الله تعالى به عباده في غير ما آية:

فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال: ﴿يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٧) [البقرة: ٤٧، ١٢٢].

وقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر: ٣].

وقال: ﴿وَأَمَّا نِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١١) [الضحى: ١١].

وفي «المدارج»: قال صاحب المنازل: الشكر اسم لمعرفة النعمة؛ لأنها السبيل إلى معرفة المنعم، ولهذا سمى الله تعالى الإسلام والإيمان في القرآن: شكراً. قال ابن القيم: «معرفة النعمة ركن من أركان الشكر، لا أنها جملة الشكر، كما تقدم. لكن لما كان معرفتها ركن الشكر الأعظم، الذي يستحيل وجود الشكر بدونه، فجعل أحدهما اسماً للآخر^(١)».

وقد جاء في الحديث ما يبين عظمة تذكر النعمة والاعتراف بها، وهو قوله ﷺ: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَصْبَحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٢).

قال الطيبي: «اعترف أولاً بأنه أنعم عليه، ولم يقيده لأنه شمل أنواع الإنعام، ثم اعترف بالتقصير وأنه لم يقم بأداء شكرها، ثم بالغ فعده ذنباً في التقصير وهضم النفس»^(٣). اهـ.

(١) «مدارج السالكين» (٣٤٧/٢).

(٢) رواه البخاري (٩٧/١١، ٩٨، ١٣٠) عن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي قوله: «ما استطعت»: إعلامٌ لأتمته أن أحداً لا يقدر على الإتيان بجميع ما يجب عليه الله، ولا الوفاء بكمال الطاعات، والشكر على النعم، فرفق الله بعباده فلم يكلفهم من ذلك إلا وسعهم. «الفتح» (١١/١٠٠).

(٣) «الفتح» (١١/١٠٠)، وقال الحافظ: ويحتمل أن يكون قوله: «أبوء لك بذنبي» اعترافاً بوقوع الذنب مطلقاً ليصح الاستغفار منه، لا أنه عدّ ما قصّر فيه من أداء شكر النعم ذنباً.

ويكرر ﷺ الاعتراف بالنعمة في أدبار الصلوات في قوله: «... له النعمة والفضل وله الثناء والحسن..»^(١).

وقد حثَّ ﷺ على التحدُّث بنعم الله تعالى فقال: «من أبلى بلاءً فذكره فقد شكره وإن كتمه فقد كفره»^(٢).

قال ابن القيم: «الثناء على المنعم المتعلق بالنعمة نوعان: عام وخاص، فالعام: وصفه بالجدود والكرم، والبر والإحسان وسعة العطاء، ونحو ذلك.

والخاص: التحدث بنعمته والإخبار بوصولها إليه من جهته، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وفي هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها، وقوله: أنعم الله عليّ بكذا وكذا.

والتحدث بنعمة الله شكر، كما في حديث جابر مرفوعاً: «من صنَّع إليه معروفٌ فليجزِ به، فإن لم يجدْ ما يجزي به فليُثِّنْ، فإنه إذا أثْنَى فقد شكَّره، وإن كَتَمَهُ فقد

(١) رواه أحمد (٥/٤)، ومسلم (٤١٥/١)، من حديث ابن الزبير وأوله: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد..».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨١٤/٥)، وأبو نعيم في «أخبار أصفهان» (٢٥٩/١) عن جرير عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ﷺ به ورجاله رجال الشيخين، إلا أن أبا سفيان لم يسمع من جابر إلا أربعة أحاديث، قاله ابن المديني، كما في التهذيب. ورواه أبو نعيم في الحلية (١٤٧/٦) عن صدقه بن عبد الله، عن الأوزاعي عن أبي الزبير، عن جابر أن النبي ﷺ قال: «من أبلى خيراً فلم يجدْ إلا الثناء فقد شكَّره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بباطل فهو كلابس ثوبي زور»، ثم قال: «كذا رواه صدقة عن الأوزاعي عن أبي الزبير واسمه محمد بن مسلم بن تدرس وتفرد به، والحديث مشهور بأيوب بن سويد عن الأوزاعي عن محمد بن المنكدر عن جابر». اهـ.

قلت: صدقة ضعفه أحمد والبخاري وأبو زرعة والنسائي، كما في «التهذيب» (٤١٦/٤).

والرواية التي ذكر أنها مشهورة، أخرجها ابن عدي في «الكامل» (٣٥٦/١) قال: أخبرنا محمد بن الحسين بن حفص الأشناني، حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، ثنا أيوب بن سويد ذكره، وسنده حسن، ومحمد بن الحسين - وقع في المطبوعة: ابن الحسن - ثقة له ترجمة في «تاريخ بغداد» (٢٣٤/٢، ٢٣٥)، و«السير» (٥٢٩/٤) وله شاهد أخرجه البزار (١٩٤٣) - زوائد عن صالح بن أبي الأخضر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «من أثنأ معروف فذكره فقد شكَّره، ومن تحلى بما لم ينل، فهو كلابس ثوبي زور».

قال الهيثمي في «المجمع» (١٤٩/٤): «رواه البزار وفيه صالح بن أبي الأخضر وهو ضعيف، وقد رواه من هذا الوجه الخرائطي في فضيلة الشكر (٨٣) مع اختلاف في اللفظ».

كفره، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَ كَانَ كَلَابِسَ ثَوْبِي زُورٍ»^(١).

فذكر أقسام الخلق الثلاثة:

- أ - شاكر النعمة المثني بها.
- ب - والجاحد لها والكاتم لها.
- ج - والمظهر أنه من أهلها، وليس من أهلها، فهو متحلٍّ بما لم يعطه.

(١) حسن: رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢١٥) عن يحيى بن أيوب عن عمارة بن غزية عن شرحبيل مولى الأنصار عن جابر مرفوعاً به. ورواه مسدد - كما في «المطالب العالية» (٢/٤٠٤) -، وعن أبو داود (٤٨١٣/٥) ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده - كما في «إتحاف السادة المهرة» - للبوصيري (٢/٤٢٢ب) عن بشر: ثنا عمارة بن غزية، حدثني رجل من قومي، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزْ بِهِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُتِنْ بِهِ، فَمَنْ أَتَى بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَ كَانَ كَلَابِسَ ثَوْبِي زُورٍ» وحرَّكَ بشر السبابة والوسطى. وليس عند أبي داود: «وَمَنْ تَحَلَّى..» إلى آخره.

قال البوصيري: رواه مسدد والحارث بسند ضعيف لجهالة بعض رواته، ورواه الترمذي وحسنه، دون قوله: «وحرَّكَ بشر..» إلى آخره. اهـ.

قال أبو داود: «رواه يحيى بن أيوب عن عمارة بن غزية عن شرحبيل عن جابر، قال: وهو شرحبيل - يعني رجلاً من قومي - كأنهم كرهوه لم يُسموه». اهـ.

قلت: قد جاء مصرحاً به في رواية البخاري السابقة، وهو شرحبيل بن سعد الخطمي المدني مولى الأنصار، ضعفه النسائي والدارقطني، وذكره ابن حبان في «الثقات» وخرجه له في صحيحه وكذا شيخه ابن خزيمة، وقد اختلط في آخره. انظر: «التهذيب» (٣٢١/٤). وقال الحافظ: صدوق اختلط بأخرة.

وقد رواه الترمذي (٢٠٣٤/٤) عن إسماعيل بن عياش عن عمارة بن غزية عن أبي الزبير عن جابر مرفوعاً به. وقال: «حسن غريب، وفي الباب عن أسماء بنت أبي بكر وعائشة، ومعنى قوله: «وَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ كَفَرَ» يقول: قد كفر تلك النعمة». اهـ.

قلت: في إسناده إسماعيل بن عياش، وفي روايته عن الحجازيين ضعف وهذه منها، فإن عمارة بن غزية أنصاري مدني، وقد خالف يحيى بن أيوب: وهو الغافقي أبو العباس المصري صدوق ربما أخطأ، وبشر بن المفضل وهو ثقة عابد. والحديث يتحسن بما قبله، والله أعلم.

والجملة الأخيرة: «وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَ»، يشهد لها ما في البخاري (٣١٧/٩)، ومسلم (١٦٨١/٣) عن أسماء: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: إن لي ضرّة، فهل عليّ جناح أن أتشبع من مال زوجي بما لم يعطني؟ فقال رسول الله ﷺ: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسَ ثَوْبِي زُورٍ». وأخرجه مسلم (١٦٨١/٣) عن عائشة بمثله. وقد أشار إليهما الترمذي بقوله آنفاً: وفي الباب عن أسماء وعائشة.

وفي أثر آخر مرفوع: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهُ كُفْرٌ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ»^(١).

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة.

قال مجاهد: هي النبوة، قال الزجاج: أي بلغ ما أرسلت به وحدّث بالنبوة التي آتاك الله^(٢). اهـ.

فإظهار النعمة والتحدث بها من صفات المؤمنين الشاكرين، وأما أن يكتتم المرء النعمة، ويظهر أنه فاقدها إما بلسان الحال أو المقال، فهو كفر لها، وهو من صفات الكافرين الجاحدين.

وإنما سُمي الكافر كافراً؛ لأنه يُعْطِي نعمة الله التي أسبغها عليه ويجحدها ولا يُقرُّ بها^(٣).

وقد وصفهم الله بذلك في كتابه فقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

وقال: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١].

وقال: ﴿أَفَأَبْطِلُ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتُ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

بل ربما نسبوا نعم الله تعالى التي أعطاهم^(٤) إلى أنفسهم وعلمهم وخبرتهم، قال

(١) أخرجه أحمد (٢٧٨/٤، ٣٧٥)، وابن أبي الدنيا في الشكر (٦٤)، والخرائطي في «فضيلة الشكر» (٨٢)، ولم يذكر: «والجماعة رحمة..» كلهم عن أبي وكيع الرؤاسي عن أبي عبد الرحمن الشامي عن الشعبي عن النعمان بن بشر مرفوعاً به. وسنده حسن.

تنبيه: قال محقق فضيلة الشكر للخرائطي: في الأصلين: أبو وكيع، وهو سهو والتصحيح من كتاب الشكر لابن أبي الدنيا، وهو أبو سفيان وكيع بن الجراح! كذا قال! ولا أدري على أي شيء استند لقوله هذا، إذ هو في كل المصادر السابقة: حدثنا أبو وكيع، وهو الجراح بن ملبج؛ الرؤاسي، صدوق بهم.

وكذا إثباته زيادة: «.. والجماعة رحمة والفرقة عذاب»، وليست عند الخرائطي كما في مخطوطة الظاهرية ورقة (١٤أ).

(٢) «مدارج السالكين» (٢٤٨/٢) باختصار يسير.

(٣) انظر: «الصحاح» (٨٠٧/٢)، «اللسان» (٣٨٩٧/٥، ٣٨٩٨).

(٤) قال العلامة نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري في «تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان» المطبوع بهامش «تفسير ابن جرير» (١٠١/١): «هل الله تعالى على الكافر نعمة أم لا؟ أنكر ذلك بعض أصحابنا لوجوه: منها قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] =

تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الزمر: ٤٩ - ٥١].

ومعنى ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ أي: بوجوه المكاسب والتجارات، ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: هذه النعم التي أوتيتها فتنة تختبر بها ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون أن إعطائهم المال اختبار ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ يعني: الكفار قبلهم: كقارون وغيره، حيث قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصاص: ٧٨] ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: لم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً. ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزمر: ٥٢].

أي: ألم يعلموا أن مصدر نعمتهم التي هم فيها هو الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. وأنه تعالى يبسطها على من يشاء ويحبسها عن من يشاء، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يتفجع بهذا ويتدبره إلا أهل الإيمان والعلم.

= فإنه لو كان له على الكفار نعمة لزم طلب صراط الكفار؛ لأن المبدل منه هو الصراط المستقيم في حكم المنحى. والجواب: أن قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يدفع ذلك.

ومنها: قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطْلِي لَهُمْ حَرًّا لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، والجواب: أنه لا يلزم من أن لا يكون الإماء خيراً أو نعمة لهم، أن أصل الحياة وسائر أسباب الانتفاع نعمة، فإن الإماء تأخير النعمة بعد ثبوت استحقاقها، فما قبل هذه الحالة لا يكون كذلك، على أن نفس الإماء تمتنع حالي: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وليس هذا كمن جعل السم في الحلواء على ما ظن، وإنما هو كمن ناول شخصاً حلواءاً لذيذة غير مسمومة، ولكن ذلك الشخص لفساد مزاجه، أو لاستعماله الحلواء لا كما ينبغي أفسد مزاج الحلواء أيضاً وصيره كالسم القاتل بالنسبة إليه، ولهذا قال ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

وكيف لا تعم نعم الله تعالى وقد قال على العموم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، وقال: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، كل ذلك في معرض الامتنان وشرح النعم، قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبا: ١٣]، ﴿وَلَا تَحْدُ أَكْثَرُهُمْ شُكْرًا﴾ [الأعراف: ١٧]، والشكر لا يكون إلا بعد النعمة. اهـ.

ب - وأما الاستعانة بها - أي: النعم - على طاعة الله، فهو ما يقتضيه الشرع والعقل، فإن من أحسن إليك بشيء لا يجوز أن تقابله بالإساءة إليه، ومن فعل ذلك فهو في نظر الناس وقحٌ نذلٌ ناكِرٌ للجميل، وجاحدٌ له. فكيف إذا استعان بإحسانه على الإساءة إليه، فهو أشد وقاحةً وجحوداً للجميل.

والنعم التي في الدنيا إنما خلقت أصلاً ليستعين بها أهل الإيمان على طاعة الرحمن، وأما أهل الكفر والفجور فإنها محرمةٌ عليهم؛ لأنهم يستعينون بها على معصية الله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فقوله تعالى: ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾، وقوله: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ يعني: أنها خلقت لهم، لا لغيرهم؛ لأنهم يستعينون بها على طاعته. ويقول القرطبي: «واعلم أن على كل جارحة شكراً يخصها، وعلى اللسان من ذلك مثل ما على سائر الجوارح، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الأعضاء تقول للسان: اتق الله فإنما نحن بك، فإن استقمتم استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»^(١).

وشكر كل جارحة إنما هو باستعمالها بتقوى الله العظيم، في امثال ما يخصها من الطاعات، واجتناب ما يخصها من العصيان، فشكر البدن أن لا تستعمل جوارحه في غير طاعته.

وشكر القلب أن لا تشغله بغير ذكره ومعرفته.

وشكر اللسان أن لا تستعمله في غير ثنائه ومدحه.

(١) أخرجه أحمد (٩٥/٣، ٩٦)، والترمذي (٢٤٠٧/٤)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٠٩/٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٣١٦/١٤) عن حماد بن زيد، عن أبي الصهباء، عن سعيد بن جبير، عن أبي سعيد الخدري رفعه قال: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمتم استقمنا وإن اعوججت اعوججنا». قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد، وقد رواه غير واحد عن حماد بن زيد ولم يرفعه». اهـ.

قلت: قد رواه ثقات عن حماد ورفعه، مثل: مسدد، وعارم، وعفان، وغيرهم. لكن فيه أبو الصهباء الكوفي لم يؤثقه إلا ابن حبان، وقال الحافظ: مقبول؛ أي: حيث يتابع وإلا فليّن الحديث.

فالحديث ضعيف بهذه الطرق.

وعزاه السيوطي في الجامع إلى ابن خزيمة، والبيهقي في «الشعب».

وشكر المال أن لا تنفقه في غير رضاه ومحبه.

ووراء ذلك تطوعات الشاكر والشكور، قام رسول الله ﷺ من الليل حتى تورمت قدماه، فقيل له: تفعل هذا وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١)؛ أي: طالباً للمزيد؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]»^(٢). اهـ.

وقد أحسن القائل:

أَنَّا لَكَ رِزْقُهُ لَتَقُومَ فِيهِ بِطَاعَتِهِ وَتَشْكُرَ بَعْضُ حَقِّهِ
فَلَمْ تَشْكُرْ لِنِعْمَتِهِ وَلَكِنْ قَوَّيْتَ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ بِرِزْقِهِ

ج - أما شكر من أجرى الله سبحانه النعمة على يده، فقد أمر الله سبحانه به في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، فأمر بشكره ثم بشكر الوالدين إذ كانا سبب وجوده في الدنيا، وسهراً وتعباً في تربيته وتغذيته، فمن عقهما أو أساء إليهما فما شكرهما على صنيعهما، بل جحد أفضالهما عليه، ومن لم يشكرهما فإنه لم يشكر الله الذي أجرى تلك النعم على أيديهما، وقد قال ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»^(٣).

قال الخطابي: «هذا الكلام يُتأول على وجهين:

أحدهما: أن من كان طبعه وعادته كفران نعمة الناس، وترك الشكر لمعروفهم، كان من عادته كفران نعمة الله وترك الشكر له سبحانه.

(١) رواه البخاري (١١٣٠/٣)، ٤٨٣٦/٨، ١١/٦٤٧١، ومسلم (٢٨١٩/٤) عن المغيرة بن شعبة، ورواه مسلم (٢٨٢٠/٤) عن عائشة.

(٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٤٢، ٢٤٣).

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٢٤٩١)، وأحمد (٢٥٨/٢)، ٢٩٥، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٨٨، ٤٦١، ٤٩٢)، والبخاري في «الأدب» (٢١٨)، وأبو داود (٤٨١١/٥)، والترمذي (١٩٥٤/٤)، والخرائطي في فضيلة الشكر (٨٠)، وابن حبان في صحيحه (٢٠٧٠ - موارد) عن الربيع بن مسلم عن محمد بن زياد: وهو القرشي عن أبي هريرة مرفوعاً به.

قال الترمذي: حديث حسن صحيح، قلت: هو على شرط مسلم، ورواه الخرائطي (٨٠): حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي، حدثنا علي بن القاسم، حدثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردي، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، مرفوعاً به، وسنده حسن، على ابن القاسم الظاهر أنه عبد الأعلى بن القاسم الهمداني تحرف اسمه، وهو صدوق كما في «التهذيب» (٩٧/٦)، وأخرجه أيضاً (٧٨) عن ابن أبي ليلى عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري، وسنده ضعيف لضعف عطية.

والوجه الآخر: أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه، إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس، ويكفر معروفهم، لاتصال أحد الأمرين بالآخر^(١). اهـ.

٤ - وقد أكثر الله سبحانه من تعداد نعمه على عباده، فلم يترك لجاحد مجالاً أن ينكر نعم الله عليه، بل لو أراد أن يحصي الإنسان ما في جسده من نعم الله وأفضاله لعجز، فكيف لو أراد أن يحصي نعم الله سبحانه على الناس في حياتهم على هذه الأرض؟!.

قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ^(٢) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

وفي «مختصر منهاج القاصدين»: من جملة نعم الله عليك أن خلق لك آلة الإحساس، وآلة الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في الحواس الخمس، التي هي آلة للإدراك.

فأولها: حاسة اللمس، وهو أول حس يخلق للحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه، فإن الإحساس بما يبعد منه أتم لا محالة، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بُعد عنك، فخلق لك الشم تدرك به الرائحة من بُعد، ولكن لا تدري من أي ناحية جاءت الرائحة، فتحتاج أن تطوف كثيراً حتى تعثر على الذي شممت رائحته، وربما لم تعثر، فخلق لك البصر لتدرك به ما بُعد عنك، وتدرك جهته فتقصدها بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب، فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات، ولا يكفي ذلك، لو لم يكن لك حس الذوق، إذ به تعلم ما يوافقك وما يضررك، بخلاف الشجرة، فإنه يصب في أصلها كل مائع، ولا ذوق لها فتجذبه، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم أكرمك الله تعالى بصفة أخرى، هي أشرف من الكل، وهو العقل، فبه تدرك الأطعمة ومنفعتها، وما يضر في المآل، وبه تدرك طبع الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع به في الأكل الذي هو سبب صحتك، وهو أدنى فوائد العقل، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة، فهي بعض الإدراكات ولا تظن أننا استوفينا شيئاً من ذلك فإن البصر واحد من الحواس، والعين آلة له، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة: بعضها رطوبات، وبعضها أغشية مختلفة، لكل واحدة من

(١) «معالم السنن» (٤/١١٣).

الطبقات العشر صفة، وصورة، وشكل، وهيئة، وتدبير، وتركيب، لو اختلف طبقة واحدة منها أو صفة واحدة، لاختل البصر، وعجز عنه الأطباء كلهم، فهذا في حس واحد، وقس حاسة السمع وسائر الحواس، ولا يمكن أن يستوفي ذلك في مجلدات، فكيف ظنك بجميع البدن؟!^(١).

وذكر الله الناس بنعمة من نعمه العظيمة على الأرض، وهي: نعمة الليل والنهار فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

وقال سبحانه مُذَكِّرًا لعباده أنه سَخَّرَ لَهُمُ الْبَحَارَ وَالْأَنْهَارَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وقال سبحانه مُذَكِّرًا لأصحاب نبيه ﷺ بنعمته العظيمة عليهم: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَّكُمُ وَيَأْخُذْكُمْ بِصُرُوفِهِمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

ولو أردنا أن نُعَدِّدَ نِعَمَ اللَّهِ لَطَالِ الْمَقَامِ بِنَا: ﴿وَإِنْ نَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]^(٢).

٥ - وعن بيان حقيقة النعم وأقسامها يقول في «مختصر منهاج القاصدين»: اعلم أن كل مطلوب يسمى نعمة، ولكن النعمة في الحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما عداها نعمة تجوُّز.

والأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم أربعة أقسام:
أحدها: ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً؛ كالعلم، وحسن الخلق، وهو النعمة الحقيقية.

الثاني: ما هو ضارٌّ فيهما جميعاً، وهو البلاء حقيقة.
القسم الثالث: ما ينفع في الحال، ويضر في المال؛ كالتلذذ، واتباع الشهوات، فهو بلاء عند ذوي الأبصار، والجاهل يظنه نعمة.

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٣٠٢، ٣٠٣). وانظر الكلام على باقي الأعضاء وحكمها (ص ٣٠٣ - ٣٠٥).

(٢) من أراد أن يتوسع في هذا المجال فليقرأ سورة الأنعام وإبراهيم والنحل والرحمن وغيرها، ويتبين ويتدبر ما ذكر فيها من نِعَمٍ عظيمة جليلة ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

ومثاله: الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم، فإنه يعدّه نعمة إن كان جاهلاً، فإذا علم ذلك عدّه بلاءً.

القسم الرابع: الضارُّ في الحال، النافع في المال، وهو نعمة عند ذوي الألباب، بلاء عند الجاهل.

ومثاله: الدواء الشنيع مذاقه في الحال، الشافي في المال من الأسقام، فالصبي الجاهل، إذا كلف شربه ظنه بلاء، والعاقل يعدّه نعمة، وكذلك إذا احتاج الصبي إلى الحجامة، فإن الأب يدعوها إليها ويأمره بها، لما يلحظ في عاقبتها من الشفاء، والأم تمنعه من ذلك لفرط حبها وشفقتها، لكونها جاهلة بالمصلحة في ذلك، فالصبي يقلد أمه بجهله، ويأنس إليها دون أبيه، ويقدر أباه عدواً، ولو عقل لعلم أن الأم هي العدو الباطن في صورة صديق؛ لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض ألمها أشد من ألم الحجامة، فالصديق الجاهل شر من العدو العاقل، وكل إنسان صديق نفسه، ولكن النفس صديق جاهل، فلذلك تعمل به ما لا يعمل العدو.

٦ - الفرق بين إنعام الخالق وإنعام الخلق:

أ - إن الله ﷻ يعطي الخلق ويتفضل عليهم مع استغنائه عنهم، والمخلوق لا يعطي غالباً إلا لمقصدٍ أو غرض.

ب - إنك ربما احتجت إلى شيء من المخلوق ولا يعطيكه، لكونه محتاجاً إليه، والله سبحانه غني عن كل شيء، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

ج - إنك ربما احتجت إلى شيء من المخلوق إلا أنه لا يمكنك الوصول إليه فتبقى محروماً عن عطيته.

والله سبحانه تصل إليه بدعائك ومناجاتك في كل وقت وحين: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦) [البقرة: ١٨٦].

د - إنك إذا قصّرت في خدمة المخلوق قطع عنك إنعامه، والكافر يقصر بأعظم حقوق الله ويظل إنعامه سبحانه عليه، كما قال ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ مِنْ اللَّهِ، يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»^(١).

٧ - وقد بين تعالى أن أكثر الناس عن شكر هذه النعم والأفضال غافلون أو متغافلون، وهم في نعم الله غارقون.

(١) رواه البخاري (٦٠٩٩/١٠، ٧٣٧٨/١٣)، ومسلم (٢٨٠٤/٤) عن أبي موسى الأشعري.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

[غافر: ٦١].

وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبا: ١٣]، وهذه الآيات تقابل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]. لأن أعظم الشكر لله سبحانه هو توحيده وعبادته وحده لا شريك له؛ لأنه هو الذي خلق وأوجد من العدم ورزق الإنسان الأرزاق الكثيرة، ولم يشاركه في ذلك أحد، فلا يستحق أحد العبادة معه، ولكن أكثر الناس، كما قال تعالى، أعرضوا عن هذه الحقيقة، وجعلوا له أنداداً، ونسبوا لها الضر والنفع، والتصرف في الأرزاق، ودفع الأمراض، وقضاء الحاجات، وتفريج الكربات.

فمن الشرك الذي يقع من العباد نسبتهم ما يحصل لهم من الأرزاق إلى المخلوقين، قال البخاري في «صحيحه»: باب قول الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] قال ابن عباس: شكركم^(١).

ثم روى حديث زيد بن خالد الجهني أنه قال: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحَدِيثِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بَنُو كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ»^(٢). اهـ.

وفي رواية لمسلم: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين، ينزل الله الغيث فيقولون: الكوكب كذا وكذا»^(٣).

قال ابن قتيبة: «كانوا في الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء»^(٤)، إما بصنعه على زعمهم وإما بعلامته، فأبطل الشرع قولهم وجعله كفراً، فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعة في ذلك فكفره كفر تشريك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة فليس بشرك لكن يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة؛ لأنه لم يقع في شيء

(١) قال الحافظ: «يحتمل أن يكون مراده أن ابن عباس قرأها كذلك، ويشهد له ما رواه سعيد بن منصور عن هشيم عن ابن بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون» وهذا إسناد صحيح. اهـ. «الفتح» (٢/ ٥٢٢).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (٢/ ١٠٣٨)، ومسلم (١/ ٧١، ٧٢).

(٣) مسلم (١/ ٨٤).

(٤) النوء: هو النجم الذي ينسب إليه المطر.

من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر فيه على المعنيين لتناول الأمرين، والله أعلم^(١). اهـ.

ومن هذا قول الناس: لولا الطبيب لمات ابني، لولا البط أو الكلب لسرق اللصوص الدار، وما شابه ذلك من نسبة الفضل والنعمة لغير الله تعالى.

٨ - ويجب أن يعلم أن الله تعالى لا يزداد ملكه شيئاً بشكر الناس له ونسبتهم الفضل إليه، كما أنه لا يتضرر بكفرهم: لأنه الغني الحميد، ولكنه تبارك وتعالى يحب أن يُحمد ويُشكر ويرضى عن العبد بذلك، ويكره أن يكفر به وبنعمته ويسخط على العبد بذلك، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

بل المستفيد والمتفع بالشكر هو الإنسان نفسه، كما أنه هو المتضرر بالكفر، قال تعالى عن سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وقال عن لقمان العبد الصالح: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

٩ - والكفر بنعم الله تعالى مؤذنٌ بزوالها عمن كفر بها، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣].

وهذه القرية هي مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، والناس حولها يتخطفون، يغير بعضهم على بعض، ويقتل وينهب بعضهم بعضاً، أما مكة من دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطُ مِنْ أَضْنًا أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِئُوهُ إِلَيْهِ وَنُفِرَ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْخِطُفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالِغِ الظُّلُمَاتِ يَوْمُنَ وَنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وكان من تمام النعمة عليهم إرسال محمد ﷺ إليهم، فكفروا به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسَكُوا الْقَرَارَ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

(١) «الفتح» (٥٢٤/٢) نقلاً عن كتابه «الأنواء».

ولهذا بدّل الله حالهم فقال: ﴿فَآذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢؛ أي: ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لعصيانهم رسولهم ﷺ، فدعا عليهم ﷺ بالقحط فعن عبد الله بن مسعود قال: إن النبي ﷺ لما رأى من الناس إدباراً قال: «اللهم سَبِّحْ كَسْبِعَ يَوْسُفَ»، فأخذتهم سنةٌ حصّت كل شيء، حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان من الجوع فأناه أبو سفيان فقال: يا محمد، إنك تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم، قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٠) إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ (١٦) [الدخان: ١٠ - ١٦]، فالبطشة الكبرى يوم بدر، وقد مضت الدخان والبطشة واللزام وآية الروم^(١).

وأما الخوف فهو من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة فكانوا يخافون من سطوته وسراياه وجيوشه، وذهب أمنهم السابق، وبقوا كذلك إلى أن فتح الله تعالى على نبيه ﷺ مكة.

وكل ذلك بسبب كفرهم بنعمة الله وبطهرهم وأشهرهم ومعاداتهم لرسوله ﷺ ورفضهم لشريعته ودينه وإصرارهم على كفرهم ومعاصيهم، وللكافرين أمثالها. وقد قصّ الله سبحانه علينا قصة «سبأ» وأنهم كانوا في نعم كثيرة، وأموال ممدودة، وفواكه منتشرة، وأسفار بلا أخطار، ثم إنهم غيروا ما بأنفسهم فغيّر الله سبحانه أحوالهم، فأرسل الله عليهم سيلاً عارماً، جرف أشجارهم وحدائقهم وأموالهم، وبُدّلوا بعد ذلك بأشجار مُرّة أو ذات شوك، وأشجار لا ثمار لها، وكان خير الأشجار التي أعطوها شجر السدر وثمره يسير: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ جُزِيَ إِلَّا الْكُفُورُ﴾ (سبأ: ١٧). ﴿وَوَلَّوْا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ: ١٩)^(٢).

وقد كان النبي ﷺ يستعيز من زوال النعمة في دعائه، كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ»^(٣).

(١) رواه البخاري في عدة مواضع منها (١٠٧/٢، ١٠٢٠).

(٢) ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فانظر فيما حولك من الدول ترى ذلك واضحاً جلياً.

(٣) رواه مسلم (٢٠٩٧/٤)، وفجأة بفتح الفاء وإسكان الجيم مقصورة على وزن ضربة، والفجأة بضم الفاء وفتح الجيم والمد، لغتان، هي: البغته.

١٠ - قال الحلبي: «(الشاكِر): ومعناه: المادح لمن يطيعه والمثني عليه، والمثيب له بطاعته فضلاً عن نعمته»^(١). اهـ.

فالله ﷻ يمدح من أطاعه وسار على شريعته، والكتاب الكريم مملوء بمدح الأنبياء والشهداء والصالحين فمدح نبيه ﷺ بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقال: ﴿وَلَنَافَعُ لَّكَ خُلُقٌ عَظِيمٌ﴾ [القلم: ٤].

ومدحه وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين في قوله: ﴿تُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُّجْتَمِعِينَ فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومدح نوحاً بأنه كان عبداً شكوراً، وإبراهيم الخليل بأنه أواه منيب وأنه الذي وقي، وموسى الكليم بأنه كان مخلصاً، وإسماعيل بأنه كان صادق الوعد صلوات الله عليهم أجمعين، وغير هذا مما أثنى به على عبادته في كتابه كثير.

١١ - ولابن القيم رحمه الله كلام جامع فيما سبق من المسائل، نذكره إتماماً للفائدة. قال رحمه الله: «وأما شكر الرب تعالى، فله شأن آخر كشأن صبره، فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور على الحقيقة، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر للقليل من العمل والعطاء، فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة.

ويشكر عبده بقوله بأن يشني عليه بين ملائكته وفي ملائكة الأعلى، ويلقي له الشكر بين عبادته.

ويشكره بفعله، فإذا ترك له شيئاً أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئاً ردّه عليه أضعافاً مضاعفة، وهو الذي وفقه للترك والبذل، وشكره على هذا وذاك. ولما عقر نبيه سليمان الخيل غضباً له^(٢)، إذ شغلته عن ذكره فأراد ألا تشغله مرة أخرى، أعاضه منها متن الريح^(٣).

(١) «المنهاج» (٢٠٥/١)، قال القرطبي في «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٤٣): «فعلى قول الحلبي يرجع مدلول هذا الاسم إلى ثنائه على المطيعين فيكون من صفات الذات؛ لأنه يرجع إلى الكلام، واختاره ابن العربي». اهـ.

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ الصَّفِينَةُ الْغَيَّادُ﴾ (٣١) فَقَالَ إِنَّهُ أَجَبْتُ حَبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) [ص: ٣١ - ٣٣].

(٣) في الأصل: «الريح» وهو خطأ؛ لأنه يقصد الريح التي سخرت له، قال تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦) [ص: ٣٦].

ولما ترك الصحابة ديارهم، وخرجوا منها في مرضاته، أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم.

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن، شكر له ذلك بأن مكّن له في الأرض يتبوا منها حيث يشاء.

ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى خرقها أعداؤه، شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيراً خضراً أقرّ أرواحهم فيها، ترد أنهار الجنة، وتأكّل من ثمارها إلى يوم البعث، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاء.

ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم، فنالوا منهم وسبوهم، أعاضهم من ذلك بأن صلّى عليهم هو وملائكته، وجعل لهم أطيب الثناء في سمواته وبين خلقه، فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار.

ومن شكره سبحانه: أنه يجازي عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، ويخفف به عنه يوم القيامة، فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان، وهو من أبغض خلقه إليه.

ومن شكره: أنه غفر للمرأة البغي بسقيها كلباً كان قد جهده العطش حتى أكل الثرى، وغفر لآخر بتنحيته غصن شوك عن طريق المسلمين.

فهو سبحانه يشكر العبد على إحسانه لنفسه، والمخلوق إنما من أحسن إليه. وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يحسن به إلى نفسه، وشكره على قليله بالأضعاف المضاعفة التي لا نسبة لإحسان العبد إليها، فهو المحسن بإعطائه الإحسان وإعطاء الشكر، فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه؟

وتأمل قوله سبحانه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده بغير جرم، كما يأبى إضاعة سعيهم باطلاً، فلا يضيع أجر محسن، ولا يعذب غير مسيء.

وفي هذا ردّ لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه، ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علواً كبيراً.

فشكره سبحانه اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور، ولا يضيع عمله، وذلك من لوازم هذه الصفة، فهو منزّه عن خلاف ذلك، كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده.

ومن شكره سبحانه: أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير، ولا يضيع عليه هذا القدر.

ومن شكره سبحانه: أن العبد من عباده يقوم له مقاماً يرضيه بين الناس فيشكره له، وينوّه بذكره، يخبر به ملائكته وعباده المؤمنين، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام، وأثنى به عليه، ونوّه بذكره بين عباده.

وكذلك شكره لصاحب (يس) مقامه ودعوته إليه.

فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك، فإنه سبحانه غفور شكور، يغفر الكثير من الزلل، ويشكر القليل من العمل.

ولمّا كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة، كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها.

وهذا شأن أسمائه الحسنی، أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها، ولهذا يبغض: الكفور، والظالم، والجاهل، والقاسي القلب، والبخيل، والجبان، والمهين، واللئيم.

وهو سبحانه جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين، محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، جواد يحب أهل الجود، ستّار يحب أهل السّتر، قادر يلوم على العجز، والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، عفو يحب العفو، وتر يحب الوتر، وكل ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، وكل ما يبغضه فهو ما يضادها وينافياها^(١). اهـ.

رحمك الله يا ابن القيم، ما أجوده من كلام وما أجمعه.

اللّهم وفّقنا للعمل بما تحب وترضى، واكتبنا في عبادك الطائعين الشاكرين، آمين.



(١) «عدة الصابرين» (ص ٣٣٥ - ٣٣٧).

العليّ - الأعلى - المتعال

جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه

(٤٢ - ٤٣ - ٤٤)

* المعنى اللغوي:

عَلُو كُلِّ شَيْءٍ وَعِلْوُهُ وَعُلَاوَتُهُ وَعَالِيَتُهُ: أرفعه، يتعدّى إليه الفعل بحرفٍ وبغير حرف، كقولك: قعدت عَلُوَهُ، وفي عَلُوِهِ.

قال ابن السكّيت^(١): سِفْلُ الدَارِ وَعِلْوُهَا، وَسِفْلُهَا وَعِلْوُهَا، وَعِلَا الشَّيْءِ عَلُوًّا، فَهُوَ عَلِيٌّ، عَلِيٌّ وَتَعَلَّى.

ويقال: علا فلانُ الجبل إذا رقيه يعلوه عَلُوًّا.

وعلا فلانُ فلاناً: إذا قهره، وعلوثُ الرجل: غلبته، وعلا في الأرض: تكبّر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤٤].
والعليّ: الرفيع، وتعالى: ترفع.

وفلانٌ من عِلْيَةِ الناس، وهو جمع رجلٍ عَلِيٍّ؛ أي: شريفٍ رفيع^(٢).

وقال الزّجاجي: وقال النحويون: تقدير (عليّ) من الفعل «فعليل»، أصله (عليّ)؛ لأنّه من العلوّ، فلامه واو فاجتمعت الواو والياء وسبقت الياء ساكنة فقلبت الواو ياءً وادغمت الأولى في الثانية.

وذلك من حكم الواو والياء في كلامهم إذا اجتمعتا وسبقت إحداهما بسكون أن تقلب الواو أبداً ياء، تقدّمت أو تأخّرت، وتدغم الياء الأولى في الثانية صارت الياء

(١) هو: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكّيت - وعرف بها لأنه كان كثير السكوت - البغدادي النحوي، ديّن خير حجة في العربية، قال ثعلب: أجمعوا أنّه لم يكن أحدٌ بعد ابن الأعرابي أعلم بالعربية من ابن السكّيت، وله من التصانيف نحو من عشرين كتاباً، منها «إصلاح المنطق» قال الذهبي فيه: كتابٌ نفيسٌ مشكورٌ في اللغة. «تاريخ بغداد» (٢٧٣/١٤)، (٢٧٤)، و«العبر» (٤٤٣/١)، و«السير» (١٦/١٢).

(٢) «الصّحاح» (٢٤٣٤/٦، ٢٤٣٥)، «اشتقاق أسماء الله» (ص ١٠٨ - ١١١)، و«اللسان» (٤/ ٣٠٨٨ - ٣٠٩٠).

ها هنا أغلب على الواو؛ لأنها أخفّ منها^(١).

* ورود الأسماء في القرآن الكريم:

ورد اسم (العليّ) في ثمانية مواضع، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتُودُهُ حَفَظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ

اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ [الشورى: ٥١].

وأما (الأعلى) فقد جاء في قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْفَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ٢٠].

وأما (المتعال) فقد جاء مرةً واحدةً في قوله: ﴿عَلِيهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ

الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: ٩].

* معنى الأسماء في حقّ الله تعالى:

قال ابن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَمَّا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ فَإِنَّهُ؛ يَعْنِي: وَاللَّهُ (الْعَلِيُّ)،

والْعَلِيُّ الْفَعِيلُ مِنْ قَوْلِكَ: عَلَا يَعْلُو عَلَوًا، إِذَا ارْتَفَعَ فَهُوَ عَلِيٌّ وَعَلِيٌّ، وَ(الْعَلِيُّ): ذُو

الْعُلُوِّ وَالْإِرْتِفَاعِ عَلَى خَلْقِهِ بِقُدْرَتِهِ.

ثم قال: واختلف أهل البحث في معنى قوله: ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ فقال بعضهم: يعني:

بذلك وهو العليّ عن النظير والأشباه، وأنكروا أن يكون معنى ذلك: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾

المكان، وقالوا: غير جائز أن يخلو منه مكانه، ولا معنى لوصفه بعلو المكان؛ لأنَّ

ذلك وصفه بأنّه في مكان دون مكان!!

وقال آخرون: معنى ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ على خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه؛ لأنّه

تعالى ذكره فوق جميع خلقه، وخلقه دونه كما وصف به نفسه أنّه على العرش، فهو

عاليٌّ بذلك عليهم». اهـ^(٢).

قال الخطابي: «(العليّ): هو العالي القاهر، فاعيل بمعنى فاعل؛ كالقدير والقادر

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص ١١١).

(٢) «جامع البيان» (٩/٣)، وكلامه يدلّ على أنّه يختار علوَّ المكان لله سبحانه، فقد ذكره أولاً تفسيراً للآية ثم ذكر الاختلاف فيه، ومما يقوي ذلك أنّه ذكر هذا التفسير للاسم في مواضع أخر ولم يذكر غيره انظر: (١٧/١٣٧، ٦/٢٤، ٢٨).

والعليم والعالم، وقد يكون ذلك من العُلُوّ الذي هو مصدر علا، يعلو، فهو عالٍ؛ كقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. ويكون ذلك من علاء المجد والشرف، يقال منه: عَلِيَّ يَعْلَى عَلَاءً، ويكون الذي علًا وجلًا أن تلحقه صفات الخلق أو تكتيفه أوهامهم. اهـ^(١).

وقال البغوي في قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾: «العالي على كل شيء»^(٢).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، كما قال: ﴿وَهُوَ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته لا إله إلا هو ولا رب سواه؛ لأنّه العظيم الذي لا أعظم منه، العليّ الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه عز وجلّ عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً. اهـ^(٣).

وقال أبو بكر بن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ: «وقال جلّ وعلا: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، فالأعلى مفهوم في اللغة أنّه أعلى كل شيء، وفوق كل شيء، والله قد وصف نفسه في غير موضع من تنزيله ووجوهه، وأعلمنا أنّه العليّ العظيم، أفليس العليّ - يا ذوي الحجى - ما يكون عالياً، لا كما تزعم المعطلة الجهمية أنّه أعلى وأسفل ووسط ومع كل شيء، وفي كلّ موضع من أرض وسماء، وفي أجواف جميع الحيوان، ولو تدبروا الآية من كتاب الله لفهمها لعقلوا أنّهم جهال لا يفهمون ما يقولون، وبان لهم جهل أنفسهم وخطأ مقالتهم.

قال الله تعالى لما سأله موسى ﷺ أن يريه ينظر إليه قال: ﴿لَنْ تَرِنِّي وَلَكِنْ أُنْظَرُ إِلَى الْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أفليس العلم محيطاً - يا ذوي الألباب - أنّ الله ﷻ لو كان في كل موضع ومع كل بشر وخلق، - كما زعمت المعطلة - لكان متجلياً لكل شيء، وكذلك جميع ما في الأرض لو كان متجلياً لجميع أرضه سهلها ووعرها، وجبالها براريها ومفازها، مدنها وقراها، وعمارتها وخرابها، وجميع ما فيها من نبات وبناء، لجعلها دكاً كما جعل الله الجبل الذي تجلّى له دكاً، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾. اهـ^(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وهو سبحانه وصف نفسه بالعلو، وهو من صفات المدح له بذلك، والتعظيم؛ لأنّه من صفات الكمال، كما مدح نفسه بأنّه

(١) «شأن الدعاء» (ص ٦٦).

(٢) «تفسير البغوي» (٥/ ٢٦).

(٣) «التفسير» (٣/ ٢٣٢).

(٤) كتاب «التوحيد» (ص ١١٢).

العظيم والعليم والقدير والعزیز والحليم ونحو ذلك، وأنه الحي القيوم، ونحو ذلك من معاني أسمائه الحسنی، فلا يجوز أن يتَّصف بأضداد هذه.

فلا يجوز أن يوصف بضدّ الحياة والقيومية والعلم والقدرة، مثل: الموت والنوم والجهل والعجز واللغوب، ولا بضدّ العزّة وهو الذلّ، ولا بضدّ الحكمة وهو السّفه. فكذلك لا يوصف بضدّ العلو وهو السفول، ولا بضدّ العظيم وهو الحقير، بل هو سبحانه منزّه عن هذه النقائص المنافية لصفات الكمال الثابتة له، فثبوت الكمال له ينفي اتّصافه بأضدادها وهي النقائص». اهـ^(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

هذا ومن توحيدهم إثبات أو	صاف الكمال لرّبنا الرحمن
كعلوّه سبحانه فوق السم	أوات العلّی بل فوق كلّ مكان
فهو العلّی بذاته سبحانه	إذ يستحيل خلاف ذا بيان
وهو الذي حقاً على العرش استوى	قد قام بالتدبير للأكوان

وقال:

وهو العلّی فكل أنواع العلوّ له فثابتة له بلا نُكران^(٢)
وقال السّعدی: «(العلّی الأعلى): وهو الذي له العلوّ المطلق من جميع الوجوه: علوّ الذات، وعلوّ القدر والصفات، وعلوّ القهر.

فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال^(٣) اتّصف، وإليه فيها المنتهى». اهـ^(٤).
إذن فجميع معاني العلوّ ثابتة له رَحِمَهُ اللهُ.

كما قرّر ذلك ابن القيم في نونيته بقوله آنفاً:

وهو العلّی فكل أنواع العلوّ له فثابتة له بلا نُكران

* آثار الإيمان بهذه الأسماء:

١ - إثبات العلوّ المطلق لله ربّ العالمين بكلّ معانيه، دون أن نعطل أو نؤول شيئاً، ونثبت شيئاً؛ لأنّ ذلك تحكّم لم يأذن الله به.

أولاً: تضمنت هذه الأسماء إثبات علوّ ذات ربّنا سبحانه، وأنه عالٍ على كلّ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/٩٧، ٩٨). (٢) «النونية» (٢/٢١٣، ٢١٤).

(٣) هكذا في المطبوعة ولعلّها: «وبغاية الكمال اتّصف».

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/٣٠٠).

شيء، وفوق كل شيء، ولا شيء فوقه، بل هو فوق العرش كما أخبر عن نفسه، وهو أعلم بنفسه.

وهذا اعتقاد سلف الأمة، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، من علماء الحديث والتفسير والفقه والأصول والسيرة والتاريخ والعربية والأدب وغيرهم^(١). وسنحاول باختصار ذكر ما يدل على علو ذاته ﷻ من آيات الكتاب، والأحاديث الشريفة.

* فمن آيات الكتاب:

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقد ذكر الاستواء في ست آيات أخر في سورة يونس: ٣، الرعد: ٢، طه: ٥، الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤، الحديد: ٤.

٢ - بين تعالى في آيات كثيرة أن «الروح» وهو جبريل ﷺ والملائكة منه تنزل، وإليه ترجع وتصعد.

منها: قوله تعالى: ﴿مَنْ أَمَرَ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٣، ٤].

وقوله عن ليلة القدر: ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ﴿٤﴾﴾ [القدر: ٤].

ومعلوم أن التنزل لا يكون إلا من العلو.

٣ - وأخبر تعالى أنه يُنزل ملائكته بالوحي والكتاب على من يشاء من عباده، قال سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].

وقال: ﴿وَإِنَّمَا لِنُزِلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

٤ - أن الأعمال الصالحة والكلام الطيب إليه يصعدان، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

قال الدارمي: فإلى من ترفع الأعمال، والله بزعمكم الكاذب مع العامل بنفسه في

(١) انظر النقول الكثيرة التي نقلها الذهبي رحمه الله في: (العلو)، وابن القيم رحمه الله في «اجتماع الجيوش الإسلامية» عن علماء الأمة في هذه المسألة.

بيته ومسجده ومنقلبه ومثواه!! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً^(١).

٥ - قوله تعالى مخاطباً المسيح عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ نَتَوَفَّيْكَ وَنَرْفَعُكَ إِلَيْنَا وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا قُلُوهُ يَقِينًا﴾ (٥٦) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿[النساء: ١٥٧، ١٥٨].

٦ - أخبر تعالى عن تنزيله لآيات الكتاب في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿[آل عمران: ٣، ٤].

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ (٤)

[الكهف: ١].

وقوله: ﴿حَمْدٌ تَنَزَّلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٥) [فصلت: ١، ٢].

وقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ لِّبَيِّنَاتٍ﴾ [البور: ١].

وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (٦) [القدر: ١].

قال أبو سعيد الدارمي رحمته الله: «فظاهر القرآن وباطنه يدل على ما وصفنا من ذلك، نستغني فيه بالتنزيل عن التفسير، ويعرفه العامة والخاصة، فليس منه لمتأول تأول، إلا لمكذب به في نفسه مستتر بالتأويل.

ويلكم!! إجماع من الصحابة والتابعين وجميع الأمة، من تفسير القرآن والفرائض والحدود والأحكام: نزلت آية كذا في كذا، ونزلت آية كذا في كذا، ونزلت سورة كذا في مكان كذا، ولا نسمع أحداً يقول: طلعت من تحت الأرض، ولا جاءت من أمام ولا من خلف، ولكن كله: نزلت من فوق. وما يصنع بالتنزيل من هو بنفسه في كل مكان؟.

إنما يكون شبه مناولة لا تنزيلاً من فوق السماء مع جبريل، إذ يقول عليه السلام: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، والرب بزعمكم الكاذب في البيت معه وجبريل يأتيه من خارج، هذا واضح، ولكنكم تغالطون.

فمن لم يقصد بإيمانه وعبادته إلى الله الذي استوى على العرش فوق سمواته، وبان من خلقه، فإنما يعبد غير الله ولا يدري أين الله^(٢).

٧ - قول الله تعالى عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَكُنْ ابْنُ بَنِي صَرَمَةَ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٧) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴿[غافر: ٣٦، ٣٧]، دليل على أن

(١) «الرد على الجهمية» (ص ٥٣).

(٢) «الرد على الجهمية» (ص ٥٥).

فرعون كان يريد الاطلاع إلى الله تعالى في السماء، وذلك أن موسى وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كانوا يدعونهم إلى الله بذلك.

* وأما الأحاديث التي تدل على (العلو) فهي كثيرة، منها:

١ - حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: وكان لي جارية ترعى غنماً لي قبل «أحد والجوائنة» فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، لكنني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليّ، قلت: يا رسول الله! أفلا أعتقها؟ قال: «ائتني بها»، فأتيته بها فقال لها: «أين الله؟»، قالت: في السماء، قال: «من أنا؟»، قالت: أنت رسول الله، قال: «اعتقها فإنها مؤمنة»^(١).

قال أبو سعيد الدارمي: «ففي حديث رسول الله ﷺ هذا دليل على أن الرجل إذا لم يعلم أن الله ﻋﻠﻰ في السماء دون الأرض فليس بمؤمن، ولو كان عبداً فأعتق لم يجز في رقبة مؤمنة، إذ لا يعلم أن الله في السماء»^(٢).

٢ - الأحاديث الكثيرة في معراج النبي ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج، وقد تواترت^(٣) وأجمع عليها سلف الأمة وأئمتها^(٤).

٣ - حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل»^(٥).

٤ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»^(٦).

٥ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها، فتأبى عليه، إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها»^(٦).

(١) رواه أحمد (٥/٤٤٨)، ومسلم (١/٥٣٧).

(٢) «الرد على الجهمية» (ص ٣٩).

(٣) ذكر ذلك ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص ٢٩).

(٤) رواه أحمد (٤/٤٠٥)، ومسلم (١/١٧٩).

(٥) رواه البخاري (٢/٥٥٥، ٦/٣٢٢٣، ١٣/٧٤٢٩، ٧/٤٨٦)، ومسلم (١/٦٣٢).

(٦) رواه مسلم (٢/١٢١ - ١٤٣٦).

٦ - حديث أبي سعيد الخدري: بعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ بذهبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها، قال: فقسمها.. وفيه فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً؟»^(١).

٧ - حديث أنس أن زينب كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوّجكن أهاليكن، وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سموات. وفي رواية: «وكانت تقول: إن الله أنكحني في السماء»^(٢)، وغيرها من الأحاديث.

* أما أقوال السلف في إثبات أن الله فوق العرش، فهي كثيرة ننقلها هنا ما يتيسر:

١ - قال الشيخ أبو نصر السجزي^(٣) في كتاب «الإبانة» له:

«وأئمتنا كسفيان الثوري، ومالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وحمام بن زيد، وحمام بن سلمة، وعبد الله بن المبارك، وفضيل بن عياض، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي: متفقون على أن الله سبحانه بذاته فوق العرش، وأن علمه بكل مكان، وأنه يُرى يوم القيامة بالآبصار، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا..»^(٤).

٢ - قال عبد الله بن المبارك، وسأله علي بن الحسن بن شقيق: كيف ينبغي لنا أن نعرف ربنا ﷻ؟ قال: «على السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية: إنه ها هنا على الأرض»^(٥).

٣ - وقيل ليزيد بن هارون: من الجهمية؟ فقال: «من زعم أن الرحمن على العرش استوى على خلاف ما يَقَرُّ في قلوب العامة فهو جهمي»^(٦).

(١) رواه البخاري (٦٧/٨)، ومسلم (٧٤٢/٢) مطولاً.

(٢) رواه البخاري (٧٤٢٠/١٣)، (٧٤٢١).

(٣) هو: عبد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي الحافظ، كان قيماً بالأصول والفروع له تصانيف حسان منها «الإبانة». «المنتظم» (٣١٠/٨).

(٤) «نقض تأسيس الجهمية» (٣٨/٢).

(٥) أخرجه عبد الله في «السنة» (٢٢، ٥٩٨) وإسناده صحيح.

(٦) أخرجه أبو داود في مسائله (٢٦٨، ٢٦٩)، وعبد الله في السنة (٥٤)، وذكره البخاري في «خلق أفعال العباد» (٦٣)، وسنده حسن إن شاء الله، وذكره الذهبي في «العلو» (مختصر العلو) (ص ١٦٧) وقال: (يَقَرُّ) مخفف، و(العامة) مراده جمهور الأمة وأهل العلم، والذي قرئ في قلوبهم من الآية، هو ما دل عليه الخطاب مع يقينهم بأن المستوي ليس كمثل شيء، هذا الذي قرئ في فطرتهم السليمة، وأذهانهم الصحيحة، ولو كان له معنى وراء ذلك لتفوّها =

٤ - وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في العقيدة المشهورة عنه: «طريقتنا طريقة المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة، فما اعتقدوه اعتقدناه؛ فمما اعتقدوه أن الأحاديث التي ثبتت عن النبي ﷺ في العرش واستواء الله عليه يقولون بها ويشبتونها، من غير تكيف، ولا تمثيل ولا تشبيه، وأن الله بائن من خلقه، والخلق بائون منه، لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم، وهو مستوٍ على عرشه في سمائه دون أرضه»^(١).

٥ - وقال الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي^(٢) في كتابه «الحجة على تارك المحجة»: «إن قال قائل: قد ذكرت ما يجب على أهل الإسلام من اتباع كتاب الله وسنة رسوله وما أجمع عليه الأئمة العلماء، والأخذ بما عليه أهل السنة والجماعة: فاذكر مذاهبهم، وما أجمعوا عليه من اعتقادهم، وما يلزمنا من المصير إليه من إجماعهم؟ فالجواب: أن الذي أدركت عليه أهل العلم ومن لقيتهم وأخذت عنهم، ومن بلغني قوله من غيرهم - فذكر جمل اعتقاد أهل السنة، وفيه - وأن الله مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، كما قال في كتابه، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً»^(٣).

٦ - وقال ابن عبد البر في كتابه «التمهيد» بعد أن ذكر حديث: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا...»: وفيه دليل على أن الله ﷻ في السماء على العرش من فوق سبع سموات، كما قالت الجماعة، وهو من حجتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم: إن الله ﷻ في كل مكان، وليس على العرش. والدليل على

= به ولما أهملوه، ولو تأول أحد منهم الاستواء لتوفرت الهمم على نقله، ولو نقل لاشتهر، فإن كان في بعض جهلة الأغبياء من يفهم من الاستواء ما يوجب نقصاً أو قياساً للشاهد على الغائب، وللمخلوق على الخالق فهذا نادر، فمن نطق بذلك زُجر وعُلم، وما أظن أن أحداً من العامة يقر في نفسه ذلك، والله أعلم. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ما معناه: أن الناس جميعاً بفطرتهم السليمة يتوجهون عند الدعاء إلى العلو لا إلى اليمين ولا إلى الشمال، وهذه فطرة الله التي فطر الناس عليها، حتى يأتيهم من يجهلهم وينقلهم إلى التعطيل. انظر: «اجتماع الجيوش» (ص ٨٤).

(١) «تليس الجهمية» لابن تيمية (٤٠/٢).

(٢) هو: العلامة المحدث أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسي، صاحب التصانيف، قال ابن عساكر: كان ﷺ على طريقة واحدة من الزهد والتنزه عن الدنيا والتقصيف، توفي في المحرم سنة تسعين وأربع مئة، وكتابه «الحجة» ذكر فيه أصول الدين على قواعد أهل الحديث والسنة. «السير» (١٩/١٣٦)، «الأعلام» (٨/٢٠).

(٣) «تليس الجهمية» (٤١/٢).

صحة ما قاله أهل الحق في ذلك قول الله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقوله.. وذكر آيات الاستواء، ثم قال: وقال جلّ ذكره: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وكذلك قوله: ﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] و﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: ٩]، و﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، و﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، والجهمي يزعم أنه أسفل.

قال: وأما قوله تعالى: ﴿ءَامِنُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ﴾ [الملك: ١٦]، فمعناه: من على السماء؛ يعني: على العرش، وقد يكون في بمعنى: على، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَيَسْجُدُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢]؛ أي: على الأرض، وكذلك قوله: ﴿وَلَا أَصْلَبُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾ [طه: ٧١]، وهذا كله يعضده قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وما كان مثله مما تلونا من الآيات في هذا الباب.

وهذه الآيات كلها واضحة في إبطال قول المعتزلة، وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء وقولهم في تأويل استوى: استولى. فلا معنى له؛ لأنه غير ظاهر في اللغة ومعنى الاستيلاء في اللغة: المغالبة، والله لا يغالبه ولا يعلوه أحد، وهو الواحد الصمد، ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله ﷻ إلى الأشهر والأظهر من وجوهه، ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم.

ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مُدَّعٍ، ما ثبت شيء من العبارات وجلّ الله ﷻ عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطباتها، مما يصح معناه عند السامعين والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم، وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكّن فيه. قال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿اسْتَوَى﴾ قال: علا، قال: وتقول العرب: استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت، وقال غيره: استوى؛ أي: انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد.

قال أبو عمر: الاستواء: الاستقرار في العلو، وبهذا خاطبنا الله ﷻ وقال: ﴿لِاسْتَوَا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، وقال: ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، وقال: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَاحِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقال الشاعر:

فأوردتهم ماءً بفيفاء^(١) قفرة وقد حلق النجم اليماني فاستوى

(١) «فيفاء»: بوزن صحراء ومعناها.

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد استولى؛ لأن النجم لا يستولي.

قال: ومن الحجة أيضاً في أنه ﷺ على العرش فوق السموات السبع، أن الموحدين أجمعين، من العرب والعجم إذا كربهم أمر أو نزلت بهم شدة، رفعوا وجوههم إلى السماء، يستغيثون ربهم تبارك وتعالى، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته؛ لأنه اضطرار لم ينبههم عليه أحد، ولا أنكره عليهم مسلم^(١).

٧ - وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن نقل جملة من أقوال سلف الأمة وعلمائها:

«ونقل أقوال السلف من القرون الثلاثة، ومن نقل أقوالهم في إثبات أن الله فوق العرش يطول، ولا يتسع له هذا الموضع؛ ولكن نبهنا عليه» اهـ^(٢).

* النزاع في هذه المسألة محرم:

والنزاع في إثبات علو للرب سبحانه لا يجوز؛ لأنه ليس من المسائل التي يجوز الاجتهاد فيها، يل يجب التوقف عند النصوص الشرعية الواردة فيها.

قال شيخ الإسلام: «ولم يكن هذا عندهم من جنس مسائل النزاع التي يسوغ فيها الاجتهاد، بل ولا كان هذا عندهم من جنس مسائل أهل البدع المشهورين في الأمة: كالخوارج، والشيعة^(٣)، والقدرية، والمرجئة؛ بل كان إنكار هذا عندهم أعظم من هذا كله، وكلامهم في ذلك مشهور متواتر.

ولهذا قال الملقب بإمام الأئمة أبو بكر ابن خزيمة فيما رواه عنه الحاكم: «من لم يقل: إن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه، وجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ثم ألقى على مزبلة لثلا يتأذى بتن ريحه أهل القبلة ولا أهل الذمة» اهـ^(٤).

قلت: وتكفير السلف لهم، منقول في كتب السنة والعقائد بالأسانيد الصحيحة:

١ - فقد فقال الحسن بن عيسى مولى عبد الله بن المبارك: كان ابن المبارك يقول: الجهمية كفار^(٥).

(١) «التمهيد» (١٢٩/٧ - ١٣٤).

(٢) «تلبيس الجهمية» (٤١/٢).

(٣) يعني المتقدمين منهم، كما نبه عليه محقق الكتاب.

(٤) «تلبيس الجهمية» (٤١/٢، ٤٢).

(٥) أخرجه عبد الله في «السنة» (١٥) عنه، وإسناده صحيح، الحسن: هو أبو علي النيسابوري ثقة من رجال مسلم.

- ٢ - وقال الحسن بن عيسى: «الجهمية!! ومن يشك في كفر الجهمية»^(١).
- ٣ - وقال عبد الرحمن بن مهدي: «الجهمية يستتابون، فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم»^(٢).
- ٤ - وقال إسحاق البهلول لأنس بن عياض بن ضمرة: «أصلي خلف الجهمية؟ قال: لا، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾^(٣)» [آل عمران: ٨٥].
- وفيما ذكرنا كفاية لمن هداه الله وألهمه رشده، وأما من أراد الله فتنته فلا حيلة فيه، بل لا يزيده كثرة الأدلة إلا حيرة وضلالاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].
- وقال: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٤) [الإسراء: ٨٢].
- والحمد لله رب العالمين.



(١) أخرجه عبد الله في «السنّة» (١٦) عنه. (٢) المصدر السابق (٤٨) وإسناده صحيح.

(٣) المصدر السابق (٧٢) وإسناده حسن، ابن بهلول صدوق، وأنس ثقة من رجال الستة.

الحفيظ - الحافظ

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٤٥ - ٤٦)

* المعنى اللغوي:

قال ابن سيده: الحفظ نقيض النسيان، وهو التعاهد وقلة الغفلة .
 حفظ الشيء حفظاً، ورجل حافظ من قوم حفاظ^(١).
 قال الجوهري: حفظت الشيء حفظاً؛ أي: حرصته، وحفظته أيضاً بمعنى: استظهرته، والمحافظة: المراقبة^(٢).
 قال الأزهري: رجلٌ حافظ وقومٌ حُفَاطٌ، وهم الذين رزقوا حفظ ما سمعوا، وقلما ينسون شيئاً يعونه^(٣).
 قال الزجاجي: (الحفيظ): الحافظ، فعيل بمعنى فاعل.
 وقال: حفظت الرجل: إذا أغضبته، أحفظه إحفاظاً، والحِفظة: الحقد والضغينة^(٤).

* ورودها في القرآن الكريم:

ورد اسمه (الحفيظ) ثلاث مرات:
 في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ﴾ [هود: ٥٧].
 وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ﴾ [سبا: ٢١].
 وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِیْظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦].
 وأما (الحافظ) فقد ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَفِیْظٌ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]^(٥).

(٢) «الصحاح» (٣/ ١١٧٢).

(١) «اللسان» (٢/ ٩٢٩).

(٣) «اللسان» (٢/ ٩٢٩).

(٤) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٤٦). وانظر: «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٤٨)، و«المفردات» للراغب (ص ١٢٤).

(٥) قال ابن جرير (٨/ ١٣): «واختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَفِیْظٌ﴾، فقرأ ذلك =

وورد مرتين بصيغة الجمع في قوله تعالى:
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].
وقوله: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

* معنى الاسمين في حق الله تعالى:

قال الخطابي: «هو الحافظ، فعيل بمعنى فاعل؛ كالقدير والعليم، يحفظ السموات والأرض وما فيها، لتبقى مدة بقائها، فلا تزول ولا تُدثر؛ كقوله ﴿وَلَا يَكُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٧]؛ أي: حفظناها حفظاً، والله أعلم.

وهو الذي يحفظ عبده من المهالك والمعاطب، ويقيه مصارع السوء؛ كقوله سبحانه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]؛ أي: بأمره. ويحفظ على الخلق أعمالهم، ويحصي عليهم أقوالهم، يعلم نياتهم وما تكبر صدورهم، ولا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية.

ويحفظ أوليائه، فيعصمهم عن مواقع الذنوب، ويحرسهم عن مكايده الشيطان، ليسلموا من شره، وفتنته. اهـ^(١).

وقال الحليمي: «(الحافظ) ومعناه: الصائن عبده عن أسباب الهلكة في أمور دينه ودنياه». اهـ^(٢).

قال القرطبي: «فهذا الاسم يكون من أوصاف الذات، ومن أوصاف الفعل.

فإذا كان من أوصاف الذات فيرجع إلى معنى (العليم)؛ لأنه يحفظ بعلمه جميع المعلومات فلا يغيب عنه شيء منها، كما يقال: فلان يحفظ القرآن؛ أي: هو حاضر في قلبه، وفي مقابلة هذا الحفظ النسيان، وعلى هذا خرج قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، وقوله: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

= عامة قراء أهل المدينة وبعض الكوفيين والبصريين، ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ بمعنى: والله خيركم حفظاً، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين وبعض أهل الكوفة، ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ بالالف على توجيه الحافظ إلى أنه تفسير للخير، كما يقال: هو خير رجلاً، والمعنى: فالله خيركم حافظاً، ثم حذفت الكاف والميم، والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، قد قرأ بكل واحدة منهما أهل علم بالقرآن، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. وذلك أن من وصف الله بأنه خيرهم حفظاً فقد وصفه بأنه خيرهم حافظاً، ومن وصفه بأنه خيرهم حافظاً فقد وصفه بأنه خيرهم حفظاً. اهـ.

(١) «شأن الدعاء» (ص ٦٧، ٦٨). (٢) «المنهاج» (١/ ٢٠٤).

وإذا كان من صفات الفعل، فيرجع إلى حفظه للوجود، وضد هذا الحفظ: الإهمال، و[على] هذا خرج قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ [يوسف: ٦٤].

وقال: والحفظ أيضاً قد يكون بمعنى: الجمع والوعي، من ذلك قولهم: حفظت القرآن؛ أي: جمعته، إذا قرأته عن ظهر قلب، وحفظت المتاع: إذا جمعته في الوعاء، والوعي والجمع حراسة، فاعلم.

وقد يكون بمعنى الرقبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦].

وقد يكون الحفظ بمعنى الأمانة، ومنه قول يوسف عليه السلام: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِظْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [يوسف: ٥٥]؛ أي: جُمُوعٌ لما يكون في الخزائن من مظان حقوقها، منوع لها من غير واجبها.

وقد يكون بمعنى الإحصاء عدداً وعلماء. اهـ^(١).

وقال ابن القيم في نونيته:

وهو الحفيظ عليهم وهو الكفيـل بحفظهم من كل أمر عان^(٢)
وقال عبد الرحمن السعدي: «(الحفيظ): الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أوليائه من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها»^(٣).

* آثار الإيمان بهذين الاسمين:

١ - إن الحافظ لهذه السموات السبع والأرض وما فيهما هو الله وحده لا شريك له.

فهو سبحانه يحفظ السموات أن تقع على الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]؛ أي: كالسقف على البيت، قاله الفراء^(٤)، وهو كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال بعض المفسرين في قوله: ﴿مَحْفُوظًا﴾: أي: من الشياطين، كما في قوله

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٣٦). (٢) «النونية» (٢/٢٢٨).

(٣) «تيسير الكريم» (٣٠١/٥، ٣٠٢).

(٤) «معاني القرآن» (٢/٢٠١)، وكذا في «تفسير ابن كثير» (٣/١٧٧) فقد قال: وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ أي: على الأرض وهي كالقبة عليها.

تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨] (١).

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وحفظنا السماء الدنيا من كل شيطان لعين، قد رجمه الله ولعنه، ﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ﴾ يقول: لكن قد يسترق من الشياطين السمع مما يحدث في السماء بعضها، فيتبعه شهاب من النار مبين، يبين أثره فيه إما بإخباله وإفساده، أو بإحراقه». اهـ (٢).

وقيل: محفوظاً من الهدم والنقض، وعن أن يبلغه أحد بحيلة.

وقيل: محفوظاً فلا يحتاج إلى عماد (٣).

والله يحفظ ذلك كله بلا مشقة ولا كلفة، ودون أدنى تعب أو نصب، كما قال سبحانه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٢ - أن المحفوظ هو ما حفظه الله ﷻ وشاء له أن يحفظ ويبقى، وأما من شاء الله سبحانه أن يضيع أو يضمحل ويضعف أو يهلك، فإنه ضائع هالك لا محالة.

فقد تكفل الله بحفظ كتابه العزيز من التحريف والتغيير والتبديل، على مرّ العصور والدهور، قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

فبقي كذلك - كما قال سبحانه - هذه القرون الطويلة محفوظاً بحفظ الله تعالى له، فهو من آيات الله الظاهرة للعيان، الدالة على صدق وعد الله جل شأنه.

(١) قال بعض العلماء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ﴾: هو استثناء منقطع، منهم الرازي فقد قال: «لا يمكن حمل لفظ «إلا» ههنا على الاستثناء بدليل أن إقدامهم على استراق السمع لا يخرج السماء من أن تكون محفوظة منهم إلا أنهم ممنوعون من دخولها، وإنما يحاولون القرب منها، فلا يصح أن يكون استثناء على التحقيق، فوجب أن يكون معناه: لكن من استرق السمع». اهـ. «التفسير» (١٦٩/٩).

وقال القرطبي بعد أن ذكر قول الرازي: «وقيل: هو متصل؛ أي: إلا ممن استرق السمع؛ أي: حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره إلا من استرق السمع فإننا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء، سوى الوحي، فأما الوحي فلا تسمع منه شيئاً لقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَعَزُوزُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٢] وإذا استمع الشياطين إلى شيء ليس بوحي فإنهم يقذفونه إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلمهم». اهـ «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/١٠، ١١). وانظر: «أضواء البيان» (١٢٢/٣) فقد ذكر القولين.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٢٨٥/١١).

(٢) «جامع البيان» (١١/١٤).

ولقد أتى على المسلمين أيام فتن سوداء، انتشر فيها أهل البدع والأهواء، وأدخلوا على هذا الدين أنواع المحدثات، وافتروا على رسول الأمة ﷺ أنواع المفتريات، ولكنهم عجزوا جميعاً عن أن يحدثوا في هذا القرآن شيئاً، أو أن يغيروا فيه حرفاً واحداً، فبقي كما هو، وبقيت نصوصه كما أنزلها الله على نبيه ﷺ^(١). وكذا أماكن العبادة، فإن المحفوظ منها هو ما حفظه الله سبحانه وتعالى وهو خير حافظاً.

قال ابن تيمية رحمه الله عن آيات الله العظيمة: «وكذلك الكعبة، فإنها بيت من حجارة بوادٍ غير ذي زرع، ليس عندها أحد يحفظها من عدو، ولا عندها بساتين وأمور يرغب الناس فيها، فليس عندها رغبة ولا رهبة، ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة، فكل من يأتيها، يأتيها خاضعاً ذليلاً متواضعاً في غاية التواضع، وجعل فيها من الرغبة ما يأتيها الناس من أقطار الأرض محبة وشوقاً من غير باعث دنيوي، وهي على هذه الحال من ألوف من السنين، وهذا مما لا يعرف في العالم لبنية^(٢) غيرها، والملوك ينون القصور العظيمة فتبقى مدة، ثم تهدم لا يرغب أحد في بنائها ولا يرهبون من خرابها.

وكذلك ما بُني للعبادات قد تتغير حاله على طول الزمان، وقد يستولي العدو عليه كما استولى على بيت المقدس، والكعبة لها خاصة ليست لغيرها، وهذا مما حير الفلاسفة ونحوهم، فإنهم يظنون أن المؤثر في هذا العالم هو حركات الفلك، وأن ما بني وبقي فقد بُني بطالع سعيد، فحاروا في طالع الكعبة، إذ لم يجدوا في الأشكال الفلكية ما يوجب مثل هذه السعادة والفرح والعظمة والدوام والقهر والغلبة، وكذلك ما فعل الله بأصحاب الفيل لما قصدوا تخريبها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۖ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۖ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ - ٥].

قصدوا جيش عظيم ومعهم الفيل، فهرب أهلها منهم، فبرك الفيل وامتنع من المسير إلى جهتها، وإذا وجهوه إلى غير جهتها توجه، ثم جاءهم من البحر طير

(١) وأما الكتب السابقة التي لم يكتب الله ﷻ لها البقاء والحفظ، فوكل حفظها إلى الناس، كما قال سبحانه: ﴿وَالرَّابِّيُونَ وَالْأَحْبَارُ يَمَّا اسْتُحْفِطُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤] فما حفظها أهل الكتاب - إلا من رحم الله منهم - ولا رعوها حق رعايتها، فحرفوها وبدلوا آياتها، كما قص الله ذلك في القرآن.

(٢) بنية على وزن فعلية كناية عن الكعبة، يقول العرب: لا ورب هذه البنية.

أبائيل؛ أي: جماعات في تفرقة فوجاً بعد فوج رموا عليهم حصى هلكوا به كلهم، فهذا مما لم يوجد نظيره في العالم، فأيات الأنبياء هي أدلة على صدقهم». اهـ^(١).

٣ - والله سبحانه وحده هو الذي يحفظ الإنسان من الشرور والآفات والمهالك، ويحفظه من عقابه وعذابه وسخطه، إن هو حفظ حدود الله واجتنب محارمه، فبتقوى الله وخوفه يُحفظ الإنسان، وبقدر ذلك يكون الحفظ والكلاءة، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا فَجَّرَهُ النَّجْمُ هَدًى وَمَا يَكُونُ لَكُنْهٖ عُتَاةٌ وَلَا أُفُقٌ مُّبِينٌ ۚ وَكَذَٰلِكَ يَهْدِي اللَّهُ الْبَاطِلَ إِلَى الْبَاطِلِ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ عُدُوًّا لِلْعَالَمِينَ﴾ [النساء: ٣٤]، فالآية تدل على ذلك؛ فلأنهن صالحات حافظات لمغيب أزواجهن - من عرضٍ ومالٍ وولدٍ - حفظهن الله سبحانه، وأعانهن وسددهن على ذلك.

فبحفظهن الله - أي أمره ودينه - حفظهن الله. وجاء في الحديث قوله ﷺ لابن عباس رضي الله عنه: «يا غلام إني مُعَلِّمُك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك...» اهـ^(٢).

قال ابن رجب رحمته الله^(٣): «يعني: احفظ حدود الله، وحقوقه وأوامره ونواهيه، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز ولا يتعدى ما أمر به إلى ما نهى عنه، فدخل في ذلك فعل الواجبات جميعاً وترك المحرمات جميعاً». اهـ^(٤).

(١) «النبوات» (ص ١٦٠، ١٦١).

(٢) رواه أحمد (٢٩٣/١)، والترمذي (٢٥١٦/٤)، وأبو يعلى (٢٥٥٦/٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٨/١، ١٤٩) كلهم عن الليث بن سعد عن قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن عبد الله بن عباس أنه حدثه أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام إني معلمك...».

قال الترمذي: حسن صحيح، وقال ابن رجب في «نور الاقتباس» (ص ٣١): «أجود أسانيده من رواية حنش عن ابن عباس التي ذكرناها، وهو إسناد حسن لا بأس به. اهـ. وهو كما قال، قيس بن الحجاج، قال فيه أبو حاتم: صالح، وقال الحافظ: صدوق. وللحديث طرق كثيرة، وهذا أجودها كما قال ابن رجب.

(٣) هو زين الدين عبد الرحمن بن الحسين بن محمد البغدادى ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن رجب، ولد سنة (٧٣٦هـ) قال ابن فهد المكي: الإمام الحافظ الحجة والفقهاء العمد، أحد العلماء الزهاد، والأئمة العباد، مفيد المحدثين، واعظ المسلمين... وقال: له المؤلفات السديدة والمصنفات المفيدة. اهـ. من كتبه «شرح للبخاري» لم يكمله، و«شرح الترمذي» نحو عشرين مجلداً، و«الذيل على طبقات الحنابلة»، توفي في شهر رجب من سنة (٧٩٥هـ) ﷺ. «لحظ الألبان» (ص ١٨٠ - ١٨٢)، «الدرر الكامنة» (٢/ ٢٣١، ٣٢٢).

(٤) «نور الاقتباس» (ص ٣٤).

وقد مدح الله سبحانه عباده الذين يحفظون حقوقه وحدوده، فقال في معرض بيانه لصفات المؤمنين الذين اشترى أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقال: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٢، ٣٣].

٤ - ومن أعظم ما يجب على المسلم حفظه من حقوق الله هو التوحيد، أن يعبدَه ولا يشرك به شيئاً، كما جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، إذ قال له رسول الله ﷺ: «يا معاذ بن جبل!» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق الله على العباد؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ بن جبل!» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «أن لا يعذبهم»^(١).

فهذا هو الحق العظيم الذي أمر الله سبحانه عباده أن يحفظوه ويراعوه، وهو الذي من أجل حفظه أرسل الرسل وأنزل الكتب.

فمن حفظه في الدنيا، حفظه الله تعالى من عذابه يوم القيامة، وسلّمه وأمنّه منه، وكان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ويجيره من النار.

وإن عذب بسبب ذنوبه، فإنه أيضاً محفوظ بتوحيده من الخلود في نار جهنم مع الكفار الذين ضيعوا هذا الحق العظيم.

٥ - ومن أعظم ما أمر بحفظه من الواجبات: الصلاة، قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩، وفي المعارج: ٣٤].

فمن حافظ على الصلوات وحفظ أركانها، حفظه الله من نعمته وعذابه وكانت له نجاة يوم القيامة.

قال ابن القيم رحمته الله: «والصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه، مفرحة للنفس، مذهبة للكسل، منشطة للجوارح، ممدة للقوي، شارحة للصدر، مغذية للروح، منورة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مبعدة من الشيطان، مقربة من الرحمن».

(١) رواه البخاري (٣٩٧/١٠)، ومسلم (٥٨/١٠، ٥٩) عن معاذ.

وبالجملة: فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب وقواهما، ودفع المواد الرديئة عنهما، وما ابتلى رجلان بعاهة أو داءٍ أو محنةٍ أو بليةٍ إلا كان حظ المصلي منهما أقل، وعاقبته أسلم.

وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهراً وباطناً، فما استدفعت شرور الدنيا والآخرة، ولا استجلبت مصالحها بمثل الصلاة.

وسرُّ ذلك: أن الصلاة صلةٌ بالله ﷻ، وعلى قدر صلة العبد بربه ﷻ تفتح عليه من الخيرات أبوابها، وتقطع عنه من الشرور أسبابها، وتفيض عليه موارد التوفيق من ربه ﷻ، والعافية، والصحة، والغنيمة والغنى، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرات، كلها مُحَضَّرَةٌ لديه، ومسارعةٌ إليه^(١).

ومما جاء في أن الصلاة تحفظ صاحبها، قوله ﷺ عن الله ﷻ أنه قال: «يا ابنَ آدم! اركعْ لي مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ أَكْفِكَ آخِرَهُ»^(٢). وقيل: إن الصلاة تحفظ

(١) «الطب النبوي» (ص ٣٣٢).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٤٧٥/٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٣٧/٥) عن عبد الأعلى بن مسهر: حدثنا إسماعيل بن عياش عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفيير عن أبي الدرداء وأبي ذر. قال الترمذي: حسن غريب، قال المنذري في «الترغيب» (٢٣٦/١): في إسناده إسماعيل بن عياش، ولكنه إسناده شامي. اهـ. قلت: فإسناده حسن.

ورواه أحمد (٤٤٠/٦، ٤٥١) عن صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد عن أبي الدرداء بلفظ: «يا ابن آدم لا تعجز من الأربع ركعات أول نهارك أكفك آخره»، قال المنذري في «الترغيب» (٢٣٦/١): ورواه كلهم ثقات. اهـ. وكذا قال الهيثمي في «المجمع» (٢٣٥/٢، ٢٣٦). قلت: وهو كما قال، لكن شريح بن عبيد لم يسمع من أبي الدرداء، كما في «التهذيب» (٣٢٨/٤، ٣٢٩)، ورواه أحمد (١٥٣/٤ - ٢٠١)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ١٧٥٧) عن أبان بن يزيد عن قتادة عن نعيم بن همار عن عقبة بن عامر مرفوعاً به.

قال المنذري (٢٣٦/١): رواه أحمد وأبو يعلى، ورجال أحدهما رجال الصحيح. اهـ. كذا قال! مع أن إسنادهما واحد، وفيه عنقة قتادة وهو مدلس.

ورواه أحمد (٢٨٦/٥، ٢٨٧)، وأبو داود (١٢٨٩/٢) عن الوليد بن مسلم: ثنا سعيد بن عبد العزيز، ثنا مكحول عن كثير بن مرة عن نعيم بن همار به، (وقد سقط كثير من سند أحمد). قال عبد الله: قال أبي: ليس بالشام رجل أصح حديثاً من سعيد بن عبد العزيز. وسنده صحيح لولا ما يخشى من إرسال مكحول، لكن كثير بن مرة تابعي فسمع مكحول منه محتمل جداً.

وقد تابع أبو الزاهرية (وهو حدير بن كريب) مكحولاً عند أحمد أيضاً (٢٨٦/٥، ٢٨٧)، وأبو الزاهرية صدوق من رجال مسلم. وتابعهما أيضاً سليمان بن موسى ومحمد بن راشد الدمشقي عند أحمد (٢٨٧/٥)، والدارمي (٣٣٨/١)، ورواه أحمد (٢٨٧/٥) عن مكحول عن ابن مرة الغطفاني به.

صاحبها الحفظ الذي نبّه عليه في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ^(١)، وأما من ضيّع الصلاة فقد توعّده الله سبحانه بالهلاك والشر العظيم.

قال سبحانه: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [مريم: ٥٩].

ومما أمر الله بحفظه السمع والبصر والفؤاد، قال سبحانه: ﴿وَلَا تُقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. فاحفظ سمعك، فلا تسمع إلا ما يرضيه، واحفظ بصرك فلا تنظر إلا إلى ما يرضيه، واحفظ قلبك وعقلك من أن يتعلق بما يغضبه ويسخطه، وينشغلا بغيره.

٦ - ومما أمر ﷺ بحفظه: الفروج، قال سبحانه: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْصُرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، ومدح المؤمنين بذلك فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [٥] إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦]، وقال ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه ورجليه أضمن له الجنة» ^(٢).

٧ - ومما أمر الله بحفظه الأيمان، فقال: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]؛ لأن حفظ اليمين يدل على إيمان المرء وورعه، فكثير من الناس يتساهل في الحلف والقسم، وقد تلزمه الكفارة وهو لا يدري، أو يعجز عنها، فيقع في الإثم لتضييعه وعدم حفظه لأيمانه واستقصاء هذا يطول.

وبالجملة فالمؤمن مأمور بحفظ دينه أجمع، فلا يترك منه شيئاً لتعارضه مع هواه ومصالحته، بل هو مطيع لربه على أي حال، وفي كل زمان ومكان.

وكلما كان وفاء بحفظ حدود الله وشرائعه أعظم، كان حفظ الله له كذلك، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

= والظاهر أنه كثير بن مرة كما قال الحافظ في «التهذيب» (٢٢٩/١٢)، و«التقريب» (ص ٦٧٢). فالحديث بهذه الطرق ثابت بلا ريب.

فائدة: قال المناوي في «فيض القدير» (٤٦٩/٤): قال ابن تيمية: هذه الأربع عندي هي: الفجر وستنها، وبه ردّ تلميذه ابن القيم على من استدل بها على سنّة الضحى. اهـ.

قلت: وقد أورد أبو داود الحديث في «باب صلاة الضحى» وكذا المنذري والهيثمي.

(١) «المفردات» للراغب (ص ١٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٨/١١) عن سهل بن سعد، وأخرجه أيضاً (١١٣/١٢) عن سهل بلفظ: «من توكل لي ما بين...».

وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

قال ابن رجب رحمه الله: «وحفظ الله سبحانه له يتضمن نوعين:

أحدهما: حفظه له في مصالح دنياه، كحفظه في بدنه وولده وماله.

وفي حديث ابن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمشي وحين يصبح: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»^(١).

قال: ودعا رجل لبعض السلف بأن يحفظه الله، فقال له: يا أخي لا تسأل عن حفظه ولكن قل يحفظ الإيمان.

يعني أن المهم هو الدعاء بحفظ الدين، فإن الحفظ الدنيوي قد يشترك فيه البر والفاجر، فالله تعالى يحفظ على المؤمن دينه، ويحول بينه وبين ما يفسده عليه بأسباب قد لا يشعر العبد ببعضها وقد يكون يكرهه.

وهذا كما حفظ يوسف عليه السلام قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. فمن أخلص الله خلصه من السوء والفحشاء وعصمه منهما من حيث لا يشعر، وحال بينه وبين أسباب المعاصي المهلكة. قال: وفي الجملة فيمن حفظ حدود الله وراعى حقوقه، تولى الله حفظه في أمور دينه ودنياه، وفي دنياه وآخرته.

وقد أخبر الله تعالى في كتابه أنه ولي المؤمنين، وأنه يتولى الصالحين، وذلك يتضمن أنه يتولى مصالحهم في الدنيا والآخرة، ولا يكلهم إلى غيره، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، وقال:

(١) حديث صحيح: رواه أحمد (٢/٢٥)، وأبو داود (٥/٥٠٧٤)، والنسائي (٨/٢٨٢) وفي «عمل اليوم والليلة» (٥٦٦)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وابن حبان (٢٣٥٦ - موارد)، والحاكم (١/٥١٧، ٥١٨) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ١٧٢)، (١٧٣) عن عبادة بن مسلم: حدثني جبير بن أبي سليمان بن مطعم عن ابن عمر به. وإسناده صحيح، رجاله ثقات.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]،^(١).

٨ - الله سبحانه يحفظ أعمال عباده فلا يضيع شيء منها ولا يخفى عليه، صغيراً كان أو كبيراً، ويوفاهم بها يوم الحساب إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولا ينسى الله منها شيئاً وإن نسيه الناس، قال تعالى: ﴿أَخَصَّنُهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبا: ٢٩]. وقد وكل الله بذلك حفظة كراماً من الملائكة.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كُنِينًا﴾ [النبا: ١٠ - ١٢].

وقال: ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، وغيرها. ولا يسقط من هذه الصحف شيء ولو صغيراً، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّئُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

وهذا الأمر ليس من مهام الرسل ولا أتباع الرسل؛ بل هو الله وحده، كما قال سبحانه في ذلك: ﴿فَدَّ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقال عن شعيب عليه السلام في خطابه لقومه: ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ [هود: ٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ [النساء: ٨٠]، وغيرها.

٩ - يجوز إطلاق هذا الاسم على الخلق^(٢)، فقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾ [ق: ٣٢]. وقال يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٥٥].



(١) من نور الاقتباس، باختصار.

(٢) انظر المعنى اللغوي لهذا الاسم.

المُقَيِّت

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٤٧)

* المعنى اللغوي:

قال الزجاج: «قال أهل اللغة: إن المُقَيِّتَ المقتدر على الشيء، وقال الله عزَّ ذكره: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقَيِّنًا﴾ [النساء: ٨٥] يريدُ - والله أعلم - مقتدراً.

وقال الشاعر:

أَلَيَّ الْفَضْلُ أَمْ عَلَيَّ إِذَا حُو سَبْتُ إِنِّي عَلَى الْحَسَابِ مَقِيْتُ^(١)
كذا قال في تفسير الأسماء:

وفي اللسان: «قال الزجاج: إن (المقيت) بمعنى: الحافظ والحفيظ؛ لأنه مشتق من القوت؛ أي: مأخوذ من قولهم: قَتَّ الرجل أَقْوَتُهُ، إذا حفظت نفسه بما يقوته، والقوت: اسم الشيء الذي يحفظ نفسه.

قال: فمعنى (المقيت) على هذا: الحفيظ الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة من الحفظ، قال: وعلى هذا فُسِّرَ قوله **﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقَيِّنًا﴾** [النساء: ٨٥]؛ أي: حفيظاً^(٢). اهـ.

وقال الزَّجَّاجي: «(فالمقيت): المقتدر على الشيء، يقال: أقات على الشيء: إذا اقتدر عليه، قال الشاعر:

وذي ضغنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مَقِيْتًا^(٣)
قال الأزهري: «(المقيت)، الميم فيه مضمومة وليست بأصلية، وهو في المعتلَّاتِ^(٤).

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٤٨، ٤٩)، والبيت للسموأل بن عاديء في ديوانه (٨١)، وهو في «الصحاح» (٢٦٢/١)، و«اللسان» (٣٧٦٩/٥).

(٢) «اللسان» (٣٧٦٩/٥).

(٣) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٣٦)، والبيت مختلف في نسبه، انظر: «اللسان» (٣٧٦٩/٥).

(٤) «اللسان» (٤٢٤٢/٦)، وفي «شرح الأسماء» للرازي (ص ٢٦٧): قال الأزهري: وأخبرت عن =

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «هو اسم الفاعل من أفات يقيت إقاةً فهو مقيت، والياء فيه بدل من الواو؛ لأنه مشتق من القوت»^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كَفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا﴾ [النساء: ٨٥].

* المعنى في حق الله تعالى:

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا﴾ [النساء: ٨٥].

فقال بعضهم تأويله: وكان الله على كل شيء حفيظاً وشهيداً. وقال آخرون معنى ذلك: القائم على كل شيء بالتدبير. وقال آخرون: هو القدير. ثم قال: والصواب من هذه الأقوال، قول من قال: معنى (المقيت): القدير، وذلك أن ذلك فيما يذكر كذلك بلغة قريش، وينشد للزبير بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ:

وذي ضغنٍ كففتُ النفس عنه وكنْتُ على مساءته مقيتاً
أي: قادراً.

وقد قيل: إن منه قول النبي ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقيت»^(٢).

= شمر أنه قال: ثلاثة أحرف في كتاب الله نزلت بلغة قريش ﴿فَسَيَنْفُضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾؛ أي: يحركونها، وقوله: ﴿فَشَرِدَ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: نكل بهم من وراءهم، وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا﴾؛ أي: مقتدراً.

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٢٣).

(٢) حديث حسن: روه أبو داود الطيالسي (٢٢٨١)، وأحمد (١٦٠/٢)، وأحمد (١٩٣، ١٩٤، ١٩٥)، وأبو داود (١٦٩٢/٢)، والنسائي في الكبرى - كما في التحفة (٣٨٧/٦)، والحاكم (١/٤١٥)، والبيهقي (٤٦٧/٧): عن أبي إسحاق: سمعت وهب بن جابر يقول: إن مولى لعبد الله بن عمرو قال له: إني أريد أن أقيم هذا الشهر هنا في بيت المقدس، فقال له: تركت لأهلك ما يقوتهم هذا الشهر؟ قال: لا، قال: فارجع إلى أهلك فاترك لهم ما يقوتهم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهب بن جابر من كبار تابعي الكوفة! ووافقه الذهبي! مع أنه قال في «الميزان» (٣٥٠/٤): لا يكاد يعرف. اهـ. وقال عنه ابن المديني: مجهول، ووثقه ابن معين والعجلي، وقال الحافظ: مقبول.

وفي رواية من رواها «يقيت»؛ يعني: من هو تحت يديه وفي سلطانه من أهله وعياله، فيقدر له قوته، يقال منه: أقات فلان الشيء يقيته إقاةً، وقاته يقوته قياتةً، والقوت الاسم.

وأما المقيت في بيت اليهودي الذي يقول فيه:

ليت شعري وأشعرن إذا ما قَرَّبوها منشورة ودعيت

أَلَيَّ الفضل أم عليّ إذا حو سبت إني على الحساب مقيت

فإن معناه: فإنني على الحساب موقوف، وهو من غير هذا المعنى. اهـ^(١).

واختار أن معنى (المقيت): القدير: الفراء^(٢)، والخطابي^(٣)، وابن قتيبة^(٤).

قال ابن العربي: «وقد قال علماء اللغة: إنه بمعنى (القادر) وليس فيه على هذا

أكثر من السماع، فلو رجعنا إلى الاستقراء وتبع مسالك النظر لجعلناه في موارد

كلها بمعنى القوت، ولكن السماع يقضي على النظر.

وعلى القول بأنه «القادر» يكون من صفات الذات.

وإن قلنا: إنه اسم للذي يعطي القوت فهو اسم للوهاب والرزاق، ويكون من

صفات الأفعال» اهـ^(٥).

وقال القرطبي بعد أن ذكر المعنى اللغوي: «فالمعنى أن الله تعالى يعطي كل

إنسان وحيوان قوته على ممر الأوقات، شيئاً بعد شيء، فهو يمدّها في كل وقت بما

= وله شاهد أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٤١٤/١٢) عن إسماعيل بن عياش عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً به.

قال الهيثمي في المجمع (٣٢٥/٤): رواه الطبراني من رواية إسماعيل بن عياش عن موسى بن

عقبة (وقع في المجمع: عتبة، وهو خطأ)، ورواية إسماعيل عن الحجازيين ضعيفة. اهـ.

والحديث بهذين الطريقتين حسن إن شاء الله.

ويشهد له ما أخرجه مسلم (٦٩٢/٢)، وأبو نعيم في الحلية (١٢٢/٤، ٢٣/٥).

عن طلحة بن مُصْرَفٍ عن خيثمة قال: كنا جلوساً مع عبد الله بن عمرو إذا جاءه قهرمان له

فدخل، فقال: أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا، قال: فانطلق فاعطهم، قال: قال

رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته».

(١) «التفسير» (١١٨/٥، ١١٩)، وقد ذكر آثاراً في بيان معنى المقيت عن ابن عباس ومجاهد

وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد، أعرضت عن إيرادها لضعف أسانيدھا.

(٢) «معاني القرآن» (٢٨٠/١).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٦٨)، وقال: والمقيت أيضاً: معطي القوت.

(٤) «غريب القرآن» (ص ١٣٢)، وقال: المقيت أيضاً: الشاهد للشيء الحافظ له.

(٥) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٢٤).

جعله قواماً لها، إلى أن يريد إبطال شيء منها، فيحبس عنه ما جعله مادةً لبقائه فيهلك»^(١). اهـ.

وقال في التفسير: وقال أبو عبيدة: (المقيت): الحافظ، وقال الكسائي: (المقيت): المقتدر.

وقال النحاس: وقول أبي عبيدة أولى لأنه مشتق من القوت، والقوت معناه: مقدار ما يحفظ الإنسان^(٢).

وفي المقصد: «(المقيت) معناه: خالق الأقوات، وموصلها إلى الأبدان وهي الأطعمة، وإلى القلوب وهي المعرفة، فيكون بمعنى «الرزاق»، إلا أنه أخص منه، إذ الرزق يتناول القوت وغير القوت، والقوت ما يكتفى به في قوام البدن.

وأما أن يكون بمعنى المستولي على الشيء، القادر عليه، والاستيلاء يتم بالقدرة والعلم، وعليه يدل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥]؛ أي: مطلعاً قادراً، فيكون معناه راجعاً إلى القدرة والعلم، أما العلم فقد سبق، وأما القدرة فستأتي، ويكون بهذا المعنى وصفه بـ(المقيت) أتم من صفته بالقادر وحده وبالعالم وحده؛ لأنه دالٌّ على اجتماع المعنيين، وبذلك يخرج هذا الاسم عن الترادف»^(٣). اهـ.

وقال عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «(المقيت) الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقات، وأوصل إليها أرزاقها، وصرفها كيف يشاء بحكمته وحمده»^(٤).

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إن الله هو (المقيت)؛ أي: القدير على كل شيء، وسيأتي بسط الكلام على ذلك في (القدير) إن شاء الله تعالى.

٢ - إن الله ﷻ هو المعطي لأقوات الخلق صغيرهم وكبيرهم، قويهم وضعيفهم، غنيهم وفقيرهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٢٤) وهو ناقل عن الحلبي، انظر: «المنهاج» (٢٠٣/١). وذكر المعنيين النسفي في تفسيره (٢٤٠/١).

(٢) القرطبي (٢٩٦/٥)، وقول أبي عبيدة في «مجاز القرآن» (١٣٥/١).

(٣) «المقصد الأسنى» (ص ٧١)، وفي «الحجة» للأصبهاني (ق ١٢٣) قال: يُنزل الأقوات للخلق، ويقسم أرزاقهم، وقيل: (المقيت): القدير.

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٠٢/٥).

وقد قَدَّرَ الله- ذلك كله عند خلقه للأرض، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَأْكُلُوا مِنْهُنَّ﴾ [فصلت: ١٠].

قال ابن كثير: «وقدَّرَ فيها أقواتها، وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس»^(١).

وقال القرطبي: «معنى ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي: أرزاق أهلها وما يصلح لمعاشهم، من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة، ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلدٍ إلى بلدٍ»^(٢).

٣ - قال القرطبي في «الأسنى»: «وقد يقوت الأرواح إدامة المشاهدة ولذيذ المؤانسة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الدِّينَ أَمْنٌ وَعَمَلٌ وَالصَّلَاةُ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]»^(٣).

والى هذا أحد أوجه قوله عليه الصلاة والسلام: «إني لست كهيتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»^(٤).
وأنشدوا:

فقوت الروح أرواح المعاني وليس بأن طعمت وأن شربنا
فلكل مخلوق قوت، فالأبدان قوتها المأكول والمشروب، والأرواح قوتها العلوم، وقوت الملائكة التسبيح، وبالجملة فالله سبحانه هو المقيت لعباده، الحافظ لهم، والشاهد لأحوالهم، والمطلع عليهم، وقد تضمن هذا الاسم جميع الصفات. فيجب على كل مكلف أن يعلم أن لا قائم بمصالح العباد إلا الله سبحانه، وأنه الذي يقوتهم ويرزقهم.

وأفضل رزق يرزقه الله العقل، فمن رزقه العقل أكرمه، ومن حرمه ذلك فقد أهانه»^(٥). اهـ.



(٢) «التفسير» (٣٤٢/١٥، ٣٤٣).

(١) «التفسير» (٩٣/٤).

(٣) قال في التفسير (٣١٢/٨): ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾؛ أي: يزيدهم هداية؛ كقوله: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾.

(٤) رواه البخاري (٢٠٢/٤)، ومسلم (٧٧٦/٢) من حديث عائشة رضي الله عنها، وهو مروي في الصحيحين بنحو هذا اللفظ من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عمر وأنس رضي الله عنهم.

(٥) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٢٤، ٣٢٥).

الحاسب، الحسيب جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه

(٤٨ - ٤٩)

* المعنى اللغوي:

حَسَبْتُهُ أَحْسَبُهُ حِسْباً وَحِسَاباً وَحُسْبَاناً وَحِسَابَةً: إذا عددته.
قال الكسائي: ما أدري ما حَسَبُ حديثك؛ أي: ما قَدَرُهُ.
والحَسَبُ أيضاً: ما يعدُّه الإنسان من مفاخر آبائه، ويقال: حَسَبُهُ دينه، ويقال:
ماله، والرجل حَسِيبٌ.

حاسبته من المحاسبة، فالْحَسَبُ: العدُّ والإحصاء.
واحْتَسَبْتُ بكذا أجراً عند الله، والاسم الحِسْبَةُ، وهي الأجر والجمع الحِسْب.
ويقال أيضاً: إِنَّهُ لَحَسَنُ الحِسْبَةِ في الأمر، إذا كان حَسَنَ التدبير له.
وأحسبني الشيء؛ أي: كفاني، وأحسبته وَحَسَبْتُهُ بالتشديد معنى؛ أي: أعطيته ما
يرضيه.

وحسبك درهم؛ أي: كفاك وهو اسم، وشيءٌ حَسَابٌ؛ أي: كافٍ، ومنه قوله
تعالى: ﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ [النبا: ٣٦]؛ أي: كافياً.

وتقول: أعطي فأحسب؛ أي: أكثر حتى قال: حسيبي.
وقال ثعلب: أَحْسَبَهُ من كل شيء أعطاه حسبه وما كفاه.
وهذا رجل حَسْبُكَ من رجلٍ، وهو مدح للنكرة؛ لأنَّ فيه تأويل فعل كأنه قال:
مُحْسِبٌ لك؛ أي: كافٍ لك من غيره.

وقولهم: حسيبك الله؛ أي: انتقم الله منك.
وحَسِبْتَهُ صالحاً أَحْسَبُهُ بالفتح؛ أي: ظننته^(١).

(١) «الصحاح» (١٠٩/١ - ١١١)، «اشتقاق الأسماء» (ص ١٢٩ - ١٣٢)، «غريب الحديث» لابن
قتيبة (٧١٩/٣)، و«اللسان» (٨٦٣/٢ - ٨٦٨).

وقال الراغب: «والحسب والمحاسب من يُحاسبك، ثم يُعبر به عن المكافئ بالحساب»^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد اسمه (الحاسب) مرتين في صيغة الجمع:
في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسَيْنِ﴾ [الأنعام: ٦٢].
وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبًا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

أما (الحسب) فقد ورد ثلاث مرّات:
في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦ والأحزاب: ٣٩].
وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

* المعنى في حق الله تعالى:

قال الزجاج: «الحسب يجوز أن يكون من: حَسَبَتِ الحساب. ويجوز أن يكون أَحْسَنِي الشيء إذا كفاني، وقال الشاعر:
وَنُحْسِبُهُ إِنْ كَانَ لَيْسَ بِجَائِعٍ

فالله تعالى (مُحْسِبٌ) أي: كافٍ، فيكون فعلاً في معنى مفعول، كألیم ونحوه. ويجوز أن يكون من حَسَبْتُ الحساب.

فالله تعالى محسوبٌ عطاياه وفواضله. وقال الشاعر:

إِنْ يَدْعُ زَيْدٌ بَنِي ذُهْلٍ لِمَغْضَبَةٍ نَغْضَبُ لَزْرَعَةٍ إِنَّ الْفَضْلَ مُحْسِبٌ»^(٢)

قال أبو عبيدة: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]؛ أي: كافياً مقتدرًا، يقال: أحسبني هذا؛ أي: كفاني^(٣).

قال ابن جرير في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦]: «وكفى بالله كافياً من الشهود الذين يُشهدهم والي اليتيم على دفعه مال يتيمة إليه»^(٤).

وقال في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]: «وكفاك يا محمد بالله حافظاً لأعمال خلقه، ومحاسباً لهم عليها»^(٥).

(١) «المفردات» (ص ١١٧).

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٤٩)، والبيت الأوّل لامرأة من بني قشير، «اللسان» (٢/ ٨٦٥)، والثاني لابن عنمة الضبي، الأصمعية (٨٦).

(٣) «مجاز القرآن» (١/ ١٣٥).

(٤) «التفسير» (٤/ ١٧٦).

(٥) المصدر السابق (٢٢/ ١٢).

وقد اختار ابن جرير أن معني (الحسيب): هو الحفيظ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّمُ بِنَحِيَّتِهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

فقد قال: «يعني بذلك جل ثناؤه أن الله كان على كل شيء مما تعملون أيها الناس من الأعمال - من طاعة أو معصية - حفيظاً عليكم حتى يجازيكم بها جزاءه». وقال: وأصل الحسيب في هذا الموضع عندي، فعيل من الحساب الذي هو في معنى الإحصاء، يقال منه: حاسبت فلاناً على كذا وكذا، وفلان حاسبه على كذا، وهو حسيبه، وذلك إذا كان صاحب حسابه.

وقد زعم بعض أهل البصرة من أهل اللغة^(١) أن معني (الحسيب) في هذا الموضع: الكافي، يقال منه: أحسبني الشيء يحسبني إحساباً، بمعنى: كفاني، من قولهم: حسبي كذا وكذا.

وهذا غلط من القول وخطأ. وذلك لأنه لا يقال في أحسبت الشيء: أحسبت على الشيء فهو حسيبٌ عليه، وإنما يقال: هو حسبه وحسيبه.

والله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]^(٢). اهـ.

قال الخطابي: «الحسيب هو المكافئ، فعيل بمعنى مفعول، كقولك: أليم بمعنى: مؤلم، تقول العرب: نزلت بفلان فأكرمني وأحسبني؛ أي: أعطاني ما كفاني حتى قلت: حسبي.

و(الحسيب) أيضاً بمعنى: المحاسب، كقولهم: وزير ونديم بمعنى: موازر ومنادم. ومنه قول الله سبحانه: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]؛ أي: محاسباً، والله أعلم»^(٣).

قال الحليمي: «(الحسيب) ومعناه: المدرك للأجزاء والمقادير التي يعلم العباد أمثالها بالحساب من غير أن يحسب؛ لأن الحاسب يدرك الأجزاء شيئاً فشيئاً، ويعلم الجملة عند انتهاء حسابه، والله تعالى لا يتوقف علمه بشيء على أمر يكون وحال يحدث»^(٤).

(١) الظاهر أنه يريد أبا عبيدة معمر بن المثنى البصري، الذي تقدّم قوله.

(٢) «التفسير» (١٢٠/٥). (٣) «شأن الدعاء» (ص ٦٩، ٧٠).

(٤) «المنهاج» (٢٠٠/١)، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٥) في باب جماع أبواب ذكر الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، وزاد: وقد قيل: الحسيب هو الكافي فعيل بمعنى مفعول، تقول العرب: نزلت بفلان فأكرمني وأحسبني؛ أي: أعطاني ما كفاني حتى قلت: حسبي. اهـ.

وقال ابن القيم في نونيته:

وهو الحسيبُ كفايةً وحمايةً والحسبُ كافي العبد كل أوان^(١)
وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «(الحسيب) هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المُجَازِي لعباده بالخير والشر بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها»^(٢).
فيتلخص عندنا في معنى (الحسيب) و(الحاسب):
١ - إنه الكافي، فعيل بمعنى مفعول، كقولك: أليم بمعنى: مؤلم، فهو كافي المتوكلين عليه.

٢ - إنه المحاسب؛ كالنديم بمعنى المنادم، كما قال تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]؛ أي: محاسباً.

* آثار الإيمان بهذين الاسمين:

١ - إن الله ﷻ هو الكافي لعباده، الذي لا غنى لهم عنه أبداً، بل لا يُتصور لهم وجود بدونه، فهو خالقهم وبارئهم ورازقهم وكافهم في الدنيا والآخرة، لا يشاركه في ذلك أحد أبداً، وإن ظن الناس أن غير الله يكفيهم فهو ظنٌ باطلٌ، وخطأٌ محضٌ، بل كل شيء بخلقه وتقديره وأمره.

قال في «المقصد»: هو الكافي، وهو الذي من كان له كان حسبه، والله تعالى حسيب كل أحد وكافيه، وهذا وصف لا يتصور حقيقته لغيره، فإن الكفاية إنما يحتاج إليها المكفي، لوجوده ولدوام وجوده ولكمال وجوده.
وليس في الوجود شيء هو وحده كافٍ لشيء إلا الله تعالى، فإنه وحده كافٍ لكل شيء، لا لبعض الأشياء؛ أي: هو وحده كافٍ يتحصل به وجود الأشياء ويدوم به وجودها ويكمل به وجودها.

ولا تظنن أنك إذا احتجت إلى طعام وشراب وأرض وسماء وشمس وغير ذلك، فقد احتجت إلى غيره ولم يكن هو حسبك، فإنه هو الذي كفاك بخلق الطعام والشراب والأرض والسماء، فهو حسبك.

ولا تظنن أن الطفل الذي يحتاج إلى أمه، ترضعه وتتعهده فليس الله حسيبه وكافيه، بل الله كفاه إذ خلق أمه، وخلق اللبن في ثديها وخلق له الهداية إلى التمام، وخلق الشفقة والمودة في قلب الأم حتى مكنته من الالتقام، ودعته إليه وحملته عليه.

(١) «النونية» (٢/ ٢٣٣).

(٢) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠٢).

فالكفاية إنما حصلت بهذه الأسباب، والله وحده المتفرد بخلقها لأجله، ولو قيل لك أن الأم وحدها كافية للطفل وهي حسبه لصدقت به، ولم تقل: إنها لا تكفيه لأنه يحتاج إلى اللبن فمن أين تكفيه الأم إذا لم يكن لبن؟ ولكنك تقول: نعم، يحتاج إلى اللبن، ولكن اللبن أيضاً من الأم، فليس محتاجاً إلى غير الأم، فاعلم أن اللبن ليس من الأم، بل هو والأم من الله، ومن فضله وجوده.

فهو وحده حسب كل أحد، وليس في الوجود شيء وحده وهو حسب شيء سواه، بل الأشياء تتعلق بعضها ببعض وكلها تتعلق بقدرة الله تعالى^(١). اهـ.

فالله وحده حسب كل أحد، لا يشاركه في ذلك أحد، وهذا هو المعنى الصحيح: لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وهو المعنى الذي اختاره أكثر العلماء^(٢) والذي تؤيده الأدلة الكثيرة.

قال ابن القيم رحمه الله بعد ذكره للآية السابقة: أي الله وحده كافيك، وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد.

قال: وهنا تقديران، أحدهما: أن تكون الواو عاطفة لـ«مَنْ» على الكاف المجرورة، ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار على المذهب المختار، وشواهد كثيرة، وشبه المنع منه واهية.

والثاني: أن تكون الواو واو «مع»، وتكون «مَنْ» في محل نصب عطفاً على الموضع، «فإن حسبك» في معنى «كافيك»؛ أي: الله يكفيك ويكفي مَنْ اتَّبَعَكَ، كما تقول العرب: حسبك وزيداً درهم، قال الشاعر:

إِذَا كَانَتْ الْهَيْجَاءُ وَأَنْشَقَّتِ الْعَصَا فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاكَ سَيْفٌ مُهَنْدٌ
وهذا أصح التقديرين.

وفيها تقدير ثالث: أن تكون «مَنْ» في موضع رفع بالابتداء؛ أي: ومن اتبعك من المؤمنين، فحسبهم الله.

وفيها تقدير رابع، وهو خطأ من جهة المعنى، وهو أن تكون «مَنْ» في موضع رفع عطفاً على اسم الله، ويكون المعنى: حسبك الله وأتباعك، وهذا وإن قاله بعض

(١) «المقصد الأسنى» (ص ٧٢).

(٢) وهو الذي اختاره ابن جرير في تفسيره (٢٦/١٠) وذكره بأسانيد عن الشعبي - لكن مدارها على شاذب مولى الشعبي، ذكره ابن أبي حاتم ولم يحك فيه جرحاً ولا تعديلاً - وابن زيد، واقتصر عليه ابن كثير (٣٢٤/٢)، واختاره الشنقيطي في «أضواء البيان» (٤١٦/٢) وقال: لدلالة الاستقراء في القرآن على أن الحسب والكفاية لله وحده. اهـ.

الناس^(١) فهو خطأ محض، لا يجوز حمل الآية عليه، فإن «الحسب» و«الكفاية» لله وحده، كالتوكل والتقوى والعبادة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِصِرِّهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]. ففترق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وعباده، وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، فإذا كان هذا قولهم، ومدح الرب تعالى لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله: الله وأتباعك حسبك؟ وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب، ولم يُشركوا بينه وبين رسوله فيه، فكيف يُشرك بينهم وبينه في حسب رسوله؟! هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩] فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَحُذُّهُ﴾ [الحشر: ٧]. وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا: حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]. ولم يقل: وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [٧] وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب [الشرح: ٧، ٨] فالرغبة، والتوكل، والإنابة، والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى، والسجود لله وحده، والنذر والحلف لا يكون إلا لله ﷻ.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]^(٢)، فالحسب: هو الكافي، فأخبر ﷻ أنه وحده كافٍ عبده، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية؟! والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد أكثر من أن تذكر ههنا^(٣). اهـ.

(١) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٤١٧/١) وقال: وهو أحب الوجهين إليّ. اهـ. ونقله القرطبي (٤٣/٨) عن الحسن والنحاس.

(٢) وفي قراءة حمزة والكسائي: «أليس الله بكاف عباده».

الاستفهام للاستنكار؛ أي: إن كفاية الله لعبده ظاهرة لا يتسنى لأحد إنكارها لظهورها للعيان.

(٣) «زاد المعاد» (٣٥/١ - ٣٧).

وبقدر ما يلتزم العبد بطاعة الله ورسوله، تكون الولاية والكفاية، ولذلك يتابع ابن القيم كلامه قائلاً:

«والمقصود أن بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أن بحسب متابعتة تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله سبحانه علّق سعادة الدارين بمتابعتة، وجعل شقاوة الدارين في مخالفتة، فلا تباعه الهدى والأمن، والفلاح والعزة، والكفاية والنصرة، والولاية والتأييد، وطيبُ العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلُّ والصغار، والخوفُ والضلال، والخِذلان والشفاء في الدنيا والآخرة». اهـ.

٢ - والله ﷻ (الحاسب) الذي أحصى كل شيء، لا يفوته مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [٩٦] لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ [مريم: ٩٣، ٩٤].

وكتب ذلك في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو^(١).

وتصديق ذلك من كتاب الله قوله سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، والإمام هو أم الكتاب^(٢).

وقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبا: ٢٩].

٣ - وأعمالك أيها الإنسان كلها محسوبة محضاة، لا يضيع منها شيء، ولا يُزاد عليك شيء، فتجزى بها يوم القيامة ولا تظلم.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوءٌ﴾ [المجادلة: ٦].

وقد أمر الله سبحانه الحفظة بذلك، أن يدونوا كل صغيرة وكبيرة.

(١) رواه مسلم (٢٠٤٤/٤)

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١٠٠/٢٢)، وغيره.

قال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وهذا الحفظ والإحصاء الدقيق، والحساب الذي لا يفوته شيء، هو الذي يبهت أهل الإجرام، الذين لا يبالون بأعمالهم صلحت أو فسدت، يعملون السيئات بلا حساب ويظنون أنهم متروكون سدى، لا حساب ولا عذاب، قال تعالى عنهم: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبَوِّلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

لذلك كان لزاماً علينا أن نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب، وأن نزن أعمالنا قبل أن نوزن.

قال الأفلحي: «فأرباب القلوب، المحسّون بأوجاع الذنوب العالمون يقيناً بمحاسبة عَلام الغيوب، وإحصاء حسابه لجميع العيوب، أقاموا في الدنيا موازين القسط على أنفسهم، وأحصوا عليها بالحساب المحرّر كلما برز عنها وصدر؛ ثم حاسبوها محاسبة الشريك النحرير القائم بماله، شريكه الذي انفصل عن شركته بعداوة وقعت بينه وبينه، فانظر هل يسمح له بترك حبة، أو يسقيه من مائه عند ظمأه عبّه، فلذلك انتشرت ذنوب هؤلاء من الصحائف كما ينتثر ورق الشجر اليابس بالريح العاصف. فإذا قدموا قضاء الموقف، برزت لهم تلك الصحائف منيرة، وقد استنارت فيها المعاني والأحرف؛ لأنها مُمَحَّضَةٌ مَخْلَصَةٌ بدقيق المحاسبة وشديد المطالبة، فكان حسابهم عرضاً لا مناقشة»^(١). اهـ.

٤ - وحساب الخلق لا مشقة فيه على الخالق الحاسب، بل هو يسير عليه.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

قال ابن جرير: «ثم ردت الملائكة الذين توفوهم فقبضوا نفوسهم وأرواحهم إلى سيدهم الحق، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يقول: ألا له الحكم والقضاء دون سواه من جميع خلقه، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يقول: وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وأجالكم، وغير ذلك من أموركم أيها الناس، وأحصاها وعرف مقاديرها ومبالغها.

لأنه لا يحسب بعقد يد، ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية، ولا يعزب

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٠١ب).

عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين^(١). اهـ.

فكما أن خلقهم وبعثهم لا مشقة فيه، كما قال سبحانه: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَفَيسٍ وَحَدَّةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

فكذلك حسابهم لا مشقة فيه ولا تأخير، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فسبحان الله العظيم، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.



(١) «جامع البيان» (٧/١٤٠).

الكريم، الأكرم جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه

(٥٠ - ٥١)

* المعنى اللغوي:

قال ابن سيده: «الكرمُ نقيضُ اللُّؤمِ، يكون في الرجل بنفسه وإن لم يكن له آباء، ويستعمل في الخيل والإبل والشجر وغيرها من الجواهر إذا عنوا العِتق، وأصله في الناس»^(١).

قال الجوهري: «وقد كَرَّمَ الرجل بالضم فهو كريم، وقوم كِرَامٌ وكُرماء، ونسوة كرائم.

والكُرَامُ بالضم، مثل الكريم، فإذا أفرط في الكرم قيل: كُرَامٌ بالتشديد، وكارمُ الرجل إذا فاخرته في الكرم، فكَرَّمته أَكْرَمُهُ بالضم إذا غلبته فيه. (والكريم): الصفوح.

والأَكْرَمَةُ من الكرم، كالأعجوبة من العجب، وأَكْرَمَ الرجل: أتى بأولادٍ كرام. وكَرَّمَ السحابُ: إذا جاء بالغيث.

وقيل لشجرة العنب: كَرَمَةٌ بمعنى كريمة، وذلك لكثرة خيرها وقرب جناها. وقد يُسمى الشيء الذي له قَدَرٌ وخطرٌ: كريماً، ومنه قوله سبحانه في قصة سليمان عليه السلام: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ﴾ [النمل: ٢٩] جاء في تفسيره: كتابٌ جليلٌ خطيرٌ، وقيل: وصفته بذلك لأنه كان مختوماً، وقيل: كان حسن الخط، وقيل: لأنها وجدت فيه كلاماً حسناً^(٢). اهـ.

والكَرْمُ: كرم العنب، والقلادة أيضاً.

والمَكْرَمَةُ: واحدة المكارم، وأرض مَكْرَمَةٌ للنبات إذا كانت جيدة النبات^(٣). قال الزجاج: «الكرمُ سرعة إجابة النَّفسِ، كريم الخُلُقِ وكريم الأصل.

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٧٠، ٧١).

(١) «اللسان» (٣٨٦١/١٥).

(٣) «الصحاح» (٢٠١٩/٥، ٢٠٢٠). وانظر: «أساس البلاغة» (٥٤١، ٥٤٢).

وحكى الأحوال^(١): جوزة كريمة؛ أي: هشة المكسر، وكأن سرعة انكسارها وهشاشتها، جعل إجابة منها، فشبّه بها الكريم من الرجال، إذا كان سريعاً إلى الخيرات، هذا هو الأصل، والله تعالى سبب كل خير ومسهله، فهو أكرم الأكرمين^(٢). اهـ.

وقال الزجاجي: «(الكريم): الجواد، و(الكريم): العزيز، و(الكريم): الصفوح، هذه ثلاثة أوجه للكريم في كلام العرب، كلها جائز وصف الله ﷻ بها»^(٣).

وقال الخطابي: «قال بعض أهل اللغة: (الكريم): الكثير الخير، والعرب تسمي الشيء النافع الذي يدوم نفعه ويسهل تناوله: كريماً، ولذلك قيل للناقة الحوار: كريمة، وذلك لغزارة لبنها، وكثرة درّها.

وللنخلة التي لا يُخلف حمْلُها، وكانت مع ذلك غير مُرْقَلَةٍ يصعب الرقي فيها: هذه نخلة كريمة»^(٤).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد اسمه (الكريم) ثلاث مرات:

في قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]^(٥).

وبقوله: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

أما (الأكرم) فورد في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣].

(١) هو محمد بن الحسن بن دينار اللغوي المعروف بالأحول، إمام في اللغة والشعر، مشهور بها، وله فيها تصانيف مفيدة، منها: كتاب «الدّواهي»، وكتاب «الأباء والأمهات»، وكتاب «ما اتفق لفظه واختلف معناه»، وغير ذلك، توفي سنة (٢٥٩هـ). «تاريخ بغداد» (٢/ ١٨٥)، «إشارة التعيين» (ص ٣٠٦)، «الفهرست» (٧٩).

(٢) «تفسير أسماء الله» (ص ٥٠، ٥١).

(٣) «اشتقاق أسماء الله» (ص ١٧٦)، وذكر مثله القرطبي في «الأسنى» ورقة (٢٦٨ب).

(٤) الرقّة مثل الرعلة، والجمع الرّقال، وهي الطوال من النخل. «الصحاح» (٤/ ١٧١٢).

(٥) في قراءة حفص «الكريم» بالكسر نعتاً للعرش، وقرأ أبان بن تغلب وابن محيصن وأبو جعفر وإسماعيل عن ابن كثير «الكريم» بالرفع على أنه صفة للرب. انظر: «تفسير القرطبي» (١٢/ ١٥٧)، و«روح المعاني» (٧١/ ١٨).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير: «(كريم) ومن كرمه أفضاله على من يكفر نِعَمَه، ويجعلها وَصْلَةً يَتَوَصَّلُ بها إلى معاصيه»^(١).

وقال الحلبي: «(الكريم) ومعناه: النَّفَّاع، من قولهم: شاةٌ كريمة، إذا كانت غزيرة اللبن تُدر على الحالب، ولا تقلص بأخلافها، ولا تحبس لبنها. ولا شك في كثرة المنافع التي مَنَّ الله تعالى بها على عباده، ابتداءً منه وتفضلاً، فهو باسم الكريم أحق من كلِّ كريم»^(٢).

وقال القرطبي بعد أن ذكر أن الكريم له ثلاثة أوجه هي: «الجواد والصفوح والعزیز: وهذه الأوجه الثلاثة يجوز وصف الله ﷻ بها، فعلى أنه جوادٌ كثير الخير، صفوح لا بدَّ من مُتَعَلِّقٍ يصفح عنه وينعم عليه.

وإذا كان بمعنى العزيز كان غير مقتضٍ مفعولاً في أحد وجوهه. فهذا الاسم متردد بين أن يكون من أسماء الذات، وبين أن يكون من أسماء الأفعال. والله جلَّ وعزَّ لم يزل كريماً ولا يزال، ووصفه بأنه كريم هو بمعنى نفي النقائص عنه، ووصفه بجميع المحامد، وعلى هذا الوصف يكون من أسماء الذات، إذ ذلك راجعٌ إلى شرفه في ذاته وجلالة صفاته.

وإذا كان فعلياً كان معنى كرمه ما يصدرُ عنه من الإفضال والإنعام على خلقه. وإن أردت التفرقة بين (الأكرم) و(الكريم)، جعلت (الأكرم) الوصف الذاتي، و(الكريم) الوصف الفعلي»^(٣). اهـ.

وقد حكى ابن العربي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في معنى (الكريم) ستة عشر قولاً، نوردها باختصار:

الأول: الذي يعطي لا لعوض.

الثاني: الذي يعطي بغير سبب.

الثالث: الذي لا يحتاج إلى الوسيلة.

الرابع: الذي لا يبالي من أعطى ولا من يحسن، كان مؤمناً أو كافراً، مُقْراً أو جاحداً.

(١) «التفسير» (١٩/١٠٤).

(٢) «المنهاج» (١/٢٠١)، وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، وكذا البيهقي في «الأسماء» (ص ٧٣).

(٣) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٦٨ ب، ٢٦٩ أ).

الخامس: الذي يستبشر بقبول عطائه ويُسرُّ به.

السادس: الذي يعطي ويثني، كما فعل بأوليائه حَبَّبَ إليهم الإيمان وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثم قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ ﴿٧﴾ فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

ويحكي أنَّ الجنيد سمع رجلاً يقرأ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤]، فقال: سبحان الله! أعطى وأثنى، المعنى: أنَّه الذي وهب الصبر وأعطاه، ثمَّ مدحه به وأثنى. السابع: أنَّه الذي يُعْطِ عطاؤه المحتاجين وغيرهم.

الثامن: أنَّه الذي يُعْطِي من يلومه.

التاسع: أنَّه الذي يعطي قبل السؤال، قال الله العظيم: ﴿وَأَتَّكُم مِّن كُلِّ مَأْسَأَتِهِمْ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

العاشر: الذي يُعْطِي بالتَّعَرُّض.

الحادي عشر: أنَّه الذي إذا قَدَّرَ عفى.

الثاني عشر: أنَّه الذي إذا وَعَدَ وفى.

الثالث عشر: أنَّه الذي تُرْفَعُ إليه كل حاجة صغيرة كانت أو كبيرة.

الرابع عشر: أنَّه الذي لا يُضَيِّعُ من تَوَسَّلَ إليه ولا يترك من التجأ إليه.

الخامس عشر: أنَّه الذي لا يعاتب.

السادس عشر: أنَّه الذي لا يعاقب^(١). اهـ.

أما (الأكرم)، فقال الخطابي: «هو أكرم الأكرمين، لا يوازيه كريم، ولا يعادله نظير، وقد يكون (الأكرم) بمعنى: الكريم، كما جاء: الأعزُّ والأطول، بمعنى: العزيز والطويل»^(٢).

قال القرطبي: «إنَّ (الأكرم) الوصف الذاتي و(الكريم) الوصف الفعلي، وهما مُشتقان من الكرم، وإن اختلفا في الصيغة»^(٣).

* آثار الإيمان بهذين الاسمين:

١ - تكلم ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ^(٤) كلاماً طيباً في تفصيل الأقوال السابقة، فأجاد فيه وأفاد، قال رحمه الله تعالى:

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٦٩، ٢٧٠ب)، وسيأتي تفصيله لهذه الأقوال في آثار الإيمان.

(٢) «شأن الدعاء» (ص ١٠٣، ١٠٤)، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٧٥).

(٣) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٧٥). (٤) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٧٠أ - ٢٧٢أ).

أ - أمّا إذا قلنا: إِنَّ (الكريم) هو الكثير الخير، فمن أكثر خيراً من الله لعموم قدرته وسعة عطائه، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

ب - وأمّا إذا قلنا: إِنَّه الدائم بالخير فذلك بالحقيقة لله، فإنه كل شيء ينقطع إلا الله وإحسانه، فإنه دائم متصل في الدنيا والآخرة.

ج - وأمّا إن قلنا: إِنَّه الذي يسهل خيره، ويقرب تناول ما عنده فهو الله بالحقيقة، فإنه ليس بينه وبين العبد حجاب، وهو قريب لمن استجاب، قال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: ١٨٦].

د - وأمّا إن قلنا: إِنَّ الكريم هو الذي له قدر عظيم، وخطر كبير، فليس لأحد قدر بالحقيقة إلا الله تعالى، إذ الكلُّ له خلقٌ وملك، إليه يضاف كل شيء، ومن شرفه يشرف كل شيء، وكرم كل كريم من كرمه.

هـ - وأمّا إن قلنا: إن (الكريم) هو المنزه عن النقائص والآفات، فهو الله وحده بالحقيقة؛ لأنه تقدّس عن النقائص والآفات وحده على الإطلاق والتمام والكمال من كل وجه، وفي كل حال، بخلاف الخلق فإنهم إن كرموا من وجه، سفلوا من وجه آخر، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤، ٥].

و - وأمّا إن قلنا: إن (الكريم) بمعنى المُكْرِم، فمن المُكْرِم إلا الله تعالى، فمن أكرمه الله أكرّم ومن أهانه أهين^(١).

ز - وأمّا إن قلنا: (الكريم) هو الذي لا يتوقع عوضاً، فليس إلا الله وحده؛ لأن كل شيء خلقه وملكه فما يعطي له وما يأخذه له، وما يُعطي كل مُعْطٍ أو يعمل كل عاملٍ، فبقدرته وإرادته، والعوضُ والمعوّض خلق له.

ح - وأمّا إن قلنا: إنَّ (الكريم) هو الذي يعطي لغير سبب فهو الله وحده؛ لأنه بدأ الخلق بالنعم، وختم أحوالهم بالنعم، وإن جاء في الأخبار أنه أعطي بكذا أو عمل بكذا لكذا، فالعطاء منه والسبب جميعاً، والكلُّ عطاءً بغير سبب.

ط - وأمّا إن قلنا: إنَّ (الكريم) هو الذي يُعطي بغير وسيلة، فالأجواد يتفاضلون، فمنهم من يُعطي جبلةً، ومنهم من يعطي مراعاةً لحق المتوسل، والباري يعطي بغير

(١) قال الله تعالى في هذا: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

وسيلة؛ لأن حرمة النبي أو الولي الذي أعطى بها^(١)، أعطى بمجرد المشيئة من غير وسيلة، كما قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

ي - وأما إن قلنا: إِنَّ (الكريم) هو الذي لا يبالي من أعطى فهو الله وحده؛ لأن الخلق جُبلت قلوبهم على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، والباري يُعطي الكافر^(٢) والمتقين، وربما حَصَّ الكافر في الدنيا بمزيد العطاء، ولكن الآخرة للمتقين.

ك - وأما إن قلنا: إنه الذي يُري للقابل لعطائه مِنَّةً، فالباري تقدس عن تصور ذلك في حقه.

ل - وأما إن قلنا: إِنَّ (الكريم) هو الذي يُعطي من احتاج^(٣) ومن لا يحتاج، فهو الله وحده؛ لأنه يُعطي ويزيد على قدر الحاجة، ويُعطي من يحتاج ومن لا يحتاج حتى يصبَّ عليه الدنيا صَبًّا.

م - وأما إن قلنا: إِنَّ (الكريم) هو الذي لا يُخَصُّ بكبير من الحوائج دون صغيرها فهو الله تعالى، رُوي أنه يَسْأَلُ العبد رَبَّهُ كل شيء في صلاته قال: حتى^(٤) ... وذكر القشيري أن موسى ﷺ قال في مناجاته: إنه لتعرض لي الحاجة أحياناً فأستحيي أن أسألك، فأسأل غيرك، فأوحى الله إليه: يا موسى لا تسأل غيري، وسلني حتى ملح عجينك وعلف شاتك.

وذلك لأن أمره بين الكاف والنون، فسواء الصغير والكبير، بل الكبير عنده صغير، والعسير يسير، والصعب لَيِّن.

ن - وأما إن قلنا: إِنَّه الذي إذا وعد وَفَّى، فإن كل من يعد يمكن أن يفي، ويمكن أن يقطعه عَذْرًا، ويحول بينه وبين الوفاء أمرًا، والباري صادق الوعد لعموم قدرته

(١) مما هو معلوم عند المحققين من أهل السنّة والجماعة أنه لا يجوز التوسل بحق النبي ﷺ أو بجاهه أو بحق أحد أو جاهه؛ لأنه لم يثبت في ذلك شيء من الأحاديث، ولم يرد عن أحد من الصحابة فعله، وأن التوسل المشروع الذي دلَّ عليه الكتاب والسنّة هو ثلاثة أنواع:

١ - التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته.

٢ - التوسل بالأعمال الصالحة التي عملها العبد.

٣ - التوسل بدعاء الرجل الصالح الحي.

راجع كتاب: «قاعدة جلية في التوسل والوسيلة» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «الكفار والمتقين» حتى يتناسب السياق.

(٣) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «من يحتاج».

(٤) كلمة غير مقروءة بالأصل الذي عندي، ولعلها: «الملح».

وعظيم ملكه، وإنه لا يتصور أن يقطع به قاطع، ولا يحول بينه وبينه مانع.

س - وأما إن قلنا: إن (الكريم) هو الذي لا يُضيع من التجأ إليه، فهو الله وحده، والالتجاء إليه: التزام الطاعة وحسن العمل، وقد أخبر بذلك عن نفسه حين قال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

ع - وأما إن قلنا: إنه الذي لا يعاتب، فقد قال الله تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحریم: ٣]^(١)، وقد جعل الله للناس مراتب في العقاب والحساب والعتاب.

ف - وأما إن قلنا: إن (الكريم) هو الذي إذا أعطى زاد على المُنَى فهو الله وحده، فقد روي أنه أعطى أهل الجنة مَنَاهُمْ، ويزيدهم على ما يعلمون^(٢)، وقد روي أنه قال سبحانه: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بَلَّه ما أطلعتم عليه»^(٣).

قلت (أي القرطبي): فهذا ما ذكر العلماء من الأقوال وبيانها، ولم يذكر (أي ابن العربي) في سرد الأقوال: أنه الذي أعطى وزاد على المنى فيكون سابع عشر قولاً^(٤)، ولم يذكر بيان أنه الذي يُعطي من يلومه؛ لأنه والله أعلم داخل في قوله: إنه الذي لا يبالي من أعطى، ولا ذكر بيان أنه الذي يُعطي ويُثني؛ لأنه في غاية البيان وهو مفسر في سرد الأقوال.

ولا ذكر بيان أنه الذي يعطي بالتعرض، وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قَدْ زَرَى نَفْلُكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلْتُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، فعرض ولم يسأل وأعطاه مَنَاه. اهـ.

(١) قوله: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحریم: ٣]؛ أي: النبي ﷺ عَرَفَ لحفصة بعض ذلك الفعل الذي فعلته من إفشائها سرّه وقد استكتمها إياه. ابن جرير (١٠٣/٢٨)، وانظر: القرطبي (١٨٧/١٨).

(٢) من ذلك حديث المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى ربّه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أُدْخِلَ أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي ربّ كيف؟ وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقول له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْكٍ مُلْكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضى ربّ، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتئت نفسك ولذّت عينك، فيقول: رضى ربّ...». أخرجه مسلم (٧٦/١).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٨/٦، ٥١٥/٨، ٥١٦، ٤٦٥/١٣)، ومسلم (٢١٧٤/٤، ٢١٧٥) عن أبي هريرة به وتماّمه، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ...﴾ [السجدة: ١٧]. وأخرجه مسلم (٢١٧٩/٤) عن سهل بن سعد.

(٤) أي في الأقوال التي مضت في معنى الاسم في حق الله تعالى.

٢ - و(الكريم) أيضاً من يستحيي أن يرد عبده عندما يسأله، كما جاء في الحديث قوله ﷺ: «إِنَّ رَبَكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صَفَرًا»^(١).

٣ - قال ابن الحصّار: وأنا أقول: إِنَّ (الكريم) هو الكثير الخير المتأّتي لكل ما يُراد منه من غير تكلفٍ. وبهذا الاعتبار سُمّي السخي، والنخلة، والناقة الغزيرة اللبن، والشريف والجواد من الخيل، وسائر ما وقع عليه هذا الوصف.

وإذا اعتبرت جميع ما قيل في معنى الكرم، علمت أن الذي وَجَبَ لله تعالى من ذلك لا يُحصى، فأوّل ذلك شرفُ الذات وكمال الصفات، والنزاهة عن النقائص والآفات، وقد تضمّن ذلك قوله الحق: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لِمَ سَمِيََا﴾ [مريم: ٦٥]. وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَنْسِخْ بِحَدِيثِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، تعظيماً له وتقديساً وتنزيهاً عن صفاتها.

(١) حديث حسن. أخرجه أحمد (٤٣٨/٥)، وأبو داود (١٤٨٨/٢)، والترمذي (٣٥٥٦/٥)، وابن ماجه (٣٨٦٥/٢)، وابن حبان (١١٩/٢)، والحاكم (٤٩٧/١)، والخطيب في «تاريخه» (٢٣٥/٣، ٢٣٦)، كلهم عن جعفر بن ميمون الأنماطي: حدثني أبو عثمان النهدي عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره.

قال الترمذي: حسن غريب، وروى بعضهم ولم يرفعه. وهو كما قال، فإن جعفر بن ميمون قال فيه ابن معين: ليس بذلك، وقال في موضع آخر: صالح الحديث، وقال مرة: ليس بثقة، وقال أبو حاتم: صالح، وذكره ابن حبان وابن شاهين في الثقات، وقال الحافظ: صدوق يخطئ. فحديثه لا ينزل عن رتبة الحسن.

والموقوف الذي أشار إليه الترمذي هو ما رواه سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان: «إِنَّ اللَّهَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَبْسُطَ الْعَبْدَ...». أخرجه أحمد (٤٣٨/٥)، والحاكم (٤٩٧/١) وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وللحديث المرفوع شاهد من حديث أنس. أخرجه الحاكم (٤٩٧/١، ٤٩٨) عن عامر بن يساف عن حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري قال: حدثني أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ ثُمَّ لَا يَضَعُ فِيهِمَا خَيْرًا». وصحح إسناده، فتعقبه الذهبي بقوله: عامر ذو مناكير. اهـ.

قلت: قال ابن عدي في «الكامل» (١٧٣٩/٥): منكر الحديث عن الثقات، وقال: ومع ضعفه يكتب حديثه، وفي «تعجيل المنفعة» (ص ٢٠٧): قال أبو داود: ليس به بأس، رجل صالح، وقال العجلي: يكتب حديثه وفيه ضعف.

فهو سبحانه الكثير الخير، ومنه قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»^(١).

وهو الذي عَمَّ الجميع بعطائه وفضله. وبكرمه أمهل المكذِبَ له، واستمرت عليه نعمته، ومن كرمه أمهل إبليس وأنظره، وتركه وما اختار لنفسه، ولم يُعْجَلْهُ وَلَا عَاجِلَهُ.

كل ذلك كرم منه وفضل، ومن كرم الله تعالى أن تفضل على العلماء بأن علّمهم من علمه، وأنار قلوبهم من نوره، والشيطان يبخل ويأمر بالبخل بما ليس له ولا يبقى^(٢). اهـ.

٤ - من كرم الله تعالى غفرانه للذنوب وعفوه عنها، وتبديله السيئات بالحسنات، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٠) [الفرقان: ٧٠].

وجاء في الحديث الصحيح ما يدل على هذا الكرم العظيم، وهو ما رواه أبو ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها، رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر، وهو

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/٢٢٠): ثنا حسن، ثنا ابن لهيعة، أنا ابن هبيرة، عن أبي عبد الرحمن الحبلي أن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من ردت الطيرة من حاجته فقد أشرك»، قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك». قال الهيثمي في «المجمع» (١٠٥/٥): رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف وبقي رجاله ثقات. اهـ.

قلت: وهو من رواية غير العبادلة عن ابن لهيعة، لكن قد رواه ابن وهب في جامعه (ص ١١٠)، وعنه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٩٣) عن ابن لهيعة به. وقد صحح رواية العبادلة عن ابن لهيعة عبد الغني بن سعيد الأزدي والساجي وغيرهما، كما في «التهذيب» (٣٧٨/٥).

وله شاهد حسن. قال ابن وهب في «جامعه» (ص ١١١): وأخبرني أسامة بن زيد قال: سمعت نافع بن جبير بن مطعم يقول: سألت كعب الأحبار عبد الله بن عمرو فقال: هل تطير؟ فقال: نعم، قال: فكيف تقول إذا تطيرت؟ قال: أقول: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا رب غيرك، ولا قوة إلا بك، فقال كعب: أنت أفقه العرب، وإنها لكذلك في التوراة.

(٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٧٢ب).

مشفقٌ من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: ربّ، قد عملتُ أشياء لا أراها ههنا، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه^(١).

٥ - ومن كرمه ﷺ ما جاء في قوله في الحديث القدسي: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له سيئة واحدة». وزاد مسلم: «ومحأها الله، ولا يهلك على الله إلا هالك»^(٢).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ فِي معنى الزيادة السابقة: «معناه: من حتم هلاكه وسُدَّتْ عليه أبواب الهدى مع سعة رحمة الله تعالى وكرمه، وجعله السيئة حسنة إذا لم يعملها، وإذا عملها واحدة، والحسنة إذا لم يعملها واحدة، وإذا عملها عشرًا إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فمن حُرِمَ هذه السعة، وفاته هذا الفضل، وكثرت سيئاته حتى غلبت - مع أنها أفراد - حسناته مع أنها متضاعفة فهو الهالك المحروم، والله أعلم»^(٣).

٦ - ومن كرمه ﷺ أنه يكتب الحسنات لمن لم يبلغ من الأطفال وما شابههم ولا يكتب عليهم السيئات، والدليل على ذلك حديث ابن عباس عن النبي ﷺ لقي ركباً بالروحاء فقال: «من القوم»؟ قالوا: المسلمون، فقالوا: من أنت؟ قال: «رسول الله»، فرفعت إليه امرأةً صبيّاً فقالت: ألهذا حجٌّ؟ قال: «نعم، ولك أجر»^(٤).

وقد أورد ابن حبان هذا الحديث في صحيحه بعد ذكره لحديث: «رفع القلم عن ثلاثة...» بطريقين فقال: ذكر الخبر الدال على صحة ما تأولنا الخبرين الأولين، اللذين ذكرناهما، بأن القلم رفع عن الأقوام الذين ذكرناهم في كتبة الشر عليهم، دون كتبة الخير لهم^(٥).

(١) رواه مسلم (١٧٧/١)، والترمذي (٢٥٩٦/٤) وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري (٣٢٣/١١)، ومسلم (١١٨/١) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ورواه البخاري (١٣/٤٦٥)، ومسلم (١١٧/١، ١١٨) عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه.

ورواه مسلم (١٤٧/١) عن أنس بن مالك وهو حديث الإسراء الطويل، في الجزء الأخير منه.

(٣) شرح مسلم (١٥٢/٢).

(٤) رواه أحمد (٢١٩/١)، ومسلم (٩٧٤/٢) عن ابن عباس به.

(٥) صحيح ابن حبان (٣٠٦/١).

٧ - ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتنق الله سبحانه، فإنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَرُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قيل: يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم»، فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فيوسف نبي الله ابن نبي الله خليل الله»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»^(١).

فأعظم أسباب الكرامة عند الله هو تقواه، ولذا كان الرسل أكرم الخلق لطاعتهم صلوات الله عليهم أجمعين.

هذه هي الكرامة الحقيقية التي تبقى في الآخرة لأصحابها، حتى يدخلوا بها دار الكرامة.

وأما ما يتمتع به كثير من الفجار والكفار من التكريم بين أقوامهم وعشائهم وأهليهم، وارتفاع شأنهم وذكرهم بين الناس، فتكريم زائل باطل مضمحل، منقلب إلى ضده يوم القيامة من المهانة والعذاب الشديد، قال سبحانه عنهم: ﴿حُدُوهُ فَاعْتَلَوْهُ إِلَّا سَوَاءَ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُوءًا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٧ - ٤٩].

قال الطبري رحمته الله: «فإن قال قائل: وكيف قيل وهو يهان بالعذاب الذي ذكره الله، ويذل بالعتل إلى سواء الجحيم: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾؟ قيل: إن قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ غير وصف من قائل ذلك له بالعزة والكرم، ولكنه تقرير منه له بما كان يصف به نفسه في الدنيا، وتوبيخ له بذلك على وجه الحكاية؛ لأنه كان في الدنيا يقول: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ف قيل له في الآخرة إذ عُدَّ بما عُدَّ به في النار: ذق هذا بهوان اليوم، فإنك كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم، وإنك أنت الذليل المهين، فأين الذي كنت تقول وتدعي من العز والكرم؟! هلا تمتنع من العذاب بعزتك؟!»^(٢).

٨ - سَمَّى الله تبارك وتعالى كتابه «كراماً» في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧].

(١) رواه البخاري في مواضع منها (٣٨٧/٦)، ومسلم (١٨٤٦/٤، ١٨٤٧)، والحديث يدل على جواز تسمية الإنسان بـ«الكريم» كما هو ظاهر.

(٢) «جامع البيان» (٨٠/٢٥)، ومثلها قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [الشعراء: ٥٧، ٥٨]، وغيرها، فأخرجهم الله من المقام الكريم وأدخلهم دار المهانة والعذاب الأليم.

قال الراغب: «كل شيء شُرِفَ في بابه فإنه يوصف بالكرم»^(١).

قال القرطبي: «أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم، ليس بسحرٍ ولا كهانة، وليس بمفتري، بل هو قرآن كريم محمود، جعله الله تعالى معجزةً لنبهه ﷺ، وهو كريم على المؤمنين؛ لأنه كلام ربهم، وشفاء صدورهم، كريم على أهل السماء لأنه تنزيل ربهم ووحيه.

وقيل: (كريم)؛ أي: غير مخلوق.

وقيل: (كريم) لما فيه من كريم الأخلاق ومعالي الأمور»^(٢).

وقيل: لأنه يُكْرَمُ حافظه، ويُعْظَمُ قارئه. اهـ^(٣).

٩ - وسمّى الله تعالى ما أعدّ لأنبيائه وأوليائه بالرزق الكريم، كما في وقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤]، وغيرها.

وقوله: ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

قال ابن جرير: «وأما المدخل الكريم فهو الطيب الحسن المكرم بنفي الآفات والعاهات عنه، وبارتفاع الهموم والأحزان ودخول الكدر في عيش من دخله، فلذلك سماه الله كريماً» اهـ^(٤).

وفي سؤال موسى ﷺ ربه عن أعلى أهل الجنة منزلاً، قال سبحانه: «أولئك الذين أردتُ غرستُ كرامتهم بيدي وختمتُ عليها، فلم تر عينٌ ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر». قال: ومصادقه في كتاب الله ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً﴾ [السجدة: ١٧]^(٥).

(١) «المفردات» (ص ٤٢٩).

(٢) في «اللسان» (٣٨٦٣/٥): ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]؛ أي: يُحمد ما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة.

(٣) «التفسير» (١٧/٢٢٤). (٤) «التفسير» (٥/٣٠).

(٥) رواه مسلم (١٧٦/١) عن المغيرة بن شعبة. قال النووي: أما أردت - فبضم التاء -، ومعناه: اخترت واصطفيت.

وأما غرست كرامتهم بيدي... إلى آخره، فمعناه: اصطفيتهم وتوليتهم فلا يتطرق إلى كرامتهم تغير! وفي آخر الكلام حذف اختصر للعلم به تقديره: ولم يخطر على قلب بشر ما أكرمتهم به وأعدته لهم. اهـ. «شرح مسلم» (٤٦/٣).

الرقيبُ جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٥٢)

* المعنى اللغوي:

قال الجوهري: «(الرقيب): الحافظ، و(الرقيب): المنتظر. تقول: رَقَبْتُ الشيء أَرْقُبُهُ رُقُوبًا، وَرِقْبَةً وَرِقْبَانًا بالكسر فيهما، إذا رصدته»^(١).
والتَّرَقُّبُ: الانتظار، وكذلك الارتقاب، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَرَ قُبَّ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]، معناه: لم تنتظر قولي، والتَّرَقُّبُ: تَنْظُرٌ وتوقع شيء.
وراقب الله تعالى في أمره؛ أي: خافه، والرقيب فعيل بمعنى فاعل؛ كعليم بمعنى عالم^(٢).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد هذا الاسم ثلاث مرات:

في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].
وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]؛ يعني بذلك تعالى ذكره: إن الله لم يَزَلْ عليكم رقيباً؛ ويعني: بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾، على الناس الذين قال لهم جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [النساء: ١].
قال: ويعني بقوله: ﴿رَقِيبًا﴾: حفيظاً مُحْصِياً عليكم أعمالكم، متفقداً رعايتكم حرمة أرحامكم، وصلتكم إياها، وقطعكموها وتضييعكم حرمتها^(٣).

(١) «الصحاح» (١/١٣٨).

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٢٨)، «اللسان» (٣/١٦٩٩، ١٧٠٠).

(٣) «التفسير» (٤/١٥٢، ١٥٣)، وانظر (٧/٩٠).

وقال في قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]: وكان الله على كل شيء ما أحلّ لك وحرّم عليك، وغير ذلك من الأشياء كلها حفيظاً لا يعزب عنه علم شيء من ذلك، ولا يؤده حفظ ذلك كله.

حدثنا بشر: حدثنا يزيد: حدثنا سعيد عن قتادة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾؛ أي: حفيظاً، في قول الحسن وكتادة^(١).

وقال الزجاج: «(الرقيب) هو الحافظ الذي لا يغيب عمّا يحفظه. يقال: رَقَبْتُ الشيءَ أَرْقُبُهُ رِقْبَةً، وقال الله تعالى ذكره: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]^(٢).

قال الخطابي بعد أن نقل قول الزجاج: «وهو؛ أي: (الرقيب) في نعوت الأدميين المؤكّل بحفظ الشيء، والمترصّد له، المتحرّز عن الغفلة فيه»^(٣).

قال الحليمي: «(الرقيب) وهو الذي لا يغفل عما خلق فيلحقه نقص، أو يدخل خلل من قبل غفلته عنه»^(٤).

وفي المقصد: «(الرقيب) هو العليم الحفيظ، فمن راعى الشيء حتى لم يغفل عنه، ولاحظه ملاحظة لازمة دائمة، لزوماً لو عرفه الممنوع عنه لما أقدم عليه، سُمِّيَ رقيباً، وكأنه يرجع إلى العلم والحفظ، ولكن باعتبار كونه لازماً دائماً وبالإضافة إلى ممنوع عنه، محروس عن التناول»^(٥).

قال ابن الحصار: «(الرقيب) المراعي أحوال المرقوب، الحافظ له جملة وتفصيلاً، المحصي لجميع أحواله.

وذلك راجع إلى العلم والمشاهدة، وهو الإدراك والإحصاء، وهو عدّ ما يدقّ ويجلّ من أقواله وأفعاله، وحركاته وسكناته، وسائر أحواله وتصرفاته، ومراعاة وجوده وعدمه، وحياته وموته.

فهو إذاً يتضمن صفات الذات بمتعلقات مخصوصة من الأفعال»^(٦). اهـ.

وفي «النونية» لابن القيم:

(١) «التفسير» (٢٢/٢٤، ٢٥)، والأثر الذي ذكره عن قتادة سنده حسن، واختار هذا المعنى

البیهقي في «الاعتقاد» (ص ٦٠).

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٥١).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٧١، ٧٢).

(٤) «المنهاج» (١/٢٠٦)، ذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، وتابعه البیهقي على ذلك في «الأسماء» انظر (ص ٩٩).

(٥) «المقصد الأسنى» (ص ٧٤).

(٦) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٧٥ب).

وهو الرقيب على الخواطر واللوأ حظ كيف بالأفعال بالأركان^(١)
وقال السعدي: «(الرقيب): المطلع على ما أكتته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير^(٢)».

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - يجب على كل مكلف أن يعلم أن الله جل شأنه هو الرقيب على عباده، الذي يراقب حركاتهم وسكناتهم، وأقوالهم وأفعالهم، بل ما يجول في قلوبهم وخواطرهم، لا يخرج أحد من خلقه عن ذلك، قال سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

قال القرطبي: «ورقيب بمعنى: راقب، فهو من صفات ذاته، راجعة إلى العلم والسمع والبصر، فإن الله تعالى رقيب على الأشياء بعلمه المقدس عن مباشرة النسيان.

ورقيب للمبصرات ببصره الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، ورقيب للمسموعات بسمعه المُدرك لكل حركة وكلام، فهو سبحانه رقيب عليها بهذه الصفات، تحت رقبته^(٣) الكلليات والجزئيات، وجميع الخفيات في الأرضين والسموات، ولا خفي عنده، بل جميع الموجودات كلها على نمط واحد في أنها تحت رقبته التي هي من صفته^(٤)». اهـ.

فمن كان لذلك ملاحظاً غير غافل عنه، راقب تصرفاته، ومعاملاته وعباداته، وسائر حياته، وفي ذلك صلاح دنياه وآخرته، بل بلوغه أعلى درجات الإيمان، كما جاء في حديث جبريل ﷺ عندما سأل النبي ﷺ عن الإحسان فأجابه: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٥).

قال ابن القيم: «(المراقبة) دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق ﷻ على ظاهره وباطنه.

فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي المراقبة، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقوله، وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين.

(١) «النونية» (٢/٢٢٨).

(٢) «تيسير الكريم» (٥/٣٠١).

(٣) في الأصل: «رقبه»، ولا معنى لها هنا. (٤) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٧٤ب).

(٥) رواه مسلم (١/٣٧). وانظر كلام النووي عليه في (ص٢٣٩) من هذا الجزء.

قال: و«المراقبة» هي التعبد باسمه (الرقيب)، الحفيظ، العليم، السميع، البصير. فمن عقل هذه الأسماء، وتعبّد بمقتضاها، حصلت له المراقبة، والله أعلم^(١).

نموذج للمراقبة:

١ - إذا فرغ العبد من فريضة الصبح، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعةً لمشاركة نفسه فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر، فإذا فني مني رأس المال وقع اليأس من التجارة وطلب الربح.

وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه، وأخرّ أجلي وأنعم عليّ به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يُرجعني إلى الدنيا حتى أعمل صالحاً. فاحسبي يا نفس أنك قد توفيت ثم رُدّدت، فإياك أن تُضيعي هذا اليوم^(٢).

٢ - وينبغي أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل^(٣) هل حرّكه عليه هوى النفس، أو المحرّك له هو الله تعالى خاصة؟ فإن كان الله تعالى أمضاه، وإلا تركه، وهذا هو الإخلاص.

قال الحسن: رحم الله عبداً وقف عند همّه، فإن كان لله مضي وإن كان لغيره تأخر.

فهذه مراقبة العبد في الطاعة، وهو أن يكون مخلصاً فيها.

ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب، والشكر على النعم، فإنه لا يخلو من نعمة لا بدّ له من الصبر عليها، وكل ذلك لا يخلو من المراقبة^(٤).

٣ - المراقبة تثمر السعادة والانشراح وقرّة العين:

لا شك أن المراقبة تحتاج إلى حضور القلب بين يدي الله سبحانه، وعدم الانشغال عنه، سواء في العبادة أو خارجها، وإلى امتلاء القلب بعظمة الله ﷻ ومحبته.

وهذا القرب والدنو من الله تعالى يث في القلب سروراً عظيماً.

(١) «مدارج السالكين» (٢/٦٥، ٦٦) باختصار.

(٢) من «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٣٩٨).

(٣) وبعد العمل، كما قال الله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُوا اللَّهَ وَلَنَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨] فكرر الأمر بالتقوي قبل العمل وبعده.

(٤) المصدر السابق (ص ٤٠٠).

قال ابن القيم: «فإن سرور القلب بالله وفرحه به، وقرة العين به، لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا ألبته، وليس له نظير يُقاس به، وهو حالٌّ من أحوال أهل الجنة، حتى قال بعض العارفين: إنه لتمرُّ بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله ﷻ، وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته. ومن لم يجد هذا السرور، ولا شيئاً منه فليتَّهم إيمانه وأعماله، فإن للإيمان حلاوة من لم يذوقها، فليرجع وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان.

وقد ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته، فذكر الذوق والوجد، وعلقه بالإيمان فقال: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»^(١).

وقال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يَحِبُّ الْمَرْءَ لَا يَحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يُلقَى في النار»^(٢).

قال: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور.

يعني أنه لا بد أن يُثيب العامل على عمله في الدنيا، من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح وقرّة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول^(٣).

والقصد: أن السرور بالله وقربه، وقرة العين به، تبعث على الازدياد من طاعته، وتحث على الجد في السير إليه^(٤). اهـ.

(١) رواه أحمد (٢٠٨/١)، ومسلم (٦٢/١) عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٠/١)، ومسلم (٣١٥/١٢) عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس مرفوعاً به. ورواه البخاري (٧٢/١)، ومسلم (٤٦٣/١٠)، عن شعبة عن قتادة عن أنس مرفوعاً به. ورواه مسلم (٦٧/١) عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مرفوعاً به، بنحو حديثهم غير أنه قال: «من أن يرجع يهودياً أو نصرانياً».

(٣) علّق محمد الفقي هنا فقال: ذلك أن «الثواب» هو الراجع للعامل على عمله، فللأعمال عاقبة تعود على صاحبها وتتصل بحياته وجميع شؤونها، فالصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر، وتهذب الأخلاق وتربي أعلى تربية يحبها الربُّ سبحانه، وهكذا الصيام يقوّي العزيمة ويمكّن للنفس اللوامة، وللبصيرة أن تشرق فيرى الصراط السوي فيكون من المتقين، وهكذا كل الأعمال الصالحة، فإن لها ثواباً يصلح الشؤون كلها هنا، فتسعد به الحياة في الأسرة والمجتمع.

كما أن أعمال السوء لها كذلك (أي لها عاقبة سيئة على صاحبها) ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ [يونس: ٢٦] و﴿الَّذِينَ اسْتَوَى السُّوءَى﴾ [الروم: ١٠]. اهـ.

(٤) «مدارج السالكين» (٦٨/٢).

الواسع

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٥٣)

* المعنى اللغوي:

السَّعَةُ نقيضُ الضيق، وقد وَسِعَهُ يَسَعُهُ وَيَسِعُهُ سَعَةً، وَوَسَعَ - بالضم - وساعةً فهو وَسِيعٌ.

وشيءٌ وَسِيعٌ وَأَسِيعٌ: واسعٌ^(١).

قال الجوهري: والوُسْعُ والسَّعَةُ: الجِدَّةُ والطاقة، قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧]؛ أي: على قدر غناه وسعته، والهاء عوض من الواو. وأَوْسَعَ الرجل: إذا صار ذا سعةٍ وغنى^(٢).

قال الزَّجَّاج: «أصل السَّعَةُ في الكلام: كثرةُ أجزاء الشيء، يقال: إناءٌ واسع، وبيتٌ واسع، ثم قد يستعمل في الغنى، يقال: فلانٌ يعطي من سعةٍ، يراد من غنى وجده، وفلانٌ واسعُ الرحلِ وهو الغني»^(٣).

وقال الراغب: «السَّعَةُ تقال في: الأمكنة، وفي الحال، وفي الفعل كالقدرة والجود، ونحو ذلك»^(٤).

* وروده في القرآن الكريم:

جاء في القرآن تسع مرات منها:

قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَوْنَ فَثَمَّ وَجَّهُ اللَّهُ ابْنَ اللَّهِ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومًا مِّنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقوله: ﴿وَإِنْ يَنفَرَا يَغْنِ اللَّهُ كَلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

(١) «النهاية» (١٨٤/٥)، «اللسان» (٤٨٣٥/٦). وانظر: «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص ٧٢).

(٢) «الصحاح» (١٢٩٨/٣). (٣) «تفسير الأسماء» (ص ٥١).

(٤) «المفردات» (ص ٥٢٣).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ [النجم: ٣٢].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: «﴿إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: جواد يسع لما يسأل»^(١).

قال ابن جرير: «﴿إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾؛ يعني: جل ثناؤه بقوله: ﴿وَسِعَ﴾ يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير»^(٢). وقال: «﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾: والله واسع بفضلِه فينعم به على من أحب، ويريد به من يشاء، (عليم) بمن هو أهل لملكه الذي يؤتيه وفضله الذي يعطيه، فيعطيه ذلك لعلمه به وبأنه لما أعطاه أهل إما للإصلاح به، وإما لأن ينتفع هو به»^(٣).

قال الخطابي: «(الواسع): هو الغني الذي وسع غناه مفاقر عباده، ووسع رزقه جميع خلقه، والسعة في كلام العرب: الغنى، ويقال: الله يعطي عن سعة»^(٤).

قال الحلبي: «(الواسع) ومعناه: الكثير مقدوراته ومعلوماته، المنبسط فضله ورحمته، وهذا تنزيه له من النقص والعلة، واعتراف له بأنه لا يعجزه شيء ولا يخفى عليه شيء ورحمته وسعت كل شيء»^(٥).

وفي المقصد: (الواسع) مشتق من السعة، والسعة تضاف مرة إلى العلم إذا اتسع وأحاط بالمعلومات الكثيرة، وتضاف أخرى إلى الإحسان وبسط النعم، وكيفما قدر وعلى أي شيء نزل.

فالواسع المطلق هو الله تعالى؛ لأنه إن نظر إلى علمه فلا ساحة^(٦) لبحر معلوماته؛ بل تنفذ البحار لو كانت مداداً لكلماته، وإن نظر إلى إحسانه ونعمه، فلا نهاية لمقدوراته، وكل سعة وإن عظمت فتنتهي إلى طرف، والذي لا ينتهي إلى طرف هو أحق باسم السعة، والله تعالى هو الواسع المطلق؛ لأن كل واسع بالإضافة إلى

(١) «مجاز القرآن» (١/٥١).

(٢) «جامع البيان» (١/٤٠٣)، وقال مثله ابن كثير (١/١٦٠).

(٣) المصدر السابق (٢/٣٨١).

(٤) «شأن الدعاء» (ص ٧٢)، وبنحوه في «النهاية» (٥/١٨٤)، وقال البغوي (١/٩٩): أي غنى يعطي من السعة.

(٥) «المنهاج» (١/١٩٨) ذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، وكذا البيهقي في «الأسماء» (ص ٥٩).

(٦) كذا بالأصل، ولعلها: «فلا ساحل لبحر معلوماته...».

ما هو أوسع منه ضيق، وكل سعة تنتهي إلى طرف، فالزيادة عليها مُتَصَوِّرة، وما لا نهاية له ولا طرف فلا يُتَصَوَّر عليه زيادة^(١).

وقال الأصهباني: «ومن أسمائه (الواسع): وسعت رحمته الخلق أجمعين، وقيل: وسع رزقه الخلق أجمعين، لا تجد أحداً إلا وهو يأكل رزقه، ولا يقدر أن يأكل غير ما رُزق»^(٢).

وقال القرطبي: «أي يوسع على عباده في دينهم، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم»^(٣).

قال السعدي: «(الواسع) الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه؛ بل هو كما أثنى على نفسه، واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم»^(٤).

قال الزجاج: «إن قال قائل: فإذا كان معنى (الواسع) عندك والغني سواء فما الوجه في تكرارهما؟

قلنا له: قد مضى القول في هذا في^(٥) شرح قولنا: عليم وبصير^(٦)، وما جاء في كلام العرب من اختلاف الألفاظ واتفاق المعاني اتساعاً وتبسيطاً في الكلام، فبني لمعنى واحد من صفاته لفظتان ليكون ذلك أبلغ في المدح وأكمل في الوصف. ومع ذلك ف(الواسع) قد يتضمن من المعنى ما لا يتضمنه الغني، ويتصرف فيما لا يتصرف في الغني كقولنا: يا واسع الفضل، يا واسع الرحمة، وكقوله ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: ٧]؛ أي: عَمَّتْ رحمتك كل شيء، وأحاط علمك بكل شيء»^(٧).

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - الله ﷻ واسع في علمه، واسع في حكمته، فلو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمته، وآياته وعلمه وشرعه وقدره، لنفد ماء البحر قبل أن ينفد ما عند الله من علم وحكمة وآيات، ولو مددنا البحر بمثل ما فيه، كما قال

(١) «المقصد الأسنى» (ص ٧٥).

(٢) «الحجة» (ق ٢٣ ب).

(٣) «التفسير» (٢/ ٨٤)، وأحال الكلام عليه إلى «الكتاب الأسنى» ولم أجده في الجزء الثاني الذي عنده، ولعله في الجزء الأول.

(٤) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠٥).

(٥) ليست في الأصل ويقتضيها السياق.

(٦) انظر (ص ٦٦) من «اشتقاق أسماء الله».

(٧) المصدر السابق (ص ٧٣).

تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِثَا يَمْتَلِئُهُ مَدَدًا﴾ ﴿١٣٩﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢٧﴾ [لقمان: ٢٧]؛ أي: لو أن أشجار الأرض كانت أقلاماً، والبحار مداداً، وسبعة بحارٍ مثلها مداداً، وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات في الله لنفذت البحار وتكسرت الأقلام، ولم تنفذ كلمات الله جلَّ شأنه.

وقد نظم ذلك ابن القيم بقوله:

كلماته جَلَّتْ عن الإحصاءِ والتعداد بل عن حصر ذي الحسابِ
لو أنَّ أشجارَ البلادِ جميعها الأقلام تكتبها بكلِّ بنانٍ
والبحر تلقى فيه سبعة أبحر لكتابة الكلمات كل زمانٍ
نَفَذَتْ ولم تَنفذ بها كلماته ليس الكلام من الإله بفانٍ^(١)

٢ - تقدم قول الحليمي رحمته الله أن (الواسع) معناه: الكثير مقدوراته ومعلوماته.

فقد جاء اسمه (الواسع) مقترناً بـ(العليم) في سبع آيات من كتاب الله، فالله سبحانه واسع العطاء، كثير الإفضال على خلقه، والخلق كلهم يتقبلون في رحمته وفضله، يعطي من يشاء ويمنع، ويخفف من يشاء ويرفع، بعلمه الذي وسع كل شيء وحكمته. وقد ذكر الله اعتراض بني إسرائيل على نبيهم حين قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]؛ أي: كيف يكون له الملك وليس من سبط النبوة ولا الملك^(٢)، ونحن أحق بالملك منه، ثم هو ليس من الأغنياء أصحاب الأموال والسعة في الرزق لِيُفْضَلَ علينا^(٣)، فَرَدَّ عليهم نبيهم عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]؛ أي: أن الله سبحانه قد زاده بسطةً وسعةً في العلم والجسم، وهما خيرٌ من الملك والمال، ثم ذكَّره بأنّه مختار من قِبل الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

(١) «النونية» (٢/٢١٧).

(٢) لأنه من سبط بنيامين بن يعقوب. «ابن جرير» (٢/٣٧٨).

(٣) ولا يخفى أن في كلامهم هذا ردُّ لكلام الله سبحانه ونبيه عليه الصلاة والسلام.

قال ابن جرير: «يعني تعالى بذلك: أن الملك لله ويده دون غيره «يؤتيه» يقول: يؤتي ذلك من يشاء فيضعه عنده ويخصه به ويمنحه من أحب من خلقه، يقول: فلا تستنكروا يا معشر الملأ من بني إسرائيل أن يبعث الله طالوت ملكاً عليكم، وإن لم يكن من أهل بيت المملكة، فإن الملك ليس بميراث عن الآباء والأسلاف، ولكنه بيد الله يعطيه من يشاء من خلقه، فلا تتخيروا على الله.

وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْكُمْ﴾ فإنه يعني بذلك: والله واسع بفضلته فينعم به على من أحب، ويريد به من يشاء، عليم بمن هو أهل لملكه الذي يؤتيه، وفصله الذي يعطيه، فيعطيه ذلك لعلمه به، وبأنه لما أعطاه أهل؛ إما للإصلاح به، وإما لأن ينتفع هو به»^(١). اهـ.

٣ - تقدم قول القرطبي في (الواسع) أنه الذي يُوسع على عباده في دينهم، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم.

ومصداق ذلك من كتاب الله قوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾

[البقرة: ٢٨٦].

وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وقال ﷺ: «إن هذا الدين يسر ولن يُشادَّ الدين أحدًا إلا غلبه...»^(٢).

فكل ما كلفنا الله سبحانه به من العبادات والشرائع هو مما تطيقه النفوس على وجه العموم، ثم خفف الله عن المريض والمسافر، والمسن والفقر، والمرأة والصغير، وغيرهم من أصحاب الأعذار، كل ذلك تخفيفاً وتوسعةً على عباده، ورفعاً للضيق والخرج عنهم.

(١) «جامع البيان» (٣٨١/٢).

(٢) رواه البخاري (٩٣/١)، والنسائي (١٢١/٨، ١٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهذا الحديث يدل على أن الدين كله يسر، في عباداته ومعاملاته وأحكامه ليس فيه صعوبة ولا تكليف ما لا يُطاق، وليس معنى الحديث ما يفهمه كثير من العامة من ترك الالتزام بالدين وواجباته، وارتكاب ما حرم الله ثم إذا ذكر بضرورة الالتزام بدين الله قال متفلتاً من ذلك: الدين يسر!!.

وأضرب على ذلك مثلاً مناسباً لما نسمعه هذه الأيام من اتجاه الغرب لإباحة الطلاق بعد أن حرموه على أنفسهم وضيّقوا ما وسّع الله عليهم.

قال الله تعالى في كتابه العزيز عن الزوجين: ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠]. قال ابن جرير: «يُغْنِ الله الزوج والمرأة المطلقة من سعة فضله، أما هذه فبزوج هو أصلح لها من المطلق الأول، أو برزق واسع وعصمة، وأما هذا فبرزق واسع وزوجة هي أصلح له من المطلقة أو عِفَّة، وكان الله واسعاً يعني: وكان الله واسعاً لهما في رزقه إياهما وغيرهما من خلقه، حكيماً فيما قضى بينه وبينها من الفرقة والطلاق، وسائر المعاني التي عرفناها من الحكم بينهما في هذه الآيات وغيرها، وفي ذلك من أحكامه وتدابيره وقضاياه في خلقه»^(١). اهـ.

٤ - إن الله واسع المغفرة، ومن سعة مغفرته أنه يغفر لكل من تاب وأتاب مهما بلغت ذنوبه وخطاياه، قال عزّ من قائل: ﴿قُلْ يَعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال حملة العرش عن ربهم تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]^(٢).



(١) «جامع البيان» (٢٠٤/٥)، وبنحوه ابن كثير (٥٦٤/١).

(٢) وقد تكلمنا عن هاتين الصفتين: (الرحمة والمغفرة) في أسمائه: الرحمن الرحيم والغفور، بما يغني عن إعادته هنا.

الرَّبُّ جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٥٤)

* المعنى اللغوي:

قال الزجاجي: «(الرَب): المصلح للشيء، يقال: رَبَّبْتُ الشيءَ أَرْبُّهُ رَبًّا وربابةً: إذا أصلحته وقمت عليه، وربَّ الشيء: مالكه.

ومصدر الرب: الربويَّة، وكل من ملك شيئاً فهو ربه، يقال: هذا ربُّ الدار ورب الضيعة، ولا يقال: الرب معرفاً بالألف واللام مطلقاً إلا لله ﷻ، لأنه مالك كل شيء»^(١).

وقال الجوهري: والرَّبَّاني: المتألَّه العارف بالله تعالى، وقال سبحانه: ﴿كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

ورَبَّبْتُ القوم: سُسْتُهُمْ؛ أي: كنت فوقهم، قال أبو نصر: وهو من الرُّبُويَّة، ومنه قول صفوان: لأنَّ يَرْبِّيَّ رجلٌ من قريش أحبُّ إليَّ من أن يَرْبِّيَّ رجلٌ من هوازن. وربُّ الضيعة؛ أي: أصلحها وأتمها، وربُّ فلان ولده يَرْبُّهُ رَبًّا، ورَبَّبَهُ وتَرَبَّبَهُ بمعنى: أي: رباه.

والمَرْبُوب: المرْبِيُّ^(٢).

وقال ابن الأنباري^(٣): «الرَّبُّ ينقسم على ثلاثة أقسام:

(١) «اشتقاق أسماء الله» (ص ٣٢، ٣٣)، وفي «الصحاح»: وقد قالوه (أي الرب) في الجاهلية للملك.

(٢) «الصحاح» (١/١٣٠).

(٣) هو: الإمام الحافظ اللغوي ذو الفنون، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار ابن الأنباري، المقرئ النحوي.

قال الخطيب: كان ابن الأنباري صدوقاً ديناً من أهل السَّنة.

قال الذهبي: له كتاب «الوقف والابتداء»، وكتاب «المشكل»، و«غريب الحديث النبوي»، وغيرها. «تاريخ بغداد» (٣/ ١٨١ - ١٨٦)، «السير» (١٥/ ٢٧٤).

يكون (الرب) المالك، ويكون (الرب) السيد المطاع، قال الله تعالى: ﴿فَيَسْتَقِ رَبَّهُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١]؛ أي: سيده.

ويكون (الرب) المصلح، ربّ الشيء إذا أصلحه^(١).

وقال الراغب: «الربُّ في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحلاً إلى حدّ التمام»^(٢).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد هذا الاسم في القرآن مرات كثيرة جداً. أما عن وروده مفرداً، فقد ورد في إحدى وخمسين ومئة مرة، منها:

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: ٨].

وقال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧].

وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وغيرها من الآيات الكثيرة.

* المعنى في حق الله تعالى:

قال الطبري بعد ذكره للوجوه الثلاثة التي تقدمت في معنى الرب: «وقد يتصرف أيضاً معنى الرب في وجوه غير ذلك، غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة، فربنا جلّ ثناؤه السيد الذي لا شبه له ولا مثل في سؤده، والمصلح في أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر»^(٣).

قال ابن الأثير: «الرب يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبّر والمُربّي والقيّم والمنعم، ولا يطلق غير مضاف إلا على الله تعالى، وإذا أطلق على غيره

(١) «اللسان» (١٥٤٧/٣)، وقد ذكر الطبري هذه الوجوه الثلاثة في تفسيره (٤٧/١، ٤٨)،

والزجاجي (ص ٣٢)، والخطابي في «شأن الدعاء» (ص ٩٩، ١٠٠)، والقرطبي في «الأسنى»

ورقة (٣٧٠ ب، ٣٧١ أ) وزاد معنى رابعاً وهو: المعبود.

(٢) «المفردات» (ص ١٨٤).

(٣) «جامع البيان» (٤٨/١).

أُضيف، فيقال: رب كذا»^(١).

قال ابن كثير: «والرب هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى.

ولا يستعمل الرب لغير الله؛ بل بالإضافة، تقول: رب الدار رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله ﷻ»^(٢).

وقال عبد الرحمن السعدي: «(الرب) هو المربي جميع عبادته بالتدبير وأصناف النعم، وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل؛ لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة»^(٣).

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إن الله سبحانه هو الرب على الحقيقة، فلا رب على الحقيقة سواه، وهو رب الأرباب ومالك الملك، وملك الملوك ﷻ.

قال القرطبي: «فالله سبحانه رب الأرباب، ومعبود العباد، يملك الممالك والملوك»^(٤)، وجميع العباد، وهو خالق ذلك ورازقه، وكل رب سواه غير خالق ولا رازق، وكل مخلوق فمُملَكٌ بعد أن لم يكن، ومُنْتَزَعٌ ذلك من يده، وإنما يملك شيئاً دون شيء. وصفه الله مخالفةً لهذا المعنى، فهذا الفرق بين صفات الخالق والمخلوقين.

فأما قول فرعون - لعنه الله - إذ قال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، فإنه أراد أن يستبدَّ بالربوبية العالية على قومه، ويكون رب الأرباب فينازع الله في ربوبيته وملكه الأعلى، ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥].

وقد قيل: إن الرب مشتق من التربية، فالله سبحانه مدبر لخلقه ومربيهم ومصلحهم وجابريهم والقائم بأمرهم، قيوم الدنيا والآخرة، كل شيء خلقه، وكل مذكور سواه عبده وهو ربه، لا يصلح إلا بتدبيره، ولا يقوم إلا بأمره، ولا يرثه سواه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَبَّيْكُمْ إِلَهٌ فِي حُبُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، فسَمَّى ولد الزوجة ربيته لتربية الزوج له.

(١) «النهاية» (١/١٧٩).

(٢) «التفسير» (١/٢٣). وانظر: «البغوي» (١/٢١)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص ٦٧)، و«فتح القدير» للشوكاني (١/٢١).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/٢٩٨).

(٤) في «الكتاب الأسنى»: المملوك، ولعل الصواب ما أثبتناه.

فعلى أنه مدبرٌ لخلقه ومُربِّيهم ومصلحهم وجابرهم يكون صفة فعلٍ، وعلى أن الربَّ المالك والسيد يكون صفة ذات^(١). اهـ.

ويُبيِّن الحليمي أن الله سبحانه يرضى العباد ويربيهم في أحوالهم وأطوارهم المختلفة فيقول: «(الرب) وهو المبلغ كل ما أبدع حد كماله الذي قدره له، وهو يسُلُّ النُّطفة من الصُّلب ويجعلها علقة، والعلقة مضغة، ثم يجعل المضغة عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، ثم يخلق في البدن الروح ويخرجه خلقاً آخر وهو صغير ضعيف، فلا يزال يُنمِّيه ويُنشئه حتى يجعله رجلاً، ويكون في بدء أمره شاباً ثم يجعله كهلاً ثم شيخاً. وهكذا كل شيء خلقه فهو القائم عليه به، والمبلغ إياه الحد الذي وصفه وجعله نهاية ومقداراً له»^(٢).

٢ - فمن عرف ذلك لم يطلب غير الله تعالى له رباً وإلهاً؛ بل رضي به ﷻ رباً، ومن كانت هذه صفته ذاق طعم الإيمان وحلاوته، كما قال ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»^(٣).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: «معنى الحديث صح إيمانه واطمأنَّت به نفسه وخامر باطنه؛ لأن رضاه بالمذكورات دليلٌ لثبوت معرفته، ونفاذ بصيرته، ومخالطة بشاشته قلبه؛ لأن من رضي أمراً سهلاً عليه، فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات الله تعالى وَلَذَّتْ له، والله أعلم»^(٤).

٣ - وقد تكلم العلامة ابن القيم عن ارتباط اسم (الرب) باسم (الله) و(الرحمن) كلاماً جيداً، حيث يقول:

«وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة، وهي (الله، و(الرب)، و(الرحمن) كيف نشأ عنها الخلق، والأمر، والثواب، والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع، ولها الفرق.

فاسم (الرب) له الجمع الجامع لجميع المخلوقات. فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فالله وحده

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٧١ أ - ب).

(٢) «المنهاج في شعب الإيمان» (٢٠٥/١) وقد ذكره في الأسماء التي تتبَّع إثبات التدبير له دون ما سواه، وكذا البيهقي في «الأسماء» (ص ٩٤).

(٣) رواه أحمد (٢٠٨/١)، ومسلم (٦٢/١)، والترمذي (١٤/٥) عن العباس بن عبد المطلب.

(٤) «شرح مسلم» للنووي (٢/٢).

السعداء، وأقروا له طوعاً بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل، والرجاء والخوف، والحب والإنابة والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افترق الناس، وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير، وفريقاً موحدين في الجنة.

فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم. فالدين والشرع، والأمر والنهي - مظهره، وقيامه - من صفة الإلهية. والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية، والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار: من صفة الملك. وهو ملك يوم الدين، فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته.

وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله، وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما الرحمة: فهي التعلق، والسبب الذي بين الله وبين عباده. فالتأليه منهم له، والربوبية منه لهم، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته. ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] مطابق لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] [الفاتحة: ٢، ٣] فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها. فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه رباً للعالمين ما يدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شيء، كما يأتي بيانه إن شاء الله^(١). اهـ.

٤ - قال القرطبي رحمته: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن لا رب له على الحقيقة إلا الله وحده، وأن يحسن تربية من جعلت تربيته إليه، فيقوم بأمره ومصالحه كما قام الحق فيرقبه شيئاً شئناً وطوراً طوراً، ويحفظه ما استطاع جهده، كما حفظه الله.

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤، ٣٥).

قال ابن عباس وقد سئل عن الرباني فقال: هو الذي يعلم الناس بصغار العلم قبل كباره^(١).

فالعالم الرباني هو الذي يحقق علم الربوبية وربى الناس بالعلم على مقدار ما يحتملوه، فبذل لخواصهم جوهره ومكنونه، وبذل لعوامهم ما ينالون به فضل الله ويدركونه^(٢). اهـ.

٥ - وقد دعا الأنبياء والصالحون الله ﷻ بهذا الاسم وتضرعوا به إليه.
فدعا آدم عليه السلام وحواء به كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ونوح عليه السلام في دعائه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

وإبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وعيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٤].
والرسول ﷺ وأمته في قوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].
وغير ذلك في كتاب الله كثير لا يحصى.

٦ - وقد نهى النبي ﷺ العبد أن يقول لسيدته: (ربي) فقال: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضمي ربك، وليقل: سيدي مولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»^(٣).

(١) لم أجده. وقال الطبري في «تفسيره» (٢٢٣/٣): «وأولى الأقوال عندي بالصواب في الربانيين أنه جمع رباني، وأن الرباني المنسوب إلى الربان الذي يرب الناس، وهو الذي يصلح أمورهم ويقوم بها، يقال منه: رب أمري فلان فهو يربه رباً وهو رابته، فإذا أريد به المبالغة في مدحه قيل: هو ربان، كما يقال: هو نعسان من قولهم: نعس ينعس. اهـ مختصراً.

(٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٧١ب).

(٣) رواه البخاري (١٧٧/٥)، ومسلم (١٧٦٥/٤) عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الحافظ ابن حجر: وفيه نهى العبد أن يقول لسيده: ربي، وكذلك نهى غيره فلا يقول له أحد: ربك، ويدخل في ذلك أن يقول السيد ذلك عن نفسه، فإنه قد يقول لعبده: اسق ربك، فيضع الظاهر موضع الضمير على سبيل التعظيم لنفسه. والسبب في النهي أن حقيقة الربوبية لله تعالى؛ لأن الرب هو المالك القائم بالشيء، فلا توجد حقيقة ذلك إلا لله تعالى.

قال الخطابي: «سبب المنع أن الإنسان مربوب متعبد بإخلاص التوحيد لله، وترك الإشراك معه، فكره له المضاهاة في الاسم لئلا يدخل في معنى الشرك، ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد، فأما ما لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجمادات، فلا يكره إطلاق ذلك عليه عند الإضافة؛ كقوله: رب الدار ورب الثوب.

قال ابن بطال: «لا يجوز أن يقال لأحد غير الله: رب، كما لا يجوز أن يقال له: إله.

وتعقبه الحافظ بقوله: «والذي يختص بالله تعالى إطلاق الرب بلا إضافة، أما مع الإضافة فيجوز إطلاقه، كما في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقوله: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، وقوله عليه الصلاة والسلام في أشراط الساعة: «أن تلد الأمة ربها»، فدلّ على أن النهي في ذلك محمول على الإطلاق، ويحتمل أن يكون النهي للتنزيه، وما ورد من ذلك فليبيان الجواز.

وقيل: هو مخصوص بغير النبي ﷺ ولا يرد ما في القرآن، أو المراد النهي عن الإكثار من ذلك واتخاذ استعمال هذه اللفظة عادة، وليس المراد النهي عن ذكرها في الجملة^(١). اهـ.

قلت: وترك استعمال هذه الكلمة لورود النهي عنها أسلم وأحوط، والله أعلم.



الودود

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٥٥)

* المعنى اللغوي:

الوُدُّ مصدرُ المودَّة.

قال ابن سيده: الوُدُّ الحبُّ يكون في جميع مداخل الخير، عن أبي زيد. وَوَدِدْتُ الشيءَ أَوُدُّ، وهو من الأمانة.

قال الفراء: هذا أفضل الكلام، وقال بعضهم: وَدَدْتُ ويفعل منه يَوُدُّ لا غير. ذكر هذا في قوله تعالى: ﴿يَوُدُّ أَحَدَهُمْ لَوْ يَعْمُرُ﴾ [البقرة: ٩٦]؛ أي: يتمنى^(١).

قال الجوهري: «وَدِدْتُ الرجلَ أَوُدُّهُ وَوُدًّا: إذا أَحْبَبْتَهُ، والوُدُّ والوُدُّ والوُدُّ، المودَّةُ، تقول: بوُدِّي أن يكون كذا.

و(الوُدُّود) المحبُّ»^(٢).

قال الزجاج: «(الودود) يجوز أن يكون فعولاً بمعنى فاعل، ويجوز أن يكون فعولاً بمعنى مفعول»^(٣).

قال ابن العربي: «اتفق أهل اللغة على أن المودَّة هي المحبة»^(٤).

وجمع بين المعنيين الراغب فقال: «الوُدُّ محبة الشيء وتمني كونه، ويستعمل في كل واحد من المعنيين، على أن التمني يتضمَّن معنى الوُدِّ؛ لأن التمني هو تشهي حصول ما توُدُّه»^(٥).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد مرتين، الأولى في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]. والثانية في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعِيدٌ﴾ [الأنعام: ١٣] وَهُوَ الْعَفُوُّ الْوَدُّودُ [البروج: ١٣، ١٤].

(١) «اللسان» (٤٧٩٣/٦)، ولم أجد كلام الفراء في «معاني القرآن» عند الآية المذكورة.

(٢) «الصحاح» (٥٤٩/٢).

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٥٢).

(٤) «الكتاب الأسنى» ورقة (١٣٨٣).

(٥) «المفردات» (ص ٥١٦).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير : «(ودود) يقول : ذو محبة لمن أناب وتاب إليه يوده ويحبه»^(١) .
وقال في قوله : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ : «يقول تعالى ذكره وهو ذو المغفرة لمن تاب إليه من ذنوبه ، وذو المحبة له»^(٢) .

قال الزجاجي : «فيه قولان :

أحدهما : أنه فعولٌ بمعنى فاعل ، كقولك : غفورٌ بمعنى : غافر ، وكما قالوا : رجلٌ صبورٌ بمعنى : صابر ، وشكورٌ بمعنى : شاعر ، فيكون الودود في صفات الله ﷻ على هذا المذهب أنه : يودُّ عباده الصالحين ويحبهم .

والودُّ والمودة والمحبة في المعنى سواء .

فالله ﷻ ودودٌ لأوليائه والصالحين من عباده وهو محبٌ لهم .

والقول الآخر : أنه فعولٌ بمعنى مفعولٍ ، كما يقال : رجلٌ هيوّبٌ ؛ أي : مهيبٌ ، فتقديره : أنه ﷻ مودودٌ ؛ أي : يوده عباده ويحبونه .

وهما وجهان جيدان :

وقد تأتي الصفة بالفعل لله ﷻ ولعبده فيقال : العبد شكور لله ؛ أي : يشكر نعمته ، والله ﷻ شكور للعبد ؛ أي : يشكر له عمله ؛ أي : يجازيه على عمله ، والعبد تواب إلى الله من ذنبه ، والله توابٌ عليه ؛ أي : يقبل توبته ويعفو عنه»^(٣) . اهـ .

وبنحوه قال الخطابي وزاد : «وقد يكون معناه أن يُودِّدَهُمْ إلى خلقه ، كقوله جل وعز : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم : ٩٦]»^(٤) .
وقال الحليمي : «وقد قيل : هو الواد لأهل طاعته ؛ أي : الراضي عنهم بأعمالهم ، والمحسن إليهم لأجلها والمادح لهم بها»^(٥) .

وقد قيل : هو (الودود) بكثرة إحسانه ؛ أي : المستحق لأن يود فيعبد ويحمد»^(٦) .

(١) «جامع البيان» (١٢/٦٤) .

(٢) المصدر السابق (٣٠/٨٩) ، ونقل معناه ابن كثير (٤/٤٩٦) .

(٣) «اشتقاق أسماء الله» (ص ١٥٢) . (٤) «شأن الدعاء» (ص ٧٤) .

(٥) قلت : وهذا تأويل للصفة ؛ لأن المحبة غير الرضا والإحسان والمدح والثناء عند أهل السنة والجماعة ، فالمحبة صفة ثابتة لله تبارك وتعالى في الكتاب والسنة .

(٦) «المنهاج» (١/٢٠٦) ، وقد ذكر ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، وكذا البيهقي في «الأسماء» (ص ١٠١) ، وفي «الاعتقاد» (ص ٦٠) قال : ومحبة الله عباده إرادته رحمتهم ومدحهم ! وكذا أوله الغزالي بقوله في «المقصد» (ص ٧٦) : ودّه : إرادته الكرامة والنعمة وإحسانه وإنعامه ، وهو منزّه عن ميل المودة . . .

قال ابن القيم في النونية:

وهو الودود يُحبههم ويُحبه أحبابه والفضلُ للمنانِ
وهو الذي جعل المحبة في قلو بهم وجازاهم بحبٍ ثانٍ
هذا هو الإحسان حقاً لا مُعاً وضَةً ولا لتوقع الشكرانِ
لكن يحب شكورهم وشكورهم لا لاحتياج منه للشكرانِ^(١)

قال السعدي: «(الودود) الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم، ويحبونه فهو أحب إليه من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودأ وإخلاصاً وإنابة من جميع الوجوه^(٢)».

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - قال القرطبي: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سبحانه هو (الودود) على الإطلاق، المحبّ لخلقه، والمثني عليهم والمحسن إليهم^(٣)». اهـ.

فإن الله ﷻ يحب من أطاعه ويبغض من عصاه. يحب التوابين والمتطهرين والصابرين والمتوكلين والمقسطين والمؤمنين والمتقين والمحسنين، وجميع الطائعين. ويبغض ويكره المعتدين والمفسدين والمسرفين والخائنين والمستكبرين والفاسقين والظالمين والكافرين، ولا يحب كل مختال فخور، ولا كل خوانٍ كفور، وهذا كله في كتابه العزيز.

فيجب على العبد أن يتبع ما يحبه الله ويرضاه، ويتجنب ما يبغضه ولا يحبه.

يقول القرطبي في تنمة كلامه السابق: «ثم يجب عليه أن يتودد إلى ربه بامثال أمره ونهيه، كما تودد إليه بإدراك نِعَمه وفضله، ويحبه كما أحبه.

ومن حب العبد لله رضاه بما قضاه وقدره، وحب القرآن والقيام به، وحب الرسول ﷺ وحب سنته والقيام بها والدعاء إليها، قال الله العظيم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فمن اتبع رسوله فيما جاء به، وصدق في اتباعه، فذلك الذي أحب الله وأحبه الله.

= وابن الأثير في النهاية (١٦٤/٥)؛ أي: أنه يحب عباده الصالحين؛ بمعنى: أنه يرضى عنهم، والرازي في «الأسماء» (٢٨٢)؛ ومعنى قولنا: إنه يحب عبده؛ أي: يريد إيصال الخيرات لهم.

(١) «النونية» (٢٣٠/٢)، وقوله: يحب شكورهم... إلخ. الأول - بفتح الشين -: اسم فاعل من شكر يشكر فهو شكور، والثاني - بضم الشين -: مصدر (الشارح).

(٢) «تيسير الكريم» (٣٠٢/٥). (٣) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٨٤ب).

واعلم أن مثال محبة الله تعالى بترك المناهي، أكثر من مثالها بسواها من أعمال الطاعات، فالأعمال الصالحة قد يعملها البرّ والفاجر، والانتهاز عن المعاصي لا تكون إلا بالكمال [و] إلا من مصدق.

قلت (القرطبي): وعلى هذا الحدو - والله أعلم - يترتب حب الله تعالى للعبد وحب الناس له، وعليه يخرج الحديث الذي خرّجه مالك والبخاري ومسلم وغيرهم، واللفظ لمسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيُحبه جبريل ثم يُنادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهو سبحانه يحب عباده الذين يحبونه، والمحبوب لغيره أولى أن يكون محبوباً».

فإذا كنّا إذا أحببنا شيئاً لله كان الله هو المحبوب في الحقيقة، وحبنا لذلك بطريق التبع، وكنّا نحب من يحب الله لأنه يحب الله، فالله تعالى يُحب الذين يحبونه، فهو المستحق أن يكون هو المحبوب المألوه المعبود، وأن يكون غاية كل حب^(٢).

٢ - أن المستحق أن يُحب لذاته هو الله ﷻ، وكل محبة يجب أن تكون لله وفي الله، فإذا أحب العبد أحب لله وإذا أبغض أبغض لله، وإذا أعطى أعطى لله، وإذا منع منع لله، وإذا والى والى في الله، وإذا عادى عادى في الله، وهكذا كل أعماله يجب أن تكون فيما يحبه الله ويرضاه.

وكذا فإنه لا يجوز للعبد أن يبغض من أحبه الله تعالى من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين، ولا يحب من أبغضه الله من الفساق والعاصين والمكذّبين والمحاربين لله بأموالهم وأنفسهم، مهما كانت قرابتهم له.

فعن الأول يقول المصطفى ﷺ: «إن الله قال: مَنْ عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٨٤، ب، ١٣٨٥)، والحديث في «الموطأ» (٩٥٣/٢)، والبخاري (٣٠٣/٦، ٤٦١/١٣، ٤٦١/١٣)، ومسلم (٢٠٣٠/٤) عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً به.

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (١٥/٤).

يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتَ سَمِعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَثَنَ اسْتِعَاذَ بِي لِأَعِيزَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتَ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنْ أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(١).

فالحديث يدل على أن معاداة أولياء الله إنما هي في الحقيقة معاداة الله، ومن ذا الذي يطبق أن يعادي الله تعالى شأنه أو يحاربه، ويدل أيضاً على أن الفرائض من أحب ما يتقرب به إلى الله تعالى، ويليهما النوافل.

وأما عن الثاني وهي أن لا يحب من عصى الله، يقول تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

«وليس ما يستحق أن يكون هو المحبوب لذاته، المراد لذاته، المطلوب لذاته، المعبود لذاته، إلا الله. كما أنه ليس ما هو بنفسه مبدع خالق إلا الله، فكما أنه لا رب غيره، فلا إله إلا هو، فليس في المخلوقات ما يستقل بإبداع شيء حتى يكون رباً له، ولكن ثم أسباب متعاونة ولها فاعل هو سببها.

وكذلك ليس في المخلوقات ما هو مستحق لأن يكون المستقل بأن يكون هو

(١) رواه البخاري (٣٤٠/١١)، والبيهقي في «الزهد» (٦٩٠) وفيه خالد بن مخلد وقد تكلم فيه، وشريك بن عبد الله بن نمر وقد انفرد به. قال الحافظ: ولكن للحديث طرق أخرى يدل مجموعها على أن له أصلاً اهـ.

قلت: فمنها حديث عائشة رواه أحمد في «مسنده» (٢٥٦/٦): ثنا حماد وأبو المنذر قالوا: حدثنا عبد الواحد مولى عروة عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﷻ من أذل لي ولياً فقد استحل محاربتني...». بنحو حديث البخاري، وأخرجه البيهقي في «الزهد» (٦٩٢، ٦٩٣)، وعزاه الحافظ في «الفتح» (٣٤١/١١) إلى أحمد في «الزهد»، وابن أبي الدنيا، وأبي نعيم في «الحلية».

وفيه عبد الواحد بن ميمون أبو حمزة قال البخاري: منكر الحديث، وضعفه الدارقطني، وقال ابن أبي حاتم: قلت لأبي: عامر العقدي كيف كان هذا الشيخ؟ فقال: تعرف وتنكر. «الجرح» (٢٤/٦). وانظر: «الميزان» (٦٧٦/٢) لكن قال أحمد بعد أن روى الحديث: وقال أبو المنذر قال: حدثني عروة قال: حدثني عائشة، وقال أبو المنذر: «آذني لي».

فرواه أبو المنذر وهو إسماعيل بن عمر عن عروة مباشرة، وإسماعيل بن عمر ثقة، فالحديث بهذه الطرق صحيح. والله أعلم.

وانظر الكلام على طرقه في: «الفتح» (٣٤١/١١)، (٣٤٢)..

المعبود المقصود المراد بجميع الأعمال؛ بل إذا استحق أن يُحب ويُراد، فإنما يراد لغيره، وله ما شاركه في أن يحب معه، وكلاهما يجب أن يحب الله، لا يُحب واحدٌ منهما لذاته، إذ ليست ذاته هي التي يحصل بها كمال النفوس وصلاحها وانتفاعها، إذا كانت هي الغاية المطلوبة.

والله فطر عباده على ذلك، وهو أعظم من كونه فطرهم على حب الأغذية التي تصلحهم، فإذا تناولوا غيرها أفسدتهم، فإن ذلك، وإن كان كذلك، ففي الممكن أن يجعل في غير ذلك ما يغذيهم، وأما كون الفطرة يمكن أن تصلح على عبادة غير الله، فهذا ممتنع لذاته كما يمتنع لذاته أن يكون للعالم مُبدع غير الله، قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرؤم: ٣٠].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرّانه ويمجّسانه، كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟»^(١).

وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار، عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء [كلهم] فاجتالهم الشياطين وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»^(٢).

والفِطر تعرف هذا أعظم مما تعرف ما يلائمها من الطعام والشراب، لكن قد يحصل للفطرة نوع فساد، فيفسد إدراكها، كما يفسد إدراكها إذا وجدت الحلو مرّاً، وهذا هو أعرف المعروف الذي أمر الله الرسل أن تأمر به، والشرك أنكر المنكر الذي أمرهم بالنهي عنه، والشرك لا يغفره الله، فإنه فساد لا يقبل الصلاح.

ولهذا وجب التفريق بين الحب مع الله، والحب لله، فالأول شرك، والثاني إيمان. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٢٤]. فليس لأحد أن يحب شيئاً مع الله، وأما الحب لله فقال ﷺ في «الصحيح»: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما،

(١) البخاري في مواضع منها: (٢١٩/٣)، ومسلم (٢٠٤٧/٤).

(٢) مسلم (٢١٩٧/٤)، ومعنى فاجتالهم: استخفّوهم فذهبوا بهم، وأزالوهم عما كانوا عليه.

ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذا أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار»^(١). اهـ^(٢).

٣ - حب الله سبحانه ورسوله ﷺ يقوى بقوة العلم الشرعي، وكلما كان المسلم عالماً بدين الله وأحكامه وشرائعه، عاملاً به، كان حُبُّه أقوى من غيره من الجاهلين، وإن كانت محبة الله سبحانه توجد في الفطر ولكنها تقوى بالعلم وتخبو وتضعف بالشهوات والشبهات.

قال ابن تيمية رحمه الله: «وكذلك حُبُّ الله ورسوله حاصلٌ لكل مؤمن، ويظهر ذلك بما إذا خيّر المؤمن بين أهله وبين الله ورسوله، فإنه يختار الله ورسوله.

والمؤمنون متفاضلون في هذه المحبة، ولكن المنافقون - الذين أظهروا الإسلام ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم - ليسوا من هؤلاء، وما من مؤمن إلا وهو إذا ذُكر له رؤية الله اشتاق إلى ذلك شوقاً لا يكاد يشताقه إلى شيء.

وقد قال الحسن البصري: لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا»^(٣).

والحب لله يقوى بسبب قوة المعرفة وسلامة الفطرة، ونقصها من نقص المعرفة ومن خبث الفطرة بالأهواء الفاسدة.

ولا ريب أن النفوس تحب اللذة بالأكل والشرب والنكاح، وقد تشتغل النفوس بأدنى المحبوبيّن عن أعلاهما، لقوة حاجته العاجلة إليه، كالجائع الشديد الجوع، فإن ألمه بالجوع قد يشغله عن لذة مناجاته لله في الصلاة.

ولهذا قال ﷺ في الحديث الصحيح: «لا يصلين أحدكم بحضرة طعام، ولا هو يدافع الأخبين»^(٤).

وإن كانت الصلاة قرة عين العارفين، والإنسان إنما يشताق إلى ما يشعر به من المحبوبات، فأما ما لم يشعر به فهو لا يشताق إليه، وإن كان لو شعر به لكان شوقه إليه أشد من شوقه إلى غيره»^(٥). اهـ.

(١) مضى تخريجه في آثار الإيمان ب(الرقيب).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٣٧٤/٩ - ٣٧٦)، وقد وقع قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ﴾ في غير موضعه فصوصناه.

(٣) أخرجه عبد الله في «السنّة» (٢٦٣/١، ٤٧١/٢)، والآجري في «الشرعية» (ص ٢٥٣)، وفيه عبد الواحد بن زيد البصري الزاهد، قال يحيى: ليس بشيء، وقال البخاري: تركوه «الميزان» (٦٧٢/٢، ٦٧٣).

(٤) رواه مسلم (٣٩٣/١) عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) «درء تعارض العقل والنقل» (٧٢/٦، ٧٣).

المجيد جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٥٦)

* المعنى اللغوي:

قال الزجاج: «أصلُ المجد في الكلام: الكثرة والسَّعة، وهو مأخوذ من قولهم: أمجدتُ الدابة: إذا أكثرَت علفها.

فالمجد في اللغة: الكثير الشرف»^(١).

وقال الزجاجي: «المجيد: الكريم، والمجد الكرم، يقال: اشتقاقه من قول العرب: أمجدت الدابة علفاً، إذا أكثرته لها، فكأن المجيد المبالغ في الكرم، المتناهي فيه»^(٢).

قال ابن سيده: «المجد نيل الشرف، وقيل: لا يكون إلا بالآباء، وقيل: المجد الأخذ من الشرف والسؤدد ما يكفي، وقد مَجَدَ يمجِدُ مجداً، فهو ماجد، ومَجَّدَ - بالضم - مَجَادَةً فهو مجيد، وتَمَجَّدَ، والمجد: كرم فعاله»^(٣).

وقال الراغب: «المجد: السعة في الكرم والجلال»^(٤).

والمجيد فعيل من المجد؛ كالعليم من العالم، والقدير من القادر. ويتحصل عندنا في معنى (المجد):

١ - أنه الشرف التام الكامل.

٢ - أنه السعة والكثرة.

* وروده في القرآن الكريم:

ورد هذا الاسم مرتين:

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٥٣).

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٥٢)، وينحوه في «شأن الدعاء» (ص ٧٤، ٧٥)، و«الصحاح للجوهري» (٢/٥٣٦).

(٣) «اللسان» (٥/٤١٣٨)، وفي «النهاية» (٤/٢٩٨): المجد: الشرف الواسع.

(٤) «المفردات» (ص ٤٦٣).

في قوله تعالى: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ [البروج: ١٤، ١٥] ^(١).

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال أبو عبيدة: «﴿حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾؛ أي: محمود ماجد» ^(٢).
وقال ابن جرير: «(المجيد): ذو مجد ومدح وثناء كريم» ^(٣).
وقال الخطابي: «(المجيد) هو الواسع الكرم» ^(٤).
وفي المقصد: «(المجيد) هو الشريف ذاته، الجميل أفعاله، الجزيل عطاؤه ونواله» ^(٥).

وقال ابن كثير: «الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمود ممجد في صفاته وذاته» ^(٦).
وقال الشوكاني: «(مجيد): كثير الإحسان إلى عباده، بما يفيضه عليهم من الخيرات» ^(٧).

وقال ابن القيم:

وهو المجيد صفاته وأوصاف تعظيم فشأن الوصف أعظم شأن ^(٨)
وقال عبد الرحمن السعدي: «(المجيد) الكبير العظيم الجليل، وهو الموصوف بصفات المجد والكبرياء والعظمة والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء وأجل وأعلى، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله والخضوع له والتذلل لكبريائه» ^(٩).

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - قال الأزهري: «الله تعالى هو (المجيد) تَمَجَّدَ بفعاله، ومَجَّدَهُ خلقه لعظمته» ^(١٠).

فالله سبحانه له المجد العلي العظيم، بفعاله العظيمة وصفاته العلية وبأسمائه

(١) قرئ «المجيد» بالرفع نعتاً لله ﷻ، وبالجر نعتاً للعرش. انظر: «إملاء ما من به الرحمن» لأبي البقاء عبد الله العكبري (٢/٢٨٤)، القرطبي (١٩/٢٩٦، ٢٩٧).

(٢) «مجاز القرآن» (١/٢٩٣). (٣) «جامع البيان» (١٢/٤٧).

(٤) «شأن الدعاء» (ص ٧٤)، وبه قال الأصبهاني في «الحجة» (ق ١١٨ أ) وقال: وقيل: (المجيد)

في صفات الله تعالى: الكريم الفعال، ورجل ماجد: مفضل كثير الخير.

(٥) «المقصد الأسنى» (ص ٧٧) باختصار. (٦) «التفسير» (٢/٤٥٢).

(٧) «فتح القدير» (٢/٥١١). (٨) «النونية» (٢/٢١٥).

(٩) «تيسير الكريم» (٥/٣٠٠). (١٠) «اللسان» (٥/٤١٣٨).

الحسنى، فلا مجدَ إلا مجده، ولا عظمة إلا عظمته، وكل مجد لغيره إنما هو منه عطاء وتفضل^(١).

وفي اقتران (الحميد) مع (المجيد) بيان أنه محمود على مجده وعظمته وكمال صفاته، فليس كل ذي شرف محمود، وكذلك ليس كل محمود يكون ذو شرف. قال الحلبي: «(المجيد) ومعناه: المنيع المحمود؛ لأن العرب لا تقول لكل محمود: مجيداً، ولا لكل منيع مجيداً. أو قد يكون الواحد منيعاً غير محمود؛ كالمتمر الخلع الجائر، أو اللص المتحصن ببعض القلاع.

وقد يكون محموداً غير منيع، كأمر السوق والصابرين من أهل القبلة.

فلما لم يقل لكل واحد منهما: مجيد، علمنا أن المجيد من جمع بينهما فكان منيعاً لا يرام، وكان في منعته حسن الخصال جميل الفعال، والباري - جلّ ثناؤه - يُجل عن أن يرام وأن يوصل إليه، وهو مع ذلك محسن مجمل لا يستطيع العبد أن يُحصي نعمته، ولو استنفد فيه مدته، فاستحق اسم المجيد وما هو أعلى منه^(٢). اهـ.

٢ - إن الله سبحانه عطاؤه واسع، وفضله سابغ، قد شمل المؤمن والكافر، والبر والفاجر، مجد بذلك نفسه في قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(٣). [إبراهيم: ٣٤].

٣ - مجد الله تعالى نفسه في كتابه العزيز في آيات كثيرة، بل القرآن مليء بتمجيد الله وتعظيمه، وكذا حديث رسوله ﷺ، وأعظم آيات القرآن وسوره هي التي احتوت على ذلك، كآية الكرسي في البقرة، وسورة الفاتحة، والإخلاص.

ومن أعظم ما يعظم به العبد ربه ويمجده هو تلاوة كتابه، في آناء الليل وأطراف النهار، فإنه لا أحد يحصي الثناء عليه والتمجيد له، هو كما أثنى على نفسه.

في الحديث القدسي: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤)، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٥)، قال: مجدني عبدي...»^(٤).

(١) راجع الكلام على اسمه (العظيم).

(٢) «المنهاج» (١/١٩٧) ذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، وكذا البيهقي في «الأسماء» (ص ٥٧).

(٣) راجع البحث في اسمه (الرزاق) وغيره.

(٤) رواه مسلم في «صحيحه» (١/٢٩٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً به.

ثم ذكره وتسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله، وما يلتحق بها من الحوقلة والبسمة والحسبة والاستغفار والدعاء بخيري الدنيا والآخرة.

وهذه الحال هي حال أهل الذكر، من لا يشقى بهم الجليس، من الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلمُّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم ﷻ وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يُسَبِّحُونَكَ ويكبرُونَكَ ويحمدُونَكَ ويمجدُونَكَ، قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادةً، وأشدَّ لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً...، حتى قال تعالى: فأشهدكم أنني قد غفرت لهم، قال: يقول: مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى جلسهم»^(١).

٤ - سَمِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كِتَابَهُ بِ(الْمَجِيدِ) فِي آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ:

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ [ق: ١]، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

قَالَ قَتَادَةُ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ يَقُولُ: قُرْآنٌ كَرِيمٌ^(٢). فَالْقُرْآنُ مَجِيدٌ؛ أَي: شَرِيفٌ كَرِيمٌ عَظِيمٌ، وَلَا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ كَلَامُ اللهِ الْمَجِيدِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

وَمِنْ مَجْدِ الْقُرْآنِ وَشَرَفِهِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِلْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ؛ بَلْ بِسُورَةٍ مِنْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهذا يتجلى لنا في جوانب عديدة:

منها: أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِلْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ مَا فِيهِ مِنَ التَّشْرِيعَاتِ مِنْ أَمْرِ وَنَهْيٍ، وَحَلَالٍ وَحَرَامٍ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالْمَعَامَلَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ إِعْجَازِهِ.

ومنها: أَنَّهُ بَلَغَتْهُ وَفَصَّاحَتُهُ، وَرُوعَتُهُ وَبَهَاءُهُ، وَحَسَنُ تَرَاكِيْبِهِ وَأَسْلُوبِهِ، وَأَخَذَهُ بِالنَّفُوسِ كُلِّهَا لَا يَضَاهِي.

(١) رواه أحمد (٢/٢٥١، ٢/٢٥٢)، والبخاري (١١/٢٠٨، ٢٠٩)، والترمذي (٥/٥٧٩، ٥٨٠).

(٢) أخرجه ابن جرير (٨٩/٣٠) بإسناد حسن.

ومنها: كثرة فوائده التي لا تنقضي، ولا يشبع منها العلماء على مرّ الدهور والعصور.

ومن شرفه ورفعته: أن الله سبحانه حفظه وصانه من كيد الكفار والمنافقين، ومن الحاقدين على هذا الدين، حفظه من أن يبدلوه أو أن يحرفوه، أو أن يزدوا فيه أو ينقصوه، قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ومن عظمة هذا الكتاب ومجده: أن الله يرفع به من عمل به واتخذه ديناً ومنهاجاً، ويخفض به ويذل من تركه وراء ظهره، ورأى أن العمل به رجعية وتخلّف وجمود.

ففي صحيح مسلم عن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عُمر بعُسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟! قال: إنه قارئ لكتاب الله ﷻ، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»^(١).

فقد رفع الله تعالى هذا المولى لحفظه لكتابه وعلمه به مع انحطاط نسبه وشرفه على غيره من أهل مكة أهل الشرف والنسب.

وهكذا المجد والرفعة في الدرجات في الآخرة، فإنما هي لمن أخذ بهذا الكتاب وعمل به، والذلّ والمهانة والدركات لمن تركه وأعرض عنه.



(١) مسلم (١/٥٥٩)، وابن ماجه (١/٧٨، ٧٩).

الشَّهِيد

جَلَّ جلاله وتقدَّست أَسْماؤه

(٥٧)

* المعنى اللغوي:

قال الزجاج: «الشَّهِيدُ الحاضر، يقال: شَهِدْتُ الشيءَ، وشَهِدْتُ به، وأصل قولهم: شَهِدْتُ به من الشهادة التي هي الحضور. واليوم المشهود: يوم القيامة؛ لأنه معلومٌ كونه لا محالة، فكان معنى (الشَّهِيد): العالم»^(١).

وقال الزجاجي: «الشَّهِيد في اللغة بمعنى: الشاهد، كما أن العليم بمعنى: العالم، والرحيم بمعنى: الراحم، والشاهد خلاف الغائب، كقول العرب: فلان كان شاهداً لهذا الأمر؛ أي: لم يغب عنه. والشَّهِيد أيضاً في اللغة: الشاهد الذي يشهد بما عاين وحضر، كما يقال: فلان شاهد على فلان وشهيدته، كما قال ﷺ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٤١]؛ أي: شاهداً»^(٢).

وقال ابن سيده: «الشاهد: العالم الذي يُبين ما عَلمه»^(٣).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد هذا الاسم في القرآن ثماني عشرة مرة، منها: قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]. وقوله: ﴿قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهْدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنْ أَلَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]. وقوله: ﴿إِنْ أَجْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبا: ٤٧]. وقوله: ﴿أَخْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٥٣)، وفي «النهاية» (٥١٣/٢): الشاهد الحاضر.

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٣٢). (٣) «اللسان» (٢٣٤٨/٤).

وقوله: ﴿لَئِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلُهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

وقوله: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: وأنت تشهد على كل شيء؛ لأنه لا يخفى عليك شيء^(١).

وقال في: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]: «والله على حقيقة ما أقول لكم شهيد يشهد لي به، وعلى غير ذلك من الأشياء كلها»^(٢).

وقال الزجاجي: «فَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» لا تخفى عليه، كان شهيداً لها وشاهداً لها؛ أي: عالماً بها وبحقائقها، علم المشاهدة لها؛ لأنها لا تخفى عليه خافية^(٣).

وقال الخطابي: «هو الذي لا يغيب عنه شيء، يقال: شاهد وشهيد، كعالم وعليم؛ أي: كأنه الحاضر الشاهد الذي لا يعزب عنه شيء، وقد قال سبحانه: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ أي: من حضر منكم الشهر فليصمه.

ويكون الشهيد بمعنى: العليم، كقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، قيل: معناه: عليم الله، وقال أبو العباس أحمد بن يحيى^(٤): معناه: بين الله أنه لا إله إلا هو.

وهو أيضاً الشاهد للمظلوم الذي لا شاهد له ولا ناصر، على الظالم المتعدي الذي لا مانع له في الدنيا، ليتصف له منه^(٥). اهـ.

وفي المقصد: (الشهيد) يرجع معناه إلى (العليم) مع خصوص إضافة، فإنه تعالى عالم الغيب والشهادة، والغيب عبارة عما بطن والشهادة عما ظهر، وهو الذي يشاهد. فإذا اعتبر العلم مطلقاً فهو العليم.

وإذا أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير.

(١) «جامع البيان» (٩٠/٧)، وينحوه في (٩٨/١٧).

(٢) المصدر السابق (٧١/٢٢). (٣) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٣٢).

(٤) هو المعروف بثعلب. انظر: «تفسير ابن جرير» (١٣٩/٣)، وغيره.

(٥) «شأن الدعاء» (ص ٧٥، ٧٦).

وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد.

وقد يعتبر مع هذا أن يشهد على الخلق يوم القيامة بما علم وشاهد منهم.

والكلام في هذا الاسم يقرب من الكلام في (العليم والخبير) فلا نعيده^(١).

وقال ابن كثير: «شَهِيدٌ عَلَى أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم وما تُكِنُّ ضمائرهم»^(٢).

وقال السعدي: «(الشهيد) أي: المطلع على جميع الأشياء، سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليها، صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه»^(٣).

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إن الله عز شأنه هو عالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شيء وإن دَقَّ وصغر، فهو سبحانه شهيد على العباد وأفعالهم، ليس بغائب عنهم، كما قال سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٦﴾ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف: ٦، ٧].

قال الأصبهاني: «فينبغي لكل عاملٍ أراد عملاً صَغُرَ العملُ أو كَبُرَ، أن يقف وقفةً عند دخوله فيه، فيعلم أن الله شهيد عليه فيحاسب نفسه، فإن كان دخوله فيه لله: مضى فيه، وإلا ردَّ نفسه عن الدخول فيه وتركه»^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٦٦﴾﴾ [يونس: ٦١].

فهو يقضي بين عباده بعلمه وسمعه وبصره الذي لم يفارقهم في الدنيا طرفه عين، ولا يحتاج سبحانه إلى الشهود؛ لأنه على كل شيء شهيد، كما جاء في جواب عيسى عليه الصلاة والسلام لربه يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَْلَمُ

(١) «المقصد الأسنى» (ص ٧٩)، ونحوه في «النهاية» (٥١٣/٢).

(٢) «التفسير» (٢١٠/٣) وهو بنحو قول الأصبهاني في «الحجة» (ق ٢٢٣) إذ يقول: الشهيد على العباد بأعمالهم وأحوالهم، قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

(٣) «تيسير الكريم» (٣٠٣/٥). (٤) «الحجة» (ق ٢٣ب).

الْغُيُوبِ ﴿١١٧﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٨﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

فإن عيسى عليه الصلاة والسلام يتبرأ يوم العرض من عبَاد الصَّليب، الذين اتخذوه وأمه إلهين مع الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، بقوله: سبحانك! ما أمرتهم بهذا، وما يكون لي أن أنطق به، وإنما أمرتهم بعبادتك وحدك لا شريك له، وأنا إنما عاينت وشهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم، فأما ما وقع بعد إذ رفعتني فإني لم أشهده ولم أعلمه، وأنت قد علمته وشهدته وأنت على كل شيء شهيد، ولا يغيب عنك شيء^(١).

٢ - الله ﷻ أعظم شيء شهادة، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحِيدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩]، فإن شهادته سبحانه لا غلط فيها ولا ظلم تعالى عن ذلك.

قال ابن جرير: «يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبون ويجحدون نبوتك من قومك: أي شيء أعظم شهادةً وأكبر، ثم أخبرهم بأن أكبر الأشياء شهادةً، الله الذي لا يجوز أن يقع في شهادته ما يجوز أن يقع في غيره من خلقه من السهو والخطأ والغلط والكذب.

ثم قل لهم: إن الذي هو أكبر الأشياء شهادةً، شهيد بيني وبينكم بالحق منا من المبطل، والرشيد منا في فعله وقوله من السَّفيه، وقد رضينا به حَكماً بيننا»^(٢). اهـ.

٣ - شهد الله ﷻ لنفسه بأنه واحد أحد، فرد صمد، لا شريك له ولا وزير، ولا

(١) وقريب من هذا حديث ابن عباس ؓ قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاةً عراةً غُرلاً»، ثم قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾... إلى آخر الآية، ثم قال: «ألا وإن أولَ الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغَفَّرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٧، ١١٨] فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم». رواه البخاري (٢٨٦/٨) وموضع آخر، ومسلم (٤/٢١٩٤، ٢١٩٥). فإنه ﷺ يتبرأ ممن ارتد عن هذا الدين بعده، وممن أحدث فيه ما ليس منه من المبتدعة، ويكل أمرهم إلى (الشهيد) سبحانه، فإنه بأحوالهم أعلم وبما كانوا عليه أشهد.

(٢) «جامع البيان» (١٠٣/٧).

نَدَّ وَلَا نَظِيرَ، وشهد ملائكتَه وأولو العلم بذلك، كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

فتضمنت الآية أعظم شهادة من أعظم شهيد.

قال ابن القيم رحمته الله: «تضمنت هذه الآية الكريمة: إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف - التي فصل عقائدها الباطلة قبل هذا - والشهادة ببطلان أقوالهم، ومذاهبهم. وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية، ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية.

فتضمنت هذه الآية: أجل شهادة وأعظمها، وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد، بأجل مشهود.

وعبارات السلف في (شهد) تدور على: الحكم والقضاء والإعلام والبيان والإخبار.

قال مجاهد: حكم وقضى. وقال الزجاج: بين. وقالت طائفة: أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلها حق، لا تنافي بينها. فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد، وخبره وقوله، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه. فلها أربع مراتب: فأول مراتبها: علم ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته. وثانيها: تكلمه بذلك ونطقه به. وإن لم يعلم به غيره؛ بل يتكلم هو به مع نفسه، ويذكرها وينطق بها، أو يكتبها.

وثالثها: أن يعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها، ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط: تضمنت هذه المراتب الأربع:

علم الله سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه، وإخباره خلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهداً بما

لا علم له به. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وأما مرتبة التكلم والخبر: فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به. وإن لم يتلفظ بالشهادة. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءَ أَشْهَادًا خَلَقَهُمْ سَكَنًا سَكَنَ شَهِدَتْهُمْ وَسُئِلُوا﴾ [الزخرف: ١٩]، فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم.

وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه: شهادة، قال تعالى: ﴿يَتَّيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]. فشهادة المرء على نفسه: هي إقرار المرء على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز: «فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ»، وقال تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا وأضعافه يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره لا يشترط في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة، كما هو مذهب مالك وأهل المدينة، وظاهر كلام أحمد. وأما مرتبة الإعلام والإخبار؛ فنوعان: إعلام بالقول، وإعلام بالفعل. وهذا شأن كل معلّم لغيره بأمر: تارة يعلمه بقوله، وتارة بفعله. ولهذا كان من جعل داراً مسجداً وفتح بابها لكل من دخل إليها، وأذن بالصلاة فيها - معلماً أنها وقف، وإن لم يتلفظ به. وكذلك من وُجد متقرباً إلى غيره بأنواع المسار - معلماً له ولغيره: أنه يحبه، وإن لم يتلفظ بقوله. وكذلك بالعكس.

وكذلك شهادة الرب جل جلاله وبيانه وإعلامه: يكون بقوله تارة، وبفعله تارة أخرى. فالقول: هو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، مما قد علم بالاضطرار: أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو. وأخبر بذلك، وأمر عباده أن يشهدوا به.

وشهادته سبحانه ﴿أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ معلومة من جهة كل من بلغ عنه كلامه. وأما بيانه وإعلامه بفعله: فهو ما تضمنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل والفطرة.

وهذا أيضاً يستعمل فيه لفظ الشهادة، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة، والإرشاد والبيان، فإن الدليل يبيّن المدلول عليه ويظهره، كما يبيّن الشاهد والمخبر، بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ. وقد يسمى شاهد الحال نطقاً وقولاً له وكلاماً، لقيامه مقامه، وأدائه مؤداه. كما قيل:

وقالت العينان: سمعاً وطاعة وحدّرتا بالدرّ لمّا يُثَقَّب
وقال الآخر:

شكى إليّ جملي طول السرى صبراً جميلى، فكلانا مبتلى
وقال الآخر:

امتلاً الحوض، وقال: قطني مهلاً رويداً، قد ملأت بطني
ويسمى هذا: شهادة أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا

مَسْجِدَ اللَّهِ شَهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ ﴿التوبة: ١٧﴾، فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله، فهي شهادة بكفرهم، وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت بها عليهم.

والمقصود: أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه.

فإن دلالتها إنما هي بخلقه وجعله، ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية، فتطابقت شهادة القول وشهادة الفعل، كما قال تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ أي: أن القرآن هو الحق. فأخبر أنه يدل بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية.

وهذه الشهادة الفعلية: قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير.

قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب، وأموره المحكمة عند خلقه: أنه لا إله إلا هو.

وأما المرتبة الرابعة: وهي الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه، وتتضمنه. فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر، وألزم عباده به، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فقد أخبر وبيّن، وأعلم وحكم وقضى: أن ما سواه ليس بإله، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم. فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره، وذلك يستلزم الأمر باتخاذ وحده إلهاً، والنهي عن اتخاذ غير معه إلهاً. وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلاً يستفتي، أو يستشهد، أو يستطب من ليس أهلاً لذلك، ويدع من هو أهل، فنقول له: هذا ليس بمفتٍ، ولا شاهد، ولا طبيب؛ المفتي فلان، والشاهد فلان، والطبيب فلان. فإن هذا أمر منك ونهي.

وأيضاً فإن الآية دلّت أنه وحده هو المستحق للعبادة، فإذا أخبر أنه وحده المستحق للعبادة تضمن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى

عليهم، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم، فإذا شهد سبحانه أنه لا إله إلا هو تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده.

وأيضاً: فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية، ويقال للجمل الخبرية: قضية وحكم، وقد حكم فيها بكيت وكيت. قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَلَهُمْ لَكُذُوبٌ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الصافات: ١٥١ - ١٥٤]، لكن هذا حكم لا إلزام معه، والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو: متضمن للإلزام، والله سبحانه أعلم^(١). اهـ.

٤ - يجوز إطلاق هذا الاسم على الخلق.

فقد سَمَّى الله ﷻ الرسول ﷺ وأُمته بذلك في آيات، منها قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وغيرهما.

وسماهم الله تعالى: شهداء؛ لأنهم يشهدون على الأمم يوم القيامة^(٢). ومن قُتل في سبيل الله يسمى بالشهيد^(٣).

(١) «التفسير القيم» (ص ١٧٤، ١٧٩) مع اختصار.

(٢) أخرج البخاري (٨/ ١٧١، ١٧٢)، (١٣/ ٣١٦)، والترمذي (٢٠٧/ ٥) عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأُمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أئانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأُمته، فيشهدون أنه قد بلغ، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، الوسط: العدل».

(٣) ذكر الرازي في سبب تسميته بذلك وجوهاً:

الأول: أن ملائكة الرحمن يحضرون، ويرفعون روحه إلى منازل القدس، فيكون فعلاً بمعنى مفعول.

الثاني: يسمى شهيداً مبالغة من الشاهد، ومعناه: أنه شاهد لطف الله ورحمته وما أعد له من الدرجات.

الثالث: قال الأنضر بن شميل: الشهيد، هو الحي؛ لأن كل من كان حياً كان شاهداً ومشاهداً للأحوال، والشهيد حي بعد أن صار مقتولاً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

الرابع: سمي شهيداً؛ لأنه شهد الواقعة في المعركة.

الخامس: سمي شهيداً؛ لأنه من جملة من سيشهد يوم القيامة على الأمم الخالية، قال تعالى: =

وسمى الله تعالى الإنسان عموماً بالشهيد، من جهة أنه يشهد على نفسه، ويعلم منها ما لا يعلمه غيره، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ (١) [العاديات: ٦، ٧].



= ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. «شرح الأسماء» (ص ٢٨٨). ولا يخفى ما في القول الرابع من ضعف، إذ ليس كل من شهد المعركة يسمى شهيداً. (١) وهذا على تفسير من فسر الشهيد هنا بأنه الإنسان، وقيل: هو الله سبحانه شهيد على بني آدم بما يعمل. انظر: «تفسير القرطبي» (١٦٢/٢٠).

النَهْجُ الْأَسْمَى

فِي شَرْحِ

أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى

تَأْلِيفِ

مُحَمَّدِ الْحَمُودِ النَّجْدِيِّ

الجزء الثاني

طبعة جديدة منقّحة ومزودة

مكتبة الإمام الذهبي

الكويت

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقدمة الجزء الثاني

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بيّن لأمته طريق النجاة، وحذرهم طرق العَيِّ والهلكات، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

وبعد:

فهذا هو «الجزء الثاني» من «القسم الأول»^(١) من كتابنا «النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنی» نقدمه للقراء الكرام، عسى الله أن ينفعنا.

والذي حال بيننا وبينه ظروف وأشغال ليست بتقديرنا، ثم حرصنا على أن يخرج الكتاب بأكمل وجه وبأجزائه الثلاثة في مجلد واحد، بعد الزيادة وتصحيح الأخطاء الطباعية والتنقيح.

ويتبع هذا الجزء «القسم الثاني» من هذا الكتاب وهو الأسماء التي ثبتت في السنّة المطهرة.

وأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يغفر لي زلاتي، وأن يتقبّل مني حسناتي إنه غفور شكور.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

وكتبه

محمد بن حمد الحمود النجدي

الكويت (٦) شوال سنة (١٤١٢هـ)

(١) وهو في الأسماء الحسنی التي ثبتت بالقرآن الكريم.

الحَقُّ

جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

(٥٨)

* المعنى اللغوي:

الحق نقیض الباطل، وجمعه: حقوقٌ وحَقَّاقٌ، وليس له بناء أدنى عدد. وحَقٌّ الأمر یَحِقُّ حقاً: صار حقاً وثبت. - قال الأزهری: معناه وَجَبَ یَجِبُ وجوباً. وقال ابن درید: وَحَقَّقَ الرجل إذا قال: هذا الشيء هو الحق، كقولك: صدَّق، ویقال: أَحَقَّقْتُ الأمر إحقاقاً، إذا أَحَكَمْتَهُ وصَحَّحْتَهُ. وَحَقٌّ الأمرُ یُحَقُّه وَأَحَقُّه: كان منه علی یقین^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم في عشر آيات من القرآن، منها:
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا۟ اِلَى اللّٰهِ مَوْلٰهُمُ الْحَقُّۙ اَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ اَسْرَعُ الْحٰسِبِیْنَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَرُدُّوْا۟ اِلَى اللّٰهِ مَوْلٰهُمُ الْحَقُّۙ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوْا یَفْتَرُوْنَ﴾ [یونس: ٣٠].
وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ اَلْحَقُّۚ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّۙ اِلَّا الضَّلٰلُۙ فَاَنۢی تُصْرَفُوْنَ﴾ [یونس: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ اَوَّلٰیۤئَۃٌ لِلّٰهِ الْحَقُّۙ هُوَ خَبِرٌ ثَوَابًا وَخَبِرٌ عُقَابًا﴾ [الكهف: ٤٤].
وقوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِاَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّۙ وَاَنۢتُمْ یَحۢیِی الْمَوْتِی وَاَنۢتُمْ عَلٰی كُلِّ شَیْءٍ قَدِیۡرٌ﴾ [الحج: ٦].

وقوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِاَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّۙ وَاَنَّ مَا یَدْعُوْنَ مِنْ دُوۡنِهٖ هُوَ الْبَاطِلُۙ وَاَنَّ اللّٰهَ هُوَ اَعْلٰی الْكِبَرِۙ﴾ [الحج: ٦٢].

(١) «اللسان» مادة حقق (٢/٩٣٩، ٩٤٠)، «الصحاح» للجوهري (٤/١٤٦٠، ١٤٦١). وانظر: «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٥٣)، «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص ١٧٨).

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ﴿١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ ﴿٢٥﴾ [النور: ٢٥] ^(١).

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير في تفسير آية يونس: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقِّ﴾: «ورجع هؤلاء المشركون يومئذ إلى الله، الذي هو ربهم ومالكهم الحق لا شك فيه، دون ما كانوا يزعمون أنهم لهم أرباب من الآلهة والأنداد ﴿وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يقول: وبطل عنهم ما كانوا يتخرصون من الفرية والكذب على الله بدعواهم أو ثنائهم أنها لله شركاء، وأنها تقربهم منه زلفى» ^(٢).

وقال في قوله: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ ﴿٣٣﴾: «يقول تعالى ذكره لخلقه: أيها الناس فهذا الذي فعل هذه الأفعال فيرزقكم من السماء والأرض ويملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت والميت من الحي، ويدبر الأمر: الله ربكم الحق لا شك فيه ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾، يقول: فأى شيء سوى الحق إلا الضلال وهو: الجور عن قصد السبيل.

يقول: فإذا كان الحق هو ذا، فادعواكم غيره إلهاً ورباً هو الضلال والذهاب عن الحق لا شك فيه فأنى تصرفون» ^(٣).

وقال في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَدَ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾؛ يعني: تعالى ذكره بقوله ذلك: هذا الفعل الذي فعلت من إيلاحي الليل في النهار، وإيلاحي النهار في الليل لأنني أنا (الحق) الذي لا مثل لي ولا شريك ولا ند، وأن الذي يدعوه هؤلاء المشركون إلهاً من دونه هو الباطل الذي لا يقدر على صنعة شيء، بل هو المصنوع» ^(٤).

وقال الخطابي: «الحق هو المُتَحَقِّقُ كونه ووجوده، وكل شيء صح وجوده وكونه

(١) والباقي من الآيات التي ذكر فيها الاسم: آية (١١٤) من سورة طه، وآية (٣٠) من سورة لقمان.

(٢) المصدر السابق (١١/٨٠).

(٣) «جامع البيان» (١١/٧٩).

(٤) المصدر السابق (١٧/١٣٧) باختصار.

فهو حقٌّ، ومنه قول الله سبحانه: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١، ٢] معناه - والله أعلم -: الكائنة حقاً لا شك في كونها، ولا مدفع لوقوعها.

ويقال: الجنة حقٌّ والنار حقٌّ والساعة حقٌّ، يُراد أنَّ هذه الأشياء كائنة لا محالة.

والعرب تقول: إن فلاناً الرجلُ حقُّ الرجل، والشجاع حق الشجاع وحاقُّ الشجاع، وحاقةُ الشجاع، إذا أثبتوا له الشجاعة وحقيقتها^(١).

وقال الحليمي: «(الحق) ما لا يسع إنكاره، ويلزم ثبوته والاعتراف به، ووجود الباري عزَّ ذكره أولى ما يجب الاعتراف به^(٢)، ولا يسع جحوده، إذ لا مُثَبَّت يتظاهر عليه من الدلائل البينة الباهرة، ما تظاهرت على وجود الباري جلَّ جلاله^(٣)».

وقال القشيري^(٤): «(الحق) من أسمائه، وهو بمعنى الموجود الكائن وكذا معناه في اللغة^(٥)».

وقال الغزالي: «(الحق) هو الذي في مقابلة الباطل، والأشياء قد تُستبان بأضدادها، وكل ما يخبر عنه فإما باطلٌ مُطلقاً، وإما حقٌّ مُطلقاً وإما حقٌّ من وجه، باطل من وجه، فالممتنع بذاته هو الباطل مُطلقاً، والواجب بذاته هو الحق مُطلقاً، والممكن بذاته الواجب بغيره هو حق من وجه باطل من وجه^(٦)».

وقال ابن الأثير: «(الحق) هو الموجود حقيقة المُتَحَقِّق وجوده وإلهيته، والحق ضد الباطل^(٧)».

(١) «شأن الدعاء» (ص ٧٦) باختصار يسر.

(٢) قال البيهقي في «الأسماء» (ص ١٣): يعني: عند ورود أمره بالاعتراف به.

(٣) «المنهاج في شعب الإيمان» (١/ ١٨٤) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباري جل ثناؤه والاعتراف بوجوده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (١٢، ١٣).

(٤) هو: الشيخ الزاهد أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري الخراساني النيسابوري الشافعي الصوفي المفسر، ولد سنة (٣٧٥هـ)، قال الخطيب: كتبنا عنه وكان ثقة وكان حسن الوعظ، ملبح الإشارة يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي، وقال الذهبي: وكان عديم النظر في السلوك والتذكير، لطيف العبارة، طيب الأخلاق، غواصاً على المعاني. مات سنة (٤٦٥هـ). «تاريخ بغداد» (١١/ ٨٣)، «السير» (١٨/ ٢٢٧ - ٢٣٣).

(٥) «التحبير في التذكير» (ص ٨٦) ط. دار الكتاب العربي (١٩٦٨).

(٦) «المقصد الأسنى» (ص ٧٩) باختصار، ونحوه عند الرازي (ص ٢٩٠).

(٧) «النهاية» (١/ ٤١٣).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - الله تعالى هو الحق المبين، لا شك ولا ريب في وجوده، ولا يسع أحداً إنكاره لظهور دلائل إثباته، وكيف يخفى سبحانه وهو أحق باسم (الحق) من كل حق، وهو سبحانه حق في ذاته، حق في صفاته، حق في أقواله، حق في أفعاله. يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى: «(الحق) في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنُّعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً.

ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً.

فقوله حق.

وفعله حق.

ولقاؤه حق.

ورسله حق.

وكتبه حق.

ودينه هو الحق.

وعبادته وحده لا شريك له هي الحق.

وكل شيء يُنسب إليه فهو حق.

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] ^(١).

٢ - وقد كان النبي ﷺ يستفتح صلاته من الليل بذكر هذا المعنى، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «اللهم لك الحمد أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك مُلْك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت مُلْك السموات والأرض، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق،

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٠٥/٥).

وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق... الحديث^(١).

٣ - والله تعالى هو الإله والرب الحق، الذي لا تنبغي الألوهية والربوبية إلا له ﷻ وحده لا شريك له، وما سواه من الآلهة والمعبودات فباطل زائل، وقد دَلَّ الله سبحانه على ذلك بالأدلة الواضحة، والبراهين الظاهرة في غير ما موضع من كتابه الكريم.

كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْمَلِكُ فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۝ (٣٢)﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۝ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ أَتَى تُبَيِّنَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ (٣٥)﴾ [يونس: ٣٤، ٣٥].

وقال تعالى أمراً نبيه ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ يَٰ أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤].

وقوله تعالى في «سورة الحج»: ﴿ذَٰلِكَ يَٰٓأَتِ اللَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ (١١) ذَٰلِكَ يَٰٓأَتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَتَىٰ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَتَىٰ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۝ (١٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ (١٣) لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَرِثَةُ اللَّهِ لَهٗوَ الْغَنَى الْحَمِيدُ ۝ (١٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَآ فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ۝ (١٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ۝ (١٦)﴾ [الحج: ١١-١٦]^(٢).

فذكر الله تعالى في هذه الآيات - وغيرها كثير - من دلائل ألوهيته الحقّة وربوبيته أمراً عظيماً، من كونه:

(١) أخرجه البخاري (٣/٣، ١١٦/١١، ٣٧١/١٣، ٤٢٣، ٤٦٥)، ومسلم (١/٥٣٢، ٥٣٣) واللفظ للبخاري في التهجد.

قال الحافظ: «[إطلاق اسم (الحق) على ما ذكر من الأمور معناه: أنه لا بد من كونهها، وأنها مما يجب أن يصدق بها، وتكرار لفظ (حق) للمبالغة في التأكيد]. «الفتح» (٤/٣).

(٢) وانظر الآيات (٢٥ - ٣٢) من سورة لقمان.

يرزق من السماء والأرض .

يملك السمع والأبصار .

يُخرج الحي من الميت وعكسه .

يُدبر الأمر .

يبدؤ الخلق ثم يعيده .

يهدي إلى الحق .

يتوفى الأنفس .

يولج الليل في النهار وعكسه .

يحيي الأرض بالماء ويخرج نباتها .

يملك السموات والأرض وما فيها .

يُسخر للناس ما في السموات والأرض .

يُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه .

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِۦٓ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

[لقمان: ١١] .

٤ - لما كان الله هو الحق ويحب الحق ويأمر به، فإنه لا يستحيي من بيانه

للناس، وإظهاره لهم بأنواع الأمثلة الحسية التي تُعين على فهم الحق وقبوله،

والإعراض عما سواه من الباطل .

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا

الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ

بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

[البقرة: ٢٦] .

ولا يستحيي من الأمر به والحث عليه في سائر شؤون الناس؛ لأن في ذلك

صلاحهم في معاشهم ومعادهم، وفي ترك الحق حياءً أو خوفاً أو مُداهنة فسَادُ حياة

الناس، ولنا في آية الحجاب عبرة وعظة، في التمسك بالحق قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ

الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِطِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ

إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ

فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ

ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقَوْلِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] .

قال ابن جرير الطبري في الآية: «إن دخولكم بيوت النبي ﷺ من غير أن يؤذن لكم، وجلوosكم فيها مستأنسين للحديث بعد فراosكم من أكل الطعام الذي دُعيتم له، كان يؤذي النبي ﷺ فيستحيي منكم أن يخرجكم منها إذا قعدتم فيها للحديث بعد الفراغ من الطعام، أو يمنعكم من الدخول إذا دخلتم بغير إذن، مع كراهيته لذلك منكم، والله لا يستحيي من الحق أن يتبين لكم، وإن استحيا نبيكم فلم يبين لكم كراهية ذلك حياء منكم»^(١).



(١) «جامع البيان» (٢٢/٢٨)، وأنظر: «تفسير ابن كثير» (٣/٥٠٣ - ٥٠٥).

المُبِين

جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

(٥٩)

* المعنى اللغوي:

بان الشيء بياناً: اتَّضح فهو بَيِّنٌ.
 وأبان الشيء فهو مُبِين، وأبنتُهُ أنا: أي: أوضحتُه، واستبان الشيء: وضح،
 واستبنته أنا: عرفته، وتبين الشيء: وضح وظهر.
 والتَّبين: الإيضاح والوضوح، والبيان: الفصاحة واللسن.
 واليِّن: الفراق، تقول منه: بانَّ يبين بيناً ويَّينونةً. تقول: ضربه فأبان رأسه من
 جسده وفصله، فهو مُبين.
 والمباينة: المفارقة.
 والبين: الوصل أيضاً وهو من الأضداد^(١).
 وقال الزجاجي: «(المبين) اسم الفاعل من أبان فهو مبينٌ إذا أظهر وبينٌ إما قولاً
 وإما فعلاً»^(٢).

* ورود الاسم في القرآن الكريم:

ورد مرة واحدة في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِيبَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾: يقول: ويعلمون يومئذٍ
 أنَّ الله هو الحق الذي يُبينُ لهم حقائق ما كان يعدهم في الدنيا من العذاب، ويزول
 حيثئذٍ الشك فيه عن أهل النفاق الذين كانوا فيما يعدهم في الدنيا يمترون»^(٣).

(١) «الصحاح» (٢٠٨٢/٥، ٢٠٨٣)، و«اللسان» (٤٠٣/١، ٤٠٤) مادة (بين)، و«شأن الدعاء» (ص ١٠٢).

(٣) «جامع البيان» (١٨/٨٤).

(٢) «اشتقاق أسماء الله» (ص ١٨٠).

وقال الزجاجي بعد أن بيّن المعنى اللغوي للاسم: «.. فالله تبارك وتعالى المبين لعباده سبيلَ الرشاد، والموضح لهم الأعمال الموجبة لثوابه والأعمال الموجبة لعقابه، والمبين لهم ما يأتونه ويذرّونه»^(١).

وقال الخطابي: «(المبين) هو البينُّ أمرُهُ في الوجدانية، وأنه لا شريك له»^(٢).

وقال الحلّمي: «(المبين) وهو الذي لا يخفى ولا ينكتم، والباري جل ثناؤه ليس بخافٍ ولا منكتم، لأنّه له من الأفعال الدالة عليه ما يستحيل معها أن يخفى فلا يُوقف عليه ولا يُدرى»^(٣).

وقال الأصبهاني: «(المبين) ومعناه: البينُّ أمره، وقيل: البين الربوبية والملكوت، يقال: أبان الشيء بمعنى: بين، وقيل: معناه: أبان للخلق ما احتاجوا إليه»^(٤).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - الله تبارك وتعالى البينُّ أمره في الألوهية والربوبية فلا يخفى على خلقه بما نصّب لهم من الدلائل والبيّنات الدالة عليه ﷻ، بل دلائل وحدانيته وملكه وربوبيته أوضح من الشمس في رابعة النهار:

وكيف يصحُّ في الأذهان شيء إذا احتاج النَّهارُ إلى دليل^(٥)

٢ - أنه تعالى (المبين) الذي أوضح لخلقهِ سُبُلَ النجاة من عقابه، والفوز بجنته ومرضاته، بما فطرَ عليه الناس من التوحيد: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَیِّنُ الْقَیِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وبما أرسل إليهم من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين وأنزل إليهم الكتب، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وأيدهم بالبراهين والمعجزات الدالة على صدقهم وصدق دعوتهم.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومن الآيات التي في الأرض ما يُحدثه الله فيها

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٨١).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ١٠٢).

(٣) «المنهاج» (١/ ١٨٩) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباري جلّ ثناؤه والاعتراف بوجوده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ١٣).

(٥) وانظر: آثار الإيمان ب(الظاهر).

(٤) «الحجة في المحجة» (ق ٢١).

كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم، وأدلة نبوتهم، يُحدثها الله ﷻ في الأرض، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل، حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره، كما قال: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن، بل لا بد أن يُري الله سبحانه أهل كل قرن من الآيات ما يُبين لهم أنه الله الذي لا إله إلا هو، وأن رسله صادقون، وآيات الأرض أعظم مما ذكر وأكثر، فنبه باليسير منها على الكثير^(١).

٣ - وقد سَمَّى الله تعالى رسوله ﷺ بالمبين كما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٨٤) [الأعراف: ١٨٤]، وقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩) [الحجر: ٨٩]، وغيرهما من الآيات.

٤ - وسَمَّى الله تعالى كتابه بالمبين في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٦) [المائدة: ١٥، ١٦].

وقوله: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾ (١) [الحجر: ١].
وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَنُنَزِّلَ رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٦) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (٩٦) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (٩٥) [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].
ووصفه بأنه آيات بينات:

كما في قوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].
وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٩) [الحديد: ٩].

ففي القرآن البيانُ البينُ الواضح لكل ما يحتاجه بنو الإنسان في حياتهم بأروع عبارة وأجمل أسلوب.

في القرآن بيان كل شيء من البداية إلى النهاية، حتى يستقر أهل الجنة في نعيمهم وأهل النار في جحيمهم.

فمعرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته، وما يجب له تعالى وما لا يجب، والعقيدة

(١) «أقسام القرآن» (ص ١٨٧). وانظر ما قبلها وما بعدها في بيان آيات الله تعالى.

الإسلامية، وأحكام العبادات والمعاملات، وجميع الشؤون الاجتماعية، والأحوال الشخصية، وكل ما تحتاجه المجموعة البشرية، في كل زمان ومكان، وأحكام المعاد والبعث والنشور، والحساب والجزاء والعقاب وغير ذلك مما هو مبين وموضح، وصدق الله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ نَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]^(١).



(١) «الهدى والبيان في أسماء القرآن» للشيخ صالح البليهي رحمه الله (ص ١٧٢) باختصار، وتصرف

الوكيل، الكفيل^(١)

جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

(٦٠ - ٦١)

* المعنى اللغوي:

قال ابن سيده: «وَكَلَّ بالله وتوَكَّلَ عليه واتكل: استسلم له، يقال: توَكَّلَ بالأمر إذا ضَمِنَ القيام به، ووَكَّلْتُ أمري إلى فلان؛ أي: ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه، ووَكَّلَ فلانٌ فلاناً: إذا استكفاه أمره ثقةً بكفايته، أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه. ووَكَّلَ إليه الأمر: سلَّمه.

ووَكَّلَه إلى رأيه وكَلَّاً ووَكُولاً: تركه»^(٢).

وقال الجوهري: «والتوَكَّل: إظهار العجز والاعتماد على غيرك، والاسم التُّكْلَان»^(٣).

وقال الزجاجي: «الوكيل فعيل، من قولك: وكلت أمري إلى فلان وتوكل به؛ أي: جعلته يليه دوني وينظر فيه.

والتوكيل: الكفيل أيضاً، كذلك قالوا في قوله تعالى ﴿وَكَلَّكَ فِي سُورَةِ يُونُسَ﴾: ﴿اللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكَلَّ﴾ [يوسف: ٦٦]؛ أي: كفيل»^(٤).

وقال الراغب الأصفهاني: «(الوكيل) فعيلٌ بمعنى المفعول»^(٥).

وأما (الكفيل) فهو من:

كَفَّلَهُ يَكْفُلُهُ وَكَفَّلَهُ إِياه، والكافل: العائل، وفي التنزيل العزيز ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾

[آل عمران: ٣٧]^(٦).

وفي الحديث: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، له ولغيره»، والكافل: القائم

(١) لقرب معناهما فقد جعلنا الكلام عليهما في فصل واحد.

(٢) «اللسان» (٤٩٠٩/٦) مادة (وكل). (٣) «الصحاح» (١٨٤٤/٥، ١٨٤٥).

(٤) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٣٦، ١٣٧). (٥) «المفردات» (ص ٥٣١).

وانظر: «النهاية» (٢٢١/٥)، و«الكتاب الأسنى» للقرطبي (ق ٤١١أ).

(٦) وقد قرئت بالتثنية ونصب (زكريا)، وذكر الأخفش أنه قرئ ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ بكسر الفاء.

بأمر اليتيم المربي له، وهو من الكفيل الضَّمين. وقال ابن الأعرابي: «كفيل وكافل، وضمين وضامن بمعني واحد. وفي التهذيب» للأزهري: وأما الكافل فهو الذي كَفَلَ إنساناً يَعُوله وينفق عليه»^(١).

* ورود الاسمين في القرآن الكريم:

* ورد (الوكيل) في القرآن أربع عشرة مرة، منها:
قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].
وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].
وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].
وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦].
وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢].

وقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].
* وأما (الكفيل) فقد جاء مرة واحدة:

في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال الفراء في قوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾: «كفيلًا بما وعدك»^(٢).
وقال في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾: «يقال: رباً، ويقال: كافياً»^(٣).

(١) «اللسان» (٣٩٠٦/٥)، «الصحيح» (١٨١١/٥)، «النهاية» (١٩٢/٤)، و«الأسنى» ورقة (٤١٢)ب.

(٢) «معاني القرآن» (١٩٨/٣)، وكذا قال ابن قتيبة في «غريب القرآن» (ص ٢١٩) في قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]؛ أي: كفيل.

(٣) «معاني القرآن» (١١٦/٢).

وقد أنكر الزجاج أن يكون معنى «الوكيل»: هو الكافي، فقال في «شرح الأسماء» (ص ٥٤): يحكى عن أبي زكريا الفراء أنه كان يذهب إلى أن قولنا: الوكيل: هو الكافي، ونحن لا نعرف في الكلام وكلث، ولا وكلت إليه إذا: كُفِّيت، فلا ندري من أين له هذا القول! ولكن =

وقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: «كفانا الله؛ يعني: يكفيننا الله ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ يقول: ونعم المولى لمن وليه وكفله، وإنما وصف الله تعالى نفسه بذلك؛ لأن (الوكيل) في كلام العرب هو: المُسْنَدُ إليه القيام بأمر من أسند إليه القيام بأمره، فلما كان القوم الذين وصفهم الله بما وصفهم به في هذه الآيات قد كانوا قَوَّضُوا أمرهم إلى الله، ووثقوا به، وأسندوا ذلك إليه، وصف نفسه بقيامه لهم بذلك، وتفويضهم أمرهم إليه بالوكالة، فقال: ونعم الوكيل الله تعالى لهم»^(١).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾: «وتوكل أنت يا محمد على الله، يقول: وفوض أنت أمرك إلى الله، وثق به في أمورك، وولها إياه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يقول: وكفاك الله؛ أي: وحسبك بالله وكيلاً؛ أي: فيما يأمرك، وولياً لها ودافعاً عنك وناصراً»^(٢).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾: «والله على كل ما خلق من شيء رقيب وحفيظ، يقوم بأرزاق جميعه وأقواته وسياسته وتدبيره وتصريفه بقدرته»^(٣).

وقال الخطابي بعد أن ذكر قول الفراء أنه (الكافي): «يقال» معناه: أنه الكفيل بأرزاق العباد، والقائم عليهم بمصالحهم، وحقيقته: أنه الذي يَسْتَقِلُّ بالأمر الموكل إليه، ومن هذا قول المسلمين: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾؛ أي: نعم الكفيل بأمرنا القائم بها»^(٤).

وقال أبو عبد الله الحليمي: «(الوكيل) وهو: الموكل والمفوض إليه علماً بأن الخلق والأمر له، لا يملك أحد من دونه شيئاً»^(٥).

فيتلخص في (الوكيل) ثلاثة معانٍ:

١ - الكفيل.

= الوكيل فعيل بمعنى مفعول، من قولك: وكلت أمري إلى فلان: إذا سلمته إليه، والله تعالى موكل إلى تطوله الأمور، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْأَعْيَانِ﴾ [غافر: ٤٤]. اهـ.

قلت: وما أنكره فيه نظراً! فإن من قام بأمر غيره فقد كفاه كما لا يخفى، راجع المعنى اللغوي.

(١) «جامع البيان» (٤/١١٨، ١١٩). (٢) «جامع البيان» (٥/١١٣).

(٣) المصدر السابق (٧/١٩٩).

(٤) «شأن الدعاء» (ص ٧٧)، وقال نحوه البيهقي في «الاعتقاد» (ص ٦١).

(٥) «المنهاج» (١/٢٠٨) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٨٧).

٢ - الكافي .

٣ - الحفيظ .

وأما (الكفيل) :

فقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾: «وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدم عليه على أنفسكم راعياً، يرعى الموفي منكم بعهد الله الذي عاهد على الوفاء به والناقض»^(١).

وساق بسنده إلى مجاهد في معنى (كفيلًا) قال: «وكيلاً»^(٢).

وقال الحليمي: «(الكفيل) ومعناه: المتقبل للكفايات، وليس ذلك بعقد وكفالة»^(٣) ككفالة الواحد من الناس، وإنما هو على معنى أنه لما خلق المحتاج وألزمه الحاجة، وقدر له البقاء الذي لا يكون إلا مع إزالة العلة، وإقامة الكفاية، لم يُخلِه من إيصال ما علق بقاؤه به إليه، وإذراؤه في الأوقات والأحوال عليه.

وقد فعل ذلك ربنا جل ثناؤه، إذ ليس في وسع مرتزق أن يرزق نفسه، وإنما الله جل ثناؤه يرزق الجماعة من الناس والدواب، والأجنة في بطون أمهاتها، والطيور التي تغدو خماصاً وتروح بطاناً، والهوام والحشرات، والسباع في الفلوات»^(٤).
وقال القرطبي: «﴿كَفِيلًا﴾؛ يعني: شهيداً، ويقال: حافظاً، ويقال: ضامناً»^(٥).

* آثار الإيمان بهذين الاسمين :

١ - إن الله ﷻ هو القائم بأمر الخلائق أجمعين والمتكفل برزقهم وإيصاله لهم، والرعاية لمصالحهم، وما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهذا لا بد يتضمن أوصافاً عظيمة من أوصافه كحياته وعلمه وقدرته وقوته ورحمته وحكمته وجوده وكرمه ووفاء عهده، وصدق وعده.. إلى غير ذلك من الأوصاف الجليلة، اللاتقة بكماله وعظمته.
قال القرطبي: «فيجبُ على كل مؤمن أن يعلم أن كلَّ ما لا بدَّ له منه، فالله سبحانه هو الوكيل والكفيل المتوكل بإيصاله إلى العبد، إما بنفسه فيخلق له الشَّبع والرِّي، كما

(١) «جامع البيان» (١٤/١١٠).

(٢) المصدر السابق (١٤/١١١) وسنده ضعيف، فيه: الحسين بن داود، الملقب: سنيد، ضَعْف لكونه كان يُلقن شيخه حجاج بن محمد.

(٣) في «المنهاج»: وضمان، وما أثبتاه من «الأسماء» للبيهقي.

(٤) «المنهاج» (١/٢٠٤) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٧).

(٥) «التفسير» (١٠/١٧٠).

يخلق له الهداية في القلوب، أو بواسطة سبب مَلَك أو غيره يوكل به»^(١).

٢ - الفرق بين وكالة الخالق ووكالة المخلوق:

بيننا فيما سبق أن الخلق قد يشركون مع الخالق في بعض دلالات الأسماء الحسنی كالسمع والبصر والحياة.. وغيرها من الصفات.

ولكن هذا لا يعني التشابه في الصفات لمجرد الاشتراك في الأسماء فأين سمع الإنسان من سمع الرحمن، وأين بصره من بصره، وأين علمه من علمه، وأين التراب من رب الأرباب ﷻ.

وإذا كان بعض الخلق قد يتوكل بغيره من الضعفاء واليتامى والمساكين والأرامل، فلا يعني هذا أنه قد شابه الله تعالى في صفته، فإن هذا المتوكل بأمر غيره، هو نفسه محتاج إلى رزق الله ومَعُونته ورحمته وفضله.

قال ابن العربي: «إذا علمتم معنى (الوكيل) فلله في ذلك منزلته العلياء، بأحكام تختص به أربعة:

الأول: انفراده بحفظ الخلق.

الثاني: انفراده بكفائتهم.

الثالث: قدرته على ذلك.

الرابع: إن جميع الأمر، من خير وشر، ونفع وضرر، كل ذلك حادث بيده».

ثم قال: «المنزلة السُّفْلَى للعبد وله في ذلك ثلاثة أحكام:

أن يتبرأ من الأمور إليه لتحصل له حقيقة التوحيد ويرفع عن نفسه شغب مشقة الوجوب..

الثاني: أن لا يستكثر ما يَسْتَل فإن الوكيل غني، ولهذا قيل: من علامة التوحيد

كثرة العيال على بساط التوكل.

الثالث: أنك إذا علمت أن وكيلك غني وفي قادر مَلِيٍّ، فأعرض عن دنياك وأقبل

على عبادة من يتولّاك»^(٢).

ونضيف بأن الوكيل يكون قادراً على القيام بأمر مُوكله في وقت وعاجزاً عنها في

وقت آخر، غنياً في وقت فقيراً في آخر، عالماً بشيء جاهلاً بغيره، حياً في وقت

ميتاً في غيره، والله جل شأنه يتعالى عن ذلك كله.

(١) «الأسنى» ورقة (٤١٢أ).

(٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٤١٢أ - ٤١٢ب).

قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

وقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال الغزالي مبيناً بعض الفروق أيضاً: «(الوكيل) هو الموكول إليه الأمور، ولكن الموكول إليه ينقسم إلى:

١ - من وُكِّلَ إليه بعض الأمور، وذلك ناقص.

٢ - وإلى من وُكِّلَ إليه الكل، وليس ذلك إلا الله تعالى:

والموكول إليه ينقسم إلى:

١ - من يستحق أن يكون موكولاً إليه لا بذاته ولكن بالتوكيل والتفويض، وهذا ناقص لأنه فقير إلى التفويض والتولية.

٢ - وإلى من يستحق بذاته أن تكون الأمور موكولة إليه، والقلوب متوكلة عليه، لا بتولية وتفويض من جهة غيره، وذلك هو الوكيل المطلق.

والوكيل أيضاً ينقسم إلى:

١ - من يفي بما يوكل إليه وفاءً تاماً من غير قصور.

٢ - وإلى من لا يفي بالجميع.

والوكيل المطلق هو الذي الأمور موكولة إليه، وهو مَلِيٌّ بالقيام بها، وفي إتمامها، وذلك هو الله تعالى فقط، وقد فهمت من هذا مقدار مدخل العبد في هذا الاسم^(١).

٣ - وليس في إجراء هذا الاسم على الله تعالى نقص كما يتوهمه البعض، من حيث مباشرة الرب تبارك وتعالى لأمر الخلاق وما يصلح حالهم.

قال ابن الحصار: وقد ظنَّ بعض الناس أن هذا الاسم نقص لا يجوز وصف الخالق به! وهذا جهلٌ وردّ للنصوص، ولو علم أن اختراع الأفعال لا تصح إلا من الله وحده، وأن من المستحيل أن ينوب عن الله سبحانه في ذلك أحدٌ غيره، لعلم وجوب اتصافه سبحانه بهذا الاسم حقيقة، وهو مجاز في غيره، فمن عرف الله حق معرفته حَقَّ له أن يتوكل عليه في جميع أموره، ويُفَوِّضَ إليه جميع شؤونه، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١]^(٢).

(٢) «الأسنى» ورقة (٤١٢ب).

(١) «المقصد الأسنى» (ص ٨١).

٤ - حضَّ الله تبارك وتعالى على التوكل عليه، وتفويض الأمور إليه، وجعل هذا من صفات المؤمنين به، فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقال سبحانه: ﴿إِن كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].
فالتوكل إذا يزيد بزيادة الإيمان، وينقص بنقصانه.
وكيف لا يتوكل المؤمن على الله وهو: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وهو الكافي لمن توكل عليه وفوض أمره إليه ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].
وقد أخبر سبحانه عن محبته لمن اتصف بهذه الخصلة، فقال مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿إِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].
ووعدهم بالأجر العظيم والثواب الجزيل، فقال: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦].

وحرَّم سبحانه على عباده التوكل على غيره فهو وحده حسبهم ونعم الوكيل، فقال: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢].
وقال: ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].
وقال: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

٥ - وقد بلغ النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين الغاية في التوكل على الله تعالى والإنابة له، وتفويض الأمور إليه، وقد مدحهم ربهم تبارك وتعالى في كتابه الكريم في غير موضع.

فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٧٣) ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَفَضِّلُوا بَيْنَهُمْ سَوَاءً وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٧٤) [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

وذلك أن النبي ﷺ أخبر أن أبا سفيان وأصحابه يقصدونهم - وذلك بعد غزوة أحد - فقال ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

وقال ابن عباس ؓ: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيم ؑ حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١).

(١) رواه البخاري (٢٢٩/٨).

وكذا ما كان منهم في «غزوة الخندق» من إظهار التوكل على الله وتسليم الأمر له، وقد حكاه عنهم ربهم تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ٢٣﴾ [الأحزاب: ٢٢، ٢٣].

٦ - ومن عجيب ما قصّه النبي ﷺ على أصحابه عن بني إسرائيل في هذا الباب، ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه «عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال: اتنتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فائتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعتها إليه على أجلٍ مُّسمى فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفةً منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أنني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بذلك. وإني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعلّ مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إليّ بشيء؟ قال: أخبرك أنني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه. قال: فإن الله قد أدّى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف الدينار راشداً»^(١).



القَوِيُّ - المتينُ جَلَّ جلالُهُ وتقدَّست أَسْمَاؤُهُ

(٦٢ - ٦٣)

* المعنى اللغوي:

قال الجوهري: «القوةُ خلافُ الضعف، ورجل شديد القَوِيُّ؛ أي: شديد أُسْرِ الحَلْقِ.

وأقوى الرجل؛ أي: نزل القَوَاء (وهي الأرض الخالية)»^(١).

وقال ابن الأعرابي: «أقوى إذا استغنى، وأقوى إذا افتقر، وأقوى القوم: إذا وقعوا في قِيٍّ من الأرض، والقِيّ: الأرض المستوية الملساء وهي الخوية أيضاً»^(٢).

* أما المتينُ في اللغة: فالمتنُّ ما غلظ من الأرض وصلب، وجمعه: متان. وَمَتَنَ الشيء - بالضم - متانةً فهو متين؛ أي: صلبٌ. ورجل متنُّ من الرجال؛ أي: صلبٌ.

وَمَتْنَا الظهر: مُكْتَنَفَا الصُّلْبِ عن اليمين وشمال من عصب ولحم، ويذكر ويؤنث^(٣).

* ورود الاسمين في القرآن الكريم:

أما (القوي) فقد جاء هذا الاسم في تسعة مواضع من الكتاب العزيز، قوله تعالى شأنه: ﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِعَايِنَةِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٥٢﴾ [الأنفال: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ رِجْمَةٌ مِّنَّا وَمِنْ خَيْرِ يَوْمٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝٦٦﴾ [هود: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

(١) «الصحاح» (٦/٢٤٦٩، ٢٤٧٠).

(٢) «اللسان» (٥/٣٧٨٩). وانظر: «النهاية» (٤/١٢٧).

(٣) «الصحاح» (٦/٢٢٠٠)، «اللسان» (٥/٤١٣٠)، «اشتقاق الأسماء» (ص ١٩٤ - ١٩٧).

وقوله تعالى: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وغيرها من الآيات.

وأما (المتين) فقد ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ

الْمَتِينِ﴾ [الذاريات: ٥٨].

* معنى الاسمين في حق الله تعالى:

قال ابن جرير في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، وَلَا يَرُدُّ قِضَاءَهُ رَادٌّ، يَنْفِذُ أَمْرَهُ وَيَمْضِي قِضَاءَهُ فِي خَلْقِهِ شَدِيدٌ عِقَابُهُ لِمَنْ كَفَرَ بآيَاتِهِ وَجَحَدَ حُجَجَهُ»^(١).

وقال في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ فِي بَطْشِهِ، إِذَا بَطَشَ بِشَيْءٍ أَهْلَكَهُ، كَمَا أَهْلَكَ ثَمُودَ حِينَ بَطَشَ بِهَا»^(٢).

وقال الزَّجَّاج: «(القوي) هو الكامل القدرة على الشيء، تقول: هو قادرٌ على حَمَلِهِ، فَإِذَا زِدْتَهُ وَصْفًا قُلْتَ: هو قوي على حمله، وقد وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُوَّةِ، فَقَالَ عَزَّ قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]»^(٣).

وقال الخطابي: «(القوي) قد يكون بمعنى: القادر، ومن قَوِيٍّ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ قَدَّرَ عَلَيْهِ، وَيَكُونُ مَعْنَاهُ: التَّامُّ الْقُوَّةِ الَّذِي لَا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ الْعَجْزُ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَالْمَخْلُوقُ وَإِنْ وَصِفَ بِالْقُوَّةِ، فَإِنَّ قُوَّتَهُ مُتَنَاهِيَةٌ، وَعَنْ بَعْضِ الْأُمُورِ قَاصِرَةٌ»^(٤).

وقال ابن كثير في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: «أَيُّ: لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، وَلَا يَفُوتُهُ هَارِبٌ»^(٥).

وقال السعدي: «(القوي المتين): هو في معنى: العزيز.

قلت: وقد ذكره قبله فقال:

(العزيز) الذي له العزة كلها: عِزَّةُ الْقُوَّةِ، وَعِزَّةُ الْغَلْبَةِ، وَعِزَّةُ الْاِمْتِنَاعِ، فامتنع أن

(٢) «جامع البيان» (٣٩/١٢).

(١) «جامع البيان» (١٧/١٠، ١٨).

(٣) «تفسير الأسماء» (٥٤/٢).

(٤) «شأن الدعاء» (ص ٧٧)، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٤٣)، وقال نحوه في «الاعتقاد» (ص ٦١).

(٥) «التفسير» (٣٢٠/٢).

يناله أحد من المخلوقات، وقَهَرَ جميع الموجودات ودانت له الخَلِيقَةُ، وخضعت لعظمته»^(١).

وهو ما قد نظمهُ ابن القيم في «النونية» فقال:

وهو القويُّ له القوة جَمْعاً تع إلى رب ذي الأكوانِ والأزْمَانِ
ثم قال:

وهو العزيزُ فلن يُرامَ جَنَابُهُ أُنَّى يُرامَ جَنَابُ ذِي السُّلْطَانِ
وهو العزيزُ القَاهِرُ الغَلَابُ لم يَغْلِبُهُ شيءٌ هذه صِفَتَانِ
وهو العزيزُ بقوةٍ هي وَضْفُهُ فالعِزُّ حينئذٍ ثلاثُ مَعَانِ
وهي التي كُمِلَتْ له سبحانه من كلِّ وجهٍ عادمِ النقصانِ^(٢)

* أما معنى (المتين):

فقد قال الفراء: «قرأ يحيى بن وثاب (المتين) بالخفض، جعله من نعت القوة، وإن كانت أنتهى في اللفظ، فإنه ذهب إلى الحبل وإلى الشيء المفتول، أنشدني بعض العرب:

لكل دهرٍ قد لبست أثوباً من رِيطَةٍ واليُمَنَّةُ المعَصِّبا
فجعل المعصَّب نعتاً لليُمَنَّة وهي مؤنثة في اللفظ؛ لأن اليُمَنَّة ضرب وصنف من الثياب: الوشي، فذهب إليه.

وقرأ الناس (المتين) رفعاً من صفة الله تبارك وتعالى»^(٣).

وقال ابن جرير بعد أن ذكر قول الفراء:

«والصواب من القراءة في ذلك عندنا ﴿ذُرْ الْقُوَّةَ الْمَتِينُ﴾ رفعاً على أنه من صفة الله جل ثناؤه، لإجماع الحجة من القراء عليه، وأنه لو كان من نعت القوة لكان التأنيث به أولى، وإن كان للتذكير وجه»^(٤).

وقال ابن قتيبة: «(المتين): الشديد القوي»^(٥).

وقال الزجاج: «أصله فعيلٌ من المتن الذي هو العُضْو، ويقال: مَاتَنَتْهُ على ذلك الأمر، إذا: قاويته مُقاوأةً.

(١) «تيسير الكريم» (٥/٣٠٠، ٣٠١).

(٢) «النونية» (٢/٢١٨).

(٣) «معاني القرآن» (٣/٩٠).

(٤) «جامع البيان» (٨/٢٧، ٩)، وانظر: «تفسير القرطبي» (١٧/٥٦، ٥٧).

(٥) «غريب الحديث» (ص٤٢).

وهو يفيد في حق الله سبحانه: التناهي في القوة والقدرة^(١).
وقال الخطابي: «و(المتين): الشديد القوي الذي لا تنقطع قوته، ولا تلحقه في أفعاله مشقة، ولا يمسه لغوب»^(٢).

وفي «المقصد»: «القوة تدل على القدرة التامة.
والمتانة تدل على شدة القوة لله تعالى.
فمن حيث إنه بالغ القدرة تامها: (قوي)، ومن حيث إنه شديد القوة: (متين)،
وذلك يرجع إلى معاني القدرة، وسيأتي ذلك»^(٣).

* من آثار الإيمان بهذين الاسمين:

١ - أنَّ القوة لله تعالى جميعاً، وحده لا شريك له، فلا رادَّ لقضائه، ولا مُعقب لحكمه، ولا غالب لأمره، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ينصر من يشاء، ويخذل من يشاء، فالعزیز من أعزَّه الله، والذلِّل من أذلَّه، والمنصور من نصره، والمخذول من خذله، فسبحان الملك القوي العزيز، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى.

٢ - تَمَدَّح سبحانه بأنه هو الناصر لرسله صلوات الله عليهم أجمعين المعز لحزبه الموحدين؛ لأنهم نصروا دينه بقلوبهم وأقوالهم وأفعالهم فاستحقوا نصر ربهم ووعد الصديق، إذ يقول: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٧) ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّصِرُونَ﴾ (٧٨) [الصفات: ١٧١، ١٧٢].

ويقول تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].
وانظر مثلاً على ذلك: نصر الله سبحانه لرسوله ﷺ ولأصحابه في «غزوة الأحزاب»، التي اجتمع فيها أهل الكفر من جهات شتى لحرب المؤمنين المستضعفين في المدينة، فنصر الله عباده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده بقوته لا شريك له، وما كانت قوتهم لتغني عنهم شيئاً، لولا تأييد الله تعالى لهم، وردَّ الكفار لم ينالوا خيراً، قال تعالى مُمْتَنِّاً عَلَىٰ عِبَادِهِ بِذَلِكَ: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٩) إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٧٧).

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٥٥).

(٣) «المقصد الأسنى» (ص ٨١، ٨٢).

يَا اللَّهُ الظُّنُونَا ﴿١١﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١٢﴾ [الأحزاب: ٩ - ١١].
إِلَى أَنْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥]. فَرَدَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى خَائِبِينَ، وَظَهَرَ
أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ، فَسَبَّحَانَ مَنْ لَهُ الْقُوَّةُ وَالْجَبْرُوتُ.

٣ - كَثِيرًا مَا يَنْسَى الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ وَضَعْفَهُ وَحَاجَتَهُ وَيُبَارِزُ رَبَّهُ الْعَدَاءَ، وَيَشْرِكُ بِهِ مَا
لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، وَيُظَاهِرُ عَلَيْهِ، وَيُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ وَيَتَكَبَّرُ فِيهَا بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَخُصُوصًا
إِذَا حَبَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالنِّعَةِ وَالْمُلْكِ وَالْجَاهِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ.

وَقَدْ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى لَنَا فِي كِتَابِهِ عَنْ أُمِّ عَتَتٍ عَنْ أَمْرِهِ وَرَسُولِهِ، فَحَاسِبْهَا حَسَابًا
شَدِيدًا وَعَذِّبْهَا عَذَابًا نَكِرًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا هُمْ أَشَدُّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ
﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيدٌ
الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر: ٢١، ٢٢].

مِنْهُمْ قَوْمٌ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥].

فَمَاذَا كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ؟ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ
الْحَزَنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُصْزَوْنَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٦].

اغْتَرَوْا بِقُوَّةِ أَبْدَانِهِمْ، وَضَخَامَةِ أَجْسَادِهِمْ، وَعَظِيمِ بَطْشِهِمْ فِي الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، فَلَمْ
تَغْنِ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ شَيْءٍ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَىٰ إِلَّا مَسَكِنَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي
الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وَأُمٌّ غَيْرُهُمْ كَثِيرٌ قَصَّهَمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ، جَاءَهُمُ النَّذِيرُ، فَقَابَلُوهُ
بِالنَّكِيرِ، فَأَخَذَهُمُ الْعَزِيزُ الْقَدِيرُ، وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ.

٤ - لَا قُوَّةَ لِلْعَبْدِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ، وَلَا حَوْلَ لَهُ
عَلَى اجْتِنَابِ الْمَعَاصِي وَدَفْعِ شُرُورِ النَّفْسِ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ نَبَّهَ الشَّارِعُ ﷺ أُمَّتَهُ
إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ، أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَةً هِيَ مِنْ
كُنُوزِ الْجَنَّةِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٢١٣/١١، ٢١٤)، وفي القدر (٥٠٠/١١)، ومسلم بشرح =

قال النووي: «قال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى، واعتراف بالإذعان له، وأنه لا صانع غيره، ولا رادّ لأمره، وأن العبد لا يملك شيئاً من الأمر».

ثم قال: «قال أهل اللغة: (الحول): الحركة والحيلة؛ أي: لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى».

وقيل: معناه: لا حول في دفع شر، ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله.

وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعته إلا بمعاونته، وحكي هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه وكله متقارب^(١).



= النووي في الذكر (١٧/٢٥ - ٢٧).

وقوله: «كنز من كنوز الجنة» قال النووي: ومعنى الكنز هنا: أنه ثوابٌ مدخر في الجنة، وهو ثواب نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم.

وقال الحافظ: وحاصله أن المراد أنها من ذخائر الجنة أو من محصلات نفائس الجنة.

(١) «شرح النووي» (١٧/٢٦، ٢٧).

الْوَلِيُّ - المَوْلى

جَلَّ جلالُه وتقدَّست أَسماؤُه

(٦٤ - ٦٥)

* المعنى اللغوي :

الْوَلِيُّ: القُرْبُ والدنو، يقال: تباعد بعد وَلِيٍّ .
«وَكُلُّ مِمَّا يَلِيكَ» ؛ أي: مما يقاربك .

والْوَلِيُّ: ضد العدو، والموالاة ضد المعاداة، يقال فيه: تولّاه .
والمَوْلى: الْمُعْتَقُّ والمُعْتَقُ، وابن العم، والناصر، والجار، والصديق، والتابع،
والمحب، والحليف، والشريك، وابن الأخت .
والولي: المولى .

والولي: الصَّهر، وكل من وَلِيَ أمر أحد فهو وَلِيُّه .
وولّاه الأمير عمل كذا، وولاه بيع الشيء، وتولّى العمل ؛ أي: تقلّد .
وتولّى عنه ؛ أي: أعرض، وولى هارباً ؛ أي: أدبر .
والولاية بالكسر: السلطان، والولاية والولاية: النُصرة^(١) .

وقال الزجاجي: «(الولي) في كلام العرب على ضروب عشرة، مخرجها كلها من قولهم: هذا الشيء يلي هذا الشيء، وأوليت الشيء الشيء: إذا جعلته يليه لا حاجز بينهما»^(٢) .

* ورود الاسمين في القرآن الكريم :

ورد اسمه (الولي) في آيات كثيرة، منها :

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥] .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥] .

(١) «الصحاح» (٦/ ٢٥٢٨ - ٢٥٣١)، «اللسان» (٦/ ٤٩٢٠ - ٤٩٢٦) مادة (ولي) .

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص ١١٣) .

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٧)

[الأنعام: ١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيَّكَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٦٦) [الأعراف: ١٩٦].

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُوفِّي مُسْلِمًا

وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَوُّ الْحَمِيدِ﴾ [الشورى: ٢٨].

* واسمه (المولى) فقد ورد اثني عشرة مرة، منها:

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

[البقرة: ٢٨٦].

وقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ (١٥٠) [آل عمران: ١٥٠].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (١٧) [الأأنعام: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ (٤٠)

[الأنفال: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (١١) [محمد: ١١].

* معنى الاسمين في حق الله تعالى:

* أما (الولي):

فقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: «نصيرهم وظهيرهم، يتولاهم بعونه وتوقيه» يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ؛ يعني بذلك: يُخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان^(١).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَكُنِيَ لِلَّهِ وَلِيًّا﴾: وكفاكم وحسبكم بالله ربكم ولياً يليكم ويولي أموركم بالحياطة لكم، والحراسة من أن يستفزكم أعداؤكم عن دينكم، أو يصدوكم عن اتباع نبيكم^(٢).

وقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيَّكَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٦٦)

[الأعراف]: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للمشركين من عبدة

(١) «جامع البيان» (١٥/٣).

(٢) المصدر السابق (٧٥/٥).

الأوثان: إِنَّ وَلِيَّيَ وَنَصِيرِي وَمَعِينِي وَظَهِيرِي عَلَيْكُمْ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ بِالْحَقِّ، وَهُوَ يَتَوَلَّى مِنْ صَلَاحِ عَمَلِهِ بَطَاعَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١).

وقال الزجاج: «(الولي) هو فعيلٌ، من الموالاة، و(الولي): الناصر، وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وهو تعالى وليُّهم بأن يتولى نصرهم وإرشادهم، كما يتولى ذلك من الصبي وليُّه، وهو يتولى يوم الحساب ثوابهم وجزاءهم»^(٢).

وذكر الخطابي نحو كلام الزجاج، وزاد: «والولي أيضاً المتوليُّ للأمر والقائم به، كولي اليتيم، وولي المرأة في عقد النكاح عليها، وأصله من الولي، وهو القُرْبُ»^(٣). وقال الحليمي: «(الولي) وهو الوالي، ومعناه: مالك التدبير، ولهذا يقال للقيم على اليتيم: ولي اليتيم، وللأمير: الولي»^(٤).

وقال في «المقصد»: «(الولي) هو: المحب الناصر»^(٥).

* وأما (المولى):

فقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾: «أنت وليُّنا بنصرِكَ، دون من عاداك وكَفَرَ بك؛ لأننا مؤمنون بك ومطيعون فيما أمرتنا ونهيتنا، فأنت وليُّ من أطاعك وعدُو من كفر بك فعصاك، فانصرنا لأننا حزبك، على القوم الكافرين الذين جحدوا وحدانيتك وعبدوا الآلهة والأنداد دونك، وأطاعوا في معصيتك الشيطان.

والمولى في هذا الموضع المفعول، من ولي فلان أمر فلان فهو يليه ولايةً وهو وليه ومولاه، وإنما صارت الياء من ولي ألفاً لانفتاح اللام قبلها التي هي عين الاسم»^(٦).

وقال الخطابي: «و(المولى) الناصر والمعين، وكذلك النصير: فعيلٌ بمعنى فاعل، كما تقول: قديرٌ وقادر، وعليمٌ وعالم.

كقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَانَكُمْ فِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]»^(٧).

(١) المصدر السابق (١٠٣/٩).

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٥٥).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٧٨).

(٤) «المنهاج» (٢٠٤/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٧). وانظر: «الاعتقاد» (ص ٦٢).

(٥) «المقصد الأسنى» (ص ٨٢).

(٦) «جامع البيان» (٣/١٠٦).

(٧) «شأن الدعاء» (ص ١٠١).

وقال الحليمي في معناه: «إنه المأمول في النصر والمعونة؛ لأنه هو المالك، ولا مفزع للمملوك إلا ماله»^(١).

* من آثار الإيمان بهذين الاسمين:

١ - أن الله جل جلاله ولي الذين آمنوا؛ أي: نصيرهم وظهيرهم ينصرهم على عدوهم، وكفى به ولياً ونصيراً، فهو السميع لدعائهم وذكرهم، القريب منهم، يعتزون به ويستنصرونه في قتالهم.

جاء في حديث البراء رضي الله عنه في «غزوة أحد» أن أبا سفيان قال بعد أن أصيب المسلمون: أفي القوم محمد؟ فقال (أي النبي ﷺ): «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: اغلْ هُبْل، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل»، قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم؟ فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم...»^(٢).

وفي هذه الغزوة تنبيهٌ للمسلمين، وتحذير لهم ولمن بعدهم، وعبرة لمن يعتبر على مر العصور، أنه بقدر ما يوافق المسلم كتاب ربه وسنة نبيه قولاً وعملاً واعتقاداً، تكون له النصرة والمعونة من الله جل شأنه، وما حصلت تلك الهزيمة في أحد إلا بسبب معصية الرماة ومخالفتهم لأمر نبيهم ﷺ بترك أماكنهم على الجبل، بعد أن رأوا بشائر النصر وهرعوا إلى الغنيمة.

قال ابن القيم رحمه الله: «والمقصود أنه بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أنه بحسب متابعتة تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله سبحانه علّق سعادة الدارين بمتابعتة، وجعل شقاوة الدارين في مخالفتة، فلا تباعه الهدى والأمن، والفلاح والعزة، والكفاية والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار، والخوف والضلال، والجذلان والشقاء في الدنيا والآخرة»^(٣).

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٣٥) ولم أجده في «المنهاج»، ونقله عنه البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٨) بعد أن ذكر (الولي).

(٢) (٣) «زاد المعاد» (١/٣٧).

(٢) رواه البخاري (٣٤٩/٧، ٣٥٠).

٢ - الله ﷻ ولي المؤمنين بإنعامه عليهم، وإحسانه إليهم، وتولييه سائر مصالحهم، فهو ولي نعمتهم.

فهل يصح هذا المعنى في الكفار؟.

قال الزجاجي: «فإن قال قائل: فقد أنعم الله ﷻ على الكافرين كما أنعم على المؤمنين، أفيجوز أن تقول: ولي الكافرين؟».

قيل له: لم نقل: إنه لا معنى للولي إلا هذا، بل قلنا: إن هذا أحد وجوه الولي، ومع ذلك فإن الله ﷻ أسمه لما أنعم على المؤمنين فقابلوا إنعامه بالشكر والإقرار والطاعة والتوحيد، جاز أن يقال: الله ولي الذين آمنوا بإنعامه عليهم وقبولهم وشكرهم.

وإن كان قد أنعم على الكفار فلا يقال: هو وليهم لجحودهم ذلك وتركهم الإقرار، كما قال ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ (١٥) [النازعات: ٤٥]، وقد أندر من لم يخش أيضاً، ولكن لما ينتفع بإنذاره غير من خشي قيل: ﴿أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ ولم يقل: أنت منذر من لم يخش إذ لم ينتفع بذلك الإنذار.

ومع ذلك فلما كان (الولي) قد يكون بمعنى: الناصر والموالي والمثني وغير ذلك، لم يجز أن يقال: الله ولي الكافرين، فيسبق إلى ظن السامع أنه يراد به أهل تلك الأوجه، إذ كانت أشهر وأعرف وأكثر استعمالاً، ومنع من إطلاق ذلك للكفار التنزيل؛ لأنه قال ﷻ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] (١).

وهذا كلام متين.

وقد تعرض لهذه المسألة العلامة المحقق ابن قيم الجوزية في كتابه المفيد «بدائع الفوائد» فقال: «وأما المسألة الثامنة: وهي أنه خص أهل السعادة بالهداية دون غيرهم، فهذه مسألة اختلف الناس فيها، وطال الحجاج من الطرفين، وهي أنه هل لله على الكافر نعمة أم لا؟».

فمن نافٍ محتج بهذه - يعني قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ - وبقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، فخص هؤلاء بالإنعام، فدلَّ على أن غيرهم غير منعم عليه، ولقوله لعباده المؤمنين: ﴿وَلَا تَمَنَّ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص ١١٤). وانظر كذلك: «الكتاب الأسنى» ورقة (١٣٣٤ - ب).

[البقرة: ١٥٠] وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة، فأى نعمة على من خُلِق للعذاب الأبدي.

ومن مُثَبِّت محتجّ بقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقوله لليهود: ﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وهذا خطاب لهم في حال كفرهم، وبقوله في سورة النحل التي عَدَّد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (٨١) فَإِنْ قَوْلُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُمِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) [النحل: ٨١ - ٨٣].

وهذا نص صريح لا يحتمل صرفاً، واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمته، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم، إلا من كابر وجحد حقَّ الله تعالى وكفر بنعمته.

وفصل الخطاب في المسألة:

أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان لا يشركهم فيها سواهم، ومطلق النعمة عامة للخلقة كلهم برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم، فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم فهذه غير مشتركة. ومطلق النعمة عام مشترك.

فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة أصاب، وإن أراد سلب مطلق النعمة أخطأ، وإن أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر أخطأ، وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب.

وبهذا تتفق الأدلة ويزول النزاع، ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب، والله الموفق للصواب^(١).

٣ - ولا ينافي ما سبق أن نقول بأن الله جل شأنه مولئ الخلق أجمعين بمعنى أنه سيدهم ومالكهم وخالقهم ومعبودهم، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى ذكره: ثُمَّ رَدَّتْ الملائكة الذين توفوهم فقبضوا نفوسهم وأرواحهم إلى الله سيدهم الحق ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يقول: أَلَا لَهُ الحكم

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٢، ٢٣)، وقد سبق بيان شيء من هذه المسألة في الجزء الثاني من كتابنا (ص ٥٠) ولم نذكر فيه هذا البحث النفيس للإمام ابن القيم، وفيه إضافة لما سبق وتتميم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

والقضاء دون من سواه من جميع خلقه: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِينِ﴾^(١).

وقال الشنقيطي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقَّ﴾ هذه الآية الكريمة تدل على أن الله مولى الكافرين، ونظيرها قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقَّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٠]. وقد جاء في آية أخرى ما يدل على خلاف ذلك، وهي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْنَى اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

والجواب عن هذا: أن معنى كونه مولى الكافرين أنه مالهم المتصرف فيهم بما شاء، ومعنى كونه مولى المؤمنين دون الكافرين؛ أي: ولاية المحبة والتوفيق والنصر، والعلم عند الله تعالى.

وأما على قول من قال: إن الضمير في قوله: ﴿رُدُّوْا﴾، وقوله: ﴿مَوْلَهُمْ﴾ عائد إلى الملائكة فلا إشكال في الآية أصلاً، ولكن الأول أظهر^(٢).

٤ - والله تعالى هو المحب لأوليائه من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين: ﴿لَهُمْ دَارُ أَسْلَمٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧]؛ أي: هو وليهم بسبب أعمالهم الصالحة التي قدموها وتقربوا بها إلى ربهم^(٣).

٥ - يصح إطلاق هذين الاسمين على العباد، نطق به التنزيل، كما في قوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْفِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٣٣].

٦ - وأولياء الله تعالى هم محبوه وناصروه دينه، قال تعالى: ﴿إِنِكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ١٧] الذين ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ ذَلِكُ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

ومن صفة الولي من عباد الله: أنه يحب الله ﷻ ورسوله ﷺ، ويحب من يحب الله ورسوله، ويبغض من يبغض الله ورسوله، ويؤالي من والى الله ورسوله، ويعادي من يعادي الله ورسوله، يعمل بطاعة الله ﷻ وينتهي عن معصيته.

ولا تنال الولاية إلا بالإيمان الصادق، والعلم الراسخ، والعمل المتواصل

(١) «جامع البيان» (١٤٠/٧).

(٢) «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» (ص ١١٦) للعلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.

(٣) وانظر تفصيل ذلك في آثار الإيمان ب(الودود) الجزء الأول (ص ٢٩١).

الثابت، والاهتداء بهدي الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح من هذه الأمة. فولاية الله تعالى إذن كسبية، لها أسبابها وأعمالها القلبية والبدينية، وليست وهبية لا سبب لها ولا عمل، كما يتفوه به جهال المتصوفة وزنادقتهم، فنسبوا الولاية للمجانين والفسقة والظلمة والزنادقة من أهل وحدة الوجود والاتحاد، بمجرد حصول بعض الخوارق والشعوذات الشيطانية على أيدي هؤلاء؛ كالدخول في النيران، وحمل الأفاعي، وضرب بعضهم البعض بالسيوف والخناجر، وغيرها من أفعال السحرة الفجرة^(١).

فهذه هي ولايتهم البدعية، أما الولاية السنية فطريقها لزوم الكتاب والسنة والعمل بها، واتباع سبيل المؤمنين، الاتقياء الأنقياء، البررة الكرام، قال تعالى موصياً نبيه الكريم ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].



(١) انظر في تفصيل هذا الموضوع كتاب: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية الدمشقي.

الْحَمِيدُ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

(٦٦)

* المعنى اللغوي:

الْحَمْدُ نقيض الذَّمِّ، تقول: حَمِدْتَ الرجلَ أَحْمَدُهُ حمداً ومَحْمَدةً، فهو حميد ومحمود.

والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعمُّ من الشكر. والمحمَّدُ: الذي كثرت خصاله المحمودة^(١).

والحمد والشُّكر متقاربان، والحمد أعمهما؛ لأنك تحمد الإنسان على صفاته الدَّاتية وعلى عطائه، ولا تشكره على صفاته^(٢).

والتَّحْمِيدُ: حَمْدُكَ اللهُ ﷻ مرةً بعد مرة.

وقال الأزهري: «التحميد كثرةُ حمد الله سبحانه بالمحامد الحسنة، والتحميد أبلغ من الحمد»^(٣).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد هذا الاسم سبع عشرة مرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْاٰخِيْنَ مِنْهُ ثَنَفُوْنَ وَلَسْتُمْ بِاٰخِيْهِ اِلَّا اَنْ تُعٰصُوْا فِيْهِ وَاَعْلَمُوْا اَنَّ اللّٰهَ عِنْدُ حَمِيْدٍ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وقوله تعالى: ﴿رَحِمْتُ اللّٰهَ وَبَرَكْنٰهُ عَلَيْهِمْ اٰهْلَ الْاٰلِيَّتِ اِنَّهُمْ حَمِيْدٌ مَّجِيْدٌ﴾ [هود: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسٰى اِنْ تَكْفُرُوْا اَنْتُمْ وَمَنْ فِى الْاَرْضِ جَمِيعًا فَاِنَّ اللّٰهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيْدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

(١) «الصحاح» (٢/٤٦٦، ٤٦٧)، و«اللسان» (٢/٩٨٧) مادة (حمد).

(٢) سبق بيان الفرق بين الحمد والشكر في الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٢٠٢، ٢٠٣)، وقد تعرض لبيان الفرق ابن تيمية ﷺ، كما في «مختصر الفتاوى المصرية» (ص ٧٨)، ويأتي كلام له أيضاً في آثار الإيمان بهذا الاسم.

(٣) «اللسان» (٢/٩٨٨).

وقوله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿٢٤﴾ [الحج: ٢٤].
 وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿١٥﴾ [فاطر: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاثِبٌ عَزِيزٌ﴾ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].
 وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا فَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٢٨﴾ [الشورى: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿٨﴾ [البروج: ٨].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال أبو عبيدة: «(حميد مجيد)؛ أي: محمود ماجد»^(١).

قال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾: «ويعني بقوله: (حميد): أنه محمود عند خلقه بما أولاهم من نعمه، وبَسَطَ لهم من فضله»^(٢).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]: «و(الحميد): الذي اسْتَوْجَبَ عليكم أيها الخلق الحمد بصنَائِعِهِ الحميدة إليكم، وآلائه الجميلة لديكم، فاستديموا ذلك أيها الناس باتقائه، والمسارة إلى طاعته فيما يأمركم به وينهاكم عنه»^(٣).

وقال الزجاج: «(الحميد) فهو فعيلٌ في معنى مفعولٍ، والله تعالى هو المحمودُ بكلِّ لسان، وعلى كلِّ حال، كما يقال في الدعاء: الحمد لله الذي لا يُحْمَدُ على الأحوالِ كُلِّهَا سِوَاهُ»^(٤).

وقال الخطابي: «(الحميد) هو المحمودُ الذي استحق الحمد بفعاله، وهو فعيل بمعنى مفعول، وهو الذي يُحْمَدُ في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء؛ لأنه حكيمٌ لا يجري في أفعاله الغلط، ولا يعترضه الخطأ، فهو محمودٌ على كلِّ حال»^(٥).

وقال الحلبي: «(الحميد) هو المستحقُّ لأنَّ يحمد؛ لأنه جل ثناؤه بَدَأَ فَأَوْجَدَ،

(٢) «جامع البيان» (٥٨/٣).

(٤) «تفسير الأسماء» (ص ٥٥).

(١) «مجاز القرآن» (٢٩٣/١).

(٣) المصدر السابق (٢٠٥/٥).

(٥) «شأن الدعاء» (ص ٧٨).

ثم جمع بين النعمتين الجليلتين: الحياة والعقل، ووالى بين^(١) مَنَحِهِ، وتابع آلاءهُ ومننهُ، حتّى فاتت العدّ، وإن استُفْرِغَ فيها الجهد فَمَن ذا الذي يستحق الحمد سواء؟ بل له الحمد كله لا لغيره، كما أن المَنَّ منه لا من غيره^(٢).

وقال البيهقي: «هو المحمود الذي يستحق الحمد، وقيل: من له صفات المدح والكمال.

وهذه صفةٌ يستحقها بذاته»^(٣).

وقال ابن كثير: «وهو (الحميد)؛ أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، لا إله إلا هو ولا رب سواه»^(٤).

وقال السعدي: «(الحميد) في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل»^(٥).

وقال ابن القيم في «النونية»:

وهو الحميدُ فكلُّ حمدٍ واقع
مَلَأَ الوُجُودَ جَمِيعَهُ ونَظِيرَهُ
هو أَهْلُهُ سُبْحَانَهُ وبِحَمْدِهِ
أو كان مَفْرُوضاً مَدَى الأَزْمَانِ
من غير ما عَدَّ ولا حُسْبَانِ
كلُّ المَحَامِدِ وَصِفُ ذِي الإِحْسَانِ^(٦)

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - الإيمان بأن الله جل ثناؤه هو المستحق للحمد على الإطلاق، كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، والألف واللام في (الحمد) للاستغراق؛ أي: هو الذي له جميع المحامد بأسرها، وليس ذلك لأحد إلا لله تعالى، ولا نحصى ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، فهو الحميد في ذاته وصفاته وفي أسمائه وفي أفعاله، فله الحمد على كل حال، في كل زمان ومكان، في الشدة والرخاء، والعسر واليسر، وفيما نحب ونكره، كيف لا! وهو العليم

(١) في «الأسماء» للبيهقي (ص ٥٩): «بعد منحه»، وكذا في «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٩٤ب).

(٢) «المنهاج» (٢٠٢/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٥٩، ٦٠).

(٣) «الاعتقاد» (ص ٦٢). وانظر: «المقصد الأسنى» (ص ٨٢).

(٤) تفسيره (١/٣٢١).

(٥) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٩٩/٥، ٣٠٠).

(٦) «النونية» (٢/٢١٥).

الحكيم، الفَعَال لما يريد، المختار لما يشاء، فمهما يقضي ويقدر فهو الموافق للحكمة البالغة، والعلم التام.

وكان ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع: «اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(١).

وكان ﷺ يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيّام السموات والأرض، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق ووعدك الحق»^(٢).

وكان مرة يصلي بأصحابه فرفع رأسه من الركوع فقال: «سمع الله لمن حمده»، فقال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف قال: «من المتكلم؟» قال رجل: أنا، فقال ﷺ: «رأيت بضعةً وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أولاً»^(٣).

وكان ﷺ يسبّح الله تعالى في أدبار الصلوات ثلاثاً وثلاثين ويحمده ثلاثاً وثلاثين.. الذكر المشهور.

وقال ﷺ مُبِيناً عِظَمَ حَمْدِ الله تبارك وتعالى: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأن (أو تملأ) ما بين السموات والأرض»^(٤).

وقال: «أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، لا يضرّك بأيّهن بدأت»^(٥).

وعن مطرّف بن عبد الله بن الشخير قال: قال لي عمران بن حصين: إني لأحدثك بالحديث اليوم، لينفعك الله ﷻ به بعد اليوم، اعلم أنّ خيرَ عباد الله تبارك وتعالى يوم القيامة الحمّادون..^(٦).

(١) رواه مسلم (٣٤٧/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه أيضاً من حديث ابن أبي أوفى وأبي سعيد الخدري.

(٢) سبق تخريجه (ص ٤٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٤/٢) من حديث رفاعة بن رافع الزرقني رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٠٣/١) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم (١٦٨٥/٣) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٤/٤): حدثنا إسماعيل، أنا الجريري، عن أبي العلاء بن =

وهذا له حكم الرفع، فهو مما لا يقال بالرأي^(١).

وقال ﷺ في فضل الحمد على النعم: «ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ»^(٢).

أي كان إلهامُ الله له من الحمد والشكر، أفضل مما أخذ من النعمة. وأخبر ﷺ أن حمدَ الله تعالى من أسباب رضاه عن العبد، وذلك في قوله: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»^(٣).

٢ - وقد اقترن هذا الاسم في الكتاب ببعض الأسماء الحسنى؛ كقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾، وقوله: ﴿الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾، وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾، ويفيد ذلك قدراً زائداً على مفرديهما.

ففي الآية الأولى: له الحمد على غناه وجميل نعمه.

وفي الثانية: له الحمد على مجده وعظمته وكبريائه.

وفي الثالثة: له الحمد على توليه المؤمنين بنصرته ورعايته لهم، ونعمته عليهم، ومحبته لهم.

وفي الرابعة: له الحمد على عزته وغلبته، وعلى إعزازه لأوليائه، ونصره لحزبه وجنده.

= الشخير، عن مطرف به، وتماحه: «واعلم أنه لن تزال طائفة من أهل الإسلام يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتلوا الدجال، واعلم أن رسول الله ﷺ قد أعمار من أهله في العشر فلم تنزل آية تنسخ ذلك، ولم ينه عنه رسول الله ﷺ حتى مضى لوجهه، ارتأى كل امرئ بعد ما شاء الله أن يرتي».

وسنده صحيح، مطرف هو ابن عبد الله بن الشخير، وأبو العلاء هو يزيد بن عبد الله، وهما أخوان ثقتان، وإسماعيل هو ابن عليّة وهو ممن روى عن الجريري قبل الاختلاط.

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (٩٥/١٠) بعد أن ذكر الحديث: رواه أحمد موقوفاً وهو شبه المرفوع، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) حديث حسن.

أخرجه ابن ماجه (١٢٥٠/٢) واللفظ له، وأبو بكر ابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم (٣٥٨) عن أبي عاصم الضحاك بن مخلد عن شبيب بن بشر عن أنس مرفوعاً به. وسنده حسن، شبيب بن بشر وثقه ابن معين ولينه أبو حاتم، وقال الحافظ في «التقريب»: صدوق يخطئ.

وله شاهد، يرويه الطبراني في «الكبير» (٧٧٩٤/١٩٣/٨) عن سويد بن عبد العزيز عن ثابت بن عجلان عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعاً نحوه.

وفيه سويد بن عبد العزيز، ضعيف، وبذلك أعلم الهيثمي في «المجمع» (٩٥/١٠).

(٣) رواه مسلم (٢٠٩٥/٤).

وفي هذه يقول العلامة أبو عبد الله ابن قيم الجوزية في بيانه لصفات الرب: «صفةٌ تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما، نحو (الغني الحميد) (العفو القدير) (الحميد المجيد)، وهكذا عامة الصفات المُقترنة، والأسماء المزدوجة في القرآن.

فإن الغنى صفة كمال والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك (العفو القدير) و(الحميد المجيد) و(العزیز الحكيم) فتأمل! فإنه من أشرف المعارف»^(١).

وعن معنى الاسمين (الحميد - المجيد) وسر اقترانهما في الكتاب يقول: أما (الحميد) فلم يأت إلا بمعنى المحمود، وهو أبلغ من المحمود، فإن «فعلًا» إذ عدل به عن مفعول دلَّ على أن تلك الصفة قد صارت مثل السَّجِيَّة الغريزية والخُلُق اللازم، كما إذا قلت: فلان طريف أو شريف أو كريم، ولهذا يكون هذا البناء غالباً من فعل بوزن «شَرُفَ»، وهذا البناء من أبنية الغرائز والسجاياء اللازمة ككَبُرَ وصَغُرَ وحَسُنَ ولَطَفَ ونحو ذلك.

ولهذا كان (حبيب) أبلغ من (محبوب)؛ لأنَّ الحبيب هو الذي حصلت فيه الصفات والأفعال التي يُحِبُّ لأجلها، فهو حبيب في نفسه، وإن قُدِّرَ أن غيره لا يُحبه لعدم شعوره به أو لمانع منعه من حبه، وأما المحبوب فهو الذي تَعَلَّقَ به حب المحب فصار محبوباً بحب الغير له، وأما الحبيب فهو حبيب بذاته وصفاته تعلق به حب الغير أو لم يتعلق، وهكذا الحميد والمحمود.

فالحميد الذي له من الصفات وأسباب الحمد ما يقتضي أن يكون محموداً، وإن لم يحمده غيره فهو حميد في نفسه، والمحمود من تَعَلَّقَ به حَمْدُ الحامدين، وهكذا المجيد والمُمَجَّد، والكبير والمُكَبَّر، والعظيم والمُعَظَّم.

والحمد والمجد إليهما يرجع الكمال كله، فإن الحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود، فمن أحببته ولم تُثَنَّ عليه لم تكن حامداً له، وكذا من أثبت عليه لغرض ما ولم تُحبه لم تكن حامداً له حتى تكون مثنياً عليه محباً، وهذا الثناء والحب تَبَعٌ لأسباب المقتضية له، وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال ونعوت الجلال والإحسان إلى الغير، فإن هذه هي أسباب المحبة، وكلما كانت هذه الصفات أجمع وأكمل، كان الحمد والحب أتم وأعظم.

(١) «بدائع الفوائد» (١/١٦١).

والله سبحانه له الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه ما ، والإحسان كله له ومنه، فهو أحق بكلِّ حمدٍ وبكلِّ حب من كل جهة، فهو أهلُّ أن يُحبَّ لذاته ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه وإحسانه ولكل ما صدر منه سبحانه .

وأما المجد فهو مستلزم للعظمة والسَّعة والجلال، كما يدل عليه موضوعه في اللغة، فهو دالٌّ على صفات العظمة والجلال، والحمد يدل على صفات الإكرام والله سبحانه ذو الجلال والإكرام، وهذا معنى قول العبد: «لا إله إلا الله والله أكبر»، فلا إله إلا الله دالٌّ على ألوهيته وتفردة فيها، فالوهيته تستلزم محبته التامة، «والله أكبر» دالٌّ على مجده وعظمته وذلك يستلزم تمجيده وتعظيمه وتكبيره .

ولهذا يقرن سبحانه بين هذين النوعين في القرآن كثيراً؛ كقوله: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِثْرٌ مِّنَ الذِّلِّ وَكَبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] فأمر بحمده وتكبيره، وقال تعالى: ﴿بَنَزَكْ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، وقال: ﴿وَبَعَثَ فِيهِ رَبُّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] .

وفي «المسند» و«صحيح أبي حاتم» وغيره من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «الظُّوُّ بيا ذا الجلال والإكرام»؛ يعني: الزموها وتعلقوا بها، فالجلال والإكرام هو الحمد والمجد .

ونظير هذا قوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المتحنة: ٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [٤١] ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿٥٠﴾ [البروج: ١٤، ١٥]، وهو كثير في القرآن^(١) .

٣ - كلُّ ما يُحمَدُ به العباد فهو من الله تبارك وتعالى، فيرجع إليه سبحانه؛ لأنه الواهب للصفات المحمودة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأيضاً فإن الله سبحانه أخبر أنه له الحمد، وأنه حميد مجيد، وأن له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم، ونحو ذلك من أنواع المحامد .

والحمد نوعان: حمدٌ على إحسانه إلى عباده، وهو من الشكر .

(١) «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» (ص ١٨٦، ١٨٧)، ويأتي تخريج حديث: «الظُّوُّ بياذا الجلال..» في الاسم نفسه .

وحمدٌ لما يستحقه هو بنفسه من نُعوت كماله، وهذا الحمد لا يكون إلا لمن^(١) هو في نفسه مستحق للحمد، وإنما يستحق ذلك من هو متصفٌ بصفات الكمال، وهي أمور وجودية، فإن الأمور العدمية المحضة لا حمد فيها، ولا خير ولا كمال. ومعلوم أن كل ما يحمد فإنما يحمد على ما له من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق، والذي منه ما يحمد عليه هو أحقُّ بالحمد، فثبت أنه المستحقُّ للمحامد الكاملة، وهو أحق من كل محمودٍ بالحمد، والكمال من كل كامل، وهو المطلوب»^(٢).



(١) في الأصل: «لا يكون إلا على ما هو في نفسه...»، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/٨٣، ٨٤).

الحيُّ جَلَّ جلاله وتقدّست أسماؤه

(٦٧)

* المعنى اللغوي:

الحياة: ضد الموت، والحي: ضد الميت.
وحيي حياة، وحيي يحيا ويحيي فهو حي وللجميع: حيوا.
وأحياء الله فحيي وحيي، والإدغام أكثر^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد هذا الاسم في خمس آيات من الكتاب العزيز، وهي:
قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].
وقوله تعالى: ﴿الْمَلَأَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١ - ٢].
وقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].
وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذُوبَ عِبَادِهِ﴾
خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ [الفرقان: ٥٨].
وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال الطبري: «وأما قوله: ﴿الْحَيُّ﴾ فإنه يعني: الذي له الحياة الدائمة، والبقاء الذي لا أول له يُحدّث، ولا آخر له يؤمّد^(٢)، إذ كان كل ما سواه فإنه وإن كان حياً فلحياته أول محدود، وآخر مأمود، ينقطع بانقطاع أمدها، وينقضي بانقضاء غايتها»^(٣).

(١) «الصحاح» (٢٣٢٣/٦) (حيا)، و«اشتقاق الأسماء» (ص ١٠٢)، و«اللسان» (٢/ ١٠٧٥، ١٠٧٦).

(٢) من الأمد: وهو الغاية ومنتهى الأجل.

(٣) «جامع البيان» (٤/٣).

وقد حكى بعد ذلك الاختلاف في تأويل هذا الاسم وما يدل عليه من الصفة، فقال: وقد اختلف أهل البحث في تأويل ذلك فقال بعضهم: إنما سمى الله نفسه «حياً» لصرفه الأمور مصارفها، وتقديره الأشياء مقاديرها، فهو حي بالتدبير لا بحياة!.

وقال في آية آل عمران: «وقال آخرون: معنى ذلك: أن له الحياة الدائمة التي لم تنزل له صفة ولا تزال كذلك، وقالوا: إنما وَصَفَ نفسه بالحياة؛ لأن له حياة، كما وصفها بالعلم؛ لأن لها علماً، وبالقدرة؛ لأن لها قدرة.

ومعنى ذلك عندي: أنه وَصَفَ نفسه بالحياة الدائمة التي لا فناء لها ولا انقطاع، ونفى عنها ما هو حالٌّ بكلِّ ذي حياةٍ من خلقه، من الفناء وانقطاع الحياة عند مجيء أجله، فأخبر عباده أنه المستوجب على خلقه العبادة والألوهة.

والحييُّ) الذي لا يموت ولا يبيد، كما يموت كل من اتَّخَذَ من دونه رباً، ويبيد كل من ادَّعى من دونه إلهاً، واحتج على خلقه بأن: من كان يبيد فيزول ويموت فيفنى، فلا يكون إلهاً يستوجب أن يعبد دون الإله الذي لا يبيد ولا يموت، وأن الإله هو الدائم الذي لا يموت ولا يبيد ولا يفنى، وذلك الله الذي لا إله إلا هو»^(١).

وقال الزجاج: «(الحي) يُقَيَّدُ دوام الوجود، والله تعالى لم يَزَلْ موجوداً، ولا يزال موجوداً»^(٢).

وقال الزجاجي: «(الحي) في كلام العرب: خلافُ الميت، والحيَّوان: خلاف الموات.

فالله ﷻ الحي الباقي، الذي لا يجوز عليه الموت ولا الفناء عز وجل وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ولا تعرف العرب عن الحيِّ والحياة غير هذا»^(٣).

وقال الخطابي: «(الحي) من صفة الله تعالى: هو الذي لم يزل موجوداً وبالحياة موصوفاً، لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعترضه الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء يَعْتَوِرُهُم الموت أو العدم في أحد طرفي الحياة أو فيهما معاً، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]»^(٤).

= وقال آخرون: بل هو حي بحياة هي له صفة.

وقال آخرون: بل ذلك اسم من الأسماء تسمى به فقلناه تسليماً لأمره. اهـ كلام ابن جرير. والعجب كيف سكت على القول الأول وهو من أقوال الجهمية نفاة الصفات، إذ كلامهم هنا يقتضي نفي الصفة وتفسيرها بلوازمها وهو التقدير والتدبير.

والقول الأخير أيضاً هو مذهب المفوضة المبتدعة، والصواب هو القول الثاني، وقد اختاره في الموضوع الآتي ذكره.

(١) «جامع البيان» (١٠٩/٣) وهنا قد صرَّح باختياره للمذهب الحق في معنى الاسم، والحمد لله.

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٥٦).

(٣) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٠٢).

(٤) «شأن الدعاء» (ص ٨٠).

وذكر البيهقي العبارة الأولى للخطابي ثم قال: فالحياة له صفة قائمة بذاته^(١).
وقال ابن كثير: «الْحَيُّ الْقَيُّومُ»: أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، القيم لغیره»^(٢).

ويأتي كلام السعدي وابن القيم عن هذا الاسم في معنى اسمه (القيوم).

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم:**

١ - إن الله تبارك وتعالى حيٌّ بحياة هي له صفة، حيٌّ أبداً لا يموت والجن والإنس يموتون، بل كل ما على الأرض، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢٦) وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

فهذا الاسم فيه إثبات صفة الحياة، وهي من الصفات الذاتية، فحياته سبحانه أكمل حياة وأتمها، ويستلزم ثبوت كل كمال يُضادُّ فيه كمال الحياة.

وقد فرَّ الزمخشري المعتزلي من إثبات هذه الصفة ففسرها بلازمها، فقال في «كشافه»: «(الحي) الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء، وهو على اصطلاح المتكلمين الذي يصح أن يَعْلَمَ ويُقَدَّر»^(٣).

٢ - وحياته جل وعلا مُنزهة عن مشابهة حياة الخلق، فلا يجري عليها الموت أو الفناء، ولا تعثرها السنّة ولا النوم، والسنّة هي: النعاس الذي يكون في العين ويسبق النوم، وكلاهما ينافي كمال القدرة والحياة؛ لأن النوم قاهر للحي منّا معطلٌ لحواسه وقدرته وعلمه، ولا يصح أن يُوصف الله بذلك. وكيف يتصور جريان النوم عليه، ولا قيام للسموات والأرض إلا به؟! قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر: ٤١).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيَخْفِضُهُ، وَيُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ»^(٤).

٣ - الله جلَّ شأنه هو الذي يهب أهل الجنة تلك الحياة الدائمة الباقية التي لا تَفْنَى ولا تَبِيد، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].
فحياتهم دائمة بإدامة الله لها، لا أَنَّ الدوام وصفٌ لازمٌ لها لذاتها، بخلاف حياة

(٢) «التفسير» (١/٣٠٨).

(١) «الاعتقاد» (ص ٦٢).

(٣) «الكشاف» (١/٣٨٤).

(٤) أخرجه أحمد (٣٩٥/٤، ٤٠١، ٤٠٥)، ومسلم في الإيمان (١/١٦٢) عن أبي موسى رضي الله عنه.

الرب تعالى، وكذلك سائر صفاته، فصفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به.

فالحياة الدنيا كالمنام، والحياة الآخرة كاليقظة^(١).

٤ - كان من دعاء المصطفى ﷺ أنه كان يقول: «اللهم لك أسلمتُ وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، اللهم إني أعوذُ بعزتك لا إله إلا أنت أن تُضِلَّنِي أنتَ الحيُّ الذي لا يموتُ، والجنُّ والإنس يموتون»^(٢).



(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (ص ١٢٤) عند قول الطحاوي: «حيُّ لا يموت قيوم لا ينام».

(٢) أخرجه البخاري مختصراً في التوحيد (٣٦٨/١٣، ٣٦٩)، ومسلم في الذكر (٢٠٨٦/٤)، - والبيهقي في «الأسماء» (ص ١١١، ١١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(وإليك أنبت)؛ أي: أقبلت بهمتي وطاعتي وأعرضت عما سواك.
(وبك خاصمت)؛ أي: بك أحتج وأدافع وأقاتل.

الْقِيَوْمُ

جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

(٦٨)

* المعنى اللغوي :

القيام نقيض الجلوس .

قال ابن بَرِّي: «قد ترتجل العرب لفظة «قام» بين يدي الجُمَل فيصير كاللغو، ومعنى القيام: العزم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا﴾ [الجن: ١٩]؛ أي: لما عَزَمَ، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]؛ أي: عزموا فقالوا».

قال: «وقد يجيء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلْرَجَالُ قَوْمُوتٍ عَلَى الْأُنْثَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]؛ أي: ملازماً محافظاً.

ويجيء القيام بمعنى الوقوف والثبات، يقال للماشي: قف لي؛ أي: تحبس مكانك حتى آتيك، وكذلك قم لي بمعنى: قف لي، وعليه فسَّروا قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠].

ومنه التوقف في الأمر، وهو الوقوف عنده من غير مجاوزة له. ومنه قامت الدابة: إذا وقفت عن المسير، وقام عندهم الحق؛ أي: ثبت ولم يبرح، ومنه قولهم: أقام بالمكان هو بمعنى: الثبات^(١).

وقال الزجاج: «(القيوم): هو فيعول من قام يقوم، الذي بمعنى: دام، لا القيام المعروف، وقال الله تعالى ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ يَبِينَا لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]؛ أي: دائماً، والله أعلم. (القيوم) هو الدائم، وكان من قراءة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الحي القيَّام»^(٢).

(١) باختصار من «اللسان» (٣٧٨١/٥) (قوم). وانظر: «الصحاح» (٢٠١٦/٥ - ٢٠١٨).

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٥٦). وقال الفراء في «معاني القرآن» (١/١٩٠): ﴿أَلْحَى الْقِيَوْمُ﴾ قراءة العامة، وقرأها عمر بن الخطاب وابن مسعود (القيام)، وصورة القيوم: الفيعول، والقيام =

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم في ثلاث آيات من القرآن، وهي:
 قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].
 وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].
 وقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال أبو عبيدة: «القائم وهو الدائم الذي لا يزول، وهو فيعول»^(١).
 وقال ابن جرير بعد أن ذكر اختلاف القراء في قراءة (القيوم): «فأما تأويل جميع الوجوه التي ذكرنا أن القراء قرأت بها فمتقارب، ومعنى ذلك كله: القيم يحفظ كل شيء ورزقه، وتصريفه فيما شاء وأحب، من تغيير وتبديل، وزيادة ونقص. وقال آخرون: معنى ذلك القيام على مكانه، ووجهه إلى القيام الدائم الذي لا زوال معه ولا انتقال، وأن الله ﷻ إنما نفى عن نفسه بوصفها بذلك التغيير والتنقل من مكان إلى مكان، وحدث التبدل الذي يحدث في الآدميين وسائر خلقه غيرهم، ونقله عن محمد بن جعفر بن الزبير».

ثم رجح ابن جرير فقال: «وأولى التأويلين بالصواب ما قاله مجاهد والربيع، وأن ذلك وَصِفَ من الله تعالى وذكره نفسه بأنه القائم بأمر كل شيء في رزقه، والدفع عنه وتدبيره وصرفه في قدرته، من قول العرب: فلان قائم بأمر هذه البلدة؛ يعني بذلك: المتولي تدبير أمرها.

فالقيوم إذ كان ذلك معناه الفيعول، من قول القائل: الله يقوم بأمر خلقه»^(٢).
 وقال الزجاجي: «(القيوم): فيعول من قام يقوم، وهو من أوصاف المبالغة في الفعل، وهو من قوله ﷻ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]؛ أي: يحفظ عليها ويؤجزها ويحاسبها»^(٣).

= الفيعال، وهما جميعاً مدح، وأهل الحجاز أكثر شيء قولاً: الفيعال من ذوات الثلاثة فيقولون للصواع: الصياغ. اهـ. وانظر: «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص ١٠٥ - ١٠٨) فقد ذكر نحو ما ذكره ابن بري من الأوجه في معنى (القيام).

(١) «مجاز القرآن» (١/ ٧٨).

(٢) «جامع البيان» (٣/ ١١٠) ثم ذكر بعد ذلك أصل القيوم هو: القيوم، وأصل القيام هو: القيوم، وأما القيم فهو: الفيعل من قام يقوم، وكلها أبلغ في المدح من القائم.

(٣) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٠٥).

وقال الخطابي: «(القيوم) هو القائم الدائم بلا زوال، ووزنه فيقول من القيام وهو نعتُ المبالغة في القيامة على الشيء. ويقال: هو القَيِّمُ على كلِّ شيءٍ بالرعاية له، ويقال: قمت بالشيء، إذا وليته بالرعاية والمصلحة»^(١).

وقال البيهقي: «(القيوم) هو القائم الدائم بلا زوال. فيرجع إلى صفة البقاء، والبقاء صفة الذات. وقيل: هو المدبِّر والمتولي بجميع ما يجري في العالم. وهو على هذا المعنى من صفات الفعل»^(٢).

وقال القرطبي: «(القيوم) من قام؛ أي: القائم بتدبير ما خلق»^(٣). وقال السعدي: «(الحي القيوم) كامل الحياة، والقائم بنفسه، القيوم لأهل السموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم وجميع أحوالهم، فالحي: الجامع لصفات الذات، والقيوم: الجامع لصفات الأفعال»^(٤).

وقال العلامة ابن القيم في «النونية»:

هَذَا وَمِنْ أَوْصَافِهِ الْقَيُّومُ وَالْ	قَيُّومٌ فِي أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ
إِحْدَاهُمَا الْقَيُّومُ قَامَ بِنَفْسِهِ	وَالْكَوْنُ قَامَ بِهِ هُمَا الْأَمْرَانِ
فَالأَوَّلُ اسْتَغْنَاؤُهُ عَنْ غَيْرِهِ	وَالْمَقْرُونُ كُلٌّ إِلَيْهِ الثَّانِي
وَالْوَصْفُ بِالْقَيُّومِ ذُو شَأْنٍ عَظِيمٍ	يَمُ هَكَذَا مَوْصُوفُهُ أَيْضاً عَظِيمُ الشَّانِ
وَالْحَيُّ يَتْلُوهُ فَأَوْصَافُ الْكَمَالِ	لِ هُمَا لِأَفْقِ سَمَائِهَا قُطْبَانِ
فَالْحَيُّ وَالْقَيُّومُ لَنْ تَتَخَلَّفَ الـ	أَوْصَافُ أَصْلًا عَنْهُمَا بَيَانٌ ^(٥)

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - وَصَفَ اللهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ بِأَنَّهُ قَيُّومٌ بِنَفْسِهِ، لَا يَحْتَاجُ فِي قِيَامِهِ وَدَوَامِهِ إِلَى أَحَدٍ، يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، وَكَيْفَ يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ أَوْ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَهُمْ أَنْفُسُهُمْ لَا قِيَامَ لَهُمْ إِلَّا بِإِقَامَةِ الْحَيِّ الْقَيُّومِ لَهُمْ؟! فقيامه تعالى بذاته وليس ذلك إلا له تعالى.

(٢) «الاعتقاد» (ص ٦٢).

(١) «شأن الدغاء» (ص ٨٠).

(٣) «التفسير» (٣/ ٢٧١)، وينحوه قال الحليمي في «المنهاج» (١/ ٢٠٠) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٤٨).

(٥) «النونية» (٢/ ٢٣٦).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٣٠٣).

٢ - وصفه تعالى بأنه المدبر لأمر الخلائق في السماء والأرض، المصرف لشؤونها؛ لأنها ليست قائمة بنفسها، بل محتاجة للحي القيوم الذي يرزقها ويحييها ويقيمها.

ولا شك أن من عَرَفَ هذه الصفة في ربه توكل عليه، وانقطع قلبه عن الخلق إليه، وذلك أنهم محتاجون مفتقرون مثله إلى خالقهم في قيامهم وقعودهم، وحياتهم وبعد مماتهم، في دينهم ودنياهم، فكيف يرجوهم بعد ذلك؟!

٣ - ومن كمال قيوميته تعالى أنه لا ينام، إذ هو مختص بعدم السَّنة والنوم دون خلقه فإنهم ينامون^(١).

٤ - اقترن هذا الاسم بالحي في ثلاثة مواضع كما سبق، واقتترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال، ويدلُّ على بقائها ودوامها، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلاً وأبداً، ولهذا كان قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أعظم آية في القرآن، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ^(٢).

فعلى هذين الاسمين مدارُ الأسماء الحسنَى كلها، وإليهما ترجعُ معانيها، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، فلا يتخلف عنها صفةٌ منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكملَ حياةٍ وأتمَّها، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يُضادُّ نفيه كمال الحياة.

وأما (القيوم) فمُتضمِّن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجهٍ من الوجوه، المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته. فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتمَّ انتظام^(٣).

٥ - جاء في السنَّة المطهرة ما يدل على عظمة هذين الاسمين، والدعاء بهما مجتمعين، حتى قال بعض العلماء: إنهما الاسم الأعظم للرب تبارك وتعالى، كما

(١) انظر: آثار الإيمان بـ (الحي).

(٢) أخرجه أحمد (١٤١/٥، ١٤٢)، ومسلم في صلاة المسافرين (٥٥٦/١) عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم؟»، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «يا أبا المنذر أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم؟»، قال: قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، قال: فضرب على صدري وقال: «لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر»؛ أي: ليكن العلم هنيئاً لك.

(٣) انظر: «شرح الطحاوية» (ص ١٢٥) من ط. المكتب الإسلامي، و(٩١/١، ٩٢) ط. الرسالة.

في حديث أنس رضي الله عنه قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيوم، فقال النبي ﷺ: «دعا الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى»^(١).

وقد سبق بيان أن الصواب في الاسم الأعظم هو (الله) جل جلاله وتقدّست أَسْمَاؤُهُ^(٢).

وعلى كل حال فدعاء الله بهما من امثال أمره في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٦ - ومنها: حديث أنس أنه قال: «كان رسول الله ﷺ يدعو: يا حيُّ يا قيوم»^(٣).

وفي رواية: «كان من دعاء النبي ﷺ: أي حيُّ، أي قيوم»^(٤).
٧ - ومنها: حديث أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ لفاطمة: «ما يَمْنَعُكَ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكَ بِهِ! أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلَحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكُنْ لِي نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»^(٥).

(١) سبق تخريجه في الجزء الأول (ص ٤٦).

(٢) انظر بيان هذه المسألة في الجزء الأول (ص ٤٦ - ٥١).

(٣) حديث حسن: أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦١٢) قال: أخبرنا محمد بن عجيل، أخبرنا حفص حدثني إبراهيم، عن الحجاج بن الحجاج، عن قتادة، عن أنس، به. ورجاله ثقات، سوى حفص وهو ابن عبد الله السلمي النيسابوري كاتب إبراهيم بن طهمان ذكره ابن أبي حاتم (١٧٥/٣) وقال: سمعت أبي يقول: هو أحسن حالاً من حفص بن عبد الرحمن، وحفص بن عبد الرحمن هو البلخي ويعرف بالنيسابوري قال فيه: صدوق وهو مضطرب وحفص بن عبد الله أحسن حالاً منه.

والحجاج هو الباهلي الأحول، وثقه ابن معين وأبو حاتم وأبو داود.

(٤) إسناده صحيح: أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦١٣) وفي النعوت من «الكبرى» - كما في «التحفة» (٢٣٤/١) -، والبيهقي في «الأسماء» (١١٤) عن محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن أنس، به.

ووقع عند البيهقي: «يا حي يا قيوم!» والمثبت موافق للنسائي و«تحفة الأشراف».

(٥) إسناده حسن: أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٧٠)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٨)، والبزار (٣١٠٧) «زوائد»، والحاكم (٥٤٥/١)، والبيهقي في «الأسماء» (ص ١١٢) من طريق عن زيد بن الحباب، حدثني عثمان بن موهب الهاشمي قال: سمعت أنس بن مالك يقول... فذكره.

٨ - ومنها: حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: **أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ثَلَاثًا غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَ فَارًّا مِنَ الرَّحْفِ**»^(١).

- = قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي!.
- قال الهيثمي (١٠/١١٧): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح!.
- كذا قالوا! مع أن عثمان بن موهب ليس من رجال الشيخين!.
- بل تفرد بالإخراج عنه النسائي، قال أبو حاتم: صالح الحديث.
- وقال الحافظ: مقبول!.
- وأخرجه الترمذي (٥/٣٥٢٤)، وابن السني (٣٣٩) عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا كربه أمر قال: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث».
- قال الترمذي: حديث غريب.
- وفيه يزيد الرقاشي، ضعيف.
- وله شاهد من حديث ابن مسعود: أخرجه الحاكم (١/٥٠٩) وفيه عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبه الواسطي: ضعيف، والنضر بن إسماعيل: ليس بالقوي.
- ومع ذلك حسنه الألباني رحمته الله في «الكلم الطيب» (١١٨)!.
- وأخرجه البيهقي في «الأسماء» (ص ١١٣) عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم عن ابن مسعود، وقال: إنها مع إرسالها أصح من الطريق السابقة.
- (١) حديث صحيح: أخرجه الحاكم (١/٥١١، ٢/١١٧، ١١٨) عن إسرائيل عن أبي سنان عن أبي الأحوص عن ابن مسعود به.
- وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
- فتعقبه الذهبي بقوله: أبو سنان هو ضرار بن مرة لم يخرج له البخاري.
- قلت: وهو كما قال الذهبي من رجال مسلم فقط، وهو ثقة ثبت.
- والحاكم عاد في الموضوع الثاني فقرر هذا بقوله: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
- وأخرجه ابن أبي شيبه (١٠/٣٠٠) عن إسماعيل عن أبي سنان عن أبي الأحوص به.
- وإسماعيل هو ابن يحيى الشيباني - كما في «تهذيب الكمال» - متهم بالكذب.
- وللحديث شاهد من حديث زيد مولى رسول الله ﷺ.
- فقد أخرجه أبو داود (١/١٧٨)، والترمذي (٥/٣٥٧٧)، والبيهقي في «الأسماء» (ص ٤٧)، (١١٢) عن موسى بن إسماعيل، حدثنا حفص بن عمر الشَّيْبِيُّ، حدثني أبي عمر بن مرة، قال: سمعت بلال بن يسار بن زيد مولى النبي ﷺ قال: سمعت أبي يحدثني عن جدي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من قال: **أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدِ فَرَّ مِنَ الرَّحْفِ**».
- قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
- قال ابن علان في «تخريج الأذكار» (٧/٢٨٨): قال الحافظ المنذري إسناده جيد متصل، فقد =

قال أبو نعيم الأصبهاني: «هذا يدل على أن بعض الكبائر تُغفر ببعض العمل الصالح، وضابطه الذنوب التي لا توجب على مرتكبها حكماً في نفس ولا مال، ووجه الدلالة منه أنه مثل بالفرار من الزحف وهو من الكبائر، فدل على أن ما كان مثله أو دونه يغفر إذا كان مثل الفرار من الزحف، فإنه لا يوجب على مرتكبه حكماً في نفس ولا مال»^(١).



= ذكر البخاري في تاريخه أن بلالاً سمع أباه يساراً، وأن يساراً سمع من أبيه زيد مولى رسول الله ﷺ. اهـ.

قال مقبده عفا الله عنه: زيد مولى النبي ﷺ صحابي ليس له غير هذا الحديث، قاله البغوي، وبلال ويسار لم يوثقهما سوى ابن حبان في الثقات، وقال الحافظ في كل منهما: مقبول. وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري:

أخرجه أحمد (٣/١٠)، والبيهقي في «الأسماء» (ص ١١٢، ١١٣) عن عبيد الله بن الوليد الوصافي، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «من قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات، غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر، وإن كانت مثل رمل عالج، وإن كانت مثل عدد ورق الشجر». وفي سنده ضعيفان: عطية العوفي وهو مدلس أيضاً، وعبيد الله بن الوليد.

وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٩/١٠) بسند حسن عن أبي سعيد الخدري موقوفاً بلفظ: «من قال: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه خمس مرات غفر له وإن كان عليه مثل زبد البحر».

وله شاهد من حديث معاذ: أخرجه ابن أبي شيبة أيضاً (٢٩٩/١٠، ٣٠٠) عن شريك عن أبي إسحاق عن معاذ بن جبل موقوفاً بنحو حديث ابن مسعود.

وأخرجه عبد الرزاق (٢/٢٣٦) عن معمر بن إسرائيل عن أبي إسحاق عن رجل عن معاذ، وفيه رجل لم يسم.

(١) «الفتح» (٩٨/١١).

الواحد - الأحد جَلَّ جلالُهُ وتقدَّست أَسْمَاؤُهُ

(٦٩ - ٧٠)

* المعنى اللغوي:

أَحَدٌ بمعنى الواحد، وهو أول العدد، تقول: أَحَدٌ واثنان، وأحد عشر وإحدى عشرة. قال الكسائي: تقول: «لا أَحَدَ في الدار، ولا تَقُلْ: فيها أَحَدٌ. وأما قولهم: ما في الدار أَحَدٌ، فهو اسم لمن يصلح أن يخاطب، يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث، قال تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ الْنِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. وقال: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]. واستأَحَدَ الرجل: انفرد^(١). والوَحْدَةُ: الانفراد، تقول: رأيتُه وحده. ورجل واحد: متقدم في بأسٍ أو علم أو غير ذلك، كأنه لا مِثْلَ له فهو وحده لذلك^(٢).

وقال الزجاج: «(الواحد): وضع الكلمة في اللغة إنما هو للشيء الذي ليس باثنين ولا أكثر منهما»^(٣).

وقال في (الأحد): «قال أهل العربية: أصله «وَحَدٌ» ثم قلبت الواو همزةً، وهذا الكلام عزيز جداً أن تُقلب الواو المفتوحة همزة، ولم نعرف له نظيراً إلا أحرفاً يسيرة، منها: أناة، وأحرف نظيرتها، ويقال: هذا واحدٌ ووَحَدٌ، كما قدمناه من سالم وسلم، حاكم وحكم، وقال النابغة:

علي مُسْتَأْنَسٍ وَحَدٍ

وقال بعض أصحاب المعاني: الفرق بين الواحد والأحد: أن الواحد يفيد وحدة الذات فقط، والأحد يفيد بالذات والمعاني.

(١) «الصحاح» (٤٤٠/٢) (أحد)، «اللسان» (٣٥/١).

(٢) «الصحاح» (٥٤٧/٣، ٥٤٨) (وحد)، «اللسان» (٤٧٧٩/٦ - ٤٧٨٣).

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٥٧).

وعلى هذا جاء في التنزيل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] أراد المنفرد بوحديته في ذاته وصفاته، تعالى الله علواً كبيراً^(١).

وقال أبو حاتم^(٢) في كتاب «الزينة»: «(أحد) هو اسم أكمل من الواحد، ألا ترى أنك إذا قلت: فلان لا يقوم له واحد، جاز في المعنى أن يقوم اثنان فأكثر، بخلاف قولك: لا يقوم له أحد.

وفي (الأحد) خصوصية ليست في الواحد، تقول: ليس في الدار واحد، فيجوز أن يكون من الدواب والطيور والوحش والإنس فيعم الناس وغيرهم، بخلاف ليس في الدار أحد، فإنه مخصوص بالآدميين دون غيرهم.

قال: ويأتي (الأحد) في كلام العرب بمعنى الأول وبمعنى الواحد، فيستعمل في الإثبات وفي النفي، نحو: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]؛ أي: واحد وأول ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ [الكهف: ١٩] وبخلافهما فلا يستعمل إلا في النفي، تقول: ما جاءني من أحد، ومنه: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥]، ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٧]، ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ [الحاقة: ٤٧]، ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ﴾ [التوبة: ٨٤]. وواحد يستعمل فيهما مطلقاً يستوي فيه المذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿لَسْتَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الأحزاب: ٣٢] بخلاف الواحد فلا يقال: كواحد من النساء بل كواحدة.

و(أحد) يصلح في الأفراد والجمع، قلت: ولهذا وُصفَ به في قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة] بخلاف الواحد. و(الأحد) له جمع من لفظه وهو الأحدون والآحاد، وليس للواحد جمع من لفظه، فلا يقال: واحدون بل اثنان وثلاثة. و(الأحد) ممتنع الدخول في الضرب والعدد والقسمة وفي شيء من الحساب بخلاف (الواحد). انتهى كلامه.

(١) المصدر السابق (ص ٥٨). وانظر: «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص ٩٢).

(٢) هو الإمام العلامة أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد بن عثمان البصري المقرئ النحوي اللغوي، صاحب التصانيف، أخذ عن يزيد بن هارون وأبي عبيدة بن المثنى والأصمعي وغيرهم، وحدث عنه أبو داود والنسائي والبزار وتخرج به أئمة منهم أبو العباس المبرد، قال الحافظ: صدوق فيه دعاية.

من كتبه: «إعراب القرآن»، «ما يلحن فيه العامة»، «المقصود والممدود»، «القراءات» وغيرها، توفي سنة خمس وخمسين ومائتين وقيل: سنة خمسين. انظر: «التهذيب» (٤/ ٢٥٧، ٢٥٨)، «السير» (٢٦٨/ ١٢، ٢٧٠).

نقله السيوطي ثم قال: «وقد تحصل من كلامه سبعة فروق»^(١).

* ورود الاسمين في القرآن الكريم:

ورد اسمه (الواحد) في ثنتين وعشرين آية، منها:

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال تعالى على لسان يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿يَصْصَحِي السَّجْنِ ۖ أَزْيَابٌ

مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾

[الصافات: ٤، ٥].

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ

اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ

الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

* وأما اسمه (الأحد) فورد مرة واحدة في مطلع سورة الإخلاص، وهو قوله

تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

* معنى الاسمين في حق الله تعالى:

قال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾: «قد بينا فيما مضى معنى

الألوهية وأنها اعتباد الخلق، فمعنى قوله: ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ

الرَّحِيمُ﴾ [البقرة] الذي يستحق عليكم أيها الناس الطاعة له، ويستوجب منكم العبادة

معبوداً واحداً، ورباً واحداً، فلا تعبدوا غيره ولا تشركوا معه سواه، فإن من تشركونه معه

في عبادتكم إياه هو خلقٌ من خلقِ إلهكم مثلكم، وإلهكم واحد لا مثل له ولا نظير».

ثم قال: «واختلف في معنى وحدانيته تعالى ذكره، فقال بعضهم: معنى وحدانية الله

معنى نفي الأشباه والأمثال عنه، كما يقال: فلانٌ واحد الناس، وهو واحدٌ قومه،

يعني بذلك: أنه ليس له في الناس مثل، ولا له في قومه شبيهٌ ولا نظير، فكذلك

معنى قول: الله واحد، يعني به: الله لا مثل له ولا نظير.

(١) «الإتيان في علوم القرآن» للسيوطي (١/١٩١) ط. الحلبي.

فزعّموا أن الذي دلّهم على صحة تأويلهم ذلك أن قول القائل: (واحد) يفهم لمعان أربعة:

أحدها: أن يكون واحداً من جنس، كالإنسان الواحد من الإنس.

والآخر: أن يكون غير متصرف كالجزء الذي لا ينقسم.

والثالث: أن يكون معنياً به المثل والاتفاق، كقول القائل: هذان الشيئان واحد، يراد بذلك أنهما متشابهان حتى صارا لاشتباههما في المعاني كالشيء الواحد.

والرابع: أن يكون مراداً به نفي النظير عنه والشبيه.

قالوا: فلما كانت المعاني الثلاثة من معاني الواحد مُتَّفِيةً عنه، صحَّ المعنى الرابع الذي وصفناه.

وقال الآخرون: معنى وحدانيته تعالى ذكره معنى انفراده من الأشياء وانفراد الأشياء منه، قالوا: وإنما كان منفرداً وحده؛ لأنه غير داخل في شيء، ولا داخل فيه شيء، قالوا: ولا صحة لقول القائل: واحد من جميع الأشياء إلا ذلك، وأنكر قائلو هذه المقالة المعاني الأربعة التي قالها الآخرون^(١).

وقال الخطابي: «(الواحد) هو الفرد الذي لم يزل وحده، ولم يكن معه آخر.

وقيل: هو المنقطع القرين، المعدوم الشريك والنظير.

وليس كسائر الآحاد من الأجسام المؤلفة، إذ كلُّ شيءٍ سواه يُدعى واحداً فهو واحداً من جهة غير واحد من جهات.

والله سبحانه الواحد الذي ليس كمثله شيء».

وقال: «والفرق بين (الواحد) و(الأحد)، أن (الواحد) هو المنفرد بالذات لا يضامه آخر.

و(الأحد): هو المنفرد بالمعنى لا يشاركه فيه أحد، ولذلك قيل للمتناهي في العلم والمعرفة: هو أحد الأحدين».

وقال: «وأما الوحيد فإنما يوصف به في غالب العُرف المنفرد عن أصحابه، المنقطع عنهم، وإطلاقه في صفة الله سبحانه ليس بالبين عندي صوابه، ولا أستحسن التسمية بعبد الوحيد كما أستحسنها بعبد الواحد وبعبد الأحد، وأرى كثيراً من العامة قد تسمّوا به»^(٢).

وقال البيهقي: «(الواحد) هو الفرد الذي لم يزل وحده بلا شريك.

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٨٢، ٨٣) باختصار.

(١) «جامع البيان» (٣٦/٢).

وقيل: هو الذي لا قسيم لذاته ولا شبيه له ولا شريك.
وهذه صفة يستحقها بذاته.

وقال في (الأحد): الذي لا شبيه له ولا نظير^(١).

وقال السعدي: «(الواحد الأحد): وهو الذي تَوَحَّدَ بجميع الكمالات، بحيث لا يُشاركه فيها مشارك، ويجب على العبيد توحيده: عقداً وقولاً وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفردّه بالوحدانية ويفردوه بأنواع العبادة^(٢).

* من آثار الإيمان بهذين الاسمين:

١ - الله جلّ ثناؤه هو الإله (الواحد الأحد) الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له، في ذاته ولا في صفاته ولا أفعاله كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

فلا يجوز أن يُشَبَّه ربُّنا تعالى جَدُّه بشيء من مخلوقاته؛ لأنه تعالى أخبرنا عن نفسه - وهو أعلم بنفسه - أنه ليس مشابهاً لشيء منها، فكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، فهو الواحد الذي ليس له نِدٌّ ولا نظير، ولا شبه ولا مثل^(٣).

قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقال: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ] [الصافات: ٤، ٥].

وقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

وبَيَّن أنه لم يأمر إلا بأن يعبد وحده ويفرد بالعبادة، فقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

وكفَّر وضلَّ من اتخذ إلهاً سواه أو معه، فقال: ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَني أَنْعْبُدَ آيَاتِ الْجَاهِلُونَ﴾ [١٤] وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلَكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [١٥] بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ [١٦] [الزمر: ٦٤ - ٦٦].

وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

(١) «الاعتقاد» (ص ٦٣، ٦٧).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٩٨/٥، ٢٩٩).

(٣) وهو المعنى الذي اختاره ابن جرير رحمه الله كما سبق.

وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]. وكيف يعبد غيره والله سبحانه قد تفرد بالخلق والإيجاد، والرزق والإمداد، والبسط والقبض، والرفع والخفض، والنفع والضرر، قال سبحانه: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [١٩١] وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

وقد نبه الله تعالى عقول الناس وفطرتهم إلى هذا الأمر في مواضع كثيرة، من أعظمها ما جاء في سورة النمل حيث ذكر الله تعالى عظيم مخلوقاته وتصرفاته، في آيات تهتز لها الجبال فكيف أحلام الرجال؟!.

قال سبحانه: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ [٥٩] أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ يَدَايِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ يَعِدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ؕ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؕ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؕ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلٌّ هَكَأُولَ بُرْهَنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤].

٢ - فهذه الآيات دالة على انفراده بالخلق والإيجاد والتصرف والتدبير فلا إله غيره، ولا يستحق العبادة سواه، وقد ختم كل آية بقوله: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ؟﴾ أي: إله مع الله يعبد وقد تبين لكم ولكل ذي لب انفراده بهذا الخلق والتصرف؟! تعالى الله عما يشركون.

وهذا التوحيد هو الذي من أجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء وأشقياء، وهو معنى قول: لا إله إلا الله، الذي دعت الرسل أقوامها إليه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣] فهذه دعوة أول رسول أرسله الله تعالى بعد حدوث الشرك، وتتابع الرسل بعد ذلك كلهم يدعو إليها ويأمر بها كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقد أمر الرسول ﷺ رسوله إلى أهل اليمن أن يبدأ أولاً بدعوتهم إلى توحيد الله

تعالى، كما في حديث ابن عباس قال: لما بعث النبي ﷺ مُعَاذًا إِلَىٰ نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَنِ قال له: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَىٰ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يُوْحِدُوا اللَّهَ تَعَالَىٰ، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ...»^(١).

فالعبد لا يدخل الإسلام حتى يُوْحِدَ الله تعالى بأن يشهد أن لا إله إلا الله، ولا يقبل له عملٌ صالح حتى يحقق التوحيد، ولذا لم يأمره ﷺ أن يأمرهم بالصلاة أولاً أو بالزكاة، بل بالإيمان أولاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝﴾ [النساء: ١٢٤]. وقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝﴾ [الإسراء: ١٩].

وغيرهما من الآيات التي اشترط الله تعالى فيها الإيمان لقبول العمل الصالح.

٣ - الله تعالى هو الواحد الأحد الذي لا يجوز أن تُصَرَّفَ العبادة لغيره، فهو المعبود بحق وغيره يعبد بالباطل، فلا يجوز لعبيده أن يتوجهوا لغير سيدهم بعبادة من العبادات، صلاة كانت أو دعاء أو ذبحاً أو نذراً أو توكلاً أو رجاءً أو خوفاً أو خشوعاً أو خضوعاً، بل يكونوا كما أمر نبينا ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

٤ - جاء في الصحيح أن من نسب لله تعالى الولد فقد شتمه تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «قال الله تعالى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يَعْيِدَنِي إِكْمًا بِدَأْنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ»^(٢).

٥ - وجاء في فضل تهليل الله تعالى وتوحيده أحاديث جمّة تقال في مواضع عديدة، لتجديد التوحيد والإيمان بالله سبحانه ووحدانيته، لما في ذلك من دفع المسلم للخير والعمل الصالح، إذ إن منعه هو التوحيد الخالص.

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٣٤٧/١٣).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٧٣٩/٨) عن أبي هريرة، وفي بدء الخلق (٢٨٧/٧).

وأخرجه في التفسير أيضاً (١٦٨/٨) عن ابن عباس.

فمنها حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير في اليوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له جرّاً من الشيطان يومه ذلك حتى يُمسي، ولم يأت أحدٌ بأفضل مما جاء به، إلا رجلٌ عمل أكثر منه»^(١).

ومنها ما يقال في دبر الصلوات المكتوبات.

٦ - عدلت السورة التي جاء فيها هذان الاسمان ثلث القرآن كما في الحديث الصحيح^(٢).



(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٣٨/٦)، وفي الدعوات (٢٠١/١١)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٠٧١/٤) عن أبي صالح عن أبي هريرة به.

(٢) انظر تخريجه والكلام عليه في الكلام على اسمه (الصمد).

الصِّمْدُ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

(٧١)

* المعنى اللغوي :

صَمَدٌ يَصْمِدُهُ صَمْدًا، وَصَمَدٌ إِلَيْهِ كِلَاهُمَا : قَصْدُهُ .
وَالصَّمْدُ : السِّيدُ الْمَطَاعُ الَّذِي لَا يُقْضَى دُونَهُ أَمْرٌ .
وَقِيلَ : هُوَ الَّذِي يُصْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ ؛ أَيِ : يُقْصَدُ ، وَأَنْشَدَ الْجَوْهَرِيُّ :
عَلَوْتُهُ بِحَسَامٍ ثُمَّ قَلْتُ لَهُ خُذْهَا حَذِيفُ فَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمْدُ
وَأَضْمَدَ إِلَيْهِ الْأَمْرَ : أَسْنَدَهُ .
وَالْمُصْمَدُ : لُغَةٌ فِي الْمُصَمَّتِ وَهُوَ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ .
وَالصَّمْدُ : الْمَكَانُ الْمَرْتَفِعُ الْغَلِيظُ مِنَ الْأَرْضِ ^(١) .

* وروده في القرآن الكريم :

ورد مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ ﴾ [الإخلاص : ١ ، ٢] .

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير رحمته الله : « واختلف أهل التأويل في معنى (الصمد) فقال بعضهم : هو الذي ليس بأجوف ولا يأكل ولا يشرب .
ذَكَرُ مِنْ قَالَ ذَلِكَ ^(٢) :
قال مجاهد : الصمد المصمت الذي لا جوف له ^(٣) .
وقال الحسن : (الصمد) الذي لا جوف له ، وعن عكرمة مثله ^(٤) .

(١) «الصحيح» (٢/٤٩٩)، «اللسان» (٤/٢٤٩٥، ٢٤٩٦)، «اشتقاق الأسماء» (ص ٢٥٢، ٢٥٣)،

و«الكتاب الأسنى» للقرطبي ورقة (٢٩١ أ - ب).

(٢) وسوف نقتصر على إيراد ما صح من الآثار دون ذكر أسانيدنا، كعادتنا في هذا الكتاب.

(٣) «جامع البيان» (٣٠/٢٢٢) وقد رواه بسندين صحيحين عنه.

(٤) المصدر السابق، رواه بسندين صحيحين عن الحسن، وبسند صحيح عن عكرمة.

وقال الشعبي: (الصمد) الذي لا يَطْعَم الطعام.
 وقال: الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب»^(١).
 ثم قال ابن جرير: «وقال آخرون: هو الذي لا يخرج منه شيء.
 ذكر من قال ذلك:
 قال عكرمة: (الصمد) الذي لم يخرج منه شيء، ولم يلد ولم يولد.
 وفي رواية أخرى: الذي لا يخرج منه شيء»^(٢).
 ثم قال ابن جرير: «وقال آخرون: هو الذي لم يلد ولم يولد.
 ذكر من قال ذلك»^(٣).
 وقال آخرون: هو السيد الذي قد انتهى سؤده.
 ذكر من قال ذلك:
 قال أبو وائل: الصمد هو السيد الذي قد انتهى سؤده»^(٤).
 وقال آخرون: بل هو الباقي الذي لا يفنى.
 ذكر من قال ذلك:
 كان الحسن وقتادة يقولون: الباقي بعد خلقه، قال: هذه سورة خالصة ليس فيها
 ذكر شيء من أمر الدنيا والآخرة»^(٥).
 وقال قتادة: (الصمد): الدائم»^(٦).
 قال أبو جعفر: الصمد عند العرب هو: السيد الذي يُصمد إليه؛ الذي لا أحد
 فوقه، وكذلك تُسمي أشرافها، ومنه قول الشاعر:
 ألا بكر النَّاعي بِخَيْري بني أسد بعمر بن مسعود وبالسَّيِّدِ الصَّمَدِ
 فإذا كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بتأويل الكلمة المعنى المعروف من كلام
 من نزل القرآن بلسانه»^(٧). اهـ.

-
- (١) المصدر السابق، رواه بثلاثة أسانيد صحيحة.
 (٢) المصدر السابق (ص ٢٢٣) أخرجهما عنه بسندين صحيحين.
 (٣) ذكر بعده آثاراً لا تصح، وقد تقدم عن عكرمة مثله.
 (٤) «جامع البيان» (٢٢٣/٣٠) عنه بسندين صحيحين.
 (٥) المصدر السابق، وسنده حسن.
 (٦) المصدر السابق (٢٢٣/٣٠، ٢٢٤) وسنده صحيح.
 (٧) «جامع البيان» باختصار. وانظر: «مجموع الفتاوى» (٢١٩/١٧ - ٢٢٥) لشيخ الإسلام فقد ذكر أكثر هذه الآثار بأسانيدها.

وقال أبو عبيدة ﴿اللَّهُ الصَّكْمُ﴾: هو الذي يُصمد إليه، ليس فوقه أحد،
والعرب كذلك تسمي أشرافها^(١).

وقال الزجاج: «وأصحُّه: أنه السيد المصمود إليه في الحوائج»^(٢).

وقال الخطابي: «(الصَّمد) هو السيد الذي يُصمد إليه في الأمور، ويقصد في
الحوائج والنوازل، وأصل الصَّمد: القُصْدُ، ويقال للرجل: اضْمِدْ صَمْدَ فلان؛ أي:
اقصد قصده، وجاء في التفسير: أن الصمد: الذي قد انتهى سؤده.

وقيل: (الصمد): الدائم.

وقيل: الباقي بعد فناء الخلق.

وأصحُّ هذه الوجوه، ما شهد له معنى الاشتقاق، والله أعلم»^(٣).

وقال الشنقيطي: «من المعروف في كلام العرب إطلاق الصمد على السيد
العظيم، وعلى الشيء المصمت الذي لا جوف له، فمن الأولى قول الزبرقان:
سَيَرُوا جَمِيعاً بَنَصْفِ اللَّيْلِ وَاعْتَمَرُوا وَلَا رَهِينَةً إِلَّا سَيِّدُ صَمْد
ومن الثاني قول الشاعر:

شِهَابٌ حُرُوبٍ لَا تَزَالُ حَيَاةُ عَوَاسٍ يَغْلِكُنَ الشَّكِيمَ الْمُصْمِدا
فإذا علمت ذلك، فالله تعالى هو السيد الذي وحده الملجأ عند الشدائد
والحاجات، وهو الذي تنزهه وتقدس وتعالى عن صفات المخلوقين كأكل الطعام
ونحوه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً»^(٤).

وقال ابن القيم في «نونيته»:

وهو الإله السَّيِّدُ الصَّمْدُ الَّذِي حَمَدْتُ إِلَيْهِ الْخَلْقُ بِالِاذْغَانِ
الكَامِلُ الْأَوْصَافِ كَمَالِهِ مَا فِيهِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ مِنْ نُقْصَانِ^(٥)

(١) «مجاز القرآن» (٢/٣١٦).

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٥٨)، وبنحوه قال الزجاجي في «اشتقاق الأسماء» (ص ٢٥٢)،
والحليمي في «المنهاج» (١/٢٠١) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه
ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٥٨).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٥٨).

قال القرطبي في «الأسنى» ورقة (٢٩٢ب) بعد ذكره لقول الخطابي: (وأصح ما قيل فيه ما
يشهد له الاشتقاق): قلت: وهو قول أهل اللغة أجمعين، فيما ذكر ابن الأنباري، وقال
القشيري: وهو الصحيح ولم يذكر أبو حامد غيره.

(٤) «أضواء البيان» (٢/١٨٧).

(٥) «النونية» (٢/٢٣١، ٢٣٢).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

كلُّ ما سبق من الأقوال يصح أن يُوصف به ربُّنا ﷻ، كما قال الحافظ الطبراني في كتابه «السنّة» - كما في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٧٠) - بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير (الصّمد) قال: وكل هذه صحيحة وهي صفات ربنا ﷻ، هو الذي يُصمّد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سُؤده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه.

وقال البغوي: والأولى أن يُحمل لفظ (الصّمد) على كل ما قيل فيه؛ لأنه محتملٌ له، فعلى هذا يقتضي أن لا يكون في الوجود صمداً سوى الله تعالى، العظيم القادر على كل شيء، وأنه اسم خاص بالله تعالى انفرد به، له الأسماء الحسنی والصفات العليا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

ولنفصل ما توجبه تلك المعاني من آثار إيمانية في قلب المؤمن بالله تعالى وصفاته. فنقول:

١ - قد احتوى هذا الاسم على أوصافٍ عظيمة ومدائح جميلة لربنا جل في علاه، لا تنبغي إلا لمن تناهى سُؤده، وعظّم فضله وجوده وهو الله وحده. فقد قالوا: إن معنى (الصمد): هو الذي ليس بأجوف، أو لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب.

وهو كذلك فإنه سبحانه الغني عن كل شيء، وهذا من صفات كماله، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ الْعَالَمِينَ وَلَيْلًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وقد ردّ الله تعالى على النصارى الذين قالوا بالهية عيسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِالْبَلَدِ الْغَلَامِ﴾ [المائدة: ٧٥].

فدلّت الآية على أن الإله الحق ينبغي أن يكون مستغنياً عن الطعام والشراب.

٢ - وقالوا: إن معنى (الصمد): هو الذي لم يلد ولم يولد. وهذا حقٌّ أيضاً، فقد نفى الله سبحانه أن يكون له مثل أو نظير أو مكافئ في

(١) «معالم التنزيل» (٧/ ٣٢١).

آيات لا تُحصر، كقوله تعالى: ﴿تَعَلَّمْ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، وغيرها.

وإذا ثبت أنه ليس لله تعالى مثل، بطل أن يكون متولداً من شيء، إذ الشيء لا يتولد إلا عن جنسه.

وبشوت ما سبق - وهو أنه ليس لله تعالى مثل - يبطل أن يكون لله ولد، إذ الولد لا يكون إلا عن زوجة، والزوجة منتفية لعدم المثل، فينتفي الولد تبعاً.
قال سبحانه: ﴿يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

٣ - وقالوا: إن (الصمد) هو السيد الذي قد انتهى سؤده.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: (الصمد) السيد الذي قد كُمِّلَ في سؤده، والشريف الذي قد كُمِّلَ في شرفه، والعظيم الذي قد كُمِّلَ في عظمته، والحليم الذي قد كُمِّلَ في حلمه، والغني الذي قد كُمِّلَ في غناه، والجبار الذي قد كُمِّلَ في جبروته، والعالم الذي قد كُمِّلَ في علمه، والحكيم الذي قد كُمِّلَ في حكمته، وهو الذي قد كُمِّلَ في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له^(١).

فصفات السؤدد كلها كاملة له، لا يشاركه في هذا شيء من مخلوقاته.

٤ - وقالوا: إن (الصمد) الباقي الذي لا يفنى.

وهذا حق لا مرية فيه، فإنه سبحانه أول بلا ابتداء، دائماً بلا انتهاء، كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وفسره النبي ﷺ بقوله: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»^(٢).

وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾

[الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وكل ما سبق ذكره من صفات السؤدد والكمال، باقية له لم تزل ولا تزال - كذلك أبدياً - لا يطرأ عليها النقص ولا الآفات ولا الاختلال، كما هو شأن المخلوق

(١) رواه ابن جرير (٢٢٣/٣٠) وابن أبي حاتم - كما في «مجموع الفتاوى» (٢٢٠/١٧) عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس به، وفي روايته عن ابن عباس انقطاع، قال دحيم: لم يسمع التفسير من ابن عباس: وقال أبو حاتم: علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مرسل إنما يروي عن مجاهد والقاسم بن محمد. انظر: «جامع التحصيل» (ص ٢٩٤).

(٢) رواه مسلم (٢٠٨٤/٤).

الذي يكون سؤدده وكماله في حال دون حال، فسبحان الواحد الصمد ذي العزة والجلال.

قال الأقلشي: فعلى هذا يتشعب من صفات الصمد صفات السؤدد كلها من الجود والحلم وغير ذلك.

وإذا قلنا: إن (الصمد) هو العالي من قولهم: بناءً مصمداً، ومكان مرتفع فيتشعب من صفات (الصمد) صفات العالي كلها من العزة والقهر والعلو إلى غير ذلك مما يضاهيه.

وإذا قلنا: إن (الصمد) مأخوذ من قولهم: شيء مصمداً إذا لم يكن أجوف، ففيه نفي التركيب عن الله تعالى، وأنه لا بعض له كما قلنا في (الأحد) وإلى هذا أشار من قال: (الصمد) لا جوف له، ومن قال: هو الذي لا يطعم، ومن قال: هو الذي لم يلد ولم يولد، ومن قال: هو الباقي الدائم.

فترجع حقيقة الصمدانية في حقه إلى قيامه بذاته واستغنائه عن غيره، واحتياج كل شيء إليه، فهي صفة ذاتية له ﷻ، تارة دون إضافة إذا نُظر إلى عين ذاته وصمدانيته، وتارة بإضافة إذا نُظر إلى صمد الخلق إليه وقيامهم به واحتياجهم إليه في جميع أمورهم^(١).

٥ - ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي معنى هذا الاسم لغةً، وفي حق الله تعالى، وما يتضمنه من الصفات الجليلة بحثٌ موسع طيب ننقل منه ما يناسب هذا الموضع، قال رَحِمَهُ اللهُ:

«وأما اسم (الصمد) فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين، كما تقدم، فلم يقل: الله صمد، بل قال: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ٢٠ فبيّن أنه المستحق؛ لأن يكون هو الصمد دون ما سواه، فإنه المستوجب لغايته على الكمال، والمخلوق وإن كان صمداً من بعض الوجوه، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه، فإنه يقبل التفرق والتجزئة، وهو أيضاً محتاج إلى غيره، فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه، فليس أحد يصمد إليه كل شيء ولا يصمد هو إلى شيء إلا الله تبارك وتعالى، وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق ويتقسم، وينفصل بعضه من بعض، والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه، كما لا يمكن ثنية

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٩٣).

أحدثه بوجه من الوجوه، فهو أحد لا يماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه، كما قال في آخر السورة: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿٤﴾ استعملها هنا في النفي؛ أي: ليس شيء من الأشياء كفواً له في شيء من الأشياء لأنه أحد.

وقال رجل للنبي ﷺ: أنت سيدنا؟ فقال: «السيد: الله»^(١). ودلّ قوله: (الأحد، الصمد) على أنه لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فإن الصمد هو الذي لا جوف له ولا أحشاء، فلا يدخل فيه شيء، فلا يأكل ولا يشرب ﷺ كما قال: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَنْجِدُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾. وفي قراءة الأعمش وغيره: «ولا يطعم» بالفتح. وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾، ومن مخلوقاته: الملائكة، وهم صمد لا يأكلون ولا يشربون، فالخالق لهم جلّ جلاله أحق بكلّ غنى وكمال جعله لبعض مخلوقاته، فلهذا فسّر بعض السلف (الصمد) بأنه الذي لا يأكل ولا يشرب، والصمد المصمد الذي لا جوف له، فلا يخرج منه عين من الأعيان، فلا يلد.

ولذلك قول من قال من السلف: هو الذي لا يخرج منه شيء، ليس مرادهم أنه لا يتكلم، وإن كان يقال في الكلام: إنه خرج منه، كما قال في الحديث: «ما تقرب العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه»؛ يعني: القرآن^(٢).

وقال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسيلة: إنَّ هذا لم يخرج من إله. فخروج الكلام من المتكلم هو بمعنى أنه يتكلم به فيسمع منه، ويبلغ إلى غيره

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٤/٢٥)، وأبو داود (٤٨٠٦)، وغيرهما من طرق عن مطرف بن عبد الله بن الشَّخِير به.

(٢) حديث ضعيف: أخرجه أحمد (٢٦٨/٥)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٩١١/١٧٦/٥) عن بكر بن خنيس عن ليث بن أبي سليم عن زيد بن أرقط عن أبي أمامة مرفوعاً به وأوله: «ما أذن الله لعبده في شيء أفضل من ركعتين يصليهما..» قال الترمذي: حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وبكر بن خنيس قد تكلم فيه ابن المبارك وتركه في آخر عمره، وقد روي هذا الحديث عن زيد بن أرقط عن جبير بن نفير عن النبي ﷺ مُرسلاً. اهـ.

ثم ساقه كما ذكر مرسلًا بلفظ: «إنكم لن ترجعوا إلى الله بأفضل مما خرج منه»؛ يعني: القرآن. وفي سنده أيضاً: ليث بن أبي سليم كان قد اختلط. والحديث أخرجه أيضاً عبد الله في «السنة» (١٤٠/١) بالطريق الثاني. لكن قد صح موقوفاً على خباب رضي الله عنه. انظر: «السنة» لعبد الله (١٤١/١، ١٤٢).

ليس بمخلوق في غيره، كما يقول الجهمية، ليس بمعنى أنَّ شيئاً من الأشياء القائمة به يفارقه، وينتقل عنه إلى غيره، فإن هذا ممتنع في صفات المخلوقين، أن تفارق الصفة محلها، وتنتقل إلى غير محلها، فكيف بصفات الخالق جلّ جلاله، وقد قال تعالى في كلام المخلوقين: ﴿كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، وتلك الكلمة هي قائمة بالمتكلم، وسمعت منه ليس خروجها من فيه، أن ما قام بذاته من الكلام فارق ذاته، وانتقل إلى غيره، فخرج كل شيء بحسبه، ومن شأن العلم والكلام إذا استفيد من العالم والمتكلم أن لا ينقص من محله، ولهذا شبه بالنور الذي يقتبس منه كل أحد الضوء، وهو باق على حاله لم ينقص، فقول من قال من السلف: الصمد هو الذي لم يخرج منه شيء، كلام صحيح، بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه.

ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد، وذلك أن الولادة والتولد وكل ما يكون من هذه الألفاظ لا يكون إلا من أصليين، وما كان من المتولد عيناً قائمة بنفسها فلا بدّ لها من مادة تخرج منها، وما كان عرضاً قائماً بغيره فلا بدّ له من محل يقوم به، فالأول نفاه بقوله: ﴿أَحَدٌ﴾، فإن الأحد هو الذي لا كفؤ له ولا نظير، فيمتنع أن تكون له صاحبة، والتولد إنما يكون بين شيئين، قال تعالى: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، فنفسى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه، فإن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم، وبأنه خالق كل شيء، وكل ما سواه مخلوق له، ليس فيه شيء مولود له.

والثاني: نفاه بكون سبحانه الصمد، وهذا المتولد من أصليين يكون بجزئين ينفصلان من الأصليين، كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمبني الذي ينفصل من أبيه وأمه، فهذا التولد يفتقر إلى أصل آخر، وإلى أن يخرج منهما شيء، وكل ذلك ممتنع في حق الله تعالى، فإنه أحدٌ فليس له كفؤٌ يكون صاحبة ونظيراً، وهو صمد لا يخرج منه شيء، فكل واحد من كونه أحداً، ومن كونه صمداً يمنع أن يكون والدًا، ويمنع أن يكون مولوداً بطريق الأولى والأخرى^(١).

٦ - وإذا كان ربنا كذلك فينبغي على العباد أن لا يلجأوا إلا إليه، ولا يطلبوا إلا منه، فهو سبحانه السيد الصمد الذي لا شيء فوقه بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٣٨/١٧ - ٢٤١).

قال القرطبي: فيجب على كل مكلف أن يعلم أن لا صمدانية ولا وحدانية إلا لله وحده، فلا يقصد غيره ولا يلجأ في حوائجه إلا إليه.

ثم عليه أن يتخلّق بأخلاق السيادة والسادة حتى يكون مصموداً، وبابه مقصوداً، روى هشام بن عروة عن أبيه قال: أدركت سعد بن عبادة ومناد ينادي على أئمة: من أحبّ شحماً ولحمّاً فليأت سعداً، ثم أدركت ابنه قيساً ينادي مثل ذلك^(١).

٧ - جاء في الصحيح أن سورة الإخلاص التي ورد فيها (الصمد) و(الأحد) تعدل ثلث القرآن، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأصحابه: «أعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟»، فشق ذلك عليهم وقالوا: أئنا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن»^(٢).

وفي رواية: «إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣) جزءاً من أجزاء القرآن»^(٣).

قال القرطبي: «اشتملت هذه السورة على اسمين من أسماء الله تعالى، يتضمنان جميع أصناف الكمال، لم يوجد في غيرها من السور، وهما: (الأحد - الصمد)؛ لأنهما يدلان على أحدية الذات المقدسة الموصوفة بجميع أوصاف الكمال، ويبان ذلك: أن (الأحد) يُشعر بوجوده الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره. و(الصمد) يُشعر بجميع أوصاف الكمال؛ لأنه الذي انتهى إليه سؤده فكان مرجع الطلب منه وإليه.

ولا يتم ذلك على وجه التحقيق إلا لمن حاز جميع خصال الكمال، وذلك لا يصلح إلا لله تعالى، فلما اشتملت هذه السورة على معرفة الذات المقدسة، كانت بالنسبة إلى تمام المعرفة بصفات الذات وصفات الفعل ثلثاً^(٤).

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٩٤أ).

والأثر عزاه الحافظ في الإصابة (٣٠/٢) إلى الدارقطني في كتاب «الأسخياء» وزاد: وكان سعد يقول: اللهم هب لي مجداً، لا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال، اللهم إنه لا يصلحني القليل ولا أصلح عليه.

ثم ذكر عن محمد بن سيرين قال: كان سعد بن عبادة يعيش كل ليلة ثمانين من أهل الصفة.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٩/٩) عن أبي سعيد الخدري.

وله لفظ آخر مع قصة أخرجه البخاري (٥٨/٩، ٥٩، ٥٢٥/١١، ٣٤٧/١٣) عنه أيضاً، وأخرجه مسلم (٥٥٧/١) عن عائشة. وأخرجه مسلم (٥٥٧/١) عن أبي هريرة مرفوعاً به.

(٣) أخرجه مسلم (٥٥٦/١) عن أبي الدرداء مرفوعاً به.

(٤) «الفتح» (٦١/٩).

وقيل غير ذلك في معناه.

من ذلك ما نقله في «الأسنى»: «وقد قيل: إن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ إنما عدلت ثلث القرآن - على ما جاء في الصحيح - لأجل هذا الاسم - يعني (الصمد) - الذي لا يوجد في غيرها من السور وكذلك (أحد)، والله أعلم.

وقيل: إن القرآن أنزل أثلاثاً: ثلث منه أحكام، وثلثاً منه وعدٌ ووعد، وثلث منه أسماء وصفات، وقد جمعت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ أحد الأثلاث وهو الأسماء والصفات فقيل: إنها ثلث القرآن، ودلّ على هذا التأويل ما في «صحيح مسلم» من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «إنَّ الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ جزءاً من أجزاء القرآن»^(١).



(١) «الأسنى» ورقة (٢٩٣ب).

القادر - القدير - المُقتدر

جَلَّ جلالُه وتقدَّست أَسْماءُه

(٧٢ - ٧٤)

* المعنى اللغوي:

القُدْرُ والقُدْرَةُ والمِقْدَار: القوة، وَقَدَرَ عليه يَقْدِرُ ويقْدِرُ، وَقَدِرَ قُدْرَةً واقتدر وهو قادر وقدير، والاسم من كل ذلك المَقْدَرَةُ والمقدرة والمقدرة^(١).

والاقتدار على الشيء: القدرة عليه.

ورجلٌ ذو قُدْرَةٍ؛ أي: ذو يسار.

وقَدَرْتُ الشيء أَقْدِرُهُ وأقْدِرُهُ قَدْرًا، من التقدير.

وفي الحديث: «إِذَا غَمَّ عَلَيْكُمُ الْهَلَالُ فَاقْدُرُوا لَهُ»؛ أي: أتموا الثلاثين.

وقَدَرُ الشيء: مَبْلَغُهُ.

وقَدَرَ الله وقْدْرَهُ بمعْنَى، وهو في الأصل مصدر، وقال الله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ

حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الحج: ١٧٤]؛ أي: ما عظموا الله حقَّ تعظيمه.

والقَدَرُ والقُدْرُ أيضاً: ما يُقْدَرُهُ الله ﷻ من القضاء.

وقَدِرَ على الإنسان رزقه قَدْرًا، مثل: قُتِرَ^(٢).

قال الأزهري: «والتقدير على وجوه من المعاني:

أحدها: التَّروية والتفكير في تسوية أمرٍ وتهيئته.

والثاني: تقديره بعلامات يُقَطِّعُهُ عليها.

والثالث: أن تنوي أمراً بِعَقْدِكَ تقول: قَدَرْتُ أمر كذا وكذا؛ أي: نويته وعقدت

عليه^(٣).

* الفرق بين هذه الأسماء:

قال الزجاجي: «(القدير) أبلغ في الوصف بالقدرة من القادر؛ لأن القادر اسم

(١) «اللسان» (٣٥٤٦/٥) مادة (قدر). (٢) «الصحاح» (٧٨٦/٢، ٧٨٧).

(٣) «اللسان» (٣٥٤٧/٥). وانظر: «المفردات» للراغب (ص ٣٩٤ - ٣٩٦).

الفاعل من: قدر يقدر فهو قادر، و(قدير): فعيلٌ وفعل من أبنية المبالغة، وأكثر ما يجيء «فعليل» اسم الفاعل مما كان فعله على فعلٍ غير مُتَعَدٍّ، نحو: ظرف فهو ظريف، وشرف فهو شريف يُراد بذلك المبالغة في الوصف بالظرف والشرف، وكذلك جميع ما جاء على «فعليل» إنما هو للمبالغة في الوصف»^(١).

وقال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى: (القادر، والمقتدر، والقدير) فالقادر اسم الفاعل من قدر يقدر، والقدير فعيلٌ منه وهو للمبالغة والمقتدر: مُفْتَعَلٌ من اقْتَدَرَ وهو أبلغ»^(٢).

* ورود الأسماء في القرآن الكريم:

* ورد اسمه (القادر) اثنتي عشرة مرة، خمسٌ منها بصيغة الجمع، نورد منها: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيَسَكُمُ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْ حَتَّىٰ نُنْصِرَ أَلَا يَتَّبِعُهُمُ الْيَقِينُ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُثَبِّتَ مَا نَعْدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٥]. وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [فجعله في قرارٍ مَكِينٍ] [١١] إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ [٢٢] فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ] [المرسلات: ٢٠ - ٢٣].

* وأما اسمه (القدير) فورد خمساً وأربعين مرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

وقوله: ﴿أَيَنْ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]. وقوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

وقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠]. وقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦]. وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

(١) «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص ٤٨). (٢) «النهاية» (٤/ ٢٢).

وقوله: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وقوله: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

* وأما (المقتدر) فقد ورد أربع مرات، وهي:

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ [٤١] أَوْ نُزِيلَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢].

وقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَاعْلَوْهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ﴾ [القمر: ٤٢].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّيْقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ [٥٤] فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

* معنى الأسماء في حق الله تعالى:

* أما (القادر):

فقال الزجاج: «(القادر): الله القادر على ما يشاء، لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَلَا يَفُوتُهُ مَطْلُوبٌ، وَالْقَادِرُ مَنْ - وَإِنْ اسْتَحَقَّ هَذَا الْوَصْفُ - فَإِنْ قُدِّرَتْهُ مُسْتَعَارَةٌ، وَهِيَ عِنْدَهُ وَدِيعَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَجُوزُ عَلَيْهِ الْعَجْزُ فِي حَالٍ وَالْقُدْرَةُ فِي أُخْرَى. وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْقَادِرُ، فَلَا يَتَطَرَّقُ عَلَيْهِ الْعَجْزُ، وَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ»^(١).

وقال الخطّابي: «(القادر): هو من القدرة على الشيء، يُقَالُ: قَدَرَ يَقْدِرُ قُدْرَةً فَهُوَ قَادِرٌ وَقَدِيرٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وَوَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ أَرَادَهُ، لَا يَعْتَرِضُهُ عَجْزٌ وَلَا قُتُورٌ.

وقد يكون القادر بمعنى: الْمُقَدِّرُ لِلشَّيْءِ، يُقَالُ: قَدَّرْتُ الشَّيْءَ وَقَدَّرْتُهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]؛ أَيْ: نَعْمَ الْمُقَدِّرُونَ، وَعَلَى هَذَا يُتَأَوَّلُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَطَنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ أَيْ: لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ الْخَطِيئَةُ أَوِ الْعُقُوبَةُ، إِذْ لَا يَجُوزُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ أَنْ يَظُنَّ عَدَمَ قُدْرَةِ اللَّهِ ﷻ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ»^(٢).

وقال الحلّيمي: «(القادر) قال الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخْجِيَ الْمَوْتَ﴾ [القيامة: ٤٠]، وَقَالَ: ﴿بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ بَلْ تَيْسَرُ لَهُ مَا يَرِيدُ عَلَى مَا يَرِيدُ؛ لِأَنَّ أَفْعَالَهُ قَدْ ظَهَرَتْ، وَلَا

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٥٩).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٨٦).

يظهر الفعل اختياراً إلا من قادر غير عاجز، كما لا يظهر إلا من حيّ عالم^(١).
وقال البيهقي: «هو الذي له القدرة الشاملة، والقدرة له صفة قائمة بذاته»^(٢).
* وأما (القدير):

فقال ابن جرير عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]: «وإنما وَصَفَ اللهُ نفسه - جَلَّ ذِكْرُهُ - بِالْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، لَأَنَّهُ حَذَّرَ الْمُنَافِقِينَ بِأَسْهٍ وَسَطَوْتِهِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ بِهِمْ مُحِيطٌ، وَعَلَى إِذْهَابِ أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ قَدِيرٌ، ثُمَّ قَالَ: فَاتَّقُونِي أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ، وَاحْذَرُوا خِدَاعِي وَخِدَاعَ رَسُولِي وَأَهْلِ الْإِيمَانِ بِي، لَا أَجِلْ بِكُمْ نَقْمَتِي، فَإِنِّي عَلَى ذَلِكَ وَعَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ قَدِيرٌ.

ومعنى (قدير): قادر، كما معنى (عليم): عالم، على ما وصفتُ فيما تقدم من نظائره من زيادة معنى «فعليل» على فاعل في المدح والذم^(٣).

وقال عند قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]: «ألم تعلم يا محمد أنني قادر على تعويضه مما نسختُ من أحكامي وغيّرتُه، من فرائضي التي كنت افترضتها عليك ما أشاء، مما هو خير لك ولعبادي المؤمنين معك وأنفع لك ولهم، إما عاجلاً وإما آجلاً في الآخرة، أو بأن أُبدلَ لك ولهم مكانه مثله في النَّفْعِ لهم عاجلاً في الدنيا وآجلاً في الآخرة، وشبيهه في الخفة عليك وعليهم، فاعلم يا محمد أنني على ذلك وعلى كل شيءٍ قديرٌ.

ومعنى قوله: ﴿قَدِيرٌ﴾ في هذا الموضع: قويٌّ، يقال منه: قد قَدَرْتُ على كذا وكذا، إذا قويت عليه، أَقْدَرُ عليه، وأَقْدَرُ عليه قدرةً وَقْدَرَاناً وَمَقْدَرَةً، وبنو مرة من غطفان تقول: قَدِرت عليه بكسر الدال.

فأما «التقدير» من قول القائل: قَدَرْتُ الشيء، فإنه يقال منه: قَدَرْتُهُ أَقْدَرُهُ قَدَرًا وَقَدَرًا^(٤).

وقال الحليمي: «(القدير) وهو: التأمُّ القدرة، لا يلبس قدرته عَجْزٌ بوجه»^(٥).

(١) «المنهاج» (١/١٩١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداء والاختراع له، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٢١).

(٢) «الاعتقاد» (ص ٦٣). (٣) «جامع البيان» (١/١٢٤).

(٤) المصدر السابق (١/٣٨٣).

(٥) «المنهاج» (١/١٩٨) وذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٤١).

وقال ابن القيم:

وهو القدير وليس يُعْجِزُهُ إذا ما رَامَ شيئاً قَطُّ ذو سُلْطَانٍ^(١)
وقال السعدي: «(القدير) كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته
دَبَّرَها، وبقدرته سَوَّاهَا وأَحْكَمَها، وبقدرته يُحْيِي ويُمِيت، ويبعث العباد للجزاء،
ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن،
فيكون، وبقدرته يُقَلِّبُ القلوب ويصرفها على ما يشاء ويريد»^(٢).

* وأما (المُقْتَدِر):

فقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]: «يقول: عند ذي
مَلِكٍ مقتدر على ما يشاء، وهو الله ذو القوة المتين تبارك وتعالى»^(٣).
وقال الزَّجَّاج: «(المقتدر) مبالغة في الوصف بالقدرة، والأصل في العربية أنَّ
زيادة اللفظ زيادة المعنى، فلما قلت: اقتدر، أفادت زيادة اللفظ زيادة المعنى»^(٤).
وقال الخطابي: «(المقتدر): هو التامُّ القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء»^(٥) ولا
يحتجُزُّ عنه بمنعة وقوة.

ووزنه: مُفْتَعِل، من القدرة إلا أنَّ الاقتدار أبلغ وأعمُّ؛ لأنه يقتضي الإطلاق،
والقدرة قد يدخلها نوعٌ من التَّضْمِين بالمقدور عليه، قال الله سبحانه: ﴿عِنْدَ مَلِكٍ
مُّقْتَدِرٍ﴾؛ أي: قادرٍ على ما يشاء»^(٦).

وقال الحليمي: «(المقتدر) وهو المُظْهِرُ قدرته بفعلٍ ما يقدر عليه، وقد كان ذلك
من الله تعالى فيما أمضاه، وإنَّ كان يَقْدِرُ على أشياء كثيرة لم يفعلها، ولو شاء
لفعلها، فاستحقَّ بذلك أن يُسمى: مُقْتَدِرًا»^(٧).

* ومن آثار الإيمان بهذه الأسماء:

١ - اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير^(٨).

(١) «النونية» (٢/٢١٨).

(٢) «تيسير الكريم» (٥/٣٠١).

(٣) «جامع البيان» (٢٧/٦٧).

(٤) «تفسير الأسماء» (ص ٥٩).

(٥) «إلى هنا قاله البيهقي في «الاعتقاد» (ص ٦٣).

(٦) «شأن الدعاء» (ص ٨٦).

(٧) «المنهاج» (١/١٩٤) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات الابتداء والاختراع، ونقله البيهقي

(ص ٢٨).

(٨) حكى هذا الاتفاق شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٧/٨) وسيأتي ذكر

اختلافهم في تفسير «الشيء».

لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

فلا يمتنع عليه شيء - جلّ وعلا - ولا يفوته مطلوب، بل له القدرة الشاملة الكاملة وهذا من صفات ذاته سبحانه، ولم يزل سبحانه ذا قوة وقدرة، ولم تنزل قدرته موجودة قائمة به مُوجبةً له حكم القادرين.

ومعنى قدرة الله تعالى: قدرته على الفعل، والفعل نوعان: لازمٌ ومُتعدّ، فالأفعال اللازمة هي تقوم بالفاعل ولا تتعدى إلى مفعول، وقد ذُكر النوعان في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ كما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فقال: «فلاستواء والإتيان والمجيء والنزول ونحو ذلك أفعالٌ لازمة لا تتعدى إلى مفعول، بل هي قائمة بالفاعل، والخلق والرزق، والإماتة والإحياء، والإعطاء والمنع، والهدى والنصر والتنزيل ونحو ذلك، تتعدى إلى مفعول».

ثم بين اختلاف الناس في هذا فقال:

«والناس في هذين النوعين على ثلاثة أقوال:

فمنهم من لا يُثبت فعلاً قائماً بالفاعل، لا لازماً ولا متعدّاً، أما اللازم فهو عنده مُتَّصِفٌ، وأما المتعدي: كالخلق فيقول: الخلق هو المخلوق! أو معنى غير المخلوق! وهذا قول الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم كالأشعري ومتبعيه، وهذا أول قولي القاضي أبي يعلى وقول ابن عقيل.

والقول الثاني: أن الفعل المتعدي قائم بنفسه دون اللازم فيقولون: الخلق قائم بنفسه ليس هو المخلوق، وهم على قولين: منهم من جعل ذلك الفعل حادثاً، ومنهم من يجعله قديماً فيقول: التخليق والتكوين أزلي!

والقول الثالث: إثبات الفعلين: اللازم والمتعدي كما دلّ عليه القرآن، فنقول: إنه كما أخبر عن نفسه أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وهو قول السلف وأئمة السنة، وهو قول من يقول: إنه تقوم به الصفات الاختيارية - كأصحاب أبي معاذ وزهير البابي وداود بن علي والكرامية وغيرهم من الطوائف، وإن كانت الكرامية يقولون بأن النزول والإتيان أفعالٌ تقوم به - وهؤلاء يقولون: يقدر على أن يأتي بنفسه ويجيء وينزل ويستوي ونحو ذلك من الأفعال، كما أخبر عن نفسه وهذا هو الكمال.

وقد صرّح أئمة هذا القول بأنه يتحرك، كما ذكر ذلك حرب الكرمانى عن أهل السنّة والجماعة، وسَمَّى منهم: أحمد بن حنبل وسعيد بن منصور وإسحاق بن إبراهيم وغيرهم، وكذلك ذكره عثمان بن سعيد الدارمي عن أهل السنّة، وجعل نفى الحركة عن الله ﷻ من أقوال الجهمية التي أنكرها السلف، وقال: كل حيّ متحرك، وما لا يتحرك فليس بحي، وقال بعضهم: إذا قال لك الجهمي: أنا كافرٌ برب يتحرك، فقل: أنا مؤمن بربّ يفعل ما يشاء.

وهؤلاء يقولون: من جعل هذه الأفعال غير ممكنة ولا مقدورة له فقد جعله دون الجماد - وإن كان لا يتحرك بنفسه - فهو يقبل الحركة في الجملة، وهؤلاء يقولون: إنه تعالى لا يقبل ذلك بوجه، ولا تمكنه الحركة، والحركة والفعل صفة كمال، كالعلم والقدرة والإرادة، فالذين ينفون تلك الصفات سلبوه صفات الكمال، فكذا هؤلاء الكلائية.

ثم بيّن أن الله تعالى لو لم يكن حياً عليماً سميعاً بصيراً متكلماً قادراً للزم أن يكون ميتاً جاهلاً أصمّاً أعمى أخرساً عاجزاً، وهذه نقائص يجب تنزيهه عنها، فإنه سبحانه قد خلق من هو حي سميع بصير متكلم عالم قادر متحرك، فهو أولى بأن يكون كذلك، فإن كلّ كمال في المخلوق هو من كمال الخالق.

وقال: «وأيضاً فيقال لهم: رب العالمين إما أن يقبل الاتصاف بالحياة والعلم ونحو ذلك، وإما أن لا يقبل، فإن لم يقبل ذلك ولم يتصف به كان دون الأعمى الأصم الأبكم، وإن قبلها ولم يتصف بها كان ما يتصف بها أكمل منه، فجعلوه دون الإنسان والبهائم، وهكذا يقال لهم في أنواع الفعل القائم به: كالإتيان والمجيء والنزول وجنس الحركة، إما أن يقبل ذلك وإما أن لا يقبله، فإن لم يقبله، كانت الأجسام التي تقبل الحركة ولم تتحرك أكمل منه، وإن قبل ذلك ولم يفعله كان ما يتحرك أكمل منه، فإن الحركة كمالاً للمتحرك، ومعلوم أن من يمكنه أن يتحرك بنفسه أكمل ممن لا يمكنه التحرك، وما يقبل الحركة أكمل ممن لا يقبلها.

والنفاة عمدتهم أنه لو قبل الحركة لم يخل منها، ويلزم وجود حوادث لا تنهاى! ثم ادّعوا نفى ذلك! وفي نفيه نقائص لا تنهاى!.

والمثبتون لذلك يقولون: هذا هو الكمال، كما قال السلف: لم يزل الله متكلماً إذا شاء، كما قال ذلك ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما، وذكر البخاري عن نعيم بن حماد أنه قال: الحيّ هو الفعّال، وما ليس بفعّال فليس بحي^(١).

(١) انظره في: «خلق أفعال العباد» للبخاري مع اختلاف يسير (ص ١١٧) بتحقيق الشيخ بدر البدر.

وقد عُرف بطلان قول الجهمية وغيرهم بامتناع دوام الفعل والحوادث كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والمقصود ههنا: أنَّ هؤلاء لا يجعلونه قادراً على هذه الأفعال، وهي أصل الفعل، فلا يكون على كل شيء قدير - على قولهم - بل ولا على شيء، وقد قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]: قال ابن عباس - في رواية الوالبي عنه: هذه في الكفار، فأما من آمن أنَّ الله على كل شيء قدير - فقد قدر الله حقَّ قدره^(١).

وذكروا في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: ما عرفوه حق معرفته وما عظموه حق عظمتهم، وما وصفوه حق وصفه، وهذه الكلمة ذكرها الله في ثلاثة مواضع: في الرد على المعطلة، وعلى المشركين، وعلى من أنكر إنزال شيء على البشر، فقال في الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] وقال في الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ - إلى قوله تعالى -: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٧٣، ٧٤] وقال في الزمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٦٧].

وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود: «أن حَبْرًا من اليهود قال للنبي ﷺ: يا محمد! إنَّ الله يوم القيامة يجعلُ السَّمَوَاتِ على إصبع والأرض على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع ثم يَهْزُهُنَّ، ويقول: أنا الملك، قال: فضحك رسول الله ﷺ تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ الآية.

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يَقْبُضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يوم القيامة، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ ثم يقول: أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

وكذلك في الصحيحين من حديث ابن عمر: «يطوي الله السَّمَوَات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

وفي لفظ لمسلم قال: «يَأْخُذُ الْجَبَّارُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَمَوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدَيْهِ جَمِيعاً،

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٧٧/٧) عن معاوية بن صالح بن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس به. ولم يذكر رواية الوالبي، وهو علي بن ربيعة ثقة، وعزاه السيوطي في الدرر (٣/ ٣١٣) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

فجعل يقبضهما ويبسطهما، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار وأنا الملك أين الجبارون؟! وأين المتكبرون؟! ويميل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟.

وفي السنن عن عوف بن مالك الأشجعي قال: «قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعِظْمَةِ»، ثم يسجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده: مثل ذلك، ثم قام فقرأ: آل عمران: ثم قرأ سورة». رواه أبو داود والنسائي والترمذي في «الشمائل»^(١).

فقال في هذا الحديث: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»، وهذه الأربعة نُوزِعَ الربُّ فيها، كما قال: «أين الملوك؟! أين الجبارون؟! أين المتكبرون؟!»، وقال ﷺ: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منها عذَّبته»^(٢).

ونُفَاةُ الصفات ما قدروا الله حقَّ قدره، فإنه عندهم لا يمسك شيئاً، ولا يقبضه ولا يطويه، بل كل ممتنع عليه، ولا يقدر على شيء من ذلك، وهم أيضاً في الحقيقة يقولون: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء لوجهين:

أحدهما: إن الإنزال إنما يكون من علو، والله تعالى عندهم ليس في العلو فلم ينزل منه شيء، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١] إلى غير ذلك، وقولهم: إنه خلقه في مخلوق ونزل منه باطل؛ لأنه قال: ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾، ولم يجئ هذا في غير القرآن، والحديد ذكر أنه أنزله مطلقاً، ولم يقل منه، وهو مُنَزَّلٌ من الجبال، والمطر أنزل من السماء والمراد أنه أنزله من السحاب، وهو المزن كما ذكر ذلك في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ [الواقعة: ٦٩].

والثاني: أنه لو كان من مخلوق لكان صفة له وكلاماً له، فإن الصفة إذا قامت بمحلٍّ عاد حكمها على ذلك المحل، ولأن الله لا يتصف بالمخلوقات، ولو اتصف

(١) وسنده عندهم حسن، وقد سبق تخريجه (ص ٧٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/٤٩٠)، وابن ماجه (٢/٤١٧٤)، وغيرهما عن أبي هريرة، وسنده صحيح. وأخرجه مسلم (٤/٢٠٢٣) بنحوه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة.

بذلك لا تصف بأنه مصوت إذا خلق الأصوات ومتحرك إذا خلق الحركات في غيره، إلى غير ذلك». إلى أن قال: «فقد تبين أن الجهمية ما قدروا الله حق قدره، وأنهم داخلون في هذه الآية، وأنهم لم يثبتوا قدرته لا على فعل ولا على الكلام بمشيئته، ولا على نزوله، وعلى إنزاله منه شيئاً، فهم من أبعد الناس عن التصديق بقدره الله، وأنه على كل شيء قدير، وإذا لم يكن قديراً لم يكن قوياً، ويلزمهم أنه لم يخلق شيئاً، فيلزمهم الدخول في قوله: ﴿ضَعُفَ الطَّلَبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٧٣) مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

فهم ينفون حقيقة قدرته في الأزل، وحقيقة قولهم: إنه صار قادراً بعد أن لم يكن، والقدرة التي يثبتونها لا حقيقة لها.

وهذا أصل مهم، من تصوّره عرف حقيقة الأقوال الباطلة، وما يلزمها من اللوازم، وعرف الحق الذي دل عليه صحيح المنقول، وصريح المعقول، لا سيما في هذه الأصول التي هي أصول كل الأصول، والضالون فيها لما ضيعوا الأصول حرموا الوصول، وقد تبين أنه كلما تحققت الحقائق وأعطيت النظر والاستدلال حقه من التمام كان ما دل عليه القرآن هو الحق، وهو الموافق للمعقول الصريح الذي لم يشتبه بغيره مما يسمى معقولاً، وهو مشتبّه مختلط، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩] قال: وهم أهل البدع والشبهات، فهم في أمور مبتدعة في الشرع، مشتبّهة في العقل.

إلى أن قال: «والمقصود هنا التنبيه على تنازع الناس في مسألة «القدرة» وفي الحقيقة أنه من لم يقل بقول السلف فإنه لا يثبت لله قدرة، ولا يثبت قادراً، فالجهميّة - ومن تبعهم - والمعتزلة والقدرية والمجبرة والنافية حقيقة قولهم: إنه ليس قادراً وليس له الملك، فإن الملك إما أن يكون هو القدرة أو المقدور أو كلاهما، وعلى كل تقدير فلا بد من القدرة، فمن لم يثبت له القدرة حقيقة لم يثبت له ملكاً! كما لا يثبتون له حمداً!»^(١).

٢ - في وجود المخلوقات التي لا تُحصى، بتعدد أشكالها وابتنوع أصنافها، برهان ساطع وآية ظاهرة على كمال قدرة الله تعالى، وقد بسط الله سبحانه بيان ذلك في مواضع جمة من كتابه، قال شيخ الإسلام في تمة كلامه السابق: «والمقصود إنه سبحانه عدل لا يظلم، وعدله إحسانه إلى خلقه، فكل ما خلقه فهو إحساناً إلى عباده، ولهذا كان مستحقاً للحمد على كل حال، ولهذا لما ذكر في سورة النجم

(١) «مجموع الفتاوى» (١٨/٨ - ٣٠) مختصراً.

أنواعاً من مقدوراته^(١) ثم قال: ﴿فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكَ نَتَمَارَى﴾ [النجم] فدلَّ على أنَّ هذه الأنعم مثل إهلاك الأمم المكذَّبة للرسُل، فإن في ذلك من الدلائل على قدرته وحكمته، ونعمته على المؤمنين ونصره للرسُل، وتحقيق ما جاءوا به، وأن السعادة في متابعتهم والشقاوة في مخالفتهم ما هو من أعظم النعم.

وكذلك ما ذكره في سورة الرحمن، وكل مخلوق هو من آلائه من وجوه:

منها: أنه يستدل به عليه وعلى توحيدهِ وقدرته وغير ذلك، وأنه يحصل به الإيمان والعلم وذكر الرب، وهذه النعمة أفضل ما أنعم الله به على عباده في الدنيا، وكل مخلوق يعين عليها ويدلُّ عليها، هذا مع ما في المخلوقات من المنافع لعباده غير الاستدلال بها، فإنه سبحانه يقول: ﴿فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ﴾ [الرحمن] لما يذكر ما يذكره من الآية، وقال: ﴿فَيَا أَيُّهَا رَبِّكَ نَتَمَارَى﴾ [الآلاء: هي النعم، والنعم كلها من آياته الدالة على نفسه المقدسة، ووحدانيته ونعوته ومعاني أسمائه، فهي آلاء آياته، وكل ما كان من آلائه فهو من آياته، وهذا ظاهر، وكذلك كل ما كان من آياته فهو من آلائه، فإنه يتضمَّن التعريف والهداية، والدلالة على الرب تعالى، وقدرته وحكمته ورحمته ودينه، والهدى أفضل النعم.

وأيضاً: ففيها نِعَمٌ ومنافع لعباده غير الاستدلال، كما في خَلْقِ الشمس والقمر والسحاب والمطر والحيوان والنبات، فإنَّ هذه كلها من آياته، وفيها نِعَمٌ عظيمةٌ على عباده غير الاستدلال، فهي تُوجب الشكر لما فيها من النعم، وتوجب التذكر لما فيها من الدلائل، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال: ﴿بَصْرَةَ وَذِكْرَىٰ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّتَبِّحٍ﴾ [ق: ٨]، فإنَّ العبد يدعوه إلى عبادة الله داعي الشكر وداعي العلم، فإنه يشهد نِعَمَ الله عليه وذلك داعٍ إلى شكرها، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، والله تعالى هو المنعم المحسن الذي ما بالعباد من نعمةٍ فمته وحده.

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [٤٢] وَأَنَّ هُوَ أَصْحَكَ وَلَبَّكَ [٤٣] وَأَنَّ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا [٤٤] وَأَنَّ هُوَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ [٤٥] مِنْ تَطْفَعَةٍ إِذَا مَتَّى [٤٦] وَأَنَّ عَلَيْهِ الشَّأْنُ الْآخَرَىٰ [٤٧] وَأَنَّ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى [٤٨] وَأَنَّ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ [٤٩] وَأَنَّ هُوَ أَهْلَكَ عَادًا الْأَوَّلَىٰ [٥٠] وَتَعْمُدَا فَمَا بَقِيَ [٥١] وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَمَ [٥٢] وَالْمُؤَنَّفَكَ أَهْوَىٰ [٥٣] فَتَسْنَاهَا مَا عَشَىٰ [٥٤] فَيَا أَيُّهَا رَبِّكَ نَتَمَارَىٰ [٥٥] [النجم: ٤٢ - ٥٥]، وفيها من ذكر قدرته وفعله وتصرفه في الخلق والإيجاد، والبعث والمعاد، وإهلاك الأمم والإيعاد، لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، بأنه الله الواحد القادر على كل شيء.

وقد ذمَّ سبحانه من كفر بعد إيمانه كما قال: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ الآية [الأنعام: ٦٣]، فهذه في كشف الضر، وفي النعم قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]؛ أي: شكركم وشكر ما رزقكم الله ونصيبكم، تجعلونه تكدياً وهو الاستسقاء بالأنواء^(١).

٣ - اختلف الناس في تفسير ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] مع تصديقهم بخبره سبحانه، فقالت طائفة: إن هذا عامٌ يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين! قاله طائفة منهم ابن حزم.

وطائفة تقول: هذا عامٌ مخصوص يخص منه الممتنع لذاته، فإنه وإن كان شيئاً فإنه لا يدخل في المقدور، كما ذكر ذلك ابن عطية وغيره!.

وقد حكى القولين ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ثم قال: «والصواب وهو القول الثالث الذي عليه عامة النظار، وهو: أن «الممتنع لذاته» ليس شيئاً ألبتة، وإن كانوا متنازعين في المعدوم، فإن الممتنع لذاته لا يمكن تحققه في الخارج، ولا يتصوره الذهن ثابتاً في الخارج، ولكن يقدر اجتماعهما في الذهن، ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنع في الخارج، إذ كان يمتنع تحققه في الأعيان، وتصوره في الأذهان، إلا على وجه التمثيل بأن يقال: قد تجتمع الحركة والسكون في الشيء، فهل يمكن في الخارج أن يجتمع السواد والبياض في محل واحد، كما تجتمع الحركة والسكون، فيقال: هذا غير ممكن، فيقدر اجتماع نظير الممكن ثم يحكم بامتناعه، وأما نفس اجتماع البياض والسواد في محل واحد فلا يمكن ولا يعقل، فليس بشيء لا في الأعيان ولا في الأذهان، فلم يدخل في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].»

ثم قال: «المسألة الثانية: إن المعدوم ليس بشيء في الخارج عند الجمهور، وهو الصواب.

وقد يطلقون إن الشيء هو الموجود، فيقال على هذا: فيلزم أن لا يكون قادراً إلا على موجود، وما لم يخلقه لا يكون قادراً عليه، وهذا قول بعض أهل البدع، قالوا: لا يكون قادراً إلا على ما أراده دون ما لم يردده، ويحكمى هذا عن تلميذ النظام.

إلى أن قال: «والتحقيق أن الشيء اسمٌ لما يوجد في الأعيان ولما يتصور في الأذهان، فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شيء، في التقدير والعلم والكتاب، وإن لم يكن شيئاً في الخارج، ومنه قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/٣١، ٣٢).

فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ [يس: ٨٢]، ولفظ الشيء في الآية يتناول هذا وهذا، فهو على كل شيء - ما وجد وكل ما تصوره الذهن موجوداً، إن تصور أن يكون موجوداً - قدير، لا يستثنى من ذلك شيء، ولا يزداد عليه شيء، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَن تُسْوَىٰ بَنَانِهِ﴾ [القيامة: ٤٤]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقد ثبت في الصحيحين: أنها لما نزلت قال النبي ﷺ: «أعوذ بوجهك»، فلما نزلت: ﴿أَوْ يَلْسَكُمُ شَيْعًا﴾ الآية [الأنعام: ٦٥]، قال: «هاتان أهون». فهو قادرٌ على الأولتين وإن لم يفعلهما، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

قال المفسرون: لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشاً، وتهلك مواشيكم، وتخرب أراضيك، ومعلوم أنه لم يذهب به، وهذا كقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي شَرِبْتُمْ﴾ [الحج: ٣٨] إلى قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٨٢]، وهذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله، فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاجاً وهو لم يفعله.

ومثل هذا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣] فإنه أخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء وهو لم يفعلها، فلو لم يكن قادراً عليها لكان إذا شاءها لم يمكنه فعلها.

(المسألة الثالثة): إنه على كل شيء قدير، فيدخل في ذلك أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأكثر المعتزلة يقولون: إن أفعال العبد غير مقدورة.

(المسألة الرابعة): إنه يدخل في ذلك أفعال نفسه، وقد نطقت النصوص بهذا، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]، ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠]، ﴿بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَن تُسْوَىٰ بَنَانِهِ﴾ [القيامة: ٤]، ونظائره كثيرة.

والقدرة على الأعيان جاءت في مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ [ق: ١٦]، ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥]، وجاءت منصوباً عليها في الكتاب والسنة، أما الكتاب فقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ [الزخرف: ٤١] فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم، وهذا نص في قدرته على الأعيان المفعولة، وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿وَلَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] ونحو ذلك، وهو

يدل بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر، وذلك يستلزم قدرته عليهم، وقوله: ﴿فَلَقَنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] - على قول الحسن وغيره من السلف ممن جعله من القدرة - دليل على أن الله قادر عليه وعلى أمثاله.

وكذلك قول الموصي لأهله: «لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين. فلما حرّقه أعاده الله تعالى وقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خَشِيتُكَ يَا رَبِّ! فغفر له»^(١)، وهو كان مُخطئاً في قوله: «لئن قدر الله عليّ ليعذبني» كما يدل عليه الحديث، وأن الله قدّر عليه لكن لخشيته وإيمانه غفر الله له هذا الجهل والخطأ الذي وقع منه.

وقد يستدل بقوله: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَنِعَمَ الْقَدِيرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٣] على قول من جعله من القدرة، فإنه يتناول القدرة على المخلوقين وإن كان سبحانه قادراً أيضاً على خلقه، فالقدرة على خلقه قدرة عليه، والقدرة عليه قدرة على خلقه، وجاء أيضاً الحديث منصوصاً في مثل قول النبي ﷺ لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده: «الله أقدر عليك منك على هذا»^(٢). فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد، وأنه أقدر عليه منه على عبده، وفيه إثبات قدرة العبد.

ثم ذكر اختلاف الناس في قدرة الرب والعبد فقال:

«وقد تنازع الناس في «قدرة الرب والعبد»، فقالت طائفة: كلا النوعين يتناول الفعل القائم بالفاعل، ويتناول مقدوره وهذا أصح الأقوال، وبه نطق الكتاب والسنة، وهو: أن كل نوع من القدرتين يتناول الفعل القائم ويتناول مقدوره وهذا أصح الأقوال، وبه نطق الكتاب والسنة، وهو: أن كل نوع من القدرتين يتناول الفعل القائم بالقادر ومقدوره المبين له، وقد تبين بعض ما دل على ذلك في قدرة الرب.

وأما قدرة العبد: فذكر قدرته على الأفعال القائمة به كثيرة، وهذا متفق عليه بين الناس الذين يثبتون للعبد قدرة، مثل قوله: ﴿فَأَنفِقُوا اللَّهَ مَا أَسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَحَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٤٢].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء (٤٩٤/٦) وفي الرقاق، باب الخوف من الله (٣١٢/١١)، (٣١٣)، والنسائي في الجنائز (١١٣/٤) عن ربعي بن حراش عن حذيفة به. ورواه البخاري (٥١٤/٦، ٥١٥) وفي التوحيد (٤٦٦/١٣)، والنسائي (١١٣/٤) عن أبي هريرة به.

ورواه البخاري (٥١٤/٦، ٤٦٦/١٣، ٤٦٧) عن أبي سعيد الخدري به.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١٢٨٠/٣، ١٢٨١)، وأحمد (١٢٠/٤).

وقول النبي ﷺ: «صَلِّ قائماً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِداً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلِي جَنْبِكَ»^(١).

وأما المباین لمحل القدرة، فمثل قوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ إلى ﴿قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢٠-٢١]، فدل على أنهم قدروا على الأول، وهذه يمكن أن يقدروا عليها وقتاً آخر، وهذه قدرة على الأعيان وقوله: ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرِّ قَدِيرِينَ﴾^(٢٥) إلى قوله: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا حَيْثُ مَنَّا﴾ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ [القلم: ٢٥-٣٢]. وأيضاً فالقرآن دل على أن المفعولات الخارجة مصنوعة لهم، وما كان مصنوعاً لهم فهو مقدور بالضرورة والاتفاق، والمنازع يقول: ليس شيء خارجاً عن محل قدرتهم مصنوعاً لهم، وهذا خلاف القرآن، قال تعالى لنوح: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ [هود: ٣٧]، وقال: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ﴾ [هود: ٣٨]، وقد أخبر أن الفلك مخلوقة مع كونها مصنوعة لبني آدم وجعلها من آياته، فقال: ﴿وَأَيُّهَا لَهْمَ إِنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكَ الْمَسْحُونِ﴾^(٤١) [يس: ٤١]، ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٦٥]^(٢)، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]، وقال: ﴿قَالَ اتَّبِعُونِ مَا نُنْجِيكُمْ﴾^(٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ^(٩٦) [الصافات: ٩٥، ٩٦].

فجعل الأصنام منحوتة مَعْمُولَةٌ لهم، وأخبر أنه خالقهم، وخالق معمولهم، فإن «ما» ههنا: بمعنى: الذي، والمراد خلق ما تعملونه من الأصنام، وإذا كان خالقاً للمعمول وفيه أثر الفعل، دل على أنه خالق لأفعال العباد. وأما قول من قال: إن «ما» مصدرية فضعيف جداً.

وقيل: بل الرب تعالى لا يقدر إلا على المخلوق المنفصل لا يقوم به فعل يقدر عليه، والعبد لا يقدر إلا على ما يقوم بذاته، لا يقدر على شيء منفصل عنه، وهذا قول الأشعري ومن وافقه من أتباع الأئمة: كالقاضي أبي يعلى وابن عقيل وابن الزاغوني، وغيرهم.

وقيل: إن العبد يقدر على هذا وهذا، والرب لا يقدر إلا على المنفصل وهو قول المعتزلة، وقيل: إن كليهما يقدر على ما يقوم به دون المنفصل، وما علمت أحداً قال: كلاهما يقدر على المنفصل دون المتصل^(٣).

(١) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (٥٨٧/٢) من حديث عمران بن حصين.

(٢) في مطبوعة «الفتاوى»: «وسخر لكم ما في الأرض والفلك..» وهو خطأ، فالآية أولها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ...﴾.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٧/٨ - ١٨).

الأول

جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤه

(٧٥)

* المعنى اللغوي:

الأولُ نقيضُ الآخر، وأصله: أوَّلُ على أفعل مهموز الأوسط، قُلبت الهمزة واواً وأُدغم، يدلُّ على ذلك قولهم: هذا أوَّلُ منك.

والجمع: الأوَال والأوالي، أيضاً على القلب.

وقال قوم: ووَل على فَوَعَل، فقُلبت الواو الأولى همزة^(١)، وإنما لم يجمع على أواول لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف. وتقول: هذا أوَّلُ بينِ الأوَّلِيَّة. قال ذو الرُّمَّة:

وما فخرٌ من ليست له أوَّلِيَّةٌ تُعَدُّ إذا عُدَّ القديمُ ولا ذِكْرُ
يعني: مفاخر آبائه^(٢).

وقال الراغب: «الأول هو الذي يترتب عليه غيره، ويستعمل على أوجه:

أحدها: المُتقدِّم بالزمان، كقولك: عبد الملك أولاً ثم منصور.

الثاني: المتقدم بالرياسة في الشيء وكونِ غيره مُحْتَذِياً به، نحو: الأمير أولاً ثم الوزير.

الثالث: المتقدم بالوضع والنسبة، كقولك للخارج من العراق: القادسيةُ أولاً ثم فيدُ، وتقول للخارج من مكة: فيدُ أولاً ثم القادسية.

الرابع: المتقدم بالنظام الصنّاعي، نحو أن يقال: الأساسُ أولاً ثم البناء^(٣).

(١) ردَّ هذا القول الزجاجي في «اشتقاق الأسماء» (ص ٢٠٤) فقال: وزن «أول»: أفعل وفاؤه وعينه واوان، والدليل على أنه أفعل - وليس بفعل كما ذهب إليه بعض النحويين - اتصال «من» به، ولا تتصل إلا بأفعل، فيقال: أنا أول من فلان. اهـ. وهناك رأي ثالث فقد قال الخليل: تأسيسه من همزة وواو ولام فيكون فَعَل، حكاه الراغب «المفردات» (ص ٣١) وقال: هو الأفصح.

(٢) «الصحاح» (١٨٣٨/٥، ١٨٣٩).

(٣) «المفردات» (ص ٣١، ٣٢)، وفيه: بُليدةٌ في نصف طريق مكة من الكوفة. «معجم البلدان» (٢٨٢/٤).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال الفراء: «قوله ﴿هُوَ﴾: يريد قبل كل شيء، و(الآخر): بعد كل شيء»^(١).

وقال ابن جرير: «هو (الأول) قبل كل شيء بغير حد، و(الآخر) بعد كل شيء بغير نهاية، وإنما قيل ذلك كذلك؛ لأنه كان ولا شيء موجوداً سواه، وهو كائن بعد فناء الأشياء كلها، كما قال جل ثناؤه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾»^(٢).

وقال الزجاج: «(الأول) هو موضوع التقدم والسبق. ومعنى وَضَعْنَا الله تعالى بأنه أوَّل: هو متقدم للحوادث بأوقات لا نهاية لها، فالأشياء كلها وُجِدَتْ بعده، وقد سبقها كلها، وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»»^(٣).

وقال الخطابي: «(الأول) هو السابق للأشياء كلها، الكائن الذي لم يزل قبل وجود الخلق، فاستحقَّ الأوليّة إذ كان موجوداً ولا شيء قبله ولا معه». ثم ذكر الحديث^(٤).
وقال الحليمي: «(الأول): الذي لا قَبْلَ له، والآخر هو الذي لا بَعْدَ له، [وهذا لأن] «قبل وبعد» نهايتان، فقبل نهاية الموجود من قَبْلُ ابتداءه، وبعد غايته من قَبْلُ انتهائه، فإذا لم يكن له ابتداء ولا انتهاء لم يكن للموجود قبل ولا بعد، فكان هو الأول والآخر»^(٥).

وقال البيهقي: «(الأول) هو الذي لا ابتداء لوجوده»^(٦).

وقال ابن القيم:

هو أول هو آخر هو ظاهر هو باطن هي أربع بوزان
ما قبله شيء كذا ما بعده شيء تعالى الله ذو السلطان

(١) «معاني القرآن» (٣/١٣٢).

(٢) «جامع البيان» (٢٧/١٢٤).

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٥٩، ٦٠).

(٤) «شأن الدعاء» (ص ٨٧).

(٥) «المنهاج» (١/١٨٨) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباري جل ثناؤه والاعتراف بوجوده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ١١).

(٦) «الاعتقاد» (ص ٦٣).

ما فوقه شيءٌ كَذَا ما دونه
فانظر إلى تفسيره بتدبرٍ
شيءٌ وذا تفسيرُ ذي البرهانِ
وتبصرٍ وتعقلٍ لمعان
وانظر إلى ما فيه من أنواعٍ مع
رفعةٍ لخالقنا العظيم الشأن^(١)

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - بادئ ذي بدء نقول: إن خير ما يُفسر به هذا الاسم والأسماء الثلاثة التي تليه: هو تفسير الرسول ﷺ - أعلم الخلق بالله تعالى - وذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول: «اللهم ربَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»^(٢).

فالله تعالى هو الأول الذي ليس قبله شيء من الموجودات، فهو المتقدم على كل شيء، ولم يكن معه شيء، كما جاء ذلك في حديث عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكُتِبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، وَخُلِقَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»^(٣).

قال الطحاوي في عقيدته: «قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء».

وشرحه ابن أبي العز بقوله: «فقول الشيخ: قديم^(٤) بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء هو معنى اسمه الأول والآخر، والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقرٌّ في الفطر، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته، قطعاً للتسلسل، فإننا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن، وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة فإن الممتنع لا يوجد، ولا واجبة الوجود بنفسها، فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم، وهذه كانت معدومة ثم وجدت،

(١) «النونية» (٢/٢١٣).

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر (٤/٢٠٨٤).

(٣) أخرجه أحمد (٤/٤٣١)، والبخاري في بدء الخلق (٦/٢٨٦)، وفي «التوحيد» (٣/٤٠٣). وانظر: «التعليق على كتاب العرش» رقم (١).

(٤) سيأتي الكلام عن هذه التسمية.

فعدمها ينفي وجوبها، ووجودها ينفي امتناعها، وما كان قابلاً للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] يقول سبحانه: أحدثوا من غير مُحدث أم هم أحدثوا أنفسهم؟! ومعلوم أن الشيء المحدث لا يُوجد نفسه، فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجوداً بنفسه، بل إن حصل ما يوجد له وإلا كان معدوماً، وكل ما أمكن وجوده بدلاً عن عدمه وعدمه بدلاً عن وجوده، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم له^(١).

٢ - جرى على ألسنة كثير من المتكلمين - وأهل السنّة أحياناً - تسمية الرب تعالى بـ (القديم)، وليس من أسماء الله الحسنى والتزام تسميته بـ (الأول) هو الموافق للكتاب والسنّة واللغة، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو: المتقدم على غيره، فيقال: هذا قديم، للعتيق وهذا حديث، للجديد، ولم يستعملوا هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره، لا فيما لم يسبقه عدم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، والعُرْجُونُ القديم: الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني، فإذا وجد الجديد قيل للأول: قديم، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسْكُونُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]؛ أي: متقدم في الزمان. ولذا فقد أنكر كثير من السلف والخلف. منهم ابن حزم تسمية الرب تعالى بذلك^(٢).

والصواب أن يستعاض عن هذا الاسم بالتسمية الواردة وهي (الأول)، واتباع ما جاءت به النصوص أولى من اتباع ألفاظ أهل الكلام. أضف إلى ذلك أن التقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها، فلا يكون من الأسماء الحسنى. أما من أطلقه من أهل السنّة فلعله أطلقه من باب الإخبار عنه تعالى، وباب الإخبار عنه أوسع مما يدخل في باب الأسماء الحسنى والصفات كالشيء والموجود والقائم بنفسه ونحوها، كما ذكر ذلك ابن القيم رحمته الله وغيره^(٣).

(١) «شرح العقيدة الطحاوية (ص ١١٣).

(٢) انظر: المصدر السابق (ص ١١٤، ١١٥).

(٣) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ١٦١)، و«مختصر العقيدة الطحاوية» (ص ١٩) بتعليق الشيخ الألباني رحمه الله تعالى.

الْآخِرُ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

(٧٦)

* المعنى اللغوي:

الْآخِرُ خلاف الأول.

تقول: جاء آخرًا؛ أي: أخيرًا، وتقديره فاعل، والأثنى: آخِرَة، والجمع: أواخر. والآخر بالفتح: أحد الشيئين، وهو اسم على أفعال والأثنى أخرى^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد مرة واحدة في قوله ﷻ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

تقدم قول الفراء وابن جرير في الكلام على (الأول).

وقال الزجاج: «(الآخر) هو المتأخر عن الأشياء كلها، ويبقى بعدها»^(٢).

وقال الخطابي: «(الآخر): هو الباقي بعد فناء الخلق وليس معنى الآخر: ما له الانتهاء، كما ليس معنى الأول: ما له الابتداء، فهو الأول والآخر وليس لكونه أول ولا آخر»^(٣).

وقال البيهقي: «(الآخر) وهو الذي لا انتهاء لوجوده»^(٤).



(١) «الصحاح» (٥٧٦/٢)، و«اللسان» (٣٨/١) مادة (آخر).

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٦٠).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٨٨).

(٤) «الاعتقاد» (ص ٦٣).

الظَّاهِر

جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

(٧٧)

* المعنى اللغوي :

الظَّهْرُ خِلافُ البطن، والظاهر خلاف الباطن، ظَهَرَ يَظْهَرُ ظُهُوراً، فهو ظاهرٌ وظهيرٌ.

والظَّهير: المعين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤] وبعيرٌ ظَهِيرٌ بَيْنَ الظَّهارة: إذا كان شديداً قوياً.

وظَهَرْتُ البيتَ: علوته، وظهرتُ على الرجل: غلبته، وأظهرتُ بفلان: أعليتُ به. والظَّهر من الأرض: ما غَلُظَ وارتفع، والبطن ما لَانَ منها وسهل ورقَّ واطمأن. وظَهَرَ الشيءُ ظُهُوراً: تبين، وأظهرت الشيءَ بَيِّنَةً^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد مرةً واحدة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال الفراء: «(الظاهر) على كل شيء علماً، وكذلك (الباطن) على كل شيء علماً»^(٢).

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ يقول: وهو الظاهر على كل شيء دونه، وهو العالي فوق كل شيء فلا شيء أعلى منه»^(٣).

وقال الزجاج: «(الظاهر) هو الذي ظَهَرَ للعقول بحُججه، وبراهين وجوده، وأدلة وحدانيته.

(١) «الصحاح» (٧٣٠/٢ - ٧٣٢)، و«اللسان» (٢٧٦٤/٤ - ٢٧٧٠) مادة (ظهر).

(٢) «معاني القرآن» (١٣٢/٣).

(٣) «جامع البيان» (١٢٤/٢٧)، واختاره النَّحَّاس في كتابه «إعراب القرآن» (٣٥٠/٤).

هذا إذا أخذته من الظهور.

وإن أخذته من قول العرب: ظَهَرَ فلانٌ فوق السطح: إذا علا، ومنه قول الشاعر:

وتلك شَكَاةٌ ظاهرٌ عنك عَارُها

فهو من العُلُوِّ، والله تعالى عالٍ على كل شيء، وليس المراد بالعلو ارتفاع المحل؛ لأن الله تعالى يُجل عن المحل والمكان!!
وإنما العُلُوُّ علوُّ الشأن، وارتفاع السلطان»^(١).

وقال الزجاجي: «(الباطن) اسم الفاعل من بطن، وهو باطن إذا كان غير ظاهر، و(الظاهر): خلاف الباطن، فالله ظاهر باطن، هو باطن؛ لأنه غير مُشاهد كما تشاهد الأشياء المخلوقة، عزَّ عن ذلك وعلا، وهو ظاهر بالدلائل الدالة عليه وأفعاله المؤدية إلى العلم به ومعرفته، فهو ظاهر مدرك بالعقول والدلائل، وباطن غير مشاهد كسائر الأشياء المشاهدة في الدنيا عزَّ وجل عن ذلك وتعالى علواً كبيراً.

ويجوز في اللغة أن يكون (الباطن): العالم بما بطن؛ أي: خفي، كقولك: بَطَنَ بفلان؛ أي: خَصَّ به فَعَرَفَ باطن أمره، وهؤلاء بِطَانَةُ فلان؛ أي: خاصته.

ويجوز أيضاً أن يكون (الظاهر): القوي، كقولك: ظهر فلان بأمره فهو ظاهر عليه؛ أي: قويٌّ عليه، وَجَمَلٌ ظهير؛ أي: قوي شديد، قال الأصمعي: يقال: ظاهر فلانٌ فلاناً على فلان، إذا مَالَأَهُ عليه، ويقال: اتخذ معك بعيراً أو بغيرين ظَهرين؛ أي: عدةً، والجمع ظهاريٌّ كما ترى»^(٢).

وقال الخطابي: «هو (الظاهر) بحججه الباهرة، وبراهينه النيرة، وبشواهد أعلامه الدالة على ثبوت ربوبيته، وصحة وحدانيته.

ويكون الظاهر فوق كل شيءٍ بقدرته.

ويكون الظُّهور بمعنى: العلو.

ويكون بمعنى: الغَلَبَة»^(٣).

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٦٠).

وقوله: «وليس المراد بالعلو ارتفاع المحل.. إلخ» كلامٌ مردود!! فقد تقدم أن الله تعالى له العلو المطلق من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر. انظر تفصيل ذلك في الكلام على أسمائه: (العلي - الأعلى - المتعال) (ص ٢٢٥، ٢٢٦) من كتابنا هذا.

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٣٧).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٨٨)، ونقله البيهقي في «الاعتقاد» (ص ٦٣)، وقال (ص ٦٤): إنه من صفات الذات.

وقال الحليمي: «(الظاهر) ومعناه: البادي بأفعاله، وهو جلّ ثناؤه بهذه الصفة، فلا يمكن معها أن يُجحد وجوده ويُنكر ثبوته»^(١).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إن الله تعالى هو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، فهو العلي الأعلى، وهذا «غاية الكمال في العلو أن لا يكون فوق العالي شيء موجود، والله موصوف بذلك»^(٢).

وجهة العلو هي أشرف الجهات، كما هو مستقر في النفوس، وقد قرّر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله علو الرب سبحانه بالأدلة العقلية وذلك من طرق فقال: «أحدها: أن يُقال: إذا ثبت بالعقل أنه مُباين للمخلوقات وثبت أن العالم كُري، وأن العلو المطلق فوق الكرة، لزم أن يكون في العلو بالضرورة.

وهذه مقدمات عقلية ليس فيها خطائي، وذلك لأن العالم إذا كان مستديراً فله جهتان حقيقتان: العلو والسفل فقط، وإذا كان مبايناً للعالم امتنع أن يكون في السفل داخلياً فيه، فوجب أن يكون في العلو مبايناً له، وقد تقدم أن النافي قال: «إن العالم كرة» واستدل على ذلك بالكسوف القمري إذا كان يتقدم في الناحية الشرقية على الغربية.

والقول بأن الفلك مستدير هو قول جماهير علماء المسلمين، والنقل بذلك ثابت عن الصحابة والتابعين، بل قد ذكر أبو الحسين ابن المنادي، وأبو محمد بن حزم، وابن الجوزي، وغيرهم: أنه ليس في ذلك خلاف بين الصحابة والتابعين وغيرهم من علماء المسلمين، وقد نازع في ذلك طوائف من أهل الكلام والرأي، من الجهمية والمعتزلة وغيرهم.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وإذا كان الخصم قد استدلل بذلك، كان ذلك حجة عليه، فإذا كان العالم كُرياً - وقد ثبت بالضرورة أنه: إما مداخل له، وإما مباين له وليس بمداخل له - وجب أن

(١) «المنهاج» (١/١٨٥) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباري جلّ ثناؤه والاعتراف بوجوده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ١٣).

(٢) قاله شيخ الإسلام في «درء التعارض» (١١/٧).

يكون مبيناً له، وإذا كان مبيناً له، وجب أن يكون فوقه، إذ لا فوق إلا المحيط وما كان وراءه.

الطريق الثاني: أن يقال: علو الخالق على المخلوق وأنه فوق العالم، أمرٌ مستقر في فطر العباد، معلومٌ لهم بالضرورة، كما اتفق عليه جميع الأمم، إقراراً بذلك وتصديقاً، من غير أن يتواطأوا على ذلك ويتشاعروا، وهم يُخبرون عن أنفسهم أنهم يجدون التصديق بذلك في فطرهم.

الطريق الثالث: أن يُقال: هم عندما يضطرون إلى قصد الله وإرادته مثل قصده عند الدعاء والمسألة، يضطرون إلى توجه قلوبهم إلى العلو، فكما أنهم مضطرون إلى دعائه وسؤاله، هم مضطرون إلى أن يوجِّهوا قلوبهم إلى العلو إليه، لا يجدون في قلوبهم توجهاً إلى جهة أخرى، ولا استواء الجهات كلها عندها وخلو القلوب عن قصد جهة من الجهات، بل يجدون قلوبهم مضطرة إلى أن تقصد جهة علوهم دون غيرها من الجهات.

وهذا الوجه يتضمن بيان اضطرارهم إلى قصده في العلو، وتوجههم عند دعائه إلى العلو، والأول يتضمن فطرتهم على الإقرار بأنه في العلو والتصديق بذلك، فهذا فطرة واضطرار إلى العلم والتصديق والإقرار، وذاك اضطرار إلى القصد والإرادة والعمل المتضمن للعلم والتصديق والإقرار.

الطريق الرابع: أن يقال: قوله: «جهة فوق أشرف الجهات، خطابي» ليس كذلك، وذلك لأنه قد ثبت بصريح المعقول أن الأمرين المتقابلين إذا كان أحدهما صفة كمال والآخر صفة نقص، فإن الله يوصف بالكمال منهما دون النقص، فلما تقابل الموت والحياة وُصف بالحياة دون الموت، ولما تقابل العلم والجهل وُصف بالعلم دون الجهل، ولما تقابل القدرة والعجز وُصف بالقدرة دون العجز، ولما تقابل الكلام والبكم وُصف بالكلام دون البكم، ولما تقابل السمع والبصر والصمم والعمى وُصف بالسمع والبصر والصمم والعمى، ولما تقابل الغنى والفقر وُصف بالغنى دون الفقر، ولما تقابل الوجود والعدم وُصف بالوجود دون العدم، ولما تقابل المباشرة للعالم والمداخلة له وُصف بالمباشرة دون المداخلة، وإذا كان مع المباشرة لا يخلو إما أن يكون عالياً على العالم أو مسامتاً له، وجب أن يوصف بالعلو دون المسامطة، فضلاً عن السفول.

والمنازع يسلم أنه موصوف بعلو المكانة وعلو القهر، وعلو المكانة معناه: أنه أكمل من العالم، وعلو القهر مضمونه أنه قادر على العالم، فإذا كان مبيناً للعالم،

كان من تمام علوه أن يكون فوق العالم، لا محاذياً له، ولا سافلاً عنه، ولما كان العلو صفة كمال، كان ذلك من لوازم ذاته، فلا يكون مع وجود غيره إلا عالياً عليه، لا يكون قط غير عالٍ عليه.

كما ثبت في الصحيح، الذي في صحيح مسلم وغيره، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء».

ثم بين رحمه الله تعالى مع ثبوت نزوله إلى السماء الدنيا كما في الحديث الصحيح فهو (الظاهر) فلا يعلوه شيء من مخلوقاته أبداً، فقال: «ولهذا كان مذهب السلف والأئمة أنه مع نزوله إلى سماء الدنيا لا يزال فوق العرش، لا يكون تحت المخلوقات، ولا تكون المخلوقات محيطة به قط بل هو العليّ الأعلى: العليّ في دنوه، القريب في علوه.

ولهذا ذكر غير واحد إجماع السلف على أن الله ليس في جوف السموات، ولكن طائفة من الناس قد يقولون: إنه في جوف السماء، وإنه قد تحيط به المخلوقات وتكون أكبر منه!

وهؤلاء ضلال جهال، مخالفون لصريح المعقول وصحيح المنقول، كما أن النفاة الذين يقولون: ليس داخل العالم ولا خارجه جهال ضلال، مخالفون لصريح المعقول وصحيح المنقول: فالحلولية والمعطلة متقابلان^(١).

الطريق الخامس: أن يقال: إذا كان مبيناً للعالم: فإما أن يُقدَّر محيطاً به، أو لا يُقدَّر محيطاً به، سواء قُدِّر أنه محيط به دائماً، أو محيط به بعض الأوقات، كما يقبض يوم القيامة الأرض ويطوي السموات، فإن قُدِّر محيطاً به كان عالياً عليه علو المحيط على المحاط به.

وقد تقدم قولهم: «إن الفلك كروي» فيلزم أن تكون الأفلاك محيطة بالأرض، وهي فوقها باتفاق العلماء، فما كان محيطاً بالجميع أولى بالعلو والارتفاع، وإن لم يكن مماثلاً لشيء من المخلوقات، ولا مجانساً للأفلاك ولا غيرها.

وإن لم يُقدَّر محيطاً به، فإن كان العالم كرياً، وليس لبعض جهاته اختصاص بالعلو، فإذا كان مبيناً له لزم أن يكون عالياً، كيفما كان الأمر.

وإن قُدِّر أن العالم ليس بكروي أو هو كروي ولكن بعض جهاته لها اختصاص بالعلو، مثل أن نقول: إن الله وضع الأرض وبسطها للأنام، فالجهة التي تلي رؤوس

(١) وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان.

الناس هي جهة العلو من العالم دون الأخرى. فحينئذ إذا كان مبايناً، وقُدِّر أنه غير محيط، فلا بد من اختصاصه بجهة العلو أو غيرها.

ومن المعلوم أن جهة العلو أحق بالاختصاص؛ لأن الجهة العالية أشرف بالذات من السافلة، ولهذا اتفق العلماء على أن جهة السموات أشرف من جهة الأرض، وجهة الرأس أشرف من جهة الرجل، فوجب اختصاصه بخير النوعين وأفضلهما، إذ اختصاصه بالناقص المرجوح ممتنع^(١).

٢ - وردَّ بعد ذلك على شبهة تُثار في مثل هذا الموضع من أهل التعطيل فقال: «وأما قول النافي: «ولأن العالم كرة، فلا فوق إلا تحت بالنسبة».

فيقال له: هذا خطأ، لما تقدم من أن المحيط باتفاق العقلاء عالٍ على المركز، وأن العقلاء متفقون على أن الشمس والقمر والكواكب، إذا كانت في السماء، فلا تكون إلا فوق الأرض، وكذلك السحاب والطير في الهواء.

وأيضاً فإن هذا التحت أمر خيالي وهمي لا حقيقة له، وليس فيه نقص، كالمعلَّق برجليه لا تكون السماء تحته إلا في الوهم الفاسد، والخيال الباطل، وكذلك النملة الماشية تحت السقف. فالشمس والقمر والنجوم السابحة في أفلاكها، لا تكون بالليل تحتنا إلا في الوهم والخيال الفاسد^(٢).

٣ - ولزيادة البيان في مسألة نزول الرب تبارك وتعالى وأن ذلك لا ينافي اسمه (الظاهر) لا أجد أحسن مما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك، إذ يقول: «والأحسن في هذا الباب (أي الأسماء والصفات) مراعاة ألفاظ النصوص فَيُثَبِّتُ ما أثبت الله ورسوله باللفظ الذي أثبتته، وَيُنْفَى ما نفاه الله ورسوله كما نفاه، وهو أن يُثَبِّت التَّزُول، والإتيان، والمجيء، وينفَى المثل، والسَّمي والكفو، والند.

وبهذا يحتج البخاري وغيره على نفي المثل، يقال: ينزل نزولاً ليس كمثله شيء، نَزَلَ نزولاً لا يُمَاثل نزول المخلوقين - نزولاً يَخْتَصُّ به، كما أنه في ذلك وفي سائر ما وَصَفَ به نفسه ليس كمثله شيء في ذلك، وهو مُنْزَءٌ أن يكون نزوله كنزول المخلوقين، وحركتهم وانتقالهم، وزوالهم مطلقاً - لا نزول الآدميين ولا غيرهم.

فالمخلوق إذا نَزَلَ من علو إلى سفلى زال وصفه بالعلو، وتبدل إلى وصفه بالسُّفُول، وصار غيره أعلى منه.

والربُّ تعالى لا يكون شيءٌ أعلى منه قط، بل هو العليُّ الأعلى، ولا يزال هو

(١) «درء التعارض» (٣/٧ - ٨) مختصراً. (٢) «درء التعارض» (٣/٧ - ٩).

العلي الأعلى مع أنه يقرب إلى عباده ويدنو منهم، وينزل إلى حيث شاء، ويأتي كما شاء، وهو في ذلك العلي الأعلى، الكبير المتعالي، عليّ في دُنُوهِ قَرِيبٌ في عُلُوهِ. فهذا وإن لم يتصف به غيره فلعجز المخلوق أن يجمع بين هذا وهذا، كما يعجز أن يكون هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

ولهذا قيل لأبي سعيد الخراز: بم عرفْتَ الله؟ قال: «بالجمع بين النقيضين». وأراد أنه يجتمع له ما يتناقض في حقّ الخلق.

كما اجتمع له أنه خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها من الأعيان والأفعال. مع ما فيها من الخبث، وأنه عدلٌ حكيمٌ، رحيمٌ، وأنه يُمكن من مَكْنَه من عباده من المعاصي مع قدرته على منعهم، وهو في ذلك حكيم عادل، فإنه أعلم الأعلامين، وأحكم الحاكمين، وهو خير الفاتحين، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم.

فأن لا يحيطوا علماً بما هو أعظم في ذلك أولى وأحرى، وقد سألوا عن الروح فقيل لهم: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وفي الصحيحين أن الخضر قال لموسى لما نقر عصفور في البحر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

فالذي يُنفى عنه وينزه عنه إما أن يكون مناقضاً لما عُلِمَ من صفاته الكاملة فهذا ينفي عنه جنسه، كما قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. فجنس السَّنة والنوم، والموت، ممتنعٌ عليه، لا يجوز أن يقال في شيء من هذا: «إنه يجوز عليه كما يليق بشأنه»؛ لأن هذا الجنس يوجب نقصاً في كماله.

وكذلك لا يجوز أن يُقال: هو يكون في السُّفْل، لا في العُلُو، وهو سقول يليق بجلاله!! فإنه سبحانه العلي الأعلى لا يكون قط إلا عالياً، والسفول نقص هو منزلة عنه. وقوله: «وأنت الباطن فليس دونك شيء» لا يقتضي السُّفْل إلا عند جاهل لا يعلم حقيقة العُلُو والسُّفْل، فيظن أن السموات وما فيها قد تكون تحت الأرض إما بالليل وإما بالنهار. وهذا غلطٌ، كمن يظن أن ما في السماء من المشرق يكون تحت ما فيها مما في المغرب، فهذا أيضاً غلط، بل السماء لا تكون قط إلا عالية على الأرض وإن كان الفلك مستديراً محيطاً بالأرض فهو العالي على الأرض علواً حقيقياً من كل جهة، وهذا مبسوط في مواضع»^(١).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/٤٢٣ - ٤٢٦).

البَاطِن جَلَّ جلالُه وتقدَّست أَسْماءُه

(٧٨)

* المعنى اللغوي:

البَطْن خلاف الظهر، وهو مذكر وتأنثه لغة.

وبطانة الثوب خلاف ظهارته.

والبُطْنان: جمع البطن، وهو الغامض من الأرض.

وَبُطْنان الجنة: وسطها.

وَبَطْنُ الوادي: دخلته، وبطنت هذا الأمر: عرفت باطنه، وَبَطْنْتُ بفلان: صرت

من خواصه، وَبِطَانَةُ الرجل: وَلِيَجْتَهُ، وأبطنت الرجل: إذا جعلته من خواصك^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

تقدم في معنى اسمه (الظاهر) قول الفراء والزجاجي.

وقال ابن جرير: «و(الباطن) يقول: وهو الباطن لجميع الأشياء فلا شيء أقرب

إلى شيء منه، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [لق: ١٦]»^(٢).

وقال الزجاج: «(الباطن) هو العالم ببطانة الشيء، يقال: بَطْنْتُ فلاناً وخبرته: إذا

عرفت باطنه وظاهره.

والله تعالى عارفٌ ببواطن الأمور وظواهرها، فهو ذو الظاهر وذو الباطن»^(٣).

(١) «الصحاح» (٢٠٧٩/٥)، «اللسان» (٣٠٣/١ - ٣٠٥) مادة (بطن).

(٢) «جامع البيان» (١٢٤/٢٧) وبنحوه قال النحاس: «إعراب القرآن» (٣٥٠/٤) وزاد: ويدل على

هذا أن بعده ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]؛ أي: لا يخفى عليه شيء.

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٦١).

وقال الخطابي: (الباطن) هو المحتجب عن أبصار الخلق، وهو الذي لا يستولي عليه توهم الكيفية، وقد يكون معنى الظهور والبُطون احتجابه عن أبصار الناظرين، وتجليه لبصائر المتفكرين. ويكون معناه: العالم بما ظهر من الأمور، والمطلع على ما بطن من الغيوب^(١).

وقال الحليمي: «(الباطن) وهو الذي لا يُحس، وإنما يُدرك بآثاره وأفعاله»^(٢).

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - الله تبارك وتعالى أعظم الغيب، محتجب عن الخلق، لا يراه أحد في الدنيا، ولا تدركه الأبصار في الآخرة^(٣) ولا نحيط بشيء من علمه إلا بما شاء لنا أن نعلمه عنه، مما وصف به نفسه في كتابه، أو ما وصفه به رسوله ﷺ.

وهو سبحانه مع ذلك ظاهر لخلقه بأفعاله وآياته المتلوة والعيانية، فمن تأمل وتفكر في السموات والأرض وما فيها، عِلِمَ علم اليقين أن له خالقاً مدبراً: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ولقد أحسن من قال:

فيا عَجَباً كيف يُعْصَى الإله أم كيف يَجْجده الجاحِدُ
وفي كل شيء له آية تَدُلُّ على أنه واحدُ

وكذا الآيات المتلوة وهي كتابه ﷻ فإنها بنفسها تدل على الله تعالى؛ لأنها ليست من جنس كلام البشر، لأنواع الإعجاز التي فيها.

٢ - الله تبارك وتعالى هو العليم ببواطن الأمور وظواهرها، يستوي عنده هذا وهذا: ﴿سَوَاءٌ مِّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِلَيْلٍ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] فيستوي عند الله تعالى من هو مختفٍ في قعر بيته في

(١) «شأن الدعاء» (ص ٨٨)، ونقله البيهقي في «الاعتقاد» (ص ٦٤) مع اختصار وقال: إنه من صفات الذات.

(٢) «المنهاج» (١/ ١٩٦) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٣٥).

(٣) هناك فرق بين قولنا: لا تدركه الأبصار، وبين قول المعتزلة وأشباههم بعدم رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، فأنت ترى البحر لكن لا تدرك جميعه ببصرك وهو مخلوق! فالخالق أعظم وأجل وأكبر.

ظلام الليل، ومن هو سائر في سَرِّهِ (طريقه) في بياض النهار وضياؤه.

٣ - فسر بعض السلف (الباطن) بأنه أقرب إلى كل شيء من كل شيء، كما تقدم في كلام ابن جرير والنَّحَّاس، وحكى شيخ الإسلام ابن تيمية - كما في فتاويه - عن مقاتل بن سليمان أنه فسرَه كذلك، فقال ناقلاً عنه: «و(الباطن) أقرب من كل شيء، وإنما نعي بالقرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه».

فضعف هذا القول بكونه ليس مشهوراً عن مقاتل، وأنه فسر الباطن بالقرب، ثم فسر القرب بالعلم والقدرة ولا حاجة إلى هذا.

ثم بين أنه ليس معنى (الباطن) أنه القرب، ولا لفظ (الباطن) يدل عليه، ولا لفظ القرب في الكتاب والسنة على جهة العموم كلفظ المعية، فإنه إذا قال: هذا مع هذا فإنه يعني به المجامعة والمقارنة والمصاحبة، ولا يدل على قرب إحدى الذاتين من الأخرى ولا اختلاطها بها، فلهذا كان إذا قيل: هو معهم، دل على أن علمه وقدرته وسلطانه محيط بهم، وهو مع ذلك فوق عرشه كما أخبر القرآن والسنة بهذا، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فأخبر سبحانه أنه مع علوه على عرشه يعلم كل شيء، فلا يمنعه علوه عن العلم بجميع الأشياء.

ولم يأت في لفظ «القرب» مثل ذلك، أنه قال: هو فوق عرشه وهو قريب من كل شيء، بل قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال النبي ﷺ: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب».

قال: ولا يقال في هذا: قريب بعلمه وقدرته، فإنه عالم بكل شيء قادر على كل شيء، وهم لم يشكوا في ذلك، ولم يسألوا عنه، وإنما سألوا عن قربهِ إلى من يدعوه ويناجيه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فأخبر أنه قريب مجيب.

وطائفة من أهل السنة تفسر «القرب» في الآية والحديث بالعلم لكونه هو المقصود، فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعي حصل مقصوده، وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول: إنه قريب من كل شيء بمعنى العلم والقدرة، فإن هذا قد قاله بعض السلف كما تقدم عن مقاتل بن حيان، وكثير من الخلف، لكن لم يقل أحد منهم: إن نفس ذاته قريبة من كل شيء. وهذا المعنى يُقرُّ به جميع المسلمين،

من يقول: إنه فوق العرش، ومن يقول: إنه ليس فوق العرش^(١).

٤ - وللإمام المحقق أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم رحمته الله كلام دقيق نفيس جامع على هذه الأسماء الأربعة (الأول والآخر والظاهر والباطن) ذكر فيه تعلق حياة العباد بها نجاحاً وفلاحاً، وكيفية تحقيق العبودية لها، وذلك في كتابه «طريق الهجرتين وباب السعادتين».

قال رحمته الله: في «فصل في أن حقيقة الفقر توجّه العبد بجميع أحواله إلى الله»:

«ولما كان موجب الدرجة الأولى من الفقر الرجوع إلى الآخرة، فأوجب الاستغراق في هم الآخرة نفّض اليدين من الدنيا ضبطاً أو طلباً، وإسكات اللسان عنها مدحاً أو ذمّاً، وكذلك كان موجب هذه الدرجة الثانية الرجوع إلى فضل الله سبحانه، ومطالعة سبقه الأسباب والوسائط فبفضل الله ورحمته وجدت منه الأقوال الشريفة، والمقامات العلية. وبفضله ورحمته وصلوا إلى رضاه ورحمته، وقربه وكرامته وموالاته، وكان سبحانه هو (الأول) في ذلك كله، كما أنه الأول في كل شيء، وكان هو (الآخر) في ذلك كما هو الآخر في كل شيء فمن عبّده باسمه (الأول والآخر) حصلت له حقيقة هذا الفقر، فإن انضاف إلى ذلك عبوديته باسمه (الظاهر والباطن) فهذا هو العارف الجامع لمتفرقات التعبد ظاهراً وباطناً.

فعبوديته باسمه (الأول) تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب، والوقوف أو الالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده، وأي وسيلة كانت هناك؟ وإنما هو عدم محض، وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، فمنه سبحانه الإعداد ومنه الإمداد وفضله سابق على الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده لم تكن بوسائل أخرى، فمن نزل اسمه (الأول) على هذا المعنى أوجب له فقراً خاصاً وعبودية خاصة.

وعبوديته باسمه (الآخر) تقتضي أيضاً عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنها تنعدم لا محالة وتنقضي الآخرة، ويبقى الدائم الباقي بعدها، فالتعلق بها تعلق بما يعدم وينقضي، والتعلق بالآخر سبحانه تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالمتعلق به حقيق أن لا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/٤٩٨ - ٥٠٠) باختصار، وقد أطل في بيان هذه المسألة فانظرها في المصدر السابق (٤٧٨ - ٥٢٧).

يفنى به، كذا نظر العارف إليه بسبق الأولية حيث كان قبل الأسباب كلها، وكذلك نظره إليه ببقاء الآخرة حيث يبقى بعد الأسباب كلها، فكان الله ولم يكن شيء غيره. وكل شيء هالك إلا وجهه.

فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يُوجِبانه من صحة الاضطرار إلى الله وحده ودوام الفقر إليه دون كل شيء سواه، وأن الأمر ابتداءً منه وإليه يرجع، فهو أول كل شيء وآخره، وكما أنه ربُّ كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه، فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده، فهو (الأول) الذي ابتدأت منه المخلوقات، و(الآخر) الذي انتهت إليه عبودياتها وإراداتها ومحبتها، فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله، كما أنه ليس قبله شيء يخلق ويبرأ، فكما كان واحداً في إيجادك فاجعله واحداً في تأهلك إليه لتصح عبوديتك، وكما ابتداءً وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حُبِّك وإرادتك وتأهلك إليه لتصح لك عبوديته باسمه (الأول والآخر).

وأكثر الخلق تَعَبَّدوا له باسمه (الأول) وإنما الشأن في التعبد له باسمه (الآخر) فهذه عبودية الرسل وأتباعهم، فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده. وأما عبوديته باسمه (الظاهر) فكما فسَّره النبي ﷺ بقوله: «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَ شَيْءٍ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ».

فإذا تحقق العبد عُلوّه المطلق على كل شيء بذاته، وأنه ليس فوقه شيء ألبته، وأنه قاهر فوق عباده يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] صار لقلبه أمماً يقصده، ورباً يعبده، وإلهاً يتوجه إليه، بخلاف من لا يدري أين ربه فإنه ضائع مشّت القلب، ليس لقلبه قِبَلَةٌ يتوجّه نحوها ولا معبود يتوجه إليه قصده، وصاحب هذه الحال إذا سلك وتأله وتعبد طلب قلبه إلهاً يسكن إليه ويتوجه إليه، وقد اعتقد أنه ليس فوق العرش شيء إلا العدم، وأنه ليس فوق العالم إله يعبد ويصلي له ويسجد، وأنه ليس على العرش من يصعد إليه الكلم الطيب ولا يرفع إليه العمل الصالح، جالَ قلبه في الوجود جميعه فوقع في الاتحاد ولا بد! وتعلّق قلبه بالوجود المطلق الساري في المعينات، فاتخذ إلهه من دون إله الحق وظن أنه قد وصل إلى عين الحقيقة! وإنما تأله وتعبد لمخلوق مثله، ولخيالٍ نَحَتَه بفكره واتخذته إلهاً من دون الله سبحانه، وإله الرسل وراء ذلك كله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَقْلًا

تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ [يونس: ٣ - ٤].

وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: ٤ - ٩].

فقد تعرّف سبحانه إلى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها إلا من أنكره سبحانه، وإن زعم أنه مقرر به.

المقصود أن التبعّد باسمه (الظاهر) يجمع القلب على المعبود، ويجعل له رباً يقصده وصمداً يصمد إليه في حوائجه، وملجأ يلجأ إليه، فإذا استقر ذلك في قلبه وعرف ربه باسمه (الظاهر) استقامت له عبوديته وصار له معقل وموئل يلجأ إليه ويهرب إليه ويفرّ كل وقت إليه.

وأما تبعّده باسمه (الباطن) فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكلّ اللسان عن وصفه، وتُصْطَلَمُ^(١) الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه، فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التّعطيل، مخلصة من قرّث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنى كاشفة عنه، وذوقاً صحيحاً سليماً من أذواق أهل الانحراف، فمن رزق هذا فهم معنى اسمه (الباطن) ووضح له التبعّد به.

وسبحان الله كم زلّت في هذا المقام أقدام، وضلّت فيه أفهام، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصديق، واشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين، لنبو الأفهام عنه، وعزة تخلص الحق من الباطل فيه، والتباس ما في الذهن بما في الخارج إلا على من رزقه الله بصيرة في الحق، ونوراً يميز به بين الهدى والضلال، وفرقاً يفرق بين الحق والباطل، ورزق مع ذلك اطلاعاً على أسباب الخطأ وتفرق الطرق ومثار الغلط، وكان له بصيرة في الحق والباطل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(١) الصُّلْمُ: القطع، واضطلمه: استأصله. «القاموس».

وباب هذه المعرفة والتعبُّد إحاطة الرب سبحانه بالعالم وعظمته، وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السموات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠] ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين: اسم العلو الدال على أنه (الظاهر) وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدال على الإحاطة، وأنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، [الشورى: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَى الْكَرِيِّ﴾ [سبا: ٢٣]، وقال: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، وهو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو (الباطن) بذاته فليس دونه شيء، بل ظَهَرَ على كل شيء فكان فوقه، وبَطَنَ فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، فهذا أقرب لإحاطة العامة.

* [قرب الله تعالى خاص للداعين والسائلين والمؤمنين]:

وأما «القُرْبُ» المذكور في القرآن والسنة فقربٌ خاص من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبُّد باسمه (الباطن)، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فهذا قربه من داعيه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] فذكر الخبر وهو (قريب) عن لفظ «الرحمة» وهي مؤنثة إيذاناً بقربه تعالى من المحسنين، فكأنه قال: إن الله برحمته قريبٌ من المحسنين.

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ» و«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»، فهذا قرب خاص غير قرب الإحاطة وقرب البطون.

وفي «الصحيح» من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنْ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»، فهذا قربه من داعيه وذاكه؛ يعني: فأَيُّ حاجةٍ بكم إلى رفع الأصوات وهو لقربه يسمعه وإن خُفِضَتْ، كما يسمعه إذا رُفِعَتْ، فإنه سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلما كان الحبُّ أعظم كان القُرْبُ أكثر، وقد استولت محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها عن غيرها، ويغلب محبوبه

على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده، فإن لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له وما يستحيل عليه، وإلا طرّق باب الحلول إن لم يلجّه، وسببه ضعف تمييزه، وقوة سلطان المحبة، واستيلاء المحبوب على قلبه بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه. وفي مثل هذه الحال يقول: سبحاني!! أو: ما في الجبة إلا الله!! ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن يغفر له ويعذر لسكره وعدم تمييزه في تلك الأحوال^(١).

فالتعبّد بهذا الاسم هو التعبّد بخالص المحبة وصفو الوداد، وأن يكون الإله أقرب إليه من كل شيء وأقرب إليه من نفسه، مع كونه ظاهراً ليس فوقه شيء، ومن كثف ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا، فليضرب عنه صفحاً إلى ما هو أولى به، فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فمن لم يكن له ذوق من قرب المحبة، ومعرفة بقرب المحبوب من محبّه غاية القرب وإن كان بينهما غاية المسافة - ولا سيما إذا كانت المحبة من الطرفين، وهي محبة بريئة من العلل والشوائب والأعراض القاذحة فيها - فإن المحبّ كثيراً ما يستولي محبوبه على قلبه وذكره، ويفتنى عن غيره ويرق قلبه وتتجرد نفسه، فيشاهد محبوبه كالحاضر معه القريب إليه وبينهما من البعد ما بينهما، وفي هذه الحال يكون في قلبه وجوده العلمي، وفي لسانه وجوده اللفظي، فيستولي هذا الشهود عليه ويغيب به، فيظن أن في عينه وجوده الخارجي لغلبة حكم القلب والروح، كما قيل:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب

هذا ويكون ذلك المحبوب بعينه بينه وبين عدوّه وما بينهما من البعد وإن قربت الأبدان وتلاصقت الديار. والمقصود أن المثال العلمي غير الحقيقة الخارجية وإن كان مطابقاً لها، لكن المثال العلمي محله القلب، والحقيقة الخارجية محلها الخارج، فمعرفة الأسماء الأربعة وهي: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وهي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه.

* [لكل شيء أول وآخر وظاهر وباطن]:

واعلم أن لك أنت أولاً وآخرأً وظاهراً وباطناً، بل كل شيء فله أولٌ وآخر وظاهر وباطن، حتى الخطوة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثر، فأولية الله ﷻ سابقة

(١) قد كان السلف رضي الله عنهم ورحمهم الله تعالى أشد الناس حباً لله تعالى، ولم تكن الكلمات الكفرية تجري على لسانهم! نسأل الله العافية!.

على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته سبقه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون.

* [مدار هذه الأسماء على الإحاطة، وهي: زمانية ومكانية]:

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية ومكانية، فإحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوليته وكل آخر انتهى إلى آخريته، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده؛ فالأول قدمه، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه، فسبق كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا تُورى منه سماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضاً، ولا يحجب عنه ظاهرٌ باطناً بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب والسر عنده علانية.

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأول على آخريته الآخر في أوليته، والظاهر في بطونه والباطن في ظهوره، لم يزل أولاً وآخرأً وظاهراً وباطناً.

* [للتعبد بهذه الأسماء ربتان]:

والتعبد بهذه الأسماء ربتان: الرتبة الأولى أن تشهد الأولية منه تعالى في كل شيء، والآخرية بعد كل شيء، والعلو والفوقية فوق كل شيء، والقرب والدنو دون كل شيء، فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب، والرب جل جلاله ليس دونه شيء أقرب إلى الخلق منه.

والمرتبة الثانية من التعبد: أن يعامل كل اسم بمقتضاه، فيعامل سبقه تعالى بأوليته لكل شيء وسبقه بفضلته وإحسانه الأسباب كلها بما يقتضيه ذلك من إفراده وعدم الالتفات إلى غيره والثوق بسواه والتوكل على غيره، فمن ذا الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئاً مذكوراً حتى سمّاك باسم الإسلام، ووسمك بسمّة الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، وأقطعك في ذلك الغيب عمالات

المؤمنين، فعصمك عن العبادة للعبيد، وأعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد، ثم وَجَّه وجهه قلبك إليه سبحانه دون ما سواه؟!!

فاضرع إلى الذي عَصَمَك من السجود للصنم، وقضَى لك بَقَدَمِ الصدق في القَدَم، أنْ يَتَمَّ عليك نعمة هو ابتدأها وكانت أوليتها منه بلا سبب منك، واسمُ بهَمَّتْكَ عن ملاحظة الاختيار، ولا تركن إلى الرسوم والآثار، ولا تقنع بالخشيس الدون، وعليك بالمطالب العالية والمراتب السامية التي لا تُنال إلا بطاعة الله، فإن الله سبحانه قضى أن لا يُنال ما عنده إلا بطاعته، ومن كان الله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه تلقاه من بعيد، ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد، ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد مراده الديني أراد ما يريد.

ثم اسمُ بسرِّكَ إلى المطلب الأعلى، واقصر حُبَّكَ وتقربك على من سبق فضله وإحسانه إليك كل سبب منك، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب، وهياً لك وصرف عنك موانعها، وأوصلك بها إلى غايتك المحموده فتوكل عليه وحده، وعامله وحده، وآثر رضاه وحده، واجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال طائفاً بها، مستلماً لأركانها، واقفاً بملتزمها. فيا فوزك ويا سعادتك إن اطلع سبحانه على ذلك من قلبك، ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه وخلع أفضاله، «اللهم لا مانع لما أعطيت: ولا مُعطي لما منعت، لا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ، سبحانه وبحمدك». وأصلح له غيبك فإنه عنده شهادة، وزكَّ له باطنك فإنه عنده ظاهر.

*** [احتواء هذه الأسماء الأربعة على جماع المعرفة بالله تعالى والعبودية له]:**

فانظر كيف كانت هذه الأسماء الأربعة جماع المعرفة بالله، وجماع العبودية له، فهنا وقفت شهادة العبد مع فضل خالقه ومنته فلا يرى لغيره شيئاً إلا به وبحوله وقوته وغاب بفضل مولاه الحق عن جميع ما منه هو مما كان يستند إليه أو يتحلى به أو يتخذة عقدة أو يراه ليوم فاقتة أو يعتمد عليه في مهم من مهماته، فكل ذلك من قُصور نظره وانعكاسه عن الحقائق والأصول إلى الأسباب والفروع كما هو شأن الطبيعة والهوى وموجب الظلم والجهل، والإنسان ظلوم جهول.

فمن جلّى الله سبحانه صَداً بصيرته، وكمل فطرته وأوقفه على مبادئ الأمور وغايتها ومَنَاطِها ومصادرها ومواردها، أصبح كالمفلس حقاً من علومه وأعماله وأحواله وأذواقه يقول: أستغفر الله من علمي ومن عملي؛ أي: من انتسابي إليهما وغيبتي بهما عن فضل من ذكرني بهما وابتدأني بإعطائهما من غير تقدم سبب مني

يوجب ذلك، فهو لا يشهد غير فضل مولاة وسبق مَنته ودوامه، فيثيبه مولاة على هذه الشهادة العالية بحقيقة الفقر الأوسط بين الفقيرين الأدنى والأعلى ثوابين:

أحدهما: الخلاص من رؤية الأعمال حيث كان يراها ويتمدح بها ويستكثرها فيستغرق بمطالعة الفضل غائباً عنها ذاهباً عنها فانياً عن رؤيتها.

الثواب الثاني: أن يقطعه عن شهود الأحوال - أي عن شهود نفسه فيها متكررة بها - فإن الحال محلله الصدر، والصدر بيت القلب والنفس، فإذا نزل العطاء في الصدر للقلب ثبتت النفس لتأخذ نصيبها من العطاء فتتمدح به وتدل به وتزهو وتستطيل وتقرر إنيتها لأنها جاهلة ظالمة، وهذا مقتضى الجهل والظلم.

فإذا وصل إلى القلب نُورُ صفة المنة، وشهد معنى اسمه (المنان) وتجلّى سبحانه على قلب عبده بهذا الاسم مع اسمه (الأول) ذهل القلب والنفس به، وصار العبد فقيراً إلى مولاة بمطالعة سبق فضله الأول، فصار مقطوعاً عن شهود أمر أو حال ينسبه إلى نفسه بحيث يكون بشهادته لحاله مفصوماً مقطوعاً عن رؤية عزة مولاة وفاطره وملاحظة صفاته، فصاحب شهود الأحوال منقطع عن رؤية منة خالقه وفضله ومشاهدة سبق الأولية للأسباب كلها، وغائب بمشاهدة عزة نفسه عن عزة مولاة، فينعكس هذا الأمر في حق هذا العبد الفقير وتشغله رؤية عزة مولاة ومَنته ومشاهدة سبقه بالأولية عن حال يعتز بها العبد أو يشرف بها.

وكذلك الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل يُمَحِّصُ من أدناس مطالعات المقامات، فالمقام ما كان راسخاً فيه، والحال ما كان عارضاً لا يدوم، فمطالعات المقامة وتشوفه بها وكونه يرى نفسه صاحب مقام قد حققه وكمله فاستحق أن ينسب إليه ويوصف به، مثل أن يقال: زاهدٌ صابرٌ خائفٌ راجٍ محبٌ راضٍ، فكونه يرى نفسه مستحقاً بأن تضاف المقامات إليه وبأن يوصف بها - على وجه الاستحقاق لها - خروج عن الفقر إلى الغنى، وتعبد لطور العبودية، وجهل بحق الربوبية، فالرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل يستغرق همه العبد ويمحصه ويظهره من مثل هذه الأدناس، فيصير مصفى بنور الله سبحانه عن رذائل هذه الأرجاس^(١).

٥ - والعلم بهذه الأسماء الأربعة ومعانيها له أثر عظيم في دفع الوسوسة، وردّ كيدها، أشار إلى ذلك حَبْرُ الأمة ابن عباس رضي الله عنه، فقد أخرج أبو داود عن أبي زُمَيْل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله

(١) «طريق الهجرتين» (ص ١٩ - ٢٧).

ما أتكلّم به، قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قال: وضحك، قال: ما نَجَا من ذلك أحد، قال: حتّى أنزل الله ﷻ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الذِّبْنَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] قال: فقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]^(١).



(١) «السنن» (٥/٥١١٠) قال: حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا النضر بن محمد، حدثنا عكرمة - يعني ابن عمار -، حدثنا أبو زميل... فذكره.

قال المنذري: أبو زميل هو سماك بن الوليد الحنفي وقد احتج به مسلم «مختصر السنن» (٨/١١). قلت: وقد وثقه أحمد وابن معين والعجلي وقال أبو حاتم: صدوق لا بأس به، وعكرمة بن عمار صدوق يغلط، والنضر بن محمد هو الجرشي ثقة، وكذا ابن عباس العنبري، فالإسناد حسن.

الْبَرُّ جَلَّ جلالُه وتقدَّست أَسْماءُه

(٧٩)

* المعنى اللغوي :

الْبَرُّ: الصدق والطاعة، والْبَرُّ: الصادق. وفي التنزيل: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧].
والْبَرُّ خلافُ العقوق، والمَبْرَةُ مثله.
تقول: بَرَزْتُ والدي أَبْرُهُ بِرّاً فأنا بَرٌّ به وبَارٌّ.
وجمع الْبِرِّ: أبرارٌ، وجمع الْبَارِّ: الْبَرَرَةُ.
وفلانٌ يَبِرُّ خالقه وَيَتَبَرَّرُهُ؛ أي: يُطيعه، وَبَرٌّ فلانٌ في يمينه؛ أي: صَدَقَ.
والْبِرُّ: خلاف البحر، وأَبَرَّ فلانٌ إذا ركب البر.
وأَبَرَّ فلانٌ على أصحابه؛ أي: علاهم وغلبهم، والإِبرار: الغلبة، والمُبِرُّ: الْعَالِبُ.
والْبِرُّ: الحنطة^(١).

وقال القرطبي: «الْبِرُّ: هو الاتساع في الإحسان والزيادة.. ومنه يقال: أَبَرَّ على صاحبه في كذا؛ أي: زاد عليه، وسُمِّيَت البريةُ بريَّةً لاتساعها»^(٢).

* وروده في القرآن الكريم :

ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾؛ يعني: اللطيف بعباده^(٣).

(١) «الصحاح» (٥٨٨/٢)، و«اللسان» (٢٥٢/١ - ٢٥٥) مادة (برر)، «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٦١) «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص ١٩٩).

(٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٤٥ - ب).

(٣) «جامع البيان» (١٨/٢٧)، ثم ساق بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مثله.

وقال الزجاج بعد أن ذكر معنى (البر) لغة: «والله تعالى برٌّ بخلقه في معنى: أنه يُحَسِّن إليهم، ويصلح أحوالهم»^(١).

وقال الخطابي: «(البرُّ) هو العَطُوفُ على عباده، المحسنُ إليهم، عَمَّ ببره جميع خلقه، فلم يَنُحِلْ عليهم برزقه.

وهو (البرُّ) بالمُحَسِّنِ في مُضَاعَفَتِهِ الثواب له، و(البرُّ) بالمسيء في الصَّفْحِ والتجاوزِ عنه.

وفي صفات المخلوقين: رجلٌ برٌّ وبارٌّ إذا كان ذا خيرٍ ونفع، ورجلٌ برٌّ بأبويه وهو ضِدُّ العاق»^(٢).

وقال الحلبي: «(البرُّ) ومعناه: الرفيق بعباده، يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، ويعفو عن كثير من سيئاتهم، ولا يُؤَاخِذُهُم بِجَمِيعِ جَنَايَاتِهِمْ، ويجزيهم بالحسنة عشر أمثالها، ولا يجزيهم بالسيئة إلا مثلها، ويكتب لهم الهَمَّ بالحسنة، ولا يكتب عليهم الهَمَّ بالسيئة»^(٣).

وقال القرطبي بعد أن حكى معنى الاسم لغة: «وهذا الوصف في الله تعالى من أوصاف فعله، وهو مُضَافٌ إلى عباده كُلِّهِمْ في الدنيا، وإلى الخصوص في الأخرى، وذلك أَنَّهُ ما من شخص في الدنيا إلا وسعه من الله تعالى وَقَاضَ عليه إحسانه، ولذلك عَمَّ في قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا﴾ [لقمان: ٢٠].

وأما في الأخرى فلا يختصُّ ببر الله تعالى إلا مَنْ أَنْعَمَ عليه بجواره، وأسكنه بِحُبُوحَةِ أنواره، لا مَنْ أَحَلَّهُ في ناره»^(٤).

وقال ابن القيم:

وَالْبَرُّ فِي أَوْصَافِهِ سُبْحَانَهُ هُوَ كَثْرَةُ الْخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَانِ
صَدَرَتْ عَنِ الْبَرِّ الَّذِي هُوَ وَصْفُهُ فَالْبَرُّ حِينَئِذٍ نَوْعَانِ
وَصَفٌّ وَفَعْلٌ فَهُوَ بَرٌّ مُحَسِّنٌ مَوْلَى الْجَمِيلِ وَدَائِمِ الْإِحْسَانِ^(٥)

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٦١).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٩٠) وينحوه مختصراً قال البيهقي في «الاعتقاد» (ص ٦٤)، وكذا الأصبهاني في «الحجة» (ق ٢٣ب) بنحو الفقرة الأولى منه.

(٣) «المنهاج» (٢٠٤/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٧١).

(٤) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٤٥ب). (٥) «النونية» (٢/٢٣٤).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - الله تبارك وتعالى برّ رحيمٌ بعباده، عطوفٌ عليهم، محسنٌ إليهم، مُصلِحٌ لأحوالهم في الدنيا والدين.

أما في الدنيا فما أعطاهم وقسم لهم من الصحة والقوة والمال والجاه والأولاد والأنصار، مما يخرج عن الحصر، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] فيدخل في ذلك كلُّ معروف وإحسان؛ لأنها ترجع إلى البر. ويشترك في ذلك المؤمن والكافر.

وأما في الدين فما منَّ به على المؤمنين من التوفيق للإيمان والطاعات، ثم إعطاهم الثواب الجزيل على ذلك في الدنيا والآخرة، وهو الذي وفق وأعان أولاً، وأثاب وأعطى آخراً.

فمنه الإيجاد، ومنه الإعداد، ومنه الإمداد، فله الحمد في الأولى والمعاد. ٢ - من برّه سبحانه بعباده إمهاله للمسيء منهم، وإعطاؤه الفرصة بعد الفرصة للتوبة، مع قدرته على المعاجلة بالعقوبة.

قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُم مَّوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف: ٥٨].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي شرحه لِلطَّائِفِ أسرار التوبة:

ومنها: أن يعرف برّه سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه، وهذا من كمال بره، ومن أسمائه (البرّ) وهذا البر من سيده كان به مع^(١) كمال غناه عنه وكمال فقر العبد إليه، فيشتغل بمطالعة هذه المنّة، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم، فيذهل عن ذكر الخطيئة، فيبقى مع الله سبحانه، وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته، وشهود ذلّ معصيته، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه: هو المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى.

ولا يوجد هذا نسيان الخطيئة مطلقاً بل في هذه الحال، فإذا فقدتها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة، وذكر الجناية، ولكلِّ وقتٍ ومقام عبودية تليق به.

ومنها: شهود حلم الله ﷻ في إمهال راكم الخطيئة، ولو شاء لعاجله بالعقوبة، ولكنه (الحليم) الذي لا يَعْجَل، فيُحَدِّث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه (الحليم) ومشاهدة صفة «الحلم» والتعبد بهذا الاسم، والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك

(١) في الأصل: «كان عن به كمال غناه!» ولعل الصواب ما أثبتناه.

بتوسط الذنب: أحب إلى الله، وأصلح للعبد، وأنفع من قوتها، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنها: معرفة العبد كَرَمَ رَبِّه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بنحو ما تقدم من الاعتذار، لا بالقدر! فإنه مخاصمة ومحاجة، كما تقدم، فيقبل عذره بكرمه وجوده، فيوجب له ذلك اشتغالا بذكره وشكره، ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجزاك به، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها: أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده، والواقع شاهدٌ بذلك، فعبودية التوبة بعد الذنب لون، وهذا لون آخر.

ومنها: أن يشهد فضله في مغفرته، فإن المغفرة فضل من الله، وإلا فلو أخذك بمحض حقه، كان عادلاً محموداً، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك، فيوجب لك ذلك أيضاً شكراً له ومحبة، وإنابة إليه، وفرحاً وابتهاجاً به، ومعرفة له باسمه (الغفار) ومشاهدة لهذه الصفة، وتعبداً بمقتضاها، وذلك أكمل في العبودية، والمحبة والمعرفة^(١).

٣ - الله تبارك وتعالى بارٌّ بأوليائه، صادق^(٢) فيما وعدهم به من الأجر والثواب: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [النمر: ٧٤].

٤ - الله جلّ شأنه برٌّ يحبُّ البرَّ ويأمر به، ويحب من يتخلّق به من عباده الأبرار. ومن أجمع الآيات التي ذكرت أعمال البرّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَقَلَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفِقُ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأثنى تعالى على ابني الخالة عيسى ويحيى عليهما الصلاة والسلام ببرهما أبويهما، فقال في وصف عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]، وفي وصف يحيى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

(١) «مدارج السالكين» (٢٠٦/١).

(٢) قد سبق أن من معاني البر في اللغة: الصدق، فيقال: برٌّ في يمينه؛ أي: صدق.

وجعل رسول الله ﷺ كلَّ الأخلاقِ الفاضلةِ الحسنةِ من البرِّ، فعن النَّوَّاسِ بنِ سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البرِّ والإثم؟ فقال: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»^(١).

٥ - لن ينال العبدُ برَّ الله تعالى به في الآخرة إلا باتِّباع ما يُفضي إلى برِّه ومرضاته ورحمته، قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وقد فُسر ﴿الْبِرَّ﴾ في هذه الآية بالجنة وثواب الله تعالى.

قال قتادة: «لن تنالوا بر ربكم حتى تنفقوا مما يُعجبكم ومما تهوون من أموالكم»^(٢).

وقال ابن جرير: «لن تُدركوا أيها المؤمنون ﴿الْبِرَّ﴾ وهو البر من الله الذي يطلبونه منه بطاعتهم إياه، وعبادتهم له، ويرجونه منه، وذلك تفضله عليهم بإدخالهم جنته وصرف عذابه عنهم، ولذلك قال كثير من أهل التأويل: ﴿الْبِرَّ﴾: الجنة، لأنَّ برَّ الربِّ بعده في الآخرة وإكرامه إياه بإدخاله الجنة»^(٣).

ومما يدخل في هذا المعنى قوله ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصُدَّقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدْقًا، وَإِنَّ الْكَذْبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ يَكْذِبُ حَتَّى يَكْتَبَ كَذَابًا»^(٤).

(١) أخرجه أحمد (١٨٢/٤)، ومسلم في البر والصلة (١٩٨٠/٤)، والترمذي (٢٣٨٩/٤)، والدارمي (٣٢٢/٢) من ثلاث طرق عن معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن النّوَّاس به.

وأخرجه الدارمي (٣٢٢/٢) قال: أخبرنا أبو المغيرة، ثنا صفوان هو ابن عمرو، حدثني يحيى بن جابر القاضي عن النّوَّاس بنحوه. ويحيى بن جابر ثقة، لكن حديثه عن النّوَّاس مرسل «التهذيب».

(٢) «تفسير ابن جرير» (٢٤٦/٣) بسند حسن عنه.

(٣) المصدر السابق.

وقيل: البر: التقوى، وقيل: الطاعة، وقيل: الخير الذي يُستحق به الأجر. وقال القاضي أبو يعلى: لم يُرد نفي الأصل، وإنما نفي وجود الكمال، فكأنما قال: لن تنالوا البر الكامل. «زاد المسير» لابن الجوزي (٤٢٠/١).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٧/١٠)، ومسلم في البر والصلة (٢٠١٢/٤)، (٢٠١٣) عن منصور عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً به.

ورواه مسلم (٢٠١٣/٤) عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود مرفوعاً به.

قال الحافظ ابن حجر: ﴿الْبَرُّ﴾: أصله التوسع في فعل الخير، وهو اسم جامع للخيرات كلها، ويطلق على العمل الخالص الدائم^(١).

وقوله: «وإن البر يهدي إلى الجنة»: مصداقه في كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) قاله ابن بطال^(٢).

٦ - لا تظن أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) [الانفطار: ١٣، ١٤] مختص بيوم المعاد، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة.

وأي لذة وأي نعيم في الدنيا أطيب من بر القلب، وسلامة الصدر، ومعرفة الربّ تبارك وتعالى ومحبه، والعمل على موافقته؟.

وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ وقد أثنى الله ﷻ على خليفه ﷺ بسلامة قلبه فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) [الصافات: ٨٣، ٨٤].

وقال حاكياً عنه أنه قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) [الشعراء: ٨٨، ٨٩] والقلب السليم هو الذي سلّم من الشرك والغلّ والحقْد والحسد والشح والكبر، وحب الدنيا والرياسة، فسَلِمَ من كلّ آفة تُبعده من الله، وسَلِمَ من كلّ شبهة تعارض خبره، ومن كلّ شهوة تعارض أمره، وسَلِمَ من كلّ إرادة تُزاحم مراده، وسَلِمَ من كلّ قاطع يقطع عن الله.

فهذا القلب السليم في جنّة مُعجّلة في الدنيا، وفي جنّة في البرزخ، وفي جنّة يوم المعاد^(٣).



(٢) المصدر السابق.

(١) «الفتح» (٥٠٨/١٠).

(٣) «الداء والدواء» (ص ١٧٨، ١٧٩) لابن القيم.

التَّوَاب

جَلَّ جلاله وتقدَّست أَسْمَاؤه

(٨٠)

* المعنى اللغوي:

التَّوبَةُ: الرجوع من الذنب، وكذلك التَّوْبُ مثله.
 وقال الأخفش: التَّوْبُ جمع توبَةٍ، مثل: عَزَمَ وعَزَمٌ^(١)، وتاب إلى الله توبة ومتاباً، وقد تاب الله عليه: وفَّقه لها.
 واستتابه: سأله أن يتوب^(٢).
 ورجلٌ تَوَّابٌ: تائبٌ إلى الله، والله تَوَّابٌ: يتوب على عبده، وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٢٢] يجوز أن يكون غَفًى به المصدر كالقَوْل، وأن يكون جَمْع توبة كلوزة ولوزٍ، وهو مذهب المبرد^(٣).
 وقال الزجاج: «يقال: تابَ إلى الشيء يتوب توباً، إذا رجع»^(٤).
 وقال الزجاجي: «التواب: فَعَّالٌ من تاب يتوب».
 وقال: وفَعَّالٌ من أبنية المبالغة، مثل: ضَرَّابٌ للكثير الضَّرْب، وقتَّالٌ للكثير القتل»^(٥).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم في القرآن إحدى عشرة مرة، منها:
 قوله تعالى: ﴿فَلَقَّيْ عَادُمْ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ قَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].
 وقولُه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

(١) في المطبوع من «الصحاح»: «عمة وعوم»، وما أثبتناه موافق لـ «اللسان» و«الكتاب الأسنى» (ق١٣٧٧).

(٢) «الصحاح» (١/ ٩١، ٩٢).

(٣) «اللسان» مادة (توب).

(٤) «تفسير أسماء الله» (ص٦١).

(٥) «اشتقاق أسماء الله» (ص٦٢، ٦٣).

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٤).

وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ١٠).

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر: ٣).

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال قتادة: «وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»: إن الله هو الوهاب لعباده الإنابة إلى طاعته، الموفق من أحب توفيقه منهم لما يرضيه عنه^(١).

وقال أبو عبيدة: «إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ»: أي: يتوب على العباد، والتواب من الناس الذي يتوب من الذنب^(٢).

وقال ابن جرير: «إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»: إن الله جلَّ ثناؤه هو (التواب) على من تاب إليه من عباده المذنبين من ذنوبه، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيته بما سلف من ذنبه.

وقد ذكرنا أن معنى (التوبة) من العبد إلى ربه إنابته إلى طاعته، وأوبته إلى ما يرضيه بتركه ما يُسخطه من الأمور التي كان عليها مقيماً مما يكرهه ربه، فكَذلك توبة الله على عبده هو أن يرزقه ذلك ويؤوب من غضبه عليه إلى الرضا عنه، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه^(٣).

وقال الزجاج: «قال الله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]؛ أي: يقبل رجوع عبده إليه، ومن هذا قيل: التوبة كأنه رجوع إلى الطاعة، وترك المعصية^(٤).

وبنحوه قال الزجاجي، ثم قال: «فجاء تَوَّابٌ على أبنية المبالغة لقبوله توبة عباده، وتكرير الفعل منهم دفعة بعد دفعة، وواجداً بعد واحد على طول الزمان، وقبوله ﷻ ممن يشاء أن يقبل منه، فلذلك جاء على أبنية المبالغة.

فالعبد يتوب إلى الله ﷻ ويقلع عن ذنوبه، والله يتوب عليه؛ أي: يقبل توبته. فالعبد تَائِبٌ، والله تَوَّابٌ^(٥).

وقال الخطابي: «(التواب): هو الذي يتوب على عبده ويقبل توبته كلما تكررت التوبة تكرر القبول، وهو حرفٌ يكون لازماً ويكون مُتعدياً، يقال: تاب الله على

(١) «جامع البيان» (٤١/١١) بسند حسن عنه.

(٢) «مجاز القرآن» (٣٩/١).

(٣) «جامع البيان» (١٩٥/١).

(٤) «اشتقاق الأسماء» (ص ٦٣).

(٥) «تفسير أسماء الله» (ص ٦٢).

العبد؛ بمعنى: وَفَّقَهُ للتوبة فتَاب العبد، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾
[التوبة: ١١٨].

ومعنى التوبة: عَوَّذُ العبد إِلَى الطاعة بعد المعصية^(١).

وقال الحليمي: «(التواب) وهو المعيدُ إِلَى عبده فضل رحمته إذا هو رجع إِلَى طاعته، وَنَدِمَ عَلَى معصيته، ولا يحبط بما قدم من خير، ولا يمنعه ما وعد المطيعين من الإحسان^(٢)».

وقال البيهقي: «هو الذي يتوب عَلَى من يشاء من عبده»^(٣).

وفي «المقصد الأسنى»: «(التواب) هو الذي يرجع إِلَى تيسير أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرى، بما يُظْهِرُ لَهُمْ من آياته، وَيُسَوِّقُ إِلَيْهِمْ من تنبيهاته، وَيُطْلِعُهُمْ عَلَيْهِ من تخويفاته وتحذيراته، حَتَّى إِذَا اطلَعُوا - بتعريفه - عَلَى غوائل الذنوب، استشعروا الخوف بتخويفه فرجعوا إِلَى التوبة، فرجع إِلَيْهِمْ فضل الله تعالى بالقبول»^(٤).
وقال ابن القيم:

وَكذلك التَّوَابُ من أَوْصَافِهِ والتَّوَابُ في أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ
إِذْ بَتُوبَةِ عَبْدِهِ وَقَبُولُهَا بعد المَتَابِ بِمِنَّةِ المَنَّانِ^(٥)

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - الله تبارك وتعالى هو (التواب) الذي لم يَزَلْ يتوب عَلَى التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إِلَى الله توبة نصوحاً تاب الله عَلَيْهِ وَقَبِلَهُ.
فهو التائب عَلَى التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة، والإقبال بقلوبهم إِلَيْهِ.
وهو التائب عَلَى التائبين بعد توبتهم قَبُولاً لَهَا وعفواً عن خطاياهم^(٦).
فهو سبحانه يوفِّق عباده للتوبة، ويقبلها منهم وَيُثَبِّتُهُمْ عَلَيْهَا، فسبحان التواب الرحيم، الجواد الكريم.
قال الأقليسي: سَمَّى الله سبحانه نفسه تواباً لَأَنَّهُ خَالَقُ التَّوْبَةِ في قلوب عباده، ومُيسِّرُ أسبابها لَهُمْ، والراجع بِهِمْ من الطريق التي يكره إِلَى الطريق التي يَرْضَى.

(١) «شأن الدعاء» (ص ٩٠).

(٢) «المنهاج» (٢٠٦/١) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٧٨).

(٣) «الاعتقاد» (ص ٦٤).

(٤) (ص ٨٨) ونحوه في «روح المعاني» للألوسي (٢٣٧/١).

(٥) «النونية» (٢/٢٣١). (٦) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/٣٠٠).

وسمى نفسه أيضاً (تواباً) لقبوله توبة من يرجع إليه .

ومن القسم الأول قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] .

ومن القسم الثاني قوله تعالى: ﴿فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٣٩] .

فبهذين^(١) القسمين سمى نفسه تواباً .

ولقد جهل المعتزلي الحقيقة فأنكر القسم الأول، وهو خلق التوبة في قلب العبد، وهذا مَظْمُوسُ القلب عن طريق القصد .

ولمّا كانت المعاصي متكررة من عباده، جاء بصيغة المبالغة، ليقابل الخطايا الكبيرة بالتوبة الواسعة^(٢) .

وقال ابن الحصار: «قال الله العظيم: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]، فقال في الآية الأولى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ تصريح بتوبته على الإطلاق على من واقع الذنب، أو كانت منه مخالفة وعصيان .

فتوبة الله على العبد قد يراؤ بها تجديد التوبة وتواليها عليه، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالَّذِينَ نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالَّذِينَ نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] معناه: جددوا الإيمان واستديموه واثبتوا عليه، وعليه يُحمل قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] .

ووصفه نفسه بأنه (التواب) مبالغة: لكثرة من يتوب عليه، ولتكريره ذلك في الشخص الواحد حتى يقضي عمره، وإذا تقرر أن وصفه سبحانه بـ (التواب): خلقه التوبة للعبد وقبولها منه، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]؛ أي: يقبل توبتهم، كما قيل له ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ تَوَّابٌ﴾^(٣) .

٢ - الله تعالى هو المتفرد بقبول توبة التائبين من عباده، لا يشركه في ذلك أحد من خلقه، ولا يغفر الذنوب والخطايا إلا هو .

قال القرطبي بعد أن نقل كلام الأقليشي وابن الحصار: وإذا ثبت هذا فاعلم أنه ليس لأحد قُدرة على خلق التوبة في قلب أحد؛ لأنه سبحانه هو المنفرد بخلق

(١) في الأصل: «فبهذا»، وهو خطأ. (٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٧٧ب).

(٣) المصدر السابق ورقة (٣٧٧ب، ٣٧٨أ).

الأعمال وحده^(١) خلافاً للمعتزلة ومن قال بقولهم.

وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه.

قال ابن الحصار: «وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم في الدين، اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﷻ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتي الخبر أو الراهب فيعطيه شيئاً، ويحط عنه الذنب!! ﴿أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]»^(٢).

وهو ما يسمى بـ«ضكوك الغفران»!! وهي من ضلالاتهم الكثيرة التي أضلوا بها الناس وأكلوا بها أموالهم بالباطل دهوراً طويلة كما قال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُودُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

فليس لأحد من خلق الله تعالى - ملكاً كان أو رسولاً - سلطان في محو الذنب أو ستره، أو تلقى الاعتراف بالذنب، سوى الرب التواب ﷻ، إلا الشفاعة وهي من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى من عباده.

وفي تقرير هذا يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وفي الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لأبي بكر: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كبيراً - أو كثيراً - ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم»^(٣).

(١) وهذا لا يعني أن الإنسان ليست له مشيئة، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، فالإنسان فاعل لفعله حقيقة، وله قدرة واختيار، وقدرته مؤثرة في مقدورها كما تؤثر القوى والطبائع والأسباب، ودل على ذلك الشرع والعقل. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٣٩/٣٠).

(٢) «الكتاب الأسنى» (٣٧٨ ج ٣ - ٣٧٩).

ونحو هذا ما قاله ابن القيم في «المدارج» (١/١٧٩): «ولما كانت «التوبة» هي رجوع العبد إلى الله، ومفارقة لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم، ولا تحصل هدايته إلا بإعانتة وتوجيهه فقد انتظمها سورة الفاتحة أحسن انتظام..».

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٢/٣١٧)، وفي الدعوات (١١/١٣١)، ومسلم في الذكر والدعاء (٤/٢٠٧٨) من طرق عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عبد الله بن عمرو عن أبي بكر أنه قال لرسول الله ﷺ: علمني دعاء أدعوه به في صلاتي، قال: «قل: اللهم إني ظلمت..».

وفي الآية الكريمة وهذا الدعاء إقرار الوجدانية له في التوبة، إذ معناهما: أنه لا يفعل هذا إلا أنت فافعله لي.

٣ - جاء اسمه (التواب) مقترناً بـ(الرحيم) و(الحكيم).

قال قتادة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤]: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَهَّابُ لِعِبَادِهِ الْإِنَابَةَ إِلَى طَاعَتِهِ الْمَوْفِقِ مِنْ أَحَبِّ تَوْفِيقِهِ مِنْهُمْ لِمَا يُرْضِيهِ عَنْهُ (الرحيم) بِهِمْ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ بَعْدَ التَّوْبَةِ، أَوْ يَخْذُلَ مَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ، وَلَا يَتُوبُ عَلَيْهِ^(١).

وقال ابن جرير بعد أن ذكر معنى (التواب) الذي تقدم: وأما قوله: (الرحيم) فإنه يعني: أنه المتفضل عليه مع التوبة بالرحمة ورحمته إياه إقالة عثرته، وصفحه عن عقوبة جرمه^(٢).

وقال شهاب الدين الألوسي: وَجَمَعَ بَيْنَ وَصْفَيْ كَوْنِهِ تَوَّاباً وَكَوْنِهِ رَحِيماً، إِشَارَةً إِلَى مَزِيدِ الْفَضْلِ، وَقَدَّمَ (التَّوَّابَ) لظُهُورِ مَنَاسِبَتِهِ لِمَا قَبْلَهُ.

وقيل: في ذكر (الرحيم) بعده إشارة إلى أن قَبُولَ التَّوْبَةِ لَيْسَ عَلَى سَبِيلِ الْوَجُوبِ - كَمَا زَعَمَتِ الْمَعْتَزَلَةُ - بَلْ عَلَى سَبِيلِ التَّرْحَمِ وَالتَّفَضُّلِ، وَأَنَّهُ الَّذِي سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبُهُ، فَيَرْحَمُ عَبْدَهُ فِي عَيْنِ غَضَبِهِ، كَمَا جَعَلَ هُبُوطُ آدَمَ سَبَبَ ارْتِفَاعِهِ، وَبُعْدُهُ سَبَبَ قُرْبِهِ، فَسَبَّحَانَهُ مَنْ تَوَّابٍ مَا أَكْرَمَهُ وَمَنْ رَحِيمٍ مَا أَعْظَمَهُ^(٣).

فِيَتَحَصَّلُ مِنْ ذَلِكَ:

أ - أن الله تعالى رحيم بعباده فلا يعاقبهم بعد التوبة.

ب - أنه تعالى لا يخذل ولا يردُّ من جاء منهم تائباً، ولو بلغت ذنوبه عَنَانُ السَّمَاءِ وَمِلاءُ الْأَرْضِ.

ج - أنه تعالى يرحم عبده ويقبل توبته في عين غضبه؛ لِأَنَّ رَحْمَتَهُ تَعَالَى تَسْبِقُ غَضَبَهُ^(٤).

د - أن قبوله لتوبة عباده تفضلٌ منه عليهم، وهو مقتضى رحمته تعالى بهم.

* أما عن اقتران (التواب) بـ(الحكيم):

فيقول ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ

= وأخرجه البخاري في التوحيد (٣٧٢/١٣)، ومسلم (٢٠٧٨/٤) عن ابن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث، عن يزيد بن أبي حبيب، به. وجاءت هذه العبارة أيضاً في دعاء الاستفتاح: «وجهت وجهي..» ودعاء سيد الاستغفار.

(١) «جامع البيان» (٤١/١١). (٢) المصدر السابق (١/١٩٥).

(٣) «روح المعاني» (١/٢٣٨).

(٤) انظر (ص ٦٠) من هذا الكتاب، في آثار الإيمان بـ(الرحمن الرحيم).

حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ [النور: ١٠]: «يقول تعالى ذكره: لولا فضلُ الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم، وأنه عَوَّادٌ على خلقه بلطفه وطوله، (حكيمٌ) في تدبيره إياهم وسياسته لهم، لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم، وفَضَّحَ أهل الذنوب منكم بذنوبهم، ولكنه سَتَرَ عليكم ذنوبكم وترك فضيحتكم بها عاجلاً، رحمةً منه بكم وتفضلاً عليكم. فاشكروا نِعَمَهُ، وانتهوا عن التَّقدم عما عنه نهاكم عن مَعَاصِيهِ وتَرَكِ الجواب في ذلك اكتفاء بمعرفة السامع المراد منه»^(١).

وقال البغوي في الآية نفسها: «جواب ﴿وَلَوْلَا﴾ محذوف؛ يعني: لعاجلكم بالعقوبة، ولكنه سَتَرَ عليكم ورفع عنكم الحدَّ باللَّعان، وأن الله توابٌ يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة، حكيم فيما فرض من الحدود»^(٢).

وقال الألوسي: «جواب ﴿وَلَوْلَا﴾ محذوف لتهويله، حتى كأنه لا توجد عبارة تحيط ببيانه، وهذا الحذف شائع في كلامهم، فكأنه قيل: لولا تفضله تعالى عليكم ورحمته سبحانه وأنه تعالى مبالغ في قبوله التوبة (حكيم) في جميع أفعاله وأحكامه التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان، لكان مما لا يُحيط به نطاق البيان، ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك، لوجب على الزوج حَدُّ القذف، مع أن الظاهر صدقُهُ؛ لأنه أعرف بحال زوجته، وأنه لا يفترى عليها لاشتراكهما في الفضاحة، وبعدها شرع لهم لو جعل شهاداته موجبة لحد الزنا عليها. لفات النظر إليها، ولو جعل شهاداتها موجبة لحدِّ القذف عليه لفات النظر له، ولا ريب في خروج الكلِّ عن سنن الحكمة والفضل والرحمة، فجعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما حتماً دائرة لما توجه إليه من الغائلة الدنيوية، وقد ابتلي الكاذب منهما في تَضَاعِيفِ شهاداته من العذاب بما هو أتم مما دَرَأَتْ عنها وأطم.

وفي ذلك من أحكام الحكم البالغة وآثار التفضل والرحمة ما لا يخفى، أما على الصادق فظاهر، وأما على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه في الدنيا، ودرء الحدِّ عنه وتعريضه للتوبة حسبما يُنبئ عنه التعرض لعنوان تَوَائِبِهِ تعالى.

فسبحانه ما أعظم شأنه، وأوسع رحمته، وأدق حكمته، قاله شيخ الإسلام^(٣).

(١) «جامع البيان» (٦٨/١٨).

(٢) «معالم التنزيل» (٥٦/٥) بهامش تفسير الخازن، وبنحوه مختصراً قال الخازن في تفسير (الصفحة نفسها).

(٣) «روح المعاني» (١١١/١٨) باختصار يسير.

فِيَتَحَصَّلُ مِمَّا سَبَقَ :

أ - أن الله ﷻ لَا يُعَاجِلُ أَهْلَ الْمَعَاصِي بِالْعُقُوبَةِ، بَلْ يُمَهِّلُهُمُ الْفُرْصَةَ لِلتَّوْبَةِ والرجوع، وهذا من حكمته.

ب - أنه تعالى لَا يَفْضَحُ أَهْلَ الذُّنُوبِ ابْتِدَاءً، لِيَكُونَ ذَلِكَ عَوْنًا لَهُمْ عَلَى تَوْبَتِهِمْ.

ج - أنه شرع من الحدود والكفارات مَا يُكْفِّرُ بِهِ عَنْ عِبَادَةِ الذُّنُوبِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَعَذَابِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ.

٤ - لَا يَصِحُّ تَسْمِيَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِ«التَّائِبِ» لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَسْمِيَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا لُغَةً.

قال الزجاجي: «إِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَفِيَجُوزُ أَنْ يَقَالَ: اللَّهُ ﷻ «تَائِبٌ» عَلَى عِبَادِهِ؛ أَيْ: يَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ، كَمَا قِيلَ لَهُ ﷻ: (تَوَابَ)؟».

قِيلَ لَهُ: لَيْسَ لَنَا أَنْ نُطْلِقَ عَلَى اللَّهِ ﷻ مِنَ الصِّفَاتِ إِلَّا مَا أَطْلَقَهُ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَجَاءَ فِي الْكِتَابِ وَإِنْ كَانَ فِي اللُّغَةِ مُحْتَمَلًا.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، فَقَدْ جَاءَ الْفِعْلُ مِنْهُ عَلَى فِعْلِ يَفْعَلُ.

وَمَا نَطَقَ مِنْهُ بِفِعْلِ يَفْعَلُ، فَاسْمُ الْفَاعِلِ مِنْهُ قِيَاسًا فَاعِلٌ، كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ زَيْدٌ يَضْرِبُ فَهُوَ ضَارِبٌ، وَذَهَبٌ يَذْهَبُ فَهُوَ ذَاهِبٌ، فَكَذَلِكَ يَقَالُ قِيَاسًا: تَابَ زَيْدٌ يَتُوبُ فَهُوَ تَائِبٌ. فَإِنْ كَانَتْ الْأُمَّةُ تُطْلِقُ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ ﷻ فَقِيَاسُهُ فِي اللُّغَةِ مُسْتَقِيمٌ، وَإِنْ لَمْ تُطْلَقْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ ﷻ فَلَا يَجُوزُ الْإِقْدَامُ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فِي اللُّغَةِ جَائِزًا.

عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا قِيلَ لِلَّهِ ﷻ: (تَوَابَ) لِمَبَالِغَةِ الْفِعْلِ، وَكَثْرَةِ قَبُولِهِ تَوْبَةَ عِبَادِهِ، وَلَكثْرَةِ مَنْ يَتُوبُ إِلَيْهِ وَتَرَدُّدِ هَذَا الْفِعْلِ وَتَكَرُّارِهِ وَقَبُولِهِ مِنْهُمْ لِيَدُلَّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، فَلَا يَجَاوِزُ هَذَا.

وَقَدْ جَاءَ فِي صِفَاتِهِ ﷻ مَا لَا يَنْطِقُ بِاسْمِ الْفِعْلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وَلَمْ يَقُلْ: مُتَبَارَكَ! كَمَا قِيلَ: تَعَالَى فَهُوَ مُتَعَالٍ، وَالْوِزْنُ وَالتَّقْدِيرُ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَاحِدٌ.

وَقَدْ جَاءَ فِي صِفَاتِهِ ﷻ مَا نَطَقَ بِاسْمِ الْفَاعِلِ، كَقَوْلِكَ: اللَّهُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ، وَلَا تَقُولُ: آمَنَ اللَّهُ وَلَا هَيْمَنَ، وَإِنَّمَا نَسَعَى فِي صِفَاتِهِ ﷻ إِلَى مَا أَطْلَقْتَهُ الْأُمَّةُ وَجَاءَ فِي التَّنْزِيلِ وَنُصِّحَ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ^(١).

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص ٦٣، ٦٤). وانظر: القرطبي (١/٣٢٦).

وهذا كلام سليم، وقد سبق تقريره في مقدمة هذا الكتاب المبارك بتفصيل.
أما ما جاء في «مفردات» الراغب: «فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده»^(١).

فهو من باب الإخبار، لا من باب التسمية.

٥ - التوبة هي تركُ الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وُجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه:

إما أن يقول المُعتذر: لم أفعل.

أو يقول: فعلتُ لأجل كذا.

أو فعلتُ وأسأتُ وقد أفلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو «التوبة».

والتوبة في الشرع: تركُ الذنب لقبحه، والنَّدَم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعادة، وتدارك ما أمكنه أن يُتدارك من الأعمال بالإعادة.
فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كُملَ شرائط التوبة^(٢).

٦ - التوبة واجبة على كل عبد، لا يصح أن ينفك منها في حالٍ من الأحوال، وأفضل الناس هم أحسنهم قياماً بها وبحقها، فإذا تخلّى عنها العبد صار ظالماً لنفسه.
قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ومنزلة «التوبة» أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل به، واستصحبه معه ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة «لعل» المشعرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تبتُّم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] قسم العباد إلى تائب وظالم وما تَمَّ قسم ثالث ألبته، وأوقع اسم «الظالم» على من لم يَتُبْ، ولا أظلم منه، لجهله بربه وبحقه، وبعبث نفسه وآفات أعماله. وفي «الصحيح» عنه رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فوالله إنني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين

(١) (ص ٧٦)، وكذا ما سيأتي من كلام السعدي.

(٢) «مفردات الراغب الأصفهاني» (ص ٧٦).

مرة» وكان أصحابه يُعَدُّونَ له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور» (مائة مرة)، وما صَلَّى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١) إلى آخرها، إلا قال فيها: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»، وصح عنه ﷺ أنه قال: «لن يُنْجِيَ أحداً منكم عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ». فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها^(١).

٧ - فالتوبة لا يستغني عنها أحد حتى الأنبياء صلوات الله عليهم؛ لأنها ليست نقصاً؛ بل هي من الكمال الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر به.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ عن معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]، والتوبة إنما تكون عن شيء يصدر من العبد، والنبى ﷺ معصوم من الكبائر والصغائر؟.

فأجاب شيخ الإسلام ابن تيمية: «الحمد لله، الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الإقرار على الذنوب، كبارها وصغارها، وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبة يرفع درجاتهم، ويعظم حسناتهم، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وليست التوبة نقصاً، بل هي من أفضل الكمالات، وهي واجبة على جميع الخلق كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣] فغاية كل مؤمن هي التوبة، ثم التوبة تنوع كما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

والله تعالى قد أخبر عن عامة الأنبياء بالتوبة والاستغفار: عن آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى وغيرهم، فقال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٤٧) [هود: ٤٧]، وقال الخليل: ﴿رَبَّنَا آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤١) [إبراهيم: ٤١]، وقال هو وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٨) [البقرة: ١٢٨]، وقال موسى: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (١٥٥) [الأعراف: ١٥٥، ١٥٦]، وقال

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٧٨، ١٧٩).

تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتْ لِيكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد ذكر الله سبحانه توبة داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء، والله تعالى: ﴿يُجِبُ
التَّوْبِينَ وَيُجِبُ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وفي أواخر ما أنزل الله على نبيه: ﴿إِذَا جَاءَ
نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾.

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه كان يقول في افتتاح الصلاة: «اللهم باعِدْ
بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من الخطايا كما
ينقي الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني بالثلج والبرد والماء
البارد».

وفي «الصحيح» أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح: «اللهم أنت الملك لا إله إلا
أنت، أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه
لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وفي «الصحيح» أيضاً عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه
وجله، علانيته وسريته، أوله وآخره».

وفي «الصحيحين» عنه ﷺ أنه كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي
وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي
وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما
أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا
أنت». ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] فتوبة
المؤمنين واستغفارهم هو من أعظم حسناتهم، وأكبر طاعتهم، وأجل عباداتهم التي
ينالون بها أجل الثواب، ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب.

فإذا قال قائل: أي حاجة بالأنبياء إلى العبادات والطاعات؟ كان جاهلاً؛ لأنهم
إنما نالوا ما نالوه بعبادتهم وطاعتهم، فكيف يقال: إنهم لا يحتاجون إليها؟ فهي
أفضل عبادتهم وطاعتهم.

وإذا قال قائل: فالتوبة لا تكون إلا عن ذنب، والاستغفار كذلك، قيل له: الذنب
الذي يضر صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة، فأما ما حصل منه توبة فقد يكون
صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة، كما قال بعض السلف: كان داود بعد
التوبة أحسن منه حالاً قبل الخطيئة، ولو كانت التوبة من الكفر والكبائر: فإن

السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم خيار الخليقة بعد الأنبياء، وإنما صاروا كذلك بتوبتهم مما كانوا عليه من الكفر والذنوب، ولم يكن ما تقدم قبل التوبة نقصاً ولا عيباً، بل لما تابوا من ذلك وعملوا الصالحات كانوا أعظم إيماناً، وأقوى عبادة وطاعة ممن جاء بعدهم فلم يعرف الجاهلية كما عرفوها.

ولهذا قال عمر بن الخطاب: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من^(١) لم يعرف الجاهلية، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مُهْكًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ: «أن الله يُحاسب عبده يوم القيامة، فيعرض عليه صِغَار الذنوب ويخبأ عنه كبارها فيقول: فعلت يوم كذا كذا وكذا؟ فيقول: نعم يا رب! وهو مُشْفِقٌ من كبارها أن تظهر، فيقول: إني قد عَفَرْتُهَا لك، وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة، فهناك يقول: ربِّ إنَّ لي سيئات ما أراها بعد».

فالعبد المؤمن إذا تاب وبدَّل الله سيئاته حسنات انقلب ما كان يضره من السيئات بسبب توبته حسنات ينفعه الله بها، فلم تبق الذنوب بعد التوبة مضرة له، بل كانت توبته منها من أنفع الأمور له، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية، فمن نسي القرآن ثم حفظه خيراً من حفظه الأول لم يضره النسيان، ومن مرض ثم صح وقوي لم يضره المرض العارض.

والله تعالى يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه، ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع، والخشوع لله والإنابة إليه، وكمال الحذر في المستقبل والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة، كم ذاق الجوع والعطش، والمرض والفقر والخوف، ثم ذاق الشَّبَع والرِّي والعافية والغنى والأمن، فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته، والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه، والحذر أن يقع فيما حصل أولاً ما لم يحصل بدون ذلك، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع.

وينبغي أن يعرف أن التوبة لا بدَّ منها لكل مؤمن، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله، ويزول عنه كل ما يكره إلا بها.

(١) في الأصل: «مع»، وهو خطأ.

* [كمال توبة النبي ﷺ]:

ومحمد ﷺ أكملُ الخلق وأكرمهم على الله، وهو المقدم على جميع الخلق في أنواع الطاعات، فهو أفضل المحبين لله وأفضل المتوكلين على الله، وأفضل العابدين له، وأفضل العارفين به، وأفضل التائبين إليه، وتوبته أكمل من توبة غيره، ولهذا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وبهذه المغفرة نال الشفاعة يوم القيامة، كما ثبت في «الصحيح»: «إن الناس يوم القيامة يطلبون الشفاعة من آدم، فيقول: إني نُهيئت عن الأكل من الشجرة فأكلتُ منها، فنسي نفسي نفسي، ويطلبونها من نوح فيقول: إني دَعَوْتُ على أهل الأرض دعوةً لم أؤمر بها، نفسي نفسي نفسي، ويطلبونها من الخليل، ثم من موسى، ثم من المسيح فيقول: اذهبوا إلى محمد عبدٌ غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر. قال: فيأتوني فأنتلق، فإذا رأيت ربي خررت له ساجداً، فأحمد ربي بمحمدَ يفتحها عليّ لا أحسنها الآن، فيقول: أي محمد! ارفع رأسك، وقُلْ تُسمع، وسلْ تُعطَ واشفع تشفع، فأقول: أي رب أمتي! فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة».

فالمسيح - صلوات الله عليه وسلامه - دلّهم على محمد ﷺ، وأخبر بكمال عبوديته لله، وكمال مغفرة الله له، إذ ليس بين المخلوقين والخالق نسب إلا محض العبودية والافتقار من العبد، ومحض الجود والإحسان من الرب ﷻ.

وقد ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتعمدني الله برحمته منه وفضل».

وثبت عنه في «الصحيح» أنه كان يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وثبت عنه في «الصحيح» أنه قال: «إنّه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرّة»، فهو ﷺ لكمال عبوديته لله، وكمال محبته له، وافتقاره إليه، وكمال توبته واستغفاره: صار أفضل الخلق عند الله فإنّ الخير كلّهُ من الله، وليس للمخلوق من نفسه شيء، بل هو فقير من كل وجه، والله غنيٌّ عنه من كل وجه، محسنٌ إليه من كل وجه، فكلما ازداد العبد تواضعاً وعبودية ازداد إلى الله قرباً ورفعة، ومن ذلك توبته واستغفاره.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ بني آدم خطّاء، وخيرُ الخطّائين

التَّوَابُونَ»، رواه ابن ماجه والترمذي^(١).

٨ - للإمام المحقق ابن القيم رحمه الله كلمات رائعات، في وصف الإنسان وحاله مع ربه جلَّ شأنه، في احتجاجة عليه بقدِّره، ونسيانه لذكره وشكره، ثم وُصف الرب سبحانه وسعة رحمته، وتواصل بره وإحسانه بعباده، وقبوله لتوبتهم وفرحه تعالى بها. . كل ذلك في هذه الخطرات إذ يقول عن هذا الإنسان الظلوم الجهول:

«يا ويله ظهيراً للشيطان على ربه، خصماً لله مع نفسه، جبزي المعاصي، قدري الطاعات^(٢)، عاجز الرأي مضياً لفرصته، قاعدٌ عن مصالحه، معاتب لأقدار ربه، يحتجُّ على ربه بما لا يقبله من عبده وامراته وأمته، إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره، فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه، أو نهاء عن شيء فارتكبه، وقال: القدر ساقني إلى ذلك. لما قَبِلَ منه هذه الحجة، ولبادَرَ إلى عقوبته.

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك، فهلا كان حجة لعبدك وأمتك في ترك بعض حقك؟ بل إذا أساء إليك مسيء، وجنى عليك جان، واحتج بالقدر؛ لاشتد غضبك عليه، وتضاعف جُرمه عندك، ورأيت حجته داحضة، ثم تحتج على ربك به، وتراه عذراً لنفسك؟! فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مَدَى الأنفاس: أزاح عِللك، ومَكَّنك من التزود إلى جَنَّتِه، وبعث إليك الدليل، وأعطاك مؤنة السفر، وما تتزود به، وما تحارب به قُطَاع الطريق عليك؛ فأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعَرَّفَكَ الخير والشر، والنافع والضار، وأرسل إليك رسوله، وأنزل إليك كتابه، ويسره للذكر والفهم والعمل، وأعانك بمدد من جنده الكرام، يثبتونك ويحرسونك، ويحاربون عدوك ويطرده عنك، ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه، وهم يكفونك مؤنته، وأنت تأبى إلا مظاهرتهم عليهم، وموالاته دونهم، بل تُظاهره وتواليه دون وَلِيِّك الحق الذي هو أولى بك! قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] طرد إبليس عن سمائه، وأخرجته من جنته،

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/٥١ - ٥٧).

(٢) أي: إذا فعل المعاصي، احتج بأنه مجبور عليها! وإن فعل الطاعات، نسبها لنفسه وقدرته!.

وأبعده من قربه، إذ لم يَسْجُدْ لك، وأنت في صُلب أبيك آدم، لكرامتك عليه، فعاده
وأبعده، ثم واليت عدوه، ومِلْتُ إليه وصالحته، وتتظلم مع ذلك وتشتكي الطرد
والإبعاد! وتقول:

عوّدوني الوصال والوصلُ عَذْبُ ورموني بالصّدِّ والصّدُّ صعب
نعم، وكيف لا يَظْرُدُ من هذه معاملته؟ وكيف لا يبعد عنه من كان هذا وصفه؟
وكيف يجعل من خاصته وأهل قُربه مَنْ حاله معه هكذا؟ قد أفسد ما بينه وبين الله
وكذّره!!

أمره الله بشكره، لا لحاجته إليه، ولكن لينال به المزيد من فضله، فجعل كُفْرَ
نِعَمِهِ، والاستعانة بها على مساخطه: من أكبر أسباب صرفها عنه.

وأمره بذكره ليدكره بإحسانه، فجعل نسيانه سبباً لنسيان الله له ﴿سَوِّأَ اللَّهُ فَاَسْنَهُمْ
أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، ﴿سَوِّأَ اللَّهُ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أمره بسؤاله ليعطيه، فلم يسأله،
بل أعطاه أجلّ العطايا بلا سؤال، فلم يقبل، يشكو مَنْ يرحمه إلى من لا يرحمه!
ويتظلم ممن لا يظلمه، ويدعُ من يُعاديهِ ويظلمه! إن أنعم عليه بالصحة والعافية
والمال والجاه استعان بنعمه على معاصيه! وإن سلب ذلك ظَلَّ متسخطاً على ربه
وهو شاكيه! لا يصلح له على عافية، ولا على ابتلاء! العافية تُلقِيهِ إلى مساخطه،
والبلاء يدفعه إلى كفرانه وجحود نعمته، وشكايته إلى خلقه!

دعاه إلى بابه فما وقف عليه ولا طَرَقَه، ثم فتحه له فما عَرَّجَ عليه ولا وَلَجَه!
أرسل إليه رسوله يدعوه إلى دار كرامته، فعصى الرسول، وقال: لا أبيع ناجزاً
بغائب، ونَقْداً بَنَسِيئة، ولا أترك ما أراه لشيء سمعت به! ويقول:

خُذْ ما رأيت ودَعْ شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يُغْنِيكَ عن زُحَلٍ
فإن وافق حُظُّهُ طاعة الرسول أطاعه لنيل حظه، لا لرضى مرسله، لم يزل يتمت
إليه بمعاصيه، حتى أعرَضَ عنه، وأغلق الباب في وجهه.

ومع هذا فلم يُؤَيِّسه من رحمته، بل قال: متى جئتني قبلتك، أتيتني ليلاً قبلتك،
وإن أتيتني نهاراً قبلتك، وإن تقربت مني شبراً تقربت منك ذراعاً، وإن تقربت مني
ذراعاً تقربت منك باعاً، وإن مشيت إليَّ هرولتُ إليك، ولو لقيتني بقراب الأرض
خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، أتيتك بقرابها مغفرة، ولو بلغت ذنوبك عنان
السماء، ثم استغفرتني غفرتُ لك. ومن أعظم مني جوداً وكرماً؟.

عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلوهم على فُرْشهم، إني والجن والإنس في نبيٍّ
عظيم: أخلقُ ويُعبد غيري، وأرزقُ ويُشكرُ سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم

إِلَيَّ صَاعِد، أَتَجَبُّ إِلَيْهِمْ بِنِعْمِي، وَأَنَا الْغَنِي عَنْهُمْ، وَيتَغَضُّونَ إِلَيَّ بِالْمَعَاصِي، وَهُمْ أَفْقَرُ شَيْءٍ إِلَيَّ!!.

مَنْ أَقْبَلَ إِلَيَّ تَلْقَيْتَهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي نَادَيْتَهُ مِنْ قَرِيبٍ، وَمَنْ تَرَكَ لِأَجْلِي أَعْطَيْتَهُ فَوْقَ الْمَزِيدِ، وَمَنْ أَرَادَ رِضَايَ أَرَدْتُ مَا يَرِيدُ، وَمَنْ تَصَرَّفَ بِحَوْلِي وَقُوَّتِي أَلَنْتُ لَهُ الْحَدِيدَ.

أَهْلُ ذِكْرِي أَهْلُ مَجَالِسْتِي، وَأَهْلُ شُكْرِي أَهْلُ زِيَادَتِي، وَأَهْلُ طَاعَتِي أَهْلُ كِرَامَتِي، وَأَهْلُ مَعْصِيَتِي لَا أَقْنُطُهُمْ مِنْ رَحْمَتِي، إِنْ تَابُوا إِلَيَّ فَأَنَا حَبِيبُهُمْ، فَإِنِّي أَحَبُّ التَّوَابِينَ وَأَحَبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَتَوَبُوا إِلَيَّ فَأَنَا طَبِيبُهُمْ، أَبْتَلِيَهُمْ بِالْمَصَائِبِ، لِأَطْهَرَهُمْ مِنَ الْمَعَاصِي.

مَنْ آثَرَنِي عَلَى سِوَايَ آثَرْتَهُ عَلَى سِوَايَ، الْحَسَنَةُ عِنْدِي بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَالسَّيِّئَةُ عِنْدِي بِوَاحِدَةٍ، فَإِنْ نَدِمَ عَلَيْهَا وَاسْتَغْفَرَنِي غَفَرْتُهَا لَهُ.

أَشْكُرُ الْيَسِيرَ مِنَ الْعَمَلِ، وَأَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ، رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، وَحَلَمِي سَبَقَ مُؤَاخَذَتِي، وَعَفْوِي سَبَقَ عِقَابِي، أَنَا أَرْحَمُ بَعْدِي مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلَدِهَا «اللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ بِأَرْضٍ مَهْلِكَةٍ دَوِّيَّةٍ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشِرَابُهُ، طَلَبَهَا حَتَّى إِذَا أَيْسَ مِنْ حُصُولِهَا، نَامَ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ، فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا هِيَ عَلَى رَأْسِهِ، قَدْ تَعَلَّقَ خِطَامُهَا بِالشَّجَرَةِ، فَاللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ».

وَهَذِهِ فَرَحَةٌ إِحْسَانٍ وَبِرٍّ وَلُطْفٍ، لَا فَرَحَةً مُحْتَاجٍ إِلَى تَوْبَةِ عَبْدِهِ، مُنْتَفِعٍ بِهَا، وَكَذَلِكَ مَوَالَاتُهُ لِعَبْدِهِ إِحْسَانًا إِلَيْهِ، وَمَحَبَّةٌ لَهُ وَبِرًّا بِهِ، لَا يَتَكَبَّرُ بِهِ مِنْ قَلَةٍ، وَلَا يَتَعَزَّزُ بِهِ مِنْ ذِلَّةٍ، وَلَا يَنْتَصِرُ بِهِ مِنْ غَلَبَةٍ، وَلَا يَعِدُّهُ لِنَائِبَةٍ، وَلَا يَسْتَعِينُ بِهِ فِي أَمْرٍ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإِسْرَاءُ: ١١١] فَنفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ.

فَهَذَا شَأْنُ الرَّبِّ وَشَأْنُ الْعَبْدِ، وَهُمْ يَقِيمُونَ أَعْذَارَ أَنْفُسِهِمْ، وَيَحْمِلُونَ ذُنُوبَهُمْ عَلَى أَقْدَارِهِ^(١).



(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٩٢ - ١٩٥).

العَفْوُ

جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

(٨١)

* المعنى اللغوي:

(العفو) فعول من قولك: عفا يعفو عفواً فهو عفو.
ويقال: عفوتُ عن الشيء، أعفو عنه، إذا تركته، وعفا عن ذنبه إذا ترك العقوبة عليه.
و(العَفْوُ) على فَعُولٍ: الكثير العفو.
وعفا المنزل يعفو: دَرَسَ وانمَحَى.
وعفا الشَّعر والنبت وغيرهما: كَثُرَ، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ [الأعراف: ٩٥]؛ أي: كثروا.

وعَفُو المال: ما يَفْضُلُ عن النفقة.

ويقال: أعفني من الخروج معك؛ أي: دعني منه.

وعافاه الله وأعفاه بمعني، والاسم العافية، وهي دفاع الله عن العبد^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم خمس مرات، وهي:

قوله تعالى: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩].

وقوله: ﴿إِن يُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ لُفُّوا أَوْ تُخَفُّوا أَوْ تُعَفُّوا عَنْ سُوِّ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

[النساء: ١٤٩].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَافَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ

اللَّهُ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

(١) «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٦٢)، و«اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص ١٣٤، ١٣٥)،
و«المفردات» للراغب (ص ٣٣٩، ٣٤٠)، و«الصحاح» للجوهري (٦/ ٢٤٣١ - ٢٤٣٣)،
و«اللسان» مادة (عفا).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً﴾ [النساء: ٤٣]: إن الله لم يزل عفواً عن ذنوب عباده، وتركه العقوبة على كثير منها ما لم يشركوا به^(١).
وقال الزجاج بعد أن ذكر المعنى اللغوي: «والله تعالى عفواً عن الذنوب، تارك العقوبة عليها»^(٢).

وقال أبو جعفر النحاس: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً﴾؛ أي: يقبل العفو، وهو السهل^(٣).
وقال الخطابي: «(العفو) وزنه فَعُولٌ من العَفْوِ، وهو بناء المبالغة، والعَفْوُ: الصَّفْحُ عن الذنوب، وترك مُجازاة المسيء.

وقيل: إنَّ العَفْوَ مأخوذٌ من عَفَّتِ الريح الأثر، إذا دَرَسَتْه. فَكَانَ^(٤) العافي عن الذنب يَمْحُوهِ بِصَفْحِهِ عَنْهُ»^(٥).

وقال الحليمي: «(العفو) ومعناه: الواضِعُ عن عباده تَبَعَاتِ خطاياهم وأثارهم، فلا يستوفيها منهم، وذلك إذا تابوا واستغفروا، أو تركوا لوجهه أعظم مما فعلوا، فيكفر^(٦) عنهم ما فعلوا بما تركوا، أو بشفاعته من يشفع لهم، أو يجعل ذلك كرامة لذي حرمة لهم به، وجزاء له بعمله»^(٧).

وقال السعدي: «(العَفْوُ العَفْور العَفَّار): الذي لم يَزَلْ ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالعُفْران والصَّفْح عن عباده مَوْصُوفاً، كُلُّ أَحَدٍ مضطراً إلى عفوهِ ومغفرته، كما هو مضطَرٌّ إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [٨٢]»^(٨).

وقال ابن القيم في «النونية»:

وهو العَفْوُ فَعَفَوْهُ وَسَعَ الْوَرَى لولاه غَارَ الأرض بالسُّكَّانِ^(٩)

(١) «جامع البيان» (٧٤/٥). وانظر (١٤٨/٥، ٤/٦).

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٦٢). (٣) «إعراب القرآن» (ص ١/٤٥٩).

(٤) في المطبوعة من «شأن الدعاء»: مكان، وهو خطأ.

(٥) «شأن الدعاء» (ص ٩٠، ٩١). (٦) في «الأسماء» للبيهقي: «ليكفر».

(٧) «المنهاج» (٢٠١/١) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٥٥)، وسقط من آخره: «له بعمله».

(٨) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٠٠/٥).

(٩) «النونية» (٢٧٧/٢)؛ أي: ولولا كمال عفوهِ وسعة حلمه، لغَارَتْ الأرض بأهلها، لكثرة ما يُرتكب من المعاصي على ظهرها. انظر: «شرح النونية» لمحمد خليل هراس (٨١/٢).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن الله سبحانه هو (العفو) الذي له العفو الشامل، الذي وسع ما يصدر عن عباده من الذنوب، ولا سيما إذا أتوا بما يوجب العفو عنهم من الاستغفار والتوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فهو سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات. وهو عَفُوٌّ يحب العفو، ويحب من عباده أن يسعوا في تحصيل الأسباب التي ينالون بها عفوهُ من السعي في مرضاته، والإحسان إلى خلقه.

ومن كمال عفوهِ: أنه مهما أسرف العبد على نفسه، ثم تاب إليه ورجع عَفَرَ له جميع جُرمه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولولا كمال عفوهِ، وسعة حلمه سبحانه ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب، ولا نفس تطرف: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُوَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [النحل: ٦١] (١).

٢ - أنه تعالى: (عَفُوٌّ غفور) مع قدرته على خلقه، وقهره لهم، وقد نبه خلقه إلى ذلك بقوله: ﴿إِن يُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّهُ أَوْ تُعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

أي: إن تقولوا للناس حسناً أو تُخفوا ذلك، أو تصفحوا لمن أساء إليكم وتعفوا عنه، فإن الله تعالى لم يزل يعفو عنكم ويصفح، مع قدرته على عقابكم والانتقام منكم.

أي: فاعفوا أنتم أيضاً عن الناس كما أن الله يعفو عنكم ويغفر لكم. وقد حثَّ الله تعالى عباده على العفو والصفح وقبول الأعذار من رعاياهم وأصدقائهم وأرحامهم مرة بعد مرة.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

(١) وليس أدلُّ على كمال عفوهِ سبحانه من قول الرسول ﷺ: «ليس أحدٌ - أو ليس شيء - أصبر على أذى سَمِعَهُ من الله، إنهم لَيَذْعُون له ولداً، وإنه ليعافيههم ويرزقهم».

أخرجه البخاري في الأدب (٥١١/١٠)، وفي التوحيد (٣٦٠/١٣)، ومسلم في المنافقين (٢١٦٠/٤) من طرق عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى رضي الله عنه.

وقد نزلت في الصديق ﷺ حين حلف ألا يُنفق على مسطح وهو من ذوي رحمته، بعد أن خاض مع الخائضين في حديث الإفك، ونزل القرآن ببراءة الصديقة ﷺ.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقال سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وحثه على قبول العفو فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ومدح بذلك عباده المؤمنين فقال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»^(١).

قال النووي: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً»: فيه وجهان: أحدهما: أنه على ظاهره، وأن من عُفِيَ بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب، وزاد عزه وإكرامه.

والثاني: إن المراد أجره في الآخرة وعزّه هناك»^(٢).

٣ - تكرر سؤال النبي ﷺ ربه تعالى العفو والعافية في أحاديث كثيرة فمن ذلك: إن عبد الله بن عمر أمر رجلاً إذا أخذ مضجعه قال: «اللهم خَلَقْتَ نفسي وأنت توفّاها، لك مَمَاتُها ومحياها، إن أحييتها فاحفظها، وإن أمتّها فاغفر لها، اللهم إني أسألك العافية»، فقال له رجل: أسمعت هذا من عمر؟ فقال: من خير من عمر، من رسول الله ﷺ^(٣).

وعنه أيضاً: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يُصبح وحين يمسي: «اللهم اسْئُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»، قال وكيع: يعني: الخسف^(٤).

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٣٥، ٣٨٦)، ومسلم في البر والصلّة (٤/٢٠٠١) من طرق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ﷺ به.

وله شاهد من حديث أبي كبشة الأنماري، أخرجه أحمد (٤/٢٣١).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٦/١٤١). (٣) أخرجه مسلم في الذكر (٤/٢٠٨٣).

(٤) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٢/٢٥)، وأبو داود (٥/٥٠٧٤)، والنسائي (٨/٢٨٢) =

وكان يستعيز بعفو الله تعالى من عقوبته وعذابه، كما جاء ذلك في دعائه في صلاة الليل: «اللهم أعوذُ برضاك من سَخَطِكَ، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذُ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(١).

وسأله رجل فقال: يا رسول الله، كيف أقول حين أسألُ ربي؟ قال: «قل: اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني - وجمع أصابعه إلا الإبهام - فإنَّ هؤلاء تجمعُ لك دنياك وآخرتك»^(٢).

٤ - الفرق بين العفو والمغفرة:

قال في المقصد: «(العَفْوُ) هو الذي يَمْحو السيئات، ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريبٌ من (الغفور) ولكنه أبلغ منه، فإنَّ الغُفْران يُنبئُ عن السُّتْرِ، والعَفْو يُنبئُ عن المَحْو، والمحو أبلغ من السُّتْرِ»^(٣).

وقال القرطبي: «وقال بعض العلماء: والفرق بين العَفْو والغُفْران، أن الغُفْران: سِتْرٌ لا يقع معه عقابٌ، والعَفْو إنما يكون بعد وجود عذاب وعتاب»^(٤).

وفيه نظر! فإنَّ العفو فيه معنى ترك العقوبة والصفح كما مرَّ آنفاً، فالفارق الأول أقرب.

وفي «المفردات» للراغب: «وقولهم في الدعاء: «أسألك العفو والعافية»؛ أي: تركَّ العقوبة والسلامة»^(٥).

= مختصراً وفي «عمل اليوم والليلة» (٥٦٦) تاماً، وابن ماجه (٣٨٧١) من طرق عن عبادة بن مسلم الفزاري: حدثني جبير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم، قال: سمعت ابن عمر... فذكره. وهذا إسناد صحيح، رجاله ثقات.

تنبيه: وقع في المسند «عمارة» بدل «عبادة»، وهو خطأ مخالف لجميع الأصول.

(١) أخرجه أحمد (٥٨/٦، ٢٠١)، ومسلم في الصلاة (٣٥٢/١) عن محمد بن يحيى بن حبان عن الأعرج عن أبي هريرة عن عائشة قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفرائش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدمه وهو في المسجد وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللهم..».

وقد سقط اسم أبي هريرة في الموضع الأول عند أحمد، والحديث أخرجه أصحاب السنن.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر (٢٠٧٣/٤) من حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه.

وفي رواية: كان الرجل إذا أسلم علمه النبي ﷺ الصلاة ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: «اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني».

(٣) «المقصد الأسنى» (ص ٨٩).

(٤) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٨٦ب).

(٥) «المفردات» (ص ٣٤٠).

وقال الخليل بن أحمد: «كل من استحق عقوبةً فتركته ولم تعاقبه عليها فقد عَفَوْتُ عنه عفوًّا».

حكاه الزجاجي ثم قال: «والعفو متعلق بالمفعول، لا يكون إلا عن مَذْنِبٍ موجودٍ مستحق للعقوبة، ويجوز أن يكون على مذهب أهل اللغة العفو عن الذنب: إِذْهَابُهُ وإبطاله، كما يقال: عَفَتِ الرِّيحُ المنزل؛ أي: مَحَتْ معالمه ودرست آثاره. فالعافي عن الذنب كأنه مُبْطِلٌ له مذهب، فإذا عفا عن الذنب فقد أبطله وذهب به فيكون اشتقاقه من هذا»^(١).



(١) «اشتقاق أسماء الله» (ص ١٣٤).

الرَّؤُوفُ

جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

(٨٢)

* المعنى اللغوي:

الرَّأْفَةُ: أشدُّ الرحمة، قال أبو زيد: «رَوَّفْتُ بالرجل أَرْوْفُ بِهِ رَأْفَةً وَرَأْفَةً، وَرَأَفْتُ بِهِ أَرَأَفَ، وَرِئِفْتُ بِهِ رَأْفًا، قَالَ: كُلٌّ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، فَهُوَ رَوْوْفٌ عَلَى فَعُولٍ»^(١).
وقال ابن الأعرابي: «الرأفة: الرحمة»^(٢).

وقال الزَّجَّاج: «يُقَالُ: إِنَّ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ وَاحِدٌ، وَقَدْ فَرَّقُوا بَيْنَهُمَا أَيْضًا، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّأْفَةَ هِيَ الْمَنْزِلَةُ الثَّانِيَّةُ، يُقَالُ: فَلَانٌ رَحِيمٌ، فَإِذَا اشْتَدَّتْ رَحْمَتُهُ، فَهُوَ رَوْوْفٌ»^(٣).

وقال أبو عبيدة: «(رؤوف): فعول من الرحمة، وهي أشد الرحمة.

قال الكمي:

وهم الأرففون بالناس في الرؤفة والأحلمون في الأحلام»^(٤).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم في عشر آيات من كتاب الله تعالى، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّوْفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَّوْفٌ إِلَّابَادٍ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّوْفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٧].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّوْفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَّوْفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

(٢) «اللسان» مادة (رأف).

(١) «الصحيح» (٤/١٣٦٢).

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٦٢). انظر: «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص ٨٦).

(٤) «معجاز القرآن» (١/٥٩) وقال ابن جرير عن (الرأفة): إنها رقة الرحمة. «جامع البيان» (٢/١٨٧).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال أبو عبيدة: «(رؤوف) فعول من الرأفة وهي أرقُّ الرحمة، قال كعب بن مالك الأنصاري:

نُطِيعَ نَبِينَا وَنُطِيعَ رَبًّا هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رُؤُوفًا^(١)
قال ابن جرير: «(إِنَّ اللَّهَ بِالْكَاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ)» إِنَّ اللَّهَ بِجَمِيعِ عِبَادِهِ ذُو رَأْفَةٍ،
والرأفة أعلى معاني الرحمة، وهي عامة لجميع الخلق في الدنيا ولبعضهم في
الآخرة^(٢).

وقال الخطابي: «(الرؤوف) هو الرحيم العاطف برأفته على عباده.

وقال بعضهم: الرأفة أبلغ الرحمة وأرقُّها.

ويقال: إن الرأفة أخصُّ، والرحمة أعمُّ، وقد تكون الرحمة في الكراهة
للمصلحة، ولا تكاد الرأفة تكون في الكراهة، فهذا موضع الفرق بينهما^(٣).

وقال الحليمي: «(الرؤوف) ومعناه: التساهل على عباده^(٤)؛ لأنه لم يُحملهم ما
لا يطيقون، بل حَمَلَهُمْ أَقْلَ مما يطيقون^(٥) بدرجات كثيرة.

ومع ذلك غلظ فرائضه في حال شدة القوة، وخففها في حال الضعف ونقصان
القوة، وأخذ المُقيم بما لم يأخذ به المسافر، والصحيح بما لم يأخذ به المريض.
وهذا كله رأفة ورحمة^(٦).

وقال في «المقصد»: «(الرؤوف) ذو الرأفة، والرأفة شدة الرحمة، فهو بمعنى
الرحيم مع المبالغة^(٧).

* الفرق بين الرأفة والرحمة:

تقدم في هذا كلام أبي عبيدة وابن جرير والزجاج والخطابي أنهم ذكروا فروقاً بينهما.

(١) «مجاز القرآن» (١/ ٢٧٠).

(٢) «جامع البيان» (٢/ ١٢).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٩١)، ومن قوله: «الرأفة أبلغ..» إلى قوله: «والرحمة أعم». نقله
الأصبهاني في «الحجة» (ق ٢٦ ب).

(٤) في «الأسماء» للبيهقي: «المساهل عباده».

(٥) قوله: «بل حَمَلَهُمْ أَقْلَ مما يطيقون» ساقطة من مطبوعة «المنهاج»، واستدركناها من
«الأسماء».

(٦) «المنهاج» (١/ ٢٠١) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله
البيهقي في «الأسماء» (ص ٥٧).

(٧) «المقصد» (ص ٨٩)، وبمثله قال القرطبي في «الأسنى» ورقة (٢٨٩).

وجاء في «الأسنى» للقرطبي: «إنَّ الرَّأْفَةَ^(١) نعمة مُلْدَةٌ من جميع الوجوه، والرحمة قد تكون مؤلمة في الحال، ويكون في عقابها لذة.

ولذلك قال: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢] ولم يقل: رحمة، فإنَّ ضَرْبَ الْعَصَا عَلَى عَصِيَانِهِمْ رَحْمَةٌ لَهُمْ لا رَأْفَةٌ، فَإِنَّ صِفَةَ الرَّأْفَةِ إِذَا انْسَدَلَتْ عَلَى مَخْلُوقٍ لَمْ يَلْحَقْهُ مَكْرُوهٌ.

فلذلك تقول لمن أصابه بلاءٌ في الدنيا، وفي ضمنه خير من الأخرى: إن الله قد رَحِمَهُ بهذا البلاء.

وتقول لمن أصابه عافية في الدنيا، في ضمنها خير في الأخرى واتصلت له العافية أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً: إن الله قد رَأَفَ بِهِ.

قال الأُقْلِيْشِي: فتأمل هذه التفرقة بين الرَّأْفَةِ والرحمة، ولذلك جاء معاً، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَكَرُؤُفٌ رَّحِيمٌ﴾ وعلى هذا الرَّأْفَةُ أعمُّ من الرحمة، فمتى أراد الله بعبده رَحْمَةً أنعم عليه بها، إلا أنها قد تكون عقيب بلاءٍ، وقد لا تكون، والرأفة بخلاف ذلك^(٢).

فيتحصل في التفريق بين الرَّأْفَةِ والرحمة:

أ - إن الرَّأْفَةَ أشدُّ الرحمة وأبلغها.

ب - إن الرَّأْفَةَ أعمُّ من الرحمة، إذ الرحمة قد تكون بشيء مكره، أو عقيب بلاء، والرأفة خير من كل وجه.

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - وَصَفَ اللهُ تَعَالَى بِالرَّأْفَةِ وهي أشدُّ الرحمة، ومن مظاهر تلك الرَّأْفَةِ:

أ - أنه لا يضيع لعباده طاعة أطاعوه بها فلا يثيبهم عليها: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقد نزلت لبيان أنَّ مَنْ صَلَّى إِلَى «بيت المقدس» قبل تحويل القبلة صلاته تلك لم يضع أجرها وثوابها، وكذا صلاة من مات قبل تحويل القبلة.

ب - أنه حَذَرْنَا نَفْسَهُ ﷺ، وخَوَّفْنَا مِنْ عَقُوبَتِهِ وَعَذَابِهِ، وَنَهَانَا عَنْ مَعْصِيَتِهِ، قَبْلَ أَنْ يَلْقَاهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيَسْتَعِدَّ لِلِقَائِهِ، وَيَتَجَنَّبَ سَخَطَهُ وَغَضَبَهُ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

(١) في الأصل: «الرحمة»، ولا يتناسب مع السياق.

(٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٨٩أ).

ومن أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه التي تبين شرعه، لينقذ الناس من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور التوحيد والهداية: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِلُّ عَلَى عَبْدِهِ أَيْدِيَّ يَدَيْتِ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لِرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].
فمن رحمته ورأفته فَعَلَ ذلك.

ج - أنه يقبل توبات التائبين، ولا يردُّ عن بابه العاصين المنيبين، مهما كثرت سيئاتهم، وتعاضمت خطيئاتهم: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

د - تسخيرها لما في السموات وما في الأرض لمصلحة الإنسان ومنفعته، وخلقها الأنعام ليركب على ظهرها فتحمله المسافات الشاسعة، هو ومتاعه وزاده، ولولا ذلك لأصابه الجهد العظيم والمشقة البالغة: ﴿وَنَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلَاغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧].

وتأمل هذه الآيات التي تلتها وما فيها من مظاهر رافة (الرؤوف الرحيم).

قال جلّ شأنه: ﴿وَالْحَيْلُ وَالْإِغَالُ وَالْحَمِيرُ لِرِكْبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٨] وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ [٩] هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ [١٠] يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [١١] وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [١٢] وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ [١٣] وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَنَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [١٤] وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [١٥] وَعَلَّمَتِ بِالْحِجَمِ هُمْ يَهْتَدُونَ [١٦] أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ [١٧] وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ [١٨] [النحل: ٨ - ١٨].

٢ - سَمَّى الله تعالى رسوله ﷺ بهذا الاسم في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومعنى ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيحب لكم الخير ويسعى جهده في إيصاله إليكم ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشرَّ ويسعى جهده في تنفيركم عنه، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم، ولهذا

كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتوقيره وتعزيه^(١).

وكان من رأفته بأمرته أنه: ما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ﷻ^(٢). وكان يدخل في الصلاة وهو يريد أن يطول فيها فيسمع بكاء الصبي فيتجوّز في صلاته كراهية أن يشقّ على أمه^(٣).



(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/١٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٦/٥٦٦)، وفي الأدب (١٠/٥٢٤)، وفي الحدود (١٢/٨٦)، وفي المحاربين (١٢/١٧٦)، ومسلم في الفضائل (٤/١٨١٣، ١٨١٤) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) البخاري كتاب الأذان (٢/٢٠١، ٢٠٢، ٣٤٩)، ومسلم في الصلاة (١/٣٤٢، ٣٤٣).

ذو الجلال والإكرام جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه

(٨٣ - ٨٤)

* المعنى اللغوي:

جلّ الشيء يَجْلُ جَلالاً وجلالةً، وهو جَلٌّ وجليلٌ وجلالٌ: عَظَمَ، وأجلّه: عَظَّمَهُ، يقال: جَلٌّ فلانٌ في عيني؛ أي: عَظَمَ وأَجْلَلْتُهُ: رأيته جليلاً نبيلًا، وأَجْلَلْتُهُ في المرتبة، وأَجْلَلْتُهُ؛ أي: عَظَّمْتُهُ.

وجلّ فلانٌ يَجْلُ جَلالةً؛ أي: عَظَمَ قَدْرُهُ فهو جليل.
وقول لبید:

غیر اَنْ لا تَكْذِبَنَّها فی التُّقی واجزها بالبرّ لله الاجل
يعني: الأعظم.

والجَلَلُ: الأمر العظيم، والأمر الهين أيضاً، وهو من الأضداد^(١).
وأما (ذو الإكرام) فقد شرحنا معنى (الكريم والإكرام) فيما مضى^(٢).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم مرتين: في قوله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وفي قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٧٨].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال الفراء: ﴿وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾، هذه والتي في آخرها^(٣) «ذي» - كلتاها في قراءة عبد الله: «ذي» - تحفظان في الإعراب؛ لأنهما من صفة ربك تبارك وتعالى.

(١) «الصحاح» (٤/١٦٥٨، ١٦٥٩)، و«اللسان» (١/٦٦٢، ٦٦٣)، مادة (جلل)، و«اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص ٢٠١، ٢٠٣).

(٢) انظر (ص ٢٦١ - ٢٦٣) من هذا الكتاب.

(٣) يعني: آخر سورة الرحمن.

وهي في قراءتنا: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ «ذو» تكون من صفة وجه ربنا تبارك وتعالى^(١).

وقا ابن جرير: ﴿بَنَزَكَ أَنْتُمْ رَبِّكَ﴾ يقول تعالى ذكره: تبارك ذكر ربك يا محمد ﴿ذِي الْجَلَلِ﴾؛ يعني: ذي العظمة ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾؛ يعني: ومن له الإكرام من جميع خلقه^(٢). وقال الزجاج: «(ذو الجلال): أنه المستحق لأن يُجَلَّ ويُكْرَم»^(٣).

وقال الزجاجي: «الجلال العظمة، فالله عَزَّ وَجَلَّ (ذو الجلال) والعظمة والكبرياء»^(٤).

وقال الخطابي: «(ذو الجلال والإكرام): الجلال مصدر الجليل، يقال: جليل بينُّ الجلالة والجلال، والإكرام: مصدر أكرم يُكرم إكراماً، والمعنى: أن الله جل وعزَّ مستحقُّ أن يُجَلَّ ويُكْرَم فلا يجحد، ولا يُكفر به، وقد يحتمل أن يكون المعنى أنه يكرم أهل ولايته، ويرفع درجاتهم بالتوفيق لطاعته في الدنيا، ويُجلِّهم بأن يتقبَّل أعمالهم ويرفع في الجنان في درجاتهم.

وقد يحتمل أن يكون أحد الأمرين - وهو الجلال - مضافاً إلى الله سبحانه بمعنى الصِّفة له، والآخر مُضافاً إلى العبد بمعنى الفعل منه، كقوله سبحانه: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] فانصرف أحد الأمرين وهو المغفرة إلى الله سبحانه، والآخر إلى العباد وهو التقوى، والله أعلم»^(٥).

وقال الحليمي: «(ذو الجلال والإكرام) ومعناه: المستحق لأن يُهاب لسلطانه، ويُشئ عليه بما يليق بعلو شأنه.

وهذا قد يدخل في باب الإثبات على معنى: إن للخلق رباً يستحق عليهم الإجلال والإكرام.

(١) «معاني القرآن» (١١٦/٣)، وبنحوه قال ابن جرير في «تفسيره» (٧٨/٢٧).

(٢) «جامع البيان» (٩٥/٢٧) ثم نقل بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله: ﴿ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ يقول: ذو العظمة والكبرياء.

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٦٢).

(٤) «اشتقاق الأسماء» (ص ٢٠١).

(٥) «شأن الدعاء» (ص ٩١، ٩٢)، ونحوه في «الاعتقاد» للبيهقي (ص ٦٥) وقال: على المعنى

الأول يكون من صفات الذات، وعلى المعنى الثاني يكون من صفات الفعل، وأما الآية ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ فقال ابن جرير في «تفسيره» (١٠٨/٢٩): أهل أن يتقي عباده عقابه على معصيتهم إياه، فيجتنبوا معاصيه ويسارعوا إلى طاعته، ﴿وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ يقول: هو أهل أن يغفر ذنوبهم إذا هم فعلوا ذلك، ولا يعاقبهم عليها مع توبتهم منها.

ثم نقل بسند صحيح عن قتادة أنه قال: أهل أن تتقى محارمه، ﴿وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ أهل أن يغفر الذنوب.

ويدخل في باب التوحيد على معنى أن هذا الحق ليس إلا لمستحق واحد^(١).
 وقال في «المقصد»: «(ذو الجلال والإكرام): هو الذي لا جلال ولا كمال إلا وهو له، ولا كرامة ولا مكرومة إلا وهي صادرة منه.
 فالجلال له في ذاته، والكرامة فائضة منه على خلقه، وفنون إكرامه خلقه لا تكاد تنحصر وتتناهى، وعليه دلّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. اهـ.
 وقال القرطبي: «فمعنى جلاله استحقاقه لوصف العظمة ونعت الرفع، والمتعالي عزاً وتكبّراً وتنزهاً عن نعوت الموجودات، فجلاله إذاً صفة استحقاقها لذاته^(٢)».

وقال السعدي: «(ذو الجلال والإكرام)؛ أي: ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة والجود والإحسان العام والخاص، المكرومة لأوليائه وأصفياؤه الذين يُجلُّونه ويُعظمونه ويحبونه^(٣)».

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن الله تعالى هو المستحق وحده لأن يُجل ويُنزه ويعظم لذاته، لكمال ذاته وصفاته وأسمائه، وليس في الوجود من هو بمثل هذه الصفة غيره جلّ جلاله وتقدس أسمائه.
 فجلاله صفة استحقاقها لذاته.

قال الأصمعي: ولا يقال: (الجلال) إلا لله ﷻ.

وقال أبو حاتم السجستاني: قد يقال: (جلال) في غير الله، أنشد لهدبة بن خشرم:
 فلا ذا جلالٍ هبّنه لجلاله ولا ذا ضياعٍ هنّ يتركن للفقير^(٤)

٢ - أن الله تعالى يكرم أوليائه، والإكرام قريب من الإنعام ولكنه أخصّ، فكل إكرام إنعام، وليس كل إنعام إكراماً.

قال القرطبي: وأما (الإكرام) - وهو مصدر أكرم فهو مكرم - ففيه معنى الإنعام،

(١) «المنهاج» (١/ ٢١٠) وذكره بعد الأسماء التي وردت في السّنة، فقال: فصل: والله جلّ ثناؤه أسماء سوى ما ذكرنا تدخل في أبواب مختلفة، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٩٢).

(٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٧٥، ٢٧٥ب). (٣) «تيسير الكريم» (٣٠٢/٥).

(٤) «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص ٢٠١).

وسئل الشيخ محمد بن إبراهيم ﷺ عن لفظ «جلالة الملك...»، قال: لا يظهر لي أن فيها بأساً؛ لأن له جلالة تناسبه فتاوى الشيخ (١/ ٢٠٦). وانظر: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ الفاضل بكر أبو زيد (ص ١٣٣، ٣٠٨).

إلا أنه أخصّ من لفظة الإنعام؛ لأنّ الإنعام قد ينعم تفضلاً على من ليس بكريم، ولا مُكرم عنده، كإنعامه على العاصي والمخالف، فهذا الإنعام لا يُسمى إكراماً، فإذا أسدى المُنعم نعمته إلى من يعزُّ عنده وله حُبٌّ لديه ومودة، قيل: أكرمه، ومنه ما سُمي به [ما] على الأولياء من النعم: كرامات الأولياء، لقدّروهم عنده ومنزلتهم لديه، فهو سبحانه يُنعم على من يُكرم ومن يكرم ولا يُكرم إلا من عليه في الآخرة يُنعم، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥، ١٦]؛ يعني: إنه إذا منّحه نعيماً في الدنيا يقول: ذلك دليل على كرامتي، وإذا قدّر عليه رزقه يقول: ذلك دليل على إهانتي! وليس الأمر كذلك! فليس نعيم الدنيا دليلاً^(١) على نعيم الآخرة، ولا هوان الدنيا دليلاً على هوان الآخرة، وإكرامه للعبد يكون مُعجلاً في الدنيا ومُؤجلاً في الآخرة، ويكون عموماً في الخليقة، وخصوصاً لأهل الحقيقة^(٢)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. اهـ^(٣).

٣ - حَثَّ النبي ﷺ أمته على الدعاء بهذين الاسمين فقال: «أَلْطُوا يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(٤).

ومعنى أَلْطُوا؛ أي: الزمُوا هذه الدعوة وأكثرُوا منها، ودُومُوا على قولكم ذلك في دُعائكم وسؤالكم لربكم جلَّ شأنه.

(١) في الأصل: «دليل»، وهو خطأ، فإنها خبر ليس.

(٢) قوله: أهل الحقيقة، من اصطلاحات المتصوفة؟!.

(٣) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٧٥ب).

(٤) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١٧٧/٤)، والبخاري في «التاريخ» (٣/٢٨٠)، والحاكم (١/٤٩٨، ٤٩٩) عن ابن المبارك: أخبرني يحيى بن حسان، عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول... فذكره.

قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وهو كما قال.

يحيى بن حسان هو البكري الفلسطيني، قال ابن المبارك: كان شيخاً كبيراً حسن الفهم من أهل بيت المقدس، وقال أبو حاتم: لا بأس به، وقال النسائي: ثقة. وله شاهد من حديث أنس؛ أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك مرفوعاً به.

وقال: حديث غريب.

قلت: وفيه الرقاشي، ضعيف.

وشاهد آخر من حديث أبي هريرة: أخرجه الحاكم (١/٤٩٩)، وفيه رشدين بن سعد، ضعيف مع صلاحه.

ولما سمع رجلاً يدعو في المسجد يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْحَنَّانُ الْمَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، قَالَ ﷺ: «دَعَا اللَّهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ»^(١).

٤ - وَكَانَ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمَنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(٢).



(١) سبق تخريجه (ص ٤٧).

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٤١٤/١) عن ثوبان رضي الله عنه. وأخرجه أيضاً عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ إِذَا سَلَّمَ لَمْ يَقْعُدْ إِلَّا مَقْدَارَ مَا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمَنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

الْغَنِيُّ

جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

(٨٥)

* المعنى اللغوي:

الْغَنِيُّ في كلام العرب الذي ليس بمحتاج إلى غيره.
وَعَنِيَ به عنه غُنْيَةً؛ أي: استغنى.
وَعَنِيَ بالمكان؛ أي: أقام.
وغني؛ أي: عاش.
ويقال: ما يُعني عنك هذا؛ أي: ما يُجزئ عنك وما ينفعك، والغناء: النفع.
والغِنَى (مقصور): اليسار، وتقول منه: غَنِيَ فهو غَنِيٌّ، وتَغْنَى الرجل؛ أي:
استغنى وأغناه الله.
وتَغَانُوا؛ أي: استغنى بعضهم عن بعض^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم في ثمان عشرة آية من كتاب الله تعالى، منها: قول الله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].
وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].
وقوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

وقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].
وقوله: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].
وقوله: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٦].
وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أُنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].
وقوله: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص ١١٧)، «الصحاح» (٦/ ٢٤٤٩)، و«اللسان» مادة (غنا).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ والله غني عما يتصدقون به، حليم حين لا يعجل بالعقوبة على من يَمُنُّ بصدقته منكم ويؤذي فيها من يتصدق بها عليه^(١).

وقال في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]: «واعلموا أيها الناس أن الله **غني** عن صدقاتكم وعن غيرها، وإنما أمركم بها وفرضها في أموالكم رحمة منه لكم ليُغني بها عائلكم، ويُقوي بها ضعيفكم، ويجزل لكم عليها في الآخرة ثوبتكم، لا من حاجة به فيها إليكم»^(٢).

وقال الزجاج: «وهو (الغني) والمستغني عن الخلق بقدرته وعزُّ سلطانه والخلق فقراء إلى تطوُّله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]»^(٣).

وقال الزَّجَّاجي: «الغني في كلام العرب: الذي ليس بمحتاج إلى غيره، وكذلك الله ليس بمحتاج إلى أحد جلَّ وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [النبوت: ٦].

وكل الخلق إليه - جلَّ اسمه - مُحتاج، كما قال: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

فالله **غني** ليس بمحتاج إلى أحد فيما خَلَقَ ويخلق، ودبَّرَ ويدبر، ويعطي ويرزق، ويقضي ويمضي، لا رادَّ لأمره وهو على ما يشاء قدير»^(٤).

وقال الخطَّابي: «(الغني) هو الذي استغنى عن الخلق وعن نُصرتهم وتأيدهم لمُلْكه، فليست به حاجةٌ إليهم، وهم إليه فقراء محتاجون، كما وصف نفسه تعالى فقال عزَّ من قائل: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]»^(٥).

وقال الحليمي: «(الغني) ومعناه: الكامل بما له وعنده، فلا يحتاج معه إلى غيره، وربنا جلَّ ثناؤه بهذه الصِّفة؛ لأنَّ الحاجة نقصٌ، والمحتاج عاجز عما يحتاج إليه إلى أن يبلغه ويدركه، وللمحتاج إليه فضل بوجوده^(٦) ما ليس عند المحتاج.

فالتَّقصُّ مُنْفِيٌّ عن القديم بكلِّ حال، والعجز غير جائز عليه، ولا يمكن أن يكون

(١) «جامع البيان» (٤٣/٣) وساق بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: الغني الذي كمل في غناه، والحليم الذي كمل في حلمه. وفي سنده عبد الله بن صالح كاتب الليث وفيه ضعف.

(٢) «جامع البيان» (٥٨/٣).

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٦٣).

(٤) «اشتقاق الأسماء» (ص ١١٧).

(٥) «شأن الدعاء» (ص ٩٢، ٩٣).

(٦) في «المنهاج»: «فوجد»، وما أثبتناه من «الأسماء» لليهقي هو أصوب.

لأحدٍ عليه فَضْلٌ^(١) إذ كلُّ شيءٍ سواه خَلَقَ له وبدع أبدعه، ولا يملك من أمره شيئاً، وإنما يكون كما يريدُه الله ﷻ ويدبره، فلا يتوهم أن يكون له مع هذا اتساع لفضله عليه^(٢).

وقال البيهقي: «هو الذي استغنى عن الخلق، وقيل: المتمكن من تنفيذ إرادته في مراداته، وهذه صفةٌ يستحقها بذاته»^(٣).

وقال في «المقصد»: «(الغني) هو الذي لا تعلُّق له بغيره لا في ذاته ولا في صفات ذاته، بل يكون مُنزهاً عن العلاقة مع الأغيار.

فمن تتعلّق ذاته أو صفاتُ ذاتِه بأمرٍ خارجٍ من ذاته يتوقف عليه وجودُه أو كماله فهو فقير محتاج إلى الكسب. ولا يتصور ذلك إلا لله تعالى».

قال: «والغني الحقيقي هو الذي لا حاجة له إلى أحد أصلاً، والذي يحتاج ومعه ما يحتاج إليه فهو غنيٌّ بالمجاز، وهو غايةٌ ما يدخل في الإمكان في حق غير الله تعالى، فأما فَقْدُ الحاجة فلا، ولكن إذا لم يبق له حاجةٌ إلا إلى الله تعالى سُمِّيَ غنياً، ولو لم يبق له أصل الحاجة لما صح قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُ الْفُقَرَاءُ﴾ ولولا أنه لا يتصور أن يستغني عن كلِّ شيءٍ سوى الله لما صح لله تعالى وَصْفُ الْمُغْنِيِّ^(٤).

وقال ابن القيم:

وهو الغنيُّ بذاتِهِ فَغِنَاهُ ذَا تِي له كالجُودِ والإِحْسَانِ^(٥)

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إن الله تعالى شأنه هو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، لكماله وكمال صفاته، فلا يتطرّق إليها نقصٌ بوجه من الوجوه.

(١) في «المنهاج»: «ولا يمكن لأحد أن يكون عليه فضل»، وما أثبتناه من الأسماء، وسيأتي بعض الاختلافات السيرة التي أعرضت عنها.

(٢) «المنهاج» (١/١٩٦) وذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٣٦، ٣٧).

(٤) «المقصد» (ص ٩١، ٩٢).

(٣) «الاعتقاد» (ص ٦٥).

(٥) «النونية» (٢/٢١٨).

ولا يمكن أن يكون إلا غنياً؛ لأنَّ غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً قادراً رازقاً مُحسناً، فلا يحتاج إلى أحدٍ بوجه من الوجوه، فهو الغني بيده خزائن السموات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المُغني جميع خلقه غِنَى عاماً، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية، والحقائق الإيمانية^(١). فالرب سبحانه غني لذاته، والعبد فقير لذاته محتاج إلى ربه، لا غنى له عنه ولو طرفة عين.

وقد ابتدأ الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله كتابه «طريق الهجرتين وباب السعادتين» بالكلام على هذا الأمر وتقريره وبيانه بأحسن عبارة، إذ يقول: «فصل في أن الله هو الغني المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه»، ثم قال: «قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، بيّن سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنياً حميداً ذاتي له، فغناه وحده ثابت له لذاته لا لأمرٍ أوجبه، وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمرٍ أوجبه، فلا يُعلّل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل هو ذاتي للفقير، فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلّة أوجبت تلك الحاجة، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمرٍ أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

وَالْفَقْرُ وَصِفٌ ذَاتٍ لَازِمٌ أَبَدًا كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصِفٌ لَهُ ذَاتِي فَالْخَلْقُ فَقِيرٌ مُّحْتَاجٌ إِلَى رَبِّهِ بِالذَّاتِ لَا بَعْلَةً، وَكُلُّ مَا يُذَكَّرُ وَيُقَرَّرُ مِنْ أَسْبَابِ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ فَهِيَ أَدْلَةٌ عَلَى الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ لَا عِلَلٌ لِّذَلِكَ، إِذْ مَا بِالذَّاتِ لَا يُعْلَلُ، فَالْفَقِيرُ بِذَاتِهِ مُّحْتَاجٌ إِلَى الْغِنَى بِذَاتِهِ، فَمَا يُذَكَّرُ مِنْ إِمْكَانٍ وَحُدُوثٍ وَاحْتِيَاجٍ فَهِيَ أَدْلَةٌ عَلَى الْفَقْرِ لَا أَسْبَابَ لَهُ.

ولهذا كان الصواب في مسألة «علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه» غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون، فإنَّ الفلاسفة قالوا: علة الحاجة الإمكان، والمتكلمون قالوا: علة الحاجة الحدوث، والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار، وفقر العالم إلى الله سبحانه أمر ذاتي لا يعلل، فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته، ثم يُستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر.

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه، كما

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٣٠٤/٥).

أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه (غني حميد) فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلب من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنياً، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب إلا رباً.

[فقر العباد إلى ربهم فقران]:

إذا عُرف هذا فالفقر فقران: فقر اضطراري، وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحاً ولا ذمّاً ولا ثواباً ولا عقاباً، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقاً ومصنوعاً.

والفقر الثاني: فقر اختياري هو نتيجة علمين شريفيين: أحدهما: معرفة العبد بربه، والثاني: معرفته بنفسه، فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتاً فقراً هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعاده، وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتتين، فمن عَرَفَ ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقُدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل.

فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئاً ولا يقدر على شيء، ولا يملك شيئاً ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء ألبته، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمراً مشهوداً محسوساً لكل أحد، ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها، وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى، بل لم يزل عبداً فقيراً بذاته إلى بارئه وفاطره.

فلما أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهراً وباطناً، وخلع عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلمه وأقدره وصرفه وحرّكه ومكّنه من استخدام بني جنسه، وسخّر له الخيل والإبل، وسلّطه على دواب الماء، واستنزال الطير من الهواء، وقهر الوحوش العادية، وحفر الأنهار، وغرس الأشجار، وشق الأرض، وتعلية البناء والتّحليل على مصالحه، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه، ظنّ المسكين أن له نصيباً من الملك! وادعى لنفسه مُلكاً مع الله سبحانه! ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة! حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأن ذلك شخصاً آخر غيره.

كما روى الإمام أحمد في «مسنده» من حديث بسر^(١) بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: «قال الله تعالى: يا ابن آدم أنى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سَوَّيْتُكَ وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة»^(٢).

ومن هاهنا خَذَلَ من خذل، ووفَّق من وفق، فحجب المخذول عن حقيقته ونسي نفسه، فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه، فطغى وعَتَا فحَقَّت عليه الشقوة، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ (٦١) أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى (٦٢)﴾ [العلق: ٦، ٧]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْسُرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسَى (١٠)﴾ [الليل: ٥ - ١٠]، فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهوداً لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولهذا كان من دعائه ﷺ: «أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك»^(٣). وكان يدعو: «يا مقلبَ القلوب ثبَّتْ قلبي على دينك»^(٤)، يَعْلَمُ ﷺ أن قلبه بيد

(١) في المطبوعة: «بشر»، وهو خطأ.

(٢) حسن، «المسند» (٢١٠/٤)، وأخرجه من أربعة طرق عن حريز عن عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بسر بن جحاش القرشي به.

عبد الرحمن بن ميسرة هو الحضرمي أبو سلمة الحمصي، قال ابن المديني: مجهول لم يرو عنه غير حريز، وقال أبو داود: شيوخ حريز كلهم ثقات، وقال العجلي: شامي تابعي ثقة، وذكره ابن حبان في ثقاته.

وأخرجه ابن ماجه (٢٧٠٧/٢) وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح.

والوئيد: صوت شدة الوطء على الأرض، والترافي عظام بين ثغرة النحر والعاتق.

(٣) حسن: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١)، وأبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٥١)، وابن حبان (٢٣٧٠) «موارد»، وابن السني (٣٤٤) عن أبي بكرة مرفوعاً: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت». وأخرجه أحمد (٤٢/٥) مطولاً.

وفيه جعفر بن ميمون، ضعفه ابن معين في رواية وقال في أخرى: صالح الحديث، وقال أبو حاتم: صالح، وقال الحافظ: صدوق يخطئ.

(٤) حديث صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (٥٥)، وفي «المصنف» (٢٠٩/١٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٢٥)، وأحمد (١١٢/٣)، والترمذي (٢١٤٠/٤)، والآجري في «الشرعية» (ص ٣١٧)، والحاكم (٥٢٦/١) عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس مرفوعاً به. وإسناده حسن، وله شواهد من حديث عائشة وأم سلمة والنواس بن سمعان خرجتها مع الكلام عليها في كتابنا «إبطال التأويلات» في الجزء الثاني منه.

الرحمن ﷻ لا يملك منه شيئاً، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء، كيف وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْنَتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] فضرورته ﷻ إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده.

وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاء، ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً وأرفعهم عنده منزلة، لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه، وكان يقول لهم: «أيُّها الناس، ما أُحِبُّ أَنْ ترفعوني فوق منزلي إنما أنا عبد»^(١).

وكان يقول: «لا تُطْرُونِي كما أَطَرَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٢)، وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته، مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي حديث الشفاعة: «إِنَّ الْمَسِيحَ يَقُولُ لَهُمْ: اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ عَبْدٍ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»، فنال ذلك المقام بكمال عبوديته وبكمال مغفرة الله له.

فتأمل قوله تعالى في الآية: ﴿أَنْتُمْ أَفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] باسم الله دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر، فإنه كما تقدم نوعان: فقر إلى ربوبيته وهو فقر المخلوقات بأسرها، وفقر إلى ألوهيته وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، وهذا هو الفقر النافع، والذي يشير إليه القوم ويتكلمون عليه ويشيرون إليه هو الفقر الخاص لا العام، وقد اختلفت عباراتهم عنه ووصفهم له كلٌّ أخبر عنه بقدر ذوقه وقدرته على التعبير^(٣).

(١) أخرجه الطبراني (٣/١٢٨/ح ٢٨٨٩)، والحاكم (٣/١٧٩) عن علي بن الحسين عن أبيه قال: أحبونا بحب الإسلام فإن رسول الله ﷺ قال: «لا ترفعوني فوق حقي فإن الله تعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولا»، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢١/٩): وإسناده حسن.

(٢) أخرجه الحميدي (٢٧)، وعنه البخاري (٦/٤٧٨) عن سفيان: سمعت الزهري يقول: أخبرني عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر... فذكره.

وأخرجه البخاري (١٢/١٤٤) عن عبد العزيز بن عبد الله: حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن الزهري، به مطولاً.

(٣) «طريق المهجرتين» (ص ٨ - ١١) وقد أطنب بعد ذلك في بيان الفقر وحقيقته ودرجاته والغنى بالله تعالى ودرجاته، فراجع إن شئت.

٢ - الله تبارك وتعالى غني عن عباده، ومع ذلك فهو محسنٌ إليهم، رحيم بهم، وهذا من كمال غناه وكرمه ورحمته.

أما العباد فإنهم يحسنون إلى بعضهم البعض لتعلق مصالحهم بذلك إما عاجلاً وإما آجلاً.

يقول ابن القيم رحمه الله في هذا، مبيناً الفرق بين إحسان الخالق وإحسان المخلوق: «إن الله سبحانه غني كريم، عزيز رحيم، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يُريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحساناً، فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثر بهم من قلة، ولا ليعتز بهم من ذلة، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ (٥١) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبَرَهُ تَكْبِيرًا﴾ (الإسراء: ١١١) فهو سبحانه لا يُوالي من يواليه من الذل كما يوالي المخلوق المخلوق، وإنما يُوالي أولياءه إحساناً ورحمة ومحبة لهم.

وأما العباد فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُ الْفَقْرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨] فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يُحسن بعضهم إلى بعض لحاجته إلى ذلك وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً، ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه، فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلى نفسه، وجعل إحسانه إلى غيره وسيلةً وطريقاً إلى وصول نفع ذلك الإحسان إليه، فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره، وهو أيضاً إنما يحسن إليه ليحصل منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير.

وإما أن يريد الجزاء من الله تعالى في الآخرة، فهو أيضاً محسن إلى نفسه بذلك، وإنما أًخر جزاءه إلى يوم فقره وفاقته، فهو غير ملوم في هذا القصد، فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص على ما ينفعه ولا يعجز عنه، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، وقال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال تعالى، فيما رواه عنه رسوله ﷺ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ

إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فليحمد الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ^(١).

فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد انتفاعه بك، والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انتفاعه بك^(٢)، وذلك منفعة محضة لك خالصة من المضرة، بخلاف إرادة المخلوق نفعك، فإنه قد يكون فيه مضرة عليك، ولو بتحمّل منته.

فتدبّر هذا فإن ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تعامله دون الله ﷻ، أو تطلب منه نفعاً، أو دفعاً أو تعلق قلبك به، فإنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك، وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض، وهو حال الولد مع والده، والزوج مع زوجته، والمملوك مع سيده، والشريك مع شريكه، فالسعيد من عاملهم الله تعالى لا لهم، وأحسن إليهم الله تعالى، وخاف الله تعالى فيهم، ولم يخفهم مع الله تعالى، ورجا الله تعالى بالإحسان إليهم ولم يرجهم مع الله، وأحبهم لحب الله، ولم يحبهم مع الله تعالى، كما قال أولياء الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُبْدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩].

الوجه التاسع: أن العبد المخلوق لا يعلم مصلحتك حتى يُعرفه الله تعالى إياها، ولا يقدر على تحصيلها لك، حتى يقدره الله تعالى عليها، ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه إرادة ومشية، فعاد الأمر كله لمن ابتداء منه، وهو الذي بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، فتعلق القلب بغيره رجاء وخوفاً وتوكلًا وعبودية: ضرر محض، لا منفعة فيه، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو سبحانه وحده الذي قدرها ويسرها وأوصلها إليك.

الوجه العاشر: أن غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم منك، وإن أضُرَّ ذلك بدينك ودنياك، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرتك، والرب تبارك وتعالى إنما يريدك لك، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته، ويريد دفع الضرر عنك، فكيف تعلق أملك ورجاءك وخوفك بغيره؟

وجماع هذا أن تعلم «أن الخلق كلهم لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يَنْفَعُوكَ إِلَّا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا كلهم على أن يضروك بشيء لم

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٤/١٩٩٤، ١٩٩٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وقد ساقه ابن القيم هنا مختصراً.

(٢) في الأصل: «به»، وهو خطأ.

يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ»^(١).
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [التوبة: ٥١]^(٢).



-
- (١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٩٣/١)، والترمذي (٢٥١٦)، وأبو يعلى في مسنده (٢٥٥٦)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٢٥).
 عن حنش الصنعاني عن ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك..» قال الترمذي: حسن صحيح.
 قلت: وإسناده حسن، وله طرق أخرى يكون بها صحيحاً لغيره.
- (٢) «إغاثة اللفهان» (٤١/١، ٤٢) وهو خاتمة الباب السادس: في أنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح، إلا بأن يكون الله هو إلهه وفاطره وحده، وهو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه.

النُّورُ

جَلَّ جَلَالُهُ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

(٨٦)

* المعنى اللغوي:

النُّور: الضياء، والجمع أنوارٌ.
وأَنَارَ الشيءَ واستَنَارَ بمعنى؛ أي: أضاء.
والتَّنْوِير: الإنارة، والتنوير: الإسْفَار.
والتَّوَرُّ: نور النبات وزهره.
والتَّوَرُّ أيضاً: التُّقَرُّ من الظباء، ونسوة نُورٌ، أي: نُقَرٌّ من الرِّية^(١).

وروده في القرآن الكريم:

ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]: هادي من في السموات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون».

ثم نقل أقوال المفسرين في الآية، فمنهم من قال: إن معناها: الله مدبر السموات والأرض، ومنهم من قال: ضياء السموات والأرض^(٢).

ثم قال بعد ذلك: وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في ذلك؛ لأنه عقيب قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٤)

(١) «الصحاح» (٢/ ٨٣٨، ٨٣٩)، و«اللسان» (٦/ ٤٥٧١ - ٤٥٧٥) مادة (نور)، و«اشتقاق الأسماء» (ص ١٨٤، ١٨٥).

(٢) الأول: رواه عن ابن عباس، وفي سنده الحسين بن داود (سنيد) عن حجاج، وقد ضعف الحسين لكونه كان يلحق شيخه حجاج بن محمد، والثاني: رواه عن أبي بن كعب، وفي سنده: أبو جعفر الرازي، وهو سيء الحفظ.

[النور: ٣٤] فكان ذلك بأن يكون خبراً عن موقع يقع تنزيله من خلقه، ومن مَدَحٍ ما ابتداءً بذكر مَدَحِهِ أُولَى وأشبهه، ما لم يأت ما يدل على انقضاء الخبر عنه من غيره.

فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الكلام: ولقد أنزلنا إليكم أيها الناس آياتٍ مُبيناتٍ الحق من الباطل ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظةً للمتقين، فهديناكم بها وبيننا لكم معالم دينكم بها، لأنني هادي أهل السموات وأهل الأرض.

وترك وصل الكلام باللام وابتداء الخبر عن هداية خلقه ابتداءً، وفيه المعنى الذي ذكرتُ استغناءً بدلالة الكلام عليه من ذكره، ثم ابتداءً في الخبر عن مثل هدايته خلقه بالآيات المبينات التي أنزلها إليهم فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥] ^(١).

وقال الزجاج: «اختلفوا في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فقال بعضهم: الله ذو نور السموات والأرض، يريد: أنه خالق هذا النور الذي في الكواكب كلها، لا أنه ضياء لها وأنوار لأجسامها! بل أنوارٌ تنفصل من أنوار الله تعالى.

ويقال: إن حول العرش أنوارٌ لو انفصلت منها شرارة على الأرض لاحتقرت الأرض ومن عليها!.

وقال بعضهم: بل معنى قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: أنه بما بين وأوضح بحججه وبراهين وحدانيته نور السموات والأرض.

فتقدير الكلام على هذا: معرفة الله: ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ﴾ أو أدلته: نورها، أو براهينه، لا يجوز غير هذا!! ^(٢).

وقال تلميذه الزجاجي: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: يهتدي بنوره من في السموات ومن في الأرض؛ أي: بآياته وأعلامه الدالة عليه، والبراهين الواضحة النيرة، يهتدي أهل السموات والأرض إلى توحيده، والإقرار بربوبيته، وتنزيهه من الأنداد والأمثال ^(٣).

وقال الخطّابي: «(النور) هو الذي بنوره يُبْصَرُ ذو العَمَاية، وبهدايته يَرُشَدُ ذو العَوَاية، وعلى مثل هذا يتأَوَّلُ قوله جل وعزّ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: منه نور السموات والأرض.

ولا يجوز أن يُتَوَهَّم أن الله تعالى نورٌ من الأنوار، وأن يعتقد ذلك فيه سبحانه!!

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٦٤).

(١) «جامع البيان» (١٨/١٠٥).

(٣) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٨٢).

فإن النور تُضَادُّهُ الظُّلْمَةُ، وتُعَاقِبُهُ فَتْزِيلُهُ، وتَعَالَى اللهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِدٌّ أَوْ نَدٌّ! (١).
وقد يحتمل أن يكون معناه: ذو النور، إلاَّ إِنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ النور صفة ذاتٍ له! كما يصح ذلك من اسم السلام إذا قلنا إنه: ذو السلام.
وإنما يكون ذلك صفة فعلٍ على معنى إضافة الفعل إليه، إذ هو خالقُ النور ومُوجده» (٢).

وقال الحلبي: «وهو الهادي لا يعلم العباد إلا ما عَلَّمَهُمْ، ولا يُدْرِكُونَ إلا ما سَهَّلَ (٣) لهم إدراكه، فالحواس والعقل فطرته وخلقه وعطيته» (٤).
وقال البيهقي: «(النور) هو الهادي، وقيل: المنور، وهو من صفات فعله، وقيل: هو الحق، وقيل: هو الذي لا يخفى على أوليائه بالدليل وتصح رؤيته بالأبصار. وهذه صفة يستحقها الباري تعالى بذاته» (٥).

وقال في «المقصد»: «(النور) هو الظاهر الذي به كل ظهور، فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نوراً» (٦).

وقال ابن العربي مُلَخَّصاً الأقوال في بيان معنى الاسم: «وقد اختلف الناس بعد معرفتهم بالنور في وصف الخالق سبحانه بأنه (نور) على ستة أقوال:
الأول: معناه: هادي، قاله ابن عباس.

الثاني: معناه: مُنَوِّر، قاله ابن مسعود، وروي أن في مُصحفه «منور السموات والأرض».

الثالث: أنه مُزَيَّن، وهو يرجع إلى معنى نور، قاله أبي بن كعب.

الرابع: أنه ظاهر.

الخامس: أنه ذو النور.

السادس: أنه نُورٌ لا كالأنوار، قاله الشيخ أبو الحسن الأشعري.

قال: وقالت المعتزلة: لا يقال: إنه نور إلا بالإضافة. قال: والصحيح عندنا أنه نورٌ لا كالأنوار لأنَّه الحقيقة والعدول عن الحقيقة إلى نور هادي، أو مُنور، أو ما أشبه ذلك، مَجَازٌ من غير دليل لا يَصِحُّ! ولأنَّ الأثر يعضده، ويصح أن يكون على

(١) سيأتي الرد على هذا الكلام.

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٩٥).

(٣) في «الأسماء» للبيهقي: «ما يسر».

(٤) «المنهاج» (٢٠٧/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٨١).

(٦) (ص ٩٣).

(٥) «الاعتقاد» (ص ٦٦).

هذه صفة ذاتٍ، ويصح أن يكون صفة فعلٍ على معنى أنه ظاهر، إذ روح النور: البيان والظهور»^(١).

وقال السعدي: «(النور): نور السموات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به، ونور أفئدتهم بهدايته، وهو الذي أنار السموات والأرض بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبحَات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٢).

وقال ابن القيم:

أوصافه سبحانه ذي البرهان
ه الدارمي عنه بلا نُكران^(٣)
رُ قلت تحت الفلك يُوجدُ ذان
والأرض كيف النجم والقمران
وكذا حكاة الحافظ الطبراني
سبع الطباق وسائر الأكوان
نور كذا المبعوث بالفرقان
نور على نور مع القرآن
ب لأحرق السُّبحات للأكوان
في الأرض يوم قيامة الأبدان
نور تالاً ليس ذا بطلان
ف ما هما والله مُتجدان
سوس ومعقول هما شيئان
كم قد هوى فيها على الأزمان
فهي إلى قعر الحضيض الداني
دة ظنها الأنوار للرحمن
ما شئت من شطح ومن هذيان^(٤)

والنور من أسمائه أيضاً ومن
قال ابن مسعود كلاماً قد حكا
ما عنده ليل يكون ولا نها
نور السموات العلوى من نوره
من نور وجه الرب جلّ جلاله
فيه استنار العرش والكُرسي مع
وكتابه نور كذلك شرعه
وكذلك الإيمان في قلب الفتى
وحجابه نور فلو كشف الحجا
وإذا أتى للفضل يُشرق نوره
وكذا دار الرب جنات العلوى
والنور ذو نوعين مخلوق ووض
وكذلك المخلوق ذو نوعين مح
احذر تزل فتحت رجلك هوة
من عابد بالجهل زلت رجله
لاحث له أنوار آثار العبا
فأتى بكل مُصيبة وبلية

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٩٦أ) وكلامه الأخير نفيس، وسيأتي تقريره.

(٢) «تيسير الكريم» (٣٠٣/٥). (٣) يأتي تخريجه والكلام عليه.

(٤) قال في «مدارج السالكين» - كما في «شرح النونية» -: ولا سبيل لأحدٍ قط في الدنيا إلى مشاهدة (الحق) وإنما وصوله إلى شواهد الحق، ومن زعم غير هذا فلغلبة الوهم عليه، وحسن ظنه بترهات القوم وخيالاتهم. قال: ولا ريب أن القلوب تشاهد أنواراً بحسب =

وكذا الحُلُولِيُّ هو خَدْنُهُ من ها هنا حقاً هما أَخَوَانُ
ويُقَابِلُ الرجلين ذو التعطيل والحُجُبُ الكثيفة ما هما سيان
ذا في كَثَافَةِ طَبْعِهِ وظلامه وبظلمة التَّعْطِيلِ هذا الثاني
والنُّورُ مَحْجُوبٌ فلا هذا ولا هذا له من ظلمة يريان^(١)

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن (النور) صفةٌ من صفات ربنا ﷻ، ومنه اشتق اسم (النور) الذي هو أحد الأسماء الحسنی^(٢).

وقد أضاف الله تعالى النور إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها في قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

وكذا في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ...﴾ [النور: ٣٥].

فإن الضمير عائد إلى الله على الصحيح من أقوال المفسرين^(٣).

وقد قرّر شيخ الإسلام ابن تيمية وصف الله تعالى بالنور، ثم شرع يُبين أن ما ذكره المفسرون من أن معنى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]: هادي أهل السموات والأرض، لا يمنع من كونه في نفسه نوراً، يقول ﷻ:

«ثم نقول: هذا القول الذي قاله بعض المفسرين في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: هادي أهل السموات والأرض، لا يضرنا ولا يخالف ما قلناه، فإنهم قالوه في تفسير الآية التي ذكر النور فيها مضافاً، لم يذكروه في تفسير نور مطلق، كما ادعيت أنت من ورود الحديث به، فأين هذا من هذا؟!!!»

ثم قول من قال من السلف: هادي أهل السموات والأرض لا يمنع أن يكون في نفسه نوراً: فإن من عادة السلف في تفسيرهم أن يذكروا بعض «صفات المفسر» من الأسماء، أو بعض أنواعه، ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات للمسمى، بل قد يكونان متلازمين، ولا دخول لبقية الأنواع فيه.

= استعدادها، تقوى تارة وتضعف تارة، ولكن تلك أنوار الأعمال والإيمان والمعارف، وصفاء البواطن والأسرار، لا أنها نور الذات المقدسة! فإن الجبل لم يثبت لليسير من ذلك النور حتى تدكدك، وخرّ الكليم صعباً مع عدم تجليه له، فما الظن بغيره؟!.

(١) «النونية» (٢/ ٢٣٧ - ٢٣٩).

(٢) انظر: «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم (ص ٧) ط. دار المعرفة، و(ص ٤٥) تحقيق عواد المعنق.

(٣) وسيأتي كلام ابن القيم عليها.

وهذا قد قرناه غير مرة في القواعد المتقدمة، ومن تدبره علم أنَّ أكثر أقوال السلف في التفسير مُتَّفَقَةٌ غير مختلفة، مثال ذلك قول بعضهم في ﴿الْصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]: إنه الإسلام، وقول آخر: إنه القرآن، وقول آخر: إنه السَّنة والجماعة، وقول آخر: إنه طريقُ العبودية، فهذه كلها صفات له مُتلازمة، لا متباينة، وتسميته بهذه الأسماء بمنزلة تسمية القرآن والرسول بأسمائه، بل بمنزلة أسماء الله الحسنى.

فقول من قال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هادي أهل السموات والأرض كلام صحيح، فإنَّ من معاني كونه نور السموات والأرض أنَّ يكون هادياً لهم، أما إنهم نفوا ما سوى ذلك فهذا غير معلوم، وأما إنهم أرادوا ذلك فقد ثبت عن ابن مسعود أنه قال: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور السموات من نور وجهه»^(١).

وقد تقدم عن النبي ﷺ من ذكر نور وجهه، وفي رواية (النور) ما فيه كفاية^(٢)، فهذا بيان معنى غير الهداية.

وقد أخبر الله في كتابه أنَّ الأرض تُشرق بنور ربها، فإذا كانت تشرق من نوره كيف لا يكون هو نوراً؟ ولا يجوز أن يكون هذا النور المضاف إليه إضافة خلق وملك واصطفاء، كقوله: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ ونحو ذلك؛ لوجوه:

أحدها: أنَّ النور لم يُصَفَّ قَطُّ إلى الله إذا كان صفةً لأعيان قائمة، فلا يقال في المصاييح التي في الدنيا: إنها نور الله، ولا في الشمس والقمر، وإنما يقال كما قال عبد الله بن مسعود: «إنَّ ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه»،

(١) أخرجه الدارمي في «التقضى على بشر المريسي» (ص ١٦٧) عن حماد بن سلمة عن الزبير أبي عبد السلام عن أيوب بن عبد الله الفهري عن ابن مسعود وفيه: «وإنه ليس من نور مخلوق إلا وله منزل ومنظر! فكيف النور الأعظم خالق الأنوار».

وفيه أبو عبد السلام الزبير، ذكره ابن أبي حاتم (٥٨٤/٣) ولم يحك فيه شيئاً، وكذا ابن معين، وذكره ابن حبان في «الثقات». «تعجيل المنفعة» (ص ١٣٥).

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/١٧٩/ح ٨٨٨٦) مطولاً عن أبي عبد السلام عن عبد الله أو عبيد الله بن مكرز عن ابن مسعود.

قال الهيثمي (٨٥/١): وفيه أبو عبد السلام قال أبو حاتم: مجهول، وقد ذكره ابن حبان في «الثقات»، وعبد الله بن مكرز أو عبيد الله على الشك لم أر من ذكره.

كذا وقع عندهما: عبد الله بن مكرز! وصوابه: أيوب بن عبد الله بن مكرز، فإنه الذي يروي عنه أبو عبد السلام، كما في «التعجيل».

(٢) سيأتي ذكر الحديث.

وفي الدعاء المأثور عن النبي ﷺ: «أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصَلِّحْ عليه أمر الدنيا والآخرة»^(١).

الثاني: أن الأنوار المخلوقة كالشمس والقمر تشرق لها الأرض في الدنيا، وليس من نور إلا وهو خلق من خلق الله، وكذلك من قال: مُنَوَّرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لا ينافي أنه نور، وكل مُنَوَّر نور، فهما متلازمان.

ثم إن الله تعالى ضرب مثل نوره الذي في قلوب المؤمنين بالنور الذي في المصباح، وهو في نفسه نور، وهو مُنَوَّرٌ لغيره، فإذا كان نوره في القلوب هو نور، وهو منور، فهو في نفسه أحقُّ بذلك، وقد علم أن كل ما هو نور فهو منور.

وأما قول من قال: معناه: منور السَّمَوَاتِ بالكواكب: فهذا إن أراد به قائله أن ذلك من معنى كونه نور السَّمَوَاتِ [فهو مُحَقَّق]، وإن أراد به ليس لكونه نور السَّمَوَاتِ والأَرْضِ معنى إلا هذا فهو مبطل، لأن الله أخبر أنه نور السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، والكواكب لا يحصل نورها في جميع السَّمَوَاتِ والأَرْضِ.

وأيضاً فإنه قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، فضرب المثل لنوره الموجود في قلوب المؤمنين، فعلم أن النور الموجود في قلوب المؤمنين - نور الإيمان والعلم - مراد من الآية، لم يضربها على النور الحسي الذي يكون للكواكب، وهذا هو الجواب عما رواه عن ابن عباس في رواية أخرى، وأبي العالية والحسن، بعد المطالبة بصحة النقل، والظن ضعفه عن ابن عباس لأنهم جعلوا ذلك من معاني النور، أما أنهم يقولون قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ النُّورَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [النور: ٣٥] ليس معناه إلا التنوير بالشمس، والقمر والنجوم! فهذا باطل قطعاً.

وقد قال ﷺ: «أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ»، ومعلوم أن العميان لا

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» - كما في «المجمع» (٣٥/٦) - وفي الدعاء (١٠٣٦)، وابن عدي في «الكامل» (٢١٢٤/٦) عن وهب بن جرير بن حازم: ثنا أبي عن محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر قال: لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فانصرف فأتى ظلَّ شجرة فصلى، ركعتين ثم قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين، إلى من تكلني إلى عدو يتجهمني، أو إلى قريب ملكته أمري، إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك، لك العتيبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك» لفظ: الطبراني.

قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقي رجاله ثقات.

حظ لهم في ذلك، ومن يكون بينه وبين ذلك حجاب لا حظ له في ذلك، والموتى لا نصيب لهم من ذلك، وأهل الجنة لا نصيب لهم من ذلك، فإن الجنة ليس فيها شمس ولا قمر، كيف وقد روى أن أهل الجنة يعلمون الليل والنهار بأنوار تظهر من العرش، مثل ظهور الشمس لأهل الدنيا فتلك الأنوار خارجة عن الشمس والقمر^(١).

٢ - تقدم قول الخطابي: «ولا يجوز أن يُتوهم أن الله تعالى نورٌ من الأنوار، وأن يعتقد ذلك فيه سبحانه، فإن النور تُضاده الظلمة، وتعاقبه فتزيله، وتعالى الله أن يكون له ضدٌّ أو ندٌّ!».

وقد ردَّ على هذه الشبهة، وبين أنها ناتجة من سوء الفهم: شيخ الإسلام رحمته الله بقوله:

«وأما قول المعترض: النور ضد الظلمة وجلَّ الحق أن يكون له ضد!.

فيقال له: لم تفهم معنى الضد المنفي عن الله، فإن «الضدَّ» يُراد به ما يمنع ثبوت الآخر، كما يقال في الأعراض المتضادة مثل السواد والبياض.

ويقول الناس: الضدان لا يجتمعان، ويمتنع اجتماع الضدين، وهذا التضاد عند كثير من الناس لا يكون إلا في «الأعراض»، وأما «الأعيان» فلا تضاد فيها، فيمتنع عند هذا أن يقال: لله ضد، أو ليس له ضد، ومنهم من يقول: يتصور التضاد فيها، والله تعالى ليس له ضد يمنع ثبوته ووجوده بلا ريب، بل هو القاهر الغالب الذي لا يغلب.

وقد يراد «بالضد» المعارض لأمره وحكمه، وإن لم يكن مانعاً من وجود ذاته، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ» رواه أبو داود^(٢) وتسمية المخالف لأمره وحكمه: ضداً كتسميته عدواً.

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٩٠ - ٣٩٣) باختصار.

(٢) إسناده صحيح: «السنن» (٤/ ٣٥٩٧)، وأخرجه أحمد (٢/ ٧٠)، والحاكم (٢/ ٢٧)، والبيهقي (٨٢/ ٨، ٣٣٢/ ٨) من طرق عن زهير: حدثنا عمارة بن غزية عن يحيى بن راشد قال: جلسنا لعبد الله بن عمر فخرج إلينا فجلس فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ، وَمَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ عَنْهُ، وَمَنْ قَالَ فِي مَوْءِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنُهُ اللَّهُ زُدَّ مِنَ الْخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ».

ورجاله ثقات، وأخرجه أبو داود (٤/ ٣٥٩٨)، وعنه البيهقي (٦/ ٨٢) وفيه: مطر الوراق: ضعيف، والمثنى بن يزيد: مجهول، وأخرجه البيهقي (٨/ ٣٣٢) من وجه آخر عن مطر وفيه: سعيد بن بشير. وأخرجه أحمد (٢/ ٨٢) عن أيوب بن سليمان عن ابن عمر بنحوه وفيه =

وبهذا الاعتبار فالمعادون المضادون لله كثيرون، فأما على التفسير الأول فلا ريب أنه ليس في نفس الأمر مُضادٌ لله، لكن التضاد يقع في نفس الكفار فإن الباطل ضد الحق، والكذب ضد الصدق، فمن اعتقد في الله ما هو منزّه عنه كان هذا ضدّاً للإيمان الصحيح به.

وأما قوله: النور ضد الظلمة - وجلّ الحق أن يكون له ضد - فيقال له: والحي ضد الميت، والعليم ضد الجاهل، والسميع والبصير والذي يتكلم، ضد الأصم الأعمى الأبكم، وهكذا سائر ما سمي الله به من الأسماء لها أصداد، وهو منزّه عن أن يُسمى بأصدادها، فجّلّ الله أن يكون ميتاً، أو عاجزاً أو فقيراً ونحو ذلك.

وأما وجود مخلوق له موصوف بضد صفته: مثل وجود الميت والجاهل، والفقير والظالم، فهذا كثير، بل غالب أسمائه لها أصداد موجودة في الموجودين.

ولا يقال لأولئك: إنهم أصداد الله، ولكن يقال: إنهم موصوفون بضد صفات الله، فإن التضاد بين الصفات إنما يكون في المحل الواحد لا في محلين، فمن كان موصوفاً بالموت ضادته الحياة، ومن كان موصوفاً بالحياة ضاده الموت، والله سبحانه يمتنع أن يكون ظُلمةً أو موصوفاً بالظلمة، كما يمتنع أن يكون ميتاً أو موصوفاً بالموت.

فهذا المعترض أخذاً لفظ «الضد بالاشتراك» ولم يميز بين الضد الذي يضاد ثبوته ثبوت الحق وصفاته وأفعاله، وبين أن يكون في مخلوقاته ما هو موصوف بضد صفاته، وبين ما يضاده في أمره ونهيه، فالضد الأول هو الممتنع، وأما الآخرا فوجودهما كثير، لكن لا يقال: إنه ضد الله، فإن المتصف بضد صفاته لم يضاده.

والذين قالوا: «النور ضد الظلمة» قالوا: يمتنع اجتماعهما في عين واحدة، لم يقولوا: إنه يمتنع أن يكون شيء موصوفاً بأنه نور وشيء آخر موصوفاً بأنه ظلمة، فليتدبر العاقل هذا التعطيل والتخليط.

=

= اختلاف، وأيوب فيه جهالة. «التعجيل» (ص ٤٧).

وهو حسن لغیره، وقد أطال الكلام عليه الشيخ أحمد شاکر ٥٥٤٤) وفيه فوائد. وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/٢١٠ ح ١٣٠٨٤)، والحاكم (٤/٣٨٣) عن عبد الله بن جعفر عن مسلم بن أبي مريم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن ابن عمر مرفوعاً الجملة الأولى منه فقط.

قال الهيثمي (٦/٢٥٩): رواه الطبراني وفيه عبد الله بن جعفر المدني وهو متروك، وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة وآخر من حديث أبي الدرداء. انظر: «مجمع الزوائد» (٦/٢٥٩).

[اعتراض المعترض أن يكون الرب تعالى نوراً]:

وأما قوله: لو كان نوراً لم يجز إضافته إلى نفسه في قوله: ﴿مَثَلُ نُورٍ﴾، فالكلام عليه من طريقين:

أحدهما: أن نقول: النص في كتاب الله وسنة رسوله قد سمي الله نور السموات والأرض، وقد أخبر النص أن الله نور، وأخبر أيضاً أنه يحتجب بالنور، فهذه ثلاثة أنوار في النص وقد تقدم ذكر الأول.

وأما الثاني: فهو في قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، وفي قوله: ﴿مَثَلُ نُورٍ﴾، وفيما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، وَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى وَمَنْ أَخْطَاهُ ضَلَّ»^(١).

(١) حديث صحيح، وقوله: (رواه مسلم) وهم منه ﷺ! إنما الحديث رواه أحمد (١٧٦/٢)، والحاكم (٣٠/١) عن معاوية بن عمرو: ثنا إسحاق الفزاري، ثنا الأوزاعي، حدثني ربيعة بن يزيد عن عبد الله بن الديلمى قال: دخلت على عبد الله بن عمرو وهو في حائط له بالطائف يقاتل له: الوهط وهو محاضر فتى من قريش يزن بشرب الخمر، فقلت: بلغني عنك حديث إن من شرب شربة خمر لم يقبل الله له توبة أربعين صباحاً، وإن الشقي من شقي في بطن أمه.. الحديث، وفيه قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ..»، وعند الحاكم: ربيعة بن يزيد مقروناً بحيى بن أبي عمرو.

ورجاله ثقات، عبد الله بن الديلمى هو ابن فيروز تابعي ثقة. وأخرجه ابن حبان (١٨١٢ - زوائد)، والآجري في «الشرعية» (ص ١٧٥) من طريقين عن الأوزاعي به.

وأخرجه ابن حبان (١٨١٣) عن ابن وهب: حدثني معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد.. فذكر بإسناده نحوه.

وأخرجه أحمد (١٩٧/٢) عن محمد بن مهاجر أخبرني عروة بن رُويم عن ابن الديلمى به، ومحمد بن مهاجر: هو الشامي ثقة، وعروة: تابعي ثقة.

وأخرجه الترمذي (٢٦٤٢/٥)، والآجري في «الشرعية» (ص ١٧٥) عن إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبي عمرو السيباني عن عبد الله الديلمى قال: سمعت ابن عمرو يقول... فذكره وزاد: فلذلك أقول: «جَفَّ القلم على علم الله ﷻ».

قال الترمذي: حديث حسن.

وهو كما قال، إسماعيل بن عياش صدوق في روايته عن أهل بلده، وهذه منها، فإن يحيى بن أبي عمرو السيباني - وهو بالسين المهملة قال في الخلاصة: سيبان بطن من حمير، ووقع في الترمذي والآجري السيباني وهو خطأ - حمصي ثقة.

ولم يتفرد به إسماعيل، بل تابعه عليه أيوب بن سويد، وهو صدوق يخطئ: أخرجه البزار =

ومنه: قوله ﷺ في دعاء الطائف: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك، أو يحلّ عليّ غضبك»، رواه الطبراني وغيره. ومنه قول ابن مسعود: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور السموات من نور وجهه».

ومنه: قوله، ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي موسى عن النبي ﷺ، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - أَوِ النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأُخْرِقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١)، فهذا الحديث فيه ذِكرُ حجابِه.

فإنَّ تردد الراوي في لفظ «النار والنور» لا يمنع ذلك، فإن مثل هذه النار الصافية التي كلم بها موسى يقال لها: نار ونور، كما سمي الله نار المصباح: نوراً، بخلاف النار المظلمة كنار جهنم فتلك لا تسمى نوراً.

فالأقسام ثلاثة: «إشراق بلا إحراق» وهو النور المحض كالقمر، و«إحراق بلا إشراق» وهي النار المظلمة، و«ما هو نار ونور» كالشمس، ونار المصابيح التي في الدنيا توصف بالأميرين، وإذا كان كذلك صح أن يكون نور السموات والأرض، وأن يضاف إليه النور، وليس المضاف هو عين المضاف إليه.

الطريق الثاني: أن يُقال: هذا يرد عليكم، لا يختص بمن يسميه بما سمي به نفسه وبينه، فأنت إذا قلت: «هاد» أو «منور» أو غير ذلك، فالمسمى «نوراً» هو الرب نفسه، ليس هو النور المضاف إليه، فإذا قلت: «هو الهادي فنوره الهدى» جعلت أحد النورين عيناً قائمةً، والآخر صفة، فهكذا يقول من يُسميه نوراً، وإذا كان السؤال يرد على القولين والقائلين، كان تخصيص أحدهما بأنه مخالف لقوله ظلماً ولدداً في المحاجة، أو جهلاً وضلالاً عن الحق^(٢).

= (٢١٤٥ - زوائد). وقال الهيثمي (١٨٥/٧): رواه أحمد والبخاري والطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(١) «صحيح مسلم» (١/١٦١، ١٦٢)، وأخرجه أحمد (٤/٤٠٥)، وابن ماجه (١/٧٠)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١٩، ٧٥)، والآن في «الشرعية» (ص ٣٠٤) كلهم عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن أبي موسى ﷺ.

وعند مسلم الروايتان معاً: «حجابه النور»، و«حجابه النار».

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/٣٨٤ - ٣٨٨).

=

وقال: وأما قوله: «لو كان نوراً حقيقة - كما تقوله المشبهة - لوجب أن يكون الضياء ليلاً ونهاراً على الدوام»: فنحن نقول بموجب ما ذكره من هذا القول. فإن المشبهة يقولون: إنه نور كالشمس، والله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فإنه ليس كشيء من الأنوار، كما أن ذاته ليست كشيء من الذوات، لكن ما ذكره حجة عليه، فإنه يمكن أن يكون نوراً يحجبه عن خلقه، كما قال في الحديث: «حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

لكن هنا غلط في النقل، وهو إضافة هذا القول إلى المشبهة، فإن هذا من أقوال الجهمية المعطلة أيضاً كالمريسي، فإنه كان يقول: إنه نور، وهو كبير الجهمية، وإن كان قصده بالمشبهة من أثبت أن الله نور حقيقة، فالمثبتة للصفات كلهم عنده مشبهة، وهذه «لغة الجهمية المحضة» يسمون كل من أثبت الصفات مشبهاً.

فقد قدمنا أن ابن كلاب والأشعري وغيرهما ذكروا أن نفي كونه نوراً في نفسه هو قول الجهمية والمعتزلة، وأنهما أثبتا أنه نور، وقررا ذلك هما وأكابر أصحابهما، فكيف بأهل الحديث وأئمة السنة! وأول هؤلاء المؤمنين بالله وبأسمائه، وصفاته: رسول الله ﷺ، وقد أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال الذي عارض به المعتزض، فقال ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه».

فأخبر أنه حجب عن المخلوقات بحجابه النور أن تدركها سُبحات وجهه، وأن لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سُبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، فهذا الحجاب عن إحراق السبحات يُبين ما يرد في هذا المقام.

وأما ما ذكره عن ابن عباس في روايته الأخرى^(١) فمعناه بعض الأنوار الحسية،

= فالنص قد ورد بتسميته: نوراً، وبأن له نوراً مضافاً إليه، وبأنه نور السموات والأرض، وبأن حجابه النور، فهذه أربعة أنواع:

فالأول: يقال عليه سبحانه بالإطلاق، والثاني: يضاف إليه، كما يضاف إليه حياته وسمعه وبصره وعزته وقدرته وعلمه؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] وقوله ﷺ: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره...»، والثالث: إضافة نوره إلى السموات والأرض؛ كقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، والرابع: كقوله: «حجابه النور». انظر كلام ابن القيم في: «الصواعق المرسلة» كما في «شرح النونية» (٢/ ٢٤٠، ٢٤١).

(١) وهو ما ذكره في (٣٧٥/٦) من الفتاوى عنه قال: منور السموات والأرض: شمسها وقمرها ونجومها.

وما ذكره من كلام العارفين^(١) فهو بعض معاني هدايته لعباده، وإنما ذلك تنويع بعض الأنواع بحسب حاجة المخاطبين، كما ذكرناه من عادة السلف أن يفسروها بذكر بعض الأنواع، يقع على سبيل التمثيل لحاجة المخاطبين، لا على سبيل الحصر والتحديد.

فقد تبين أن جميع ما ذكر من الأقوال يرجع إلى معنيين من معاني كونه نور السموات والأرض، وليس في ذلك دلالة على أنه في نفسه ليس بنور^(٢).

٣ - القول في تفسير قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ الآية.

لعل من أحسن من تعرض لتفسيرها هو الإمام ابن القيم رحمه الله، وقبل أن نذكر كلامه نسوق الآية بتمامها يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥].

قال بعد أن ذكر الخلاف في تفسير: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بنحو ما سبق ذكره عن شيخ الإسلام، قال: «وقد اختلف في تفسير الضمير في (نوره) ف قيل: هو النبي ﷺ؛ أي: مثل نور محمد ﷺ، وقيل: تفسيره: المؤمن؛ أي: مثل نور المؤمن، والصحيح أنه يعود على الله ﷻ، والمعنى: مثل نور الله ﷻ في قلب عبده، وأعظم عباده نصيباً من هذا النور رسوله ﷺ، فهذا مع تضمنه عود الضمير إلى المذكور وهو وجه الكلام يتضمن التقادير الثلاثة، وهو أتم معنى ولفظاً.

وهذا النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو مُعطيه لعبده وواهبه إياه، ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله، فيضاف إلى الفاعل والقابل، ولهذا النور فاعل وقابل ومحل وحامل ومادة، وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل.

فالفاعل: هو الله تعالى مُفيض الأنوار الهادي لنوره من يشاء، والقابل: العبد المؤمن، والمحل قلبه، والحامل: همته وعزيمته وإرادته، والمادة: قوله وعمله، وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره ما تقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم.

(١) وهو أن معنى النور: هو الذي نور قلوب الصادقين بتوحيده. انظر: المصدر السابق.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/٣٩٥، ٣٩٦).

وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان: أحدهما: طريقة التشبيه المركب وهي أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ومقابلته بجزء من المشبه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن الكريم.

فتأمل صفة المشكاة، وهو كوة لا تنفذ لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها مصباح وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقوداً من زيت شجرة في وسط القراح^(١)، لا شرقية ولا غربية^(٢) بحيث تصيبها الشمس في أحد طرفي النهار، بل هي في وسط القراح محمية بأطرافه تصيبها الشمس أعدل إصابة والآفات إلى الأطراف دونها، فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به.

والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل، فقليل: المشكاة صدر المؤمن والزجاجة قلبه، وشبه قلبه بالزجاجة لرققتها وصفائها وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته.

وبصفاته تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء، وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى، ويتصلب في ذات الله تعالى ويغلظ على أعداء الله تعالى ويقوم بالحق لله تعالى، وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف: القلوب آنية الله في أرضه وأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفها^(٣).

(١) «القراح من الأرض»: البارز الظاهر الذي لا شجر فيه.

(٢) أي: تقع في مكان لا يسترها من الشمس شيء، بل تصيبها الشمس طوال النهار، وهذا أجود لزيئها.

(٣) ورد هذا الأثر موقوفاً ومرفوعاً، أما الموقوف فقد أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٨٤) عن خالد بن معدان قال: «إن لله تبارك وتعالى في الأرض آنية، وأحب آنية الله إليه ما رقى منها وصفاً، وآنية الله في الأرض: قلوب عباده الصالحين». ورجاله ثقات.

وأما المرفوع: فقد أخرجه عبد الله في زوائد على الزهد (ص ١٥٣) عن القاسم بن محمد: حدثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أبي أمامة مرفوعاً... الحديث السابق بلفظه.

وفيه محمد بن القاسم: وهو الأسدي، وثقه ابن معين وقال أبو حاتم: ليس بالقوي لا يعجبني حديثه، وقال الذهبي في «الكاشف»: ضعفه.

فالصحيح إذاً الطريق الموقوفة السابقة.

والمصباح هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق، وهي مادة المصباح التي يتقد منها، والنور على النور: نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر فيزداد العبد نوراً على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه من الأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي فيريه عقله وفطرته وذوقه أن الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل ألبتة، بل يتصادقان ويتوافقان، فهذا علامة النور، على النور عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشبه الباطلة والخيالات الفاسدة من الظنون الجهليات التي يسميها أهلها القواطع العقلية فهي في صدره، كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمْتَ فِي يَمْرِ يُجَنِّي بَعْشُهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمْتُ بَعْضًا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكِدْ يَرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

فانظر كيف تضمنت هذه الآيات طوائف بني آدم كلهم أتم انتظام، واشتملت عليهم أكمل اشتمال.

[أقسام الناس بالنسبة للوحي: أولاً: أهل الهدى والبصائر]:

فإن الناس قسمان: أهل الهدى والبصائر، الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول ﷺ عن الله وأن كل ما عارضه فشبهات يشبهه على من قل نصيبه من العقل والسمع أمرها فيظنها شيئاً له حاصل ينتفع به، وهي: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ أَوْ كَظُلُمْتَ فِي يَمْرِ يُجَنِّي بَعْشُهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمْتُ بَعْضًا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكِدْ يَرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٣٩، ٤٠].

وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق أصحاب العلم النافع والعمل الصالح، الذين

= لكن للحديث شاهد أخرجه الطبراني - كما في «الصحيحة» (١٦٩١) - عن بقية بن الوليد: حدثني محمد بن زياد عن أبي عتبة الخولاني مرفوعاً: «إنَّ لله آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينها وأرقها». قال العراقي في «تخريج الإحياء»: رواه الطبراني وإسناده جيد. وقوى سنده الألباني رحمه الله.

صَدَّقُوا الرِّسُولَ ﷺ فِي أَخْبَارِهِ وَلَمْ يَعَارِضُوهَا بِالشُّبُهَاتِ، وَأَطَاعُوهُ فِي أَوْامِرِهِ وَلَمْ يَضِيعُوهَا بِالشَّهَوَاتِ، فَلَا هُمْ فِي عَمَلِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْخَوْضِ الْخَرَّاصِينَ، الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ، وَلَا هُمْ فِي عَمَلِهِمْ مِنَ الْمُسْتَمْتَعِينَ بِخُلَاقِهِمُ الَّذِينَ حَبَطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

أَضَاءَ لَهُمْ نُورُ الْوَحْيِ الْمُبِينِ فَرَأَوْا فِي نُورِهِ أَهْلَ الظُّلُمَاتِ فِي ظُلُمَاتِ آرَائِهِمْ يَعْصَمُونَ، وَفِي ضَلَالَتِهِمْ يَتَهَوَّكُونَ، وَفِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، مَغْتَرِبِينَ بِظَاهِرِ السَّرَابِ، مُمَحْلِلِينَ مُجَدِّبِينَ مِمَّا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ رَسُولَهُ ﷺ مِنَ الْحِكْمَةِ وَفَصْلِ الْخِطَابِ، إِنْ عِنْدَهُمْ إِلَّا نُخَالَةٌ الْأَفْكَارِ، وَزِبَالَةُ الْأَذْهَانِ الَّتِي قَدْ رَضُوا بِهَا وَاطْمَأَنَّنُوا إِلَيْهَا، وَقَدَّمُوهَا عَلَى السُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ، إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ أَوْجِبَهُ لَهُمْ اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ وَنُخْوَةُ الشَّيْطَانِ وَهُمْ لِأَجَلِهِ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ.

فصل: القسم الثاني: أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم باتِّباع أهوائهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنْ يَنْتَعُونَ إِلَّا الْأُظُنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣].

وهؤلاء قسمان: أحدهما: الذين يحسبون أنهم على علم وهدى وهم أهل الجهل والضلال، فهؤلاء أهل الجهل المركب الذين يجهلون الحق ويعادونه، ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالون أهله، وهم يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون.

فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائِي السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يَخُونُ صاحبه أحوج ما هو إليه، ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان، كما هو حال من أَمَّ السراب فلم يجده ماءً، بل انضاف إلى ذلك أنه وَجَدَ عنده أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ﷺ، فَحَسَبَ لَهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فَوَفَّاهُ إِيَّاهُ بِمُثَاقِيلِ الذَّرِّ، وَقَدَّمَ إِلَى مَا عَمِلَ مِنْ عَمَلٍ يَرْجُو نَفْعَهُ فَجَعَلَهُ هَبَاءً مَنْثُوراً إِذْ لَمْ يَكُنْ خَالِصاً لَوَجْهِهِ، وَلَا عَلَى سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَصَارَتْ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ الْبَاطِلَةُ الَّتِي كَانَ يَظُنُّهَا عِلْماً نَافِعَةً كَذَلِكَ هَبَاءٌ مَنْثُوراً، فَصَارَتْ أَعْمَالُهُ وَعِلْمُهُ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِ.

والسراب ما يرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري، والقيعة والقاع هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا فيه واد، فشبهه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله بسراب يراه

المسافر في شدة الحر فيؤممه فيخيب ظنه ويجده ناراً تلظى، فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء، فإذا أتوه وجدوا الله عنده فأخذتهم زبانية العذاب فعتلوهم إلى نار الجحيم فسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم، وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع والأعمال التي كانت لغير الله صيرها الله تعالى حميماً سقاهاهم إياه، كما أن طعامهم من ضريع لا يُسمن ولا يغني من جوع، وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة التي كانت في الدنيا كذلك لا تُسمن ولا تُغني من جوع، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

وهم الذين عنى بقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَبَجَعْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهم الذين عنى بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

والقسم الثاني من هذا الصنف: أصحاب الظلمات وهم المنغمسون في الجهل، بحيث قد أحاط بهم من كل وجه، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلاً، فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى، كظلمات جمع ظلمة، وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة الظلم واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم، والنور أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور.

فإن المعرض عن ما بعث الله تعالى به محمداً ﷺ من الهدى ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات: قوله ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، وقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلم، وإذا قابلت بصيرته الخفاشية^(١) ما بعث الله به محمداً ﷺ من النور جدَّ في الهرب منه وكاد نوره يخطف بصره، فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى كما قيل:

خَفَافِيشُ أَعْشَاهَا النَّهَارُ بَضُوئُهُ وَوَافَقَهَا قِطْعُ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلَمٍ
فَإِذَا جَاءَ إِلَى زُبَالَةِ الْأَفْكَارِ وَنُخَالَةِ الْأَذْهَانِ جَالٍ وَمَالٍ، وَأَبْدَى وَأَعَادَ وَقَعَقَ

(١) نسبة إلى الخَفَش وهو: صَغَرَ العين وضعف البصر خِلَقَة، أو فساد في الجفون.

وفرق، فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة انحجر في جحرة الحشرات، وقوله في ﴿بَحْرِ لُجِّي﴾ اللجي: العميق منسوب إلى لجة البحر وهو معظمه.
 وقوله تعالى: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾، تصوير لحال هذا المعرض عن وحيه، فشبه تلاطم أمواج الشُّبه والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنها أمواج بعضها فوق بعض، والضمير الأول في قوله: ﴿يَغْشَاهُ﴾ راجع إلى البحر، والضمير الثاني في قوله: ﴿مِّنْ فَوْقِهِ﴾ عائد إلى الموج، ثم إن تلك الأمواج مغطاة بسحاب، فهنا ظلمات ظلمة البحر اللجي، وظلمة الموج الذي فوقه، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله، إذا أخرج من في هذا البحر يده لم يكدرها.
 والمقصود أن قوله: ﴿لَا يَكْذِبُ رَبُّهَا﴾ إما أن يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة، وهو الأظهر فإذا كان لا يقارب رؤيتها فكيف يراها، قال ذو الرمة:

إذا غيّر النائي المحبين لم يكد رسيس الهوى من حُبِّ مَيَّةٍ يبرح
 أي: لم يقارب البراح، وهو الزوال، فكيف يزول.

فشبه سبحانه أعمالهم أولاً في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد، فإذا جاءه وجد عنده عكس ما أمله ورجاه، وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج الذي قد غشيه السحاب من فوقه.

فياله تشبيهاً ما أبدعه وأشد مطابقتها بحال أهل البدع والضلال وحال من عبد الله ﷻ على خلاف ما بعث به رسوله ﷺ وأنزل به كتابه، وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح، ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة بالزوم، وكل واحد من السراب والظلمات مثل لمجموع علومهم وأعمالهم، فهي سراب لا حاصل لها وظلمات لا نور فيها، وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه التي تلقاها من مشكاة النبوة فإنها مثل الغيث الذي به حياة البلاد والعباد، ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة^(١).

٤ - سَمَّى اللهُ تَعَالَى رَسُوْلَهُ ﷺ: نوراً في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص ٧ - ١٢)، ط. دار المعرفة، وقد سقناه على طوله مع اختصار يسير لما فيه من الفوائد الجمة، كما لا يخفى على من قرأه.

وسمى كتابه: نوراً في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وغيرها.

وسمى شرائعه وأحكامه كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقوله: ﴿قُلْ مَن أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ أَلَّذِي جَاءَ بِهِ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى﴾ [الأنعام: ٩١].

وسمى الهداية والإيمان: نوراً، كما في قوله: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

٥ - كان من دعاء النبي ﷺ في صلاته وسجوده: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، واجعل لي نوراً - أو قال: واجعلني نوراً -» وفي رواية: «واجعل لي في نفسي نوراً، وأعظم لي نوراً»^(١).



(١) أخرجه البخاري في (الدعوات) (١١٦/١١)، ومسلم في (صلاة المسافرين) (٥٢٦/١)، ٥٢٩، ٥٣٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الكرمانى: التنوين فيها للتعظيم؛ أي: نوراً عظيماً.

الهادي جَلَّ جلالُه وتقدَّست أَسْمَاؤُه

(٨٧)

* المعنى اللغوي:

الهُدَى: الرَّشَادُ والدَّلَالَةُ، يُؤْنَتُ ويذكر.
يقال: هَدَاهُ الله للدين هُدًى، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السجدة: ٢٦]، قال أبو عمرو بن العلاء: أو لم يُبَيِّنْ لهم.
وهديته الطريق والبيت هداية؛ أي: عرّفته.
وهُدًى واهْتَدَى بمعنى، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، قال الفراء: «يريد لا يهتدي»^(١).
والهُدَى: إخراج شيءٍ إلى شيءٍ.
والهُدَى: الطاعة والورع.
والهدى أيضاً: النهار^(٢).
قال الزجاجي: «والهادي: الدليل، ويقال: هديت الطريق، وهديته للطريق، وهديته إلى الطريق بثلاث لغات»^(٣).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم في آيتين من الكتاب، وهما:
قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].
وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وإن الله لمرشد

(١) «الصحاح» (٦/٢٥٣٣).

(٢) «اللسان» (٦/٤٦٣٩، ٤٦٤٠) مادة (هدى).

(٣) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٨٧).

الذين آمنوا بالله ورسوله إلى الحقِّ القاصد والحق الواضح»^(١).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَكُنْى بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾: «يقول تعالى ذكره لنبيه: وكفاك يا محمد بربك هادياً يهديك إلى الحق، وَيُبَصِّرُكَ الرشد»^(٢).

وقال الزجاج: «(الهادي) هو الذي هَدَى خلقه إلى معرفته وربوبيته، وهو الذي هَدَى عباده إلى صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]»^(٣).

وقال الزجاجي تلميذه: «الله ﷻ (الهادي) يهدي عباده إليه، وَيُدْلِهِمْ عليه، وعلى سبيل الخير والأعمال المقربة منه ﷻ»^(٤).

وقال الخطابي: «(الهادي) هو الذي مَنَّ بِهُدَاهُ عَلَى مَنْ أَرَادَ مِنْ عِبَادِهِ فَخَصَّهُ بِهُدَايَتِهِ، وأكرمه بنور توحيده، كقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]..

وهو الذي هَدَى سائر الخلق من الحيوان إلى مصالحها، وألهمها كيف تطلب الرزق، وكيف تتقي المضارَّ والمهالك، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]»^(٥).

وقال الحليمي: «(الهادي) وهو الدَّالُّ عَلَى سَبِيلِ النجاة والمُبَيِّنُ لها لثلا يزيع العبد ويضل فيقع فيما يُرديه ويُهْلِكُه»^(٦).

وقال البيهقي: «هو الذي بهدایتِه اهتدى أهل ولايته، وبهدایتِه اهتدى الحيوان لما يُصلحه، واتقى ما يضره»^(٧).

وقال السَّعدي: «(الهادي)؛ أي: الذي يَهْدِي ويُرشد عباده إلى جميع المنافع وإلى دفع المضار، ويُعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويُلمهم التقوى، ويجعل قلوبهم مُنيَّةً، إليه مُنقادة لأمره»^(٨).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن الله تعالى هو الهادي لعباده، المبيِّن لهم طريق الحق والإيمان، بما

(١) «جامع البيان» (١٣٤/١٧).

(٢) المصدر السابق (٨/١٩).

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٦٤).

(٤) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٨٧).

(٥) «شأن الدعاء» (ص ٩٥، ٩٦).

(٦) «المنهاج» (٢٠٧/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٨٢)، ووقع عنده: «سبيل النجاة»، أما «المنهاج»: «سبل»، والأول أصوب لإفراده طريق النجاة فإنها واحدة وسبل الضلالة متعددة.

(٨) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٠٥/٥).

(٧) «الاعتقاد» (ص ٦٦).

أرسل من الرسل، وما أنزل من الكتب التي فيها كلامه، وما نصب من الدلائل في السموات والأرض.

أما الرسل صلوات الله عليهم، فإنهم حُجِّجُ الله تعالى على خلقه، اجتهدوا في العمل على هداية الناس ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، بالطف العبارات، وأفصح الكلمات، وأبلغ العظات، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

وكان ذلك في كل أمة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]. وقال سبحانه عن خاتم المرسلين ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]. وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ولا يمكن أن يكون المسلم مهتدياً إلا باتباع هذا الرسول الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْأَمِينُ﴾ [النور: ٥٤]، واتباع هديه أحد شرطي قبول العمل الصالح، وهما: المتابعة والإخلاص. وأما الكتب المنزلة فقد جعلها الله تعالى هداية للناس ونوراً، وفرقاً تفرق بين الحق والباطل والخير والشر، قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال عن عيسى ﷺ: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]. وقال مخاطباً رسول الله ﷺ: ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣، ٤]. وقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

فهذه الكتب هي الدلائل السمعية الهادي التي أنزلها الله سبحانه لهداية خلقه إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنة النعيم.

وأما الدلائل الكونية، فهي ما خلقه الله تعالى في السموات والأرض من آيات بينات شاهدات على وحدانية خالقها وربوبيته، تقود المتفكر فيها للإيمان، وتهديه للإسلام لرب العالمين: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِمَنِ لَعْنَتُ﴾ [٣] ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [٤] ﴿وَخِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَصُرْفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٥] ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣ - ٦].

٢ - الله جل شأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ذكر ذلك عن نفسه في مواضع كثيرة من كتابه، منها قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

وقوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَن تَحْدِلَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].
 وقوله: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].
 قال الطحاوي رحمه الله تعالى: «يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً، وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله». وفيه رد على المعتزلة القائلين بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله تعالى، وقالوا: معنى الهدى من الله: بيان طريق الصواب! والإضلال: تسمية العبد ضالاً، وحكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه!
 وهذا مبني على أصلهم الفاسد وهو: أن أفعال العباد مخلوقة لهم! لا أن الله تعالى خالق العباد وأفعالهم، كما هو قول أهل السنة.

ولو كان معنى الهدى من الله: بيان طريق الصواب، لما نفاه تعالى عن رسوله ﷺ في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]؛ لأنه ﷺ قد بين دعوته لمن أحب وأبغض.

ومما ينقض قولهم: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، وقوله: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فهذه الآيات جاءت مقيدة بمشيئة الله تعالى فلا يصح تفسيرها بالبيان، إذ هو لكل الخلق^(١).

فمن هداه الله تعالى للإيمان بفضله وله الحمد، كما في قوله سبحانه عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧].

ومن أضله فبعده، قال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].

(١) وانظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (ص ١٥٥، ١٥٦) ط. المكتب الإسلامي.

فالهداية إذن هديتان: هداية إرشاد وبيان: وهي التي يملكها الرسل وأتباعهم والتي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. وهداية توفيق: وهي التي بيد الله تعالى شأنه.

وقال: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٧].

وقال: ﴿لَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

في آيات كثيرة.

٣ - والهداية أكبر نعمة يُنعم به (الهادي) سبحانه على عبده، إذ كل نعمة دونها زائلة ومضمحلة، وبقدر هدايته تكون سعادته في الدنيا، وطيب عيشه وراحة باله، وكذا فوزه ودرجته في الآخرة.

والأنبياء صلوات الله عليهم - وهم أكمل الناس إيماناً وهداية - كانوا يسألون الله تعالى أن يهديهم، فهذا موسى عليه السلام يقول: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

وكذا يوسف عليه السلام قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وسليمان عليه السلام قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ وَأَنْ

أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وكان خاتم النبيين ﷺ يسأل ربه تعالى الهداية في دعواته وصلاته، فعن عائشة رضي الله عنها

قالت: كان ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك أنت تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم»^(١).

وكان يقول: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»^(٢).

وقال لعلي عليه السلام: «قل: اللهم اهدني وسدّدي، وادّكر بالهدى: هدايتك الطريق،

والسداد: سداد السهم»^(٣).

(١) أخرجه مسلم في (صلاة المسافرين) (٥٣٤/١).

(٢) أخرجه مسلم في (الذكر) (٢٠٨٧/٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في (الذكر) (٢٠٩٠/٤).

ومعنى «ادّكر بالهدى..»؛ أي: تذكر ذلك في حال دعائك بهذين اللفظين؛ لأن هادي الطريق لا يزيغ عنه، ومُسدّد السهم يحرص على تقويمه، ولا يستقيم رمية حتى يقوم، وكذا الداعي ينبغي أن يحرص على تسديد عمله وتقويمه ولزومه السنة، وقيل: ليتذكر بهذا لفظ السداد والهدى، لثلاث ينسأه (نوي).

وأمرت هذه الأمة بأن تسأل الله تعالى الهداية في كل ركعة من صلاتها في قوله سبحانه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] (١).

وعلم الحسن بن علي رضي الله عنهما أن يقول في قنوت الوتر: «اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت..» (٢).

(١) قال العلامة المحقق ابن القيم رحمه الله: «ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلاً المطالب، ونيله أشرف المواهب: علم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم: توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسلتان لا يكاد يردُّ معهما الدعاء، ويؤيدهما الوسلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد والترمذي:

أحدهما: حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى»، فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالوحدانية، وثبوت صفاته المدلول عليها باسم (الصمد) وبنفى التمثيل والتشبيه عنه بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة، والتوسل بالإيمان بذلك والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس: إن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال: «لقد سأل الله باسمه الأعظم»، فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسلتين، وهما التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده، ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب وهو «الهداية» بعد الوسلتين، فالداعي به حقيق بالإجابة. اه مختصراً من «مدارج السالكين» (٢٣/١، ٢٤).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١٩٩/١، ٢٠٠)، وأبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (٢٤٨/٣)، وابن ماجه (١١٧٨)، والدارمي (٣٧٣/١، ٣٧٤)، وابن الجارود (ص ١٤٢)، والحاكم (١٧٢/٣)، والبيهقي (٢٠٩/٢) من طرق عن بريد بن أبي مريم عن أبي الحوراء السَّعْدِي عن الحسن بن علي قال: علَّمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر - وفي رواية: في قنوت الوتر - ... فذكره.

قال الترمذي: هذا حديث حسن، لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي الحوراء السَّعْدِي، واسمه: ربيعة بن شيبان.

قلت: وهو تابعي ثقة، ووقع اسمه في بعض المصادر: أبو الجوزاء، وهو تصحيف وبريد بن أبي مريم ثقة أيضاً.

اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك فلا تحرمنا الجنة، ونحن نسألك يا هادي يا كريم يا أرحم الراحمين.

٤ - الله ﷻ هاد أيضاً من حيث إنه هدى جميع الأحياء إلى جلب مصالحها ودفع مضارها، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقال: ﴿وَالَّذِي فَدَرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣].

فقد هدى كل مخلوق إلى ما لا بد منه في قضاء حاجاته، فهدى الطفل إلى التّقام الثدي عند انفصاله، والفرخ إلى التقاط الحبّ وقت خروجه، والنحل إلى بناء بيته على شكل التّسدیس، لكونه أوفق الأشكال لبدنه، وأحواها وأبعدھا عن أن يتخللھا فُرَج ضائعة وشرح ذلك مما يطول^(١).



= وقول الترمذي: «لا نعرفه إلا من هذا الوجه» هو بحسب ما وقف عليه، وإلا فقد جاء من وجه آخر، فقد أخرجه النسائي (٢٤٨/٣) عن عبد الله بن علي بن الحسن مرفوعاً به. وعبد الله بن علي: هو ابن الحسين بن علي بن أبي طالب لم يدرك الحسن. انظر: «التهذيب» (٣٢٥/٥).

(١) «المقصد الأسنى» (ص ٩٣).

البَدِيع

جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ

(٨٨)

* المعنى اللغوي:

البَدِيع: المبتدع، والبَدِيع: المبتدع أيضاً.
أَبْدَعْتُ الشيءَ: اخترعته لا على مثال.
وَبَدَعَ الشيءَ يَبْدَعُهُ بَدْعاً وابتدعه: أنشأه وبتدأه، وَبَدَعَ الرَّكِيَّةَ: استنبطها وأحدثها.
وَأَبْدَعَ الشاعرُ: جاء بالبديع.
وشيءٌ بَدْعٌ بالكسر؛ أي: مُبتدعٌ، وفلانٌ بَدْعٌ في هذا الأمر؛ أي: بَدِيعٌ، وقومٌ أَبْداعٌ عن الأخفش، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]؛ أي: ما كنت أولَ من أُرسل.
والبِدْعة: الحدُّثُ في الدين بعد الإكمال.
وَأَبْدَعَتِ الراحلة؛ أي: كَلَّتْ، وقد أَبْدَعَ بالرجل؛ أي: كَلَّتْ راحلته.
والبديع أيضاً: الزُّقُّ الجديد والسقاء الجديد^(١).
وقال الزجاج: «يقال: أَبْدَعْتُ الشيءَ إبداعاً، إذا جئت به فرداً لم يشارك فيه غيرك، وهذا بَدِيعٌ من فعل فلان؛ أي: مما يتفرد به»^(٢).
وقال الزجاجي: «(البديع): المبتدعُ الأشياء ابتداءً من غير أصلٍ ولا أول، والبديء في المعنى مثل البديع، ثم قد يستعمل البديع والبديء في معنى العجيب، كما قال عبيد:

إِنْ يَكُ حُوِّلَ مِنْهَا أَهْلُهَا فَلَا بَدِيءٌ وَلَا عَجِيبٌ»^(٣)

* وروده في القرآن الكريم:

جاء في آيتين من الكتاب:

(١) «الصحيح» (٣/ ١١٨٣، ١١٨٤)، «اللسان» (١/ ٢٢٩، ٢٣٠) مادة (بدع).

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٦٤). (٣) «اشتقاق الأسماء» (ص ٧٣).

قول الله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿١١٧﴾

[البقرة: ١١٧].

وقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١١٦﴾ [الأنعام: ١٠١].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال أبو عبيدة: «(بديع): مبتدع، وهو البادئ الذي بدأها»^(١).

وقال ابن جرير: «يعني جلّ ثناؤه بقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مبدعها، وإنما هو «مُفْعِل» صرّف إلى «فَعِيلَة»، كما صرف المؤلم إلى أليم، والمُسمع إلى سميع»^(٢). ومعنى المبدع: المنشئ والمحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد، ولذلك سُمي المبتدع في الدين مُبتدعاً لإحداثه فيه ما لم يسبقه إليه غيره، وكذلك كل مُحَدِّثٍ فعلاً أو قولاً لم يتقدمه فيه مُتقدم فإنّ العرب تسميه مبتدعاً، ومن ذلك قول الأعشى بن ثعلبة في مدح هوزة بن علي الحنفي:

يرعى إلى قول سادات الرجال إذا أبدوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا
أي يحدث ما شاء، ومنه قول رؤبة بن العجاج:
فأيها الغاشي القذاف الأثيعة^(٣) إن كنت لله التقيّ الأطوعا
فليس وجه الحق أن تبدعاً

يعني: أن تُحدث في الدين ما لم يكن فيه.

فمعنى الكلام: سبحانه الله أنّى يكون له ولد وهو مالك ما في السموات والأرض، تشهد له جميعاً بدالاتها عليه بالوحدانية، وتُقرّ له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدتها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه.

وهذا إعلام من الله جلّ ثناؤه عباده أن مما يشهد له بذلك «المسيح» الذي أضافوا إلى الله جلّ ثناؤه بُنُوته، وإخبار منه لهم أنّ الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذي ابتدع المسيح من غير والد بقدرته»^(٤). اهـ.

(١) «مجاز القرآن» (١/٥٢).

(٢) كان الأصمعي ينكر فعلاً بمعنى مفعول، وقال ابن بري: قد جاء كثيراً نحو مسخن وسخين ومقعد وقعيد وموصى ووصي... وهو الصواب. انظر: «روح المعاني» (١/٣٦٧).

(٣) «الأثيعة»: المتتابع في الحُمق، «القاموس».

(٤) «جامع البيان» (١/٤٠٤)، ونقله ابن كثير (١/١٦١) وعقبه بقوله: «وهذا من ابن جرير رحمه الله كلامٌ جيد وعبارة صحيحة».

وقال الزجاج: «بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أراد به: أنه المُنْفَرِدُ بخلق السموات والأرض، وهو «فعل» بمعنى «مفعِل»^(١).

وقال الخطابي: «(البديع) هو الذي خَلَقَ الخَلْقَ، وفطره مُبْدِعاً له مخترعاً، لا على مثالِ سَبَقٍ»^(٢).

وقال الحليمي: «(البديع): ومعناه: المبتدع، وهو يحدث ما لم يكن مثله قط، قال الله ﷻ: «بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»؛ أي: مُبْدِعُهُمَا، والمبتدع من له إبداع، فلما ثبت وجود الإبداع من الله تعالى لعامة الجواهر والأعراض، استحق أن يسمى بديعاً ومبدعاً»^(٣).

وقال ابن منظور: «(البديع) من أسماء الله تعالى، لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها، وهو «البديع الأول» قبل كل شيء، ويجوز أن يكون بمعنى: مُبْدِع، أو يكون من بَدَعَ الخلق؛ أي: بَدَأَهُ، والله تعالى كما قال سبحانه: «بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»؛ أي: خالقها ومبدعها، فهو سبحانه الخالق المخترع لا عن مثال سابق»^(٤).

قال السعدي: ««بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»؛ أي: خالقهما ومبدعهما في غاية ما يكون من الحُسْنِ، والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم»^(٥).
فيتحصل من هذه الأقوال أن معناه:

١ - أنه الذي لا مِثْلَ له ولا شبيهه، يقال: هذا شيء بديع، إذا كان عديم المثل، فيكون على هذا من صفات الذات.

٢ - أنه بمعنى المبدع الذي فطر الخلق ابتداء لا على مثال سبق، فيكون من صفات الفعل.

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن الله ﷻ هو: (البديع) الذي لا عَهْدَ بمثله، فإن لم يكن بمثله عَهْدٌ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ولا في كلِّ أمرٍ راجع إليه فهو البديع المُطْلَق، أزلاً وأبداً^(٦).

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٦٤).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٩٦) وذكر وزنه نحو قول ابن جرير والزجاج.

(٣) «المنهاج» (١/ ١٩٢) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداء والاختراع له، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٢٣، ٢٤).

(٤) «اللسان» (١/ ٢٣٠).

(٥) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠٣).

(٦) انظر: «المقصد الأسنى» (ص ٩٣، ٩٤).

٢ - أنه سبحانه الذي أوجد الأشياء بصورة مخترعة على غير مثال سبق، فهو سبحانه المبدع للسموات والأرض والمخترع لهما، والموجد لجميع ما فيهما. وإذا كان كذلك، فكيف يصح أن يُنسب إليه شيء منهما على أنه ولد له!! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل كلُّ من فيهما فمن إيجاده وإبداعه وهو خاضع له وعابد، قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَكُمْ قَلِيلُونَ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [لقم: ٩٣ - ٩٥]. وإذا ثبت أن كل ما في السموات والأرض من إيجاده وإبداعه، ثبت أنه داخل في عبادته وملكوته، فيستحيل أن يكون ولداً له. وأمر آخر: «أن هذا الذي أُضيف إليه بآئه ولده إما أن يكون قديماً أزلياً أو مُحدثاً، فإن كان أزلياً لم يكن حكماً بجعل أحدهما ولداً والآخر والداً أولى من العكس، فيكون ذلك الحكم حكماً مجرداً من غير دليل، وإن كان الولد حادثاً كان مخلوقاً لذلك القديم وعبداً له فلا يكون ولداً.

الثالث: أن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد، فلو فرضنا له ولداً، لكان مشاركاً له من بعض الوجوه، وممتازاً عنه من وجه آخر. الرابع: أن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا فإن اتخاذه إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة.

فإن كان كل ذلك محالاً، كان اتخاذه الولد عليه ﷻ محالاً^(١). وقوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ فمعناه أنه: إذا أراد إيجاد أمرٍ وإحداثه فإنما يأمره أن يكون موجوداً فيكون موجوداً.

٣ - الفرق بين الإبداع والخلق:

قالوا: إن الإبداع هو إيجاد الشيء بصورة مخترعة على غير مثال سبق. وأما الخلق فمعناه: التقدير، وهو يقتضي شيئاً موجوداً يقع فيه التقدير^(٢).

(١) «التفسير الكبير» (٢٣/٤، ٢٤) باختصار.

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٤٣٨/١).

٤ - عن أنس رضي الله عنه أنه قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يُصلي فقال: اللهم إني أسالك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت الحنان المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: «دَعَا الله بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أُجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ»^(١).



(١) حديث صحيح، انظر (ص ٤٧) من هذا الكتاب.

الوارث

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٨٩)

* المعنى اللغوي:

وَرِثْتُ الشَّيْءَ أَرِثُهُ وَرِثًا وَوَرِثَةً وَإِرْثًا (الألف منقلبة من الواو)، وَرِثَةً (الهاء عوض من الواو).

وتقول: أَوْرَثَهُ الشَّيْءُ أَبَوْهُ، وَهُمْ وَرَثَةُ فُلَانٍ.
وَوَرَثُهُ تَوْرِيثًا؛ أَي: أَدْخَلَهُ فِي مَالِهِ عَلَى وَرَثَتِهِ.
وتوارثوه كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ.

والميراث أصله: مِوَرَاثٌ، انقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها، والثَّرَاثُ أصل التاء فيه واو^(١).

وقال الزَّجَّاج: «(الوارث) كل باقٍ بَعْدَ ذَاهِبٍ فَهُوَ وَارِثٌ»^(٢).

وقال الزجاجي: «(الوارث) اسم الفاعل من ورث يرث فهو وارث»^(٣).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد ثلاث مرات كلها بصيغة الجمع، وهي:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣].

وقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بَطَرْتَ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الفصص: ٥٨].

وورد مرة واحدة بصيغة الفعل:

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

(١) «الصحاح» (١/٢٩٥، ٢/٢٩٦)، «اللسان» (٦/٤٨٠٨، ٩/٤٨٠٩) مادة (ورث).

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٦٥). (٣) اشتقاق الأسماء (ص ١٧٣).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير: ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ يقول: ونحن نرث الأرض ومن عليها، بأن نمت جميعهم فلا يبقى حي سوانا إذا جاء ذلك الأجل^(١).

وقال في آية القصص: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾: «يقول: ولم يكن لما خربنا من مساكنهم منهم وارث، وعادت كما كانت قبل سكناهم فيها لا مالك لها إلا الله الذي له ميراث السموات والأرض»^(٢).

وقال الزجاجي: «الله ﷻ وارث الخلق أجمعين، لأنه الباقي بعدهم وهم الفانون، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]»^(٣).

وقال الخطّابي: «(الوارث) هو الباقي بعد فناء الخلق، والمُستردُّ أملاكهم وموارثهم بعد موتهم، ولم يزل الله باقياً مالِكاً لأصول الأشياء كلها، يُورثُها من يشاء ويستخلف فيها من أحب. قال: وأخبرني أبو عمر عن أبي العباس قال: قال أبو عمرو بن العلاء: أولُّ شعْرٍ قيل في الجاهلية في الزُّهد قول يزيد بن خذّاق: هَوْنٌ عَلَيْكَ وَلَا تُوَلِّعْ بِإِسْفَاقٍ فَإِنَّمَا مَالُنَا لِلْوَارِثِ الْبَاقِي فِي آيَاتِ أَنْشَدْنَاهَا»^(٤).

وقال الحليمي: «(الوارث) ومعناه: الباقي بعد ذهاب غيره. ورثنا جلّ ثناؤه بهذه الصفة، لأنّه يبقى بعد ذهاب الملائك الذين أُمْتَعَتْهم في هذه الدنيا بما آتاهم، لأنّ وجودهم ووجود الملائك كان به، ووجوده ليس بغيره»^(٥).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ - الله جلّ شأنه هو الباقي بعد فناء خلقه، الحي الذي لا يموت، الدائم الذي لا ينقطع، وإليه مرجع كل شيء ومصيره.

فإذا مات جميع الخلائق، وزال عنهم ملكهم، كان الله تعالى هو الباقي الحق المالك لكل المملوكات وحده، وهو القائل إذ ذاك: ﴿لَمِنَ الْمَلَكِ الْيَوْمَ﴾ وهو المجيب لنفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

(٢) المصدر السابق (٦١/٢٠).

(١) «جامع البيان» (١٦/١٤).

(٤) «شأن الدعاء» (ص ٩٦، ٩٧).

(٣) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٧٣).

(٥) «المنهاج» (١٨٩/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباري جلّ ثناؤه والاعتراف بوجوده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ١٣).

فكثير من الناس يظنون أن لهم ملكاً حقيقياً، فينكشف لهم ذلك اليوم حقيقة الحال، «وهذا النداء عبارة عن حقيقة ما ينكشف لهم في ذلك الوقت.

فأما أرباب البصائر فإنهم أبداً مشاهدون لمعنى هذا النداء، سامعون له من غير صوت ولا حرف، يوقنون بأنَّ المُلْك لله الواحدِ القهار، في كلِّ يومٍ وفي كل ساعةٍ وفي كل لحظة، وكذلك كان أزلاً وأبداً»^(١).

٢ - بيّن الله تعالى لعباده أنه هو الوارث لما أهلك من القرى الظالمة التي كانت تعيش في أمن ودعة وخفض العيش، حتى أصابهم الأشرُّ والبطر، فلم يقوموا بحقِّ النعمة، ولم يشكروا ربهم الذي وهبهم، قال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَإِنَّكَ مَسْكُوتُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ [القصص: ٥٨].

وقوله: ﴿لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي إلا زماناً قليلاً، إذ لا يسكنها إلا المارة يوماً أو بعض يوم، وبقيت شاهدة على مَصْرَع أهلها وفنائهم، وعبرة لمن كان له قلب.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾؛ أي: منهم؛ إذ لم يخلفهم أحد يتصرّف تصرفهم في ديارهم وسائر ذات أيديهم، بل كان الله وحده الوارث لديارهم وأموالهم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ [مريم: ٤٠].

٣ - حثَّ الله تعالى عباده المؤمنين على النفقة في سبيله، وذكّرهم أنهم مُسْتَخْلِفُونَ فيما عندهم من الأموال، مخوّلون التصرف فيها بما شرع سبحانه، لا يملكون حقيقة، فقال سبحانه: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٧﴾ [الحديد: ٧]، ثم بيّن لهم أنهم إن لم ينفقوا في حياتهم في سبيل الله فإنها صائرة إلى الله تعالى إذا ماتوا، لأن له ميراث السموات والأرض، فقال عزّ من قائل: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول العبدُ: مَالِي مَالِي، إنما له مِنْ مَالِهِ ثلاثُ: ما أَكَلْتُ فأَقْنَى، أو لَبَسْتُ فأَبْلَى، أو أُعْطِيَ فأَقْتَنَى، وما سِوَى ذلك فهو ذَاهِبٌ وتَارِكُهُ للناس»^(٢).

(١) «المقصد الأسنى» (ص ٩٥).

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٤/٢٢٧٣).

٤ - دعا زكريا عليه الصلاة والسلام ربه أن يهبه ولداً يكون من بعده نبياً، وكان قد بلغ من الكبر عتياً وكانت امرأته عاقراً، وقد حكى الله ذلك في كتابه بقوله: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

أي: ارزقني وارثاً من آل يعقوب يرثني.

وقوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة^(١).



= وأخرجه من حديث قتادة بن مُطَرِّف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿الْهَٰنِكُمُ الْفَكَازُ﴾ [التكاثر: ١] قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي..» بنحوه.

(١) وقيل: أراد بذلك رد الأمر إليه سبحانه كأنه قال: إن لم ترزقني ولداً يرثني فأنت خير وارث فحسبي أنت.

واعترض بأنه لا يناسب مقام الدعاء، إذ من آداب الدعاء أن يدعو بجد واجتهاد وتصميم منه، ففي الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر إن شئت، ارحمني إن شئت، ارزقني إن شئت، ليعزم في مسألته فإن الله تعالى يفعل ما يشاء لا مكره له». اهـ من «روح المعاني» (١٧/٨٧).

المُحِيطُ

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٠)

* المعنى اللغوي:

حَاطَهُ يَحُوطُهُ حَوْطًا وَحِيطَةً وَحِيطَاةً: حَفِظَهُ وتعهده، واحتاط الرجل: أخذ في أموره بالأجزم.

ومع فلان حِيطَةً لك - ولا تقل: عليك -؛ أي: تحنُّنٌ وتعطف.
والحائِطُ: الجدار؛ لأنه يَحُوطُ ما فيه، والحِوَاطَةُ: خطيرة تُتخذ للطعام.
وكلُّ من أحرز شيئاً كلَّه وبلغ علمه أقصاه، فقد أحاط به، يقال: هذا الأمر ما أحطُّ به علماً.

وقوله تعالى: ﴿أَحَطُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾؛ أي: عَلِمْتُهُ من جميع جهاته. وأحيط بفلان: إذا دنا هلاكه فهو مُحَاطٌ به، قال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٢]؛ أي أصابه ما أهلكه وأفسده^(١).

وقال الزجاجي: «المحيط في اللغة اسم الفاعل، من قولهم: أحاط فلان بالشيء فهو محيط به: إذا استولى عليه، وضم جميع أقطاره ونواحيه، حتى لا يمكن التخلص منه ولا فوته»^(٢).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم ثمانية مرات، منها:

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦].

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

(١) «الصحاح» (١١٢١/٣) و«اللسان» (١٠٥٢/٢) مادة (حوط).

(٢) «اشتقاق أسماء الله» (ص ٤٦).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: «﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾: بمعنى جامعهم فَمُحِلٌّ بهم عقوبته»^(١). وقال في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: «يقول جل ثناؤه: إن الله بما يعمل هؤلاء الكفار في عبادته وبلاده من الفساد والصد عن سبيله، والعداوة لأهل دينه وغير ذلك من معاصي الله محيط بجميعه حافظ له، لا يعزب عنه شيء حتى يوفيههم جزاءهم على ذلك كله، ويذيقهم عقوبته عليه»^(٢).

وقال في قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾: «يقول تعالى ذكره: ألا إن الله بكل شيء مما خلق محيط علماً بجميعه وقدرته عليه، لا يعزب عنه علم شيء منه أرادته فيفوته، ولكنه المقتدر عليه العالم بمكانه»^(٣).

وقال الزجاجي: «... فالله ﷻ محيط بالأشياء كلها لأنها تحت قدرته، لا يمكن شيئاً منها الخروج عن إرادته فيه، ولا يتمتع عليه منها شيء، وقد قال الله تعالى ﷻ: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]؛ أي: علم كل شيء على حقيقته، بجميع صفاته فلم يخرج شيء منها عن علمه.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ قال المفسرون: تأويله: مُهْلِك الكافرين، حقيقته أنهم لا يُعْجِزونه ولا يفوتونه مُحِيطٌ بهم.

ثم قال: وحقيقة الإحاطة بالشيء: ضَمُّ أقطاره ونواحيه وتصويره وسطاً، كإحاطة البيت بمن فيه، والأوعية بما يدور عليه، ثم اتسع فيه...»^(٤).

وقال الخطابي: «(المحيط) هو الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه، وهو الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً»^(٥).

وقال الحليمي: «ومنها (المحيط) ومعناه: الذي لا يُقَدَّر على الفرار منه، وهذه الصفة ليست حقاً إلا لله جل ثناؤه، وهي راجعة إلى كمال العلم والقدرة، وانتفاء الغفلة والعجز عنه»^(٦).

(٢) المصدر السابق (٤/٤٥).

(٤) «اشتقاق أسماء الله» (ص ٤٦، ٤٧).

(١) «جامع البيان» (١/١٢٢).

(٣) المصدر السابق (٥/٢٥).

(٥) «شأن الدعاء» (ص ١٠٢).

(٦) «المنهاج» (١/١٩٧، ١٩٨) وذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٤٠).

وقال السعدي: «(المحيط) بكل شيء علماً وقُدرةً ورحمةً وقهراً»^(١).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن الله تعالى محيط بعباده، لا يقديرون على فوته أو الفرار منه، بل «لا مَلْجَأَ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ» كما قال ﷺ في دعاء الوتر وغيره. وكل شيء تخاف منه تَقَرُّ مِنْهُ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى، فإنك تَقَرُّ إِلَيْهِ، قال سبحانه: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٥٠﴾ [الذاريات: ٥٠].

وذلك لتمام وكمال قدرته ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].
وقال سبحانه: ﴿يَمَعَشَرِ الْهَيْوَاتِ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ ﴿٣٣﴾ [الرحمن: ٣٣].

«أي لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو (محيط) بكم لا تقدرُونَ على التخلص من حكمه ولا النفوذ عن حكمه فيكم أينما ذهبتم أُحِيطَ بكم، وهذا في مقام الحشر، الملائكة مُحَدِّقَةٌ بالخلائق سبع صفوف من كل جانب فلا يقدر أحدٌ على الذهاب (إلا بسلطان)؛ أي إلا بأمر الله: ﴿يَقُولُ الْإِنْسُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ﴾ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ [يونس: ٢٧]^(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِّمِمينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ [الزمر: ٦٧].

وقال ﷺ: «يَقْبِضُ اللَّهُ وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ بِمِمينِهِ، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»^(٣).

٢ - إنه سبحانه لا يغيب عنه علم شيء صغيراً كان أو كبيراً، ظاهراً كان أو باطناً، فإنه كما وصف نفسه: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤]^(٤).

(١) «تيسير الكريم» (٣٠٢/٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢٧٤/٤)، وانظر اسمه (القدير).

(٣) أخرجه البخاري (٥٥١/٨) وفي التوحيد (٣٦٧/١٣، ٣٩٣)، ومسلم في صفات المنافقين (٢١٤٨/٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) انظر: اسمه (العليم).

القَرِيب

جَلَّ جلاله وثَقَدَّتْ أسماؤه

(٩١)

* المعنى اللغوي:

القُرْبُ تَقْيُضُ البُعد.

قُرْبُ الشيء - بالضم -، يَقْرُبُ قُرْباً وقُرْبَاناً وقُرْبَاناً؛ أي: دنا، فهو قريب، الواحد والاثنتان والجميع في ذلك سواء..
والقُربان: ما قُرِبَ إلى الله ﷻ وتَقَرَّبَ به^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم ثلاث مرات في الكتاب، وهي:

قوله جَلَّ ثناؤه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].
وقوله: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].
وقوله: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبا: ٥٠].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾ [البقرة: ١٨٦]: «يعني تعالى ذكره بذلك: وإذا سألك يا محمد عبادي عني أين أنا؟ فإنني قريبٌ منهم أسمع دعاءهم وأجيب دعوة الداعي منهم»^(٢).
وقال في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]: «يقول: إن ربي قريبٌ ممن أخلص له العبادة، ورَغِبَ إليه في التوبة مجيبٌ له إذا دعاه»^(٣).

(١) «الصحاح» (١/١٩٨، ١٩٩)، و«اللسان» (٥/٣٥٦٦) مادة (قرب). وانظر: «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص ١٤٦ - ١٤٨).
(٢) «جامع البيان» (٢/٩٢).
(٣) المصدر السابق (١٢/٣٨).

وفي قوله: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبا: ٥٠]: «قال: إن ربي سميعٌ لما أقول لكم حافظ له وهو المجازي لي علي صدقي في ذلك، وذلك مني غير بعيد فيتعذر عليه سماع ما أقول لكم وما تقولون وما يقوله غيرنا، ولكنه قريب من كل متكلم، يسمع كل ما ينطق به، أقرب إليه من جبل الوريد»^(١).

وقال الزجاجي: «(القريب) في اللغة على أوجه: القريب الذي ليس ببعيد، فالله ﷻ قريبٌ ليس ببعيد، كما قال ﷻ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وكما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ أي: أنا قريبُ الإجابة، وهو مثل قوله ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وكما قال ﷻ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وكما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

والله ﷻ محيطٌ بالأشياء كلها علماً لا يعزُب عنه منها شيء، وكل هذا يراد به - والله أعلم - إحاطة علمه بكل شيء، وكون كل شيء تحت قدرته وسلطانه وحكمه وتصرفه، ولا يراد بذلك قرب المكان والحلول في بعضه دون بعض جلَّ الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً»^(٢).

وقال الخطابي: «(القريب) معناه: أنه قريبٌ بعلمه من خلقه، قريبٌ ممن يدعوه بالإجابة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]»^(٣).

وقال ابن القيم:

وهو القَرِيبُ وقُرْبُهُ المختصُّ بالـ دَّاعي وعَابِدِهِ على الإيمان^(٤)

وقال السعدي: «(القَرِيبُ المجيب)؛ أي: هو تعالى القريب من كلِّ أحد، وقربه

تعالى نوعان:

قُرْبٌ عامٌّ من كلِّ أحد بعلمه وخبرته ومراقبته ومشاهدته وإحاطته.

وقربٌ خاص من عابديه وسائليه ومحبيه، وهو قرب لا تُدرك له حقيقة، وإنما

(١) المصدر السابق (٧٢/٢٢).

(٢) «اشتقاق أسماء الله» (ص ١٤٦، ١٤٧) وانظر تفصيل القول فيما ذكره في آخر كلامه في: آثار الإيمان بهذا الاسم.

(٤) «النونية» (٢/٢٢٩).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ١٠٢، ١٠٣).

تعلم آثاره من لطفه بعبده وعنايته به وتوفيقه وتسديده، ومن آثاره الإجابة للداعين، والإجابة للعابدين.

فهو المجيبُ إجابةً عامةً للداعين مهما كانوا وأينما كانوا وعلى أي حال كانوا، كما وعدهم بهذا الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشرعه، وهو المجيب أيضاً للمضطرين ومن انقطع رجاءهم من المخلوقين، وقويّ تعلقهم به طمعاً ورجاءً وخوفاً^(١).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - وَصَفَ اللهُ تعالى نفسه في كتابه وفي سَنَةِ رَسُوْلِهِ ﷺ أَنَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الدَّاعِي وَالْمُتَقَرِّبِ إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الطَّاعَةِ وَالْإِحْسَانِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير فقال: «أيها الناس! اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»^(٢).

وفي الصحيحين أيضاً عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقربه من العباد بتقربهم إليه مما يُقَرَّبُ به جميع من يقول: إنه فوق العرش، سواء قالوا مع ذلك: إنه تقوم به الأفعال الاختيارية أو لم يقولوا.

وأما من يُنكر ذلك:

فمنهم من يفسر قُرْبَ العباد بكونهم يُقَارِبُونَهُ وَيَشَابِهُونَهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ فَيَكُونُونَ قَرِيبِينَ مِنْهُ! وَهَذَا تَفْسِيرُ أَبِي حَامِدٍ وَالْمُتَفَلْسِفَةِ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: الْفَلَسَفَةُ هِيَ التَّشْبَهُ بِالْإِلَهِ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ!.

ومنهم من يفسر قربهم بطاعتهم، ويفسر وقربه بإثابته! وهذا تفسير جمهور الجهمية، فإنهم ليس عندهم قرب ولا تقرب أصلاً.

ومما يدخل في معاني القرب - وليس في الطوائف من ينكره - قرب المعروف

(١) «تيسير الكريم» (٣٠٤/٥).

(٢) سبق تخريجه في الجزء الأول.

والمعبود إلى قلوب العارفين العابدين، فإن كل من أحب شيئاً فإنه لا بد أن يعرفه ويقرب من قلبه، والذي يبغضه يبعد من قلبه، لكن هذا ليس المراد به أن ذاته نفسها تحل في قلوب العارفين العابدين! وإنما في القلوب معرفته وعبادته ومحبته، والإيمان به، ولكن العلم يطابق المعلوم.

وهذا الإيمان الذي في القلوب هو «التمثل الأعلى» الذي له في السموات والأرض، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

وقد غلط في هذه الآية طائفة من الصوفية والفلاسفة وغيرهم: فجعلوه حلول الذات واتحادها بالعباد والعارف!! من جنس قول النصارى في المسيح وهو قول باطل كما قد بسط في موضعه.

والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته هو القول المعروف للسلف والأئمة، وهو قول الأشعري وغيره من الكلالية، فإنهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته وكذلك يثبتون استواءه على العرش بذاته، ونحو ذلك، ويقولون: الاستواء فعلٌ فعله في العرش فصار مستوياً على العرش، وهذا أيضاً قول ابن عقيل، وابن الزاغوني، وطوائف من أصحاب أحمد وغيرهم.

وأما دُئوه نفسه وتقربه من بعض عباد، فهذا يثبت من قيام الأفعال الاختيارية بنفسه، ومجيئه يوم القيامة، ونزوله، واستواءه على العرش، وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الإسلام المشهورين وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر.

وأول من أنكر هذا في الإسلام «الجهمية» ومن وافقهم من المعتزلة، وكانوا ينكرون الصفات والعلو على العرش، ثم جاء ابن كلاب فخالفهم في ذلك وأثبت الصفات والعلو على العرش، لكن وافقهم على أنه لا تقوم به الأمور الاختيارية، ولهذا أخذ قولَه في القرآن: إنه قديم لم يتكلم به بقدرته، ولا يُعرف هذا القول عن أحد من السلف، بل المتواتر عنهم أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، كما ذكرت ألفاظهم في كتب كثيرة في مواضع غير هذا.

فالذين يثبتون أنه كلم موسى بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً به، هم الذين يقولون: إنه يدنو ويقرب من عبادته بنفسه، وأما من قال: القرآن مخلوق أو قديم، فأصل هؤلاء أنه لا يمكن أن يُقرب من شيء ولا يدنو إليه، فمن قال منهم: بهذا مع هذا، كان من تناقضه، فإنه لم يفهم أصل القائلين بأنه قديم.

وأهل الكلام قد يعرفون من حقائق أصولهم ولوازمها ما لا يعرفه من وافقهم على أصل المقالة، ولم يعرف حقيقتها ولوازمها، فلذا يوجد كثير من الناس يتناقض كلامه في هذا الباب، فإن نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف متظاهرة بالإثبات، وليس على النفي دليل واحد: لا من كتاب ولا من سنة ولا من أثر، وإنما أصله قول الجهمية، فلما جاء ابن كلاب فرق، ووافقه كثير من الناس على ذلك، فصار كثير من الناس يقرُّ بما جاء عن السلف وما دل عليه الكتاب والسنة، وبما يقوله النفاة مما يناقض ذلك! ولا يهتدي للتناقض ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] ^(١).

٢ - وَصَفُ الله تبارك وتعالى نفسه بالقرب من داعيه وعابده والساجد له وقربه منهم في جوف الليل وفي عشية عرفة ونحو ذلك مما جاءت به النصوص الصحيحة الصريحة، لا يتنافى مع علوه على عرشه وفوقيته على عباده - وهو أيضاً مما ثبت بالأدلة المستفيضة - وذلك أن الله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ولا يجوز أن تُقاس ذاته على ذوات خلقه، أو فعله على أفعالهم.

وفي توضيح هذه المسألة يقول شيخ الإسلام: «وأما القُرب فهو كقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، و﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصْرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥].

وقد افترق الناس في هذا المقام «أربع فرق»:

«فالجهمية النفاة» الذين يقولون: ليس داخل العالم، ولا خارج العالم، ولا فوق، ولا تحت، لا يقولون بعلوه ولا بفوقيته، بل الجميع عندهم مُتَأَوِّلٌ أو مفوض. وجميع أهل البدع قد يتمسكون بنصوص: كالخوارج، والشيعة، والقدرية، والرافضة، والمرجئة، وغيرهم، إلا الجهمية فإنهم ليس معهم عن الأنبياء كلمة واحدة توافق ما يقولونه من النفي، ولهذا قال ابن المبارك ويوسف بن أسباط: إنَّ الجهمية خارجون عن الثلاث والسبعين فرقة، وهذا أحد الوجهين لأصحاب أحمد ذكرهما أبو عبد الله بن حامد وغيره.

«وقسم ثانٍ» يقولون: إنه بذاته في كلِّ مكان، كما يقوله النجارية، وكثير من الجهمية - عبادهم، وصوفيتهم، وعوامهم - يقولون: إنه عين وجود المخلوقات، كما يقوله: «أهل الوحدة» القائلون بأن الوجود واحد ومن يكون قوله مركباً من الحلول والاتحاد، وهم يحتجون بنصوص «المعية والقرب»، ويتأولون نصوص «العلو،

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/٤٦٥، ٤٦٧).

والاستواء» وكل نصّ يحتاجون به حجة عليهم، فإن المعية أكثرها خاصة بأنبيائه وأوليائه، وعندهم أنه في كل مكان!.

وفي النصوص ما يُبين نقيض قولهم، فإنه قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١] فكل من في السموات والأرض يسبح والمسبح غير المسبح، ثم قال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ [الحديد: ٢] فبين أن الملك له، ثم قال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

وفي الصحيح: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»، فإذا كان هو الأول كان هناك ما يكون بعده، وإذا كان آخراً كان هناك ما الرب بعده، وإذا كان ظاهراً ليس فوقه شيء كان هناك ما الرب ظاهر عليه، وإذا كان باطناً ليس دونه شيء كان هناك أشياء نفى عنها أن تكون دونه.

ولهذا قال: «ابن عربي»: من أسمائه الحسنی (العلي) على من يكونُ علياً؟! وما ثم إلا هو! وعلى ماذا يكون علياً!! وما يكون إلا هو، فعلوه لنفسه، وهو من حيث الوجود، عين الموجودات، فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها، وليست إلا هو. ثم قال: قال الخراز: «وهو وجه من وجوه الحق ولسان من ألسنته ينطق عن نفسه بأن الله يعرف بجمعه بين الأضداد: فهو عين ما ظهر، وهو عين ما بطن في حال ظهوره وما ثم من تراه غيره، وما ثم من بطن عنه سواه، فهو ظاهر لنفسه، وهو باطن عن نفسه» وهو المسمى «أبو سعيد الخراز».

و«المعية» لا تدل على المُمازجة والمخالطة، وكذلك لفظ القرب، فإن عند الحلولية أنه في حبل الوريد! كما هو عندهم في سائر الأعيان! وكل هذا كُفْرٌ وجهل بالقرآن. «والقسم الثالث» من يقول: هو فوق العرش، وهو في كل مكان ويقول: أنا أقرّ بهذه النصوص، وهذه لا أصرف واحداً منها عن ظاهره. وهذا قول طوائف ذكرهم الأشعري في «المقالات الإسلامية» وهو موجود في كلام طائفة من السالمية والصوفية.

وهذا الصنف الثالث وإن كان أقرب إلى التمسك بالنصوص وأبعد عن مخالفتها من الصنفين الأولين.

فإن الأول لم يتبع شيئاً من النصوص، بل خالفها كلها.

والثاني ترك النصوص الكثيرة المحكمة المبينة وتعلق بنصوص قليلة اشتبهت عليه معانيها.

وأما هذا الصنف فيقول: أنا اتبعت النصوص كلها، لكنه غلط أيضاً.
فكل من قال: إن الله بذاته في كل مكان فهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع
سلف الأمة وأئمتها، مع مخالفته لما فطر الله عليه عباده، ولصريح المعقول وللأدلة
الكثيرة، وهؤلاء يقولون أقوالاً متناقضة، يقولون: إنه فوق العرش، ويقولون: نصيب
العرش منه كنصيب قلب العارف، كما يذكر مثل ذلك أبو طالب وغيره، ومعلوم أن
قلب العارف نصيبه منه المعرفة والإيمان وما يتبع ذلك، فإن قالوا: إن العرش
كذلك، نقضوا قولهم: إنه نفسه فوق العرش. وإن قالوا بحلوله بذاته في قلوب
العارفين كان هذا قولاً بالحلول الخالص!.

وقد وقع في ذلك طائفة من «الصوفية» حتى صاحب «منازل السائرين» في توحيده
المذكور في آخر المنازل في مثل هذا الحلول، ولهذا كان أئمة القوم يحذرون من
مثل هذا. سئل «الجنيد» عن التوحيد فقال: هو أفراد الحدوث عن القدم. فبين أنه
لا بد للموحد من التمييز بين القديم الخالق والمحدث المخلوق فلا يختلط أحدهما
بالآخر. وهؤلاء يقولون في أهل المعرفة ما قالته النصارى في المسيح والشيعة في
أئمتها، وكثير من الحلولية والإباحية يُنكر على الجنيد وأمثاله من شيوخ أهل المعرفة
المتبعين للكتاب والسنة ما قالوه من نفي الحلول! وما قالوه في إثبات الأمر والنهي،
ويرى أنهم لم يكملوا معرفة الحقيقة كماكملها هو وأمثاله من الحلولية والإباحية!.

وأما «القسم الرابع» فهم سلف الأمة وأئمتها: أئمة العلم والدين من شيوخ العلم
والعبادة، فإنهم أثبتوا وآمنوا بجميع ما جاء به الكتاب والسنة كله من غير تحريف
للكلم، أثبتوا أن الله تعالى فوق سمواته، وأنه على عرشه بائن من خلقه وهم منه
بائنون، وهو أيضاً مع العباد عموماً بعلمه، ومع أنبيائه وأوليائه بالنصر والتأييد
والكفاية، وهو أيضاً قريب مجيب، ففي آية النجوى دلالة على أنه عالم بهم.

وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل»، فهو
سبحانه مع المسافرين في سفره ومع أهله في وطنه، ولا يلزم من هذا أن تكون ذاته
مختلطة بذواتهم! كما قال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ أي: (معه) على
الإيمان، لا أن ذاتهم في ذاته بل هم مُصاحبون له. وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾
[النساء: ١٤٦] يدل على موافقتهم في الإيمان وموالاتهم، فالله تعالى عالمٌ بعباده وهو معهم
أيما كانوا، وعلمه بهم من لوازم المعية، كما قالت المرأة: زوجي طويلُ النجاد، عظيم
الرماد، قريبُ البيت من النَّاد: فهذا كله حقيقة، ومقصودها: أن تُعرف لوازم ذلك،
وهو: طول القامة، والكرم بكثرة الطعام، وقرب البيت من موضع الأضياف.

ثم قال: «وأما لفظ: القرب فقد ذكره تارة بصيغة المفرد، وتارة بصيغة الجمع، فالأول إنما جاء في إجابة الداعي: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وكذلك في الحديث: «ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»، وجاء بصيغة الجمع في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [لق: ١٦]، وهذا مثل قوله: ﴿تَتْلُوا عَلَيْكُمْ﴾ [القصص: ٣]، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكُمْ﴾ [يوسف: ٣]، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ [القيامة: ١٨]، و﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [٧] [القيامة: ١٧]، و﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [٩] [القيامة: ١٩]. فالقرآن هنا حين يسمعه من جبريل، والبيان هنا بيانه لمن يبلغه القرآن.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها وخلفها: أَنَّ النبي ﷺ سمع القرآن من جبريل، وجبريل سمعه من الله ﷻ.

وأما قوله: ﴿تَتْلُوا﴾ و﴿نَقُصُّ﴾، و﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾، فهذه الصيغة في كلام العرب للواحد العظيم الذي له أعوانٌ يُطِيعونه، فإذا فعل أعوانه فعلاً بأمره قال: نحن فعلنا. كما يقول الملك: نحن فتحنا هذا البلد وهزمنا هذا الجيش، ونحو ذلك؛ لأنه إنما يفعل بأعوانه، والله تعالى رب الملائكة، وهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهو مع هذا خالقهم وخالق أفعالهم وقدرتهم وهو غني عنهم، وليس هو كالملك الذي يفعل أعوانه بقدرة وحركة يستغنون بها عنه. فكان قوله لما فعله بملائكته: نحن فعلنا، أحق وأولى من قول بعض الملوك.

ثم ذكر أَنَّ هذا من المتشابه الذي يعلم الراسخون في العلم تفسيره فقال: «فالراسخون في العلم يعلمون أن قوله: (نحن) أَنَّ الله فعل ذلك بملائكته، وإن كانوا لا يعرفون عدد الملائكة ولا أسماءهم ولا صفاتهم وحقائق ذواتهم، ليس الراسخون كالجهال الذين لا يعرفون (إنَّا) و(نحن)، بل يقولون: ألفاظاً لا يعرفون معانيها، أو يجوزون أَنَّ تكون الآلهة ثلاثة متعددة! أو واحداً لا أعوان له!.

ومن هذا قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢]، فإنه سبحانه يتوفاها برسله، كما قال: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، ﴿يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] فإنه يتوفاها برسله الذين مقدمهم ملك الموت.

وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِجْ قُرْآنَهُ﴾ [٨] [القيامة: ١٨] هو قراءة جبريل له عليه، والله قرأه بواسطة جبريل، كما قال: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾

[الشورى: ٥١] فهو مُكَلِّمٌ لمحمدٍ بلسان جبريل وإرساله إليه، وهذا ثابتٌ للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَاءِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤]، وإنباء الله لهم إنما كان بواسطة محمد إليهم.

وكذلك قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ١٣١] فهو أنزل على المؤمنين بواسطة محمد.

وكذلك ذوات الملائكة تقرب من ذات المحتضر، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، فإنه سبحانه هو وملائكته يعلمون ما توسوس به نفس العبد، كما ثبت في الصحيحين: «إِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: اكْتُبُوا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا قَالَ: اكْتُبُوا لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ...» إلى آخر الحديث، فالملائكة يعلمون ما يهَمُّ به من حسنة وسيئة، و«الهمُّ» إنما يكون في النفس قبل العمل، وأبلغ من ذلك أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهو يوسوس له بما يهواه فيعلم ما تهواه نفسه.

فقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] هو قربُ ذوات الملائكة وقرب علم الله منه، وهو ربُّ الملائكة والروح، وهم لا يعلمون شيئاً إلا بأمره، فذاتهم أقرب إلى قلب العبد من حبل الوريد، فيجوز أن يكون بعضهم أقرب إليه من بعض، ولهذا قال في تمام الآية: ﴿إِذْ يَنْتَقِي الْمُرْسَلُونَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ مُعْتِدِينَ ۖ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وهذا كقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، فقوله: (إِذْ) ظرف، فأخبر أنهم ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] حين يتلقى المرسلان، ما يقول: ﴿إِذْ يَنْتَقِي الْمُرْسَلُونَ عَنِ الْيَمِينِ﴾ قعيد ﴿وَعَنِ الشِّمَالِ مُعْتِدِينَ﴾ [ق: ١٧]، ثم قال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؛ أي: شاهد لا يغيب.

فهذا كله خبرٌ عن الملائكة، فقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، و«هو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»، فهذا إنما جاء في الدعاء لم يذكر أنه (قريب) من العباد في كل حال! وإنما ذكر ذلك في بعض الأحوال، وقد قال في الحديث: «أَقْرَبُ ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد».

وقال تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]، والمراد القربُ من الداعي في سجوده، كما قال: «وَأَمَّا السُّجُودُ فَاكْثَرُوا مِنَ الدُّعَاءِ، فَقَمِنْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»، فأمر بالاجتهاد في الدعاء في السجود مع قرب العبد من ربه وهو ساجد. وقد أمر المصلي أن يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى» رواه أهل السنن.

وعَلَّ ذلك بقوله: «وذلك أَنَّ السجود غاية الخضوع والذل من العبد، وغاية تَسْفِيله، وتواضعه: بأشرف شيء فيه الله - وهو وجهه - بأن يضعه على التراب، فناسب في غاية سُفُوله أَنْ يَصِفَ رَبَّهُ بأنه (الأعلى) والأعلى أبلغ من (العلي)، فإن العبد ليس له من نفسه شيء، هو باعتبار نفسه عدم محض، وليس له من الكبرياء والعظمة نصيب.

وكذلك في «العلو في الأرض» ليس للعبد فيه حق، فإنه سبحانه ذَمَّ من يريد العلو في الأرض: كفرعون، وإبليس، وأما المؤمن فيحصل له العلو بالإيمان، لا بإرادته له، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩].

[كلما كَمَّلَ العبد مراتب العبودية كان أقرب إلى الله تعالى]:

فلما كان السجود غاية سُفُول العبد وخضوعه، سَبَّحَ اسم ربه الأعلى فهو سبحانه الأعلى، والعبد الأسفل، كما أنه الربُّ، والعبدُ العبدُ، وهو الغني، والعبد الفقير، وليس بين الربِّ والعبد إلا محض العبودية، فكلما كَمَّلَهَا قَرَّبَ العبد إليه؛ لأنه سبحانه بَرٌّ، جوادٌ محسن، يَعْطِي العبد ما يناسبه، فكلما عَظَّمَ فقره إليه كان أغنى، وكلما عَظَّمَ ذُلَّهُ له كان أعز، فَإِنَّ النفس - لما فيها من أهوائها المتنوعة وتسويل الشيطان لها - تبعد عن الله حتى تصير ملعونة بعيدة من الرحمة. «واللعنة» هي: البُعد، ومن أعظم ذنوبها إرادة العلو في الأرض، والسجود فيه غاية سفولها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وفي الصحيح: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»، وقال لإبليس: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، وقال: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فهذا وصف لها ثابت. لكن من أراد أن يعلي غيرها جُوهِد، وقال: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فهو في سبيل الله».

«وكلمة الله»: هي خبره وأمره، فيكون أمره مطاعاً مقدماً على أمر غيره، وخبره مُصَدِّقٌ على خبر غيره، وقال: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلِمَةُ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، «والدين»: هو العبادة والذل، ونحو ذلك، يقال: دنته فدان؛ أي: ذَلَّلته فذل.

[شرح حديث «من تقرب إليَّ شبراً...»]:

ثم قال: «وقوله: «ومن تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»، فقرَّبُ الشيء من الشيء مستلزم

لقرب الآخر منه، لكن قد يكون قُرْبُ الثاني هو اللازم من قرب الأول، ويكون منه أيضاً قُرْبٌ بنفسه، فالأول: كمن تقرب إلى مكة أو حائط الكعبة، فكلما قُرْبَ منه قُرْبُ الآخر منه من غير أن يكون منه فعل، والثاني: كقرب الإنسان إلى من يتقرب هو إليه كما تقدم في هذا الأثر الإلهي، فتقرب العبد إلى الله وتقريبه له نَطَقَتْ به نصوص متعددة، مثل قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الواقعة: ٨٨]، ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٨]، ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، «وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه...» الحديث. وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبدُ من ربِّه في جوف الليل الآخر».

وقد بسطنا الكلام على هذه الأحاديث ومقالات الناس في هذا المعنى في «جواب الأسئلة المصرية على الفتيا الحموية»، فهذا قُرْبُ الربِّ نفسه إلى عبده، وهو مثل نزوله إلى السماء الدنيا. وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ يَدْنُو عَشِيَةَ عَرَفَةَ...» الحديث، فهذا القرب كُلُّه خاص، وليس في الكتاب والسنة قط قُرْبُ ذاته من جميع المخلوقات في كل حال، فعلم بذلك بطلان قول الحلولية، فإنهم عمَدُوا إلى الخاص المقيد فجعلوه عاماً مطلقاً، كما جعل إخوانهم «الاتحادية» ذلك في مثل قوله: «كنتُ سمعه»، وفي قوله: «فيأتيهم في صورة غير صورته»، وأنَّ الله قال على لسان نبيه: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ».

وكل هذه النصوص حجة عليهم، فإذا فُضِّلَ تبين ذلك، فالداعي والساجد يوجه روحه إلى الله، والروح لها عروج يناسبها، فتقرب من الله تعالى بلا ريب بحسب تخلصها من الشوائب، فيكون الله ﷻ منها قريباً قريباً يلزم من قربها، ويكون منه قرب آخر كقربه عَشِيَةَ عَرَفَةَ، وفي جوف الليل، وإلى من تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً.

وظاهر قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] يدل على أنَّ القربَ نَعْتُهُ، ليس هو مجرد ما يلزم من قرب الداعي والساجد. ودنوه عَشِيَةَ عَرَفَةَ هو لما يفعله الحاج ليلتئذ من الدعاء، والذكر، والتوبة، وإلا فلو قُدِّرَ أَنَّ أحداً لم يقف بعرفة لم يحصل منه سبحانه ذلك الدنو إليهم، فإنه يباهي الملائكة بأهل عرفة، فإذا قُدِّرَ أنه ليس هناك أحد لم يحصل، فدلَّ ذلك على تقربهم إليه بسبب قربه منهم كما دل عليه الحديث الآخر.

والناسُ في آخر الليل يكون في قلوبهم من التوجُّه والتقرب والرِّقَّة ما لا يوجد في

غير ذلك الوقت، وهذا مناسب لنزوله إلى السماء الدنيا، وقوله: «هل من داع؟ هل من سائل؟ هل من تائب؟».

ثم إنَّ هذا النزول هل هو كدونه عشية عرفة مُعلَّق بأفعال؟ فإن في بلاد الكفر ليس فيهم من يقوم الليل فلا يحصل لهم هذا النزول، كما أنَّ دُنُوهُ عشية عرفة لا يحصل لغير الحجاج في سائر البلاد، إذ ليس لها وقوف مشروع، ولا مباهاة الملائكة، وكما أنَّ تَفْتِيح أبواب الجنة، وتغليق أبواب النار، وتصفيد الشياطين إذا دخل شهر رمضان - إنما هو للمسلمين الذين يصومونه لا الكفار الذين لا يرون له حرمة. وكذلك اطلّعه على يوم بدر وقوله لهم: «اعملوا ما شئتم» كان مختصاً بأولئك أم هو عام؟ فيه كلام ليس هذا موضعه.

والكلام في هذا «القرب» من جنس الكلام في نزوله كل ليلة ودُنُوهُ عشية عرفة، وتكليمه لموسى من الشجرة، وقوله: ﴿أَنْ بُرِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع...»^(١).



(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢٧/٥ - ٢٤٢) باختصار.

الفاطر

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٢)

* المعنى اللغوي:

فَطَرَ الشيءَ يَفْطُرُهُ فَطْرًا فانفطر، وفَطَرَهُ: شَقَّه، وتفَطَّر الشيءَ: تشَقَّقَ، والفَطَرُ: السَّقُّ، وجمعه: فُطُور، وفي التنزيل: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

وتفَطَّرت الأرضُ بالنبات: إذا تصدَّعت، والفُطْرُ: ما تفَطَّر من النبات، وفَطَرَ نابُ الجمل؛ أي: انشق فخرج.

وفَطَرَ الله الخلق يَفْطُرُهُم: خلقهم وبدأهم، والفَطَر والفِطْرَة: الابتداء والاختراع، وفي التنزيل العزيز: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١^(١)].

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم في القرآن ست مرات، وهي:

قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَخْبَدُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقوله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَثَلَاثَ رُبُوعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٤٦].

وقوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

(١) «الصحاح» (٢/ ٧٨١، ٧٨٢)، و«اللسان» (٥/ ٣٤٣٢ - ٣٤٣٥) مادة (فطر)، و«تفسير ابن جرير» (٧/ ١٠٢).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال قتادة: «﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: خالق السموات والأرض»^(١). وكذا قال أبو عبيدة^(٢).

وقال ابن جرير: «ويعني بقوله: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مُبْتَدِعُهَا وَمُبْتَدِئُهَا وَخَالِقُهَا»^(٣).

وقال الخطابي: «(الفاطر): هو فَطَرَ الخلق؛ أي: ابتدأ خلقهم، كقوله تعالى: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١].

ومن هذا قولهم: فَطَرَ نَابُ البعير، وهو أول ما يَطْلُعُ.

وأخبرني الحسن بن عبد الرحيم قال: حدثنا عبد الله بن زيدان قال: قال أبو رَوْقٍ عن ابن عباس: «لم أكن أعلم معنى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حتى اختصم أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُهَا، يريد: أنا الذي اسْتَحْدَثْتُ حَفْرَهَا»^(٤).

وقال الحلبي: «(الفاطر) ومعناه: فَاتَقُ المرتق من السماء والأرض، قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَنَقَّْنَهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] فقد يكون المعنى: كانت السماء دخاناً فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ ليلها وأخرج ضُحَاهَا، وكانت الأرض غير مَدْحُوءَةٍ فَدَحَاهَا، وأخرج منها ماءها ومرعاها، ومن قال هذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ومعناه: أَلَمْ يَعْلَمُوا.

وقد يكون المعنى ما روي في بعض الآثار: فَتَقْنَا السماء بالمطر، والأرض بالنبات».

ثم ذكر أثر ابن عباس السابق، ثم قال: «والاعتراف بالإبداع يقتضي هذا المعنى ويأتي عليه»^(٥).

(١) أخرجه عنه ابن جرير (١٠٢/٧) بسند صحيح.

(٢) «مجاز القرآن» (١٨٧/١).

(٣) «جامع البيان» (١٠١/٧) وانظر: (٤٧/١٣، ٧٦/٢٢، ٨/٢٤، ٨/٢٥) فقد ذكر نحوه.

(٤) «شأن الدعاء» (ص ١٠٣)، والأثر الذي ذكره فيه عبد الله بن زيدان لم أعرفه، إذ لم أجد من يسمى عبد الله بن زيدان إلا ابن بُرَيْد البجلي الكوفي المترجم في «سير أعلام النبلاء» (١٤/٤٣٦) وهو متأخر توفي سنة (٣١٣هـ).

والأثر أخرجه أيضاً ابن جرير (١٠١/٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٨٢)، وفي سنده إبراهيم بن مهاجر البجلي وابن وكيع وهو سفيان وفيهما ضعف. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٢٥٥/٣) إلى أبي عبيد في فضائله وابن الأنباري في الوقف والابتداء.

(٥) «المنهاج» (١٩٤/١) وذكر ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداء والاختراع له، ونقله =

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن المبتدئ لخلق السموات والأرض هو الله، لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ولا خالق سواه، وأنه تعالى الذي فَتَقَ السماء بالمطر والأرض بالنبات. وأنه تعالى هو المبتدئ أيضاً لخلق جميع المخلوقات وقد كانت عَدَمًا، قال سبحانه: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مریم: ٦٧].

وإذا كان هو المبتدئ للخلق فكيف يُعبد غيره ويُعظم سواه؟! وقد نبّه الله تعالى عباده إلى ذلك في مواضع من كتابه، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ أَيْلَ النَّهَارِ يَظْلُمُ حَاشِيًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ ثم قال بعد هذا: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤، ٥٥].

٢ - وقد كان النبي ﷺ يُعظمُ ربّه بهذا الاسم ويدعوه، كما قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: سألت عائشة أم المؤمنين: بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم ربّ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهْدِنِي لما اخْتَلَفَ فيه من الحقِّ بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم»^(١).

وكذا في دعاء التَّوَجُّه الطويل: فعن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ إنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ...»^(٢).

فقوله: «وجهت وجهي»؛ أي: قصدت بعبادتي الذي فطر السموات والأرض.



= البيهقي في الأسماء (ص ٢٧)، ونقل الأصبهاني في «الحجة» (ق ٢٦ب) قول الحليمي مختصراً ثم قول الخطابي.

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة (١/ ٥٣٤). (٢) «المصدر السابق».

النَّاصِرُ - النَّصِيرُ

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٣)

* المعنى اللغوي:

نَصْرُهُ يَنْصُرُهُ نَصْرًا: إذا أَعَانَهُ عَلَى عَدُوِّهِ، وَالاسْمُ النَّصْرَةُ.
وَالنَّصِيرُ: النَّاصِرُ، وَالْجَمْعُ: الْأَنْصَارُ، مِثْلُ: شَرِيفٌ وَأَشْرَافُ.
وَاسْتَنْصَرَهُ عَلَى عَدُوِّهِ؛ أَي: سَأَلَهُ أَنْ يَنْصُرَهُ عَلَيْهِ.
وَتَنَاصَرُوا: نَصَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالتَّنَاصَرُ: التَّعَاوُنُ عَلَى النَّصْرِ.
وَانْتَصَرَ مِنْهُ: انْتَقَمَ ^(١).
وَقَالَ الرَّاعِبُ: «النَّصْرُ وَالنُّصْرَةُ: الْعَوْنُ» ^(٢).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد اسمه (النَّاصِر) مرة واحدة بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠].

أما اسمه (النَّصِير) فقد ورد أربع مرات، هي:
قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ [الأنفال: ٤٠].
وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].
وقوله تعالى: ﴿وَأَعِصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ [الحج: ٧٨].
وقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ﴾ وليكم وناصركم على أعدائه الذين كفروا ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ لا مَنْ فررتُم إليه من اليهود وأهل الكفر بالله!! فبالله الذي هو ناصرُكم ومولائُكم فاعْتَصِمُوا، وإياه فاستنصروا دون غيره ممن يبغىكم الغوائل

(١) «الصحاح» (٢/ ٨٢٩)، و«اللسان» (٦/ ٤٤٣٩ - ٤٤٤١) مادة (نصر).

(٢) «المفردات» (ص ٤٩٥).

ويرصدكم بالمكاره»^(١).

وقال في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾: «وَحَسْبُكُمْ بِاللَّهِ نَاصِرًا لَكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ وَأَعْدَاءِ دِينِكُمْ، وَعَلَىٰ مِنْ بَغَاكِمِ الْغَوَائِلُ، وَبَغَىٰ دِينَكُمْ الْعِوَجُ»^(٢).

وقال: ﴿وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾: «وَهُوَ النَّاصِرُ»^(٣).

وقال: «﴿وَنَصِيرًا﴾ يقول: ناصراً لك على أعدائك، يقول: فلا يَهْوُلَنَّكَ أَعْدَاؤُكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنِّي نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ فَاصْبِرْ لِأَمْرِي، وَامْضِ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِي إِلَيْهِمْ»^(٤).

وقال الحليمي: «(الناصر) هو المُسَيِّرُ للغلبة.

و(النصير): وهو الموثوق منه بأن لا يُسْلِمَ وَلِيَّهٖ وَلَا يَخْذُلُهُ»^(٥).

وقال القرطبي: «وله معانٍ، منها: الْعَوْنُ، يقال: نصره الله على عدوه ينصره نصراً، فهو ناصر ونصير للمبالغة، والاسم النُّصرة، والنصير الناصر»^(٦).

وقال الأصبهاني: «(النصير والناصر) بمعنى، ومعناه: يَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَهُمْ عِنْدَ لِقَاءِ عَدُوِّهِمْ، وَيُلْقِي الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ عَدُوِّهِمْ»^(٧).

وقال ابن كثير: «﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾؛ يعني: نِعَمَ الْوَلِيِّ وَنِعَمَ النَّاصِرِ مِنَ الْأَعْدَاءِ»^(٨).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن الله تعالى هو (النَّصِير) الذي ينصر رسله وأنبياءه وأتباعهم من المؤمنين، وأنه تعالى مصدر النصر الحقيقي، فالمنصور: مَنْ نَصَرَهُ، والمخذول المهزوم: مَنْ خَذَلَهُ. قال القرطبي: «فيجب على كلِّ مكلف أن يعتقد أن النصر على الإطلاق إنما هو لله تعالى، كما قال: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وأن الخذلان منه»^(٩).

ولا يجوز أن يقال منها: خاذِل؛ لأنه لم يرد به إذن.

(١) «جامع البيان» (٨٠/٣، ٨١).

(٢) المصدر السابق (١٦٣/٩).

(٣) المصدر السابق (٨/١٩).

(٤) «المنهاج» (٢٠٥/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٧٠).

(٥) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٣٨ ب).

(٦) «الحجة» (ورقة ٣٤ ب).

(٧) «تفسير القرآن» (٢٣٧/٣).

(٨) فهل يعي هذا المسلمون!! فيتركون الالتجاء إلى الشرق والغرب - طلباً للنصر والقوة والعزة - ويلجأون إلى المولى النصير ﷺ، ويضطلحون معه بدلاً من الاصطلاح مع أعدائه!!؟

والنصر يستدعي ناصراً وَمَنْصُوراً ومنصوراً عليه، فتأييد الله أوليائه المؤمنين بالملائكة نصرٌ لهم على أعدائهم، كما نصرَ نبيه ﷺ وصحبه يوم بدر بالملائكة، فيكون المَلِكُ على هذا منصوراً على أعداء المؤمنين، وأعداء المؤمنين أعداءُ الله ولملائكته، وقد يكون نصر الله للمَلِكِ عونهُ على عبادته وطاعته، إذ ليس له عدو في مقابلته لأنه نورٌ كله فلا ظُلْمَةٌ تجاذبه!.

فهذه النصره لا تستدعي منصوراً عليه، والإنسان يُجاذبه عدوه إبليس والهوى، فإذا نصره الله نصراً باطناً فعلى هؤلاء ينصره، وإذا نصره نصراً ظاهراً فينصره على أعدائه الكافرين، وجميع الظالمين، فإن أصاب الظفر بالعدو الظاهر فهو المنصور، وإن ثبت على دين الله وصبر فكان للكافر الظفر؛ فالمؤمن أيضاً منصور؛ لأن صبره على قتال عدوه وثبات نفسه في دفع الهوى - الذي من طبعه الخذلان - هو النصر، إلا أن هذا نصرٌ باطن، وثواب عليه قائم، وقد حصل له النصر من الله على عدوه إبليس الذي يرومُ خِذلان الإنسان^(١).

٢ - فهذه نصره الله لعباده، أما نصره العبد لربه فهي عبادته والقيام بحقوقه ورعاية عهوده واجتناب نهيه، قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. قال القرطبي: «فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ والنصر: هو العون، والله سبحانه لا يجوز عونه قولاً ولا يتصور فعلاً؟. فالجواب: من أوجه:

أحدها: إن تنصروا دين الله بالجهاد عنه ينصركم.

الثاني: إن تنصروا أولياء الله بالدعاء.

الثالث: إن تنصروا نبي الله وأضاف النصر إلى الله تشريفاً للنبي ﷺ وأوليائه وللدِين، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] فأضاف القرض إليه تسليّة للفقير.

وجاء فعل «النصر» في مواضع كثيرة - صفات الأفعال - مضافاً^(٢) إلى من خصّه الله بالنصرة، وهم: الملائكة والمؤمنون لا غير، فإن حقيقة النصر المعونة بطريق التولي والمحبة، والمعونة على الشر لا تُسمى نصراً، ولذلك لا يقال في الكافر إذا ظفر بالمؤمن: إنه منصورٌ عليه، بل يقال: هو مُسَلِّطٌ عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٠].

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٤٠ أ، ب). (٢) في الأصل: «مضاف» وهو خطأ.

وقوله ﷺ: «إِذْ ذَكَرَ أُمَّةَ الْجَوْرِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ: «وَيَنْصُرُونَ عَلَى ذَلِكَ»، أَرَادَ أَنَّهُمْ يَنْصُرُونَ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَيَكُونُ نَصْرُ اللَّهِ تَعَالَى لِدِينِهِ رَاجِعاً لَهُ، وَإِبْقَاءَ لِكَلِمَتِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالزَّجْلِ الْفَاجِرِ»^(١).

ولو وردت لفظة «النَّصْر» للكافر، لكان معناه: التسليط والعون البشري، وإنما حقيقة النصر ما ذكرناه أولاً، وقد يحمل قوله ﷺ: «فِي أُمَّةِ الْجَوْرِ أَنَّهُمْ يَنْصُرُونَ؛ أَي: يَعْطُونَ الدُّنْيَا وَيَمْلَأُ لَهُمْ فِيهَا، يُقَالُ: نَصَرَهُ يَنْصُرُهُ إِذَا أَعْطَاهُ، وَمِنْ كَلَامِ بَعْضِ الْعَرَبِ: انصروني نصركم الله؛ أَي: اعطوني أعطاكم الله»^(٢).

وقال الأصمبھاني: «فَيَنْبَغِي لِكُلِّ أَحَدٍ إِذَا رَأَى مَعْرُوفاً أَنْ يَأْمَرَ بِهِ، وَإِذَا رَأَى مَنكَراً أَنْ يَنْهَى عَنْهُ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ يَنْصُرُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وَكُلُّ مَنْ يَرِيدُ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ رِضَا اللَّهَ يَنْصُرُهُ اللَّهَ وَيُعِينُهُ، فَيَنْبَغِي إِذَا رَأَى مَنكَراً أَنْ يُغَيِّرَهُ بِيَدِهِ إِنْ قَوِيَ، وَإِلَّا بِلِسَانِهِ إِنْ ضَعُفَ، فَإِنْ عَجَزَ عَنِ الْأَمْرِ أَنْكَرَ بِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَوْضَعُ الْإِيمَانِ»^(٣).

والله تعالى قادرٌ على نصرته دينة فإنه نصر عبده وأعزَّ جنده وهزَمَ الأحزاب وحده، فإنه القوي القادر على كل شيء، ولكنه ابتلى عباده بذلك ليظهر من ينصر دينه وشرعه ممن يتولى عن نصرته، قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وقال: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠].

٣ - أوضح الله تعالى لعباده أنه لا ناصرَ لهم دونه، ولا معينَ لهم سواه وذلك في آيات كثيرة، لتتوجه قلوبهم له، وأكفهم بالضراعة إليه.

قال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧]، وقد تكررت في القرآن تأكيداً لهذا المعنى.

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك: ٢٠].

وقال: ﴿وَمَا أَنْصُرُ إِلَّا مَنْ عِنْدَ اللَّهِ الْغَزِيَّ الْحَكِيمَ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. وأيقن بذلك عباده المؤمنون، فقال نوح ﷺ لقومه حين عابوا عليه اتباع الفقراء والضعفاء لدعوته، وأمره بطردهم: ﴿وَيَنْقُومُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنَّ طَرَفَهُمْ أَفَلًا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠].

(١) أخرجه البخاري (١٧٩/٦، ٤٧١/٧، ٤٩٨/١١، ٤٩٩)، ومسلم في الإيمان (١/١٠٥)، (١٠٦) عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ حيناً فقال لرجل ممن يُدعى بالإسلام: «هذا من أهل النار...» الحديث.

(٢) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٣٩ب، ١٣٤٠). (٣) «الحجة» (ورقة ٢٤ب).

وقال صالح عليه السلام: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود: ٦٣].

وقال الرجل المؤمن من قوم فرعون مُذَكِّراً قومه بعاقبة كفرهم وإعراضهم عن الإيمان بالله ورسوله: ﴿يَقَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩].

وقال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَذَلُّوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

ولما خسف الله تعالى بقارون المختال الكفور قال: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

وكذا لما أحاط الله ﷻ بمال الرجل الذي كفر بربه وبالبعث وأهلك بستانه: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾ [٤٣] [الكهف: ٤٣].

٤ - كان ﷺ إذا غَزَا قال: «اللهم أنتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أَقَاتِلُ»^(١).

قال الترمذي: «قوله: «عضدي»؛ يعني: عوني».

وقال الخطابي: «قوله: «أحول» معناه: أحتال، قال ابن الأنباري: «الحَوْلُ» معناه: في كلام العرب: الحيلة، يقال: ما للرجل حول وما له محالة، قال: ومنه قولك: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ أي: لا حيلة في دفع سوء، ولا قوة في دَرْكِ خَيْرٍ إلا بالله.

وفيه وجه آخر: وهو أن يكون معناه: المنع والدفع، من قولك: حَالٌ بين الشيئين: إذا منع أحدهما عن الآخر، يقول: لا أَمْنَعُ، ولا أَدْفَعُ إِلَّا بِكَ»^(٢).

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٣/١٨٤)، وأبو داود (٣/٢٦٢٣)، والترمذي (٥/٣٥٨٤)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٠٤)، وابن حبان (١٦٦١ - موارد).
عن المثنى بن سعيد عن قتادة عن أنس قال: «كان...» الحديث.
قال الترمذي: حسن غريب.

قلت: ورجاله ثقات، المثنى بن سعيد هو الضبعي أبو سعيد البصري، قال أحمد، وابن معين، وأبو زرعة، وأبو حاتم، وأبو داود، والعجلي: ثقة.
(٢) «معالم السنن» (٢/٢٦٧).

٥ - وكان يقول في دعائه: «لا إله إلا الله وحده، أعزُّ جُنْدَه، ونَصَرَ عَبْدَه، وغَلَبَ الأحزابَ وحده، فلا شيء بعده»^(١).

ولما ثَقُلَتْ على أصحاب رسول الله ﷺ شروط «الحُدَيْبِيَّة» قال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألسْتَ نبي الله ﷺ؟ قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحقِّ وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى»، قلت: فلم نُعْطِ الدِّينَةَ في ديننا إذا؟! قال: «إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصِري...»^(٢).



(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٠٨٩/٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣٣٠/٤)، والبخاري في الشروط (٣٣٢/٥)، (٣٣٣).

المستعان

جَلَّ جلاله وتقدَّست أَسماؤه

(٩٤)

* المعنى اللغوي:

العَوْنُ: الظهيرُ على الأمر، الواحد والاثنان والجمع والمؤنث فيه سواء، وقد حُكي في تكسيره: أعوان.

وتقول: أَعْنَتْهُ إعانةً، واستَعْنَتْهُ واستَعْنَتْ به فأعاني^(١).
والتعاون: التظاهر، قال تعالى: ﴿وَنَعَاوُنًا عَلَىٰ آلِ رَبِّ وَالنَّقَوَّىٰ وَلَا نَعَاوُنًا عَلَىٰ آلِائِرٍ وَالْمُؤَدِّينَ﴾ [المائدة: ٢].

والاستعانة: طَلَبُ العَوْنِ، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]^(٢).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد اسم مرتان: في قوله ﷻ: ﴿فَصَبِّرْ جَبِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].
وقوله: ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]: يقول: والله أستعين على كفايتي شرَّ ما تصفون من الكذب»^(٣).

وقال في قوله: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢]: «يقول جلَّ ثناؤه: وقل يا محمد: وربُّنا الذي يرحم عباده ويعمهم بنعمته الذي أستعينه عليكم فيما تقولون وتصفون، من قولكم لي فيما أتيتكم به من عند الله: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]، وقولكم: ﴿بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]، وفي كذبكم على الله جلَّ ثناؤه وقيلكم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [الأنبياء: ٢٦] فإنه هينٌ عليه تغيير ذلك، وفُضِّلُ ما بيني وبينكم بتعجيل العقوبة لكم على

(١) «الصحيح» (٢١٦٨/٦، ٢١٦٩)، «اللسان» (٣١٧٩/٤، ٣١٨٠) مادة (عون).

(٢) «المفردات» للراغب (ص ٣٥٤). (٣) «جامع البيان» (٩٨/١٢).

ما تصفون من ذلك»^(١).

وفي «الأسنى»: قال ابن العربي: وهذا الاسم لم يرد في حديث أبي هريرة ولا ذكره علماؤنا، وهو من أشرف الأسماء لشرف مُتعلِّقه، وقد تَضَمَّنَت الفاتحةُ معناه فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قلت - أي القرطبي -: قوله: ولا ذكره علماؤنا، قد ذكره غيرُ واحد منهم الأقلبي.

فالمستعان معناه: الذي لا يُطَلَّبُ العون، بل يُطَلَّبُ منه، والعون: الظهير على الأمر، والجمع: الأغوان والمعونة والإعانة، يقال: ما عندك معونة ولا مَعَانَةٌ ولا عَوْنٌ، وتقول: ما أخْلَانِي فلانٌ من معاونة، وهو جمع معونة، ورجل مِعْوَان: كثيرُ العون للناس، واستعنت بفلان فأعَانَنِي وعَاوَنَنِي.

والله سبحانه بخلاف ذلك، غَنِيَ عن الظهير والمُعِين والشريك والوزير، بل كل إعَانَةٍ وَعَوْنٍ فمَنه وبه سبحانه لا إِلَهَ إلا هو.

وهو مُسْتَفْعَلٌ من العون، وهو وصفٌ ذاتي لله تعالى راجعٌ إلى صفةِ القوة.

وفيه معنى الإضافة الخاصة لمن استعان به من عباده على طاعته^(٢).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - الله تبارك وتعالى هو (المُسْتَعَانُ) الذي يُطَلَّبُ منه العون والقوة على فعل الطاعات وترك المحرمات، وجلب المنافع ودفع المضرات.

فهو سبحانه يُعِين عباده ولا يستعين بأحد منهم لا في الأرض، ولا في السموات قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: ٢٢].

قال ابن كثير: «أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراءٌ إليه، عبيدٌ لديه»^(٣).

وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

فقد حمِدَ الله تبارك وتعالى نفسه المقدسة، بأنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم

(١) المصدر السابق (١٧/٨٤، ٨٥).

(٢) «الكتاب الأسنى» (٢/ورقة ٤٢٥ب، ٤٢٦أ).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٣٦).

يولد ولم يكن له كُفُواً أحد، وأنه ليس له من يشاركه في الملك ولا في الخلق ولا في الأمر، وأنه ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له وليٌّ أو وزير أو مشير، بل هو الله الواحدُ القَهَّار، الحي القيوم بنفسه فلا يحتاج في حياته وقيامه إلى أحد من خلقه، وكلُّ خلقه بحاجة إلى الاستعانة به، بل لا قيام ولا حياة ولا وجود لهم إلا به وبقدرته وقوته لا شريك له.

٢ - وللإمام المحقق المدقق ابن القيم رحمه الله تعالى كلام جامع نفيس في «الاستعانة» وتعلقها بالعبادة وأنواع الناس في هذين الأصلين العظيمين، إذ يقول:

«و(الاستعانة) تجمع أصليين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره - مع ثقته به - لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه - مع عدم ثقته به - لحاجته إليه -، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

و(التوكل) معنى يلتئم من أصليين: من الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وهذان الأصلان - وهما التوكل، والعبادة - قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها، هذا أحدها.

الثاني: قول شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَيَّبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [٨] رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ [المزمل: ٨، ٩].

السادس: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وتقديم (العبادة) على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و(الاستعانة) وسيلة إليها. ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه (الله)، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه (الرب) فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قدم اسم (الله) على (الرب) في أول

السورة، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناءً على الله تعالى، لكونه أولى به، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد. فكان الشطر الذي له، وهو ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾... ﴿[الفاتحة: ٦] إلى آخر السورة.

ولأنَّ «العبادة» المطلقة: تتضمن «الاستعانة» من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة: مُستعين به ولا ينعكس، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم الرب.

ولأن الاستعانة جزءٌ من (العبادة) من غير عكس، ولأن الاستعانة طلب منه، و(العبادة) طلب له.

ولأن (العبادة) لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن (العبادة) حَقُّه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة. وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك. وأداء حقه: أهم من التعرض لصدقته.

ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، و«الإعانة» فعله بك وتوفيقه لك. فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رَقِّهَا أعانك عليها. فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبوديته كانت الإعانة من الله له أعظم.

و«العبودية» محفوفةٌ بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى. وهكذا أبداً، حتى يقضي العبد نَحْبَه.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، وما له مقدم على ما به، لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي، والمتعلق بمحبته: طاعتهم وإيمانهم. فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبداً. وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمى بالحصص، فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، والحاكم في ذلك ذوق العريية والفقه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدماً، وسيبويه نص على الاهتمام، ولم ينفِ غيره.

[أقسام الناس في العبادة والاستعانة]:

إذا عرفت هذا، فالناس في هذين الأصلين - وهما العبادة والاستعانة - أربعة أقسام: أجلُّها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى: الإِعانَةُ على مرضاته، وهو الذي علَّمه النبي ﷺ لِحِبِّه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال: «يا معاذ، والله إنني لأحبك، فلا تنسَ أن تقول دُبُر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

فأنفع الدعاء: طلبُ العون على مرضاته، وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية الماثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه، فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه -: فتأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ومقابل هؤلاء: القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهوته، لا على مرضاة ربه وحقوقه. فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض: يسأله أوليائه وأعداؤه ويمدُّ هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته، كانت زيادةً له في شِقْوته، وبُعدَه عن الله وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عوناً على طاعته: كان مبعداً له عن مرضاته، قاطعاً له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أنَّ إجابة الله لسائله ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حمايةً وصيانةً وحفظاً لا بخلاً، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه، فيظن - بجهله - أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه! وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا: حمله على الأقدار، وعتابه الباطن لها، كما قيل:

وعَاجِزُ الرَّأْيِ مِضْيَاغٌ لِفُرْصَتِهِ حَتَّى إِذَا فَاتَ أَمْرٌ عَاتَبَ الْقَدْرَا
فوالله لو كشف عن حاصله وسرّه لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان

ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس إليّ؟ والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيره وعاقبته مغيبة عنك، إذا لم تجد من سؤاله بُدأً، فعَلِّقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بل إن وُكِّلَ إلى نفسه هَلَكُ كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعاً لك عنه، ولا مبعداً عن مرضاته.

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القدرية، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألفاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة! فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء ولكن أوليائه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعدائه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وُقِّعَ هؤلاء بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان، وخذل هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفر!.

فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة، لا استعانة معه، فهم موكلون إلى أنفسهم، مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده».

النوع الثاني: مَنْ لهم عبادات وأوراد، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب، ومن الآلة إلى الفاعل، فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم، ولهم

من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبدُ على الله حقَّ توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأموراً بإزالته، لأزاله.

[معنى التوكل والاستعانة]:

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟.

قلت: هو حالٌ ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفردهِ بالخلق، والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن، وإن شاء الناس، فيوجبُ له هذا اعتماداً عليه، وتفويضاً إليه، وطمأنينة به، وثقةً به، ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَلِيٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همِّه على إنزال ما ينويه بهما. فهذه حال المتوكل، ومن كان هكذا مع الله، فالله كافيه ولا بد، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أي: كافيه. و«الحسب»: الكافي، فإن كان - مع هذا - من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو:

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يدُرْ مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به. فقضيت له، وأُسْعِفَ بها، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق، أو أحوالاً من كشف وتأثير وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له، فإنها من جنس المُلْك الظاهر والأموال، لا تستلزم الإسلام، فضلاً عن الولاية والقرب من الله، فإن الملك والجاه والمال والحال مُعْطَاةٌ للبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فمن استدَلَّ بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين، فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه، فالحال من الدنيا، فهو كالملك والمال، إن أعانَ صاحبه على طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره: ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبالٌ على صاحبه، ومبعد له عن الله، ومُلْحَقٌ له بالملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة». اهـ^(١).

(١) «مدارج السالكين بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾» (١/٧٥ - ٨٢)، باختصار.

ذو المعارج جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه

(٩٥)

* المعنى اللغوي:

عَرَجَ فِي الدَّرَجَةِ وَالسَّلَمِ يَعْرُجُ عُرُوجاً؛ أي: ارتقى، وعرج في الشيء وعليه يُعْرَج وَيَعْرَجُ عروجاً أيضاً: رَقِيَ، وَعَرَجَ الشيء فهو عَرِيج: ارتفع وعلا.
وفي التنزيل: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]؛ أي: تصعد.
والمعرج: المصعدُ والطريق الذي تصعد فيه الملائكة.
وعُرج بالروح والعمل: صُعد بهما^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد مرة واحدة في قوله ﷻ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ① ② لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ③
مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ④ [المعارج: ١ - ٣].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال قتادة: ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ⑤ [المعارج: ٣] ذي الفواضل والنعم^(٢).
وقال الفراء: «وقوله: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾: من صفة الله ﷻ؛ لأن الملائكة تعرج إلى الله ﷻ فوصف نفسه بذلك»^(٣).
وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾؛ يعني: ذا العُلُوِّ والدرجات والفواضل والنعم»^(٤).

وقال الخطابي: «(ذو المعارج): وهو الذي يُصْعَدُ إليه بأعمال العباد، وإليه يُصعد

(١) «الصحاح» (١/٣٢٨، ٣٢٩)، «اللسان» (٤/٢٨٦٩ - ٢٨٧١) مادة (عرج)، و«شأن الدعاء» (ص ١٠٤).

(٢) أخرجه ابن جرير (٤٤/٢٩) عنه بسند حسن.

وأخرجه عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ يقول: العلو والفواضل.

(٤) «جامع البيان» (٤٤/٢٩).

(٣) «معاني القرآن» (٣/١٨٤).

بأرواح المؤمنين^(١).

وقال الحليمي: «(ذو المعارج): وهو الذي يُعرجُ بالأرواح والأعمال، وهذا أيضاً يدخل في باب الإثبات والتوحيد والإبداع والتدبير، وبالله التوفيق»^(٢).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - الله تبارك وتعالى هو الربُّ الملك الخالق المدبر (ذو المعارج) الذي تعرج إليه الملائكة والأرواح، وتصعد إليه الأعمال والأقوال الصالحة الطيبة.

قال أبو القاسم الأصبهاني: «ومن أسمائه (ذو المعارج) ومعناه: تعرج أعمال الخلق إليه كما قال ﷺ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] فملائكة النهار تعرجُ بأعمالكم بالنهار، وملائكة الليل تعرجُ بأعمالكم [بالليل] فزَيُّنُوا صَحَائِفَكُمْ بالأعمال الصالحة، والمواظبة على الصلوات الخمس، فإن الصلوات يُذَهَّبْنَ السيئات، قيل في التفسير: الحسنات: الصلوات الخمس^(٣).

قلت: وقد جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ - وهو أعلمُ بهم - : كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصَلُّونَ، وأتيناهم وهم يُصَلُّونَ»^(٤).

٢ - وهذا الاسم يدل على علو الرب تعالى على عباده، وأنه فوقهم، فإن العروج هو الصعود، كما تقدم^(٥).



(١) «شأن الدعاء» (ص ١٠٤).

(٢) «المنهاج» (١/٢١٠) وذكره ضمن فصل: والله جل ثناؤه أسماء سوى ما ذكرنا تدخل في أبواب مختلفة، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٩٣).

(٣) «الحجة» (ق ٢٤ أ - ب).

(٤) رواه البخاري في المواقيت (٢/٣٣) وفي بدء الخلق (٦/٣٠٦) وفي التوحيد (١٣/٤١٥)، ومسلم في المساجد (١/٤٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومعنى «يتعاقبون»؛ أي: تأتي طائفة عقب طائفة، ثم تعود الأولى عقب الثانية.

(٥) وقد سبق تقرير هذه المسألة في آثار الإيمان بـ (العلي - الأعلى - المتعال).

ذو الطَّوْلِ

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٦)

* المعنى اللغوي:

الطَّوْلُ بالفتح: المَنْ، يقال منه: طَالَ عليه وتَطَوَّلَ عليه، إذا امتنَّ عليه. وطَالَ عليه واستطَالَ وتَطَالَ: إذا علاه وترَفَّعَ عليه. والطَّوْلُ والطَّائِلُ والطَّائِلَةُ: الفضلُ والقدرةُ والغنى والسَّعةُ والعُلُوُّ^(١). وقال الزجاجي: «الطَّوْلُ: الفضل، يقال: طال فلانٌ علينا طولاً: إذا أفضَلَ عليهم، والطَّوْلُ خِلاف العَرَض». ويقال: لا أكلمك طَوَالَ الدهر؛ أي: أبداً. والطَّوْلُ: الحبل»^(٢).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد مرة واحدة في مطلع سورة «غافر» في قوله سبحانه: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال قتادة: «(ذي الطول)؛ أي: ذي النعم»^(٣). وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: «(ذي الطول)؛ أي: التَّفَضُّل، تقول العرب للرجل: إنه لذو طَوْلٍ على قومه؛ أي: ذو فضل عليهم»^(٤). وقال ابن جرير: «(ذي الطول): يقول: ذي الفضل والنَّعم المبسوطة على من شاء من خلقه، يقال منه: إن فلاناً لذو طولٍ على أصحابه إذا كان ذا فضل عليهم».

(١) «الصحيح» (١٧٥٣/٥، ١٧٥٤)، و«اللسان» (٢٧٢٥ - ٢٧٢٨) مادة (طول).

(٢) «اشتقاق أسماء الله» (ص ١٩٣، ١٩٤) باختصار.

(٣) أخرجه ابن جرير عنه (٢٨/٢٤) بسند حسن.

(٤) «مجاز القرآن» (٢/١٩٤).

ثم ذكر قول قتادة المتقدم، ثم قال: «وقال بعضهم «الطَّوْل»: القدرة، ونقله عن ابن زيد»^(١).

وقال الخطَّابي: «(ذو الطَّوْل) و(ذو الفضل) معناه: أهلُ الطَّوْل والفضل، و(ذو): حرف النِّسْبَةِ، كقوله تعالى: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]»^(٢).

وقال الحُلَيْمي: «ومنها (ذو الطول) ومعناه: الكثير الخير، لا يعوزه من أصناف الخيرات شيء إن أراد أن يُكرم به عبده.

وليس كذي طولٍ من عباده، قد يُحب أن يوجد بالشيء ولا يجده»^(٣).

وقال ابن كثير بعد أن ذكر أقوال المفسرين: «والمعنى أنه المتفضل على عباده، الْمُتَطَوُّلُ عليهم بما هم فيه من المنن والأُنعم التي لا يُطيعون القيام بشكرٍ واحدةٍ منها: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ الآية [إبراهيم: ٣٤]، وقوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ أي: لا نظير له في جميع صفاته، فلا إله غيره ولا ربَّ سواه»^(٤).



(١) «جامع البيان» (٢٧/٢٤ - ٢٨) وإسناده إلى ابن زيد صحيح.

(٢) «شأن الدعاء» (ص ١٠٥).

(٣) «المنهاج» (١٩٩/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٤٣) ووقع عنده العبارة: «وليس كذا طولُ ذي الطول من عباده».

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٧٠/٤). وانظر: من آثار الإيمان بهذا الاسم في الاسم التالي.

ذُو الْفَضْلِ

جَلَّ جلاله وتقدَّست أَسْمَاؤه

(٩٧)

* المعنى اللغوي:

الْفَضْلُ وَالْفَضِيلَةُ: خلاف النَّقْصِ والنَّقِيصَةِ.

وَالْإِفْضَالُ: الإِحْسَانُ.

وَرَجُلٌ مِفْضَالٌ وَامْرَأَةٌ مِفْضَالَةٌ عَلَى قَوْمِهَا، إِذَا كَانَتْ ذَاتَ فَضْلٍ سَمَحَةً.

وَأَفْضَلَ عَلَيْهِ وَتَفَضَّلَ، بِمَعْنَى.

وَالْمُتَّفَضِّلُ أَيْضاً: الَّذِي يَدْعِي الْفَضْلَ عَلَى أَقْرَانِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ أَنْ

يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وَالْفَوَاضِلُ: الْأَيَادِي الْجَمِيلَةُ^(١).

وَقَالَ الرَّاعِبُ الْأَصْبَهَانِيُّ: «الْفَضْلُ: الزِّيَادَةُ عَنِ الْاِقْتِصَارِ، وَذَلِكَ ضَرْبَانِ:

مَحْمُودٌ، كَفَضْلِ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ، وَمَذْمُومٌ كَفَضْلِ الْغَضَبِ عَلَى مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ

عَلَيْهِ، وَالْفَضْلُ فِي الْمَحْمُودِ أَكْثَرُ اسْتِعْمَالاً، وَالْفُضُولُ فِي الْمَذْمُومِ»^(٢).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد اثنتي عشرة مرة في الكتاب، منها:

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

وَيَعْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، فإنه خبرٌ

(١) «الصحيح» (٥/ ١٧٩١)، و«اللسان» (٥/ ٣٤٢٨، ٣٤٢٩) مادة (فضل)، وانظر: «الكتاب الأسنى» (ورقة ٤١٣ أ - ب).

(٢) «المفردات» (ص ٣٨١).

من الله جلّ ثناؤه عن أن كلّ خيرٍ ناله عباده في دينهم ودنياهم، فإنه من عنده ابتداءً وتفضلاً منه عليهم، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥] تعريضٌ من الله تعالى ذكره بأهل الكتاب أن الذي أتى نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين به من الهداية: تفضلاً منه، وأنّ نعمه لا تُدرَك بالأُماني، ولكنها مواهب منه يختصُّ بها من يشاء من خلقه»^(١).

وقال الحليمي: «ومنها (ذو الفضل): وهو المُنعم عما لا يلزمه»^(٢).

وقال القرطبي بعد ذكره لمعنى الاسم لغة: «فالله سبحانه ذو الفضل العظيم، والإحسان العميم، أعطى خلقه ما لا يلزمه، وتفضّل عليهم بما لا يجبُ عليه، فسبحانه من كريم رؤوف رحيم، تفضّل على جميع خلقه بنعمته، وعلى المؤمنين بدار كرامته: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]»^(٣).

* من آثار الإيمان بهذين الاسمين (ذو الطّول) و(ذو الفضل):

١ - إن الله تعالى موصوفٌ بالطّول والفضل والإحسان إلى عباده، والقدرة على ذلك، لا يمنعه مانع من إيصال فضله ونعمته إلى من يشاء: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢٢]، بل الفضل كلّ بيده يعطي من يشاء فضلاً، ويمنع من يشاء عدلاً، ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمُ﴾ [٧٣] يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ [آل عمران: ٧٣، ٧٤].

﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩]»^(٤).

٢ - والله تبارك وتعالى مُتفضلٌ على عباده بأنواع النعم، من غير سؤال منهم،

(١) «جامع البيان» (٣٧٨/١).

(٢) «المنهاج» (٢٠٨/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ونقله البيهقي «الأسماء» (ص ٨٨).

(٣) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٤١٣ ب).

(٤) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩] «لا» زائدة، قال الفراء: والعرب تجعل «لا» صلة في كل كلام دخل في آخره أو أوله جحد، فهذا مما جعل في آخره جحد. والمعنى: ليعلم «أَهْلَ الْكِتَابِ» الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ «أَلَّا يَقْدِرُونَ»؛ أي: أنهم لا يقدرُونَ «عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ» والمعنى: أنه جعل الأجرين لمن آمن بمحمد ﷺ ليعلم من لم يؤمن به أنه لا أجر لهم ولا نصيب في فضل الله. انظر: «زاد المسير» (١٧٩/٨).

ولا استحقاق لها، بل كل ما عندهم من نعم الدين والدنيا فهو من الله تعالى فضلٌ وكرمٌ وإحسانٌ، وحتى الكافر يتقلب في فضل الله ورحمته في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَا كِنَّ اللَّهَ دُو فَضْلٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فمن فضله على عباده المؤمنين أنه يُنجيهم من أعدائهم وكيدهم ومكرهم إذا توكّلوا عليه ووثقوا بقوته وقدرته ونصره، كما حصل للنبي ﷺ وأصحابه لما خوّفهم الناس بالمشركين وعددهم فقالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، قال تعالى بعد ذلك: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهْمُ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

ومن فضله على عباده: تثبيتهم لهم على هذا الدين وعصمته لهم من الرّيب والخذلان واتباع الشيطان، قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣].

وامتن بما أنزل عليه فقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ومن فضله على عباده: تركه مُعاجلة العصاة والكفار والمنافقين بالعقوبة في الدنيا، وإمهالهم إلى يوم القيامة، وبهذا فسّر ابن جرير هذه الآية: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠] ^(١).

وقال سبحانه عن الذين خاضوا في حديث الإفك: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤].

ومن فضله: تنوير بصائر من اتقاه، وتكفيره لسيئاته ومغفرته لذنوبه وتزكية نفسه، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنفَعُوا اللَّهَ يُجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

وإعطائهم فوق ما يستحقون من ثواب زيادةً وفضلاً: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣].

وقال: ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٨].

(١) «جامع البيان» (٨٩/١١).

الغالب

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٨)

* المعنى اللغوي:

غَلَبَهُ يَغْلِبُهُ غَلَبًا وَغَلَبًا - وهي أفصح - وَغَلَبَهُ وَمَغْلَبًا وَمَغْلَبَةً.
ورجال غَالِبٌ من قوم غَلَبَهُ، وغَلَّابٌ من قوم غَلَّابِينَ^(١).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وورد بصيغة الفعل في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير: «﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١] يقول تعالى ذكره: والله مُسْتَوِلٌ عَلَى أَمْرِ يَوْسُفَ، يسوسه ويدبره ويحوطه، والهاء في قوله: ﴿عَلَى أَمْرِهِ﴾ عائدة على يوسف»^(٢).

وقال الحليمي: «(الغالب): وهو البالغ مُرادَه من خلقه أحبوا أم كرهوا، وهذه إشارة إلى كمال القدرة والحكمة، وأنه لا يُقهر ولا يُخدع»^(٣).

وقال البغوي: «﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، قيل: الهاء في ﴿أَمْرِهِ﴾ كناية عن الله تعالى، يقول: إن الله غَالِبٌ على أمره يفعل ما يشاء، لا يغلبه شيء، ولا يردُّ حكمه رادًّا.

(١) «الصحاح» (١/١٩٥)، «اللسان» (٣٢٧٨ - ٣٢٨٠) مادة (غلب).

(٢) «جامع البيان» (١٣/١٠٤)، ونقل عن سعيد بن جبیر أنه قال في تفسيره: فعَّال.

(٣) «المنهاج» (١/١٩٨) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٤١).

وقيل: هي راجعة إلى يوسف عليه السلام، معناه: أن الله مُستولٍ على أمر يوسف بالتدبير والحيطة، لا يكله إلى أحد حتى يبلغه مُنتهى علمه فيه^(١).
وقال ابن كثير: «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ» [يوسف: ٢١]؛ أي: فعَّالٌ لما يشاء^(٢).
وقال السعدي: «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ» [يوسف: ٢١]؛ أي: أمره تعالى نافذ لا يبطله مُبطل، ولا يغلبه مغالب^(٣).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن الله تبارك وتعالى هو الغالب القاهر أبدأً، لا يملك أحد أن يردَّ ما قضى، أو يمنع ما أمضى، فلا راد لقضائه ولا مُعقِّب لحكمه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال القرطبي: «فيجب على كلِّ مكلف أن يعلم أنَّ الله تعالى هو الغالب على الإطلاق، فمن تمسَّك به فهو الغالب ولو أنَّ جميع من في الأرض طالب، قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١].

ومن أعرض عن الله تعالى وتمسَّك بغيره كان مغلوباً، وفي حبائل الشيطان مغلوباً: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]^(٤).



(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٧٣).

(٤) «الكتاب الأسنى» (ق ٣٠٤ب).

(١) «معالم التنزيل» (٣/٢٧٣).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٨/٤).

الكافي

جَلَّ جلاله وتقدَّست أَسْمَاؤه

(٩٩)

* المعنى اللغوي:

كَفَى يَكْفِي كَفَايَةً: إذا قام بالأمر.

ويقال: اسْتَكْفَيْتُهُ أمراً فكفانيه.

ويقال: كفاكَ هذا الأمر؛ أي: حَسْبُكَ، وهذا رجل كافٍك من رجل؛ أي:

حسبك.

والكُفَاة: الخدم الذين يقومون بالخدمة، جمعُ كافٍ.

والكُفْيَةُ - بالضم -: القوت، والجمع الكُفَى.

وكافَيْتُهُ من المكافاة، ورجوت مكافأتكَ؛ أي: كفايتكَ^(١).

وقال الزجاجي: «(الكافي) اسم الفاعل من كَفَى يَكْفِي فهو كافٍ»^(٢).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد مرة واحدة في قوله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

وورد بصيغة الفعل: في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوِيًّا

عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وفي قوله: ﴿سَيَكْفِيكَمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وفي قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]: «اختلفت

القرآن في قراءة ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾، فقرأ ذلك بعض قرّاء المدينة وعامة قرّاء

(١) «الصحيح» (٢٤٧٥/٦)، «اللسان» (٣٩٠٧/٥، ٣٩٠٨) مادة (كفى).

(٢) «اشتقاق أسماء الله» (ص ٨٢).

الكوفة ﴿أليس الله بكاف عباده﴾ [الزمر: ٣٦] على الجمع، بمعنى: أليس الله بكاف محمداً وأنبياءه من قبله ما خوفتهم أمهم من أن تنالهم آلهتهم بسوء.

وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والبصرة وبعض قراء الكوفة ﴿يَكْفِي عَبْدَهُ﴾ على التوحيد، بمعنى: أليس الله بكاف عبده محمداً.

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان في قراءة الأمصار فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب لصحة معنيهما واستفاضة القراءة بهما في قراءة الأمصار^(١).

وقال الزجاجي: «... فالله ﷻ كافي عباده؛ لأنه رازقهم وحافظهم ومُصلح شؤونهم فقد كفاهم، كما قال الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

وكفاية الإنسان من المعاش قدر بُلغته وقوام أمره، وتقول: كفيت الرجل الأمر أكفيه كفاً وكفاية: إذا قمت به دونه، وأزلت عنه الاهتمام به^(٢).

وقال الخطابي: «وأما (الكافي): فهو الذي يكفي عباده المُهمَّ، ويدفع عنهم المُلِمَّ^(٣)، وهو الذي يُكفَى بمُعُونته عن غيره، ويُستغنى به عن سواه^(٤)».

وقال الخليلي: «ومنها (الكافي) لأنه إذا لم يكن له في الألوهية شريك، صحَّ أن الكفايات كلها واقعة به وحده، فلا ينبغي أن تكون العبادة إلا له، ولا الرغبة إلا إليه، ولا الرجاء إلا منه.

وقد ورد الكتاب بهذا أيضاً، قال الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وجاء ذلك أيضاً عن رسول الله ﷺ^(٥).

وقال السعدي: «(الكافي) عباده جميع ما يحتاجون ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به وتوكل عليه واستمد منه حوائج دينه ودنياه^(٦)».

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن (الكافي) عباده رزقاً ومعاشاً وقوتاً، وحفظاً وكلاءةً، ونصراً وعزاً هو الله تبارك شأنه، فهو الذي يُكفَى بمُعُونته عن سواه.

(١) «جامع البيان» (٥/٢٤).

(٢) «إلى هنا قاله الأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (ق٢٧أ).

(٣) «شأن الدعاء» (ص١٠١).

(٤) «المنهاج» (١٩٠/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات وحدانيته عزَّ اسمه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص١٥).

(٥) «تيسير الكريم» (٣٠٤/٥، ٣٠٥).

وإذا كان ذلك كذلك وجب ألا يكون الرجاء إلا منه والرغبة إلا إليه^(١).
ونحن إذ نقف عند هذا الاسم لا نعني الإحاطة بكل الأسماء الحسنی الواردة في
القرآن الكريم وإنما نرجو بذلك الدخول في موعود الرسول ﷺ، إذ يقول: «الله تسعة
وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة».
ولمن وقف على كتابنا.
آمين . . . آمين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



(١) وانظر مزيد بيان في: آثار الإيمان باسمه (الحسيب).

النَّهْجُ الْأَسْمَى
في شَرْح
أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى

تَأْلِيف
مَحَمَّدُ الْحَمُودُ النَّجْدِي

الجزء الثالث
القسم الثاني

طبعة جديدة منقّحة ومزينة

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقدمة الجزء الثالث

القسم الثاني

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فهذا القسم الثاني من كتابنا «النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى» وهو الأسماء الحسنى الثابتة لله جل شأنه في حديث رسوله الأمين ﷺ، شاء الله تعالى أن يتأخر عن القسم الأول هذه المدة، والله الأمر من قبل ومن بعد، فنحمده ﷻ حمداً كثيراً طيباً كما يحب ويرضى على ما وفق ويسر لكتابة هذا الجزء، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

والسنة هي المصدر الثاني الذي يجب الرجوع إليه، والتعويل عليه بعد كتاب الله ﷻ في هذا الباب وغيره من أبواب العقيدة والشرعة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

والحكمة: السنة.

وقال ﷺ: «ألا إني أوتيْتُ الكتاب ومثله معه...»^(١).

قال الإمام أحمد رحمه الله: «لا يُوصف الله إلا بما وَصَفَ به نفسه، أو وَصَفَ به

(١) حديث صحيح: رواه أحمد (١٣١/٤)، وأبو داود في «السنة» (٤٦٠٤) عن حريز بن عثمان عن عبد الرحمن بن أبي عوف عن المقدم بن معديكرب مرفوعاً به.

وإسناده صحيح.

وله طرق أخرى عند الترمذي (٢٦٦٤ - شاكراً)، وابن ماجه في المقدمة (١٢).

وشاهد عند الترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٣) من حديث أبي رافع.

رسول الله ﷺ، لا يُتجاوز القرآن والحديث»^(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وَصَفَ به نفسه في كتابه العزيز، وبما وَصَفَ به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل»^(٢).

ثم قال بعد أن ذكر جملة طيبة من آيات الأسماء والصفات:
«ثم في سنة رسول الله ﷺ، فالتسنة تُفسر القرآن وتُبينه، وتدُلُّ عليه، وتُعبِّر عنه، وما وَصَفَ الرسول ﷺ به ربه ﷻ من الأحاديث الصَّحاح، والتي تلقَّاهَا أهلُ المعرفة بالقبول، وَجَبَ الإيمان بها كذلك»^(٣).

فمن تمام بحثنا ذكر ما ورد في السنة من الأسماء الحسنَى.
ومن نهجنا فيه أننا لا نثبت فيه اسماً من الأسماء الحسنَى إلا بحديث صحيح أو حسن؛ لأن أسماءه تعالى توقيفيةٌ كما قررنا قواعد السلف في الأسماء في أول الكتاب، والأحاديث الضعيفة لا تصلح لذلك الإثبات، وقد وردت بعض الأسماء في أحاديث صحيحة، لكنني ترددت في إدخالها في أسماء الله تعالى، خشية أن تكون قد أُريد بها الإخبار لا التسمية، وباب الإخبار أوسع من باب الأسماء، كما مرَّ معنا في أول الكتاب في كلام ابن القيم رحمه الله تعالى وغيره.

مثل: «الطَّيِّب»، و«المُسَعَّر»، وغيرهما.

وقد رجعت إلى مصادر جديدة في شرح الأسماء، وهي مصادر حديثية كـ«غريب الحديث» لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، و«غريب الحديث» لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة خطيب البصرة، و«غريب الحديث» لأبي إسحاق الحربي، و«النهاية في غريب الحديث والأثر» لأبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير وغيرها، بالإضافة إلى المصادر التي اعتمدناها سابقاً في القسم الأول.

ونسأل الله تعالى أن ينفع به، وأن يجعل له القبول، وأن يكون خالصاً لوجهه ﷻ.
ولا يفوتني أن أشكر صاحب مكتبة الذهبي الأخ الفاضل/ بدر الفيلكاوي على حرصه على هذا الكتاب، وخروجه بهذه الحلة البهية بقسميه الأول والثاني، فجزاه الله خيراً.

(١) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٦/٥).

(٢) «الواسطية» (ص ٦٥) ط. دار الهجرة. (٣) المصدر السابق (ص ١٦١).

اللهم تقبل منّا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التّواب الرحيم.
وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه محمد الحمود النّجدي
في الكويت صبيحة الجمعة لسبع عشرة
خلت من ربيع الأول سنة ١٤١٧هـ

الرَّفِيقُ

جَلَّ جلاله وتقدست أَسْماؤه

(١)

* المعنى اللغوي:

الرَّفْقُ ضد العنف.

رفق بالأمر وله وعليه، يَرْفُقُ رِفْقًا: لَطَفَ، وكذلك: تَرَفَّقَ به.

قال الليث: الرَّفْقُ: لين الجانب ولطافة الفعل.

والرفيق: المُرَافِقُ، والجمع: الرُّفقاء.

وقال ابن الأعرابي: رَفَقَ: انتظر.

والرفيق ضد الأخرق.

والرَّفْقُ والمِرْفَقُ والمَرْفَقُ والمَرْفَقُ: ما استُعِين به، وقد تَرَفَّقَ به وارتَفَقَ، وفي

التنزيل: ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦] ^(١).

* وروده في الحديث الشريف:

ورد في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة! إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ

الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ» ^(٢).

وعنها رضي الله عنها قالت: لَمَّا مَرَضَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَرَضَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ جَعَلَ يَقُولُ: «فِي

الرَفِيقِ الْأَعْلَى»، وفي رواية: أَنَّهُ رَفَعَ يَدَهُ أَوْ إصْبَعَهُ ثُمَّ قَالَ: «فِي الرَفِيقِ الْأَعْلَى»

ثَلَاثًا ثُمَّ قَضَى... ^(٣).

(١) «اللسان» (٣/ ١٦٩٤ - ١٦٩٦)، «الصحيح» (٤/ ١٤٨٢).

(٢) رواه مسلم في «البر» (٤/ ٢٠٠٣، ٢٠٠٤) من طريق عمرة بنت عبد الرحمن عنها.

وله طرق أخرى من حديث علي بن أبي طالب وأنس وأبي هريرة وعبد الله بن مغفل رضي الله عنهم، انظرها في: «إبطال التأويلات» (٢/ ٤٦٧، ٤٦٨) للقاضي أبي يعلى بتحقيقنا.

(٣) رواه البخاري في «المغازي» (٨/ ١٣٦، ١٣٨)، ومسلم (٤/ ١٧٢٢) بلفظ: «مع الرفيق الأعلى».

قال الحافظ ابن حجر: وزعم بعض المغاربة أنه يحتمل أن يراد بالرفيق الأعلى الله ﷻ؛ لأنه =

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال القرطبي بعد أن بيّن المعنى اللغوي للاسم : «ولله تعالى من ذلك ما يليق بجلاله سبحانه .

فهو الرفيق : أي الكثير الرفق، وهو اللين والتسهيل، وضده العنف والتشديد والتّصعيب .

وقد يجيء الرفق بمعنى : الإرفاق، وهو إعطاء ما يرتفق به، وهو قول أبي زيد . وكلاهما صحيح في حق الله تعالى .

إذ هو الميسر والمُسَهِّل لأسباب الخير كلها، والمعطي لها وأعظمها : تيسير القرآن للحفظ، ولولا ما قال : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧] ما قَدَّرَ على حفظه أحد، فلا تيسير إلا بتيسيره، ولا منفعة إلا بإعطائه وتقديره .

وقد يجيء الرفق أيضاً بمعنى : التّمهّل في الأمور والتّأني فيها، يقال منه : رقت الدابة أرفقها رفقاً، إذا شددت عضدّها بحبل لتبطئ في مشيها .

وعلى هذا يكون (الرفيق) في حق الله تعالى بمعنى «الحليم»، فإنه لا يعجل بعقوبة العُصاة ليتوب مَنْ سَبَقَتْ له العناية، ويزداد إثماً من سبقَتْ له الشقاوة .

وقال الخطابي : «قوله : (إن الله رفيق) معناه : ليس بعجول، وإنما يعجل من يخاف الفوت، فأما من كانت الأشياء في قبضته وملكه فليس يعجل فيها»^(١) .

وقال النووي : «وأما قوله ﷺ : «إن الله رفيق»، ففيه تصريح بتسميته ﷻ ووصفه برفيق . قال المازري : لا يُوصف الله ﷻ إلا بما سمى به نفسه أو سمّاه به

= من أسمائه ... ثم ذكر حديث مسلم السابق ... قال : والرفيق يحتمل أن يكون صفة ذات كالحكيم، أو صفة فعل، قال : ويحتمل أن يراد به حضرة القدس، ويحتمل أن يراد به الجماعة المذكورون في آية النساء، ومعنى كونهم رفيقاً : تعاونهم على طاعة الله، وارتفاق بعضهم ببعض، وهذا الثالث هو المعتمد، وعليه اقتصر أكثر الشراح، وقد غلّط الأزهري القول الأول، ولا وجه لتغليظه من الجهة التي غلطه بها وهو قوله : «مع الرفيق» أو «في الرفيق»، لأن تأويله على ما يليق بالله سائغ . اهـ .

وفي «اللسان» (١٦٩٦/٣) : وقال شَمِرٌ في حديث عائشة : فوجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجره ... قال أبو عدنان : قوله في الدعاء : «اللهم ألحقني بالرفيق الأعلى» سمعت أبا الفهد الباهلي يقول : إنه تبارك وتعالى رَفِيقٌ وَفِيقٌ، فكأن معناه : ألحقني بالرفيق : أي : بالله، يقال : الله رفيق بعباده من الرفق والرّأفة، فهو فعيل بمعنى فاعل .

ثم ذكر قول أبو منصور الأزهري الذي أشار إليه الحافظ آتفاً .

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٤٢٩، أ - ب) .

رسول الله ﷺ أو أجمعت الأمة عليه، وأما ما لم يرد إذن في إطلاقه، ولا ورد منع في وصف الله تعالى به، ففيه خلاف: منهم من قال: يبقى على ما كان قبل ورود الشرع، فلا يوصف بحل ولا حرمة، ومنهم من منعه.

قال: وللأصوليين المتأخرين خلاف في تسمية الله تعالى بما ثبت عن النبي ﷺ بخبر الآحاد، فقال بعض حذاق الأشعرية: يجوز؛ لأن خبر الواحد عنده يقتضي العمل، وهذا عنده من باب العمليات لكنه يمنع إثبات أسمائه تعالى بالأقيسة الشرعية، وإن كانت يعمل بها في المسائل الفقهية، وقال بعض متأخريهم: يمنع ذلك! فمن أجاز ذلك فهم من مسالك الصحابة قبولهم ذلك في مثل هذا، ومن منع لم يسلم ذلك، ولم يثبت عنده إجماع فيه فبقي على المنع.

قال المازري: بإطلاق رفيق إن لم يثبت بغير هذا الحديث الآحاد، جرى في جواز استعماله الخلاف الذي ذكرنا، قال: ويحتمل أن يكون صفة فعل، وهي: ما يخلقه الله تعالى من الرفق لعباده، هذا آخر كلام المازري.

قال النووي: والصحيح جواز تسمية الله تعالى رفيقاً وغيره مما ثبت بخبر الواحد، وقد قدمنا هذا واضحاً في كتاب الإيمان في حديث: «إن الله جميل يحب الجمال» في «باب تحريم الكبر» وذكرنا أنه اختيار إمام الحرمين^(١). وقال ابن القيم في «النونية»^(٢):

وهو الرفيقُ يُحبُّ أهل الرفقِ يُعطيهم بالرفقِ فوقَ أمانٍ

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن الله تعالى موصوف بالرفق، وهو من صفاته، إما صفة ذات أو صفة فعل، وقد نقل إجماع الأمة على ذلك الإمام أبو يعلى الفراء، وقال: لأنهم يقولون: يا رفيق ارفق بنا في أحكامك^(٣).

٢ - ورفقه ﷺ بعباده يظهر في رأفته ورحمته بهم شرعاً وقدرراً، وهو ما لا يحصى ولا يعد^(٤).

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/١٤٥، ١٤٦). وما قاله النووي هو الحق الذي لا مرية في، فإن التفريق في الاحتجاج بالتواتر دون الآحاد في العقيدة، بدعة اعتزالية لم يعرفها سلف الأمة رضوان الله عليهم.

(٢) «النونية» بشرح أحمد بن عيسى (٢/٢٢٩).

(٣) «إبطال التأويلات لأخبار الصفات» (٢/٤٦٧).

(٤) انظر مظاهر رحمته تعالى في: «الرحمن - الرحيم».

٣ - ومن رفقه سبحانه بعباده إمهاله للعصاة منهم ليتوبوا إليه، ولو شاء لعاجلهم بالعقوبة، لكنه رَفَقَ بهم وتَأَنَّى، ليحصل لهم ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، فله الحمد حمداً كثيراً طيباً كما يحب ويرضى^(١).

٤ - وهو ﷺ رفيق يحب الرفق وأهله، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف، قيل: من الثواب، وقيل: يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده^(٢).

وقد حث الرسول ﷺ على استعماله حتى مع الأعداء أحياناً، وقد بَوَّب الإمام البخاري في «صحيحه»: «باب الرفق في الأمر كله»، وأورد فيه حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل زهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السَّامُ عليكم، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السَّامُ واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، إِنَّ الله يحبُّ الرفقَ في الأمرِ كله»، فقلت: يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «قد قلت: وعليكم»^(٣).

وعنها أيضاً رضي الله عنها: عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الرفقَ لا يكون في شيء إلا زَانَهُ، ولا يُنْزَعُ من شيءٍ إلا شَانَهُ»^(٤).

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُحْرِمَ الرفقَ يُحْرِمَ الخير»^(٥).

قال القرطبي: «فينبغي لكل مسلم أن يكون رفيقاً في أموره، وجميع أحواله، غير عَجَلٍ فيها، فَإِنَّ العَجَلَةَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَا تُفَارِقُهُ الخَيْبَةُ والخُسْرَانُ، وقال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله: الحِلْمُ والأناة»^(٦).



(١) انظر الكلام على اسمه: «الحليم».

(٢) انظر: «الفتح» (١٠/٤٤٩).

(٣) المصدر السابق، وانظر ما فيه من الفوائد الأخرى في: «الاستئذان» (١١/٤٣).

(٤) رواه مسلم في «البر» (٤/٢٠٠٤).

(٥) المصدر السابق (٤/٢٠٠٣).

(٦) رواه مسلم في الإيمان (١/٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

السُّبُوح

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٢)

* المعنى اللغوي:

التسبيح: التنزيه.

قال الأزهري: «سبحان الله معناه: تنزيهاً لله من الصاحبة والولد.

وقيل: تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي أن يُوصف به.

ونُصِبُهُ أنه في موضع فعلٍ على معنى: تسبيحاً له، تقول: سَبَّحت الله تسبيحاً له؛ أي: نَزَّهته تنزيهاً»^(١).

قال ثعلب: «كلُّ اسم على «فَعُول» فهو مفتوح الأول، إلا السُّبُوح والقدوس فإن الضَّمَّ فيهما أكثر.

وقال سيبويه: ليس في الكلام فُعُول بواحدة»^(٢).

وقال الأزهري: «وسائر الأسماء تجيء على فَعُول، مثل: سَفُودٌ وَقَفُورٌ وَقَبُورٌ وما أشبهها.

قال: والفتح فيهما (أي السُّبُوح والقدوس) أقيس، والضم أكثر استعمالاً وهما من أبنية المبالغة والمراد بهما التنزيه»^(٣).

* وروده في الحديث الشريف:

ورد في حديث عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «سُبُوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»^(٤).

(١) «لسان العرب» (٣/١٩١٤)، و«الصحاح» (١/٣٧٢).

(٢) «الصحاح» (١/٣٧٢).

(٣) «اللسان» (٣/١٩١٥)، وانظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/٣٣٢).

(٤) رواه مسلم في «الصلاة» (١/٣٥٣)، وأبو داود (٨٧٢)، والنسائي (٢/٢٢٤).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال أبو إسحاق الزجاج : «السُّبُوح: الذي ينزه عن كل سوء»^(١).

وقال ابن سيده : «سُبُوحٌ قدوس من صفة الله ﷻ ؛ لأنه يُسَبَّح ويُقَدَّس»^(٢).

وقال الحليمي : «(السُّبُوح) : ومعناه : المنزه عن المعائب ، والصفات التي تعتور المحدثين من ناحية الحدث ، والتسبيح : التنزيه»^(٣).

وقال النووي : «وقال ابن فارس والزبيدي وغيرهما : سُبُوحٌ هو الله ﷻ ، فالمراد بالسُّبُوح القدُّوس : المُسَبَّح المقدس ، فكأنه قال : مسبَّحٌ مقدس ربُّ الملائكة والروح ، ومعنى سُبُوح : المبرأ من النقائص والشريك ، وكل ما لا يليق بالإلهية ، وقدوس : المطهر من كل ما لا يليق بالخالق»^(٤).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ - الله تبارك وتعالى منزّه عن كلّ عيب ونقص وسوء ، فله الكمال المطلق ﷻ^(٥).

٢ - الله جل شأنه يسبحه من في السموات ومن في الأرض ، بمختلف اللغات ، وأنواع الأصوات ، قال سبحانه : ﴿يُسَبِّحُ لَهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء : ٤٤].

قال أبو إسحاق الزجاج : «قيل : إن كلّ ما خلق الله يُسَبِّح بحمده ، وإن صرير السقف وصرير الباب من التسبيح ، فيكون على هذا الخطاب للمشركين وحدهم ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ، وجائز أن يكون تسبيح هذه الأشياء بما الله به أعلم لا نفقه منه إلا ما علمناه».

قال : «وقال قوم : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ؛ أي : ما من دابةٍ إلا وفيه دليل أن الله ﷻ خالقه ، وأن خالقه حكيم مبرأ من الأسواء ، ولكنكم أيها الكفار لا تفقهون أثر الصنعة في هذه المخلوقات!».

قال أبو إسحاق : «وليس هذا بشيء ؛ لأن الذين حُوطبوا بهذا كانوا مُقرِّين أن الله

(١) «اللسان» (٣/١٩١٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «المنهاج في شعب الإيمان» (١/١٩٧) وذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى ، ونقله البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٣٧).

(٤) مسلم شرح النووي (٤/٢٠٤ ، ٢٠٥).

(٥) انظر مبحث التنزيه عند أهل السنة في : الكلام على القدوس.

خالقهم وخالق السماء والأرض ومن فيهن، فكيف يجهلون الخلقه وهم عارفون بها؟^(١).

قال الأزهري: ومما يدل على أن تسبيح هذه المخلوقات تسبيح تَعَبَّدَتْ به قول الله ﷻ للجبال: ﴿يَجَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبا: ١٠]، ومعنى: ﴿أَوِي﴾: سبحي مع داود النهار كله إلى الليل، ولا يجوز أن يكون معنى أمر الله ﷻ للجبال بالتأويب إلا تعبداً لها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّجَرُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فسجود هذه المخلوقات عبادة منها لخالقها لا نفقهها عنها كما لا نفقه تسبيحها.

وكذلك قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحَجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقد علم الله هبوطها من خشيتها ولم يُعرفنا ذلك فنحن نؤمن بما أُعْلِمْنَا، ولا ندعي بما لا نُكَلِّفُ بأفهامنا من علم فعلها كيفية نَحْدُهَا^(٢).

وهو كلام نفيس جار على مذهب السلف من إجراء النصوص على ظاهرها والبعد عن التأويل والتكلف المذمومين.

وقد ذهب إلى هذا ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ، فقال في تفسيره: ﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾: «وما من شيء من خلقه إلا يسبح بحمده».

واستدل لصحة ذلك بما رواه جابر عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه، إن نوحاً قال لابنه: يا بني آمرك أن تقول: سبحان الله وبحمده، فإنها صلاة الخلق وتسبيح الحق، وبها ترزق الخلق، قال الله: ﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾»^(٣).

٣ - كان الرسول ﷺ يذكر هذا الاسم في ركوعه وسجوده، داعياً ربه ﷻ به، كما مر معنا في الحديث السابق.

(١) «اللسان» (٣/١٩١٥).

(٢) «تفسير ابن جرير» (١٥/٦٥)، وفيه موسى بن عبيدة وهو الربذي وفيه ضعف.

وهو حديث صحيح، فقد رواه أحمد (٢/١٦٩، ١٧٠، ٢٢٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٨)، والحاكم (١/٤٨، ٤٩) وصححه وافقه الذهبي، والبيهقي في «الأسماء» (ص ١٠٣) من حديث ابن عمرو، وإسناده صحيح.

ورواه البزار (٣٠٦٩) من حديث ابن عمر، وفيه عن عنة ابن إسحاق.

الشَّافِي

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٣)

* المعنى اللغوي :

الشِّفاءُ : البرُّءُ من المرض .
 يقال : شفاهُ الله يَشْفِيهِ شِفَاءً .
 والشِّفاءُ أيضاً : ما يُبرِّئُ من المرض .
 يقال : أَشْفَاهُ الله عَسَلًا ! إذا جعله له شفاءً ، حكاه أبو عبيدة .
 واستُشْفِيَ : طلب الشِّفاءُ ، ونال الشفاء أيضاً^(١) .

* وروده في الحديث الشريف :

ورد في حديث عائشة رضي الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ كان إذا أتى مريضاً أو أُتِيَ به إليه قال عليه الصلاة والسلام : «أذهب الباس ، ربَّ الناس ، اشْفِ وأنتَ الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يُغادرُ سَقَمًا»^(٢) .
 وقد ورد في القرآن فعلاً ، في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٠) [الشعراء : ٨٠] .

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال الحليمي : «قد يجوز أن يقال في الدعاء : يا شافي يا كافي ؛ لأن الله ﷻ يشفي الصدور عن الشُّبه والشُّكوك ، ومن الحسد والغلول ، والأبدان من الأمراض والآفات ، لا يقدر على ذلك غيره ، ولا يُدعى بهذا الاسم سواه .

(١) «اللسان» (٢٢٩٤/٤ - ٢٢٩٥) .

(٢) رواه البخاري في «المرضى» (١٣١/١٠ ، ٢٠٦ ، ٢١٠) ، ومسلم في «السلام» (١٧٢٢/٤) .
 قوله : «لا يغادر سَقَمًا» : أي لا يترك ، وفائدة التقييد بذلك أنه قد يحصل الشفاء من ذلك المرض فيخلفه مرضٌ آخر يتولد منه ، فكان يدعو له بالشفاء المطلق ، لا بمطلق الشفاء .
 «الفتح» (١٣١/١٠) .

ومعنى الشفاء: رفع ما يؤذي أو يؤلم من البدن^(١).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - الله تبارك اسمه هو «الشافي» الحقيقي لكل آفة وعاهة ومرض بدني أو نفسي، فقله ﷺ في الحديث: «اشف أنت الشافي» دليل على أن الشافي على الإطلاق هو الله وحده جل شأنه.

قال القرطبي: «فيجب على كل مكلف أن يعتقد ألا شافي على الإطلاق إلا الله وحده، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «لا شافي إلا أنت» فيعتقد الشفاء له وبه ومنه، وأن الأدوية المستعملة لا تُوجب شفاءً، وإنما هي أسباب وأوساط يخلق الله عندها فعله^(٢)، وهي الصحة التي لا يخلقها أحدٌ سواه فكيف ينسبها...^(٣) إلى جمادٍ من الأدوية أو سواها، ولو شاء ربك لخلق الشفاء دون سبب، ولكن لما كانت

(١) «الأسماء» للبيهقي (ص ٩٠).

(٢) هذا بناء على مذهب الأشاعرة، فإنهم أنكروا أن يكون شيء يؤثر في شيء، وأنكروا «باء السببية»! وقالوا: إن الأسباب علاقات لا موجبات، فيقولون: إذا كسر الإنسان زجاجة فإنها ما انكسرت بكسره وإنما انكسرت عند كسره!.

قال الشيخ محمد العثيمين رحمه الله تعالى: انقسم الناس في الأسباب إلى طرفين ووسط، فطرف من الناس غلا في إثبات الأسباب حتى جعلها مؤثرة بنفسها وأنكر ما يخرج عن سنة الأسباب، ومن الناس مَنْ قَرَطَ فيها ولم يجعل لها أثراً في مسبباتها، وقال: إن المُسَبَّب يحدث عند السبب لا بالسبب، وكلا القولين خطأ، فإنَّ من المعلوم - بالحس والعقل - أن الحجر إذا رُمِيَ على زجاجة انكسرت به، وأن الورق إذا أُلْقِيَ في النار احترق بها، ولا أحد ينكر ذلك، ومن قال: إنه احترق عند إلقاءه في النار لا بالنار، أو أن الزجاجة انكسرت عند ملامسة الحجر لا بالحجر! فقد أبعد النجعة، ولكن نقول: إن الزجاجة انكسرت بالحجر؛ لأن الله تعالى جعل هذه الصدمة سبباً للكسر، والورقة احترقت بالنار، لأن الله جعل النار محرقة، ولهذا إذا أراد الله ﷻ أن يتخلَّف المُسَبَّب عن السبب تخلف، فها هو إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أُقْبِيَ في النار العظيمة التي أضرمها قومه المكذوبون له ليعرقوه فقال الله تعالى للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ فكانت برداً وسلاماً عليه ولم يحترق بها، وهذا دليل على أن الله تعالى هو الذي يودع في الأسباب ما يجعلها مؤثرة. وأما من قال: إن الأسباب مؤثرة بذاتها، وأنه لا يمكن أن يتخلَّف المُسَبَّب عن السبب فقله - أيضاً - خطأ، فإن هذا يستلزم إنكار خوارق العادات التي يجريها الله تعالى على غير الأسباب العادية، ولا أحد عنده علم بالسمع أو عقل راجح إلا أنكر هذا القول. انتهى من «أحكام من القرآن الكريم» (ص ١٧٥، ١٧٦).

(٣) كلمة لم أستطع قراءتها لسواد في المصورة.

الدنيا دار أسباب جرت السنة فيها بمقتضى الحكمة، على تعليق الأحكام بالأسباب، وإلى هذا أشار جبريل عليه السلام وإياه أوضح بقوله لرسوله ﷺ: «بسم الله أرقيك، الله يشفيك» فيبين أن الرقية منه، وهي سببٌ لخلق الله وهو الشفاء^(١).

٢ - فمنه تعالى شفاء النفوس من أسقامها، والأبدان من أمراضها، فأنزل القرآن العظيم شفاء لعباده ورحمة، كما قال سبحانه: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره: ونزل عليك يا محمد من القرآن ما هو شفاءٌ يُستشفى به من الجهل من الضلالة، ويُبصرُ به من العمى، للمؤمنين، ورحمة لهم دون الكافرين به؛ لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله، ويحلُّون حلاله ويحرِّمون حرامه فيدخلهم بذلك الجنة، ويُنجيهم من عذابه، فهو لهم رحمة ونعمة من الله، أنعم بها عليهم.

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ يقول: ولا يزيد هذا الذي نزل عليك من القرآن الكافرين به إلا خساراً، يقول: إهلاكاً؛ لأنهم كلما نزل فيه أمرٌ من الله بشيء أو نهى عن شيء كفروا به، فلم يأتَمروا لأمره، ولم ينتهوا عما نهاهم عنه، فزادهم ذلك خساراً إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسار، ورجساً إلى رجسهم قبل^(٢).

وأما الأبدان فإنه تعالى أنزل الداء وأنزل الدواء، علّمه من جهله من جهله، كما قال ﷺ: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً»^(٣).

وقال أيضاً: «لكلِّ داءٍ دواءٌ، فإذا أصيبَ دواءُ الداءِ برأ بإذن الله ﷻ»^(٤).

وقال: «إن الله ﷻ لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً، علّمه من علّمه، وجهله من جهله»^(٥).

قال الحافظ ابن حجر بعد سياقه لطائفة من الأحاديث في الباب: «وفي مجموع هذه الألفاظ ما يُعرف منه المراد بالإنزال في حديث الباب، وهو: إنزال علم ذلك

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٤٢٢ب).

(٢) «تفسير الطبري» (٦٢/٥) تهذيب بشار عواد وعصام فارس.

(٣) رواه البخاري في «الطب» (١٣٤/١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم في «السلام» (١٧٢٩/٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٥) رواه أحمد (٣٧٧/١)، ٤١٣، ٤٤٣، ٤٤٦، ٤٥٣، والحميدي (٩٠)، وابن ماجه (٣٤٣٨)، وابن حبان (٦٠٦٢)، والحاكم (١٩٦/٤)، ١٩٧ من طرق عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن ابن مسعود به. وهو حديث صحيح.

على لسان المَلَك للنبي ﷺ مثلاً، أو عبّر بالإنزال عن التقدير، وفيها التقييد بالحلال فلا يجوز التداوي بالحرام.

وفي حديث جابر منها الإشارة إلى أن الشفاء متوقف على الإصابة بإذن الله، وذلك أن الدواء قد يحصل معه مجاوزة الحد في الكيفية أو الكمية فلا ينجع، بل ربما أحدث داءً آخر.

وفي حديث ابن مسعود الإشارة إلى أن بعض الأدوية لا يعلمها كل أحد، وفيها كلها إثبات الأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله وتقديره، وأنها لا تنجع بذواتها بل بما قدّره الله تعالى فيها، وأن الدواء قد ينقلب داءً إذا قدّر الله ذلك، وإليه الإشارة بقوله في حديث جابر: «بإذن الله» فمدار ذلك كله على تقدير الله وإرادته.

والتداوي لا يُنافي التوكل كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب، وكذلك تجنب المهلكات، والدعاء بطلب العافية ودفع المضار، وغير ذلك»^(١).



(١) «الفتح» (١٣٥/١٠).

الطَّيِّبُ

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٤)

* المعنى اللغوي:

الطَّيِّب خلاف الخبيث.

وتتسع معانيه فيقال: أرضٌ طيبة: للتي تصلح للنبات، وريح طيبة: إذا كانت لينَّةً ليست بشديدةٍ، وطُعْمَةٌ طيبة: إذا كانت حلالاً، وامرأةٌ طيبة: إذا كانت حصاناً عفيفة، وكلمة طيبة: إذا لم يكن فيها مكروه، وبلدة طيبة؛ أي: أمنة كثيرة الخير، ونكهة طيبة: إذا لم يكن فيها نتن، ونفس طيبة: إذا كانت بما فُدر لها راضية.

وقد يرد الطَّيِّب بمعنى: الطَّاهر، ومنه حديث علي رضي الله عنه قال: لما غسَّل النبي ﷺ ذهب يلمس منه ما يلمس من الميت فلم يجده، فقال: «بأبي الطَّيِّب، طِبَّتْ حَيًّا وطِبَّتْ مَيِّتًا»^(١).

* وروده في الحديث الشريف:

ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إنَّ الله طيِّبٌ ولا يقبلُ إلا طيباً، وإنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [٥١]». [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يُطيلُ السفر أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء، يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمُهُ حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام وغُدِّي بالحرام، فأُتِيَ يُستجاب لذلك»^(٢).

(١) حديث صحيح، رواه ابن ماجه (١٤٦٧).

وانظر: «الصحيح» (١٧٣/١)، و«لسان العرب» (٢٧٣١/٤)، و«النهاية في غريب الحديث» (١٤٨/٣).

(٢) رواه مسلم في «الزكاة» (٧٠٣/٢).

* المعنى في حق الله تعالى :

قال القاضي عياض: «(الطيب) في صفة الله تعالى بمعنى: المنزه عن النقائص، وهو بمعنى: القدوس، وأصل الطيب: الزكاة والطهارة والسلامة من الخبث»^(١).
وفي «تحفة الأحوزي»: «ومعنى الحديث: أنه تعالى منزّه عن العيوب، فلا يقبل ولا ينبغي أن يتقرب إليه إلا بما يناسبه في هذا المعنى، وهو خيار أموالكم الحلال»^(٢).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ - أن الله تعالى يوصف بالطيب، والتّنه عن الخبث والنقائص والعيوب.

كما قدمنا في الكلام على القدوس.

٢ - وأنه ﷺ طيب لا يقبل إلا الطيب ولا يصعد إليه من الأقوال، والأعمال، ولا ينبغي أن يتقرب إليه العباد إلا بالطيب من ذلك.

قال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُحِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلٍ تَمَرَةٍ مِنْ كَسْبِ طَيْبٍ - ولا يقبل الله إلا الطيب -، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربّيها لصاحبها كما يربّي أحدكم فَلْوَه، حتى تكون مثل الجبل»^(٣).

فلا يقبل الله تعالى الصدقة بالحرام؛ لأنه تصرف فيما لا يملك، فمن تصدّق من ربا أو سرقة أو غلول فإن الله تعالى لا يقبله، كما قال ﷺ: «لا تُقبل صلاةٌ بغير طهور، ولا صدقةٌ من غُلُول»^(٤).

وكذلك كل الأقوال والأعمال لا يقبل الله ﷻ منها إلا الطيب الصالح، قال ﷺ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

والكلم الطيب قيل: هو لا إله إلا الله، وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وقيل: هو القرآن.

(١) «شرح مسلم» (١٠٠/٧) للنووي، وبنحوه في «إكمال إكمال المعلم» للأبّي (٤٧٧/٣).

(٢) (٣٣٤/٨).

(٣) روه البخاري في «الزكاة» (٢٧٨/٣)، وفي «التوحيد» (٤١٥/١٣)، ومسلم في «الزكاة» (٢/٧٠٢).

(٤) رواه مسلم في «الطهارة» (٢٠٤/١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. والغلول: الخيانة، وأصله: السرقة من مال الغنيمة قبل القسمة.

والمختار أنه كل كلام هو ذكر الله تعالى، أو هو الله سبحانه كالنصيحة والعلم^(١).
وفي حديث الشاهد: «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ...»^(٢).
أي: أن التحيات والصلوات والكلمات الطيبات مستحقة لله تعالى، ولا تصلح غيرها له ﷻ.

٣ - وكذا الطَّيِّبُونَ أهل الإيمان به ﷻ ومن اتبع رضوانه وِعَمَّرَ قلبه بمحبته، فإنهم لا يُحِبُّونَ إِلَّا الطَّيِّبَ مِنَ الْقَوْلِ، ولا يتكلمون إِلَّا بِالْحَسَنِ مِنَ الْكَلَامِ، كما قال الله تعالى في وصفهم: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].
قال مجاهد وابن جبير وأكثر المفسرين: المعنى: الكلمات الخبيثات - من القول - للخبيثين من الرجال، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول، وكذا الكلمات الطَّيِّبَاتُ من القول للطَّيِّبِينَ من الناس، والطَّيِّبُونَ من الناس للطيبات من القول^(٣).
وقيل المعنى: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، وكذا الطَّيِّبَاتُ للطَّيِّبِينَ^(٤).

٤ - وأخبر ﷻ أنه يهدي أهل الجنة للكلمات الطيبة، ويحفظ لسانهم عن الخبيث من القول، فقال سبحانه: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].
فإنهم كما جاء في الحديث الصحيح: «يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ».

وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾: «أي: القرآن، وقيل: لا إله إلا الله، وقيل: الأذكار المشروعة»^(٥).
وهو لا ينافي الأول، فإن الهداية لهذا: سَبَبٌ لدخول الجنة، فإن الجنة لا يدخلها

(١) انظر: «روح المعاني» للآلوسي (١٧٤/٢٢).

(٢) رواه مسلم في «الصلاة» (٣٠١/١ - ٣٠٣) من حديث عبد الله ﷺ.

(٣) «تفسير القرطبي» (٢١١/١٢)، وقال: قال النحاس في كتاب «معاني القرآن»: وهذا من أحسن ما قيل في هذه الآية.

ودلَّ على صحة هذا القول: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: عائشة وصفوان مما يقول الخبيثون والخبيثات.

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢١٣/٣)، و«تفسير الطبري» (٣٠٧/٥) ط. الرسالة.

إلا من هداه الله تعالى للطيب من القول، ولا إله إلا الله: مفتاح الجنة.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «ولما كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله ﷻ^(١) حرّم الجنة على أهله، فلا تدخل الجنة نفسٌ مشرّكة، وإنما يدخلها أهلُ التوحيد، فإن التوحيد هو مفتاح بابها، فمن لم يكن معه مفتاح لم يُفتح له بابها، وكذلك إن أتى بمفتاح لا أسنان له لم يمكن الفتح به، وأسنان هذا المفتاح هي: الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وبر الوالدين، فأَي عبدٍ اتخذ في هذه الدار مفتاحاً صالحاً من التوحيد، ورُكّب فيه أسناناً من الأوامر، جاء يوم القيامة إلى باب الجنة ومعه مفتاحها الذي لا يفتح إلا به، فلم يُعَفّه عن الفتح عائق، اللهم إلا أن تكون له ذنوبٌ وخطايا وأوزار لم يذهب عنه أثرها في هذه الدار بالتوبة والاستغفار، فإنه يحبس عن الجنة حتى يتطهر منها، وإن لم يطهره الموقف وأحواله وشدائده، فلا بدّ من دخول النار ليخرج خبثه فيها، ويتطهّر من درنه ووسخه ثم يخرج منها، فيدخل الجنة، فإنها دار الطيبين لا يدخلها إلا طيب: ﴿الَّذِينَ نُوفِّهُمْ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَقُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

فعقّب دخلوها على الطيب بحرف «الفاء» الذي يؤذن بأنه سبب؛ أي: بسبب طيبكم قيل لكم: ادخلوها.

وأما النار، فإنها دار الخُبث في الأقوال والأعمال، والمآكل والمشارب، ودار الخبيثين، فالله تعالى يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيركمه كما يركم الشيء لتراكب بعضه على بعض، ثم يجعله في جهنم مع أهله، فليس فيها إلا خبيث. ولما كان الناس ثلاث طبقات: طيب لا يشينه خبث، وخبث لا طيب فيه، وآخرون فيهم خُبثٌ وطيبٌ، كانت دورهم ثلاثة: دار الطيب المحض، ودار الخبيث المحض، وهاتان الداران لا تفنيان، ودارٌ لمن معه خُبثٌ وطيب، وهي الدار التي تفنى وهي دار العصاة، فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحدٌ، فإنهم إذا

(١) ذكر أن الظلم ثلاثة دواوين:

أ - ديوان لا يغفر الله منه شيئاً وهو الشرك.

ب - ديوان لا يترك الله تعالى منه شيئاً، وهو ظلم العباد بعضهم بعضاً، فإن الله يستوفيه كله.

ج - ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه ﷻ.

عُذِّبُوا بِقَدَرِ جَزَائِهِمْ أُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ فَأُدْخِلُوا الْجَنَّةَ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا دَارُ الطَّيِّبِ الْمُحَضِّضِ، وَدَارُ الْخُبْثِ الْمُحَضِّضِ^(١).

٥ - وقد وصف الله ﷻ منقلب المؤمنين في الآخرة بالطيب، فحياتهم طيبة، ومساكنهم طيبة، ومطاعمهم ومشاربهم طيبة، وذلك في غير ما آية من كتابه، فقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٧٢﴾ [التوبة: ٧٢].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل: ٩٧].
وقال سبحانه: ﴿وَسَقَّيْنَاهُم مِّنْ رَّحْمَتِنَا سَرَابًا مُّهِينًا ٢١﴾ [الإنسان: ٢١].



(١) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» (ص ٢٣، ٢٤) ط. دار البيان ١٣٩٩ هـ.

الْجَمِيلُ

جَلَّ جَلالُه وتقدَّست أَسماؤُه

(٥)

* المعنى اللغوي:

الجمال: الحُسْنُ.

والجمال: مصدر الجميل، والفعل: جَمَلَ.

وقوله ﷺ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حَيْثُ تُرِيحُونَ وَحَيْثُ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦؛ أي:

بهاءً وحسن.

قال ابن سيده: «الجمال: الحُسْنُ، يكون في الفعل والخَلْق وقد جَمَلَ الرجل

- بالضم - جمالاً فهو جميل وجُمَالٌ وجُمَالٌ»^(١).

* وروده في الحديث الشريف:

روى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»، قال رجل: إِنَّ الرجل يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنًا،

قال: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرٌ الْحَقُّ وَغَمَطٌ النَّاسُ»^(٢).

* المعنى في حق الله تعالى:

قال النووي: «وقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» اختلفوا في معناه، فقيل:

إِنْ معناه: أَنْ كُلَّ أَمْرِهِ ﷺ حَسَنٌ جَمِيلٌ، وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَصِفَاتُ الْجَمَالَ وَالْكَمَالَ.

وقيل: جَمِيلٌ بِمَعْنَى: مُجْمَلٌ، كَكَرِيمٍ وَسَمِيعٍ بِمَعْنَى: مُكْرَمٌ وَمُسْمَعٌ.

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ اللَّهُ: معناه: جَلِيلٌ، وَحَكِي الْإِمَامُ أَبُو سَلِيمَانَ

الخطابي أَنَّهُ بِمَعْنَى: ذِي النُّورِ وَالْبَهْجَةِ؛ أَي: مَالِكُهُمَا.

وقيل: معناه: جَمِيلُ الْأَفْعَالِ بِكُمْ بِاللُّطْفِ وَالنَّظَرِ إِلَيْكُمْ، يُكَلِّفُكُمُ الْيَسِيرَ مِنَ الْعَمَلِ

(١) «الصحاح» (١/١٦٦١)، و«اللسان» (١/٦٨٥).

(٢) أخرجه مسلم في «الإيمان» (١/٩٣).

وَيُعِينُ عَلَيْهِ، وَيُثِيبُ عَلَيْهِ الْجَزِيلَ وَيُشْكِرُ عَلَيْهِ»^(١).

وأول كلام الخطابي: «الجميل: هو الْمُجْمِلُ الْمُحْسِنُ، فعيل بمعنى مُفْعِل»^(٢).

وقال الحليمي: «ومنها: (الجميل): وهذا الاسم في بعض الأخبار عن النبي ﷺ ومعناه: ذو الأسماء الحسنی؛ لأن القبايح إذا لم تَلْقُ به، لم يَجْزْ أَنْ يَشْتَقَّ اسْمُهُ مِنْ أَسْمَائِهَا، وإنما تشتق أسماؤه من صفاته التي كلها مدائح، والأفعال التي أجمعها حكمه»^(٣).

وقال ابن الأثير: «إن الله تعالى جميل»؛ أي: حَسَنُ الأَفْعَالِ، كامل الأوصاف»^(٤).

وقال ابن القيم^(٥):

وهو الجميلُ على الحقيقةِ كيفَ لا
مِنْ بعضِ آثارِ الجميلِ فرُبُّها
فجمالُه بالذاتِ والأوصافِ والـ
لا شيءٌ يُشبهه ذاتُه وصفاته
وجمالٌ سائرُ هذه الأَكْوانِ
أولى وأَجْدَرُ عند ذِي العِرفانِ
أفعالٍ والأسماءِ بالبُرْهانِ
سبحانه عن إِفْكِ ذِي البُهْتانِ

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن الله تعالى هو الجميل على الحقيقة بلا كيف نعلمه، وجماله بالذات والأوصاف والأسماء والأفعال، لا شيء يماثله في ذلك، كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].
وقال سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال القاضي أبو يعلى الفراء رحمه الله تعالى بعد أن ذكر حديث ابن مسعود

(١) «شرح مسلم» (٢/٩٠)، وقال: «واعلم أن هذا الاسم ورد في هذا الحديث الصحيح، ولكنه من أخبار الآحاد، وورد أيضاً في حديث الأسماء الحسنی وفي إسناده مقال. والمختار جواز إطلاقه على الله تعالى، ومن العلماء من منعه». اهـ.
وقد سبق أن ذكرنا قوله في جواز إثبات الاسم لله تعالى مما ثبت بخبر الواحد، انظر: اسمه الرفيق».

(٢) «شأن الدعاء» (ص ١٠٢)، وقد حكاه النووي بقوله: وقيل: جميل بمعنى: مجمل...، واختاره البيهقي في «الاعتقاد» (ص ٦٨).

(٣) «المنهاج» (١/١٩٨)، وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٤١، ٤٢).

(٥) «النونية» (٢/٢١٤).

(٤) «النهاية» (١/٢٩٩).

السابق «إن الله جميل»: «اعلم أنه غير ممتنع وصفه تعالى بالجمال وأن ذلك صفة راجعة إلى الذات؛ لأنَّ الجمال في معنى الحُسن، وقد تقدم في أول الكتاب قوله: «رأيتُ ربِّي في أحسن صورة» وبيَّنَّا أنَّ ذلك صفة راجعة إلى الذات كذلك ها هنا، ولأنه ليس في حمله على ظاهره ما يُحيل صفاته ولا يُخرجها عما تستحقه، لأنَّ طريقه الكمال والمدح، ولأنه لو لم يُوصف بالجمال جاز أن يُوصف بضده وهو القُبْح، ولمَّا لم يَجْزُ أن يُوصف بضده؛ جاز أن يُوصف به، ألا تَرَى أَنَّا وصفناه بالعلم والقدرة والكلام؛ لأن في نفيها إثبات أضدادها وذلك مستحيلٌ عليه، كذلك ها هنا.

فإن قيل: قوله: «جميل» بمعنى: مُجْمِلٌ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ؛ لأنَّ فِعْلٌ قد يجيء على معنى: مُفْعَلٌ، ومنه قولنا: حَكِيمٌ، والمراد: محكم لما فعله.

قيل: هذا غلط؛ لأن الخبر وَرَدَ على سبب، وهو الحثُّ لهم على التَّجْمُلِ في صفاتهم لا على معنى التَّجْمِيلِ في غيرهم فكان مقتضى الخبر: إنَّ الله جميلٌ في ذاته يجب أن تتجملوا في صفاتكم، فإذا حُمِلَ الخبر على فعل التَّجْمِيلِ في الغير، عدل بالخبر عما قُصِدَ به.

فإن قيل: معنى الجمال ههنا: الإحسان والإفضال، فيكون معناه: هو المظهر للنعمة والفضل على مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ برحمته.

قيل: هذا غلط؛ لأنَّه قد ذَكَرَ الجمال والإحسان والإفضال فقال: «جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ، وجوادٌ يُحِبُّ الجود، وكريمٌ يُحِبُّ الكرماء» فإذا حَمَلْنَا الجمال على ذلك حُمِلَ اللفظ على التكرار وعلى ما لا يُقيد.

وجواب آخر: وهو أن نَعَمَ الله ظاهرة، فَحَمِلُ الخبر على هذا يُسْقِطُ فائدة التخصيص بالجمال^(١).

فهو سبحانه الأجل والأحسن في سائر صفات الكمال، وصفاته كلها كمال جلّ وعلا.

قال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]: «وهو الأفضل والأطيب والأحسن والأجل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره^(٢).

٢ - الله تبارك وتعالى هو مُجْمِلٌ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، واهبُ الجمال والحُسن لمن شاء، كما مرَّ معنا قول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ إِذْ يَقُولُ:

(١) «إبطال التأويلات لأخبار الصفات» (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦).

(٢) «التفسير» (١٤/ ٨٤، ٨٥).

وهو الجميلُ على الحقيقة كيف لا
 مِن بعضِ آثارِ الجميلِ فربُّها
 وقد نبّه الله تعالى الناس إلى ذلك في آيات كثيرة، فقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ
 لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠]، وقال سبحانه:
 ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧].
 فالله سبحانه هو الذي زَيَّن الأرضَ وجَمَّلَهَا بأنواع الحقائق والبساتين والأشجار
 والأزهار والخضرة، ذات البهجة والحُسن والجمال، بحيث أن الناظر إليها يبتهج
 وتفرح نفسه بها، وينشرح صدره بسببها.
 ومثله قوله سبحانه عن الأنعام: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾
 [النحل: ٦].

أي في الأنعام جمالٌ وزينة في أعين الناس، لحسن صورتها وتركيبها، وتناسق
 أعضائها وتناسبها^(١).

وهو أيضاً جلّ وعلا يمتنُّ على بني آدم بذلك إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ
 الْكَرِيمِ ﴿٦١﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].
 وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

فقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن صورة وأجمل تقويم، وهم أيضاً متفاوتون
 في هذا الحُسن والجمال، فقد أعطي يوسف عليه الصلاة والسلام شطر الحُسن، كما

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في «مختصر الفتاوى المصرية» (ص ٢١): ... بل النظر إلى
 الأشجار والخيول والبهائم إذا كان على وجه استحسان الدنيا والرياسة والمال فهو مذموم،
 لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَرَقٌ
 رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

وأما إذا كان على وجه لا ينقص الدين، وإنما فيه راحة النفس فقط، كالنظر إلى الأزهار،
 فهذا من الباطل الذي يستعان به على الحق.

وقد ينظر إلى الإنسان لما فيه من الإيمان والتقوى، وهنا الاعتبار بقلبه وعمله لا بصورته.

وقد ينظر إليه لما فيه من الصورة الدالة على المصور، فهذا حسن.

وقد ينظر من جهة استحسان خلقه.

فكل قسم من هذه الأقسام متى كان معه شهوة كان حراماً بلا ريب، سواء كانت شهوة يمتع
 نظره بها، أو كانت نظرة لشهوة الوطء.

وفرق بين ما يجده الإنسان عند نظره إلى الأزهار وبين ما يجده عند نظره إلى النسوان
 والمردان، فلهذا الفرقان فرَّق في الحكم الشرعي... إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى.

قال ﷺ^(١)، ولما رآته النسوة: ﴿أَكْبَرْتُهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

٣ - وقد أعطي نبينا ﷺ من ذلك حظاً وافراً، تناسبُ الأعضاء، وتناسقها، وجمال الوجه واستدارته واستنارته، وحُسْنُ القوام وربُّعته، ولين الكف وطيب رائحته، وغير ذلك مما جاء في وصفه.

فعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: سمعت أنس بن مالك يصف النبي ﷺ قال: «كَانَ رُبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ، أَزْهَرُ اللَّوْنِ، لَيْسَ بِأَبْيَضَ أَمْهَقٍ وَلَا أَدَمَ، لَيْسَ بِجَعْدٍ قَطَطٍ وَلَا سَبِيطٍ رَجُلٍ...»^(٢).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَحْسَنَهُ خُلُقًا، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ وَلَا بِالْقَصِيرِ»^(٣).

وعنه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَرْبُوعًا بَعِيدًا مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ، لَهُ شَعْرٌ يَبْلُغُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ، رَأَيْتُهُ فِي حُلَّةٍ حُمْرَاءَ لَمْ أَرْ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ»^(٤).

وسئل رضي الله عنه: أَكَانَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ السِّيفِ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ مِثْلُ الْقَمَرِ»^(٥).

٤ - وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ أَخْلَاقًا: سَمَاحَةً وَشَجَاعَةً، وَحِلْمًا وَكِرَمًا، وَرَحْمَةً وَشَفَقَةً، وَصَلَةً وَبِرًّا، كَمَا وَصَفَتْهُ خَدِيجَةُ رضي الله عنها بِقَوْلِهَا: «إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِئُ الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»^(٦).

وعن أنس رضي الله عنه قال: «خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي: أَفَّا قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لَشَيْءٍ: لَمْ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا»^(٧).

وَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا»^(٨).

وَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ...»^(٩).

(١) رواه مسلم في «الإيمان» (١/١٤٦) من حديث ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في «المناقب» (٦/٥٦٤).

(٣) المصدر السابق ومسلم في «الفضائل» (٤/١٨١٩).

(٤) المصدر السابق. (٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق في «بدء الوحي» (١/٢٢)، وغيره.

(٧) رواه البخاري في «الأدب» (١٠/٤٥٦)، ومسلم في «الفضائل» (٤/١٨٠٤) واللفظ له.

(٨) رواه بهذا اللفظ مسلم في «الفضائل» (٤/١٨٠٥).

(٩) رواه البخاري في «الجهاد» (٦/٣٥، ٩٥، ١٦٣)، ومسلم في «الفضائل» (٤/١٨٠٢).

وعن ابن عمرو قال: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا مُتفحشاً، وإنه كان يقول: «إِنْ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقاً»^(١).

قال الراغب: «الجمال: الحُسْنُ الكثير، وذلك ضَرْبان: أحدهما: جمالٌ يختصُّ به الإنسان في نفسه أو بدنه أو فعله، والثاني: ما يُوصل منه إلى غيره.

وعلى هذا الوجه ما روي عنه ﷺ أنه قال: «إِنْ اللَّهُ جَمِيلٌ يَحِبُّ الْجَمَالَ»، تنبيهاً أنه منه تفيضُ الخيرات الكثيرة فيُحب من يختصُّ بذلك»^(٢).

فسبحان من جمع لرسوله ﷺ بين كمال الخلق والخلق.

٥ - وقد أمر الله تعالى بملازمة كل خُلُقٍ جميل، وأوصى نبيه ﷺ وأُمته بذلك في آيات عديدة.

فقال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]؛ أي: صبراً لا شكوى فيه لأحدٍ غير الله تعالى^(٣)، وذلك في مقابل استهزاء الكفار، وعدم إيمانهم بما يدعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر.

وقال سبحانه: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]؛ أي: اصبر على ما يقول المشركون وعلى أذاهم واهجرهم في الله هجراً جميلاً؛ أي: لا عتاب معه، وقيل: لا جَزَع فيه، وقيل: الهجر في ذات الله، كما قال ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]^(٤).

ومثلها قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]^(٥).

(١) رواه البخاري في «الأدب» (٤٥٦/١٠)، ومسلم في «الفضائل» (٤/١٨١٠).

والفاحش: ذو الفحش، والمتفحش: الذي يتكلف الفحش ويتعمده لفساد حاله.

(٢) «المفردات» (ص ٩٧).

(٣) قال ابن القيم رحمه الله: ولا تضاده «أي الصبر الجميل» الشكوى لله، فقد قال يعقوب بن إبراهيم: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرَيٍّ إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] مع قوله: ﴿نَصَبَرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا نَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. وأما إخبار المخلوق بالحال، فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته أو التوصل إلى زوال ضرره، لم يقدح ذلك في الصبر، كإخبار المريض للطبيب بشكايته، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه، وقد كان النبي ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول: «كيف تجدك» [رواه الترمذي بسند حسن]، وهذا استخبار منه واستعلام. «عدة الصابرين» (ص ٣٢٣)، وانظر: «بشرى المختبين بفضل الصبر والصابرين» لمقيده (ص ٣٠).

(٤) انظر: «تفسير الطبري» من كتابه (٣٩٥/٧)، و«تفسير ابن كثير» (٤/٤٣٧).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/٥٥٨).

وقال ﷺ: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أَمْتَعْتُمْ وَأَسْرَحْتُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨]، وقال في السورة نفسها: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

أي: طلقوهن طلاقاً خالياً من الأذى، وعارياً عن منع الحقوق الواجبة، وهذا هو السراح الجميل الذي يحبه الله ﷻ ورسوله ﷺ، ويأمر به الله ورسوله ﷺ^(١).

٦ - الله سبحانه يحب التَّجَمُّلَ في غير إسرافٍ ولا مخيلة، ولا بَطَرٍ ولا كِبَرٍ، كما جاء في الحديث السابق: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»، وقد قاله ﷺ جواباً لمن قال له: «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونَعْلُه حسناً»، وبين أن مجرد فعل ذلك ومحَبته لا يُدخل في الكبر المذموم.

و«... الجنة دار المتواضعين الخاشعين لا دار المتكبرين الجبارين، سواء كانوا أغنياء أو فقراء، فإنه قد ثبت في الصحيح أنه «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان»، ف قيل: يا رسول الله! الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونَعْلُه حسناً أفمن الكبر ذاك؟ فقال: «لا، إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، وَلَكِنَّ الْكِبَرَ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ».

فأخبر ﷺ أن الله يُحب التَّجَمُّلَ في اللباس الذي لا يحصل إلا بالغنى، وأن ذلك ليس من الكبر.

وفي الحديث الصحيح: «ثَلَاثَةٌ لَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَزْكِيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: فَفَقِيرٌ مُخْتَالٌ، وَشَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ».

وكذلك الحديث المروي: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه، ثم يذهب بنفسه، ثم يذهب بنفسه، حتى يكتب عند الله جباراً، وما يملك إلا أهله»^(٢).

فعلم بهذين الحديثين: أن من الفقراء مَنْ يكون مختالاً، لا يدخل الجنة، وأن من الأغنياء مَنْ يكون مُتَجَمِّلاً غير متكبر، يحبُّ الله جماله، مع قوله ﷺ في الحديث

(١) انظر في هذا: ابن كثير (٤٨١/٣)، وغيره.

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٠)، والطبراني في «الكبير» (٦٢٥٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٥٨٩) من طريق عمر بن راشد عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه مرفوعاً به، لكن دون تكرير لجملة: «لا يزال الرجل يذهب...» قال الترمذي: حسن غريب.

وفيه عمر بن راشد وهو ضعيف.

الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١).

ومن هذا الباب قول هِرقل لأبي سفيان: أَفَضْعَاءُ النَّاسِ اتَّبَعَهُ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ قال: بل ضعفاؤهم، قال: وهم أتباع الأنبياء، وقد قالوا لنوح: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، فهذا فيه أَنَّ أهل الرئاسة والشرف يكونون أبعد عن الانقياد إلى عبادة الله وطاعته؛ لأن حُبهم للرئاسة يمنعهم ذلك بخلاف المستضعفين، وفي هذا المعنى الحديث المأثور - إن كان محفوظاً - : «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً، واحشرنني في زمرة المساكين»^(٢).

فالمساكين ضد المتكبرين، وهم الخاشعون لله، المتواضعون لعظمته، الذين لا يريدون علواً في الأرض، سواء كانوا أغنياء أو فقراء^(٣).



(١) رواه مسلم في «البر والصلة» (١٩٨٧/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) الراجح فيه أنه حديث صحيح لطرقه، ولبسط الكلام عليه موضع آخر.
(٣) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، «مجموع الفتاوى» (١٢٩/١١)، (١٣٠).

الوتر

جَلَّ جلاله وتقدَّست أَسْمَاؤه

(٦)

* المعنى اللغوي:

الوترُ والوترُ: الفَرْدُ أو ما لم يَتَشَقَّعْ من العدد.
وأوترَه: أَفَدَّه.

قال اللحياني: أَهْلُ الْحِجَازِ يُسَمُّونَ الْفَرْدَ الْوَتْرَ، وَأَهْلُ نَجْدٍ يَكْسِرُونَ الْوَاوَ.
وفي قوله ﷺ: ﴿وَالشَّعْ وَالْوَتْرَ﴾ [الفجر: ٣] قراءتان بالفتح والكسر^(١).
وأوتر الرجل: صَلَّى الْوَتْرَ، وَهِيَ رَكْعَةٌ تَكُونُ بَعْدَ صَلَاتِهِ مَثْنً مَثْنً مِنَ اللَّيْلِ^(٢).

* وروده في الحديث الشريف:

ورد في حديث أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتُسْعُونَ اسْمًا، مَن حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَإِنَّ اللَّهَ وَتَرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ»^(٣).

* المعنى في حق الله تعالى:

قال ابن قتيبة: اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ وَتَرٌ، وَهُوَ أَحَدٌ^(٤).
وقال الخطابي: «(الوتر) هُوَ الْفَرْدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا نَظِيرٌ»^(٥).
وقال الحلبي: «ومنها: الْوَتْرُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ قَدِيمٌ سِوَاهُ، لَا إِلَهَ وَلَا غَيْرَ إِلَهٍ، لَمْ يَنْبَغِي لشيءٍ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ أَنْ يُضْمَ إِلَيْهِ فَيُعَدَّ مَعَهُ، فَيَكُونُ وَالْمَعْدُودُ مَعَهُ شَفْعًا، لَكِنَّهُ وَاحِدٌ فَفَرْدٌ وَتَرٌ»^(٦).

(١) قرأ عاصم ونافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بفتح الواو، وقرأ حمزة والكسائي بالكسر.

(٢) «اللسان» (٦/٤٧٥٧، ٤٧٥٨)، و«الصحاح» (٢/٨٤٢)، و«المفردات» (ص ٥١١).

(٣) متفق عليه، انظر تخريجه في الجزء الأول.

(٤) «غريب الحديث» (١/١٧٢). (٥) «شأن الدعاء» (ص ١٠٤).

(٦) «المنهاج» (١/١٩٠) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات وحدانيته، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ١٥) لكن عبارته: «... أن يضم إليه فيعبد معه، فيكون المعبود معه شفعا...».

وقال البيهقي: «(الوتر) هو الفرد الذي لا شريك له ولا نظير (وهو قول الخطابي) وهذه أيضاً صفةٌ يستحقها بذاته»^(١).

وقال الحافظ ابن حجر: «(الوتر) الفرد، ومعناه في حق الله أنه الواحد الذي لا نظير له في ذاته ولا انقسام!»^(٢).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن الله تعالى واحد لا شريك له ولا نظير، بل هو الإله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وهو سبحانه واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، قال ﷺ: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [الشورى: ١١].

وقال: «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» [مریم: ٦٥]^(٣).

٢ - وهو جل وعلا يحب الوتر ويأمر به في كثير من الأعمال والطاعات، كما في الصلوات الخمس وتر الليل وأعداد الطهارة وتكفين الميت وفي كثير من المخلوقات كالسموات والأرض^(٤).

فقد روى علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن أوتروا، فإن الله وترٌ يحبُّ الوتر»^(٥).

قال القرطبي في معنى قوله ﷺ: «وهو وتر يحب الوتر»: «الظاهر أن الوتر هنا للجنس، إذ لا معهود جرى ذكره حتى يحمل عليه، فيكون معناه: أنه يُحِبُّ كلَّ وترٍ شرعه.

ومعنى محبته له: أنه أمر به وأثاب عليه، ويصلح ذلك لعموم ما خلقه الله وترّاً من مخلوقاته.

أم معنى محبته له: أنه خصصه بذلك لحكمة يعلمها، ويحتمل أن يريد بذلك وترّاً بعينه، وإن لم يجر له ذكر ثم اختلف هؤلاء، فقليل: المراد صلاة الوتر.

وقيل: يوم الجمعة.

وقيل: يوم عرفة.

(٢) «الفتح» (١١/٢٢٧).

(١) «الاعتقاد» (ص ٦٨).

(٣) وانظر: آثار الإيمان ب: «الواحد - الأحد» (ص ٣٧١) من هذا الكتاب.

(٤) «الفتح» (١١/٢٢٧) نقلاً عن القاضي عياض.

(٥) يأتي تخريجه.

وقيل: آدم.

وقيل غير ذلك.

قال: والأشبه ما تقدّم من حمّله على العموم^(١).

قال: ويظهر لي وجه آخر وهو: أن الوتر يُراد به التوحيد، فيكون المعنى: أن الله في ذاته وكماله وأفعاله واحدٌ يحبُّ التوحيد.
أي: أن يُوحّد ويعتقد انفراده بالألوهية دون خلقه، فيلتئم أول الحديث وآخره، والله أعلم^(٢).

قال الحافظ معقباً: «قلت: لعل من حمّله على صلاة الوتر، استند إلى حديث علي: «إنَّ الوترَ ليس بِحَتَمٍ، ولا كصلاتكم المكتوبة، ولكن رسول الله ﷺ أوتر ثم قال: «أوترُوا يا أَهْلَ القرآن، فإن الله وترٌ يحب الوتر».

أخرجه في السنن الأربعة وصححه ابن خزيمة واللفظ له^(٣).

فعلى هذا التأويل تكون اللام في هذا الخبر للعهد، لتقدم ذكر الوتر المأمور به. لكن لا يلزم أن يحمل الحديث الآخر على هذا، بل العموم فيه أظهر، كما أن العموم في حديث علي محتمل أيضاً^(٤).

٣ - وقد وردت عن السلف آثار في ذلك:

فقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾ [الفجر: ٣]: «كل خلق الله شفع: السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر. والله الوتر وحده».

وفي رواية عنه قال: «الخلق كله شفع ووتر، أقسم بالخلق»^(٥).

(١) انظر: ما ورد عن السلف في تفسير «الشفع والوتر»: «تفسير ابن جرير» (١٠٨/٣٠ - ١١٠)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٥٠٢/٨ - ٥٠٤).

(٢) «الفتح» (٢٢٧/١١).

(٣) حديث صحيح: رواه أبو داود (١٤١٦)، والترمذي (٤٥٣)، والنسائي (٢٢٨/٣)، وابن ماجه (١١٦٩)، وابن خزيمة (١٠٦٧) وغيرهم من حديث أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن علي به.

(٤) «الفتح» (٢٢٧/١١).

(٥) «تفسير ابن جرير» (١٠٩/٣٠)، وعبد الرزاق (٣٦٩/٢) عن ابن أبي نجيح عنه.

ويشهد له: ما أخرجه ابن جرير من وجه آخر عن ابن جريج عنه قال: في قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقًا زَوْجَيْنِ﴾ قال: الكفر والإيمان، والسعادة والشقاوة، والهدى والضلالة، والليل والنهار، والسماء والأرض، والجن والإنس، والوتر الله، قال: وقال في الشفع والوتر مثل ذلك.

وعن الحسن قال: الخلق كله شفع، ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾ قال: كان أبي يقول: كل شيء خلق الله شفع ووتر، فأقسم بما خلق، وأقسم بما تبصرون وبما لا تبصرون^(١).

قال ابن جرير: «وقال آخرون: بل ذلك الصلاة المكتوبة، منها الشفع كصلاة الفجر والظهر، ومنها الوتر: كصلاة المغرب
ذُكر من قال ذلك».

وذكر آثاراً منها:

عن قتادة قوله: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾: «إن من الصلاة شفعاً، وإن منها وترًا»^(٢).
ثم قال ابن جرير مرجحاً:

والصواب من القول في ذلك أن يُقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفع والوتر، ولم يُخصص نوعاً من الشفع، ولا من الوتر دون نوع، بخبر ولا عقل، وكل شفع ووتر فهو مما أقسم به مما قال أهل التأويل أنه داخل في قَسَمِهِ هذا، لعموم قسمه بذلك^(٣).



(١) ابن جرير (١٠٩/٣٠) عن ابن ثور عن معمر عنه. ورواية معمر عن الحسن منقطعة، قال أحمد: لم يسمع من الحسن ولم يره بينهما رجل. «جامع التحصيل» (ص ٣٥٠).
وأخرجه عبد الرزاق (٣٧٠/٢) دون قوله: كان أبي يقول...
(٢) المصدر السابق، وسنده حسن.
(٣) المصدر السابق (١١٠/٣٠).

المُقَدِّم - المَوْخَر

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٧ - ٨)

لارتباط الاسمين ببعضهما، جعلنا الكلام عليهما في مكان واحد.

* المعنى اللغوي:

قَدَّمَ بِالْفَتْحِ يَفْذِمُ قَدَمًا؛ أَي: تَقَدَّمَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْفَيْصَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

وقَدَّمَ الشَّيْءَ - بِالضَّمِّ - قَدَمًا فَهُوَ قَدِيمٌ، وَتَقَادَمَ مِثْلُهُ، وَالْقَدَمُ خِلَافُ الْحَدُوثِ. وَأَقْدَمَ عَلَى الْأَمْرِ إِقْدَامًا، وَالْإِقْدَامُ: الشَّجَاعَةُ. وَأَقْدَمَهُ وَقَدَّمَهُ بِمَعْنَى.

وَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ أَي: تَقَدَّمَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]. وَالْقَدَمُ: قَدَمُ الرَّجُلِ، وَجَمْعُهُ: أَقْدَامٌ، وَبِهِ اعْتُبِرَ التَّقَدُّمُ وَالتَّأَخُّرُ. وَالْقَدَمُ أَيْضًا: السَّابِقَةُ فِي الْأَمْرِ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] ^(١).

* أما المَوْخَرُ:

أَخَّرْتُهُ فَتَأَخَّرَ وَاسْتَأَخَّرَ مِثْلَ تَأَخَّرَ.

وَالْآخِرُ: بَعْدُ الْأَوَّلِ، تَقُولُ: جَاءَ آخِرًا؛ أَي: أَخِيرًا.

وَالتَّأَخَّرُ ضِدُّ التَّقَدُّمِ، وَالتَّأَخِيرُ ضِدُّ التَّقْدِيمِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وَقَدْ تَأَخَّرَ عَنْهُ تَأَخَّرًا وَتَأَخَّرَةً.

وَأَخَّرْتُهُ فَتَأَخَّرَ وَاسْتَأَخَّرَ.

وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَفْذِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ﴾ [الحجر: ٢٤].

وَأَخِرَةُ الْعَيْنِ وَمُؤَخِّرُهَا وَمُؤَخَّرَتُهَا: مَا وَلِيَ اللَّحَاطُ (أَيَ الَّذِي يَلِي الصُّدْغَ)، وَمُقَدِّمُهَا: الَّذِي يَلِي الْأَنْفَ.

(١) «الصحاح» (٢٠٠٦/٥، ٢٠٠٧)، و«اللسان» (٣٥٥٢/٥)، و«المفردات» (ص ٣٩٧).

وَمُؤَخَّرَةُ الرَّحْلِ وَمُؤَخَّرَتُهُ وَآخِرَتُهُ وَآخِرُهُ، كُلُّهُ خِلَافُ قَادِمَتِهِ، وَهِيَ الَّتِي يَسْتَنْدُ إِلَيْهَا الرَّابِكُ^(١).

وقال الراغب: «وقولهم: أَبْعَدَ اللَّهُ الْآخِرَ؛ أَي: الْمَتَأَخَّرَ عَنِ الْفَضِيلَةِ، وَعَنِ تَحْدِي الْحَقِّ»^(٢).

* ورودهما في الحديث الشريف:

١ - وردا في حديث أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»^(٣).

٢ - ووردا في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصفه لصلاة النبي ﷺ إذ يقول: «... ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت»^(٤).

٣ - ووردا في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجّد قال: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نَوْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمَقْدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ لَا إِلَهَ غَيْرُكَ»^(٥).

(١) «الصحاح» (٥٧٦/٢، ٥٧٧)، و«اللسان» (٣٨/١، ٣٩).

(٢) «المفردات» (ص ١٤).

(٣) أخرجه البخاري في «الدعوات» (١٩٦/١١)، ومسلم في «الذكر والدعاء» (٢٠٨٧/٤).

(٤) أخرجه مسلم في «صلاة المسافرين» (٥٣٦/١).

(٥) أخرجه البخاري في مواضع أولها في: «التهجّد» (٣/٣).

* معنى الاسمين في حق الله تعالى :

قال الخطابي: «(المقدم) هو المنزل للأشياء منازلها، يُقدّم ما شاء منها، ويُؤخّر ما شاء، قدّم المقادير قبل أن يخلق الخلق. وقدّم من أحبّ من أوليائه على غيرهم من عبّده. ورفع الخلق بعضهم فوق بعض درجات، وقدّم من شاء بالتوفيق إلى مقامات السابقين.

وأخّر من شاء عن مراتبهم وثبّطهم عنها. وأخّر الشيء عن حين توقيعه، لعلمه بما في عواقبه من الحكمة. لا مقدّم لما أخّر، ولا مؤخر لما قدم.

قال: والجمع بين هذين الاسمين أحسن من التفرقة»^(١). وقال الحليمي: «(المقدّم): وهو المُعْطِي لَعَوَالِي الرُّتَب. ومنها (المؤخّر): وهو الدافع عن عوالي الرُّتَب»^(٢).

وقال البيهقي: «(المقدم والمؤخر): هو المنزل للأشياء منازلها، يُقدّم ما شاء ومن شاء، ويُؤخّر ما شاء ومن شاء»^(٣).

وقال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى (المقدّم): «هو الذي يُقدم الأشياء ويضعها في مواضعها، فمن استحق التقديم قدّمه»^(٤).

وقال في (المؤخر): «هو الذي يؤخر الأشياء فيضعها في مواضعها، وهو ضد المقدم»^(٥).

وقال النووي: «ويُقدّم من يشاء من خلقه إلى رحمته بتوقيفه، ويُؤخّر من يشاء عن ذلك لخذلانه»^(٦).

وقال ابن القيم:

وهو المقدم والمؤخر ذانك الـ صفتان للأفعال تابعتان

(١) انظر: «الأسماء والصفات» للبيهقي (ص ٨٦).

(٢) «المنهاج» (ص ٢٠٧، ٢٠٨)، وذكرهما ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٨٦)، والقرطبي في «الأسنى» (ورقة ٣٦٢أ).

(٣) «الاعتقاد» (ص ٦٣).

(٤) «النهاية» (٤/٢٥)، ونقله ابن منظور في «اللسان» (٥/٣٥٥٢) ولم يعزه.

(٥) المصدر السابق (١/٢٩)، و«اللسان» (١/٣٨).

(٦) «شرح مسلم» (١٧/٤٠).

وهما صفاتُ الذاتِ أيضاً إذ هما بالذاتِ لا بالغير قائمتان إلى آخر كلامه ﷺ^(١).

* من آثار الإيمان بهذين الاسمين:

١ - «من أسمائه سبحانه (المقدم) و(المؤخر)، وهما من الأسماء المتقابلة التي لا يجوز أفراد أحدها عن مُقابلِهِ، كما قدمنا ذلك في المعزّ والمذل، والخافض والرافع، والقابض والباسط، والمانع والمعطي، ونحوها.

فهو سبحانه المقدم لبعض الأشياء على بعض، إما تقديماً كونياً، كتقديم بعض المخلوقات في الوجود على بعض، وكتقديم الأسباب على مُسبباتها، والشروط على مشروطاتها.

وإما تقديماً شرعياً معنوياً، كتفضيل الأنبياء ﷺ على سائر البشر، وتفضيل بعض النَّبِيِّينَ على بعض، وتفضيل العباد كذلك بعضهم على بعض.

وهو سبحانه المؤخر لبعض الأشياء عن بعض، إما بالزمان أو بالشرع كذلك. والتقديم والتأخير صفتان من صفات الأفعال التابعة لمشيئته تعالى وحكمته وهما أيضاً صفتان للذات، إذ قيامها بالذات لا بغيرها.

وهكذا كل صفات الأفعال هي من هذا الوجه صفات ذات، حيث إنّ الذات مُتَصِفَةٌ بها، ومن حيث تعلقها بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال تُسمى: صفات أفعال.

ولهذا غلط علماء الكلام من الأشاعرة حين ظنوا أن هناك نوعين مختلفين من الصفات: أحدهما: قائم بالذات لازمٌ لها. كصفات المعاني السبعة التي هي: ١ - العلم، ٢ - والقدرة، ٣ - والإرادة، ٤ - والحياة، ٥ - والسمع، ٦ - والبصر، ٧ - والكلام.

والثاني: صفات أفعال لا تقوم عندهم بالذات، بل هي نَسَبٌ إضافية عدمية، تنشأ من إضافة المفعول لفاعله، ولا يعقل لها وجود إلا بتلك الإضافة، فوجودها أمرٌ سلبي، وليس لها وجودٌ في نفسها، فليس ثمة عندهم موجود إلا المفعولات، وأما الأفعال فنسبٌ وإضافات!!

وهذا قولٌ باطل! مخالف كما قدمنا لما دلَّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف،

(١) «النونية» (٢/٢٤١) بشرح أحمد بن عيسى.

وقد وقع في البيت الأول «الصفان»، «تابعان»، وكلاهما خطأ.

وقد وقعا على الصواب في مطبوعة الهراس ﷺ (٢/١٠٩).

بل والعقل أيضاً، الذي يَقْضي بأن تكون صفات الأفعال قائمة بمن فعلها، ويكن متّصفاً بها من قالها أو عملها، إذ لا يُتَصَوَّر في العقل مفعولٌ من غير فعل، ولا مخلوقٌ من غير خالق، كما لا يتصور أحدٌ اسماً مشتقاً ولا يكون دالاً على صفةٍ في المحل المسمى به.

والذي أوقعهم في هذا الغلط الشنيع: أن صفات الأفعال عندهم لا تكون إلا حادثة! لتعلقها بالمفعولات الحادثة.

فيستحيل عندهم قيامها بذاته تعالى؛ لأن قيامَ الحوادث به مستلزمٌ لحدوثه، فارتكبوا بهذه الأكذوبة أعظم جناية على الدين، حيث نفّوا كلّ الصفات الفعلية التي جاء بها الكتاب والسنة، من الاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا وتكليمه لبعض عباده في بعض الأزمنة، وحبّه ورضاه وغضبه ومقته... إلخ. كما نفّوا أفعاله التي يوجد لها شيئاً بعد شيء تبعاً لحكمته، وأقواله التي يتكلم بها شيئاً بعد شيء كذلك!.

ولا شك أن هذا التعطيل لأفعاله لهو كتعطيل الجهمية والمعتزلة لصفات ذاته بلا فرق أصلاً، فإذا كان هذا التعطيل لصفاته الذاتية باطلاً بإقرار هؤلاء أنفسهم، فيجب أن يكون التعطيل لصفاته الفعلية باطلاً كذلك^(١).

٢ - وقال القرطبي بعد أن ذكر حديث ابن عباس السابق: «خرجه الأئمة، وأجمعت عليهما الأمة، ولا يجوز الدعاء بأحدهما دون الآخر، قاله الحلبي».

وكلاهما ظاهرُ المعنى، وهما من صفات الأفعال، يرفع من يشاء، ويخفض من يشاء، ويُعز من يشاء، ويُذل من يشاء، ويُقرّب من يشاء، ويُبعد من يشاء، فمن قُدّم فقد نال المراتبَ العُلى، ومن أُخّر فقد رُدّ إلى السُفلى.

قال الحلبي: (المقدم): هو المُعْطى لعوالي الرتب، و(المؤخر) هو الدافع عن عوالي الرتب.

فقرّب أنبياءه وأوليائه بتقريبه وهدايته، وأخزى أعداءه بإبعاده، وضرب الحجاب بينه وبينهم.

قدّر المقادير قبل أن يخلق الخلق، وقَدّم مَنْ أَحَب من أوليائه على عبيده، ورفع الخلق بعضهم فوق [بعض] درجات، ﴿لَا يُسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

(١) من كلام الشيخ محمد خليل هراس رَحِمَهُ اللهُ عَلَى «النونية» (٢/١١٠، ١١١).

وانظر: شرح الشيخ أحمد بن عيسى إن شئت (٢/٢٤٢) وما بعدها.

وكلُّ ممكن إنما تخصَّص في زمانه وصفاته وسائر أحواله، بإرادة الخالق سبحانه. وقد يُراد بالتقديم والتأخير: بعض الموجودات على بعض في الإبداع، وتأخير بعضها على بعض.

وقد يُراد بهما: تقديم بعض الموجودات على بعض في الرتبة والشرف، وتأخير بعضها على بعض، كما ذكرنا.

فعلى هذا، قد يكون الشيء مُقدِّماً في الإبداع والشرف معاً، وقد يكون مُقدِّماً في الإبداع مُؤخَّراً في الشرف.

وقد يكون مُؤخَّراً في الإبداع مُقدِّماً في الشرف، كمحمد ﷺ الذي هو آخر الأنبياء وهو أشرفهم.

وكنوع الإنسان الذي أبدعه الله بعد موجودات كثيرة، وفَضَّله على كثير منها، وقدم إبليس قبل موجودات كثيرة، وهو شرُّ منها كلها.

وقد يجتمع لبعض الموجودات تقديم الإبداع والشرف، كالعرش والكرسي والقلم والعقل، الذي هو من أول المبتدعات، وهي عند الله مُشَرَّفَات^(١).

٣ - فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن الله تعالى هو المقدم والمؤخر بكل اعتبار، قدَّم من شاء وأخَّر من شاء، في الخلق والرتبة، أو الرتبة دون الخلق، وهو سبحانه على كلِّ شيء قدير.

وإذا كان هذا فحقُّ على الإنسان أن يقدِّم ما قدَّمه الله، ويؤخر ما أخره الله، فإنه تعالى الخافض الرافع، فيعزُّ من أعزَّه الله بطاعته من إخوانه المؤمنين، ويهجر من أدَّله الله بمعصيته، ثم إذا تاب عَطَفَ عليه وقدَّمه بحسب درجته^(٢).

فمن أراد أن يرفعه الله تعالى، ويُقدِّمه على غيره، فليسابق إلى طاعته والعمل بمرضاته، والتقرب إليه بما استطاع من محبوباته، فإنه سبيل التقديم إلى مراتب الشرف والكرامة والخير والرحمة في الدنيا والآخرة.

وأما من تراخى عن الأخذ بمعاهد العزِّ والشرف، وتكاسل عن القيام بما أوجب الله ﷻ عليه من الواجبات وتخلَّف، وتعدَّى حدود الله، وللتوبة سَوَفَ، فإنه المتأخر عن درجات الخير والثواب، المؤخر في الآلام والعذاب.

فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ رأى في أصحابه تأخراً فقال لهم:

(١) «الكتاب الأسنى» (٢/ ورقة ٣٦٢ أ - ب)، وهو بنحو ما قال الغزالي في «المقصد» (ص ٨٥).

(٢) المصدر السابق باختصار وتصرف.

«تَقَدَّمُوا فَاتَمُوا بِي، وَلِيَأْتَمَّ بِكُمْ مَن بَعْدَكُمْ، لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤْخِرَهُمْ»^(١).
وفي رواية: رأى رسول الله ﷺ قوماً في مؤخَّر المسجد... فذكر مثله^(٢).
وقد قيل: إن معنى «يؤخرهم الله»: أي عن رحمته.
وقد ورد ما يشبه هذا.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ عَنِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، حَتَّى يُؤْخِرَهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ»^(٣).

ولهذا حثَّ ﷺ أصحابه إلى التقدم إلى الصفوف الأولى والتسابق عليها، والتبكير إلى المساجد، فقال عليه الصلاة والسلام: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النَّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ، لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا»^(٤).

وقد قال ﷺ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

فمن كان سباقاً إلى الخيرات وعمل الصالحات في الدنيا، كان في السابقين لدخول الجنات في الأخرى، والناس في هذا درجات.

ففي الحديث في صفات المارِّين على الصراط يقول ﷺ: «... فَيَمُرُّ أَوَّلَكُمْ كَالْبَرْقِ، قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَيُّ شَيْءٍ كَمُرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمُرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمُرِّ الطَّيْرِ وَشَدَّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيكُمُ قَائِمٌ عَلَى الصَّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا، قَالَ: وَفِي حَافَتِي الصَّرَاطِ كَلَالِبٌ مُّعَلَّقَةٌ مَّامُورَةٌ بِأَخْذٍ مِنْ أُمِّرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ»^(٥).

(١) أخرجه مسلم في «الصلاة» (٣٢٥/١)، وأبو داود (٦٨٠)، والنسائي (٨٣/٢)، وابن ماجه (٩٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في الموضع السابق.

(٣) صحيح، أخرجه أبو داود (٦٧٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٤٥٣)، وابن خزيمة (١٥٥٩)، وابن حبان (٢١٥٦/٥) وفي سننه لين لكنه يتقوى بما قبله.

(٤) رواه مسلم في «الصلاة» (٣٢٥/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه مسلم في «الإيمان» (١٨٧/١) من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما.

ويذكر ﷺ من أخر عن دخول الجنة حتى دخل أهل الجنة كلهم إلى منازلهم وبقي هو، فيقول ﷺ عنه: «... ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، وهو آخر أهل الجنة دخولا الجنة، فيقول: أي رب! اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قشبنى ريحها وأحرقني ذكاؤها، فیدعو الله ما شاء الله أن يدعو، ثم يقول الله تبارك وتعالى: هل عسيت إن فعلت ذلك بك أن تسأل غيري! فيقول: لا أسألك غيري، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت. ثم يقول: أي رب! قد مني إلى باب الجنة، فيقول الله له: أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتك ويملك يا ابن آدم ما أعدرك! فيقول: أي رب! ويدعو الله حتى يقول له: فهل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيري! فيقول: لا وعزتك! فيعطي ربه ما شاء الله من عهود ومواثيق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام على باب الجنة انفهقت^(١) له الجنة فرأى ما فيها من الخير والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب! ادخلي الجنة، فيقول الله تبارك وتعالى له: أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت، ويملك يا ابن آدم ما أعدرك! فيقول: أي رب! لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه، فإذا ضحك الله منه، قال: ادخل الجنة، فإذا دخلها قال الله له: تمنه، فيسأل ربه ويتمنى، حتى إن الله ليذكره من كذا وكذا^(٢)، حتى إذا انقطعت به الأمانى، قال الله تعالى: ذلك لك ومثله معه.

قال عطاء بن يزيد: وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة لا يرد عليه من حديثه شيئا، حتى إذا حدث أبو هريرة: إن الله قال لذلك الرجل: «ومثله معه». قال أبو سعيد: وعشرة أمثاله معه يا أبا هريرة! قال أبو هريرة: ما حفظت إلا قوله: «ذلك لك ومثله معه». قال أبو سعيد: أشهد أنني حفظت من رسول الله ﷺ قوله: «ذلك لك وعشرة أمثاله»، قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا الجنة^(٣).

(١) أي: انفتحت واتسعت.

(٢) أي: يقول له ربه: تمن من الشيء الفلاني والشيء الفلاني، يسمي له أجناس ما يتمنى، فسبحان الملك الرؤوف الرحيم.

(٣) رواه البخاري في «الرقاق» (٤٤٥/١١)، وفي «التوحيد» (٤٢٠/١٣)، ومسلم في «الإيمان» (١٦٥/١ - ١٦٧)، من حديث عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الدِّيَانُ

جَلَّ جلاله وتقدّست أسماؤه

(٩)

* المعنى اللغوي:

الدِّين: الجزاء والمكافأة.

يقال: دانه دينا؛ أي: جازاه، يقال: كما تدين تُدان.

أي: كما تُجَازَى تُجَازَى؛ أي: تجازى بفعلك وبحسب ما عملت.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصفات: ٥٣]؛ أي: مجزيون محاسبون^(١).

ومنه: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]؛ أي: يوم الحساب.

قال الجوهري: «ومنه الدِّيَان في صفة الله تعالى»^(٢).

والدِّين: الدَّل، والمَدِين: العبد، والمَدِينَة: الأُمَّة، كأنهما أذلَّهما العمل.

والدِّين: الطاعة، ودانَ له؛ أي: أطاعه.

ومنه: الدِّين، والجمع: أديان.

يقال: دانَ بكذا ديانةً وتَدِينَ به، فهو دِينٌ ومُتَدِينٌ.

والدِّيَان: القَهَّار، وهو فعَّال، من: دانَ الناس؛ أي: قهرهم على الطاعة، ودنَّت

الرجل: حَمَلَتْهُ على ما يكره.

والدِّين: العادة والشأن والحال.

تقول العرب: ما زال ذلك ديني ودَيَّنني؛ أي: عادتي.

والدِّين: واحد الدُّيُون، تقول: دنَّت الرجل أقرضته، فهو مَدِينٌ ومَدْيُون^(٣).

وأدْنَتْهُ جَعَلَتْهُ دائناً، وذلك بأن تعطيه ديناً.

(١) وقال الفراء: في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ تَرْجِعُونَهَا: غير مدينين؛ أي:

غير مملوكين، قال: وسمعت: غير مجزين. «اللسان» (١٤٦٩/٢).

(٢) «الصحيح» (٢١١٨/٥).

(٣) انظر: «الصحيح» (٢١١٧/٥ - ٢١١٩)، و«اللسان» (١٤٦٧/٢ - ١٤٧٠)، و«غريب الحديث»

لأبي عبيد (١٣٥/٣، ١٣٦).

والدِّين: يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشيعة.
والدِّين كالملة، لكنه يقال اعتباراً بالطاعة والانقياد للشيعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ
الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].
وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]؛ أي: طاعة^(١).

* وروده في الحديث الشريف:

ورد فيه حديث جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من
رسول الله ﷺ فاشتريت بغيراً، ثم شددت عليه رحلي فسرت إليه شهراً حتى قدمت
عليه الشام فإذا عبد الله بن أنيس، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب فقال:
ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديثاً بلغني
عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل
أن أسمعته، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ:
الْعِبَاد - عُرَاةً غُرَلاً بُهُمًا»، قال: قلنا: وما بُهُمًا؟ قال: «ليس معهم شيء»، ثم يناديهم
بصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدُ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قُرْبُ: أنا الملك، أنا الديان، ولا ينبغي لأحدٍ
من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحدٍ من أهل الجنة حقٌّ، حتى أَقْصَهُ منه، ولا
ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحدٍ من أهل النار عنده حقٌّ، حتى أَقْصَهُ
منه حتى اللَّطْمَةِ، قلنا: كيف! وإنا إنما نأتي الله ﷻ عُرَاةً غُرَلاً بُهُمًا؟ قال:
«بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ».

زاد في رواية الحاكم والبيهقي: وتلا رسول الله ﷺ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]^(٢).

(١) «المفردات» للراغب (ص ١٧٥).

(٢) صحيح: أخرجه ابن أبي عاصم في «السنّة» (١/٢٢٥)، وأحمد (٣/٤٩٥)، والبخاري تعليقاً
(١٣/٤٥٣) مختصراً، وفي «الأدب المفرد» (٩٧٠)، وفي «خلق أفعال العباد» (ص ١٤٩)،
(١٥٠)، والحاثر بن أبي أسامة (٤٤ - زوائد)، والطبراني في «الكبير» - كما في المجمع
(١٣٣/١) -، والحاكم (٢/٤٣٧، ٤٣٨، ٥٧٤/٤، ٥٧٥)، وعنه البيهقي في «الأسماء»
(ص ٧٨، ٧٩)، والخطيب في «الرحلة في طلب الحديث» (٣١، ٣٢) كلهم عن همام بن
يحيى عن القاسم بن عبد الواحد المكي عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابراً...
قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

وقال الهيثمي: رواه أحمد، والطبراني في «الكبير»، وعبد الله بن محمد ضعيف!
قلت: حديثه لا ينزل عن رتبة الحسن.

قال الترمذي: صدوق، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبيل حفظه، وسمعت محمد بن =

وورد في حديث أبي قلابة عن أبي الدرداء: البر لا يبلى، والإثم لا يُنسى،
والديان لا ينام، فكُنْ كما شئت، كما تدينُ تُدان^(١).

= إسماعيل «يعني البخاري» يقول: كان أحمد وإسحاق والحميدي يحتجون بحديث ابن عقيل،
قال محمد بن إسماعيل: وهو مقارب الحديث.

والحديث فيه: القاسم بن عبد الواحد المكي، قال ابن أبي حاتم عن أبيه: يكتب حديثه،
قلت: يحتج به؟ قال: يحتج بحديث سفيان وشعبة.

أي: هو ليس بالمرتبة العليا. وذكره ابن حبان في «الثقات».

وله طريق آخر يتقوى بها:

قال الحافظ في «الفتح»: وله طريق أخرى أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين»، وتمام في
«فوائده» من طريق الحجاج بن دينار عن محمد بن المنكدر عن جابر... فذكر نحوه.

قال الحافظ: وإسناده صالح «الفتح» (١/١٧٤).

وله طريق أخرى: عند الخطيب، وهي ضعيفة، انظر تعليقنا على: «مناظرة في خلق القرآن»
لابن قدامة (ص ٧٠ - ٧٢).

* والحديث فيه: إثبات صفة الكلام لربنا سبحانه، وأنه يتكلم بصوت يُسمع، وحرف يُفهم،
وهو معتقد السلف رحمهم الله.

(١) موقوف رجاله ثقات، أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٤٢) عن عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن
أيوب عن أبي قلابة، به.

ورجاله ثقات، لكن في سماع أبي قلابة من أبي الدرداء نظر، قال الحافظ في «الفتح» (٨/
١٥٦): أبو قلابة لم يدرك أبا الدرداء.

قلت: أبو قلابة واسمه عبد الله بن زيد الجرمي من فقهاء التابعين، وروايته عن مالك بن
الحويرث، وأنس بن مالك، وثابت بن الضحاك متصلة وهي في الكتب الستة.

وكذا روايته عن عائشة في «صحيح مسلم» [كما في «جامع التحصيل» (ص ٢٥٧، ٢٥٨)].
فالجزم بعدم إدراكه لأبي الدرداء فيه ما فيه، والله أعلم.

وله شاهد: يرويه المروزي في «زوائد الزهد» لابن المبارك (١١٥٥)، وأبو نعيم (١/٢١١)،
٢١٢ عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن أبي الدرداء: اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدُّوا
أنفسكم في الموتى، واعلموا أن قليلاً يكفيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا
يبلى، وأن الإثم لا ينسى.

وعبد الله بن مرة ثقة روى عن ابن عمر وغيره.

وقد جاء الأثر مرفوعاً: عند البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٧٩) من طريق عبد الرزاق:
أنبأنا معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره.

قال البيهقي: هذا مرسل.

وقال الحافظ: وله شاهد موصول من حديث ابن عمر أخرجه ابن عدي وضعفه.

قلت: هو في ترجمة محمد بن عبد الملك الأنصاري (٦/٢١٦٨)، ورواه أيضاً أبو نعيم،
والدلمي كما في «الضعيفة» (١٥٧٦).

=

معنى الاسم في حق الله:

قال الخطابي: «الدَّيَّان: وهو المُجَازي.

يقال: دِنْتُ الرجل إذا جزيته، أدِينُهُ.

والدَّيْن: الجزاء، ومنه المَثَل: «كما تدينُ تُدان».

(والدَّيَّان) أيضاً: الحاكم، ويقال: مَنْ دَيَّانُ أَرْضِكُمْ؟ أي: مَنْ الحاكمُ بها؟^(١).

وقال الحليمي: «ومنها (الدَّيَّان)، أخذ من ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهو:

الحاسبُ والمُجَازي، ولا يُضَيِّع عملاً، ولكنه يَجْزِي بالخير خيراً، وبالشَّرَّ شراً^(٢).

وقال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى (الدَّيَّان) قيل: هو القَهَّار.

وقيل: هو الحاكمُ القاضي.

وهو فعَّالٌ، من: دَانَ الناس؛ أي: قهرهم على الطاعة.

يقال: دِنْتُهُمْ فدانوا؛ أي: قهرتُهُمْ فأطاعوا^(٣).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن الله تعالى هو الدَّيَّان المحاسب والمُجَازي للعباد، وهو الحاكم بينهم يوم

المعاد، كما قال سبحانه: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إِلَّا نفسه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ

كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا

وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسُهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ

أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

= ومحمد بن عبد الملك قال النسائي: متروك.

وقال مرة: منكر الحديث. وكذا قال الشافعي ومسلم.

(١) «شأن الدعاء» (ص ١٠٦) مختصراً، ونقله الأصبهاني في «الحجة» (١/١٦٤).

(٢) «المنهاج» (١/٢٠٦) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله

البيهقي في «الأسماء» (ص ٧٨)، والحافظ في «الفتح» (١٣/٤٥٨) وعنده: «لا يضيع عمل

عامل».

(٣) «النهاية» (٢/١٤٨)، ونقله ابن منظور في «اللسان»، ولم يعزه له.

قال القرطبي: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سبحانه هو (الديان) يوم القيامة، الذي يُجازي كُلاً بعمله، فيقتضٍ للمظلوم من الظالم، ومن السيد لعبده، كما في حديث عائشة أن رجلاً قَعَدَ بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين... الحديث خرَّجه الترمذي^(١)، وقد تقدم في اسمه الحاسب.

وروى مسلم^(٢) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالوا: المفلسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

ثم عليه أن يدين بطاعته.

وكما يدين يُدان.

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

فإذا دَانَ نفسه بالطاعة، وَحَكَمَ قلبه الذي هو الأميرُ على رعاياه التي هي جوارحه، واشتَدَّ في الحكم لدين الله الذي به نبيه ﷺ، وأشاع هذا في الخلق، وأظهر دين الله بالحق، فهو دَيَّانٌ مَنْ دَيَّانِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وقد استوجب يومَ الدين: عَظِيمَ الْحُرْمَةِ^(٣).

٢ - ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه قبل أن يُحاسب ويستعد للقاء ديان السموات والأرضين قبل مجيء يوم الدين.

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٨٠/٦)، والترمذي (٣١٦٥) عن عبد الرحمن بن غزوان أبي نوح: حدثنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة: أن رجلاً قَعَدَ بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم؟ قال: «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَاهُمْ بِقَدَرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كِفَافاً، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلاً لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتَصَصَ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ» قال: فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتِفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧)» فقال الرجل: والله ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم، أشهدكم أنهم أحرارٌ كلهم.

وإسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين سوى عبد الرحمن بن غزوان المعروف بقراد فتحة من رجال البخاري وحده. وقال الحافظ: ثقة له أفراد.

(٢) مسلم في «البر» (١٩٩٧/٤).

(٣) «الكتاب الأسنى» (٢/ ورقة ٣٨١ب، ٣٨٢أ).

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا ووزنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيّنوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية^(١).

وقد ورد في حديث جابر السابق أن الناس يحشرون يوم القيامة عُرّةً غرلاً بُهُمَا - أي: ليس معهم شيء - ثم يناديهم بصوت يسمعه البعيد كما يسمعه القريب قائلاً لهم: أنا الملكُ أنا الدَّيَّانُ ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحدٍ من أهل الجنة حقٌّ، حتى أقصّه منه.

ولا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحدٍ من أهل النار عنده حقٌّ حتى أقصّه منه حتى اللّطمة.

فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله عن كيفية القصاص وقد حشروا حفاةً عُرّةً بُهُمَا ليس معهم درهم ولا دينار؟!.

فأجابهم صلى الله عليه وآله: أن القصاص يكون بالحسنات والسيئات؛ أي: يأخذ المظلوم من حسنات الظالم، فإن لم يكن عنده حسنات أخذ من سيئات المظلوم فوضعت على الظالم، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله الآية: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧].

قال القرطبي^(٢): «ولقد أحسن أبو العتاهية في قوله حين حبسه الرشيد:
أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ الظُّلْمَ لُومٌ وما زال المُسيءُ هو الظُّلُومُ
إلى دَيَّانٍ يومِ الدِّينِ نَمُضِي وعند الله تجتمع الخُصُومُ»



(١) أثر موقوف حسن: رواه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس والإزراء عليها» برقم (٢)، وذكره الترمذي تعليقا في «صفة القيامة» (٤/٦٣٨).

(٢) «الكتاب الأسنى» (٢/ورقة ١٣٨١).

الْحَنَّانُ

جَلَّ جلاله وتقدّست أسماؤه

(١٠)

* المعنى اللغوي:

(الْحَنَّانُ): الرحمة.

يقال منه: حَنَّ عليه يَحْنُ حناناً.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَنَّاكَ مِنْ دُونِهَا﴾ [مريم: ١٣].

و(الْحَنَّانُ) بالتشديد: ذو الرحمة، والذي يحْنُ إلى الشيء.

وتحنَّنَ عليه: ترحَّم.

والعرب تقول: حَنَّانَكَ يا رب، وَحَنَّانِيكَ يا رب، بمعنى واحد؛ أي: رحمتك،

وحناناً بعد حنان.

وقال ابن سيده في معناه: «كلما كنت في رحمة منك وخير فلا ينقطعن، وليكن

موصولاً بآخر من رحمتك»^(١).

وقال طرفة:

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِ بَعْضَنَا حَنَائِكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وَالْحَنِينِ: الشوقُ وَتَوَقَّانِ النَّفْسِ.

تقول منه: حَنَّ إليه يَحْنُ حنيناً فهو حَانٌ.

وحنينُ النَّاقَةِ: صوتُها في نزاعها إلى ولدها.

والْحُنُونُ: رِيحٌ لَهَا حَنِينٌ كَحَنِينِ الْإِبِلِ.

وما له حَانَةٌ وَلَا آتَةٌ: أي ناقة ولا شاة.

وَحَنَّةُ الرَّجُلِ: امرأته، لتحننه عليها.

وطريق حَنَّانٍ: بَيِّنٌ وَاضِحٌ منبسط^(٢).

(١) وقال ابن قتيبة في «غريب الحديث» (١/٢٢٠): حَنَّانِيكَ ربنا؛ أي: هب لنا رحمة بعد

رحمة، أو رحمة مع رحمة، وكما قالوا: سعديك؛ أي: سعداً مقروناً بسعد.

(٢) «الصحاح» (٥/٢١٠٤، ٢١٠٥)، و«اللسان» (٢/١٠٢٩ - ١٠٣١)، و«المفردات» (ص١٣٣)، =

* وروده في الحديث الشريف :

ورد في حديث أنس رضي الله عنه قال: كنتُ جالساً مع النبي ﷺ في المسجد ورجلٌ يُصَلِّي فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنتَ الحنانُ المَنَّانُ، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيوم، فقال النبي ﷺ: «دَعَا اللهَ باسمه الأعظم، الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى»^(١).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

جاء عن ابن عباس أنه قال: «لا والله ما أدري ما حَنَانًا»^(٢).
وذلك في قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣].
وروي عنه أنه قال: «﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقول: ورحمةٌ من عندنا»^(٣).

= و«غريب الحديث» للهرابي (٤/٤٠١)، وابن جرير (١٦/٤٤).

(١) حديث صحيح، سبق تخريجه.

فقول ابن العربي - كما في «الكتاب الأسنى» (٢/ ورقة ١٣٢١) -: «وهذا الاسم لم يرد به قرآن ولا حديث صحيح وإنما جاء من طريق لا يعول عليه، غير أن جماعة من الناس قبلوه وتأولوه وكثر إيرادهم في كتب التأويل والوعظ».
مما لا يعول عليه؛ لأن الحديث صحيح.
وقد قال القرطبي معقباً عليه: قد اجتلبنا في من الأخبار ما صحَّ به مورده وثبت معناه وذكره جماعة من العلماء...

* ملاحظة: أما حديث أنس مرفوعاً: «إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة: يا حنان يا منان، قال: فيقول الله ﷻ لجبريل اذهب فائتني بعبدٍ هذا فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين يبيكون، فيرجع إلى ربه فيخبره فيقول: ائتني به فإنه في مكان كذا وكذا، فيجيء به فيوقفه على ربه ﷻ فيقول له: يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: أي رب شر مكان وشر مقيل، فيقول: ردوا عبدي، فيقول: يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها، فيقول: دعوا عبدي».

فهو حديث ضعيف، رواه أحمد (٣/٢٣٠)، والبيهقي في «الأسماء» (ص ٨٤) وغيرهما.
وفيه: أبو ظلال واسمه: هلال بن ميمون، قال ابن معين: ضعيف ليس بشيء، وقال النسائي والأزدي: ضعيف، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابعه الثقات عليه، وقال البخاري: عنده منكر. «الميزان» (٤/٣١٦).

(٢) إسناده صحيح: أخرجه ابن جرير (١٦/٤٣)، وأبو عبيد في «غريب الحديث» (٤/٤٠٢) عن حجاج - وهو ابن محمد المصيصي - عن ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار عن عكرمة به ورجاله ثقات، وابن جريج قد صرح بالحديث عند ابن جرير.

(٣) رواه ابن جرير (١٦/٤٣) وهو من رواية علي بن أبي طلحة عنه، وروى البيهقي في «الأسماء» (ص ٨٤) عنه قال: التعطف بالرحمة وسنده صحيح.

ونحوه عن قتادة^(١).

قال الأزهري: «هو بتشديد النون صحيح. قال: وكان بعض مشايخنا أنكر التشديد فيه؛ لأنه ذهب به إلى الحنين، فاستوحش أن يكون الحنين من صفات الله تعالى، وإنما معنى (الحنَّان): الرحيم، من الحنان وهو الرحمة»^(٢).

وقال الخطابي: «(الحنَّان) معناه: ذو الرحمة والعطف. والحنَّان مخفَّف: الرحمة»^(٣).

وقال الحليمي: «ومنها (الحنان): وهو الواسع الرحمة، وقد يكون المُبالَغ في إكرام أهل طاعته، إذا وافوا دار القرار؛ لأن من حنَّ إلى غيره من الناس، أكرمه عند لقائه، وكَلَّفَ به عند قدومه»^(٤).

وقال ابن الأعرابي: «(الحنَّان) من صفات الله الرحيم»^(٥).

وقال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى (الحنَّان) وهو بتشديد النون: الرحيم بعباده، فعَّال، من الرحمة للمبالغة»^(٦).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن الله تعالى هو الرحيم بعباده، ذو العطف والحنان، يكرم المحسنين، ويغفر ويصفح للمسيئين، إن تابوا إليه فهو حبيبهم، وإن أعرضوا عنه فهو طيبهم، يتحبب إليهم بالتَّعم، ويتبعَّضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم نازل، وشرهم إليه صاعد! وهذا والله هو الحال العجيب.

٢ - وإذا كان هذا حال الرب مع العبد، فالأولى أن يكون العباد كذلك مع بعضهم البعض، يرحم بعضهم بعضاً، فيتحنن الأخ على أخيه ويعطف عليه، ويصفح عن زلته، ويقيّل عثرته، ويكون كما وصف نبي الرحمة ﷺ المؤمنين بقوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى

(١) المصدر السابق، بسندين عنه، وهو صحيح.

(٢) «اللسان» (١٠٢٩/٢).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ١٠٥)، وبنحوه قال البيهقي في «الاعتقاد» (ص ٦٧)، والأصبهاني في «الحجة» (١٦٤/١).

(٤) «المنهاج» (٢٠٧/١)، وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٨٤).

(٥) «الأسماء والصفات» للبيهقي (ص ٨٥)، و«الكتاب الأسنى» للقرطبي (٢/ ورقة ٣٢٢ب).

(٦) «النهاية» (٤٥٣/١).

له سائر الجسد بالسَّهر والحُمى»^(١).

قال القرطبي: فيجب على كل مسلم أن يتخلَّق بهذين الاسمين: (يعني: الحنان واليمن) وسائر الأسماء... رقيق القلب؛ لأن الحنان حقيقته في المخلوق رقة في النفس، وميلٌ مُفرطٌ في الجبلة والطبع، لشوقٍ مزعج وتوقٍ مُفرط. فَرَقَّة القلب تَحْمِلُ على التعطف والرحمة والرأفة والشفقة، وعنها تكون الألفة والفرقة. وقد دَمَّ اللهُ غِلْظَ القلب فقال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال ﷺ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَضْعَفُ قُلُوبًا، وَأَرْقُ أَفْئِدَةً»، وفي رواية: «أَلَيْنِ قُلُوبًا» بدل «أَضْعَفُ»^(٢). مَدَحَهُمْ بِذَلِكَ.

كما دَمَّ الْفَدَّادِينَ فقال: «الْقَسْوَةُ وَغِلْظُ الْقُلُوبِ فِي الْفَدَّادِينَ»^(٣). وجعل ﷺ رَقَّة القلب علامة الجنة، فقال: «أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُنْشَطٍ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٌ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ»^(٤). ويجب عليه الشكر لنعم الله وآلائه في المزيد من فضله، ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]^(٥).

(١) رواه مسلم في «البر والصلة والآداب» (٤/١٩٩٩، ٢٠٠٠) من حديث الشعبي عن النعمان بن بشير ﷺ.

(٢) رواه البخاري في «المغازي» (٨/٩٨، ٩٩)، ومسلم في «الإيمان» (١/٧١، ٧٢، ٧٣) من طرق عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) رواه البخاري في «بدء الخلق» (٦/٣٥٠)، وفي «المناقب» (٦/٥٢٦)، وفي «المغازي» (٨/٩٨)، وفي «الطلاق» (٩/٤٣٩)، ومسلم في «الإيمان» (١/٧١) من حديث قيس بن أبي حازم عن أبي مسعود قال: أشار النبي ﷺ بيده نحو اليمن فقال: «أَلَا إِنَّ الْإِيمَانَ هَهُنَا، وَإِنَّ الْقَسْوَةَ وَغِلْظَ الْقُلُوبِ فِي الْفَدَّادِينَ عِنْدَ أَصُولِ أَذْنَابِ الْإِبْلِ، حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ فِي رَبِيعَةٍ وَمُضَرٍّ» واللفظ لمسلم.

والفدّادين: جمع فَدَادٍ، وهو من الفديد، وهو: الصوت الشديد، فهم الذين تعلو أصواتهم في إبلهم وخيلهم وحروثهم ونحو ذلك (نوي). وللحديث ألفاظ أخرى من رواية أبي هريرة وجابر ﷺ.

(٤) رواه مسلم في «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» (٤/٢١٩٧، ٢١٩٨) من حديث مطرف ابن عبد الله عن عياض بن حمار المجاشعي وأوله: إن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتَهُ عَبْدًا حَلَالًا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَفَاءَ كُلِّهِمْ وَإِنَّهُمْ أَتَمُّ الشَّيَاطِينِ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّتْ لَهُمْ...» الحديث.

(٥) «الكتاب الأسنى» (٢/ورقة ٣٢٣ أ - ب).

الْمَنَّا

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١١)

* المعنى اللغوي :

مَنْ عَلَيْهِ يَمْنُ مَنَّا : أَحْسَنَ وَأَنْعَمَ .
والاسم : الْمِنَّةُ ، وهي العطية ، والمَنْ : العطاء .
وَمَنْ عَلَيْهِ وَامْتَنَّ وَتَمَنَّ : قَرَّعَهُ بِمِنَّةٍ .
يقال : الْمِنَّةُ تَهْدِمُ الصَّنِيعَةَ .
وَالْمَنْ : الْقَطْعُ ، ويقال : النقص ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت : ٨] .
وَالْمَنْ : شيءٌ حَلَوٌ كَالطَّرَنَجِينِ ، في قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى﴾ [البقرة : ٥٧] .

وفي الحديث : «الكَمَاءُ مِنَ الْمَنْ»^(١) .
الْمُنَّةُ - بالضم - : الْقُوَّةُ^(٢) .

* وروده في الحديث الشريف :

ورد في حديث أنس السابق .
وورد في التنزيل فعلاً ، قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .
وقال : ﴿بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَنِ﴾ [الحجرات : ١٧] .

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال الزجاجي : «(الْمَنَّا) فعلاً من قولك : مننتُ على فلان ، إذا اصطنعت عنده صنِعةً وأحسنْتَ إليه .
فالله ﷻ (مَنَّانٌ) على عباده بإحسانه وإنعامه ورزقه إياهم .

(١) رواه مسلم في «الأشربة» (٣/١٦١٩ ، ١٦٢١) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه .

(٢) «الصحاح» (٦/٢٢٠٧) ، و«اللسان» (٦/٤٢٧٧ - ٤٢٧٩) .

وفلان يَمُنُّ على فلان: إذا كان يعطيه ويحسن إليه^(١).

وقال الخطابي: «وأما (المَنَّان) فهو كثير العطاء»^(٢).

وقال الجوهري: «و(المَنَّان) من أسماء الله تعالى»^(٣).

وقال الحليمي: «ومنها: (المنان) وهو عظيمُ المواهب، فإنه أعطى الحياة والعقل والنطق، وصَوَّرَ فأحسن الصور، وأنعم فأجزل، وأسنى النعم، وأكثر العطايا والمَنَح، قال - وقوله الحق -: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]»^(٤).

وقال أبو بكر - هو الأنباري -: «وفي أسماء الله تعالى الحَنَّان المَنَّان؛ أي الذي يُنعم غيرَ فاجرٍ بالإنعام».

وقال في موضع آخر في شرح المنان:

«معناه: المُعْطِي ابتداءً، ولله المِنَّة على عباده، ولا مِنَّة لأحدٍ منهم عليه، تعالى الله علواً كبيراً»^(٥).

وقال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى (المَنَّان): هو المُنعم المعطي، من المَنّ: العطاء، لا من المنة.

وكثيراً ما يَرُدُّ المَنُّ في كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يَسْتَثْبِيهِ ولا يطلب الجزاء عليه.

فالمَنَّان من أبنية المبالغة؛ كالسَّفَاك والوهاب»^(٦).

وقال القرطبي: «ومنها (المَنَّان) جل جلاله وتقدست أسماؤه.

قال: يقال منه: مَنٌّ يَمُنُّ مَنَّا فهو المَنَّان، والاسم: المِنَّة واشتقاقه في موضوع اللسان من المَنِّ وهو العطاء دون طلب عوض.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ [ص: ٣٩] في أحد وجوهه.

ويكون أيضاً مشتقاً من: المِنَّة، التي هي التَّفَاخر بالعطية على المُعْطِي، وتعدد ما عليه.

والمعنيان في حقِّ الله تعالى صحيحان.

(١) «اشتقاق أسماء الله» (ص ١٦٤).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ١٠٠)، وينحوه قال البيهقي في «الاعتقاد» (ص ٦٧).

(٣) «الصحاح» (٢٢٠٧/٦).

(٤) «المنهاج» (٢٠٣/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٥).

(٦) «النهاية» (٣٦٥/٤).

(٥) «اللسان» (٤٢٧٩/٦).

ويَتَصَفَّ أيضاً بهما الإنسان، لكن يتصف بالمعنى الواحد على طريق المدح، وبالمعنى الثاني على طريق الذم.

فالأول: الذي هو ممدوح، نحو أن يكون عطاؤه أو مثله لوجه الله تعالى، لا لنيل عوضٍ من الدنيا.

ومن هذا القسم قوله ﷺ: «وإنَّ منَ أَمَنَ الناسِ عليَّ في ماله أبو بكر». وقوله: «ما أحدٌ أَمَنَ عليَّ من ابنِ أبي قحافة»^(١).

والقسم الثاني: وهو أن يَمَنَّ الإنسان بالعطية؛ أي: يَذكرها ويُكرها، فهو المذموم. ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يُكَلِّمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم: المُسِيل، والمَنَّان، والمُنْتَفِقُ سِلْعَتَهُ بالحلفِ الكاذب».

والمَنَّان: الذي لا يُعطي شيئاً إلا مَنَّةً، كذا جاء مفسراً في كتاب مسلم^(٢). والمنان أيضاً: الذي يَمَنُّ على الله بعمله.

وهذا كله في حقِّ المخلوق حرامٌ مذمومٌ.

وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنَّانٌ»^(٣).

ولما كان البارئ سبحانه يُدر العطاء على عباده مَنًّا عليهم بذلك وتفضُّلاً، كانت له المنة في ذلك.

(١) رواهما البخاري في «الصلاة» (٥٥٨/١) وغيره، وأحمد (٢٧٠/١، ٤٧٨/٣) (٢١١/٣) -

(٢١٢) من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس وأبي المعلى رضي الله عنهم بألفاظ متقاربة. ولفظ حديث ابن عباس: خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقه فقع على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنه ليس من الناس أحدٌ أَمَنَ عليَّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإسلام أفضل، سَدُّوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر».

(٢) رواه في «الإيمان» (١٠٢/١) من حديث أبي ذر.

والتفسير المذكور جاء مرفوعاً فيه من قوله ﷺ.

(٣) حديث صحيح: رواه أحمد (٢٠١/٢، ٢٠٢)، والدارمي (١١٢/٢)، والنسائي (٣١٨/٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص ٣٦٥، ٣٦٦)، وابن حبان (١٣٨٢، ١٣٨٣ - زوائد)، والطحاوي في «المشكل» (٣٩٥/١) عن سالم بن أبي الجعد عن جابان عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً به، وتماهه: «... ولا عاق والديه، ولا مدمن خمر، ولا ولد زنية».

وقد أعلَّه ابن خزيمة بجهالة جابان وبإسقاطه نبيط من هذا الإسناد، لكن هو مذكور في الإسناد عند النسائي.

وللحديث شواهد يتقوى بها، انظر تعليقنا على: «إبطال التأويلات» (٣٥٦/٢، ٣٥٧).

فيرجع المنان إذا كان مأخوذاً من المن الذي هو العطاء إلى أوصاف فعله .
ويرجع المنان إذا أخذته من المنّة التي هي تعداد النعمة وذكرها والافتخار بفعلها
في معرض الامتنان، إلى صفة كلامه تعالى^(١).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - أن الله تعالى هو (المنّان) الذي منّ على عباده بأنواع الإحسان والإنعام والأرزاق والعطايا .

وهو سبحانه كثير العطاء، فلا نهاية لتوسعته: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقد ذكّر الله تعالى عباده ببعض مننه عليهم، فمن ذلك قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَكُنْتُمْ عَلَىكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنْ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ [النساء: ٩٤].

فذكّرهم ﷺ بنعمة هدايته لهم وقد كانوا في ظلمات الكفر يترددون، وعلى شفير جهنم هم قائمون.

ونحوها قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَرُبُّدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ أُسْخِعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ آيَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥] وَتَمَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ [القصص: ٥، ٦].

فيها امتنان على بني إسرائيل وما حصل لهم من العزة والقوة والتمكين في الأرض بعد أن كانوا في ذلة واستضعاف وتبعية لفرعون وملائته .

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [١٤] وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ [١٥] وَصَرَّيْنَاهُمْ فَمَا كَانُوا هُمْ الْعَالِيَيْنِ [١٦] وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ [١٧] وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [١٨] [الصافات: ١١٤ - ١١٨].

(١) «الكتاب الأسنى» (٢/ ورقة ٣١٨ب، ٣١٩ب).

ويوسف نبي الله عليه الصلاة والسلام يذكر نعمة ربه عليه وعلى أخيه، وأنه سبحانه لم يضع صبره وتقواه بل أورثه ذلك حسن العاقبة، فيقول لإخوته: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وكذا أهل الجنة يذكرون حالهم في الدنيا وخوفهم من ربهم ثم يذكرون نعمة الله عليهم في الجنان، ونجاتهم من سموم النيران، فيقولون: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (٢٦) ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ (٢٧) ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٢٨) [الطور: ٢٦ - ٢٨].

قال القرطبي: «فيجب على كل مسلم أن يعلم أن لا مَنَّان على الإطلاق إلا الله وحده، الذي يبدأ بالتَّوَال قبل السؤال.

ثم يعترف بالمنة لله وحده.

كما روي أن النبي ﷺ لما جَمَعَ الأنصار فذَكَرَهُمْ، وقال: «أَلَمْ يَكُنْ أَمْرُكُمْ شَيْئاً فَجَمَعَهُ اللَّهُ بِي، أَلَمْ تَكُونُوا عَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي، أَلَمْ تَكُونُوا خَائِفِينَ فَأَمَّنَكُمْ اللَّهُ بِي» وهو في ذلك يقولون: الله ورسوله أَمَّنٌ... الحديث إلى آخره (١).

(١) أخرجه بنحوه البخاري في «المغازي» (٤٧/٨)، وفي «التوحيد» (٣٢٥/١٣)، ومسلم في «الزكاة» (٧٣٨/٢، ٧٣٩) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: «لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم خُيْنِ قَسَمَ في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يُعْطِ الأنصارَ شيئاً، فكانهم وجدوا إذ لم يُصِبْهُمْ ما أَصَابَ النَّاسَ، فخطبهم فقال: «يا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالاً فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مَتَرَفِقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي؟» كُلُّمَا قَالَ شَيْئاً قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَّنٌ. قال: «ما يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟» قال: كُلُّمَا قَالَ شَيْئاً قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَّنٌ. قال: «لو شِئْتُمْ قَلْتُمْ: جِئْتُنَا كَذَا وَكَذَا، أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاقِ وَالْبُعِيرِ، وَتَذْهَبُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ لَوْلَا الْهَجْرَةُ، لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِياً وَشِعْباً لَسَلَكَتُ وَادِيَّ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارُ، وَالنَّاسُ دِثَارُ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَهُ، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ».

قال الحافظ في «الفتح» (٥٠/٨): وقد رَتَّبَ ﷺ ما مَنَّ الله عليهم على يده من النعم ترتیباً بالغاً، فبدأ بنعمة الإيمان التي لا يُوازِيها شيء من أمر الدنيا، وثنى بنعمة الألفة وهي أعظم من نعمة المال؛ لأن الأموال تبذل في تحصيلها وقد لا تحصل، وقد كانت الأنصار قبل الهجرة في غاية التنافر والتقاطع لما وقع بينهم من حرب بُعَاثٍ وغيرها، كما تقدم في أول الهجرة، فزال ذلك كله بالإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بِنَبِّهِمْ﴾.

وقال (ص ٥٢): وفيه: أن المنَّة لله ورسوله على الإطلاق.

(فأقروا) لله ثم لرسوله بالنعمة، وولّوا النعمة لربّ النعمة، والله أعلم. ثم إذا أعطى أحداً من خلقه مما أنعم الله تعالى به عليه فلا يَمَنَّ به، بل يَسْتَصْغِرُه، وَيَتَّسَاه، وَيَرَى الفضل لغيره في قَبُوله منه، لا له.

وقال بعضهم: المَنُّ التَّحَدُّثُ بما أعطى حتى يبلغ ذلك المُعْطَى فيؤذيه.
قال العلماء: وإنما على المرء أن يُريد وجه الله تعالى وثوابه بإنفاقه على المُنفِق عليه، ولا يرجو منه شيئاً، ولا ينظر من أحواله في حالٍ سوى أن يُراعي استحقاقه.
قال الله تعالى: ﴿لَا تُبَدُّ مِنْكَ جَزَلَةٌ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

ومنى أنفق ليريد من المنفق عليه جزاء بوجهٍ من الوجوه، فهذا لم يُردْ به وجه الله، فهذا إذا أخلف ظنّه فيه، مَنْ بإنفاقه وآذاه.

وكذلك من أنفق مضطراً دافع غُرم، إما لأنه المُنفِقُ عليه، أو لعلّةٍ أخرى، من اعتناء مُعتنٍ، فهذا لم يُردْ به وجه الله، وإنما يقبل ما كان عطاؤه لله، وأكبر قصده ابتغاء ما عند الله^(١).

٢ - قد ذكرنا حديث الرسول ﷺ في حرمة المَنِّ، وأن المنان من الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم، وهو أنه لا يعطي شيئاً إلا منّة.
وقد قسم الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ المَنَّ في الناس إلى قسمين في كلامه عن المنفقين وأنواعهم فقال:

«فالمن نوعان:

أحدهما: مَنْ بقلبه من غير أن يُصرِّحَ به بلسانه، وهذا إن لم يطل الصدقة، فهو من نقصان شهودِ منّة الله عليه في إعطائه المال وجِرمَانٍ غيره، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه، فله المنّة عليه من كل وجه، فكيف يشهد قلبه منّة لغيره؟.

والنوع الثاني: أن يَمَنَّ عليه بلسانه، فيعتدى على من أحسنَ إليه بإحسانه، ويُريه أنه اصطنعه وأنه أوجب عليه حقاً وطوّقه منّة في عنقه فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا؟ ويعدد أياديّه عنده.

قال سفيان: يقول: أعطيتك فما شكرت.

وقال عبد الرحمن بن زياد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً ورأيت أن

(١) «الكتاب الأسنى» (٢/ ورقة ٣١٩ب، ٣٢٠ب) باختصار.

وهناك بعض الكلمات وجدت صعوبة في قراءتها بسبب انطماسها، فكتبتها كما ظهرت لي ومن سياق الجملة.

سلامك يثقل عليه فكف سلامك عنه، وكانوا يقولون: إذا اصطنعت صنيعةً فانسوها، وإذا أُسديت إليكم صنيعة فلا تنسوها.
وفي ذلك قيل:

وإن امرأاً أهدي إليَّ صنيعةً ودكّرنيها مرةً لبخيلُ
وقيل: صِنَوانٌ مَنْ مَنَحَ سائله ومَنْ، وَمَنْ مَنَعَ نائله وَضَنَّ.
ثم ذكر اختصاص الله تعالى بالمرء وأساب ذلك فقال:

«وحظر الله على عباده المرء بالصنيعة واختص به صفة لنفسه؛ لأنَّ مَنْ العباد تكديرٌ وتَعْيير، وَمَنْ الله ﷻ إفضال وتذكير.

وأيضاً: فإنه هو المنعم في نفس الأمر والعباد وسائط؛ فهو المنعم على عبده في الحقيقة.

وأيضاً فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يمن عليه ولا تصلح العبودية والذل إلا لله.

وأيضاً فالمنة أن يشهد المعطي أنه هو ربُّ الفضل والإنعام وأنه ولي النعمة ومُسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا الله.

وأيضاً فالمانُّ بعبائه يشهد نفسه مترفعاً على الآخذ مُستعلياً عليه غنياً عنه عزيزاً، ويشهد ذلَّ الآخذ وحاجته إليه وفاقته، ولا ينبغي ذلك للعبد.

وأيضاً فإنَّ المُعطي قد تولى الله ثوابه وردَّ عليه أضعاف ما أعطى، فبقي عَرْض ما أعطى عند الله، فأَيُّ حق بقي له قبل الآخذ؟ فإذا امتن عليه فقد ظَلَمه ظُلماً بيّناً، وادَّعى أنَّ حقه في قلبه، ومن هنا - والله أعلم - بطلت صدقته بالمرء، فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله، وعِوض تلك الصدقة عنده، فلم يَرْضَ به ولا حَظَّ العِوض من الآخذ والمعاملة عنده فمنَّ عليه بما أعطاه، أبطل معاوضته مع الله ومعاملته له...

ثم بيّن رحمه الله تعالى أن المرء ولو كان بعد الإنفاق بمدة ضرَّ بصاحبه، فقال:

«فتأمل هذه النصائح من الله لعباده، ودلالته على ربوبيته وإلهيته وحده، وأنه يُبطلُ عمل مَنْ نازعه في شيءٍ من ربوبيته وإلهيته، لا إله غيره ولا رب سواه. وبَّه بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنْبِئُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢] على أن المرء والأذى ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه ضرَّ بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق، ولو أتى بالواو وقال: ولا يتبعون ما أنفقوا مَنًّا ولا أَذًى، لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المرء والأذى المتراخي مُبطلاً لأثر الإنفاق مانعاً من الثواب فالمقارن أولى وأحرى.

وتأمل كيف جَرَّد الخبر هنا عن الفاء فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٢] وقرنه بالفاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْإِثْلِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤] فَإِنَّ الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشَّرْط والجزاء وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصِّلة أو الصِّفة، فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره، جَرَّد الخبر عن الفاء، فَإِنَّ المعنى: إن الذي ينفق ماله لله، ولا يمنّ ولا يؤذي، هو الذي يستحق الأجر المذكور، لا الذي ينفق لغير الله، ويمنّ ويؤذي بنفقه، فليس المقام مقام شرط وجزاء، بل مقام بيان للمستحق دون غيره.

وفي الآية الأخرى: ذَكَرَ الإنفاق بالليل والنهار سِرًّا وَعَلَانِيَةً، فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال، فأتى بالفاء في الخبر ليدل على أن الإنفاق في أي وقتٍ وُجِدَ من ليلٍ أو نهار، وعلى أي حالة وُجِدَ من سر وعَلَانِيَةً فإنه سبب للجزاء على كل حال، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يُؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار، ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه، فتدبر هذه الأسرار في القرآن فلعلك لا تظفر بها [فيما] يمر بك في التفاسير، والمنة والفضل لله وحده لا شريك له.

*** [رُدُّ السَّائِلِ بِالْقَوْلِ الْمَعْرُوفِ وَالْعَفْوِ عَنْهُ خَيْرٌ مِنَ التَّصَدَّقِ عَلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا نَهَ بِالْمَنْ وَالْقَوْلِ]:**

ثم قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣] فأخبر أن القول المعروف: وهو الذي تعرفه القلوب ولا تُنكره، والمغفرة: وهي العفو عمن أساء إليك، خيرٌ من الصَّدقة بالأذى، فالقول المعروف إحسانٌ وصَدقة بالقول، والمغفرة إحسان بترك المؤاخذه والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان، والصَدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها، ولا ريب أنَّ حَسَنَتَيْنِ خير من حسنة باطلة.

ويدخل في المغفرة: مغفرته للسائل إذا وَجَدَ منه بعضَ الجفوة والأذى له بسبب رده، فيكون عفوهُ عنه خيراً من أن يتصدَّق عليه ويؤذيه. هذا على المشهور من القولين في الآية.

والقول الثاني: أن المغفرة من الله؛ أي: مغفرة لكم من الله بسبب القول المعروف والرد الجميل خير من صدقة يتبعها أذى.

وفيها قول ثالث: أي مغفرة وعفو من السائل إذا رُدَّ وتعذر المسؤول، خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى.

وأوضح الأقوال هو الأول، ويليه الثاني، والثالث ضعيف جداً؛ لأن الخطاب إنما هو للمنفق المسؤول لا للسائل الآخذ.

والمعنى: أن قول المعروف له والتجاوز والعفو خير لك من أن تتصدق عليه وتؤذيه.

ثم ختم الآية بصفيتين مناسبتين لما تضمنته، فقال: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾، وفيه معنيان:

أحدهما: أن الله غني عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة، فنفعها عائد عليكم لا إليه ﷺ، فكيف يَمُنُّ بنفقته ويؤذي مع غنى الله التام عنها، وعن كل ما سواه، ومع هذا فهو حلِيمٌ إذ لم يُعاجل المانَّ بالعقوبة، وضمن هذا الوعيد والتحذير.

والمعنى الثاني: أنه ﷺ مع غناه التام من كل وجه فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح، مع عطائه الواسع وصدقاته العظيمة، فكيف يُؤذي أحدكم بمنه وأذاه، مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره!

* [الْمَنِّ وَالْأَذَى مِمَّا يُحْبِطُ الصَّدَقَاتِ]:

ثم قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦٤] تضمنت هذه الآية الإخبار بأن المن والأذى يحبط الصدقة، وهذا دليل على أن الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١﴾﴾ [الحجرات: ٢]، وقد تقدم الكلام على هذه المسألة في أول هذه الرسالة فلا حاجة إلى إعادته.

وقد يقال: إنَّ المنَّ والأذى المقارن للصدقة هو الذي يُبطلها دون ما يلحقها بعدها، إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا التقيد، والسياق يدل على إبطالها به

مطلقاً، وقد يقال: تمثيله بالمُرَّائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر يدل على أن المنّ والأذى المُبطل هو المقارن كالرياء وعدم الإيمان، فإنَّ الرياء لو تأخر عن العمل لم يبطله.

ويجاب عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن التشبيه وقع في الحال التي يَحْبُط بها العمل، وهي حال المرَّائي والمأنّ المؤذي في أن كل واحد منهما يحبط العمل.

الثاني: أن الرياء لا يكون إلا مقارناً للعمل؛ لأنه «فعال» من الرؤية التي صاحبها يعمل ليرى الناس عمله فلا يكون متراخياً، وهذا خلاف المنّ والأذى فإنه يكون مقارناً ومُتراخياً، وتراخيه أكثر من مُقارنته.

وقوله: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ﴾ إما أن يكون المعنى كإبطال الذي يُنفق فيكون قد شبه الإبطال بالإبطال، أو المعنى: لا تكونوا كالذي يُنفق ماله رياء الناس، فيكون تشبيهاً للمنفق بالمنفق.

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾؛ أي: مثل هذا المنفق الذي قد بَطَلَ ثواب نفقته ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾: وهو الحَجَرُ الأملس، وفيه قولان: أحدهما: أنه واحد، والثاني: جَمْع صفوة ﴿عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ وهو الأملس الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره، وهذا من أبلغ الأمثال وأحسنها، فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرَّائي - الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر - بالحجر لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به.

وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار الذي علقَ بذلك الحجر، والوابِلُ الذي أزال ذلك التراب عن الحجر فأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته وأزالها، كما يُذهب الوابلُ الترابَ الذي على الحجر فيتركه صَلْدًا فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله.

وفيه معنى آخر: وهو أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملاً يرتب عليه الأجر، ويزكو له كما تزكو الحبة التي إذا بُذِرَتْ في التراب الطَّيِّب أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، ولكن وراء هذا الإنفاق مانعٌ يمنع من نموه، وزكائه، كما أن تحت التراب حجراً يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه فلا ينبت ولا يخرج شيئاً.

* [مثل الذي يُنْفِق في سبيل الله تعالى لا يريد من الناس جزاء ولا شكوراً ولا يمنٌ ولا يؤذي]:

ثم قال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَمَّاتُ أَكْلَهَا ضَعْفَتِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ ۗ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝۲۶۵﴾ [البقرة: ٢٦٥] هذا مثلُ الذي مَصْدَرُ نَفَقَتِهِ عَلَى الْإِخْلَاصِ والصدق، فَإِنْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ سَبْحَانَهُ هُوَ الْإِخْلَاصُ، وَالتَّثَبُّتُ مِنَ النَّفْسِ هُوَ: الصَّدْقُ فِي الْبَذْلِ، فَإِنَّ الْمُنْفِقَ يَعْتَرِضُهُ عِنْدَ إِتْفَاقِهِ آفَتَانِ، إِنْ نَجَا مِنْهُمَا كَانَ مِثْلُهُ مَا ذَكَرَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِحْدَاهُمَا طَلَبُهُ بِنَفَقَتِهِ مُحَمْدَةً أَوْ ثَنَاءً أَوْ غَرَضاً مِنْ أَغْرَاضِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَهَذَا حَالُ أَكْثَرِ الْمُنْفِقِينَ.

والآفة الثانية: ضعفُ نفسه وتقااعسها وترددها: هل يفعل، أم لا؟ فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله، والآفة الثانية تزول بالتثبُّت، فَإِنَّ تَثَبُّتَ النَّفْسِ: تَشْجِيعُهَا وَتَقْوِيَتُهَا وَالْإِقْدَامُ بِهَا عَلَى الْبَذْلِ، وَهَذَا هُوَ صَدَقُهَا. وَطَلَبُ مَرْضَاةِ اللَّهِ إِرَادَةُ وَجْهِهِ وَحْدَهُ وَهَذَا إِخْلَاصُهَا.

فَإِذَا كَانَ مَصْدَرُ الْإِتْفَاقِ عَنْ ذَلِكَ، كَانَ مِثْلُهُ كَجَنَّةٍ - وَهِيَ الْبَسْتَانُ الْكَثِيرُ الْأَشْجَارِ - فَهُوَ مُجْتَنَّبٌ بِهَا؛ أَيْ: مُسْتَتَرٌ لَيْسَ قَاعاً فَارِغاً. وَالْجَنَّةُ بَرْبَوَةٌ - وَهُوَ الْمَكَانُ الْمَرْتَفِعُ - فَإِنَّهَا أَكْمَلُ مِنَ الْجَنَّةِ الَّتِي بِالْوَهَادِ وَالْحَضِيضِ؛ لِأَنَّهَا إِذَا ارْتَفَعَتْ كَانَتْ بِمَدْرَجَةِ الْأَهْوِيَةِ وَالرِّيَاحِ، وَكَانَتْ ضَاحِيَةً لِلشَّمْسِ وَقَدْ طَلُوعُهَا وَاسْتَوَائُهَا وَغُرُوبُهَا، فَكَانَتْ أَنْضَجَ ثَمَراً وَأَطْيَبَهُ وَأَحْسَنَهُ وَأَكْثَرَهُ، فَإِنَّ الثَّمَارَ تَزْدَادُ طَيِّباً وَزَكَاءً بِالرِّيَاحِ وَالشَّمْسِ، بِخِلَافِ الثَّمَارِ الَّتِي تَنْشَأُ فِي الظَّلَالِ.

وَإِذَا كَانَتْ الْجَنَّةُ بِمَكَانٍ مَّرْتَفِعٍ لَمْ يُخْشَ عَلَيْهَا إِلَّا مِنْ قَلَةِ الْمَاءِ وَالشَّرَابِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وَهُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ الْعَظِيمُ الْقَدْرُ فَادَتْ ثَمَرَتَهَا، وَأَعْطَتْ بَرَكَتَهَا فَأَخْرَجَتْ ثَمَرَتَهَا ضَعْفِي مَا يَثْمُرُ غَيْرُهَا أَوْ ضَعْفِي مَا كَانَتْ تَثْمُرُ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْوَابِلِ، فَهَذَا حَالُ السَّابِقِينَ الْمُقْرَبِينَ.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ﴾ فَهُوَ دُونَ الْوَابِلِ، فَهُوَ يَكْفِيهَا لِكَرَمِ مَنِبَتِهَا، وَطَيِّبٍ مَغْرَسُهَا فَتَكْتَفِي فِي إِخْرَاجِ بَرَكَتِهَا بِالطَّلِّ، وَهَذَا حَالُ الْأَبْرَارِ الْمُقْتَصِدِينَ فِي النَّفَقَةِ، وَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ، فَأَصْحَابُ الْوَابِلِ أَعْلَاهُمْ دَرَجَةً، وَهُمْ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً، وَيُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ.

وَأَصْحَابُ الطَّلِّ مُقْتَصِدُوهُمْ.

فمثل حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة بالوابل والظل . وكما أن كل واحد من المطرين يوجب زكاء أو ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف، فكذلك نفقتهم - كثيرة كانت أو قليلة - بعد أن صَدَرَتْ عن ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفوسهم، فهي زاكيةٌ عند الله نامية مضاعفة .

واختلف في الضَّعْفَيْن، والصواب أن الضعفين هما المثلان فقط: الأصل ومثله، وعليه يدل قوله تعالى: ﴿فَأَنَّتْ أَكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]؛ أي: مثلين، وقوله تعالى: ﴿يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]؛ أي: مثلين، ولهذا قال في الحسنات: ﴿تُؤْتَاهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١]، وأما ما توهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية فوهم منشأه ظن أن الضعف هو المثل مع الأصل، وليس كذلك، بل المثل له اعتباران: إن اعتبر وحده فهو ضعف، وإن اعتبر مع نظيره فهما ضعفان، والله أعلم .

واختلف في رافع قوله: ﴿فَطَلَّ﴾، فقليل: هو مبتدأ خبره محذوف؛ أي: وطلَّه يكفيها، وقيل: خبر مبتدأه محذوف، فالذي يُروِيها ويصيبها طَلٌّ، والضمير في ﴿أَصَابَهَا﴾ إما أن يرجع إلى الجنة أو إلى الربوة وهما متلازمان^(١) .

٣ - روى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ، وماؤها شفاءٌ للعَيْن»^(٢) .

قال أبو عبيد: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ» يقال - والله أعلم -: إنه إنما شبهها بالمن الذي كان يَسْقُط على بني إسرائيل؛ لأن ذلك كان يَنْزِل عليهم عفواً بلا علاجٍ منهم، إنما كانوا يصبحون وهو بأفنتهم فيتناولونه^(٣) .

وكذلك «الْكَمَاءُ» ليس على أحدٍ منها مؤنة في بَذَر ولا سقي ولا غيره، وإنما هو شيء يُنبِته الله في الأرض حتى يصير إلى مَنْ يَجْتَنِيهِ^(٤) .



(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتین» (ص ٣٦٥، ٣٧٠) باختصار يسير .

(٢) سبق تخريجه قريباً .

(٣) كما قال ﷺ ممتناً عليهم: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧] .

(٤) «غريب الحديث» (١٧٣/٢) .

الْحَيُّ جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١٢)

* المعنى اللغوي:

اسْتَحْيَاه واسْتَحْيَا منه، بمعنى؛ من الْحَيَاءِ.
ويقال: اسْتَحْيَتْ بِيَاءً واحدة، وأصله: اسْتَحْيَيْتُ، مثل: اسْتَعْيَيْتُ، فأَعْلُوا البِاءَ الأولى وأَلْقُوا حركتها على الحاء.
وقال أبو الحسن الأخفش: اسْتَحَى بِيَاءٍ واحدة: لغة تميم، وبِإِاءٍ لغة أهل الحجاز، وهو الأصل.
قال الأزهري: «والقرآن نزل بهذه اللغة الثانية، في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].
والحيا مقصورٌ: المطرُ والخصب.
والحياءُ ممدود: الاستحياء.
وَرَجَلٌ حَيٌّ: ذو حياء، بوزن فَعِيل.
وامرأة حَيَّةٌ^(١).
وعرّف الراغب الحياء عند المخلوق بقوله: «انقباض النفس عن القبائح وتركه لذلك»^(٢).

* وروده في الحديث الشريف:

١ - ورد في حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يَغْتَسِلُ بِالْبَزَارِ بلا إزار، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ حَيٌّ سَتِيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتَرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتِرْ»^(٣).

(١) «الصحاح» (٢٣٢٤/٦)، و«اللسان» (١٠٧٩/٢، ١٠٨٠) مادة (حيا).

(٢) «المفردات» (ص ١٤٠).

(٣) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (٤٠١٢/٤)، والنسائي (٢٠٠/١)، والبيهقي من طريق أبي =

٢ - وفي حديث سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَبِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»^(١).

* وقد ورد بصيغة الفعل في الكتاب العزيز في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

١ - وفي حديث أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفًا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فُرْجَةً فِي الْحَلْفَةِ فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدْبَرَ ذَاهِبًا، فلما فَرَّغَ رسول الله ﷺ قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَأَوَاهُ اللَّهُ، وَأَمَا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ»^(٢).

٢ - وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت أم سليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، فهل على المرأة من غُسْلٍ إِذَا احْتَلَمَتْ؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إِذَا رَأَتْ الْمَاءَ...»^(٣).

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن الجوزي: «الحياء بالمد: الانقباض والاحتشام، غير أن صفات الحق ﷻ

= داود (١٩٨/١) عن التِّفْلِيِّ، حدثنا زهير عن عبد الملك بن أبي سليمان العَرَزَمِيِّ عن عطاء عن يغلى به.

ورجاله ثقات، عطاء هو ابن أبي رباح، وزهير هو ابن معاوية.

وانظر بقية تخريجه في كتابنا: «إبطال التأويلات» (٤١١/٢).

(١) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٨٨/٢)، ومن طريقه البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٩٠)، والترمذي (٣٥٥٦/٥)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، وصححه ابن حبان (٢٤٠٠)، والحاكم (٤٩٧/١)، والخطيب في تاريخه (٢٣٥/٣، ٢٣٦) من طريق عن جعفر بن ميمون عن أبي عثمان النهدي عن سلمان مرفوعاً به.

قال الذهبي في «العلو» (ص ٥٢): هذا حديث مشهور.

وحسنه الحافظ في «الفتح» (١٤٣/١١) وهو كما قال.

وله طرق أخرى وشواهد يتقوى بها، انظر: «إبطال التأويلات» الموضع السابق.

(٢) أخرجه مالك (٩٦٠/٢، ٩٦١)، ومن طريقه البخاري في «العلم» (١٥٦/١)، وفي «الصلاة» (٥٦٢/١)، ومسلم في «السلام» (١٧١٣/٤) عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أن أبا مرة مولى عقيل بن أبي طالب أخبره عن أبي واقد الليثي به.

(٣) رواه مسلم في «الحيض» (٢٥١/١).

لا يُطَّلَع لها على ماهية، وإنما تَمُرُّ كما جاءت، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِّ كَرِيمٌ»^(١).

وقال ابن القيم^(٢):

وهو الْحَيُّ فَلَيْسَ يَفْضَحُ عَبْدُهُ عند التَّجَاهِرِ مِنْهُ بِالْعِضْيَانِ
لَكِنَّهُ يُلْقِي عَلَيْهِ سِتْرَهُ فهو السَّتِيرُ وصاحبُ الْغُفْرَانِ

وقال المباركفوري: «قوله: «إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ» فَعِيلٌ مِنَ الْحَيَاءِ؛ أَي: كَثِيرُ الْحَيَاءِ.

ووصفه تعالى بِالْحَيَاءِ يُحْمَلُ عَلَى مَا يَلِيقُ لَهُ، كَسَائِرِ صِفَاتِهِ، نُؤْمِنُ بِهَا وَلَا نَكْيفُهَا»^(٣).

وذكر «الاستحياء» في صفات الله تعالى شيخ الحرمين: أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرجي في كتابه الذي سَمَّاهُ «الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزاماً لذوي البدع والفضول» وكان من أئمة الشافعية، ونقله إقراراً له شيخ الإسلام ابن تيمية^(٤).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إثبات صفة الحياء لربنا تبارك وتعالى على ما يليق بجلاله وكَماله، إثباتاً من غير تمثيل لها بخلقه.

قال الإمام أبو يعلى الفراء بعد أن ساق الأحاديث الواردة في صفة الحياء: «اعلم أنه غير ممتنع وَصَفُ اللَّهِ تعالى بِالْحَيَاءِ، لا على معنى ما يُوصَفُ به المخلوقين من الْحَيَاءِ الَّذِي هُوَ انْقِبَاضٌ وَتَغْيِيرٌ وَخَجَلٌ، لاستحالة كونه جسماً متغيراً تحلُّهُ الحوادث»^(٥).

لكن نُطْلَقُ هذه الصفة كما أَطْلَقْنَا وَصَفَهُ سبحانه بالإرادة وإنْ خالفت إرادة المخلوقين؛ لأن إرادته تقتضي وجوب المراد، وإرادتنا لا تقتضي وجوبه.

(١) «زاد المسير» (٥٤/١).

(٢) «النونية» (٢٢٧/٢) بشرح أحمد بن عيسى.

(٣) «تحفة الأحوذى» (٥٤٤/٩).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٨١/٤)، إذ قال في أول كلامه: وقد ذكرنا في غير هذا الجواب، مذهب سلف الأمة وأئمتها بألفاظها وألفاظ من نقل ذلك من جميع الطوائف، بحيث لا يبقى لأحدٍ من الطوائف اختصاص بالإثبات. ومن ذلك: ما ذكر شيخ الحرمين أبو الحسن محمد بن عبد الملك... إلخ.

(٥) الصواب الإعراض عن ذكر هذا النفي، لعدم وروده في الكتاب أو السنة.

وكذلك علمه يقتضي العلم بالمعدوم والموجود خلاف علمنا^(١).

وقال الهراس: «ورد في السنة وَصَفَهُ تَعَالَى بِالْحَيَاءِ؛ كَقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَيِي يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا مَدَّ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»، وكَقَوْلِهِ ﷺ: «فِي شَأْنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ وَقَفُوا عَلَى مَجْلِسِهِ: «أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَقْبَلَ فَأَقْبَلَ اللَّهَ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهَ ﷻ مِنْهُ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهَ ﷻ عَنْهُ».

وحياؤه تعالى وصفٌ يليق به، ليس كحياء المخلوقين الذي هو تغير وانكسار يَغْتَرِي الشخص عند خوفٍ ما يُعَاب أو يُذَم، بل هو ترك ما ليس يتناسب مع سعة رحمته، وكمال جوده وكرمه، وعظيم عفوه وحلمه.

فالعبد يجاهره بالمعصية مع أنه أفقر شيءٍ إليه، وأضعفه لديه، ويستعين بنعمه على معصيته، ولكن الربَّ سبحانه مع كمال غناه وتام قدرته عليه، يَسْتَحِي مِنْ هَتِكِ سِتْرِهِ وَفُضِيحَتِهِ، فيستره بما يَهْوِي له من أسباب السَّتر، ثم بعد ذلك يعفو عنه ويغفر، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُذْنِي الْمُؤْمِنَ فَيُضَعُّ عَلَيْهِ كَنَفَهُ ثُمَّ يَسْأَلُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ: أَلَمْ تَفْعَلْ كَذَا يَوْمَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَأَيَقِنَ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ لَهُ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»^(٢).

وكذلك يستحي سبحانه من ذي الشَّيْبَةِ في الإسلام أن يُعَذِّبَهُ^(٣).

ويستحي ممن يدعوه ويمدُّ إليه يديه أن يردَّهما خاليتين.

وهو من أجل أنه حَيِيٌّ سَتِير: يحب أهل الحياء والسَّتر من عباده، فمن سَتَر مسلماً ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، ويكره المجاهرة بالفسوق والإعلان بالفاحشة، وإنَّ من أُمَقَّتِ النَّاسَ عنده من بات على معصيةٍ والله يَسْتَرُهُ، ثم يُصْبِح فيكشف ستر الله عليه.

وقد توعَّد الذين يُحِبُّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بأن لهم عذاباً أليماً في

(١) «إبطال التأويلات» (٢/٤١٢).

(٢) الحديث في الصحيحين.

(٣) ضعيف جداً: أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (١/١٦٨)، ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/١٧٧) عن سويد بن عبد العزيز عن نوح بن ذكوان عن أخيه أيوب بن ذكوان عن الحسن بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ عن الله ﷻ: «إِنِّي لَأَسْتَحِي مِنْ عَبْدِي وَأُمْتِي يَشِيبُ رَأْسَ أُمْتِي وَعَبْدِي فِي الْإِسْلَامِ ثُمَّ أُعَذِّبُهُمَا فِي النَّارِ...»، قال ابن حبان عن أيوب بن ذكوان: منكر الحديث.

وفيه أيضاً سويد بن عبد العزيز وهو ضعيف.

وله طرق أخرى، انظر: «إبطال التأويلات» (٢/٤١٠، ٤١١).

الدنيا والآخرة^(١).

وفي الحديث: «كُلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين»^{(٢)(٣)}.

٢ - أول كثير من العلماء صفة الحياء الثابتة له سبحانه في الأحاديث الصحيحة المتقدمة: بالترك تارة وبالكراهية تارة، وبالرحمة تارة، وعدم العقاب والعذاب أخرى، وكلها من لوازم الحياء.

أ - منهم الحلبي في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مَنْ عَبْدُهُ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صَفَرًا».

قال: «ومعناه: أنه يكره! أن يردَّ العبد إذا دعاه فسأله ما لا يمتنع في الحكمة إعطاؤه إياه، وإجابته إليه، فهو لا يفعل ذلك، إلا أنه لا يخاف من فعله ذمًا، كما يخافه الناس فيكرهون لذلك فعلَ أمورٍ وتركَ أمورٍ، فإنَّ الخوف غير جائز عليه»^(٤).

ب - والبيهقي في قوله: «فاستحيا فاستحيا الله منه» قال: أي جازاه على استحيائه بأن ترك عقوبته على ذنوبه^(٥).

ج - والنووي في قوله ﷺ: «وَأَمَّا الْآخِرُ فَاستَحْيَا فَاستَحْيَا اللَّهَ مِنْهُ...» الحديث.

قال: «أي رَحِمَهُ وَلَمْ يُعَذِّبْهُ، بَلْ غَفَرَ ذَنْبَهُ».

وقيل: جازاه بالثواب^(٦).

د - والحافظ ابن حجر في الحديث نفسه قال: «أَي رَحِمَهُ وَلَمْ يُعَاقِبْهُ»^(٧).

هـ - والأقلشي إذ يقول: «وَأَمَّا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ (حَيٌّ) فَوزَنَهُ فَعِيلٌ مِنَ الْحَيَاءِ، وَهَذَا الْوَصْفُ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى مُتَأَوَّلٌ!!

(١) في قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

(٢) وهو حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربُّه ويصبح يكشف ستر الله عنه».

رواه البخاري في «الأدب» (٤٨٦/١٠)، ومسلم في «الزهد» (٢٢٩١/٤).

(٣) «شرح النونية» (٨٠/٢)، للشيخ محمد خليل هراس رحمه الله تعالى.

(٤) نقله البيهقي عنه في «الأسماء» (ص ٩١)، والقرطبي في «الأسنى» (٢/ ورقة ٤٢٢ب) مع اختلاف في أوله.

(٥) الكتاب «الأسنى» (٢/ ورقة ٤٢٣أ). (٦) شرحه على مسلم (١٥٩/١٤).

(٧) «الفتح» (١٥٧/١)، وبنحوهما قال الراغب كما في «الذريعة» (ص ١٨٨).

إذ العبد هو الموصوف بالحياء؛ لأنها حالة يجدها العبد في نفسه، تحمله على إجلال المُستَحْيَا منه.

ولما كان الله تعالى مُتَكَرِّماً على سائله، وقاضياً حوائج داعيه، لا يردهم بكرمه، وَصَفَ نفسه بالحياء الذي يُوصَف به مَنْ كَرُمَت نفسه، وكانت له سَجِيَّةٌ حَيِّيةٌ، فإنه من أوصاف المدح في الخَلْق، وكل وصف كان للمخلوق حسناً، فَلِلَّهِ منه الحِظُّ الأكمل، وإن كان فيه إيهامٌ فإنه في حقه متأوّل.

وقد وَصَفَ نفسه بأنه يستحي من العبد، ووصف نفسه بأنه لا يستحي من الحق، فحياءه من عبده يرجع إلى قضاء حاجته، بصفة كرمه، وكونه لا يَسْتَحْيِي من الحق يرجع إلى صفة عَدْلِهِ، القاضية بجريان الحق على أهله، ولكل صفة مقام، وكيف، فكان هذا الوصف من أوصاف الأفعال؛ لأنه عبارة عن إظهار كرمه، وإذرار نِعَمِهِ^(١).

و - والسندي قال: «(حيي) بكسر أولى الياءين مخففة، ورفع الثانية مشددة؛ أي: الله تعالى تاركٌ للقبائح، ساتر للعيوب والفضائح، يحب السُّتْر من العبد، ليكون مُتَخَلِّقاً بأخلاقه تعالى!! فهو تعريضٌ للعباد، وحث لهم على تحري الحياء»^(٢).
وغيرهم ممن أخطأ في هذا الباب، عفا الله عنا وعنهم بمنه وكرمه.

(١) «الكتاب الأسنى» (٢/ ورقة ٤٢٢ب).

وقد أوّل الحياء بلوازمه: من إجابة داعيه بكرمه وإحسانه، وحبّه لجريان الحق لعدله، والأصل أن تثبت الصفة لله تعالى ثم تثبت لوازمها.

(٢) حاشيته على النسائي (١/ ٢٠٠).

وقوله: «ليكون متخلفاً بأخلاقه تعالى». من عبارات الفلاسفة وأهل الكلام، ولم يأت في الكتاب ولا السنة ولا في أقوال سلف الأمة القول بأن الله أخلاقاً!! وإنما له نعوت كمال، وصفات جلال، فتنبه!

قال ابن القيم بعد أن ذكر أن أدعية الرسل مشتملة على دعاء الله تعالى بأسمائه والثناء عليه بها: وهذه العبارة أولى من عبارة من قال: يتخلّق بأسماء الله، فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة.

وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان وهي: التَّعْبُد، وأحسن منها: العبارة المطابقة للقرآن وهي: الدعاء، المتضمن للتعبد والسؤال.

فمراتبها أربعة: أشدها إنكاراً عبارة الفلاسفة وهي التَّشْبِه، وأحسن منها عبارة من قال: التخلّق، وأحسن منها عبارة من قال: التعبد، وأحسن من الجميع: الدعاء، وهي لفظ القرآن. اهـ «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٤).

٣ - ولما كان الله تعالى موصوفاً بالحياء، فإنه يحبُّ أهله والمتّصفين به من عباده، كما ذكرنا سابقاً أنه تعالى عليمٌ يحبُّ العلماء، كريمٌ يحبُّ الكرماء، حلیم يحبُّ الحلماء، جميل يحبُّ الجمال.

وقال أبو موسى رضي الله عنه: «اللهم إنك مؤمنٌ تحبُّ المؤمن، ومهيمنٌ تحبُّ المهيمن، سَلامٌ تحبُّ السَّلام، صادقٌ تحبُّ الصادق»^(١).
بل قد جعله رسول الهدى ﷺ شُعبَةً من شُعب الإيمان، وخصلةً من خصال عباد الرحمن.

فقال ﷺ: «الإيمانُ بِضْعٌ وستون شُعبَةً، والحياءُ شُعبَةٌ مِنَ الإيمان»^(٢).
ومرَّ ﷺ على رجلٍ من الأنصار وهو يَعْطُ أخاه في الحياء - وفي رواية: يقول: إنك لتستحي حتى كأنه يقول: قد أَضَرَّ بك - فقال رسول الله ﷺ: «دَعُهُ، فَإِنَّ الحياءَ مِنَ الإيمان»^(٣).

وكان هو ﷺ من أشدَّ الناس حياءً، كما وصفه أصحابه، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ أشدَّ حياءً من العَذْرَاءِ في خِدْرِهَا»^(٤).
أي: أشدَّ حياءً من البكر إذا دُخِلَ عليها في خلوتها^(٥).
فإن قيل: الحياء من الغرائز، فكيف جعل شُعبَةً من الإيمان؟
أجيب بأنه: قد يكون غريزةً وقد يكون تَخَلُّقاً، ولكن استعماله على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب وعلم ونية، فهو من الإيمان لهذا.
ولكونه باعثاً على فعل الطاعة وحاجزاً عن فعل المعصية^(٦).

-
- (١) أثر صحيح: رواه ابن أبي شيبة (٢٦٠/١٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٥٩/١).
(٢) رواه البخاري في «الإيمان» (٥١/١)، ومسلم في «الإيمان» (٦٣/١) من حديث أبي هريرة وزاد فيه: «فأَفْضَلُهَا: قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء...».
(٣) رواه البخاري في «الإيمان» (٧٤/١)، وفي «الأدب» (٥٢١/١٠)، ومسلم في «الإيمان» (١/٦٣) من حديث سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه رضي الله عنه.
(٤) رواه البخاري في «المناقب» (٥٦٦/٦)، وفي «الأدب» (٥١٣/١٠)، ومسلم في «الفضائل» (١٨٠٩/٤، ١٨١٠) وزاد: وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه.
(٥) معنى كلام الحافظ في «الفتح» (٥٧٧/٦) وقال: ومحل وجود الحياء منه ﷺ في غير حدود الله، ولهذا قال للذي اعترف بالزنا: «أُنَكْتَهَا»، لا يكتفي، كما سيأتي بيانه في الحدود انتهى، وانظر: «الحدود» (١٣٥/١٢).
(٦) كما ورد في تعريف الحياء أنه: خُلُقٌ يَبْعَثُ على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق. «الفتح» (٥٢/١).

ولا يقال: رب حياء يمنع عن قول الحق أو فعل الخير، لأنَّ ذاك ليس شرعياً.
فإن قيل: لِمَ أفرده بالذكر هنا؟

أجيب بأنه: كالداعي إلى باقي الشعب، إذ الحياء يخاف فضيحة الدنيا والآخرة،
فَيَأْتَمِر وَيَتَزَجَر^(١).

٤ - اعلم - رحماني الله وإياك - أن أعظمَ الحياء ينبغي أن يكون من الله تعالى،
الذي نتقلب في نعمه وإحسانه الليل والنهار، ولا نستغني عنه طرفة عين، ونحن
تحت سمعه وبصره، لا يغيب عنه من حالنا وقولنا وفعلنا شيء، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا
تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا
أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال بعض السلف: عَلِمْتُ أن الله تعالى مطلعٌ عليّ فاستحييتُ أن يراني على معصية.
وقد أحسن من قال:

وَإِذَا خَلَوْتُ بِرَبِيبَةٍ فِي ظُلْمَةٍ وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى الْعَصْيَانِ
فَاسْتَحْيَ مِنْ نَظَرِ الْإِلَهِ وَقُلْ لَهَا إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلَامَ يَرَانِي
وحكي عن بعض السلف: خَفِيَ اللهُ عَلَى قَدْرِ قَدْرَتِهِ عَلَيْكَ، وَاسْتَحْيَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ
قُرْبِهِ مِنْكَ^(٢).

قال الراغب: والذي يستحي منهم الإنسان ثلاثة:
البشر: وهو أكثر ما يستحي منه.
ثم نفسه.

ثم الله ﷻ.

ومن استحيا من الناس ولم يستح من نفسه، فنفسه أخسُّ عنده من غيره.
ومن استحيا منهما ولم يستح من الله ﷻ، فلعدم معرفته به.
فإن الإنسان يستحي ممن يُعْظِمُهُ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ، وَيَسْمَعُ نَجْوَاهُ، وَمَنْ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ
فَكَيْفَ يَسْتَعْظِمُهُ؟ وكيف يعلم أنه مطلع عليه؟.
وقوله ﷺ: «استحيوا من الله حقَّ الحياء»^(٣) في ضمنه حثٌّ على معرفته.

= ولهذا جاء في الحديث الآخر: «الحياء خيرُ كله».

(١) «الفتح» (٥٢/١).

(٢) المصدر السابق (٧٥/١).

(٣) يأتي تخريجه.

وقال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤] تنبيهاً على أن العبد إذا علم أن ربه يراه استحيًا من ارتكاب الذنب.

وسُئل الجُنيد عما يُولد الحياء من الله تعالى، فقال: «رؤية العبد آلاء الله عليه، ورؤية تقصيره عن شكره»^(١).

قال القرطبي: «فيجب على كل مكلف أن يستحي من خالقه، وذلك بأن لا يراه حيث نهاه، وذلك أن المؤمن يقتضي تعظيم من آمن به، فينزجر عن القبائح حياءً من نظره إليه، حتى كان بعضهم لا يغتسل إلا وعليه مئزرٌ يستره، ولا يقوم قائماً منتصباً بل يتضاماً ما استطاع في غُسله»^(٢).

وكان موسى ﷺ حَيًّا سَتِيرًا يغتسل بناحيةٍ من قومه»^(٣).

وروى الترمذي: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»، قال: فقلنا: إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قال: «ليس ذاك! ولكن الاستحياء من الله حَقَّ الْحَيَاءِ، أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَتَذْكَرَ الْمَوْتَ وَالْبَلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ». قال: حديث غريب^(٤).

(١) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (ص ١٨٨، ١٨٩) ط. دار الكتب العلمية سنة ١٤٠٠هـ.

(٢) كما جاء في حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا نبي الله! عورائنا ما تأتي منها وما نَذَر؟ قال: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ» قلت: يا رسول الله! إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ فَلَا يَرَاهَا»، قال: قلت: يا نبي الله! إذا كان أحدنا خالياً؟ قال: «فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ»، وفي رواية: «فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْهُ النَّاسُ».

وإسناده حسن، رواه أحمد (٣/٥، ٤)، والترمذي (٢٧٦٩ - ٢٧٩٤)، وغيرهما.

(٣) أخرجه البخاري في «الأنبياء» (٤٣٦/٦)، وفي «التفسير» مختصراً (٥٣٤/٨) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيًّا سَتِيرًا لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاهُ مِنْهُ، فَأَذَاهُ مَنْ أَذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَسْتَرُ هَذَا التَّسْتَرُ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ: إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أَذَرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ...» الحديث.

(٤) حديث حسن: رواه الترمذي في «صفة القيامة» (٢٤٥٨)، وأحمد (٣٨٧/١)، وأبو يعلى (٨/٤٦١)، والحاكم (٣٢٣/٤)، والبيهقي في «الشعب» (٧٧٣٠/٦)، (١٠٥٦١/٨)، والبخاري في «شرح السنة» (٢٣٤/١٤)، وفي سننه: الصباح بن محمد الأحمسي الكوفي، ضعيف. لكن له طريق آخر، رواه الطبراني في «الكبير» (١٨٨/١٠)، وفي «الصغير» (١٧٧/١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٠٩/٤) يتقوى به.

وله شاهد مرسل، انظر تعليقنا على كتاب: «الورع» لابن أبي الدنيا رقم (٥٩).

فمن كثر من الله حيأؤه انقبضت نفسه عن مجاهرته بالعصيان، إذ علمه معه في كل مكان فمن عصاه فقد جاهره، ثم مهما أفسى معصيته في الخلق فعلاً وقولاً فقد أعظم المجاهرة، إذ من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله، ولذلك كان الحياء الغريزي محموداً في العبد لكونه منقبضاً به عن مجاهرة الخلق فيما يُنكرونه من الفعل.

وفي البخاري عن أبي مسعود قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(١).

وعن ابن عمر مرَّ النبي ﷺ على رجلٍ وهو يعاتبُ في الحياء، يقول: إِنَّكَ تستحي حتى كأنه يقول: قد أضرب بك، قال رسول الله ﷺ: «دَعِه! فَإِنَّ الحياءَ مِنَ الإِيْمَانِ»^{(٢)(٣)}.

٥ - والواقحة مذمومةٌ بكل إنسان، إذ هي انسلاخٌ من الإنسانية.

وحقيقتها: لجاج النفس في تعاطي القبيح.

واشتقاقه: من حافرٍ وقَاحٍ؛ أي: صُلْب.

وبهذه المناسبة قال الشاعر:

يا ليت لي من جلد وجهك رِفْعَةً فأقْدُ منها حَافِراً للأشهبِ
وما أصدق قول الشاعر:

صَلَابَةُ الْوَجْهِ لَمْ تَغْلُبْ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا تَكَامَلَ فِيهِ الشَّرُّ وَاجْتَمَعَا^(٤)

(١) رواه البخاري في «الأنبياء» (٥١٥/٦)، وفي «الأدب» (٥٢٣/١٠).

وقوله: «من كلام النبوة الأولى»؛ أي: مما اتفق عليه الأنبياء.

وقوله: «فاصنع ما شئت» هو أمر بمعنى الخبر، أو هو للتهديد؛ أي: اصنع ما شئت فإن الله يجزيك، أو معناه: انظر إلى ما تريد أن تفعله فإن كان مما لا يُستحي منه فافعله، وإن كان مما يستحي منه فدعه. «الفتح» (٥٢٣/٦).

وقد قال أبو عبيد في «غريب الحديث» (٣١/٣، ٣٢): إنما وجهه عندي أنه أراد بقوله: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» إنما هو من لم يستح صَنَعَ ما شاء، على جهة الذم لترك الحياء، ولم يُرد بقوله: «فاصنع ما شئت» أن يأمر بذلك أمراً، وهذا جائز في كلام العرب أن يقول: افعل كذا وكذا، وليس يأمره، ولكنه أمر بمعنى الخبر، ألم تسمع حديث النبي ﷺ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»؛ أي: كان له مقعد من النار، إنما هي لفظة أمر على معنى الخبر وتأويل الجزاء، وإنما يراد من الحديث أنه يحث على الحياء ويأمر به ويعيب تركه. اهـ.

(٣) «الكتاب الأسنى» (٢/ ورقة ٤٢٣ أ - ب).

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٤) «الدرعية» (ص ١٨٨) للراغب.

السُّتِير

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١٣)

* المعنى اللغوي:

سَتَرَ الشيءَ يَسْتُرُهُ وَيَسْتُرُهُ سِتْرًا وَسِتْرًا: أخفاه.
وَالسَّتْرُ - بالفتح -: مصدر سَتَرْتُ الشيءَ أَسْتُرُهُ: إذا غطيته، فاستتر هو.
وَسَتَّرَ؛ أي: تَغَطَّى.
ورجلٌ مَسْتُورٌ وَسَتِيرٌ؛ أي: عَفِيفٌ، والجارية سَتِيرَةٌ.
وَالسَّتْرُ معروف: ما سُتِّرَ به، والجمع أَسْتَارٌ وَسُتُورٌ وَسُتْرٌ. وَالسَّتْرُ: الثُّرس.
وَالسُّتْرَةُ: ما اسْتَتَرَتْ به من شيءٍ كائناً ما كان^(١).

* وروده في الحديث الشريف:

١ - ورد في حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالبراز بلا إزار، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﻻ يَحِبُّ سَتِيرٌ، يَحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتِرْ»^(٢).
وللسَّتِيرَ روايتان: إحداهما: كسر السين وتشديد التاء مكسورة.
والثانية: فتح السين وكسر التاء مخففة^(٣).

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال البيهقي: وقوله: «ستير» يعني: أنه سَاتَرٌ يَسْتُرُ على عباده كثيراً، ولا يَفْضَحُهُمْ في المَشَاهِدِ.

كذلك يحبُّ من عباده السَّتْرَ على أنفسهم، واجتناب ما يَشِينُهُمْ، والله أعلم^(٤).

(١) «الصحاح» (٦٧٦/٢)، و«اللسان» (١٩٣٥/٣)، و«المفردات» (ص ٢٢٣)، مادة «ستر».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: حاشية سنن أبي داود (٣٠٢/٤)، و«مختصر السنن» (١٥/٦) للحافظ المنذري بتحقيق أحمد شاكر ومحمد الفقي رحمهما الله تعالى.

(٤) «الأسماء والصفات» (ص ٩١).

وقال ابن الأثير: «إن الله حيي ستير يحب الحياء والستر»: ستير: فعيل بمعنى فاعل؛ أي: من شأنه وإرادته حبُّ السَّتر والصَّون»^(١).
وقال ابن القيم^(٢):

وهو الحيي فليس يَفْضَحُ عَبْدَهُ عند التَّجَاهِرِ منه بِالْعِضْيَانِ
لكنه يُلْقِي عليه سِتْرَهُ فهو السَّتِيرُ وصَاحِبُ الغُفْرَانِ
وقال المُنَاوِي: «ستير» بالكسر والتشديد، أي: تاركٌ لحب القبائح، سائر
للعيوب والفضائح، فعيل بمعنى فاعل.
وجَعَلُهُ بمعنى مفعول؛ أي: مستورٌ عن العيون في الدنيا، بعيدٌ من السَّوْق، كما لا
يَخْفَى على أهل الدَّوْق»^(٣).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - إن الله تعالى سِتِيرٌ يحبُّ السَّتر والصَّون، فيستر على عباده الكثير من الذنوب
والعيوب، ويكره القبائح والفضائح والمجاهرة بها.

٢ - وقد أمر تبارك وتعالى بالسَّتر، وكره المفاخرة بالمعصية، أو مجرد محبة
ذكرها وشياعها بين المؤمنين.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

أي: الذين يريدون ويقصدون أن تَنْتَشِرَ الفاحشة في أهل الإيمان وتفشو فيهم،
والفاحشة: هي الفعلة القبيحة، قيل: هي الزنا، وقيل: الرمي بالزنا، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِي الدُّنْيَا﴾ مما يصيبهم من البلاء كالشلل والعمى ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ من عذاب النار
ونحوه.

وفي الآية دليل: على أن أعمال القلب السيئة؛ كالحقد والحسد ومحبة شيوع
الفاحشة، يُؤَاخِذُ بها العبد إذا وَطَّنَ نفسه عليها^(٤).

وأخبر الرسول ﷺ أن المجاهر بالمعاصي لا يُعَافَى منها فقال: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى
إِلَّا الْمَجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ

(١) «النهاية» (٢/ ٣٤١).

(٢) «النونية» (٢/ ٢٢٧) بشرح أحمد بن عيسى.

(٣) «فيض القدير» (٢/ ٢٢٨).

(٤) انظر: «روح المعاني» (١٨/ ١٢٢)، وغيره.

فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه^(١).

قال الكرمانى: «ومحصل الكلام: كل واحد من الأمة يُعفى عن ذنبه، ولا يؤاخذ به إلا الفاسق المعلن»^(٢).

وقال ابن بطلال: في الجهر بالمعصية استخفاف بحق الله ورسوله وبصالحى المؤمنين، وفيه ضرب من العناد لهم، وفي الستر بها: السلامة من الاستخفاف؛ لأن المعاصى تذلل أهلها، من إقامة الحد عليه إن كان فيه حد، ومن التعزير إن لم يوجب حداً، وإذا تمحّض حق الله فهو أكرم الأكرمين، ورحمته سبقت غضبه، فلذلك إذا ستره في الدنيا لم يفضحه في الآخرة والذي يُجاهر يفوته جميع ذلك^(٣).

٣ - وأما المؤمن فإنه لو وقع في معصية أو تقصير في واجب بالغ في الستر على نفسه، كما ورد عن بعض السلف: أنه خرج إلى الصلاة فاستقبله الناس خارجين من المسجد، فغطى وجهه ورجع.

وجاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً سأله: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: «يذنب أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه، فيقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، ويقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقرّره ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا، فأنا أغفرها لك اليوم»^(٤).

وفي رواية: «فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على الله»^(٥).

وقد جاءت البشارة بذلك للمؤمنين: أن من ستر الله عيبه في الدنيا، فإنه سيستره في الآخرة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يستر الله على عبد في الدنيا، إلا ستره الله يوم القيامة»^(٦).

(١) سبق تخريجه. (٢) «الفتح» (١٠/٤٨٦).

(٣) المصدر السابق (١٠/٤٨٧).

(٤) رواه البخاري في «الأدب» (١٠/٤٨٦)، وفي «التوحيد» (١٠/٤٧٥).

(٥) رواها البخاري في «المظالم» (٥/٩٦)، وفي «التفسير» (٨/٣٥٣)، ومسلم في «التوبة» (٤/٢١٢٠).

(٦) رواه مسلم في «البر والصلة والأدب» (٤/٢٠٠٢).

٤ - كما حثَّ ﷺ على الستر على عباد الله، ورغب في ذلك لموافقته رضا مولاه، وصِفَةً خالفه، فقال: «... وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

ولما جاء رجل إليه ﷺ فقال: يا رسول الله، إني عالجْتُ امرأةً في أقصى المدينة، وإني أصبْتُ منها ما دون أن أَمْسُهَا، فأنا هذا فاقض فيَّ ما شئت، فقال له عمر: لقد سَتَرَكُ الله، لو سترتَ على نفسك قال: فلم يَرُدَّ النبي ﷺ شيئاً، فقام الرجل فانطلق، فأَتبعه النبي ﷺ رجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] فقال رجلٌ من القوم: يا نبي الله، هذا له خاصة؟ قال: «بل للناس كافة»^(٢).

وسكوته ﷺ على مقولة عمر دليل رضاه ومحبته لها، إذ هو لا يُقر أحداً على باطل كما هو معلوم.

ونهى عليه الصلاة والسلام عن تتبع عورات المسلمين والبحث عنها وكشفها، فقال: «يا معشرَ من آمن بلسانه ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فإنه مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ، يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»^(٣).

٥ - وكان من دعائه ﷺ في هذا الباب: ما حفظه ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ يَدْعُ هؤلاء الدعوات حين يُمسي وحين يُصبح: «اللهم إني أَسْأَلُكَ العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أَسْأَلُكَ العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللهم استُرْ عوراتي وآمِنْ روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وشمالي، ومن فوقِي، وأعوذُ بعظمتك أن أَغْتَالَ من تحتي»^(٤).

تنبيه: جرى على السنة كثير من الناس اسم «ساتر» فيقولون: يا ساتر، ولم يرد هذا الاسم في سنة صحيحة - فيما أعلم - فينبغي أن يقال: يا سَتِير، فتنبه!

(١) رواه البخاري في «المظالم» (٩٧/٥)، ومسلم في «البر والصلة» (١٩٩٦/٤) من حديث سالم بن عبد الله عن أبيه مرفوعاً، وأوله: «المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ...».

(٢) رواه مسلم في «التوبة» (٢١١٦/٤) من حديث عبد الله ﷺ.

(٣) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٤٢٠/٤، ٤٢١)، وأبو داود (٤٨٨٠/٥) عن الأسود بن عامر: حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن سعيد بن عبد الله بن جريج عن أبي برزة الأسلمي مرفوعاً به.

وسنده حسن، سعيد بن عبد الله صدوق ربما وهم، قاله الحافظ.

(٤) حديث صحيح. سبق تخريجه.

القَابِضُ - البَاسِطُ

جَلَّ جلاله وتقدَّست أَسْمَاؤه

(١٤ - ١٥)

* المعنى اللغوي:

قَبَضْتُ الشيءَ قَبْضًا: أَخَذْتَهُ.
وَالْقَبْضُ: خِلافُ الْبَسْطِ.
ويقال: صار الشيء في قبضتك؛ أي: في مِلْكِكَ.
والانقباض: خلاف الانبساط.
وَالْقَبْضُ أَيْضًا: الْأَخْذُ بِجَمِيعِ الْكَفِّ، وَالْقَبْضُ: بِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ.
وَالْقَبْضُ بِالْتَحْرِيكِ: مَا قُبِضَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْغَنَائِمِ وَغَيْرِهَا.
وَقُبِضَ الرَّجُلُ: مَاتَ، فَهُوَ مَقْبُوضٌ^(١).
وقال الراغب: «فَقَبْضُ الْيَدِ عَلَى الشَّيْءِ جَمْعُهَا بَعْدَ تَنَاوُلِهِ.
وَقَبْضُهَا عَنِ الشَّيْءِ جَمْعُهَا قَبْلَ تَنَاوُلِهِ، وَذَلِكَ إِمْسَاكُ عَنْهُ.
وَمِنْهُ قِيلَ لِإِمْسَاكِ الْيَدِ عَنِ الْبَذْلِ: قَبْضٌ.
قال تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]؛ أي: يَمْتَنِعُونَ مِنَ الْإِنْفَاقِ»^(٢).
وَأَمَّا الْبَاسِطُ:
فَالْبَسْطُ نَقِيضُ الْقَبْضِ.
وَبَسَطَ الشَّيْءَ: نَشَرَهُ، وَبِالْصَّادِ أَيْضًا.
وَالْبَسْطَةُ: السَّعَةُ.
وَانْبَسَطَ الشَّيْءُ عَلَى الْأَرْضِ.
وَتَبَسَّطَ فِي الْبِلَادِ: أَي سَارَ فِيهَا طَوْلًا وَعَرْضًا.
وَالْبِساطُ: مَا يُبْسَطُ.

(١) «الصحاح» (٣/١١٠٠)، و«اللسان» (٥/٣٥١٢)، و«غريب الحديث» لأبي عبيد (٤/٤٦٨)،

و«اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص ٩٧).

(٢) «المفردات» (ص ٣٩١).

والبَسَاط: الأرض الواسعة.

ورجل بَسِيط اليدين: مُنْبَسِطٌ بالمعروف.

وَبَسَطَ يده: مَدَّها.

وَيَدٌ بَسِطٌ؛ أي: مُطْلَقَةٌ.

وفي قراءة عبد الله «بَلْ يَدَاهُ بِسْطَانٍ»؛ أي: مبسوطتان.

وفلانٌ بَسِيطُ الجسم: فيه سعة وامتداد وزيادة وطول، كما في قوله تعالى عن طالوت:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ^(١).

وقال الراغب: «وَبَسَطَ الكَفُّ يُسْتَعْمَلُ تَارَةً لِلطَّلَبِ نحو: ﴿كَبَسِطَ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ

فَاهُ﴾ [الرعد: ١٤].

وتارةً لِلأَخْذِ نحو: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وتارةً لِلصُّوْلَةِ والضَرْبِ، قال تعالى: ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ [المتحنة: ٢].

وتارةً لِلبَذْلِ والإِعْطَاءِ نحو: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] ^(٢).

* وروده في الحديث الشريف:

ورد في حديث أنس رضي الله عنه قال: غَلَا السَّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقالوا: يا

رسول الله، لو سَعَرْتَ، فقال: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ الْمُسَعِّرُ،

وإني لأرجو أن ألقى الله ولا يَطْلُبَنِي أَحَدٌ بِمَظْلَمَةٍ ظَلَمْتُهَا إِيَّاهُ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ» ^(٣).

وقد وردت فعلاً في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

[البقرة: ٢٤٥].

وفي أحاديث كثيرة، كقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ، لِيَتُوبَ مُسِيءَ النَّهَارِ،

وَيَبْسُطَ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ...» ^(٤).

(١) «الصحاح» (١١١٦/٣)، و«اللسان» (٢٨٢/١، ٢٨٤)، و«اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص ٩٩).

(٢) «المفردات» (ص ٤٦).

(٣) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١٥٦/٣، ٢٨٦)، وأبو داود في «البيوع» (٣٤٥١)، والترمذي في «البيوع» أيضاً (١٣١٤)، وابن ماجه (٢٢٠٠)، والدارمي (٢٤٩/٢)، وابن حبان (١١/٤٩٣٥)، وابن جرير (٣٧٢/٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٨٥)، وفي السنن (٢٩/٦) من طريق عن حماد بن سلمة عن ثابت وقتادة وحמיד عن أنس مرفوعاً به.

ورجاله ثقات رجال الشيخين، سوى حماد فمن رجال مسلم.

(٤) رواه مسلم في «التوبة» (٢١١٣/٤)، وأحمد (٣٩٥/٤، ٤٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري.

وقوله ﷺ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ...» الحديث^(١).

* معنى الاسمين في حق الله تعالى:

قال الزَّجَاجِي: «(القابض) اسم الفاعل من قَبَضَ فهو قابض، والمفعول مقبوض، وذلك على ضروب.

فأما في هذه الآية التي ذكر فيها هذا الحَرْف في سورة البقرة في قوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] فقالوا: تأويله: يُقْتَرَّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، ويتوسع على مَنْ يَشَاءُ على حسب ما يرى من المصلحة لعباده.

فَالْقَبْضُ هَا هُنَا: التَّقْتِيرُ والتَّضْيِيقُ.

والبسط: التَّوْسِيعَةُ في الرزق والإكثار منه.

فَاللَّهُ ﷻ (القابضُ الباسطُ)، يُقْتَرَّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَيُوسَّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ.

ومخرجُ ذلك من اللغة، أن أصلَ القبض: ضَمُّ الشيء المنبسط من أطرافه، فيَقْبِضُهُ القابضُ إليه أولاً أولاً حتى يَحُوزَهُ ويجمعه، والبسط: نَشْرُ الشيء المجتمع أو المنضم أو المطوي.

فمن قُبِضَ رزقه فقد ضَيِّقَ عليه، وَمَنْ بُسِطَ رزقه فقد فُسِحَ له فيه، وَوُسِّعَ عليه. ومن ذلك قيل: فلانٌ قَبِضٌ؛ أي: بخيل شديد كأنه لا يبسط كفه بخير إلى أحد، ولا يَسْمَحُ بذلك، وفلانٌ باسط الكف، وباسط الجاه، وإنما يُرَادُ به السخاء وبذله ماله وجاهه^(٢).

وقال في الباسط: «(الباسط) الفاعل من بسط يبسط فهو باسط، فالله ﷻ، كما ذكرنا، باسط رزق مَنْ أَرَادَ من عباده أن يوسع عليه، ومقتَرَّ عَلَى مَنْ أَرَادَ، كما يرى في ذلك من المصلحة لهم، وهو كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧].

فهذه الآية قد بَيَّنَّتْ لك معنى الباسط، وَبَيَّنَّتْ أيضاً أنه ﷻ إنما يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ على حسب ما يراه ﷻ من المصلحة لعباده.

و(الباسط) أيضاً: باسطُ الشيء الذي ليس بمفروش يبسطه ويفرشه، كما بَسَطَ الْأَرْضَ لِلْأَنْعَامِ، وَبَثَّ فِيهَا أَقْوَانَهُمْ^(٣).

وقال الحليمي: «ومنها (الباسط)، ومعناه: النَّاشِرُ فضله على عباده، يرزق

(١) سبق تخريجه في الكتاب.

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص ٩٧).

(٣) «اشتقاق الأسماء» (ص ٩٩).

ويوسّع ويجود ويُفْضَل ويُمَكَّن ويُخَوَّل، ويُعْطَى أكثر مما يحتاج إليه». قال: «ومنها (القابض): يطوي بره ومعروفه عمن يريد، ويُضَيِّقُ ويُقْتَرُّ أو يَحْرَمُ فَيَقْفَرُ.

ولا ينبغي أن يُدْعَى رَبَّنَا جل جلاله باسم: (القابض)، حتى يقال معه: (الباسط)»^(١).

وقال البيهقي: (القابض الباسط) هو الذي يوسّع الرزق ويقتره، يبسطه بجوده ورحمته، ويقبضه بحكمته.

وقيل: (القابض): الذي يقبض الأرواح بالموت الذي كتبه على العباد. و(الباسط): الذي بَسَطَ الأرواحَ في الأجساد»^(٢).

وقال الغزالي: «(القابض الباسط) هو الذي يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات، ويبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة.

ويقبض الصّدقات من الأغنياء، ويبسط الأرزاق للضعفاء، ويبسط الرّزق على الأغنياء حتى لا يبقى فاقة، ويقبضه عن الفقراء حتى لا يبقى طاقة.

ويقبض القلوب فيضيّقها بما يكشف لها من قلة مبالاته وتعاليه وجلاله، ويبسطها بما يتقرب إليها من بره ولطفه وجماله»^(٣).

وقال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى (القابض): هو الذي يمسك الرزق وغيره من الأشياء عن العباد بلطفه وحكمته ويقبض الأرواح عند الممات»^(٤).

وقال: «في أسماء الله تعالى (الباسط): هو الذي يبسط الرزق لعباده، ويوسّعه عليهم بجوده ورحمته، ويبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة»^(٥).

وقال قوام السنّة الأصبهاني: «ومن أسماء الله تعالى (القابض الباسط)، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْصُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ومعناه: يوسّع الرزق ويُقْتَرُّه، يبسطه بجوده، ويقبضه بعدله، على النّظر لعبده، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]»^(٦).

(١) «المنهاج» (٢٠٣/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٤، ٦٥)، والقرطبي في «الأسنى» (٢/ ورقة ٣٥٧ أ - ب).

(٢) «الاعتقاد» (ص ٥٧). (٣) «المقصد الأسنى» (ص ٥٢).

(٤) «النهاية» (٦/٤).

(٥) المصدر السابق (١٢٧/١)، ونقلهما عنه ابن منظور في «اللسان» ولم يشر إليه.

(٦) «الحجة في بيان المحجة» (١٤٠/١).

وقال السعدي: «(القابض الباسط): يقبض الأرزاق والأرواح، وَيَبْسُطُ الأرزاق والقلوب، وذلك تَبَعٌ لحكمته ورحمته»^(١).

* اقتران الاسمين:

الأدب في هذين الاسمين، أن يُذكرَا معاً؛ لأن تمام القُدرة بذكرهما معاً. ألا ترى أنك إذا قلت: إلى فلانِ قبضُ أمري وبَسْطُهُ، دَلَّاً بمجموعهما أنك تريد أن جميع أمرك إليه؟. وتقول: ليس إليك من أمري بَسْطٌ ولا قبض، ولا حَلٌّ ولا عقدٌ، أراد ليس إليك منه شيء.

قاله الزجاج^(٢).

وقال الخطابي: «قد يَحْسُنُ في مثل هذين الاسمين أن يُقَرَّنَ أحدهما في الذكر بالآخر، وأن يوصلَ به ليكون ذلك أنبأ عن القُدرة، وأدَلَّ على الحكمة، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَفِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وإذا ذكرتَ (القابض) مفرداً عن (الباسط)، كنتَ كأنك قد قَصَرْتَ بالصفة على المنع والحرمان.

وإذا أوصلتَ أحدهما بالآخر فقد جمعت بين الصفتين، مُنبِئاً عن وجه الحكمة فيهما».

ثم قال:

«ف (القابض الباسط): هو الذي يُوسِعُ الرزق ويُقْتِرُهُ، وَيَبْسُطُهُ بجوده ورحمته، وَيَقْبِضُهُ بحكمته، على النظر لعبده، كقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُزِيلُ يَقْدَرُ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧].

فإذا زاده لم يَزِدْهُ سَرَفاً وَخَرْقاً، وإذا نَقَصْهُ لم يَنْقُصْهُ عَدَمًا وَلَا بُخْلًا.

وقيل: القابض: هو الذي يَقْبِضُ الأرواح بالموت الذي كتبه على العباد»^(٣).

وقال ابن القيم^(٤):

هو قابِضٌ هو باسِطٌ هو خَافِضٌ هو رَافِعٌ بِالْعَدْلِ وَالْمِيزَانِ

قال الهراس في شرحه: «هذه الأسماء الكريمة من الأسماء المتقابلات التي لا

(٢) «تفسير أسماء الله الحسنى» (ص ٤٠).

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٠٣/٥).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٥٨).

(٤) «النونية» (٢٣٦/٢) بشرح أحمد بن عيسى.

يجوز أن يُفرد أحدهما عن قرينه، ولا أن يُثنى على الله ﷻ بواحدٍ منها إلا مقروناً بمقابله، فلا يجوز أن يُفرد (القابض) عن (الباسط)، ولا الخافض عن الرافع... إلخ.

قال: لأنَّ الكمال المطلق إنما يحصل بمجموع الوصفين.

فهو سبحانه القابض الباسط، يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات، ويبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة، ويقبض الصدقات من الأغنياء، ويبسط الأرزاق للضعفاء، ويبسط الرزق لمن يشاء حتى لا تبقى فاقة، ويقبضه عمن يشاء حتى لا تبقى طاقة.

ويقبض القلوب فيضيئها حتى تصير حرجاً كأنما تصعد في السماء، ويبسطها بما يفيض عليها من معاني بره ولطفه وجماله، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ^(١).

* من آثار الإيمان بهذين الاسمين:

١ - أن الله تعالى هو (القابض الباسط)، وهما من الطّي والنّشر، والتوسعة والتضييق، والأخذ والعطاء، وهو يتناول أموراً كثيرة، كما مرّ معنا في أقوال العلماء.

قال ابن الحصار: وهذان الاسمان يختصان بمصالح الدنيا والآخرة، قال الله العظيم: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧]. وذلك يتضمن قوام الخلق باللطف والخبرة، وحسن التدبير والتقدير، والعلم بمصالح العباد في الجملة والتفاصيل، وبحسب ذلك يُرسل الرياح، ويُسخر السحاب، فيمطر بلداً، ويمنع غيره، ويقل ويكثر ^(٢). وكذلك يُصرف جملة العوالم لجملة العالمين.

وقال بعض العلماء: إنّ أعظم البسط: بسط الرحمة على القلوب حتى تستضيء، وتخرج من وِصَر الذنوب، وهذا هو الشرح المذكور في قوله ﷻ: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. وقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

(١) «النونية» بشرح الهراس ﷺ (١٠٤/٢).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُمْ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨].

وضده المذكور في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فأما قوله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]. وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣].

إلى آخر المعنى، فليس بفتح عليهم ولا بسط لهم، وإنما حقيقته: مَكْرٌ بهم، واستدراجٌ لهم، لحرمانٍ شاء بهم.

كذلك ليس المذكور في قوله ﷺ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣].

وما ذَكَرَ من خطيئة آدم عليه السلام، وداود، وبلاء أيوب عليه السلام، وشبه ذلك ليس بقبضٍ في الحقيقة، لكن ذلك محنة عاجلة موصلة إلى جوده^(١) المتصل لهم في الآجل.

قال القرطبي معقباً: «قلت: وهذا من هذا العالم إشارة إلى أن ما أصاب المؤمن من محن الدنيا نعمة، وما أصاب الكافر من نعم الدنيا فتنة^(٢)».

٢ - وقال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضُ وَيَضْطُّ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]: «يعني تعالى ذكره بذلك: أنه الذي بيده قبضُ أرزاق العباد وبسطها دون غيره ممن ادعى أهل الشرك به أنهم آلهة، واتخذوه رباً دونه يعبدونه، وذلك نظير الخبر الذي روي عن رسول الله ﷺ... عن أنس قال: غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ قال: فقالوا: يا رسول الله، غلا السعر فأُسْعِرْ لنا، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ الْبَاسِطُ الْقَابِضُ الرَّازِقُ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللَّهَ لَيْسَ أَحَدٌ يَطْلُبُنِي بِمَظْلَمَةٍ فِي نَفْسٍ وَمَالٍ»^(٣).

قال أبو جعفر: «يعني بذلك ﷺ أن الغلاء والرخص والسعة والضيق بيد الله دون غيره، فكذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضُ وَيَضْطُّ﴾ يعني بقوله: ﴿يَقْضُ﴾ يُقْتَرُ بقبضه الرزق عمن يشاء من خلقه، ويعني بقوله: ﴿وَيَضْطُّ﴾ يوسّع ببسطه الرزق على من يشاء منهم، وإنما أراد تعالى ذكره بقبضه ذلك: حثُّ عباده المؤمنين الذين قد بسط

(١) في الأصل: «وجوده»! ولا معنى لها.

(٢) «الكتاب الأسنى» (٢/ ورقة ٣٥٧ ب، ١٣٥٨).

(٣) تقدم تخريجه قريباً.

عليهم من فضله فوسَّع عليهم من رزقه، على تَقْوِيَةِ ذَوِي الإِفْتَارِ منهم بماله، ومعونته بالإِنْفَاقِ عليه، وحَمُولته على النهوض لِقِتَالِ عدوه من المشركين - في سبيله - فقال تعالى ذكره: من يُقَدِّمُ لِنَفْسِهِ ذُخْرًا عِنْدِي بِإِعْطَائِهِ ضِعْفَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، وأهل الحاجة منهم ما يستعين به على القتال في سبيلي فأضاعف له من ثوابي أضعافاً كثيرة مما أعطاه وقَوَّاهُ به، فإنني أنا المُوسِّعُ الذي قبضْتُ الرِّزْقَ عَمَّنْ نَدَبْتُكَ إِلَى معونته وإِعْطَائِهِ، لأَبْتَلِيهِ بِالصَّبْرِ على ما ابْتَلَيْتَهُ به، والذي بَسَطْتُ عَلَيْكَ لَأَمْتَحِنَكَ بِعَمَلِكَ فيما بَسَطْتُ عَلَيْكَ فَأَنْظِرْ كيف طاعتكَ إِيَّاي فيه؟ فَأُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ على قَدْرِ طَاعَتِكُمْ لِي فيما ابْتَلَيْتُكُمْ فيه وامْتَحَنْتُكُمْ فيه، مِنْ غِنَى وَفَاقَةٍ، وَسَعَةٍ وَضِيقٍ، عِنْدَ رَجُوعِكُمْ إِلَيَّ فِي آخِرَتِكُمْ وَمَصِيرِكُمْ إِلَيَّ فِي مَعَادِكُمْ»^(١).

٣ - ثم حَذَّرَ الله تعالى من استعمال ما بَسَطَ من الرِّزْقِ في معاصيه فقال: ﴿وَالْيَهُ تَرْجِعُونَ﴾ يعني تعالى ذكره بذلك: وإلى الله معادكم أيها الناس، فاتقوا الله في أنفسكم أَنْ تُضَيِّعُوا فَرَائِضَهُ، وتعدوا حدوده، وَأَنْ يَعمَلَ مَنْ بَسَطَ عَلَيْهِ مِنْكُمْ فِي رِزْقِهِ بغير ما أَدْنَى لَهُ بِالْعَمَلِ فِيهِ رُبُّهُ، وَأَنْ يَحْمَلَ بِالْمَقْتَرِ مِنْكُمْ فَيَقْبِضَ عَنْهُ رِزْقَهُ إِقْتَارَهُ على معصيته، والتقدم على ما نَهَاهُ، فيستوجب بذلك منه - بمصيره إلى خالقه - ما لا قِبَلَ لَهُ بِهِ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ.

وكان قتادة يتأول قوله: ﴿وَالْيَهُ تَرْجِعُونَ﴾: وإلى التراب ترجعون^(٢).

٤ - فينبغي لمن امتن الله عليه ببسطة في المال أو العلم أو الجسم أو الجاه، أَنْ يَتَفَضَّلَ على عِبَادِ الله تعالى، كما تَفَضَّلَ اللهُ عليه وأحسن، فإن هذا من شكر هذه النعم.

ويجب على من ضيق عليه في شيء من ذلك أَنْ لَا يَلْجَأَ إِلَّا إِلَى (القابض الباسط) الذي يملك ما يتمنى ويريد، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ بَعْدَهُ سُبْحَانَهُ وَهُوَ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا. قال القرطبي: «فيجب على كل مكلف أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ لَا قَابِضَ وَلَا بَاسِطَ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ، هو الذي يَقْبِضُ الْجَمِيعَ وَيَبْسِطُهُ، وهو الذي يَبْسِطُ الْقُلُوبَ وَالْأَلْسِنَةَ وَالْأَيْدِي وَسَائِرَ الْأَسْبَابِ.

فإن كُنْتَ مَبْسُوطَ الْقَلْبِ بِالْمَعَارِفِ، وَالْحَقِيقَةِ وَالْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ، فَابْسِطْ بِسَاطَكَ، وَابْسِطْ وَجْهَكَ، وَاجْلِسْ لِلنَّاسِ حَتَّى يَقْتَبِسُوا مِنْ ذَلِكَ النُّبْرَاسِ.

(١) «جامع البيان» (٣٧٢/٢).

(٢) المصدر السابق (٣٧٣/٢)، وما ذكره عن قتادة رواه عنه بعد ذلك بسند حسن.

وإن كنت ذا بسطة في الجسم، فابسطه في العبادة التي تُفضي بك إلى السعادة، وفي الصَّولة على الأعداء، بما حَوَّلَتْ من المَمَّةِ والشُّدةِ.

وإن كنت ذا بسط في المال، فابسط يدك بالعطاء، وأزل ما على مالك من الغطاء، ولا تُوكي^(١) فيوكي الله عليك، ولا تُحصي فيحصي الله عليك.

وإن كنت لم تتلَّ حظاً من هذه البَسَطَاتِ فابسط قلبك لأحكام ربِّك، ولسانك لذكره وشكره، ويدك لبذل الواجبات عليك، ووجهك للخلق، كما قال ﷺ في بذل المعروف: «فإن لم تجدْ فالق أخاك بوجه طلقٍ» ويروى: «طلق».

ولقد أحسنَ القائل:

بُنَيَّ إِنَّ الْبِرَّ شَيْءٌ هَيْنٌ وَجَهٌ طَلِيقٌ وَلِسَانٌ لَيِّنٌ^(٢)

٥ - ما ورد في النصوص السابقة من إثبات القبض والبسط لله تعالى، هو من الأدلة الكثيرة التي تؤيد ما ذهب إليه أهل السنَّة والجماعة من إثبات صفة «اليد» لله جل شأنه على ما يليق بذاته سبحانه من غير تمثيل، إذ هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وذلك أن القَبْضَ والبسط قد ورد إضافتهما إلى أشياء محسوسة تُقبض باليد الحقيقية، ولا يصح حملها على القبض والبسط المعنوي، كقوله جلَّ ذكره: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَطْوِي اللهُ ﷻ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهَا بِيَدِهِ الْيَمْنَى ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَارُونَ؟ أَيْنَ الْمَتَكَبِرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَارُونَ؟ أَيْنَ الْمَتَكَبِرُونَ؟»^(٣).

وعن عبد الله بن مسعود قال: جاء حَبْرٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! أو يا أبا القاسم! إن الله تعالى يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إصْبَعٍ، والأرضين على إصْبَعٍ، والجبال والشجر على إصْبَعٍ، والماء والثرى على إصْبَعٍ، وسائر الخلق على إصْبَعٍ، ثم يهْزُنَ فيقول: أنا الملك أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما

(١) من الوكاء وهو رباط القرية؛ أي: لا تمنع العطاء فيمنع الله عنك عطاءه.

(٢) «الكتاب الأسنى» (٢/ ورقة ٣٥٨ ب).

(٣) سبق تخريجه.

قال الحبر، تصديقاً له، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتَاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] (١).

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَالْأَبْيَضُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ» (٢).

وعن أبي نضرة قال: إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له: أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي، فقالوا له: ما يبكيك؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ: «خُذْ مِنْ شَارِبِكَ، ثُمَّ أَقْرِهْ حَتَّى تَلْقَانِي»، قال: بلى، ولكنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ قَبْضَةً بِيَمِينِهِ وَقَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ وَلَا أَبَالِي، وَقَبَضَ قَبْضَةً أُخْرَى بِيَدِهِ الْأُخْرَى جَلًّا وَعَلَا فَقَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ وَلَا أَبَالِي، فَلَا أُدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ أَنَا؟» (٣).

وغيرها من الأحاديث.

وقد بيّن الإمام أبو بكر بن خزيمة في كتاب «التوحيد» أن ذكر القبضة في الأحاديث دليل على إثبات صفة اليد لربنا سبحانه.

فقال: «باب ذكر صفة آدم عليه السلام».

والبيان الشافي أنه خلقه بيده لا بنعمته، على ما زعمت الجهمية المعطلة، إذ قالت: إن الله يقبض بنعمته! من جميع الأرض قبضةً فيخلق منها بشراً.

وهذه السُّنَّة السادسة في إثبات اليد للخالق الباري جل وعلا.

(١) سبق تخريجه في الموضع السابق.

(٢) حديث صحيح: أخرجه ابن سعد (٢٦/١)، وأحمد (٤٠٠/٤، ٤٠٦)، وأبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٠٤/٥)، وابن جرير في تفسيره (١٧٠/١)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص ٦٤)، وابن حبان (١١/٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/١٠٤، ٨/١٣٥)، والحاكم (٢/٢٦١، ٢٦٢)، والبيهقي في «الأسماء» (ص ٣٢٧، ٣٨٥) وفي «السنن» (٣/٩) من طرق عن عوف الأعرابي عن قسامة بن زهير المازني البصري عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً به. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وهو كما قالوا.

(٣) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٤/١٧٦، ١٧٧، ٦٨/٥) عن حماد بن سلمة: حدثنا الجريري عن أبي نضرة به.

قال الهيثمي في «المجمع» (١٨٦/٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وهو كما قال.

وله طرق انظرها في: «إبطال التأويلات» (١/١٧٥).

ثم ذكر حديث أبي موسى الأشعري المتقدم^(١).

وقال الشيخ الهراس معلقاً على تأويل الجهمية القبض بالنعمة: وهذا تأويل باطل! فإن القبض إنما يكون باليد الحقيقية لا بالنعمة! فإن قالوا: إن الباء هنا للسببية؛ أي: بسبب إرادته الإنعام.

قلنا لهم: وبماذا قَبَضَ؟ فإنَّ القبض محتاجٌ إلى آلةٍ فلا مناص لهم لو أنصفوا من أنفسهم، إلا أنْ يعترفوا بنبوت ما صرَّح به الكتاب والسنة^(٢).

وقال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه «الرد على بشر المريسي العنيد»: «وأما دعواك أيها المريسي في قول الله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] فزعمت أن تفسيرها عندك: رزقاه رزقٌ موسع ورزقٌ مقتور، ورزقٌ حلال ورزقٌ حرام.

فقوله: يده عندك رزقاه! فقد خرجت بهذا التأويل من حدِّ العربية كلها، ومن حدِّ ما يفقهه الفقهاء، ومن جميع لغات العرب والعجم، فمن تلقيته؟ وعمن رَوَيْته من أهل العلم بالعربية والفارسية؟

وإنك جئت بمحال لا يَعْقِلُهُ أعجمي ولا عربي، ولا نعلم أحداً من أهل العلم والمعرفة سبقك إلى هذا التفسير، فإن كنت صادقاً في تفسيرك هذا فأثره عن صاحب علم أو صاحب عربية، وإلا فإنك مع كفرك بها من المدلسين.

وإن كان تفسيرهما عندك ما ذهبت إليه فإنه كذب محالٌّ، فضلاً عن أن يكون كفراً؛ لأنك ادعيت أن الله رزقاً موسعاً، ورزقاً مُقْتَرّاً، ثم قلت: إن رزقيه جميعاً مبسوطتان، فكيف يكونا مبسوطين، والمقتور أبداً في كلام العرب غير مبسوط؟ وكيف قال الله: إن كليهما مبسوطتان، وأنت تزعم أن إحداهما مقتورة؟

فهذا أولُ كذبك وجهالتك بالتفسير، وقد كفانا الله ورسوله مؤنة تفسيرك هذا بالناطق من كتابه، وبما أخبر الله على لسان رسوله.

أما الناطق من كتابه فقوله: ﴿مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِإِيدِيَّ﴾ [ص: ٧٥]. وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

وقوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقوله: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩].

وقوله: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

(٢) المصدر السابق.

(١) «التوحيد» (ص ٦٣، ٦٤).

وقوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

فهل يجوز لك أن تتأول في جميع ما ذكرنا من كتابه أنه رزقاه، فتقول: برزقه الخير! وبرزقه الفضل! وبرزقه الملك! ولا تقدموا بين رزق الله ورسوله!!
وأما المأثور من قول رسول الله ﷺ فقوله: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»^(١).

فتفسير قول النبي ﷺ في تأويلك أيها المريسي: أنهم على منابر من نور عن رزقي الرحمن، وكِلْتَا رَزْقِهِ يَمِينٌ!!.

وعن ابن عمر قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَأْخُذُ الْجَبَّارُ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدَيْهِ - وَقَبْضُ كَفَيْهِ أَوْ قَالَ: يَدَيْهِ - فَجَعَلَ يَقْبِضُهَا وَيُسْطُهَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْجَبَّارُ، أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»، ويميل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن شماله حتى نظرتُ إلى المنبر أسفل شيء منه حتى إني لأقول: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟»^(٢).

فيجوز أيها المريسي أن تتأول هذا الحديث أنه يأخذ السموات والأرض برزقيه! مَوْسُوعَهُ وَمَقْتُورَهُ، وحلاله وحرامه! وما أراك إلا وستعلم أنك تتكلم بالمُحَال، لَتُغَالِطَ بِهَا الْجَهَالُ، وتروج عليهم الضلال. وقول النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» و«نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا...» الحديث^(٣).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْمُلُوكُ؟»^(٤).

أفيجوز أن يطوي الله السموات بأحد رزقيه؟ فأيهما الموسع عندك من المقتور؟ وأيهما الحلال من الحرام؟ لأن النبي ﷺ قال: «كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ». وادعيت أنت أن أحدهما موسع والآخر مقتور.

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، يَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٥).

أفيجوز أن يقال: يبسط حلاله بالليل وحرامه بالنهار ليتوب المسيئان؟ فلو أنك إذ أردت معاندة الله ورسوله ومخالفة أهل الإسلام احتججت بكلام أستر

(١) رواه مسلم (١٤٥٨/٣)، وأحمد (١٦٠/٢) من حديث ابن عمرو ؓ.

(٢) سبق تخريجه. (٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه. (٥) سبق تخريجه قريباً.

عورة، وأقل استحالة من هذا، لكان أنجع لك في قلوب الجاهل، من أن تأتي بشيء لا يشك عاقل ولا جاهل في بطوله واستحالة^(١).

٦ - قد ثبت عن النبي ﷺ أنه دعا ربّه وأثنى عليه، بذكر قبضه وبسطه وتفردّه في ذلك سبحانه.

فعن عبيد بن رفاعة الزرقني عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ: «اسْتَوُوا حَتَّى أَتِيَّ عَلَى رَبِّي» فصاروا خلفه صفوفاً فقال: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضَلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرَّبَ لِمَا بَاعَدْتَ وَلَا مُبَاعَدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللَّهُمَّ ابْسِطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٢) وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِدُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا، وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَالْحَقْنَا بِالصَّالِحِينَ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رِسْلَكَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، إِلَهَ الْحَقِّ^(٣).



(١) رد الدارمي على المريسي (ص ٣٠ - ٣٣) باختصار.

(٢) كذا عند البزار، وعند أحمد: «العية»! وفي المجمع: «الغلبة»!

(٣) إسناده حسن: رواه أحمد (٤٢٤/٣)، والبزار (١٨٠٠ - زوائد) عن مروان بن معاوية: حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكي عن عبيد بن رفاعة الزرقني عن أبيه مرفوعاً به.

قال البزار: لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث رفاعة ولا رواه عن عبيد إلا عبد الواحد (وقع في المطبوعة: عبد الرحمن، وهو خطأ) وهو مشهور لا بأس به روى عنه أهل العلم.

قلت: وهو عبد الواحد بن أيمن أبو القاسم المكي وثقه ابن معين، وقال أبو حاتم: صالح الحديث، وقال النسائي: ليس به بأس، وهو من رجال الصحيحين.

وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد والبزار واقتصر على عبيد بن رفاعة عن أبيه وهو الصحيح، وقال: «اللهم قاتل كفر أهل الكتاب»، ورجال أحمد رجال الصحيح. اهـ.

وعبيد بن رفاعة تابعي ثقة وهو من رجال الأربعة، ومروان قال مرة: عبيد الله بن عبد الله الزرقني، عند أحمد، والصواب الأول، والله أعلم.

السَّيِّدُ جَلَّ جلاله وتقدَّست أَسْمَاؤه

(١٦)

* المعنى اللغوي:

سَادَ قومه يَسُوْدُهُمْ سيادةً وَسُوْدَدَاً وَسَيَدُوْدَةً فهو سَيِّدُهُمْ، وهم سادةٌ، تقديره: فَعَلَهُ بالتحرّيك.

لأن تقدير سيد: فَعِيلٌ.

وقال أهل البصرة: تقدير سَيِّدٌ فَيَعِلُّ، وَجُمع على فَعَلَةٍ والسُّؤْدُد: الشَّرَف.

قال ابن شُمَيْل: السيد الذي فاق غيره بالعقل والمال والدَّفْع والنَّفْع، والمُعْطِي ماله في حقوقه، المُعِين بنفسه، فذلك السيد. وقال عكرمة: السَّيِّدُ الذي لا يَغْلِبُهُ غَضْبُهُ.

وقال أبو خَيْرَةَ: سُمِّيَ سيِّداً؛ لأنه يَسُوْدُ سِوَادَ النَّاسِ؛ أي: عَظَمَهُمْ. وقال الأصمعي: العرب تقول: السيد كلُّ مَقْهُورٍ مَغْمُورٍ بحلمه. وقيل: السيد الكريم.

وقال الفراء: السَّيِّدُ المَلِكُ، والسَّيِّدُ الرِّئِيسُ، والسَّيِّدُ السَّخِي، وسَيِّدُ العبد مولاه والأنثى من كل ذلك بالهاء، وسيد المرأة زوجها، وفي التنزيل: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا آلِبَابٍ﴾ [يوسف: ٢٥].

وسيدُ كل شيء: أَشْرَفُهُ وأَرْفَعُهُ^(١).

وقال الراغب: «السَّيِّدُ: المتولِّي للسَّوَادِ؛ أي: الجماعة الكثيرة، ويُنسب إلى ذلك فيقال: سَيِّدُ القوم، ولا يقال: سيد الثوب وسيد الفَرَسِ، ويقال: ساد القوم يَسُوْدُهُمْ.

ولما كان من شَرَطِ المتولِّي للجماعة أن يكون مهذَّبَ النَّفْسِ، قيل لكلِّ من كان

(١) «الصحاح» (٢/ ٤٩٠، ٤٩١)، و«اللسان» (٣/ ٢١٤٤، ٢١٤٥).

فاضلاً في نفسه: سَيِّدٌ، وعلى ذلك قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقوله: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ [يوسف: ٢٥] فسمي الزوج سيِّداً لسياسة زوجته، وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]؛ أي: وولاتنا وسائسنا^(١).

* وروده في الحديث الشريف:

جاء في حديث مُطَرِّف بن عبد الله بن الشَّخِير قال: قال أبي انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيِّدنا، فقال: «السَّيِّدُ اللهُ تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طَوْلاً، فقال: «قُولُوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يَسْتَجْرِبَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»^(٢).

* المعنى في حق الله تعالى:

قال الخطابي: «قوله: «السَّيِّدُ اللهُ» ويريد: أن السُّؤْدُ حَقِيقَةُ اللهِ ﷻ، وأن الخلقَ كُلَّهُم عِبْدٌ له»^(٣).

وقال الحلبي: «ومنها (السيد) وهو اسمٌ لم يأت به الكتاب، ولكنه مأثورٌ عن النبي ﷺ، فإنه روي عنه أنه قال لوفد بني عامر: «لا تقولوا: السيد فإن السيد الله». ومعناه: المحتاج إليه بالإطلاق.

فإن سيد الناس إنما هو رأسهم الذي إليه يرجعون، وبأمره يعملون، وعن رأيه يصدرون، ومن قوله يَسْتَهْدُونَ.

فإذا كانت الملائكة والإنس والجن خُلُقاً للباري جل ثناؤه، ولم يكن بهم غُنيَّة عنه في بدء أمرهم وهو الوجود، إذ لو لم يوجد لهم لم يوجدوا، ولا في الإبقاء بعد الإيجاد، ولا في العَوَارِضِ العارضة أثناء البقاء، كان حقاً له جل ثناؤه أن يكون سيِّداً، وكان حقاً عليهم أن يدعوه بهذا الاسم»^(٤).

وقال الأزهري: «وأما صفةُ الله جل ذكره بالسَّيِّدِ فمعناه: أنه مالك الخلق،

(١) «الراغب» (ص ٢٤٧).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٤/٤، ٢٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١١)، وأبو داود (٤٨٠٦/٥) واللفظ له، ومن طريقه البيهقي في «الأسماء» (ص ٢٢)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧) من طرق عن مطرف به.

قال الحافظ في «الفتح» (١٧٩/٥): ورجاله ثقات وقد صححه غير واحد.

(٣) «معالم السنن» بهامش مختصر السنن للمنذري (١٧٦/٧).

(٤) «المنهاج» (١٩٢/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداء والاختراع له، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٢٣).

وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيْدُهُ»^(١).

وقال ابن الأثير في قوله: «السيد الله»: «أي هو الذي تَحَقُّقُ له السيادة»^(٢).

وقال الأصبهاني: «ومن أسمائه تعالى: (السيد) وهذا اسم لم يأت به الكتاب، وإنما ورد في الخبر عن النبي ﷺ». ثم ذكر الخبر، وذكر نحوه من كلام الغزالي المتقدم^(٣).

وقال ابن القيم^(٤):

وهو الإلهُ (السَّيِّدُ) الصَّمَدُ الذي صَمَدَتْ إليه الخلق بالإدْعَانِ
الْكَامِلُ الأوصاف مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ وَكَمَالُهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانٍ
وقال: «(السيد) إذا أُطلق عليه تعالى فهو بمعنى: المَالِكِ والمولى والربِّ، لا
بالمعنى الذي يُطلق على المخلوق، والله ﷻ أعلم»^(٥).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - الله تبارك وتعالى هو (السَّيِّدُ) الذي قد كَمُلَ في سُؤْدُودِهِ، والشَّريف الذي قد كَمُلَ في شرفه، والعظيم الذي قد كَمُلَ في عَظَمَتِهِ، والحليم الذي قد كَمُلَ في حِلْمِهِ، والغني الذي قد كَمُلَ في غناه، والجَبَّارُ الذي قد كَمُلَ في جَبْرُوتِهِ، والعَالِمُ الذي قد كَمُلَ في عِلْمِهِ، والحكيم الذي قد كَمُلَ في حِكْمَتِهِ، وهو الذي قد كَمُلَ في أنواع الشَّرَفِ والسُّؤْدُودِ، وهذه صفاتٌ لا تنبغي إلا له وحده لا شريك له^(٦).

٢ - يجوز إطلاق هذا الاسم على المخلوق، فقد قال تعالى عن نبيه يحيى بن زكريا ﷺ: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

قال ابن الأنباري: «إن قال قائل: كيف سَمَّى الله ﷻ يحيى سيِّداً وحصوراً، والسَّيِّدُ هو الله، إذ كان مالك الخلق أجمعين، ولا مالك لهم سواه؟»

قيل له: لم يُرَدِّ بالسَّيِّد ههنا المالك، وإنما أراد الرئيس والإمام في الخير، كما تقول العرب: فلانٌ سيدنا؛ أي: رئيسنا والذي نُعَظِّمُهُ»^(٧).

ونحوه ما جاء في حديث مطرف السابق، إذ قالوا للنبي ﷺ: أنت سيدنا، فقال:

(١) «اللسان» (٣/٢١٤٤).

(٢) «النهاية» (٢/٤١٧).

(٣) «الحجة في بيان المحجة» (١/١٥٥، ١٥٦).

(٤) «الفوائد» (٣/٢١٣).

(٥) «النونية» (٢/٢٣١، ٢٣٢).

(٦) روي عن ابن عباس نحوه، انظر: آثار الإيمان بالصمد في الجزء الثاني من الكتاب.

(٧) «اللسان» (٣/٢١٤٥).

«السيد الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان».

قال أبو منصور الأزهري: «كره النبي ﷺ أن يُمدح في وجهه، وأحبّ التواضع لله تعالى، وجعلَ السيادة للذي ساد الخلق أجمعين، وليس هذا بمخالف لقوله لسعد بن معاذ حين قال لقومه الأنصار: «قوموا إلى سيدكم» أراد أنه أفضلكم رجلاً وأكرمكم. وأما صفة الله جلّ ذكره بالسيد فمعناه أنه مالكُ الخلق، والخلقُ كلُّهم عبيده.

وكذلك قوله: «أنا سيّدُ ولدِ آدم ولا فخر» أراد أنه أولُ شفيع وأولُ من يُفتح له بابُ الجنة، قال ذلك إخباراً عما أكرمه الله به من الفضل والسُّؤدد، وتحدثاً بنعمة الله عنده، وإعلاماً منه ليكونَ إيمانُهم به على حَسبه وموجبه.

ولهذا أتبعه بقوله: «ولا فخر» أي: إنّ هذه الفضيلة التي نلتها كرامةً من الله، لم أنلها من قِبَل نفسي، ولا بلغتُها بقوتي فليس لي أن أفتخر بها.

وقيل في معنى قوله لهم لما قالوا له: أنت سيدنا: «قولوا بقولكم»: أي: ادعوني نبياً ورسولاً كما سمّاني الله، ولا تُسموني سيّداً كما تُسمون رؤساءكم، فإنني لست كأحدِهم ممن يَسودُّكم في أسباب الدنيا»^(١).

وقال الخطابي: وإنما منعهم - فيما نرى - أن يدعوه سيّداً، مع قوله: «أنا سيد ولد آدم»، وقوله لبني قريظة^(٢): «قوموا إلى سيدكم» يريد سعد بن معاذ، من أجل أنهم قومٌ حديثٌ عهدهم بالإسلام، وكانوا يحسبون أن السيادة بالنبوة هي بأسباب الدنيا، وكان لهم رؤساء يعظمونهم، وينقادون لأمرهم، ويسمونهم السادات، فعلمهم الثناء عليه وأرشدتهم إلى الأدب في ذلك فقال: «قولوا بقولكم» يريد: قولوا بقول أهل دينكم وملتكم، وادعوني نبياً ورسولاً، كما سمّاني الله ﷻ في كتابه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، ولا تُسموني سيّداً كما تُسمون رؤساءكم وعظماءكم، ولا تجعلوني مثلهم فإنني لست كأحدِهم، إذ كانوا يَسودُّوكم بأسباب الدنيا، وأنا أسودُّكم بالنبوة والرسالة فسموني نبياً ورسولاً.

وقوله: «بعض قولكم» فيه حذفٌ واختصار، ومعناه: دعوا بعض قولكم واتركوه، يريد بذلك الاختصار في المقال، قال الشاعر:

(١) «المصدر السابق» (٣/٢١٤٤).

(٢) كذا جاء في المطبوعة وأشار المحققان إلى أنه هكذا وجد في نسختين خطيتين وصوابه: لبني الخزرج قبيلة سعد.

فبعض القول عاذلتي فإني سيكفيني التجارب وانتسابي وقوله: «لا يستجربنكم الشيطان» معناه: لا يتخذنكم جرياً، والجري: الوكيل، ويقال: الأجير أيضاً^(١).

وقال الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله تعالى: «اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على البشر، فمنعه قومٌ ونُقل عن مالك، واحتجوا بأنه ﷺ لما قيل له: يا سيدنا قال: «إنما السيد الله».

وجوّزه قومٌ واحتجوا بقول النبي ﷺ للأَنْصار: «قوموا إلى سيدكم»، وهذا أصح من الحديث الأول.

قال هؤلاء: السيد أحدٌ ما يُضاف إليه، فلا يقال لتميمي: إنه سيدٌ كندة، ولا يقال: لمالك إنه سيد البشر، قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم!.

وفي هذا نظر، فإنَّ السيد إذا أُطلق عليه تعالى فهو بمعنى: المالك والمولى والرب لا بالمعنى الذي يطلق على المخلوق، والله ﷻ أعلم^(٢).

ومما يؤيد جواز إطلاقه على المخلوق، قوله ﷺ: «إذا نصَّح العبدُ سيِّده وأحسن عبادة ربِّه، كان له أجره مرتين»^(٣).

وقوله: «لا يَقُلْ أحدُكم: أَطعم ربَّك، وَضَيَّ ربك، وَلِيَقُلْ: سيدي مولاي، ولا يَقُلْ أحدُكم: عبيدي أمتي، وَلِيَقُلْ: فتأي وفتاتي وغلامي»^(٤).

وقول عمر رضي الله عنه: «أبو بكر سيِّدنا، وأعتق سيِّدنا»؛ يعني: بلالاً^(٥).

(١) «معالم السنن» بهامش مختصر السنن (١٧٦/٧، ١٧٧).

تنبيه: لم يثبت لفظ السيادة للنبي ﷺ في التشهد ولا في الشهادة له بالرسالة في شيء من الأحاديث، كما استقرأ ذلك جماعة من المحققين، ومنهم الحافظ ابن حجر والقاسمي.

انظر: «معجم المناهي» للشيخ بكر أبو زيد (ص ١٨٩).

(٢) «الفوائد» (٢١٣/٣).

(٣) رواه البخاري في «العتق» (١٧٧/٥)، ومسلم في «الإيمان» (١٢٨٤/٣) من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) رواه البخاري (١٧٧/٥)، ومسلم في «الألفاظ من الأدب» (١٧٦٥/٤) من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري في «فضائل الصحابة» (٩٩/٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وقال الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر حديث «السيد الله»: «ويمكن الجمع بأن يُحمل النهي عن ذلك على إطلاقه على غير المالك، والإذن بإطلاقه على المالك. وقد كان بعض أكابر العلماء يأخذ بهذا ويكره أن يخاطب أحداً بلفظه أو كتابته بالسيد، ويتأكّد هذا إذا كان المخاطب غير تقي، فعند أبي داود والمصنف في «الأدب» من حديث بريدة مرفوعاً: «لا تَقُولُوا لِلْمَنَافِقِ: سَيِّدًا...» الحديث، ونحوه عند الحاكم^(١).



(١) «الفتح» (١٧٩/٥).

وحديث «لا تقولوا للمنافق...» في سنن أبي داود (٤٩٧٧)، والبخاري في «الأدب» (٧٦٠) وهو صحيح.

المُحْسِن

جَلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١٧)

* المعنى اللغوي:

الحُسْنُ: نقيض القُبْح، والجمع مَحَاسِن على غير قياس، كأنه جمع مَحْسَن. ويقال: رجل حَسَنٌ، وامرأة حَسَنَةٌ وحَسَناء وجمع الحَسَن: حِسَان. وحَسَنْتُ الشيءَ تَحْسِينًا: زَيَّيْتُهُ وأَحْسَنْتُ إليه وبه. وروى الأزهري عن أبي الهيثم أنه قال في قوله تعالى في قصة يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بَيَّ إِذْ أَخْرَجْنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ أي: قد أَحْسَنَ إِلَيَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ بِالْحُسْنِ﴾ (١) [الليل: ٦] قيل: أراد الجنة. وكذلك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِي وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله تعالى (١). والمحاسن في الأعمال ضد المساوئ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرْزُقُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] الذين يحسنون التأويل. وقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [لقمان: ٢٢]. قال ثعلب: هو الذي يتبع الرسول ﷺ. والمحاسن: المواضع الحسنة من البدن، يقال: فلانة كثيرة المحاسن. ووجهه مُحَسَّنٌ: حَسَنٌ، حَسَنَهُ الله تعالى (٢). وقال الراغب: «والإحسان يقال: على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يُقال: أَحَسَنَ إلى فلان. والثاني: إِحْسَانٌ في فعله، وذلك إِذَا عَلِمَ عِلْمًا حَسَنًا، أَوْ عَمِلَ عَمَلًا حَسَنًا.

(١) وهو تفسير الرسول ﷺ للآية، كما في حديث صهيب رضي الله عنه عند مسلم.

(٢) «الصحيح» (٢٠٩٩/٥)، و«اللسان» (٨٧٧/٢ - ٨٧٩).

وعلى هذا قول أمير المؤمنين عليه السلام: الناسُ أبناء ما يحسنون؛ أي: مَنسُوبون إلى ما يَعلمون، وما يعملونه من الأفعال الحسنة.

قال: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

فالإحسان فوق العدل، وذاك أن العدل هو أن يُعطي ما عليه ويأخذ ما له، والإحسان أن يُعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له.

فالإحسان زائد على العدل، فتحري العدل واجب، وتحري الإحسان نذْبٌ وتطوُّعٌ، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾

[النساء: ١٢٥].

وقوله: ﴿وَأَدَّاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ولذلك عَظَّم الله تعالى ثواب المحسنين فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[المنكيات: ٦٩]^(١).

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ

الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ١٠]^(٢).

* وروده في الحديث الشريف:

١ - ورد في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا حَكَمْتُمْ فَاْعْدِلُوا، وَإِذَا قُلْتُمْ فَأَحْسِنُوا، فَإِنَّ اللَّهَ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْإِحْسَانَ»^(٣).

٢ - وورد في حديث شدَّاد بن أوس قال: حفظت من رسول الله ﷺ اثنتين أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْإِحْسَانَ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا دَبَحْتُمْ

(١) في المطبوعة: «إِنَّ اللَّهَ مع المحسنين»، وهو خطأ!.

(٢) «المفردات» (ص ١١٩).

(٣) سنده حسن: رواه ابن أبي عاصم في «الدييات» (ص ٥٦)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢١٤٥)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٢١٣) من طرق عن محمد بن بلال التمار: ثنا عمران القطان عن قتادة عن أنس به.

عمران القطان هو ابن داود قال أحمد: أرجوه أن يكون صالح الحديث، وقال أبو داود: هو من أصحاب الحسن وما سمعت إلا خيراً، وقال النسائي: ضعيف، وقال الحافظ: صدوق بهم.

ومحمد بن بلال ذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به.

وقال الحافظ: صدوق يغرّب.

والحديث ذكره الألباني في «الصحيحة» (٤٧٠).

فأحسنوا الذَّبْحَ، وَلِيُجِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ثُمَّ لِيُخْرِجَ ذَبِيحَتَهُ»^(١).

* المعنى في حق الله تعالى:

قال القرطبي: «(المحسن) جل جلاله وتقدست أسماؤه، لم يرد في القرآن اسماً، وإنما ورد فعلاً، فقال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ومعناه راجع إلى معنى المُفْضِلِ وذو الفضل والمَنَّان والوَهَّاب»^(٢).

وقال: «(المُحْسِن) اسم فاعل من أحسن، ولا خفاء بإحسان الله تعالى إلى خلقه، ومَنَّهُ عليهم بما غَمَرَهُم من الإحسان والفضل والجود والإنعام»^(٣).

وقال ابن العربي: «وأما مُحْسِن ومُجْمِل ومُفْضِل، فلم يرد بها توقيف»^(٤) ولكنها ألفاظ كريمة المعاني ولا يسمَّى إلا بما سَمَّى به نفسه، أكثر من أن الفعل منها قد جاء، والتصريف لها قد وَرَدَ، قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وجاء في الحديث: «جميل»، وقيل: إنه بمعنى: مُجْمِل.

وجاء: ذو الفضل العظيم»^(٥).

وقال المناوي في قوله ﷺ: «إن الله تعالى محسن»: «أي: الإحسان له وصفٌ لازمٌ لا يخلو موجودٌ عن إحسانه طَرْفَةً عين، فلا بدَّ لكلِّ مكوِّن من إحسانه إليه بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد»^(٦).

* من آثار الإيمان بهذا الاسم:

١ - ربنا تبارك وتعالى هو المُحْسِن الذي غَمَرَ الخلق جميعاً بإحسانه وفضله،

(١) صحيح: رواه عبد الرزاق في مصنفه (٨٦٠٣)، ومن طريقه الطبراني في «الكبير» (٧/٧١٢١) عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن شداد به. ورجاله ثقات رجال الشيخين، سوى أبي الأشعث الصنعاني واسمه شراحيل بن آدة فمن رجال مسلم.

وأصله في صحيح مسلم، فقد رواه (٣/١٥٤٨) عن إسماعيل بن علية عن خالد الحذاء عن أبي قلابة به، بلفظ: «إن الله كتب الإحسان على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَةَ...» الحديث.

(٢) «الكتاب الأسنى» (٢/ورقة ٤١٤أ). (٣) «المصدر السابق» (٢/ورقة ٤١٤ب).

(٤) كذا قال! وقد مرَّ معك ثبوت الحديث في «المحسن».

(٥) «الكتاب الأسنى» (٢/ورقة ٤١٤أ). (٦) «فيض القدير» (٢/٢٦٤).

برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، لا غنى لهم عنه طرفة عين، ولا قيام لهم ولا بقاء إلا به سبحانه وبجوده وإنعامه، ولو غفل عن ذلك الغافلون، وجحد به الجاحدون، وأعرض عن شكره العاصون.

ولالأقليشي توسع جميل في بيان الجود والفضل والإحسان وأنواعه على الخلق، إذ يقول: «وذلك ينحصر في ثلاثة أقسام: قاعدة، وواسطة، ومُتممة.

• أما القاعدة: فتشتمل من الإحسان والمنّ على ثلاث شعب:

الأولى: إخراجهم من عدم إلى وجود، بمقتضى صفة الكرم والجود، وقد ذكّره بهذا في معرض الامتنان، فقال جل وعز: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

الشعبة الثانية: بعد خلقه تصويره في صورة آدم، وهي أحسن صور العالم، وقد امتنّ عليه بذلك في قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] إلى غير ذلك من الآي المتكررة في هذا النوع.

الشعبة الثالثة: جعله إياه عاقلاً لا معتوها ولا سفيهاً حتى يمتاز من البهائم، وقد ذكّره بهذا الثناء فقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣].

وقال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

وقال: ﴿وَجَعَلْ لَّكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

إلى غير ذلك من هذه الأمثلة.

• وأما الواسطة فهي للقسمين رابطة، ويشتمل من الإحسان والإنعام والمنّ على ستّ شعب:

الأولى: هدايته إياه للإسلام.

وهذا أعظم الإحسان والإنعام، وهو المراد بما ذكر في القرآن من الهدى والنور، والشرح للصدور، وغير ذلك من هذا النوع^(١).

الثانية: إحسانه إليه أن جعله من أمة محمد ﷺ، خير الأنبياء وخير الأمم، وعلى هذا نبّه بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ أي: كنتم في الغيب حتى خرجتم إلى الوجود على وفاق العلم.

(١) قال القرطبي هنا: قلت: ومن هذا المعنى ما روي عن وهب بن منبه قال: رؤوس النعم ثلاثة: فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها. والثانية: نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها. والثالثة: نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها.

الثالثة: إحصانه إليه بأن حفظ كتابه العظيم حتى يكون مُعبراً عن كلام ربه بلسانه، وراغباً إليه بجنابه، وهذا من أعظم إحصانه، وقد قال ابن عباس في قوله **وَبِكَ**: ﴿قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وِجْهَهُ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]: إنه القرآن.

الرابعة: عَلمه بعد حفظه من معانيه، ومن شريعة نبيه، ومن حقائق علمه أثرًا ونظراً، وقد قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

الخامسة: ما أحسن به إليه، وأنعم عليه من: العمل بما عَلم، وهذا هو ثمره العلم، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

السادسة: إحصانه إليه وتوفيقه حتى يَنشر ما علم في عباده، ويكون نور بلاده، يُستضاء بسراجها، ويُتقَى واضح منهاجها، وبهذا يستحق أن يُدعى عظيماً في ملكوت السماء، ويكون من أشرف العلماء الوارثين للأنبياء.

● وأما المتَّمة: فهو ما أنعم به عليه، وأحسن إليه، من إظهار عوارف، وإدراج لطائف، شرف بها نوعه، وأكمل بها وصفه، ويشتمل على أربع شعب:

الأولى: ما أنعم به عليه: من كمال الصُّورة، واعتدال الخَلقة، وفصاحة اللسان، وسلامة الهيئة من تشوه، ونقص عضو، ولحوق خلل، حتى يبقى صحيحاً سليماً، ويسلك من طاعة الله طريقاً قويمًا، وتستحسن الأبصار والبصائر صورته، ولا تمج الطباع خلقتها، وهذه نعمة من الله عليه، وهي موهبةٌ وخصوصية.

الثانية: ما أنعم به عليه: من انتظام الحال، واتساع المال، حتى لا يحتاج إلى أحدٍ من الخلق في اكتساب الرزق، ويحتاج إليه غيره فيُعْمهم خيره، وهذه نعمةٌ يجب شكرها، إذ ليس كل أحدٍ يُعطها.

الثالثة: ما أنعم به عليه: من عصبية وعشيرة وأصحابٍ وأتباع، تألفت قلوبهم على محبته واصطفائه، وقاموا جُنَّةً بينه وبين أعداءه، فلم يطرقة من الأعداء طارق، بل عاش في أمنٍ من جميع الخلائق، يُنظر إليه بعين الإجلال والوقار، وتقضى حوائجه في قطره وفي جميع الأقطار، ويشني عليه الحاضر، ويفخر بذكره الأعاصر.

الرابعة: ما يُنعم به عليه: من المرأة الصالحة الموافقة، فتسكن إليها نفسه، ويتم له بها أنسه، ويكثر منها نسله حتى يكون من ذُرِيته في أمة محمد ﷺ عَدَدٌ وافر، وكلهم لله موحدٌ، ولآلِئِه ذاكِرٌ شاكر، فيشتدُّ بهم في الدنيا أزره، ويحبط بهم في الآخرة وزره.

قلت (أي القرطبي): وشعبة خامسة: وهي ما أنعمَ عليه من صحة الجسم، وفراغ البال، قال ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»، خرَّجه البخاري^(١) «(٢)».

٢ - ذكرنا مراراً أن الله تعالى يحب من خلقه التعبد بمعاني أسمائه وصفاته، فهو عليم يحب العلماء، جميل يحب الجمال، محسنٌ يحب الإحسان، ولذا كتب الإحسان على كل شيء حتى في القتل والذبح^(٣).

قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

والإحسان نوعان: إحسانٌ في عبادة الله تعالى وهو: «أن تعبد الله تعالى كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، كما جاء في حديث جبريل ﷺ المشهور.

وإحسان إلى عباد الله تعالى، وذلك بإيصال جميع أنواع الخير لهم، وكليهما قد وعده الله تعالى بالثواب فقال: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

قال ابن القيم رحمه الله في بيان أسباب شرح الصدر: «ومنها: الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرأً، وأطيبهم نفساً، وأنعمهم قلباً، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرأً، وأنكدهم عيشاً، وأعظمهم همماً وغماً».

وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصحيح مثلاً للبخل والمتصدّق، كمثّل رجلين عليهما جُتَّتَانِ من حديد، كلّما همَّ المتصدّق بصدقة اتّسعت عليه وانبسطت حتى يَجُرَّ ثيابه ويُغفي أثره، وكلما همَّ البخل بالصدقة، لَزِمَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مكانها، ولم تتّسع عليه^(٤).

فهذا مَثَلٌ انشراح صدر المؤمن المتصدّق، وانفساح قلبه، ومثّل ضيق صدر البخل وانحصار قلبه^(٥).

٣ - ومن أعظم الإحسان إلى الخلق: تعليمهم ما ينفعهم في دينهم، ويكون سبباً

(١) البخاري في أول «الرقاق» (٢٢٩/١١).

(٢) «الكتاب الأسنى» (٢) ورقة ٤١٤ ب - ٤١٦ أ).

(٣) فأمر الرسول ﷺ بأن تحدّ الشفرة وتُشحذ لثلا تؤذي الذبيحة، وأن لا يكون ذلك أمامها، وأن يريح ذبيحته فلا يربط قوائمها وأن يسوقها سوقاً جميلاً.

(٤) هو معنى حديث أخرجه البخاري في مواضع أولها في «الزكاة» (٣/٣٠٥)، ومسلم في «الزكاة» (٢/٧٠٨، ٧٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) «زاد المعاد» (٢/٢٥، ٢٦).

في نجاتهم في الدنيا والآخرة، من علوم الكتاب والسنة وفقه السلف، وإرشادهم إلى طرق الخيرات والقربات، وتحذيرهم مسالك الشر والهلكات، وهي وظيفة الرسل وأتباع الرسل، وبهذا كانوا أعظم الناس إحساناً إلى الخلق، ولهم عليهم من المنة والفضل ما لا يؤدي شكره.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وبهذا نكون قد انتهينا من شرح أسماء الله الحسنى من الكتاب والسنة ونسأل الله أن ينفعنا به، وجميع المسلمين، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.



الفهارس

* فهرس الأحاديث.

* فهرس الموضوعات.

فهرس الأحاديث

الصفحة	طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث
	اسم الله الأعظم في سور من القرآن		حرف الألف
٤٧	ثلاث	٦٠٠	أتاكم أهل اليمن هم أضعف
٤٨	اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين	٥٩٥	أتدرون ما المفلس؟
٧٦	اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك	٣٦٣	أتدري أي آية في كتاب الله أعظم ٦ ،
٤٦٧	أصلح لي شأني كله ولا تكلني		أترون هذه المرأة طارحة ولدها في
	أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له	٦٧	النار
٤٧٨	الظلمات	٢٠٥	اتقوا الله ولو بشق تمره
	أقرب ما يكون الرب من عبده في	١٦٢	اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي
٥٢٠	جوف الليل ٤١٨ ،	٣٥١	أحب الكلام إلى الله أربع ٥٥ ،
٥٨	اكتب بسم الله الرحمن الرحيم	٦٢١	احفظ عورتك إلا من زوجتك
٩١	ألا أخبركم بالمؤمن، من أمته	٧	أخبروه أن الله يحبه
٥٦١	ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه	٧٦	أخنع اسم عند الله رجل تسمى
٦١٤	ألا أخبركم عن النفر الثلاثة	٢١٣	إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها ...
٦٠٠	ألا إن الإيمان ههنا وإن	٦٤٧	إذا حكمتهم فاعدلوا
٥٥٢	ألا إني أوتيت الكتاب ومثله		إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على
٢٣١	ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ...	١٤٩	النبي
٢٠١	ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راکعاً ...		إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر
٤٦٠	ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام ... ٣٥٤ ،	٥٠٦	لي إن شئت
٤٩٠	اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي	٦٤٤	إذا نصح العبد سيده
٥٧٨	اللهم أحييني مسكيناً	٥١٨	إذا همَّ العبد بحسنة فلم يعملها
٤٤٩	اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي	٥٦٢	أذهب الباس رب الناس
٤٥٠	اللهم أعوذ برضاك من سخطك		اربعوا على أنفسكم فإنكم لا
٥٨٤	اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي .. ٤٤٠ ،	٤١٨	تدعون ١٦١ ،
٤٤٠	اللهم اغفر لي ذنبي كله	٦٨	أرحم أمتي بأمتي أبو بكر
١٠٥	اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني	٦٢١	استحيوا من الله حق الحياء
٤٥٠	اللهم اغفر لي وارحمني وعافني ١٠٥ ،	٣٩	استقيموا ولن تحصوا واعلموا
		٦٣٩	استووا حتى أثني على ربي

طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث	الصفحة
إن الله <small>وَعَلَى</small> محسن ٦٤٧		اللهم اغفر ما قدمت وما أخرت ٥٨٤	
إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء ... ٣٨٣، ٣٨٤		اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ٣٧٩، ٥١٥	
إن الله خلق آدم من قبضة ٦٣٦		اللهم أنت السلام ومنك السلام ٤٦١	
إن الله خلق خلقه في ظلمة ٤٨١		اللهم أنت عضدي ونصيري ٥٢٩	
إن الله كتب الحسنات والسيئات ٢٧٠		اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ٤٤٠	
إن الله كتب مقادير الخلائق ٤٦		اللهم إني أسألك أني أشهد أنك ٤٦	
إن الله لا ينالم ولا ينبغي ٢٣٠، ٣٥٨، ٤٨٢		اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ٤٦	
إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى		اللهم إني أسألك العافية في الدنيا ٢٤٥، ٦٢٦	
صوركم ١٤١		اللهم إني أسألك الهدى والتقى ٤٩٥	
إن الله لا ينظر إلى صوركم ٥٧٨		اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ... ٢٢٠	
إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ٥٢٨		اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع .. ١٥٩	
إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل ٣٥٢		اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كبيراً ٤٣٤	
إن الله هو الحكم وإليه الحكم ١٧٩		اللهم إني عبدك وابن عبدك ٣٦	
إن الله هو الخالق القابض الباسط ٦٢٨، ٦٣٣		اللهم اهدني فيمن هديت ٤٩٦	
إن الله هو السلام ولكن قولوا ٨٧		اللهم اهدني وسددي ٤٩٥	
إن الله يبسط يده بالليل ٦٣٨، ٦٢٨		اللهم باعد بيني وبين خطاياي ٤٤٠	
إن الله يحاسب عبده يوم القيامة		اللهم خلقت نفسي وأنت توفاها ٤٤٩	
فيعرض ٤٤١		اللهم رب جبرائيل وميكائيل	
إن الله يدني المؤمن ٦١٦		وإسرافيل ٥٢٤، ٤٩٥	
إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ٣٠٢		اللهم رب السموات ورب الأرض	
إن الله يصنع كل صانع وصنعه ١٢٠		ورب العرش ٤٠٢	
أن تعبد الله كأنك تراه ١٦٦		اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات ... ٣٥١	
إن الذين يصنعون هذه الصور ١٢١		اللهم سبع كسع يوسف ٢٢٠	
إن ربكم تبارك وتعالى حيي كريم ٢٦٨، ٦١٤		اللهم لا خير إلا خيرك ولا إله غيرك .. ٢٦٩	
إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ... ٥٥٨		اللهم لك أسلمت وبك آمنت ٣٥٩	
إن الصدق يهدي إلى البر ٤٢٨		اللهم لك الحمد أنت قيم السموات	
إن فيك لخصلتين يحبهما الله ... ١٩٢، ٥٥٨		والأرض ٣٥١، ٣١٨	
إن المقسطين على منابر من نور ٦٣٨		اللهم لك الحمد أنت قيم السموات ... ٥٨٤	
إن مما أدرك الناس من كلام النبوة ... ٦٢٢		إن أشد الناس عذاباً عند الله ١٢١	
إن من آمن الناس علي في ماله ٦٠٣		إن الله <small>وَعَلَى</small> حيي ستير ٦٢٣، ٦١٣	
		إن الله <small>وَعَلَى</small> لم ينزل داء إلا ٥٦٤	

حرف التاء	
تحتاج الجنة والنار فقالت	١٠٥
التحيات لله والصلوات	٥٦٨
تصدق رجل من ديناره من	٢٠٦
تفكروا في آلاء الله ولا	١٠٨
تقدموا فأتموا بي	٥٨٩
تكون الأرض يوم القيامة خبزة	١٠٥
حرف الشاء	
ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة	٢٧٧
ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة	٦٠٣
ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد	٥٩٠
حرف الجيم	
جاء خبر إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد	
إن الله يمسك	٧٧
حرف الخاء	
خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين	٥٧٥
خذ من شاربك ثم أقرره	٦٣٦
خلق الله أربعة بيده: العرش	١١٣
حرف الدال	
دعا الله باسمه الأعظم	٤٧
دعه فإن الحياء من الإيمان	٦٢٢ ، ٦١٩
حرف الذال	
ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً	٢٨٧ ، ٢٧٧
حرف الراء	
رأيت بضعة وثلاثين ملكاً	٣٥١
رب اغفر وتب علي	٤٣٩

إن الناس يوم القيامة يطلبون الشفاعة	
من آدم	٤٤٢
إن النبي ﷺ اتخذ خاتماً من فضة	٢٣
إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين	٢٨٢
إن لله آنية من أهل الأرض	٤٨٥
إن لله مائة رحمة أنزل رحمة	٦٧
إن لله ملائكة يطوفون في الطرق	٣٠١
أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها ..	٦٢
إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب	٣٧٣
إنك لتصل الرحم وتحمل الكل	٥٧٥
إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً	٤١٤
إنما يرحم الله من عباده الرحماء	٦٨
إنه ليس من الناس أحدٌ آمن	٦٠٣
إنه ليغان على قلبي وإني	٤٤٢
إني رسول الله ولست أعصيه وهو	
ناصري	٥٣٠
إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً	٢٦٩
إني لست كهيتكم	٢٥١
أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط	٦٠٠
أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن	٣٨٣
الإيمان بضع وستون شعبة	٦١٩
أين الله؟	٢٣٠
أيها الناس اربعوا على أنفسكم (انظر:	
اربعوا على)	٤١٨
أيها الناس أفشوا السلام	٨٧
أيها الناس ما أحب أن ترفعوني	٤٦٨
حرف الباء	
باسمك ربي وضعت جنبي	٢٣
البر حسن الخلق	٤٢٨
بل للناس كافة	٦٢٦

طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث	الصفحة
قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ٣٧٣		حرف السين	
قال الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ٢٩٤		سأل موسى ربه ما أدنى أهل الجنة ٢٦٧	
قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ١٢٢		سبحان ذي الجبروت والملكوت ١٠٥ ، ٣٩٣	
قال الله تعالى: يا ابن آدم اركع لي من أول النهار ٢٤٣		سبحان ربي الأعلى ٥١٨	
قال الله تعالى: يا ابن آدم أنى تعجزني وقد ٤٦٧		سبحان الملك القدوس ٨٣	
قال جبريل للنبي ﷺ: إن الله يقرئ خديجة ٨٨		سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ٤٣٩	
حرف الكاف		سبح قدوس رب الملائكة ٨٣ ، ٥٥٩	
كان الله ولم يكن شيء غيره ٤٠٢		سددوا وقاربوا وأبشروا ٢٠٧	
كان ربعة من القوم ٥٧٥		سمع الله لمن حمده ١٥٩ ، ٣٥١	
كان رجل ممن كان يسئ الظن بعمله ...		سيد الاستغفار أن يقول: اللهم أنت ربي ٢٠٨	
كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً ٥٧٥		السيد الله تبارك وتعالى ٦٤١	
كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً ٥٧٥		السيد الله ٣٨١	
كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء ٦١٩		حرف الصاد	
كان رسول الله ﷺ يدعو: يا حي ٣٦٤		صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً ٣٩٩	
كان من دعاء النبي ﷺ: أي حي أي قيوم ٣٦٤		حرف الطاء	
كان النبي ﷺ مربوعاً ٥٧٥		الطهور شطر الإيمان ٣٥١	
كان يدخل الصلاة وهو يريد أن يطول ٤٥٦		حرف العين	
كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق ١٥٤		العظمة إزاري والكبرياء ردائي ٣٩٣	
كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت ... ٢٤٨		حرف الفاء	
كل أمتي معافى إلا المجاهرين ٦١٧ ، ٦٢٤		فلما ركبا في السفينة جاء عصفور ١٥٦	
كل بني آدم خطاء ٤٤٢		في الرفيق الأعلى ٥٥٥	
كل مولود يولد على الفطرة ٢٩٦		فيمر أولكم كالبرق ٥٨٩	
كلمتان خفيفتان على اللسان ٥٤		حرف القاف	
		قال الله ﷻ: إني لأستحي من عبدي ٦١٦	
		قال الله تعالى: أنا مع عبدي ما ذكرني ٢٣	
		قال الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء ٢٩٦	
		قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ٣٠٠	

لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ٥٧٦
 لما خلق الله الخلق كتب في كتابه ٦٦
 لن ينجي أحداً منكم عمله ٤٣٩
 لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح ١٤١
 لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ٦٦
 لو يعلم الناس ما في النداء ٥٨٩
 ليس أحد - أو ليس شيء - أصبر على
 أذى ١٩٤

حرف الميم

ما أحد أصبر على أذى سمعه
 من الله ٢١٧ ، ١٤٠
 ما أنزل الله داء ٥٦٤
 ما أنزل الله من السماء من بركة إلا
 أصبح ٢١٨
 ما أنعم الله على عبد نعمة فقال:
 الحمد لله ٣٥٢
 ما تقرب العباد إلى الله بشيء أفضل ... ٣٨١
 ما خَيْرٌ ﷺ بين أمرين إلا اختار ٤٥٦
 ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل ... ١٤٢
 ما نقصت صدقة من مال ٩٩
 ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به ٣٦٤
 المسلم أخو المسلم ٦٢٦
 المسلم من سلم المسلمون من لسانه .. ٩١
 من أبلى بلاء فذكره، فقد شكره ٢٠٩
 من تصدق بعدل تمرة ٥٦٧ ، ٢٠٦
 من تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً .. ٥١٢
 من حالت شفاعته دون حد ٤٧٩
 من زعم أنه ﷺ يخبر بما يكون في
 غد ١٥٧
 من شأنه أن يغفر ذنباً ٧٤

الكمة من المن ٦١٢ ، ٦٠١
 حرف اللام ألف
 لا إله إلا الله وحده أعز جنده ٥٣٠
 لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له
 الملك ١٣٩
 لا تحقرن من المعروف شيئاً ٢٠٥
 لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ٨٧
 لا تسبوا الدهر ٧٥
 لا تطروني كما أطرت النصارى
 المسيح ٤٦٨
 لا تقبل صلاة بغير طهور ٥٦٧
 لا تقولوا للمنافق: سيداً ٦٤٥
 لا حسد إلا في اثنتين رجل ١٧٨
 لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة ٢٠٧
 لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال
 ذرة ٥٧١ ، ٥١٩ ، ١٠٩
 لا يدخل الجنة مئان ٦٠٣
 لا يزال الرجل يذهب بنفسه ٥٧٧
 لا يزال قوم يتأخرون عن الصف ٥٨٩
 لا يستر الله على عبد في الدنيا ٦٢٥
 لا يشكر الله من لا يشكر الناس ٢١٤
 لا يصلين أحدكم بحضرة طعام ٢٩٧
 لا يقل أحدكم: أطعم ربك ٦٤٤ ، ٢٨٩
 لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر إن شئت ٦٩
 لأعلمنك سورة هي أعظم السور

حرف اللام

لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة ٢٠٦
 لكل داء دواء ٥٦٤
 لله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل ٤٤٥
 لله أقدر عليك منك على هذا ٣٩٨
 لله تسعة وتسعون اسماً مائة ٣٦ ، ٥٤٩ ، ٥٧٩

الصفحة	طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث
٥١٨	وأما السجود فأكثرُوا فيه الدعاء	٢٠٩	من صُنِعَ إليه معروف فليجز به
٦٨	وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة ..	٥١٩	من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا
٩١	والله لا يؤمن والله لا يؤمن		من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا
	وجهت وجهي للذي فطر السموات	٣٦٥	هو
٥٢٤	والأرض		من قال: سبحان الله وبحمده في يوم
٦٢٦	ومن ستر مسلماً	٥٤	مائة
	حرف الياء		من قال: لا إله إلا الله وحده لا
	يا أبا المنذر أتدري أي آية من		شريك له
٦	كتاب الله	٣٧٤	من لا يرحم الناس لا يرحمه الله
٥٨١، ٥٨٠	يا أهل القرآن أوتروا	٢١١	من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير
٥٦٦	يا أيها الناس إن الله طيب	٥٥٨	من يحرم الرفق يحرم الخير
	يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله	٢٤٤	من يضمن لي ما بين لحييه ورجليه
٣٠٦	حفاة	٥٥٨	مهلاً يا عائشة!
٤٣٨	يا أيها الناس توبوا إلى الله		حرف النون
٥٥٥	يا عائشة إن الله رفيق	٦٨	نبي الرحمة
	يا عبادي لو أن أولكم وآخركم	٦١٤	نعم، إذا رأيت الماء
١٤٠	وإنسكم	٢٧٠	نعم، ولك أجر
	يا عبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة		حرف الهاء
٣٣٨	هي	٢١٨	هل تدرون ماذا قال ربكم؟
٢٤١	يا غلام إني معلمك كلمات احفظ		حرف الواو
	يا محمد أو يا أبا القاسم إن الله		وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة
٦٣٥	يمسك	٩٥	البقرة
٢٤٢	يا معاذ بن جبل، هل تدري ما حق الله ..	٤٧٠	واعلم أن الخلق كلهم لو اجتمعوا على
٥٣٥	يا معاذ، والله إني لأحبك فلا تنس		والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث
٦٠٥	يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً ..	٧	القرآن
٦٢٦	يا معشر من آمن بلسانه	٦٣٨	والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة
٤٦٧	يا مقلب القلوب ثبت قلبي		والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة
٣٩٢	ياخذ الجبار تبارك وتعالى سمواته	٦	ولا
٥٣٩، ٢٣٠	يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل		والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو
٥٩٥	يحسب ما خانوك وعصوك	٢٣٠	امراته
٥٩٢	يحشر الناس يوم القيامة عراة		

طرف الحديث	الصفحة	طرف الحديث	الصفحة
يُخرج عنق من النار يوم القيامة ١٠٤		يقبض الله الأرض يوم القيامة ٧٨ ، ٣٩٢ ، ٦٣٨	
يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك ٣١٠		يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل ١٣٩	
يطوي الله ﷻ السموات يوم		يقول العبد: مالي مالي، إنما له ٥٠٦	
القيامة ٦٣٥ ، ٣٩٢ ، ٧٨			
يقبض الله الأرض ويطوي			
السموات ٥٠٩ ، ٣٩٢			

فهرس المواضيع

الموضوع	الصفحة
* مقدمة.....	٥
المصنفات في الأسماء الحسنى.....	١٠
منهج الكتاب.....	١١
مذهب أهل السنة والجماعة في الأسماء.....	١٥
مسألة الاسم عين المسمى أو غيره.....	١٩
بيان المسألة.....	٢٢
شناعة قول الجهمية في هذه المسألة.....	٢٤
ولله الأسماء الحسنى.....	٢٦
براءة أهل السنة من الإلحاد في أسمائه.....	٣٠
تنبيهات وفوائد جلية.....	٣٠
حديث لله تسعة وتسعون اسماً.....	٣٦
ضعف الطرق التي فيها سرد الأسماء.....	٤١
* الاسم الأعظم للرب تبارك وتعالى:	٤٦
مسألة: هل اسم (الله) مشتق أو هو اسم جامد؟.....	٥٢
أصل كلمة (الله) في اللغة.....	٥٣
لا يشرع ذكر الله باسم الجلالة (الله مفرداً).....	٥٤
* الرحمن - الرحيم:	٥٧
الرد على من قال: إن رحمة الله مجاز.....	٦٠
ظهور آثار رحمة الله سبحانه على الخلق بجلاء.....	٦٤
الله سبحانه أرحم بعباده من الأم بولدها.....	٦٧
* الملك - المالك - المليك:	٧١
أيهما أبلغ الملك أو المالك؟.....	٧٣
عدم جواز التسمية بملك الملوك.....	٧٦
* القدوس:	٨٠
ليس معنى التنزيه هو نفي الصفات.....	٨٢
* السلام:	٨٤

لا يقال: السلام على الله	٨٧
* المؤمن:	٨٩
تصديق الله تعالى لرسله بإظهار الآيات على أيديهم	٩٠
* المهيمن:	٩٢
* العزيز:	٩٦
العزيز في الدنيا والآخرة من أعزه الله	٩٩
* الجبار:	١٠١
الجبروت لله وحده	١٠٤
* المتكبر - الكبير:	١٠٦
الله أكبر من أن يعرف كنه ذاته وصفاته	١٠٨
الكبرياء لله وحده	١٠٨
* الخالق - الخلاق:	١١٢
* البارئ:	١١٥
* المصور:	١١٨
آثار الإيمان بهذه الأسماء	١١٩
تحريم الصور	١٢١
* الغفور - الغفار - الغافر:	١٢٤
وصف الله نفسه بالمغفرة لا يعني الإسراف في المعاصي	١٢٦
* القاهر - القهار:	١٢٨
القهار الحقيقي هو الله وحده	١٢٨
(القهر) صفة تدل على العلو	١٢٨
* الوهاب:	١٣٢
خزائن كل شيء بيد الله	١٣٢
الفرق بين هبة الخالق والمخلوق	١٣٣
* الرزاق - الرازق:	١٣٦
المتفرد بالرزق هو الله	١٣٨
كثرة الرزق في الدنيا لا تدل على محبة الله	١٤١
تقوى الله سبب عظيم للرزق	١٤٢
* الفتاح:	١٤٤
الفتح والنصر من الله سبحانه	١٤٨

١٥٠	* العليم - العالم - العالَم :
١٥٢	العلم الشامل بالجزئيات والكمالات
١٥٤	الرد على من خالف في ذلك
١٥٥	الفرق بين علم الخالق والمخلوق
١٥٧	الغيب لله وحده
١٥٨	* السميع :
١٦١	سمع الله محيط بكل شيء
١٦٤	* البصير :
١٦٦	من علم أن الله يراه استحي أن يراه على معصية
١٦٨	* الحكم - الحاكم - الحكيم :
١٦٩	أيهما أبلغ : الحكم أم الحاكم ؟
١٧١	الحكم والتشريع لله وحده
١٧٢	صفات من يستحق الحكم
١٧٥	القرآن حكيم
١٧٨	خلق الله محكم لا قصور فيه
١٧٩	كراهة التكني بأبي الحكم
١٨١	* اللطيف :
١٨١	من لطف الله بالإنسان
١٨٦	* الخبير :
١٨٨	لا أحد أعلم بالله من الله
١٩١	* الحليم :
١٩٢	الحلم يتضمن الأناة
١٩٤	من حلم الله تعالى رزقه للعاصي
١٩٧	* العظيم :
١٩٩	الفرق بين عظمة الخالق والمخلوق
٢٠٢	* الشكور - الشاكر :
٢٠٢	الفرق بين الشكر والحمد
٢٠٧	شكر الله واجب
٢١٠	أركان الشكر
٢١٣	شكر الجوارح استعمالها في طاعة الله

٢١٥	تعداد بعض النعم التي على الإنسان
٢١٧	الفرق بين إنعام الخالق وإنعام المخلوق
٢١٩	الكفر بنعم الله مؤذن بزوالها
٢٢١	كلام جامع لابن القيم في الشكر
٢٢٤	* العليّ - الأعلى - المتعال :
٢٢٧	إثبات هذه الأسماء لعلو الله تعالى
٢٢٨	أدلة علو الله تعالى :
٢٢٨	أولاً : الآيات
٢٣٠	ثانياً : الأحاديث
٢٣١	ثالثاً : أقوال السلف
٢٣٤	النزاع في هذه المسألة حرام
٢٣٦	* الحفيظ - الحافظ :
٢٣٩	المحفوظ من حفظه الله تعالى
٢٤١	احفظ الله يحفظك
٢٤٢	من أعظم ما أمر الله بحفظه من الأوامر : الصلاة
٢٤٧	* المقيت :
٢٤٩	أقوال العلماء في معناه
٢٥٢	* الحاسب - الحسيب :
٢٥٣	الله وحده حسب كل أحد وكافيه
٢٦١	* الكريم - الأكرم :
٢٦٣	حكاية ابن العربي للأقوال التي قيلت في معنى الكريم
٢٦٤	تفصيل هذه الأقوال
٢٧٠	من كرم الله كتابة الحسنات لمن لم يبلغ دون السيئات
٢٧٣	* الرقيب :
٢٧٥	نموذج لمراقبة العبد لنفسه
٢٧٦	المراقبة تثمر السعادة وانشراح الصدر
٢٧٨	* الواسع :
٢٨٠	وسع علمه وحكمته كل شيء
٢٨٤	* الرب :
٢٨٧	ارتباط الخلق والأمر بالأسماء الثلاثة : الله - الرب - الرحمن

٢٨٩	معنى (الرباني)
٢٩١	* الودود:
٢٩٢	تأويل بعض العلماء لصفة المحبة
٢٩٤	المستحق أن يحب لذاته هو الله سبحانه
٢٩٤	حب الله ورسوله يقوى بالعلم الشرعي
٢٩٨	* المجيد:
٢٩٩	القرآن مليء بتمجيد الله لنفسه
٣٠١	من مجد القرآن وعظمته
٣٠٣	* الشهيد:
٣٠٤	الله سبحانه أعظم شيء شهادة
٣٠٦	شهادة الله لنفسه بأنه واحد
٣١٣	الجزء الثاني
٣١٤	* مقدمة الجزء الثاني
٣١٥	* الحق:
٣١٨	الله تعالى أحق باسم الحق من كل حق
٣١٩	الله تعالى هو الإله الحق وما سواه باطل
٣٢٢	* المبين:
٣٢٣	الله تعالى لا يخفى على خلقه
٣٢٤	تسمية الرسول ﷺ والقرآن بهذا الاسم
٣٢٦	* الوكيل - الكفيل:
٣٢٩	الله ﷻ متكفل بأمر الخلائق أجمعين
٣٣٠	الفرق بين وكالة الخالق والمخلوق
٣٣١	التوكل من صفات المؤمنين
٣٣٤	* القوي - المتين:
٣٣٧	القوة لله جميعاً
٣٣٨	لا قوة للعبد على الطاعة إلا بالله
٣٤٠	* الولي - المولى:
٣٤٣	الله ولي الذين آمنوا ونصيرهم
٣٤٤	هل يصح أن يقال: الله ولي الكافرين ومولاهم
٣٤٨	* الحميد:

٣٥٠	الله تعالى وحده هو المستحق للحمد على الإطلاق
٣٥٢	اقتران هذا الاسم ببعض الأسماء الحسنی
٣٥٤	كل ما يحمد به العباد يرجع إلى رب العباد
٣٥٦	* الحي:
٣٥٨	الحياة من صفات الرب تعالى
٣٥٨	الحي هو واهب الحياة الأبدية لأهل الجنة
٣٦٠	* القيوم:
٣٦٢	قيام الله تعالى بذاته وليس ذلك لأحد سواه
٣٦٣	اقتران هذا الاسم بالحي
٣٦٧	* الواحد - الأحد:
٣٧١	الله تعالى واحد في ذاته وصفاته وأفعاله
٣٧٣	العبادة إنما تصرف للواحد الأحد
٣٧٥	* الصمد:
٣٧٥	سرد أقوال السلف في معنى «الصمد»
٣٧٨	شرح الأقوال
٣٨٣	السورة التي ورد فيها الاسم تعدل ثلث القرآن
٣٨٥	* القادر - القدير - المقتدر:
٣٨٩	اتفاق أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير
٣٩٤	معنى قدرة الله تعالى
٣٩٦	اختلاف الناس في تفسير: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
٣٩٦	كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك
٣٩٨	للعبد قدرة تليق به
٤٠٠	* الأول:
٤٠٢	تفسير الرسول ﷺ لهذا الاسم والأسماء الثلاثة التي تليه
٤٠٤	* الآخر:
٤٠٥	* الظاهر:
٤٠٧	دلالة هذا الاسم على علو الله تعالى
٤١٠	مع ثبوت نزوله تعالى فهو الظاهر فلا يعلوه شيء أبداً
٤١٢	* الباطن:
٤١٥	كلام دقيق نفيس لابن القيم على هذه الأسماء الأربعة

- أكثر الخلق تعبّدوا الله باسمه الأول ولم يتعبّدوا له باسمه الآخر ٤١٦
- قرب الله تعالى خاص للسائلين والمؤمنين ٤١٨
- مدار هذه الأسماء على الإحاطة وهي زمانية ومكانية ٤٢٠
- احتواء هذه الأسماء الأربعة على جماع المعرفة بالله تعالى والعبودية له ٤٢١
- * البرّ:** ٤٢٤
- من بره سبحانه بعباده إمهاله للمسيء ٤٢٦
- الله تعالى برّ يحب البر ويأمر به ٤٢٧
- * التّوّاب:** ٤٣٠
- سمى الله نفسه تواباً لكثرة من يتوب عليه ٤٣٣
- الله تعالى هو المتفرد بقبول التوبة ٤٣٣
- اقتران (التّوّاب) بـ(الحكيم) ٤٣٥
- لا يستغني عن التوبة أحد حتى الأنبياء ٤٣٩
- كمال توبة النبي ﷺ ٤٤٢
- حال الخلق مع ربهم... كلمات لابن القيم ٤٤٣
- * العفو:** ٤٤٦
- لولا كمال عفوه وسعة حلمه ما ترك على ظهر الأرض من دابة ٤٤٨
- الفرق بين (العفو) و(المغفرة) ٤٥٠
- * الرّؤوف:** ٤٥٢
- الفرق بين (الرأفة) و(الرحمة) ٤٥٣
- مظاهر رأفة الله تعالى بعباده ٤٥٤
- * ذو الجلال والإكرام:** ٤٥٧
- الجلال المطلق لله وحده ٤٥٩
- الحث على دعاء الله بهذين الاسمين ٤٦٠
- * الغني:** ٤٦٢
- الغني بذاته هو الله وحده ٤٦٤
- فقر العباد إلى ربهم فقران ٤٦٦
- الفرق بين إحسان الخالق والمخلوق ٤٦٩
- * النور:** ٤٧٢
- أقوال العلماء في معناه ٤٧٢
- النور من صفات الله ﷻ ٤٧٦

- ٤٨١ اعتراض المعارض أن يكون الرب نوراً
- ٤٨٤ القول في تفسير: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]
- ٤٨٩ تسمية الله تعالى لرسوله بالنور
- ٤٩١ * الهادي:
- ٤٩٤ الله ﷻ يهدي من يشاء ويضل من يشاء
- ٤٩٥ الهداية أكبر النعم
- ٤٩٨ * البديع:
- ٥٠٠ الله تعالى البديع الذي ليس كمثل شيء
- ٥٠١ إيجاد الله تعالى الأشياء على غير مثال سابق
- ٥٠١ الفرق بين (الإبداع) (والخلق)
- ٥٠٣ * الوارث:
- ٥٠٤ الله سبحانه الباقي بعد فناء خلقه الوارث لهم
- ٥٠٥ حثه سبحانه عباده على النفقة في سبيله قبل موتهم
- ٥٠٧ * المحيط:
- ٥٠٩ إحاطة الله تعالى بخلقه فلا ملجأ منه إلا إليه
- ٥١٠ * القريب:
- ٥١٢ قرب الله ﷻ من الداعي والمتقرب إليه
- ٥١٢ كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك
- ٥١٤ قرب الله ﷻ لا ينافي استواءه على عرشه
- ٥١٩ كلما كَمَّلَ العبد مراتب العبودية كان أقرب إلى الله تعالى
- ٥١٩ شرح حديث: «من تقرب إلي شبراً»
- ٥٢٢ * الفاطر:
- ٥٢٤ الفاطر هو المبتدئ لخلق السموات والأرض
- ٥٢٤ دعاء النبي ﷺ ربه بهذا الاسم
- ٥٢٥ * الناصر - النصير:
- ٥٢٦ الربُّ جل شأنه مصدر النصر الحقيقي
- ٥٢٧ معنى نصرته العبد لربه
- ٥٢٨ لا ناصر للعباد دون الله، فلا بد من الالتجاء إليه
- ٥٢٩ تمجيد الرسول ﷺ لربه بهذا الاسم
- ٥٣١ * المستعان:

الله ﷻ يعين ولا يستعين	٥٣٢
كلام لابن القيم في (الاستعانة)	٥٣٣
أقسام الناس في العبادة والاستعانة	٥٣٣
معنى التوكل والاستعانة	٥٣٧
* ذو المعارج:	٥٣٨
عروج الأعمال والأقوال الصالحة والملائكة وأرواح العباد إليه	٥٣٩
دلالة هذا الاسم على علو الرب	٥٣٩
* ذو الطول:	٥٤٠
أقوال العلماء في معناه	٥٤٠
* ذو الفضل:	٥٤٢
آثار الإيمان بهذين الاسمين	٥٤٣
مظاهر فضل الله تعالى على عباده	٥٤٣
* الغالب:	٥٤٥
غلبة الله تعالى وقهره أبداً	٥٤٦
* الكافي:	٥٤٧
أقوال العلماء في معناه	٥٤٧
كفاية الله لعباده كل شأن من شؤونهم	٥٤٨
الجزء الثالث	
* مقدمة الجزء الثالث	٥٥٢
* «الرفيق»	٥٥٥
الصحيح ثبوت تسمية الله تعالى بما ثبت بخبر الواحد	٥٥٧
محبة الله تعالى للرفق وأهله	٥٥٨
* «السُّبُوح»	٥٥٩
ثبوت تسبيح المخلوقات جميعاً	٥٦٠
* «الشَّافِي»	٥٦٢
لا شافي على الحقيقة إلا الله تعالى	٥٦٣
ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء	٥٦٤
* «الطَّيِّب»	٥٦٦
لا يقبل الله تعالى إلا الطيب من القول والعمل	٥٦٧
الجنة دار الطيبين والنار دار الخبيثين	٥٦٩

٥٧١	* «الجميل»
٥٧٢	ثبوت جماله تعالى بالذات والأوصاف والأسماء والأفعال
٥٧٣	الرد على من أنكر ذلك
٥٧٣	الله تعالى مُجْمَل من شاء من خَلَقه
٥٧٥	أَعْطَى نبينا ﷺ من الجمال حظاً وافراً
٥٧٧	الله تعالى يحب التجميل في غير إسراف ولا مخيلة
٥٧٩	* «الوتر»
٥٨٠	الله تعالى واحد لا شريك له ولا نظير
٥٨٠	محبة الله تعالى للوتر وأمره به في كثير من العبادات
٥٨٣	* «المُقدم - المؤخر»
٥٨٧	لا يجوز إفراد أحدهما عن الآخر
٥٨٦	نفي الأشاعرة لصفات الأفعال وتعطيلهم لها
٥٨٧	الله تعالى المقدم والمؤخر لمن شاء من خَلَقه في الخلق والرتبة
٥٨٨	التسابق إلى الطاعات سبب لتقديم الله تعالى للعبد في الجنات
٥٩١	* «الدَّيَّان»
٥٩٢	رحلة الصحابي جابر بن عبد الله لسماع حديث الرسول ﷺ
٥٩٤	الله تعالى المجازي للعباد بأعمالهم
٥٩٥	ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه قبل أن يُحاسب
٥٩٧	* «الحَنَّان»
٥٩٩	الله تعالى موصوف بالرحمة والحنان
٦٠٠	يجب على المسلم التخلق بصفات الرحمة والعطف والحنان
٦٠١	* «المَنَّان»
٦٠٤	الله تعالى هو المنان على عباده بأنواع الإحسان
٦٠٦	حرمة المنّ بين العباد واختصاص الله به والفرق بينهما
٦٠٧	المن ولو تأخر بعد الإنفاق ضرر بصاحبه
٦٠٨	ردُّ السائل بالقول المعروف والعفو عنه خير من إعطائه ثم إيدائه بالمن
٦٠٩	المنُّ والأذى مما يحبط الصدقات
٦١١	مثل الذي ينفق في سبيل الله ولا يمن ولا يؤذي
٦١٢	الكمأة من المنّ الإلهي
٦١٣	* «الحيي»

٦١٤	ثبوت اتصاف الله تعالى بصفة الحياء في الحديث الصحيح
٦١٥	إثبات هذه الصفة من غير تمثيل ولا تعطيل
٦١٧	خطأ تأويلها بالترك والكراهة وذكر من قال بذلك
٦١٩	محبة الله تعالى لمن اتصف بهذه الصفة
٦١٩	الحياء من الغرائز فكيف جعل من شعبة من الإيمان؟
٦٢٠	أعظم الحياء: الحياء من الخالق
٦٢٣	* «السَّتِير»
٦٢٤	محبة الله تعالى للسَّتر والصون
٦٢٤	ينبغي للمؤمن أن يستر على نفسه
٦٢٦	من ستره الله في الدنيا ستره في الآخرة
٦٢٧	* «القابض - الباسط»
٦٣١	اقتران الاسمين
٦٣٢	تناول القبض والبسط لأمر كثيرة
٦٣٤	التحذير من استعمال ما بسط الله من الرزق في معصيته
٦٣٤	من بسط الله عليه في رزق فليفضل على عباد الله
٦٣٥	إثبات القبض والبسط لله تعالى مما يؤكد ثبوت صفة «اليد» الحقيقية لله سبحانه
٦٤٠	* «السَّيِّد»
٦٤٢	الله تعالى هو السيد الذي قد كمل في سؤدده
٦٤٢	يجوز إطلاقه على الخلق
٦٤٣	وجه كراهة النبي ﷺ له
٦٤٦	* «المُحْسَن»
٦٤٧	ثبوته في الحديث الشريف
٦٤٨	الله تعالى قد غمر الخلق جميعاً بإحسانه
٦٤٩	الإحسان وأنواعه على الخلق
٦٥١	الله تعالى محسن يحب المحسنين
٦٥١	الإحسان نوعان
٦٥١	من أعظم الإحسان إلى الخلق تعليمهم علوم الشرع
٦٥٥	فهرس الأحاديث
٦٦٥	فهرس الموضوعات